عالم الأديان

بين

الأسطورة والحقيقة

فوزي محمد حميد



عالم الأديان

بين الأسطورة والحقيقة

تأليف

فوزي محمد حميد

عــالمُ الأديــان

كتابٌ حافلٌ بالدراسات الدينية لمختلف الشعوب، منذ العبادة الطوطمية في فجر البشرية إلى الديانة الإسلامية خاتمة الأديان ...

كتابٌ شيّقٌ، فيه متعةٌ وطرافةٌ، تجد بين دفتيه معلومات فريدة عن خلق الكون، وخلق البشر، وعن ديانات الشعوب الحضارية الأولى في بلاد الرافدين وسورية ووادي النيل وعند الهنود وأهل الصين وعند اليونان والرومان والفرس، وعند الشعوب البدائية من زنوج ومغول ... ويبحث في نماذج من طقوس العبادة عند أكلة لحوم البشر، وكيف يأكلون لحومَ الإنسان ...

كتابٌ يبحثُ في دياناتِ السَّماءِ ... ويُبيّن العقائدَ والعباداتِ فيها، ويبحثُ في الكتبِ المقدسةِ، المُنزَلةِ وغيرِ المُنزَلةِ، بدراسةٍ موثّقةٍ أمينةٍ ...

كتابٌ فيه معلوماتٍ وافيةٍ عن الأنبياءِ والرسلِ والحكماءِ وأصحابِ الأديانِ ...

الناشر
دار حطين

تصميم الغلاف: نزار فوزي حمّيد

دمشق - ١٩٩٣

عدد النسخ /٢٠٠٠/

الناشر:

دار حطين للدراسات والترجمة والنشر ..

دمشق - شارع بغداد - قزازين - هـ ٤٥٤٢٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى
وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ

نوجّه الشكر والإمتنان إلى

"دار حطين" للدراسات والترجمة والنشر ..

التي ساهمت في نشر هذا الكتاب وعملت جاهدة

على إيصاله إلى القرّاء الكرام ...

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

لكل جماعة بشرية أياً كانت درجتها الفكرية، وأوضاعها الحضارية، عقيدة تنتهجها، أو مبدأ تسلكه، أو دين تلتزم به وتخلص له، ولهذا بدأ بنو البشر على اختلاف مِلَلهم وَنِحَلِهم يبحثون عن آلهة تحميهم وتقيهم شر المخاطر، وتجلب لهم المنافع، وتدفع عنهم الوَيْلات، يلجأون إليها عند الشدائد والمحن، يكرمونها فتكرمهم، يقدّمون لها القرابين والضحايا فتقدّم لهم الخير، وتفيض عليهم البركات، فالمنفعة متبادلة بين الآلهة وعبادها، ولذلك تعدّدت بتعدُّد الأهداف والغايات المرجوة منها، وارتبطت بدرجة التطور الفكري والرقي الحضاري عند الأجيال البشرية المتتابعة.. فقد سادت حضارات زاهرة، ثمّ اندثرت وبادت، كان لها تُراثُها وحكاياتها وأقاصيصها المقبولة في أفكارها، المنطقية في أحداثها حينذاك ثم تحولت مع الزمن إلى أساطير تنظر إليها الأجيال المتعاقبة بالاستخفاف تارة، وبالخيالات المشحونة بالخوف من المجهول تارة ثانية، وبالرغبة في ادّعاء المعرفة بأسرار الكون وخفايا الأمور والاطلاع على الغيب تارة ثالثة.. حتى صارت هذه الأساطير تُعدُّ رسالة الأجداد للحفداء بكل ما تحتويه من أفكار أو وصايا أو حكايات، تناقلتها الأجيال لتبقى شاهداً حيّاً يرويها الخلف عن السلف مشكّلة جزءاً من تراث شعوبها وحضارتهم، وأصبح لكل شعب أو أمة أو ملّةٍ تُراثُها الخاص وحكاياتها وأمثالها وأقاصيصها وأساطيرها الشعبية الخاصة، تفسرها من خلال رُؤىً معينة، ومفاهيم وأفكار ذاتية.

هذه الأساطير وإن اختلفت في بعض أفكارها، إلا أنها متقاربة في جوهرها، فهي تحكي قصصاً ذات أحداث خيالية غريبة غير معقولة أحياناً ولا منطقية، يقوم بها أبطال ذوو قوّةٍ خارقة تفوق قدرة البشر وتحكي أحياناً أحداثاً بسيطة وأفكاراً ساذجة تثير السخرية والاستخفاف وهي في أغلب أفكارها ذات صبغة روحانية أو دينية عند تلك الشعوب البدائية التي خافت الطبيعة ورهبت مظاهرها، فعبدتها.

فكيف كانت الأديان عند الإنسان؟ وكيف تديّن بها واعتنقها والتزم بها؟.

فالدين كما عرفه الباحثون: هو الانقياد والطاعة والالتزام بمبدأ أو عقيدة يدين بها ويخلص لها. والتديُّن: فطرة داخل الإنسان وغريزة في ذاته، وهو جزء من كيانه ووجوده كبقية الغرائز التي تكوّن النفس البشرية.. وهذه الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية من أشدها همجيّة وأدناها حضارة حتى أرقاها فكراً وتطوراً. وهي موجودة فيها منذ فطرتها الأولى. عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن رسول الله ﷺ قال: «كلُّ مولودٍ يولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يمجِّسانِه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة، هل ترى فيه جدعاء؟».

أما دوافع الفطرة إلى التديّن فكانت الخوف من الموت، والإحساس بالرهبة أمام عظمة هذا الكون العجيب، وبما يجري فيه من كل ما يثير المشاعر والأحاسيس. وهذه الرهبة أثارت نفس الإنسان البدائي فدفعته إلى التديُّن ليحمي نفسه ويأمن الطبيعة ومظاهرها المرعبة كخسوف القمر، وكسوف الشمس، والرياح والعواصف والأعاصير، والزلازل والبراكين وليتقي شر الحيوانات المفترسة، والوحوش الكاسرة، وكان يخشى عوائد الدهر، ومصائب الزمن، والقحط والجدب والجفاف، وشتّى الكوارث.. وبدأ ينسج حولها الأساطير والحكايات ويجعل لكل حادثة إلهاً مميّزاً يتقرب منه ويتوسّل إليه، فالإنسان منذ نشأته الأولى أخذ يبحث ويتأمّل، ويفكّر في خلق هذا الكون وما فيه من آيات.. فعجز عن فهمها أو تفسيرها، فخشيها وخاف منها وصار يتقرب إلى كل مصادر الرعب في الطبيعة، فعبدها وأخلص لها، وآمن بوجود الأرواح،

واعتقد أن كل شيء في الوجود تسيطر عليه روح، وأن لكل شيء روحاً خاصة، سواء أكان هذا الشيء حيواناً أو نباتاً أو جماداً، وللأسرة بكاملها أو للقبيلة كلها روح لحيوان محدّد، هو طوطم القبيلة أو شعارها، تلتزم به وتتقرب إليه يمتنع الناس عن قتله أو إيذائه. وهذا ما يعرفونه عندهم «بشريعة التّحريم» وكثيراً ما يلجأ البدائيون من البشر إلى التمائم والتعاويذ، وإلى تعاطي السحر والشعوذة، لتفادي الأذى الذي تلحقه بهم الأرواح الشريرة، ولاعتقادهم أن هذه التمائم أو التعاويذ أو السحر تجلب الحظ السعيد لحائزها، أو أنها تكفل لصاحبها القوة والمِنعة، حتى أصبحت الأسطورة جزءاً من حياة الشعوب وتراثها.

تطوّر الفكر عند البشر، فآمنوا بوجود آلهة عظمى وراء هذه الكواكب، تسيّر الكون وتدبّرُ أمره، وهذه الآلهة هي الأحق بالعبادة والأجدر بالتقديس. وبينهم من كان أكثر تطوراً في فكره واعتقاده، فآمن بدمج الآلهة في مجموعات إلٰهية ثنائية، أو ثلاثية، أو تاسوعية. «ستمر معنا في أبحاثنا». ومنهم من كان أكثر وضوحاً في فكره، فآمن بوجود إلٰه واحد يدبّرُ الكون، ويتحكم في أموره، فهو الخالق وهو القادر على كل شيء. وكانوا يتقربون إليه زُلفىٰ عن طريق بعض التماثيل والأنصاب والأزلام. ﴿ويقولون هؤلاء شُفعاؤُنا عندَ الله﴾[1].

ويعدُّونها آلهة لهم لكنها أقل مرتبة من الإلٰه الأعظم، كما كان العرب في جاهليتهم.

ومن العباد من اعتقد بوحدانية الله من دون مقدمات أو وساطات، وقد توصل هؤلاء إلى هذه العقيدة عن طريق التأمل والتفكير في خلق الكون وعظمة الخالق، لأن لديهم القدرة على التفكير والتأمل. ومنهم من آمن بذلك عن طريق الأنبياء والرسل الذين كان يُوحىٰ إليهم من عند مدبِّر الكون الأَوْحد، وخالق كل شيء، من عند الله المنزّهِ عن كل الأضاليل والأباطيل.

لهذا فقد تعدّدت المعتقدات بتعدّد الأمم والشعوب، فكان لكل أمة دين أو أكثر من ذلك فقد ابتدأت بالأسطورة والتخيلات، واختُتِمت برسالة الحق،

(1) سورة يونس، آية: 18.

رسالة الإسلام وشريعته الغراء. قال تعالى: **﴿بل نقذِفُ بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون﴾**[1].

إن الديانات يصعب حصرها من حيث العدد، إنما يمكن تصنيفها في مجموعات:

أولها: الديانات البدائية، كالطوطمية والفتشية، تلك التي تقدّس قوى الطبيعة ومظاهرها وتتخذ من الحيوانات أو النباتات أو الجمادات آلهة لها من دون الله. وهي التي تقدّس الكواكب والنجوم وتعتمد في حياتها على رواية الأساطير الخيالية والحكايات الخرافية منذ بداية الخليقة، وتنتشر هذه المعتقدات عند كل الشعوب البدائية أينما وُجدت. وسنذكرها بشيء من التفصيل.

ثانيها: الديانات التوحيدية: وهي التي تنظر إلى الإله على أنه مجرّد عن الكائنات الحية والجمادات كلها، وظواهر الطبيعة، كالديانة الأخناتونية والزرادشتية والبوذية والكونفوشية وغيرها. وسنأتي على تفصيلها في أبحاث خاصة.

ثالثها: الديانات السّماوية المنزّلة: وهي الأكثر تطوراً وكمالاً، لأنها منزّلة من عند الله، كالديانة اليهودية التي أنزِلت على موسى عليه السلام، وكتابها التّوراة. والنّصرانية التي أنزلت على عيسى عليه السلام، وكتابها الإنجيل. والإسلامية التي أنزلت على محمّد عليهُ الصلاة والسلام، وكتابها القرآن. فهو خاتم الأنبياء وأجلّهم، وشريعته السّمحاء خاتمة الشّرائع وأكملها... وقد رضيها الله ديناً لكل العالمين، وحفظها من كل تحريف أو تحوير، وكان القرآن الكريم معجزة الإسلام، وفيه شرْع البشريّة، كل البشرية إلى أن يرث الله الأرض وما عليها...

وقد تصارعت الديانات المتعددة، مثلما تصارعت الآلهة المتعددة. فأثّرت

---

(1) سورة الأنبياء، آية: 18.

الديانات الكبرى على الأصغر منها وأجبرتها على الخضوع لها، واعتناق مبادئها والاندماج فيها. كتلك التي تخص قبيلة أو شعباً أو جماعة من الناس. وتقوم هذه المعتقدات على أسس مشتركة من العبادات كالصلاة والصيام والتضحية وتقديم القرابين للآلهة، وتتطلب مراكز خاصة للعبادة، كالمعابد والهياكل والكنائس والمساجد. كما تحتاج إلى شريحة معينة من صفْوة البشر، يكونون فيها كهّاناً أو رُهباناً أو وعّاظاً أو قدّيسين، انفردوا بصفات مميزة، كشفاء المرضى والتوسط لهم عند آلهتهم، لتخفّف من آلامهم، وتبعد عنهم الويلات، وترزقهم من غير حساب، وذلك عن طريق الأدعية أو التوسّل أو تقديم الأضاحي والقرابين. . .

وفي الحقيقة إن الدين الحق وُجِدَ على الأرض منذ هبط آدم عليه السلام إليها. فقد خلقه الله تعالى وجعله خليفته في الأرض، عندما خاطب الملائكة بقوله: ﴿إني جاعل في الأرض خليفةً، قالوا: أتجعلُ فيها من يفسِدُ فيها، ويسفِكُ الدماءَ ونحن نُسبِّح بحمْدِك ونقدِّس لك؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون﴾[1].

فالملائكة يسبِّحون بحمد الله ويَدينون له ويقدّسونه منذ الأزل. . .

وتزايد بنو آدم على كوكب الأرض وكثر عددهم، على اختلاف أشكالهم وألسنتهم وألوانهم، وسخّر الله لهم ما في السماوات وما في الأرض، وبين لهم طرق الهداية والنور، وطرق الخير والشر. بوساطة الأنبياء والمرسلين الذين اختارهم الله من بني آدم وأوحى إليهم بالكتب أو الصحف، وبالشرائع والأحكام ليهتدوا بهديها ويسيروا على تعاليمها ويسلكوا الصراط المستقيم، فمنهم من اهتدى، ومنهم من ضل وخسر. قال تعالى: ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى، وما كنا معذِّبين حتى نبعث رسولاً﴾[2].

وأرسل جل شأنه لكل أمة رسولاً ينذرهم ويهديهم إلى الصواب وإلى

---

(1) سوره البقرة، آية: 30.

(2) سورة الإسراء، آية: 15.

عبادة الله وحده، فمنهم من كذّب وكفر، ومنهم من ادّعى وفجر، ومنهم من قتل الأنبياء وغدر، فأهلكهم الله بذنوبهم وكان مصيرهم الدمار والإبادة لضلالهم وجهلهم وكفرهم بالله ورسله، والاستخفاف بهم، كقوم نوح وعاد وثمود وصالح وغيرهم من الشعوب الهالكة، الذين أصبحوا عبرة لمن يعتبر على مر الدهور والعصور لكل من أعرض وكفر. قال تعالى: ﴿**فإن أعرضوا فقل أنذرتُكم صاعقةً مثل صاعقة عاد وثمود**﴾[1]. وقال كذلك: ﴿**وإنْ من أمة إلاّ خلا فيها نذير**﴾[2]. وقال أيضاً: ﴿**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه**﴾[3].

فالحدود الدينية والأحكام الشرعية بين البشرية ابتدأت منذ عهد آدم وشيث وإدريس عليهم السلام، فقد خص الله آدم بالأسماء كلها، وخص نوحاً بمعاني تلك الأسماء، وخص إبراهيم بالجمع بينهما، وخص موسى بالتنزيل، وخص عيسى بالتأويل، وخص محمداً بالجمع بينهما على ملّة إبراهيم، عليهم السلام جميعاً.

هكذا كانت تعاليم الله عز وجل لرسوله الكريم محمد ﷺ حين قال: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه، أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾[4] فجميع الرسل مبلّغون الدعوة إلى وحدانية الله وعبادته من دون العالمين، حيث قال: ﴿**وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم**﴾[5]. فقد ظهر الأنبياء والرسل الذين دعوا إلى عبادة الإله الواحد الأحد. كما ظهر بعض الفلاسفة والحكماء الذين حولوا أفكارهم إلى معتقدات روحية، أمثال بوذا وكونفوشيوس، بينما اعتقد الفرس أن زرادشت أرسِل نبياً لهدايتهم، وكتابهم

---

(1) سورة فصلت، آية: 13.
(2) سورة فاطر، آية: 24.
(3) سورة الشورى، آية: 13
(4) سورة الأنبياء، آية: 25.
(5) سورة البقرة، آية: 163.

المقدس هو «الأوفيستا». يقول ابن عباس: «إن أهل فارس لما مات نبيهم كتب لهم إبليس المجوسية».

ومن البديهي أن أمماً كثيرة بعددها كهذه الأمم لن يتركها الله بلا هداية وبلا رسالة وبالتالي من غير حساب. قال تعالى: **﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان، وآتينا داوود زبوراً، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك، وكلّم الله موسى تكليماً، رسلاً مبشّرين ومُنذِرين، لئلّا يكون للناس على الله حُجَّة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾**[1].

وكان من أبرز الأنبياء وأكثرهم فعالية ووضوحاً إبراهيم الخليل عليه السلام في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، فكان رمز الدين الحنيف القائم على وحدانية الله والإيمان بثوابه وعقابه ونبذ الأصنام والأوثان. كما جاء موسى عليه السلام برسالته السماوية في القرن السادس عشر قبل الميلاد، الذي دعا إلى عبادة إلٰه واحد. تقول التوراة: «اسمع يا إسرائيل، الربّ إلٰهُنا ربٌّ واحد»[2] وجاء في القرآن الكريم: **﴿وآتينا موسى الكتابَ وجعلناه هدى لبني إسرائيل، ألا تتخذوا من دوني وكيلاً﴾**[3]. كما جاء عيسى عليه السلام ليكمل شرعه داعياً إلى ما دعا إليه أسلافه من الأنبياء والمرسلين. جاء في إنجيل مرقس: (الله واحد، وليس آخَرُ سواه)[4]. وفي إنجيل لوقا: (للرب إلٰهك تسجد، وإياه وحده تعبد)[5].

ثم جاءت رسالة الحق والهداية التي أخرجت الناس من الظلمات إلى النور، يبشر بها محمد خاتم الأنبياء والرسل، الذي جاء مصدقاً لما قبله من رسالات التوحيد، وقد ختمت الشرائع والمناهج الإلٰهية، بأكملها وأتمها،

---

(1) سورة النساء، آية: 163.

(2) سفر التثنية: 6-4.

(3) سورة الإسراء، آية: 2.

(4) إنجيل مرقص، آية: 2-32.

(5) إنجيل لوقا، آية: 4-8.

الرسالة السمحاء، رسالة محمد عليه الصلاة والسلام.

هذه ديانات السماء التي أقرّها وأنزلها خالق الأرض والسماء، بعيدة عن كل التهيؤات والأباطيل والتخيلات والأساطير. فمصدر تنزيلها واحد، ومصدر تشريعها واحد، وقول الحق فيها واحد، ورسالته إلى جميع الأنبياء والرسل واحدة. هي الدعوة إلى عبادة الله وحده واجتناب كل الطواغيت، والاستسلام لله، وعدم الإشراك به، والدخول في عبادته وطاعته، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشره. قال تعالى: **﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله، واجتنبوا الطاغوت، فمنهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾**[1].

وقال جل شأنه: **﴿إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم، ألا تعبدوا إلا الله﴾**[2].

ورد في الحديث النبوي أن «الأنبياء أخوة، أبناء علّات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد»[3].

فالأب واحد هو دين التوحيد، والأمهات بمنزلة الشرائع في مختلف أحكامها، فالدعوة الأزلية للجميع إنما هي قول: لا إله إلا الله. وهذه هي الحقيقة الكبرى. قال تعالى: **﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين، إنما هو إله واحد﴾**[4].

أما عدد الأنبياء والرسل فلا يعلمهم إلا من بعثهم، فقد ورد في القرآن الكريم أسماء خمسة وعشرين رسولاً. أولهم آدم وآخرهم محمد، صلوات الله عليهم أجمعين.

روي عن أبي ذر أنه قال: «قلت يا رسول الله: كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف

---

(1) سورة النحل، آية: 36.
(2) سورة فصلت، آية: 14.
(3) أخرجه الشيخان وأبو داوود.
(4) سورة النحل، آية: 51.

وأربعة وعشرون ألفاً، قلت: يا رسول الله، كم أُرسِل منهم؟ قال: ثلاثمئة وثلاثة عشر...»[1].

وقد أنزل الله كتباً كثيرة لهداية البشرية، كالتوراة والزبور والإنجيل والقرآن الكريم. كما أنزل من الصحف الكثير، منها صحف شيث وإبراهيم وموسى وغيرها.

لقد أوحى الله إلى رسله لتبليغ رسالته الواحدة، رسالة الحق إلى بني البشر، بدعوتهم إلى عبادته وإجلاله وتعظيمه وحده لا شريك له. وإن اختلفت الأحكام التشريعية فيما بين هذه الديانات في بعض النواحي، فتلك مشيئة الله اقتضاها، وحكمته لعباده ارتضاها فشرّع لكل أمة ما يناسبها حسب زمانها ومكانها. حيث قال: **﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾**[2]. إلى أن نسخ الله جميع الشرائع والرسائل. فقال جل شأنه: **﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾**[3]. وقال أيضاً: **﴿لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه﴾**[4]. وأقر الإسلام حين قال: **﴿إن الدّين عند الله الإسلام﴾**[5]. فهو الدين الكامل والشرع الخالد إلى يوم الدين، اختاره الله لعباده ورضيه لهم ديناً قيماً، لم يتغير ولم يتبدل ولم يأته الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأن الله حفظه، وهو خير الحافظين قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي أُرسِلْتُ به إلا كان من أصحاب النار»[6].

إن هذه الديانات التي انتشرت في أنحاء العالم دخل إلى بعضها التحريف والتأويل والتشويه والتبديل، فقد حُوِّرت كتبها وزُوِّرت، وغُيِّرت عقائدها، وبُدِّلت شرائعها... لهذا فقد تجزأت وتفرعت إلى فرق كثيرة عن الأصل

---

(1) البداية والنهاية ابن كثير.
(2) سورة هود، آية: 118.
(3) سورة المائدة، آية: 48.
(4) سورة الحج، آية: 67.
(5) سورة آل عمران، آية: 19.
(6) أخرجه مسلم.

الواحد، وتفرقت بها السبل، وحل بها العداء، وأصبحت حرباً على بعضها، وتمـزقت، لخلاف في التفسيـر، أو لاجتهاد في التـأويل، أو لضعف في الروحانيات والمعتقدات، إلى أن تحولت الخلافات إلى مذابح وفتن، وحروب أهلية، وليس أشد هولاً من خلافات العقائد والأديان، التي إن عصفت بأمة أهلكتها. فما أشد ما حصل للنصرانية على أيدي اليهود، وما حل بين السيخ والهندوس.. وتصارعت كل شعوب الأرض بسبب أفكارها ومعتقداتها وأخطر هذه الصراعات الخلافات المذهبية. فقد افترقت المجوسية إلى سبعين فرقة، واليهودية إلى إحـدى وسبعين فرقـة، والنصارى إلى اثنتين وسبعين فـرقة، والمسلمون إلى ثلاث وسبعين فرقة. قال رسول الله: ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، والناحية منها واحدة، والباقون هلكىٰ. قيل ومن الناجية؟ قال: أهل السنة والجماعة، قيل: وما السنة والجماعة؟ قال: ما أنا عليه اليوم، وأصحابي». وقال كذلك: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق إلى يوم القيامة»....

نسأل الله الملك الحق المبين أن يجنبنا ما يهلكنا،
وأن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا،
وأن يلهمنا رشدنا، وأن يهيّىء لنا من أمرنا رَشَداً
وأن يسددَ خُطانا، وأن يهدينا سبلنا،
وأن يحسن ختامنا وأن يردّنا إلى ديننا
رداً جميلاً،
إنه سميع مجيب.

الباب الأول

قصة الخلق والتكوين

الفصل الأول

خَلقُ الكون

1 ـ تمهيد:

لقد كانت مسألة بدء الكون والحياة وظهور الإنسان وخلقه من أدق المسائل التي تناولها العقل البشري، فكثُرت الأقوال والأساطير بِكثرة الشعوب والأمم، فلكل أمّةٍ أسطورة أو مجموعة أساطير ولكل شعب حكاية أو مجموعة حكايات في قضية الخلق والتكوين والبدايات. قال تعالى: **﴿الله خالقُ كل شيء، وهو على كل شيء وكيل﴾**[1]، هذا قول فصل منزّل في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فلا ريب فيه ولا شك، فالإيمان مطلق بأن قوّة عُليا خفيّة تسيطر على كل الأشياء من أصغرها إلى أكبرها، ومن الذرّة إلى المجرّة..

ولكن كيف تمّ ذلك الخلق؟ وكيف تشكل ذلك الكون؟ وما رأي الأمم في ذلك قبل نزول القرآن؟.

لقد اختلفت الآراء والنظريات بين الأساطير الخيالية والأفكار العلمية الحديثة فالكتب المقدسة تقول بخلق السموات والأرض في ستة أيام.. والفرضيات العلمية والمكتشفات الحديثة تقدر عمر الكون بمليارات السنين.. وما أكثر الأساطير التي قيلت في هذا المجال مدعمة بأفكار خيالية، ربما تكون

---

(1) سورة الزمر، آية: 62.

قريبة من العقل لما تعتمد عليه من نظريات وضعت لتفسير وتعليل مسألة التكوين هذه وكشف حقيقة البدايات الكونية.

ومهما يكن من أمر فأساطير الأولين تراجعت أمام حقائق العلم الحديث وأصبحت لا تتعدّى مجرد حكاية للتسلية أو حديث للاستغراب، وحلت النظريات العلمية محل الأسطورة والخيال. . وسنستعرض أفكار بعض الشعوب القديمة وفرضياتها بشأن قصة الخلق والتكوين. .

2 ـ قصة التكوين في بلاد الرافدين وسورية:

(أ) عند السومريين:

تعد أفكار السومريين في هذا المجال ناضجة ومتقدمة، تنمّ عن بداية حضارة إنسانية زاهرة. . فقد نضجت الثقافة السومرية من احتكاكهم مع سكان جنوب بلاد الرافدين وما حولها. . ولا توجد أسطورة سومرية متكاملة في قضية الخلق والتكوين، ولكن النصوص المتفرقة التي عثر عليها تكاد تعطي صورة واضحة عن أفكارهم بهذا الشأن، ومن دراسة هذه النصوص الأسطورية المتفرقة تتبين لنا الأسطورة الكاملة لعملية خلق العالم والأكوان. تقول الأسطورة: «في البدء كانت الآلهة «نمو» وهي المياه الأولى التي انبثق عنها كل شيء، وحيدة لا شريك لها، ثم أنجبت ولداً هو «آن Anu» إلٰه السماء، وأنجبت بنتاً هي «إنكي Enki» إلٰهة الأرض، وكانا ملتصقين مع بعضهما وغير منفصلين عن أمهما حتى تزوج «آن من إنكي» وأنجبا بكرهما «إنليل Enlil» إلٰه الهواء الذي كان محصوراً بينهما في حيّز ضيق لا يسمح له بالحركة، لم يطق إنليل ذلك السجن القاهر فقام بقوته الخارقة بإبعاد أبيه عن أمّه فرفع الأول وصار سماء وبسط الثانية فصارت أرضاً وصار يرتع بينهما حراً طليقاً. حتى أنجب ابنه «نانا» إلٰه القمر الذي أنار الأرض بعد أن مزّق الظلام الدامس الذي كان يعيش فيه، ثم أنجب «نانا» الإلٰه «أوتو» إلٰه الشمس، وبعد أن أُبعدت السماء عن الأرض وبزغ ضوء القمر ونور الشمس قام إنليل مع بقية الآلهة بخلق مظاهر الحياة الأخرى. .

إن هذا التسلسل الأسطوري من الوجهة العلمية يعني مجموعة ملاحظات

وقواعد جديرة بالاهتمام هي:

1 ـ لم يكن في البدء موجوداً سوى المياه الأولى التي صدر عنها كل شيء، وكل حياة. .

2 ـ ظهور كتلة يابسة على شكل جبل قبته السماء وقاعدته الأرض ومن لقاء القبة بالقاعدة ظهر الهواء وهو العنصر المادي الثالث بعد الماء والتراب. .

3 ـ من صفات الهواء التمدد، وبتمدّده أبعدَ السماء عن الأرض.

4 ـ عُدَّ القمر ابناً للهواء، وربما يكون من العنصر الهوائي نفسه.

5 ـ عُدَّت الشمس ابنة القمر، وقد فاقت أباها قوّة، وخلفته على عرش السماء فيما بعد.

6 ـ بدأت الحياة بالظهور بعد أن انفصلت السماء عن الأرض وغمرت الشمس وجه الكون بأشعتها الدافئة فظهرت النباتات، ثم الحيوانات، ثم ظهر الإنسان. .

وحسب الفرضيات العلمية الحديثة يمكن أن نعُدَّ الهواء الغازي هو الكتلة السديمية التي هي أصل الكواكب السيارة في المجموعة الشمسية. .

وهذا مطلع إحدى أساطير السومريين في كيفية فصل السماء عن الأرض:

«إن الإله الذي أخرج كل شيء نافع.
الإله الذي لا مبدل لكلماته.
إنليل الذي أنبت الحَبَّ والمرعى.
أبعد السماء عن الأرض،
وأبعد الأرض عن السماء. .».

(ب) عند البابليين:

بسط البابليون نفوذهم على جيرانهم السومريين في بلاد الرافدين

وتوسعت رقعة بلادهم خاصة في عهد ملكهم الكبير «حمورابي» (1710-1670 ق. م). وامتزجت حضارتهم بالحضارة السومرية كما تأثرت بالحضارتين المصرية والسورية المجاورتين. . وأهم ما برز من أفكار البابليين الدينية في قضية الخلق والتكوين الملاحم الدينية التي تدل على مدى الاهتمام بالأصول الأولى للخلق، ومآله الأخير. التي تبحث في خلق الكون وفيما ينتظر الإنسان بعد الموت، وأهم هذه الملاحم: «ملحمة التكوين الإينوما إيليش Enu-ma Elish» وملحمة جلجامش ويعود تاريخ كتابتها إلى الألف الثاني قبل الميلاد، أي في عصر الدولة البابلية، وقبل تدوين أسفار التوراة العبرية.

وتعد ملحمة الإينوما إيليش وثيقة هامة عن معتقدات البابليين وأفكارهم الدينية ونشأة آلهتهم. وقد وجدت موزعة على سبعة ألواح فخارية مع حفريات قصر الملك «آشور بانيبال»، فماذا تعني «الإينوما إيليش»؟. يتكون هذا الاسم من أول كلمتين في الملحمة، ومعنى الأولى «عندما» والثانية «في الأعالي»، أي أنها تعني عندما لم يكن في الأعالي سماء، وعندما لم تكن في الأسفل أرض. تقول الملحمة الأسطورية: إنه لم يكن في البدء شيء سوى محيط مائي شاسع ممثل في الإله «أبسو Apsu» وهو الماء العذب، والإلٰهة «تهامة Tiamat» زوجته وهي الماء المالح. والإله «ممو» وهو الأمواج الناشئة عن المياه الأولى، أو الضباب المنتشر فوق تلك المياه، والناشيء عنها. وهذه الكتلة المائية التي تملأ الكون هي العماء الأول[1] الذي انبعثت عنه فيما بعد بقية الآلهة وكل الموجودات الكونية.

وعندما كانت الآلهة الثلاثة «أبسو- تهامة - ممو» يمزجون أمواههم معاً لم يكن هناك زمان ولا مكان، وتكونت السماء والأرض من جسد الإلٰهة «تهامة» التي شطرها الإله «مردوخ» إلى شطرين نتيجة صراع مرير بينهما، وخُلِق الإنسان من دماء الإله «كينغو»[2] وأُعطي الحياة ليكدح على الأرض، ويقدم للآلهة

(1) العماء: غيم رقيق يحجب بين الناظر والشمس.

(2) كينغو: زوج تهامة بعد مقتل زوجها الأول «إبو». وهو الذي حرضها على الثورة. وقد قتِل بعد مصرع زوجته عقاباً له. .

طعامها، ثم بنت الآلهة مدينة بابل «بيت الإله» تكريماً لزعيمهم «مردوخ» كبير الآلهة وخالق الكون.

تقول الأسطورة: إن الإلهة أنجبت عدة أنواع أخرى من الآلهة ما لبثت أن ثارت على أبويها «أبسو- تهامة»، فقُتِلَ «أبسو» بينما «تهامة» واصلت المعركة دفاعاً عن النفس، وولَّدت من أجل ذلك أمساخاً بشعة، ذات أنياب كبيرة سامة، مثل: الصّل، التنين، الأسد الكبير والكلب المجنون، والرجل العقرب، والذبابة التنين... الخ.

ولما رأت الآلهة هذا التهديد من تهامه، اختارت من بينها زعيماً وبطلاً لها، هو الإله الشاب «مردوخ» الذي استعد للقاء تهامة، وبدأ الصراع بينهما. وفي هذا الموضوع جاء في الملحمة الأسطورية هذه المقتطفات:

وتقدّما للّقاء، تهامة ومردوخ، أحْكَما الآلهة
وتَدانيا للقتال، واقْتَربا للصّراع
فرمى الرب شبكته، وطوّقها بها
وأطلق في وجهها ريح الأذى التي كانت تتبعه
ولما فغرت تهامة فاهـا لتفترسه
أطلق ريح الأذى لئلاّ تستطيع إطباق شفتيها
وملأت الرياح الهائجة بطنها، فانتفخ جسمها وفتحت فاها
وأطلق سهماً فمزّق بطنها، وهتك أحشاءها، وشق فؤادها.

وبعد أن هزم مردوخ تهامة المسخاء وإلهة الماء، شق جسدها بسيفه شقين صنع من أحدهما قبة السماء، ومن الآخر الأرض. وبذلك انقسمت المياه الأولى إلى قسمين، وبعدها صنع مردوخ الأرض والسماء وصنع النجوم في السماوات العُلىٰ ثم بدأ بخلق النباتات ثم الحيوانات، أخذ التراب ومزج بدم الإله «كينغو» وصنع الإنسان على أن يكون خادماً للآلهة. وعندما تم الخلق، احتفلت الآلهة بانتصار «مردوخ» وبَنَتْ له مدينة «بابل» وخلعت عليه خمسين لقباً من ألقاب التشريف والتعظيم.

لقد كان الصراع الجسدي يدور بين إلهٍ وآخر فينتصر واحد وينهزم واحد، ويحتفل باقي الآلهة بالإله المنتصر على أنه أكبرهم وأعظمهم.. فما هي هذه الآلهة التي تعظم آلهة أخرى غيرها؟ ونراها تكبر وتصغر حسب المناسبات، وتتصارع بأجسادها وكأنها نفوس بشرية شرسة.

إن ملحمة الخلق والتكوين هذه عند أهل بابل، تعدُّ درّة الأدب والفكر البابلي، ولها تأثير عميق في تفكيرهم، وفي تفكير العبرانيين أيضاً، وخاصة في مسائل الخلق والتكوين وبعض الأفكار الدينية، من حيث اعتقادهم بشمولية الإله مردوخ وألقابه الخمسين، التي تظهره إلهاً واحداً لا شريك له بالرغم من وجود بقية الآلهة الثانوية ويمكن القول: إن هذا التسلسل في مسألة التكوين في النص البابلي وألواح التكوين السبعة مشابهة تقريباً لما ورد في سفر التكوين التوراتي في أيام التكوين السبعة. وهذه موازنة بينهما للاطلاع على تسلسل الخلق ومراحله في كلا النصين:

الإينوما إيليش البابلية والألواح السبعة	سفر التكوين التوراتي والأيام السبعة
1 ـ العماء الأول تهامة: الماء المالح وزوجها الماء العذب، يحيط بهما الظلام.	الظلام يغلف المياه الأولى.
2 ـ النور يشع، ويتولد من الآلهة.	خلق النور.
3 ـ خلق السماء.	خلق السماء.
4 ـ خلق الأرض.	خلق الأرض.
5 ـ خلق الأجرام السماوية.	خلق الأجرام السماوية.
6 ـ خلق الإنسان.	خلق الإنسان.
7 ـ الإله مردوخ ينتهي من الخلق، والآلهة تحتفل به.	الإله يهوه ينتهي من الخلق، ويستريح.

(جـ) فرضية التكوين عند الكنعانيين

تقول: إنه في البدء لم يكن هناك سوى ريح عاصفة، وخواء مظلم، ثم إن هذه الريح وقعت في حُبِّ مبادئها الخاصة وتمازجت فنشأ عن ذلك التمازج

كتلة مائية اتخذت شكل البيضة، وكانت «الرغبة». وهي مبدأ خلق جميع الأشياء، ولم يكن للريح معرفة بما فعلت، ونتج عن تمازج الرياح الإله «موت»، الذي كان في الأصل عبارة عن كتلة من الطين، أو مجموعة من العناصر المائية المتخمّرة، وكان بذرة الخلق وله شكل البيضة، وانشقت البيضة قسمين، فظهرت السماء والأرض والشمس والقمر، والمجموعات الشمسية الكبرى. ثم التهب الهواء بتأثير التهاب اليابسة والبحر وتشكل الهواء والسحاب، وهطل المطر على الأرض ماء مدراراً، وبتأثير حرارة الشمس انفصلت الأشياء وتطايرت لتلتقي في الهواء وتتصادم، فنشأ البرق والرعد، وعلى أصواته أفاقت الحيوانات مذعورة، وراحت تتجول على سطح الأرض فوق اليابسة وتحت الماء، ذكوراً وإناثاً.

3 ـ التكوين في التوراة:

إن كتاب التوراة وهو المأثرة الثقافية الوحيدة عند اليهود، قد نشأ وتطور منطلِقاً من أرضية ثقافية سورية وبابلية ومصرية، وخاصة عندما حصل السّبي البابلي الأول (586 ق. م) الذي قدّم لليهود فرصة مناسبة للاطلاع على آداب بلاد الرافدين وديانتها وأساطيرها وثقافتها، وخاصة ملحمة التكوين والخلق البابلي «الإينوما إيليش» ويذكر سفر التكوين كثيراً عن كيفية خلق السماوات والأرض وخلق العالمين. «أنظر الشكل رقم واحد». فقد ورد في سفر التكوين في الإصحاح الأول والثاني قصة خلق السماوات والأرض كما يلي: «في البدء خلق الله السماوات والأرض وكانت الأرض خَرِبةً وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه، وقال الله: ليكن نور فكان نور، ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة ودعا الله النور نهاراً، والظلمة دعاها ليلاً، وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً.

وقال الله ليكن جَلَد في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه، فعمل الله الجَلَد وفصل بين المياه التي تحت الجَلَد والمياه التي فوق الجَلَد، وكان كذلك، ودعا الله الجَلَد سماء وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً. وقال الله

لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة، وكان كذلك، ودعا الله اليابسة أرضاً، ومجتمع المياه دعاه بحاراً. . ورأى الله ذلك أنه حسن. وقال الله لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً كجنسه، بزره فيه على الأرض، وكان كذلك، فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً كجنسه وشجراً يعمل ثمراً بزره فيه كجنسه، ورأى الله ذلك أنه حسن، وكان مساء وكان صباح يوماً ثالثاً. . وقال الله لتكن أنوار في جَلَد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين، وتكون أنواراً في جَلَد السماء لتنير على الأرض، وكان كذلك، فعمل الله النورَيْن العظيمَيْن: النور الأكبر لحكم النهار، والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم، وجعلها الله في جَلَد السماء لتنير على الأرض ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة، ورأى الله ذلك أنه حسن وكان مساء وكان صباح يوماً رابعاً.

وقال الله لتفض المياه زحّافات ذات نفس حية، وليطر طير فوق الأرض على وجه جَلَد السماء، فخلق الله التنّانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذي جناح كجنسه، ورأى الله ذلك أنه حسن وباركها الله قائلاً: اثمِري وأكثري واملأي المياه في البحار، وليكثر الطير على الأرض وكان مساء وكان صباح يوماً خامساً. . وقال الله: «لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها، بهائم ودبابات ووحوش الأرض كأجناسها، وكان كذلك، فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها، والبهائم كأجناسها، وجميع دبابات الأرض كأجناسها، ورأى الله ذلك أنه حسن، وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كَشَبَهِنا. فيتسلّطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكراً وأنثى خلقهم، وباركهم الله وقال لهم: أثمروا وأكْثِروا، واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلّطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض وقال الله: إني قد أعطيتكم كل بقل يبزر بزراً على وجه كل الأرض وكل شجر فيه ثمر شجر يبزر بزراً لكم يكون طعاماً ولكل حيوان الأرض، وكل طير السماء، وكل دبابة على

الأرض، فيها نفس حية، أعطيت كل عشب أخضر طعاماً. وكان كذلك، ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً وكان مساء وكان صباح يوماً سادساً. . » وتابع سلسلة خلق الكون في الإصحاح الثاني من سفر التكوين حيث قال: «فأكملت السموات والأرض وكل جندها. . وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل وبارك الله اليوم السابع وقدّسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً.

هذه مبادىء السموات والأرض حين خُلِقت يوم عمل الرب الإله الأرض والسموات. . كل شجر البريّة لم يكن بعد في الأرض وكل عشب البريّة لم ينبت بعد. لأن الرب الإله لم يكن قد أمطر على الأرض ولا كان إنسان ليعمل الأرض، ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض. . وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نَسْمة حياةٍ، فَصار آدم نَفْساً حَيةً. . »[1].

من هذا التسلسل التوراتي في قصة الخلق والتكوين يظهر معنا أن الحالة البدئية السابقة للخلق حالة عماء مائي وظلمة سرمديّة، ومن هذه المياه تم التكوين، حيث قام «يَهْوَه» بتقسيم المياه إلى قسمين: رفع الأول إلى السماء وترك الثاني في الأسفل فصار بحاراً ومنها برزت اليابسة ومن هذه اليابسة تابع يهوه أفعاله الخلاّقة، فأخرج النبْت والمرعى والشجر والثمر وخلق الحيوان، وفي السماء خلق الشمس والقمر والنجوم، وفي البحر خلق الحيوانات المائية، وفي الجو خلق الطير وأخيراً خلق الإنسان.

في هذا التسلسل المرحلي للتكوين التوراتي يظهر تناقض واضح في الأحداث. ففي البدء خلق السموات والأرض، ثم يخلقهما مرة ثانية بفصل المياه عن بعضها. ومرة يخلق البشر دفعة واحدة، وفي المرة الأخرى يخلق الرب الإنسان بدءاً من زوجين أوليين متأثراً بالأساطير البابلية والسومرية، وهذا ناتج عن تعدد المصادر التي اعتمدت عليها التوراة كالمصدر اليهوي[2]

(1) سفر التكوين الإصحاح الأول والثاني.
(2) أطلق عليها هذا الاسم لأن اسم الله بها «يهوه» كتب الوثيقة اليهوية في القرن (9 ق. م).

والإيلوهيمي[1] والتثنية والكهنوتي[2].. وغيرها...

***** **ملاحظات حول نصوص التوراة:** من دراسة النصوص التوراتية المتقدمة، يتبين لنا وجود تناقضات واضحة، فهي تارة مطابقة للواقع العلمي وتارة غير مقبولة علمياً، هذا عدا عن التقديم والتأخير في المراحل التكوينية. ومما لا شك فيه أن الظلمات كانت سائدة في الكون قبل خلق الأرض أما المياه المذكورة في النص فهي صورة رمزية صرفة، والأصح القول بوجود كتلة غازية سديمية في المرحلة الأولى لتكوين الكون.

لقد خلق الله النجوم والكواكب في اليوم الرابع، فكيف يكون الليل والنهار قبل وجود الأرض لتدور حول الشمس؟ وأما صورة انقسام المياه إلى كتلتين بهذا الشكل غير مقبولة علمياً.

وعن تشكل القارات بهذا الشكل فهذا مقبول علمياً حيث تظهر اليابسة بعد الغمر المائي.

أما أن تُنبت الأرض خضرة وعشباً وشجراً وثمراً قبل أن تظهر الشمس «اليوم الرابع» وقبل أن ينتظم تعاقب الليل والنهار فذلك غير مقبول علمياً. وعن خلق الشمس والقمر بعد الأرض فهو أمر مخالف للعلم وفرضياته الحديثة.. وعن تطور المخلوقات الحية الأرضية تقول التوراة: إن حيوانات الأرض كانت في اليوم السادس بعد ظهور الطيور، وهذا غير مقبول علمياً..

أما عن خلق الإنسان بعد كل المخلوقات الحية فهو صحيح علمياً.. ولكن الراحة التي يفترض أن الله أخذها في اليوم السابع «السبت» بعد أن عمل ستة أيام متواصلة فهي أسطورة مبتكرة وأن الله منزّه عن التعب ﴿**لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم**﴾.

---

(1) أطلق عليها هذا الاسم لأن اسم الله بها ايلوهيم.

(2) صدرت عن كهنة معبد القدس، ينتمي إلى عصر النفي أو ما بعده في القرن السادس ق. م ويعود إلى القرن السابع أو الثامن ق. م.

إن تعاقب الأحداث في النص الكهنوتي يناقض المعلومات العلمية الحقيقية وهكذا تبدو لنا الرواية الكهنوتية للخلق كبناء خيالي أسطوري لا يهدف إلى التعريف بالحقيقة. .

4 ـ الأساطير البدائية في نشوء الكون:

مهما كانت حضارة الأمم متقدمة أو متأخرة، سائدة أم بائدة، مزدهرة أم منحسرة، فلكل منها فكرها ومعتقداتها الخاصة بها. وكثيرة هي الشعوب البدائية التي لم تنل نصيباً وافراً من العلم والتقدم ومع ذلك فقد تحدثت في الأمور الدينية والمعتقدات والروحانيات والغيبيات وكان التزامها مبدئياً بآلهتها التي آمنت بها على مختلف أشكالها وألوانها سواء أكانت تماثيل أم أصنام أم أوثان. أو حتى عبادة الطواطم والأشياء، أو عبادة قوىٰ الطبيعة أو الكواكب وغير ذلك فقد التزمت بآلهتها وعبدتها وقدستها وقدمت لها القرابين والأضاحي، وصلّت لها وتوسلت إليها لتحقيق ما تريد، ولتبعد عَنها ما لا تريد. . .

ففي أستراليا: توجد بعض القبائل التي تعتقد بوجود إلٰه عظيم يدعى «بايام Baiame» مقيم في السماء قرب المجرة يجلس على عرش من الكريستال، يتلقى أرواح الأبرياء، أما أولاده أو رسله إلى الأرض فهم الأشكال التي تتخذها الشمس والقمر، وهو يمثل الرعد بصوته وهو الذي يرسل الشتاء، ويجعل الأرض خصبة خضراء، وهو خالق ذاته وخالق كل شيء من العدم، وعنده كل شيء. .

أما قبائل الكولين: فهم يعتقدون بوجود الإله السماوي «بوند جيل Bond gel» الذي يشكل السماء العليا الواقعة فوق السماء المظلمة. وهو خالق الأرض وخالق كل شيء، فقد صنع الإنسان من صلصال ونفخ فيه الروح من أنفه وفمه وصرّته، لكنه ما لبث أن اختفى من هذا الكون بعد أن منح ابنه «بنبيال Binbial» السلطة على الأرض، ومنح ابنته «كراكروك Crakrok» السلطة على السماء. . وغالباً ما تسود المعتقدات الطوطمية في الديانات الأسترالية بدلاً من طقوس الآلهة السماوية. .

أما في جنوب شرق آسيا عند البورنيين: فلهم اعتقاد خاص في أصل الخليقة: يقولون إنه لم يكن غير السماء والماء، ثم سقط صخر كبير من فوق، واكتسى بالتراب فنبتت عليه شجرة كبيرة التفّ حولها كرم، واتحدا معاً في أصل واحد، فولد منهما رجل وامرأة، هما أبوا سكان تلك البلاد. ويقولون إن تحت هذا العالم عالم آخر فيه أخدود عظيم تسرح فيه الديدان، فوقه جسر من جذع شجرة عظيمة يحرسها الشيطان «ماليكنغ Maliking» يمر القادمون عليه، ومن لم يأته بحديث عن بسالته أو عن عدد الرؤوس التي قطعها اهتزت الشجرة من تحته فيسقط في الهوة ويأكله الدود الذي لا يموت أبداً..

وفي جاوة: بالرغم من تفاخرهم بالإسلام وتردُّدهم إلى المساجد فإن بعضاً منهم لا يزالون يترددون إلى المزارات الوثنية، يستخيرون الآلهة البرهمية، أو بعض الأشجار، ولا سيما شجرة التين التي يجتمعون تحت ظلالها لعبادة الأرض.. وهم يحترمون طير اليمام والقردة على الأغصان.. وعند بعض القبائل المغولية في الهند الصينية اعتقاد في الخليقة والوجود. خاص بهم فهم يقولون: إن وجه الأرض كان مغطى ببحر تسبح فيه دودة هائلة، فخطا الخالق فوقها يوماً وقبض قبضة من تراب، وقال: سأصنع الأرض وسكانها من هذا. فقالت له الدودة: أتقْدر أن تصنع أرضاً مأهولة من هذه القطعة الصغيرة من التراب؟ انظر إني أبتلعها!. لكن هذه الكتلة خرجت من جسمها ونَمت حتى صارت كل العالم الذي نحن فيه، ثم خرج الإنسان من الأرض بإرادة الآلهة وهم ثلاثة: «لامبرا Lambra» الخالق الذي لا يتم شيء إلا بإرادته و «قولاري Colary» إله الموت. و «دودوكال Dodocal» إله الخير، وزوجته

ويعتقد اليابانيون أنه كان في بداية الخلق ثلاثة آلهة، تولّد منهم مع الزمن أزواج من الآلهة الصغرى، كل زوج منها أصل لنوع من المخلوقات، وآخِر تلك الأزواج «إيساناجي Esanagl» و«إيسانامي Esanami». ومنهما نشأت الأرض والشمس والقمر وكل المخلوقات الحية، ومن هذه الآلهة التي يُعبَّر عنها بالشمس تولّدت العائلة المالكة الحاكمة في اليابان، التي كان أول ملوكها «جيموتو Gemoto» المنحدر من «ماتراسو Amatraso» إلهة الشمس... ولذلك

فالملك أو الامبراطور عندهم هو ابن السماء فهو مقدّس، وهو إله. . .

ويعتقد الهندوس في ديانتهم أن الأرض خلقت من جسد رجل ضخم ضحّىٰ بجسده على مذبح الآلهة، ورضيت الآلهة عنه، فحولت جسده إلى ذرات صغيرة عادت لتلتئم من جديد وتتّحد جزيئاتها، ومن هذا الاتحاد تكونت الأرض وكل ما يحيط بها من يابسة أو مياه، ولذلك فالأرض لم تكن سوى جزء واحد من هذا الكون من بين واحد وعشرين جزءاً، ينقسم إليها هذا الكون ذو الشكل البيضوي الذي يسمى «بيضة براهما». أما الأرض التي عاش عليها «مانو» وأبناؤه من البشر فقد قامت في الطبقة السابعة من بيضة براهما، ومن فوقها ترتفع ست سماوات ومن تحتها سبع أراض تعيش عليها أرواح الثعابين والحيوانات وهي خالية من البشر الذين لا يستطيعون الحياة فيها لأنها مليئة بالسحر والغموض بكل ما تحتويه من كنوز مخبأة وثروات. أما أسفل هذه الطبقات فتقع سبع طبقات أخرى تُعدُّ كل منها جهنّم، تَصلى بنيرانها كل المخلوقات التي تعيش في الطبقات السبع الوسطى حيث تتعذب لتكفِّر عن ذنوبها التي ارتكبتها. وهذه الطبقات الواحدة والعشرون وحدات كونية تدور كل منها حول بعضها ثم تدور كلها في فلك معين.

ويعتقد البولينيزيون بوجود سوائل أولى غائصة في الظلمات التي انفصلت عن ظهور النور وبالتالي تكونت الأرض والسماء. ومن أساطير خلق الكون أيضاً: فقد اعتقد الصينيون أنه قبل خلق العالم لم يكن هناك شيء مطلقاً، واستمر ذلك وقتاً طويلاً ثم ظهر شُيُء جديد خلق منه «بان كو». ولم تعرف فترة حياته، ويقال إنه كان في غاية القوة، له رأس تنّين وجسد أفعى وأنه استطاع أن يخلق العالم منذ الأزل بعد عمل طويل وشاق. وعندما مات تجمعت أنفاسه فصارت ريحاً وسحاباً وشكّلت أنّاتُه الأخيرة الرعد، وأصبح الدم في عروقه الأنهار، وعرقه الأمطار، وعظامه الصخور، وأسنانه المعادن، وشعرُه الغابات والأشجار. ولحمُه الأرض ورأسه الجبال، وعينه اليسرى الشمس وعينه اليمنى القمر، أما الحشرات التي كانت تعلق بجسمه فأصبحت بَشراً. ثم تعاقبت على الأرض ملوك سماويون حكم كل منهم أكثر من 100 عام، جاهدوا أشد الجهاد

ليجعلوا من حشرات «بان كو» خلائق متحضرين بعد أن كانوا كالوحوش الضارية. يلبسون الجلود. ويأكلون اللحم النيء، يعرفون أمهاتهم ولكن لا يعرفون لهم آباء... كان من بين هؤلاء الملوك «فوشي» الذي عاش حوالي (2838 ق. م)، وتعدّه قصصهم خالق البشر ومعلمهم الأول، وكانت له أخت سماوية هي «نواكواشي» لها جسم ثعبان ورأس آدمي «شكل رقم 2» يعدُّها الصينيون منقذة العالم، الذي انهدمت أركانه بسبب حرب قامت بين إله العقاب واسمه «هونغ كونغ» وإله الغابات حيث انتصر إله العقاب، ثم قام بحرب أخرى مع إله النار الذي هزمه، فثار غضبه وضرب الجبل برأسه فانشق وانهار، ثم تساقطت أعمدة السماء، وانهدمت أركان العالم فقامت «نوكواشي» وأذابت أحجاراً من ألوان قوس قزح، وأعادت بناء أعمدة السماء، وقطعت أقدام السلاحف، لتلصق بصمغها أركان الأرض، وجمعت رماد الهدم وكدسته لتوقف به فيضان الماء، وعادت الحياة من جديد على ظهر الأرض...

وفي نيوزيلاندة وجزر كوك وتاهيتي. تسود أسطورة تقول: بعد أن اتّحدت السماء بالأرض أنجبتا عدداً من الآلهة الصغار الذين كانوا يعيشون في ضيق وظلمة، لشدة التصاق السماء بالأرض. فقرر الآلهة التّمرد على هذا الواقع بزعامة الإله الجريء «تاني Tani» الذي رفع السماء بقوة ذراعيه حتى استقرت مكانها. وقال لها: لتبقَ السماء بعيدة عنا، أما الأرض فلْتبقَ قريبةَ منا أمّاً رؤوماً.

ومن أساطير القبائل الإفريقية البدائية حكايات لا تقل غرابة وعجباً عما ذكرناه، ففي قبائل «البانتو» الإله «نزام Nzame» مالك السماء. وتردد النساء في شعائرهن «النزامية» لقد ابتعد عنّا الإله.. وهو نفسه عند قبائل «الفونغ Fong» في إفريقية الاستوائية الذين ينشدون له شعائرهم الدينية قائلين: نزام هو في الأعلى... الإنسان هو في الأسفل. الإله هو الإله... الإنسان هو الإنسان. كلٌ في مكانه... كلٌ في بيته. ولا يتوجهون إليه إلاّ وقت المصاعب وعند حاجتهم الماسة، كطلب الشتاء مثلاً...

ومن الأساطير عند قبائل «اليورباس» في غرب إفريقيا أنهم يعتقدون بإله

سماوي يدعى «أولورون Olaren» أي مالك السماوات وقد اختفى عنهم نهائياً بعد أن خلق العالم، وترك أمر العلائق الأرضية والبشرية إلى إله هو أقل منه قدرة هو «أباتلا Opatala».

5 ـ الفرضيات العلمية الحديثة في نشوء الكون:

إن مسألة أصل الكون هي من أشد المسائل المطروحة أمام عقل الإنسان وإدراكه ضخامة وهولاً وقد تعدّدت الفرضيات العلمية التي قيلت في أصل المجموعة الشمسية ومنشؤها. حيث يرى الفلكيون أنه منذ أكثر من خمس مليارات سنة تكونت الشمس وكواكبها السيارة في الفضاء الكوني من سحابة غازية أو من الغبار الكوني، ولقد تمّ انفصال الشمس والأرض وسائر كواكب المجموعة الشمسية عن تلك السحابة السديمية بواسطة القوة المركزية النابذة أو القوة الجاذبة أو الانفجار النووي، أو بطريقة التصادم مع الشمس حيث احتلت الشمس المركز، بينما أخذت الكواكب تدور حولها بانتظام في مدارات خاصة بعد أن تبردت وتصلّبت وأخذت تدور حول الشمس الأم، كما تبرّدَ الغلاف الجوي وتكاثف بخار الماء، فانهمرت الأمطار الغزيرة خلال مئات من السنين حيث تشكلت البحار والمحيطات. ثم تشكلت القارات المنفصلة، ومن المحتمل أن الحياة ظهرت لأول مرة في البحر منذ 2.7 مليار سنة مضت وقد تحولت تدريجياً بعض الكائنات المائية إلى حيوانات برمائية، ثم تحولت إلى زواحف، ثم تطورت إلى ثدييات، وخلق الإنسان على سطح الأرض منذ نحو مليون سنة تقريباً.

«فرضيات في أصل الأرض»

1 ـ فرضية العالم الألماني «كنت»: التي تقول: إن الشمس هي التي كونت مجموعتها السيارة بنفسها دون تدخل أي جُرم سماوي آخر. أي أن الشمس كانت في مراحلها الأولى كتلة ضخمة جداً من الغاز المتوهج، تملأ حيز المجموعة الشمسية الحالي بأكمله، وتدور حول محورها ثم أخذت حرارتها

تتناقص باستمرار لأنها فقدت قسماً منه بالإشعاع في الفضاء المحيط بها حيث تقلّصت تدريجياً فزادت سرعتها ثم تولّدت قوة مركزية نابذة ناتجة عن هذا الدوران السريع حول محورها أدت إلى تفلطح مادة السديم، حيث تم طرد عدد من الحلقات الغازية، التي أخذت تدور حول محورها وحول الكتلة المركزية، نواة السديم، التي هي الشمس الأولى.

2 ـ فرضية لابلاس: قدم في كتابه «عرض لنظام الكون عام 1796» الفرضية السديمية وهي تشبه فرضية «كنت» التي تقول «إن سديماً من السحب الغازية اللاهبة، يدور بسرعة، وبتأثير جاذبية العناصر والأجسام أخذت هذه الغازات تتكاثف، وتقلّص حجم السديم على شكل كرة مفلطحة، مما أدّى إلى ازدياد سرعة الدوران التي أدت إلى انفصال حلقات متعددة عن النواة الأصل بسبب القوة النابذة.

3 ـ فرضية أخرى: تقول: إن نجماً عابراً مرَّ أمام الشمس يتميز بسرعته، وشدة جاذبيته، يقارب الشمس في حجمه وكتلته، فأخذ من الشمس من الجهة المقابلة له أجزاء من الغاز، انفصلت عن بعضها وشكّلت الكواكب السيارة بعد تبرّدها.

4 ـ فرضية مكسويل: تقول: إن المادة المركزة في الوقت الحاضر في مختلف الكواكب السيارة لو كانت موزعة بانتظام على جميع الحيز الذي تشكله المجموعة الشمسية الآن لكان توزيع مادتها دقيقاً بحيث أن قوة الجذب لا تستطيع أن تجمعها وتكتلها في سيارات مستقلة. وأن الحلقات التي طرحتها الشمس كانت ستظل حلقات مماثلة لحلقات زحل مستمرة في دورانها حول كواكبها..

5 ـ أما فرضية «دي بوفون» التي تقول: بأن مذنباً هائلاً آتياً من الفضاء البعيد تصادم مع الشمس، ففصل عن جسم الشمس عدداً من الأجزاء الصغيرة، ابتعدت عنها في الفضاء ودارت حول نفسها من شدة الصدمة، وأخذت لها

مدارات حول الشمس مشكلة أعضاء المجموعة الشمسية بعد أن تبرَّدت وتصلَّبت.

وقد اكتشف العلماء بتحليل أطياف الأضواء الواردة من الشمس والكواكب أنها تتكون من عناصر مشابهة، وأن المواد الموجودة في الشمس موجودة على الأرض حتى أن بعض العناصر كالهليوم مثلاً اكتشف في الشمس قبل اكتشافه على الأرض، وأن تركيب الكون الذي يحيط بنا يتألف من 99٪ من الهيدروجين والهليوم وهما أشد العناصر بساطة وخفة، ومن 1٪ من عناصر أشد ثقلاً.. وجميع هذه المواد تتجمع في غيوم ضخمة من الغازات والغبار الكوني، وإذا تراكمت مع بعضها شكلت كرة ضخمة في الفضاء تصدر إشعاعات مشحونة بالطاقة وهكذا يتشكل النجم. أما الكتلة المظلمة الكثيفة من غبار كوني فإنها تؤلف كوكباً سياراً...

6 ـ خلق الكون في القرآن الكريم:

لم يذكر القرآن الكريم روايةً كاملةً عن مسألة الخلق الكامل، وإنما ذُكرت قصة الخلق في أماكن متعددة منه، على غير ما ورد في رواية التوراة من تسلسل مستمر يبين مرحلة الخلق في أيام ستة كما مر بنا.. قال تعالى: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام﴾[1]. وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿خلق السمٰوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾[2]. يفهم من كلمة يوم على أنها مرحلة عمل، أي أن عملية الخلق تمت على ست مراحل، وأن اليوم بمفهوم علم الفلك لم يكن قد بدأ استناداً إلى دوران الأرض حول نفسها.. وبالتالي فلا ليل ولا نهار.. وربما يكون اليوم دهراً طويلاً أو فترة زمنيةً غير محددة مهما طالت، وتتضاءل إلى جانبها الأيام كما نفهمها.. قال تعالى: ﴿يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرُج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة

(1) سورة الأعراف، آية: 54.

(2) سورة الفرقان، آية: 59.

مما تعدّون﴾[1] وجاء في موضع آخر قوله تعالى: ﴿**تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة**﴾[2]. إن الله سبحانه وتعالى قادر على الخلق بأقل من طُرفة عين، وأمْره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون... قال تعالى: ﴿**ألمْ تَرَوا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً**﴾[3]. وفي الآيات الكريمة التالية يبين الله عز وجل طريقة خلق الكون مخاطباً محمد ﷺ قال تعالى: ﴿**قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين * فقضاهنَّ سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينَّا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم**﴾[4].

هذا تسلسلٌ مرحلي يبين خلق الأرض وما عليها، من جبال وأقوات للعالمين في أربعة أيام ثم خلق سبع السموات في يومين آخرين.. ويؤكد قوله تعالى في موقع آخر من الكتاب العزيز: ﴿**ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب**﴾[5].

إن عملية الخلق لم تُتْعِب الخالق مطلقاً على غيرِ ما وردَ في التوراةِ التي قالت براحة الخالق في اليوم السابع، يوم السبت. فالله مُنَزَّه عنه صفات البشر.. ومن جهة أخرى فالقرآن الكريم لم يحدد ترتيباً زمنياً في خلق السماوات والأرض وأيهما كان الأسبق. فبعض الآيات تشير إلى الأرض أولاً قال تعالى: ﴿**هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوىٰ إلى السماء فسواهن**

---

(1) سورة السجدة، آية: 5.
(2) سورة المعارج، آية: 4.
(3) سورة نوح، آية: 15-16.
(4) سورة فصلت، آية: 9-12.
(5) سورة ق، آية: 38.

سبع سموات * وهو بكل شيء عليم﴾[1]. وفي سورة طه يقول كذلك: ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العُلى﴾[2]. كما توجد آيات أخرى تشير إلى السماوات قبل الأرض قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيّهُ السموات والأرض﴾[3] وقال كذلك: ﴿والله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنَّ﴾[4]. أما في سورة النازعات فقد جاء ترتيب واضح بَيِّن جزءاً من قصة الخلق مسلسلة: ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها وأَغطش ليلها وأخرج ضُحاها * والأرض بعد ذلك دَحَاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم﴾[5].

تبين هذه الآيات الكريمة كيف بدأ خلق السماوات وبنيانها، ثم كيف رفع سُمكها وجعلها مستوية وأظلم ليلها وأخرج ضحاها حيث أبرز نور شمسها، وأُضيف إليها الليل لأنه ظلُّها والشمس لأنها سراجُها. ثم بسط الأرض وبعد ذلك دحاها «جعلها على شكل البيضة» ثم فجر الينابيع والعيون ثم أنبت المرعى من شجر وعشب وكل ما يأكله الناس من القوت والثمار، ثم ثَبَّت الجبال على وجه الأرض وجعلها رواسي، وجعلها أوتاداً، لتسكن الأرض وتستقر. لتتمتعوا بها أنتم وأنعامكم من بقر وغنم وإبل. جلَّت قدرة الخالق فيما خلق. . وقال كذلك: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً، وقدره منازلَ لتعلموا عدد السنين والحساب﴾[6]. وقد ﴿خلق السمٰوات بغير عَمَدٍ ترونها﴾[7]. هذا ما خلق الله العلي القدير. ولنفكر في قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السّمٰوات والأرض أكبر من خلق الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[8]. فتتضِح معنا عملية خلق الكون واضحة جلية في قوله تعالى: ﴿أوَلَـم يَرَ الذين كفروا أن السمٰوات والأرض

---

(1) سورة البقرة، آية: 29.
(2) سورة طه، آية: 4.
(3) سورة البقرة، آية: 255.
(4) سورة الطلاق، آية: 12.
(5) سورة النازعات، آية: 27-33.
(6) سورة يونس، آية: 5.
(7) سورة لقمان، آية: 10.
(8) سورة غافر، آية: 57.

كانتا رَتْقاً ففتقْناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾[1].

ويفهم منها أن السموات والأرض كانتا سداً أي كتلة واحدة ففتقْناهما أي فصلناهما، فجعلنا السماء سبعاً والأرض سبعاً، أو فتق السماء إن كانت لا تمطر فأمطرت، وفتق الأرض إن كانت لا تنبت فأنبتت وجعلنا من الماء النازل من السماء أو النابع من الأرض كل شيء حي، فالماء سبب الحياة في الكون كله. قال تعالى: **﴿وجعلنا في الأرض رواسِي أن تَمِيْدَ بهم وجعلنا فيها فِجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون * وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون * وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾**[2].

خلق الله الأرض وثبَّت عليها الجبال حتى لا تهتز، وجعل فيها مسالك وطرق لهدايتهم إلى مقاصدهم في الأسفار ثم جعل الله السماء سقفاً للأرض كالسقف للبيت محفوظاً من السقوط والانهيار وهو الذي خلق الليل وخلق النهار وخلق الشمس وخلق القمر وجعل كلاً منها يسير في مداره الخاص لا يحيد عنه أبداً... وهنا يبين الله لنا أن الأرض خلقت قبل السماء فهي كالأساس بالنسبة للبناء وركيزة له وقرار مكين، قال تعالى: **﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوَّركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات﴾**[3]. تفكَّروا في خلق الله يا بني البشر واعلموا أن الله على كل شيء قدير. قال تعالى: **﴿وترى الجبال تحسبُها جامدة وهي تمرُّ مرَّ السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾**[4] فهو الذي جعل الأرض ممهدَّة وثبتها كما تثبت الخيام بالأوتاد، حتى لا تهتز ولا تميد، وهو الذي رفع السماوات بغير عَمَدٍ ترونها. قال تعالى: **﴿ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً وخلقناكم أزواجاً﴾**[5] ويؤكد سبحانه وتعالى هذه الفكرة في أكثر من موضع في القرآن الكريم حيث قال: **﴿والسماء بنيناها بأيد**

---

(1) سورة الأنبياء، آية: 30.
(2) سورة الأنبياء، آية: 31-33.
(3) سورة غافر، آية: 64.
(4) سورة النمل، آية: 88.
(5) سورة النبأ، آية: 6-8.

وإنّا لموسعون، والأرض فرشناها فنعم الماهدون، ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾[1] فبقدرة الله تُبنى السماء بشكل هندسي بديع فهو يوسعها كلما زاد الارتفاع والسمو حتى السماء السابعة أوسع السماوات. قال تعالى: **﴿الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾**[2]. ومن قوله **﴿والسماء وما بناها، والأرض وما طحاها﴾**[3] بمعنى بسطها.

فالله تعالى يخبر عن خلق السماوات وعظمة اتساعها وارتفاعها وجمالها فهي في غاية الحسن والبهاء والكمال... قال تعالى: **﴿والسماء ذات الحُبُك﴾**[4] أي الخلق الحسن.

وقال تعالى: **﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت وإلى السماء كيف رُفِعَت وإلى الجبال كيف نُصبت وإلى الأرض كيف سُطِحت﴾**[5] يخاطب الله تعالى كفار مكة بأن انظروا إلى آيات الله في خلق الإبل وهو بينكم ورفع السماء من فوقكم بغير عَمَد ونصب الجبال من حولكم وبسط الأرض من تحتكم. **﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾**[6] أفلا تؤمنون بالخالق المبدع مالك الملك: **﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾**[7] فالله عز وجل هو الخالق وهو المبدع لهذا الكون ومنظمه ومهندسه وهو الذي وضع له القوانين والأسس وهو الذي خلق كل شيء بقدر ومن أجدر منه إلهاً واحداً خالقاً مهيمناً على الكون وعلى كل موجوداته فهو الأول وهو الأخير فتبارك الله أحسن الخالقين.

إنّنا لا نجد في القرآن الكريم ما يناقض النظريات العلمية الحديثة،

---

(1) سورة الذاريات، آية: 47-49.
(2) سورة الملك، آية: 3.
(3) سورة الشمس، آية: 5-6.
(4) سورة الذاريات، آية: 7.
(5) سورة الغاشية، آية: 16-20
(6) سورة الحج، آية: 65.
(7) سورة الملك، آية: 1.

فالقرآن ليس كتاباً متخصصاً في علم معين إنما لم يُغْفِل موضوعاً ما من الذكر. . فبحث في الفلك وبحث في الطب والتاريخ والجغرافية والأخلاق والسياسة ولكن من دون تخصص، وقد أورد في كل منها العديد من الآيات منها ما قد عرفها الإنسان القديم والفضائي الحديث ومنها ما لم يعرفه الإنسان، قال تعالى: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق، وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾[1]. وها هم رواد الفضاء يجوبون الآفاق الكونية يبحثون عن أغراضهم وأهدافهم وفي كل يوم إنجاز علمي جديد. إن العلم الحديث أثبت أنه لا توجد حقيقة كونية واحدة تختلف مع ما جاء به القرآن الكريم وهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فمن حيث الخلق يؤكد على وجود كتلة غازية. وتردد كلمة «دخان» تعني عموماً كتلة ذات قوام غازي. وهذا يتفق معه العلم الحديث والكتلة السديمية وكذلك عملية الفتْق للكتلة الوحيدة الأولى التي كانت عناصرها ملتحمة ثم انفتقت وتجزأت إلى كتل متعددة أصبحت أعضـاء المجموعـة الشمسية الناتجة عن انفجار السديم وتفتته إلى عوالم عديدة ﴿**وإذا الكواكب انتثرت**﴾[2] أي تمزقت وتبعثرت، والحمد لله رب العالمين.

وفي الأحاديث النبوية: عن رسول الله ﷺ قال الإمام أحمد بن حنبل عندما سُئل، أين كان ربُّنا قبل أن يخلق السموات والأرض؟ قال رسـول الله ﷺ: «**كان في عَمَاءٍ، ما فوقه هواء، وما تحته هواء، ثم خَلَق عرشه على الماء. . .**».

وفي رواية ابن جرير عن محمد بن إسحق أنه قال: «أول ما خلق الله النور والظلمة ثم ميَّز بينهما فجعل الظلمة ليلاً أسود، وجعل النور نهاراً مضيئاً».

عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت، فتعجبت المـلائكة من خلق الجبال، فقالوا: يا رب هل من خلقك شيء أشدُّ من الجبال؟ قال: نعم،

---

(1) سورة فصلت، آية: 53.
(2) سورة الانفطار، آية: 2.

الحديد، فقالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار، فقالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم، الماء. فقالوا يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم، الريح. فقالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم، يتصدق بصدقة يمينه، يخفيها من شماله»[1].

وفي موضوع تسلسل الخلق قال ابن جرير: «إن ربنا خلق الكرسي بعد القلم، ثم خلق العرش بعد الكرسي، ثم خلق الهواء والظلمة، ثم خلق الماء فوضع عرشه على الماء».

وعن رسول الله ﷺ روى الإمام أحمد: قال رسول الله ﷺ «إن أوّل ما خلق الله القلم ثم قال له: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» وقال أيضاً: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء». قال ابن عباس: «إن عرش الله كان على الماء، ولم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً[2] فارتفع الدخان فوق الماء فسمّاه سماء، ثم أيْبس الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعلها سبع أراضي في يومي: «الأحد والاثنين» وخلق الأرض على حوت وهو الذي ذكره سبحانه وتعلى في قوله الكريم **﴿ن، والقلم وما يسطرون﴾**[3] والحوت في الماء، والماء على الصفا، والصفا على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة على الريح. وهي الصخرة التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم عن قول لقمان لابنه: **﴿يا بُنيَّ إنها إنْ تَكُ مِثقالَ حبة من خَرْدلٍ فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض، يأتِ بها الله، إن الله لطيف خبير﴾**[4]. فاضطرب الحوت فتزلزلت الأرض فأرسى الله عليها الجبال

---

(1) حديث قدسي أخرجه الترمذي.

(2) الدخان: هو بخار الماء الذي ارتفع حين اضطرب الماء العظيم الذي خلق من زبدة الأرض بالقدرة العظيمة.

(3) سورة القلم، آية: 1.

(4) سورة لقمان، آية: 16.

فقرَّت الأرض، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾[1]، وخلق الجبال فيها وخلق أقوات أهلها وسخرها وما ينبغي لها في يومي الثلاثاء والأربعاء. وفتق السماء وكانت رتقاً فجعلها سبعاً في يومي الخميس والجمعة، وإنما سُمي الجمعة لأن الله جمع فيه خلق السموات والأرض ثم قال: ﴿وأوحى في كلّ سماء أمرَها﴾[2]، يقول خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والبحار وجبال البرد، ثم زين السماء بالكواكب فجعلها زينةً وحِفْظاً يحفظ من الشياطين، فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش.

ويقول إن السماء الدنيا من زمردة خضراء والسماء الثانية من فضة بيضاء والسماء الثالثة من ياقوتة حمراء والسماء الرابعة من درة بيضاء والسماء الخامسة من ذهب أحمر والسماء السادسة من ياقوتة صفراء والسماء السابعة من نور قد طبقها الله بملائكة قيام على رجلٍ واحدة تعظيماً لله لقربهم منه يقولون: «لا إله إلا الله ذو العرش المجيد» فهم على ذلك منذ خلقوا إلى أن تقوم الساعة، والله أعلم..

يحدثنا الشيخ محي الدين بن عربي في كتابه «الفتوحات المكية» عن خلق العالم فيقول: «خلق الله سبحانه بردة جامدة، كالجوهرة في الاستدارة والبياض، وأودع فيها بالقوة ذوات الأجسام وذوات الأعراض، ثم خلق العرش واستوى عليه اسم الرحمن، فنظر بعين الجلال إلى تلك الجوهرة، فذابت حياء، وتحللت أجزاؤها، فسالت ماء، وكان عرشه على ذلك الماء قبل وجود الأرض والسماء، فأرسل النفس فتموّج الماء وأزْبد، فأنشأ سبحانه من ذلك الزبد الأرض، ثم أنشأ الدخان من نار احتكاك الأرض عند فتقها ففتق فيه السموات العُلى...».

ويقول الطبري (ت 310 هـ) في كتابه «تاريخ الرسل والملوك»: «إن الله خلق الماء على متن الريح، ووضع عليه عرشهُ، ثم خلق البيت العتيق فوق الماء، ثم قبض قبضة من حجارة، ثم فتح القبضة فتنفس الماء وارتفع الدخان،

---

(1) سورة النحل، آية: 15. (2) سورة فصلت، آية: 12.

وإذا بسبع سموات، في كل سماء ملائكتها ثم خلق الحوت ودحا الأرض على ظهره».

وورد في كتاب «قصص الأنبياء» المسمى عرائس المجالس لأبي إسحق النيسابوري (الثعلبي): فيتحدث في إحدى الأساطير عن طبقات الأرض السبع، ويبين لنا كيف تفصل كل طبقة عن الأخرى مسيرة خمسمائة عام «والطبقة الأولى هي التي نعرفها، والثانية هي مسكن الرياح ومصدرها، والثالثة مأهولة بصنف من البشر تشبه وجوههم وجوه بني آدم، في حين تبدو أفواههم كأفواه الكلاب، وأرجلهم كأرجل البقر، وآذانهم كآذان المعز، وأشعارهم كأصواف الضان، وليس على أجسادهم شيء من الثياب، لكنهم كالملائكة في طاعتهم لله عز وجل. أما الأرض الرابعة فهي حافلة بحجارة الكبريت الجهنمية، بينما تحتوي الخامسة على عقارب أهل النار الأسطورية، وعلى حيات مثل الأودية، وتضم الطبقة السادسة دواوين أهل النار وأعمالهم وأرواحهم الخبيثة، وفي الطبقة السابعة مسكن إبليس وجنوده ومنها ينطلقون لغواية البشر».

واليوم يقدر العلماء أنه يوجد في الكون نحو مئة مليون كوكب، لها شروط مماثلة لشروط الأرض من جوّ ووجود ماء، وتركيب كيميائي متشابه، ونفس الإضاءة ومتوسط درجات الحرارة، ولكن ما نمط الحياة على مثل هذه الكواكب؟ الله أعلم.

يقول جل شأنه: ﴿**يوم نطوي السماء كطيّ السجل للكتب، كما بدأنا أول خلق نعيده، وعْداً علينا إنّا كنّا فاعلين**﴾[1].

ومن هذه الآيات التي مَرَّ ذكرها، ومن الأقوال الرشيدة التي سردناها نتوصل إلى الحقائق التالية:

1 ـ إن الخلق عموماً تمَّ على ست مراحل.

2 ـ تداخل مراحل خلق السموات مع مراحل خلق الأرض.

---

(1) سورة الأنبياء، آية: 104.

3 ـ خلق الكون ابتداء من كتلة أولية فريدة كانت تشكل كتلة متماسكة تجزأت فيما بعد. .

4 ـ تعدّد السموات وتعدُّد الكواكب التي تشبه الأرض.

5 ـ وجود خلق وسيط بين السموات والأرض، قال تعالى: **﴿له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثّرىٰ﴾**[1].

ولنذكر دائماً قوله تعالى: **﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾**. . .

7 ـ الأصل المشترك في قصة ولادة الكون:

في الختام نجد أن العامل المشترك في كل نظريات الخلق والتكوين وأساطيره هو ظاهرة الميلاد المائي، حيث أن فكرة المياه الأولى مشتركة في كل الأديان والمعتقدات.

ـ فالأسطورة السومرية قالت: إن ولادة الكون للإلهة «نمو» وهي المياه الأولى.

ـ والأساطير البابلية قالت: إن ولادة الكون من المياه الأولىٰ: «تهامة».

ـ والأساطير السورية تقول: «إن «يُم» المياه الأولى الذي انتصر عليه الإلٰه بعل وشرع بتنظيم العالم بعد انتصاره».

ـ والأسطورة المصرية قالت: إن الإلٰه «رع» كان أول إلٰه يخرج من المياه الأولى وهو الذي أنجب بقية الآلهة فيما بعد. .

ـ والأسطورة الإغريقية قالت: إن أوقيانوس هو المياه الأولى والإلٰه البدئي الذي نشأ عنه الكون. .

ـ وفي التوراة نجد أن المياه الأولى وروح الرّب ترفُّ فوقها قبل التكوين. .

ـ وقد أثبت القرآن الكريم، وهو نهاية الوحي وهو القول الفصل، والنطق

---

(1) سورة طه، آية: 6.

الحق، وجود المياه البدئية بقوله تعالى: ﴿**هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء**﴾[1].

وفي فصل السموات والأرض: تقول الأسطورة المصرية (**انظر الشكل 3**): إن الإله «جيب» إله الأرض المذكر و«نوت» إلهة السماء المؤنثة في حالة اتحاد، وقد تزوجا بعضهما سرّا، دون إذن الإله «رع»، فلما علم كبير الآلهة بذلك أرسل إله الهواء «شو» الذي أبعدهما عن بعض عنوة.. ومنذ ذلك الحين والإله «شو» يطأ بقدميه «جيب» الصريع، ويرفع بذراعيه القويتين السماء «نوت».

وتقول الأسطورة البابلية: إن الإله «مردوخ» يقوم بشطر جسد الإلهة «تهامة» إلى نصفين فيرفع الأولى سماء، ويبسط الثانية أرضاً.

وعند الإغريق تقول الأسطورة: إن الأرض «جيا» وهي الأم الأولى كانت أول إله يخرج من العَماء البِدْئي.. تلِد نظيرها «أورانوس» إله السماء الذي يغطيها من كل الجوانب وتتخد به لتلد بقية الآلهة ثم يتم التفريق بينهما عنوة..

والتوراة يقول في روايته: إن الإله «يهوه» إله العبرانيين يقوم بفصل المياه الأولى إلى شطرين رفع الأول إلى السماء، وبسط الثاني الذي تجمع ماؤه في جانب، وبرزت من اليابسة في جانب آخر...

وعن بداية الخلق روى محمد بن إسحق أن أهل التوراة يقولون: إن الله ابتدأ الخلق يوم الأحد. ويقول أهل الإنجيل: إن الله ابتدأ الخلق يوم الإثنين. ويقول المسلمون: إن الله ابتدأ الخلق يوم السبت...

وعن أبي هريرة قال: «أخذ رسول الله بيدي فقال: خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة، آخر خلق خلقه في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل» والله أعلم.

---

(1) سورة هود، آية: 7.

الفصل الثاني

خلق البشرية

1 ـ تمهيد:

اتفقت معظم الأساطير والروايات على أن أصل البشر من طين وكلهم من أصل واحد وحتى الأساطير البدائية تقول ذلك. ولكن القول الحق ما جاء في القرآن الكريم بأن الخلق البشري بدأ من طين وجعل نسل آدم وسلالته من ماء مهين في قرار مكين فجعله سميعاً بصيراً. ومرت عليه فترة لم يكن شيئاً مذكوراً وشرّفه الله بالعلم والتعليم وميّزه من سائر المخلوقات بالعقل والإبداع. فقد خلق الله بيده الكريمة آدم أبا البشر وصور جثته ونفخ فيه من روحه. وأسجد له ملائكته طائعين وجعله في الأرض خليفة وعلمه الأسماء كلها. وخلق منه امرأته حواء أم البشر فآنس بها وحدته وأسكنها معه جنّته. ثم أهبطهما إلى الأرض وبث منهما خلقاً كثيراً وأسكنهم كوكب الأرض وسخّر لهم الفلك وأنزل الأمطار.. وخلق الحياة على سطح الأرض وجادت الأرض بكل أصناف الحياة ثم أحيا الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابّة.

وتُجمِع النصوص الدينية كلها على أن أصل الإنسان واحد. فالأمم على اختلاف طبقاتها في زمانها ومكانها متسلسلة من أب واحد كما جاء في الحديث الشريف: «كلكم لآدم وآدم من تراب والخلق كلهم عيال الله» وسنستعرض بعض الروايات والأساطير التي قيلت في خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام.

2 ـ الخلق البشري عند السومريين:

تقول الأساطير السومرية المتعلقة بخلق الإنسان: إن الإنسان خُلق من طين وكان تصويره على شكل صورة الآلهة، وتقول إن الإنسان ما خلق إلا ليكون عبداً للآلهة ليقدم لها طعامها وشرابها ويزرع أرضها ويرعى قطعانها. كما خُلِق ليحمل عبء العمل ويرفعه عن كاهل الآلهة..

ولنستمع إلى خطاب «نُمُو» إلهة المياه البدئية التي أنجبت الجيل الأول من الآلهة توجهه إلى ابنها «إنكي الحكيم». تقول فيه: «أيْ بنيْ: انهض من مضجعك. واصنع أمراً حكيماً، اجعل للآلهة خدماً يصنعون لهم معاشهم». فتأمل إنكي في الأمر، ثم دعا الصناع الإلٰهيين المهرة وردّ على أُمّه «نمو» قائلاً: «إن الكائنات التي ارتأيْتِ خلْقها ستظهر للوجود ولسوف نعلق عليها صورة للآلهة، إمزجي حفنة طين من فوق مياه الأعماق وسيقوم الصنّاع الإلٰهيون المهرة بتكثيف الطين، ثم كوّني له أعضاءه، وستعمل معك «ننماخ»[1] يداً بيد، وتقف إلى جانبك عند التكوين ربات الولادة، ولسوف تقدّرين للمولود الجديد مصيره، يا أماه.. وتعلق «ننماخ» عليه صورة الآلهة في هيئة الإنسان...» فالآلهة السومرية تتعاون لتخلق الإنسان من حفنة من طين ليكون البشر كلهم خدماً للآلهة، يقدّمون لهم حاجاتهم ويسهرون على راحتهم.

3 ـ الخلق البشري في التوراة:

تذكر التوراة أن الإلٰه «يَهْوَهْ» قام بخلق الإنسان الأول من طين بعد أن انتهى من خلق العالم كله، «وجبل الرب الإلٰه آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نَسْمَةَ حياة فصار آدم نفساً حيةً، وغرس الرب الإلٰه جنةً في عَدَن شرقاً، ووضع هناك آدم الذي جبله، وأنْبَت الربُّ الإلٰه من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل، وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر»[2].

(1) ننماخ: Ninmakh هي الأرض الأم في الأسطورة السومرية.
(2) سفر التكوين الاصحاح الثاني.

ويوصي الرب آدم بأن يأكل من جميع شجر الجنة ما عدا شجرة معرفة الخير والشر، وأنذره بالموت إذا أكل منها. تقول التوراة: «وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعلمها ويحفظها. وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت»[1]. ويريد الربّ أن يؤنس آدم بامرأة من نفسه تسكن معه الجنة، وتساعده على أيام حياته، وعلمه الأسماء كلها، وتتابع التوراة القول: «وقال الرب الإله ليس جيداً أن يكون آدم وحده فأصنع له مُعيناً نظيره. وجبل الربّ الإله من الأرض كل حيوانات البرية، وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها»[2].

كيف خُلِقَت حواء من نفس آدم؟ تقول التوراة: «فأوقع الرب الإله سُباتاً على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً، وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلى آدم، فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي، هذه تدعى امرأة لأنها من امرىءٍ أُخِذَت، لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكونان جسداً واحداً»[3].

ويسمي آدم زوجته حواء باسمها لأنها أمّ لكل الأحياء في الكون.

تقول التوراة: «ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حي، وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصة من جِلْد وألبَسهما»[4].

وبدأ الخلق يتزايد وكثرت الولادات من أب واحد وأم واحدة، من آدم وحواء، فالكل لآدم وآدم من تراب، فجاء قابيل وهابيل وبدأت الحياة بتناقضاتها وصراعاتها القائمة بين الخير والشر، بين الحق والباطل. تقول التوراة: «وعرف آدم حواء امرأته، فحبلت وولدت ذايين وقالت اقتنيت رجلاً من عند الرب، ثم عادت فولدت أخاه هابيل، وكان هابيل راعياً للغنم، وكان قايين عاملاً في الأرض، وحدث من بعذ أيام أن قايين قدم من أثمار الأرض قرباناً للرب، وقدم

(1-2-3) سفر التكوين: الاصحاح الثاني.

(4) التكوين: الاصحاح الثالث.

هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سِمانها، فنظر الرب إلى هابيل وقربانه، ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر»[1].

وقد ورد في القرآن الكريم ما يشبه ذلك حيث قال تعالى: **﴿واتْلُ عليهم نبأ ابنَي آدم بالحق إذْ قربا قرباناً فتُقُبِّل من أحدهما ولم يُتَقَبَّل من الآخر، قال لأقتلنّك، قال إنما يتقبل الله من المتّقين﴾**[2].

تذكر التوراة ما يلي: «هذا كتاب مواليد آدم يوم خلق الله الإنسان على شَبَهِ الله عمله. ذكراً أو أنثى خلقه وباركه ودعا اسمه آدم يوم خلق، وعاش آدم مئة وثلاثين سنة وولدَ ولداً على شَبَهِهِ كصورته ودعا اسمه شيثاً»[3] واحتالت الحيّة الخبيثة على حواء فأكلت من الشجرة واحتالت حواء على آدم فأكل بدوره من الشجرة التي منعه الله منها وذكرت الرواية التوراتية ذلك: «وكانت الحية أحْيل جميع الحيوانات البرية التي عملها الرب الإله». وتوضح لنا الآيات التالية قصة الحيّة مع حواء وكيف أغوتها وزوجها حتى أكلا من الشجرة الممنوعة. «قالت الحية للمرأة: لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتحُ أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنّها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عُريانان، فخاطا أوراق التين وصنعا لأنفسهما مآزر»[4] وحلت العقوبة من الله تعالى على آدم وزوجته ووقعا بالخطيئة لمخالفتهما أوامره، وعليهما أن يتحملا وزر أعمالهما. فكان الطرد من الجنة لأن آدم سمع كلام زوجته واستجاب لرغبتها. تقول التوراة: «فقال لآدم لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً: لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أُخذت منها لأنك من تراب وإلى تراب تعود»[4]. ومن خرافات التلمود في قصة الخلق: «يروى أن الله خلق آدم ذا

---

(1) التكوين: الاصحاح الرابع.
(2) سورة المائدة، آية: 27.
(3) سفر التكوين الاصحاح الخامس.
(4) سفر التكوين: الاصحاح الثالث.

وجهين، رجلاً من ناحية، وامرأة من ناحية أخرى، ثم قطعه من النصف، وأن طوله كان يصل القبة الزرقاء. ولكن بعد خطيئته وضع الله يده على رأس آدم وكبسه حتى صار صغيراً، وأنه أتى الخطيئة في الساعة العاشرة من خلقه ثم طرده من الجنة في الساعة الثانية عشرة».

قال تعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾[1].

4 ـ الأساطير البدائية في خلق البشرية:

تعددت الأساطير وتنوعت الحكايات التي قالت في كيفية خلق الإنسان الأول وكلها تدل على السذاجة وضعف المستوى الفكري لدى شعوبها ومع ذلك فهي تؤمن بأن أصل الخلق والتكوين هو الطين.

* تقول الأسطورة الافريقية: «إن الإله الخالق قد أخذ حفنة من طين شكلها على هيئة إنسان ثم تركها في بركة مليئة بماء البحر مدة سبعة أيام. وفي اليوم الثامن رفعها فكانت بشراً سويّاً».

فهي بالرغم من بساطة الفكرة إلا أنها تؤمن بأن الإنسان الأول خُلق من طين، وأن هناك إلٰهاً خالقاً قوياً قادراً على كل شيء.

* وهناك أسطورة فيلبينية غريبة عجيبة تقول: «يقوم الإله الخالق بجبْل حفنة من طين على هيئة إنسان ويضعها في الفرن فيسهو عنها فتسْوَد وهذا هو أصلُ الإنسان الأسود، ثم يضع حفنة أخرى من الطين ولكنه يخرجها قبل أن تنضج فهذا هو أصل الإنسان الأبيض، ثم يضع حفنة ثالثة فيأخذ الطين كفايته من النار فيخرج الإنسان الفيلبيني ذو اللون البرونزي». جل الذي لا يسهو ولا تأخذه سنة ولا نوم. ومع ذلك فهم يؤمنون بأن الطين هو أصل تكوين البشر، وأن الإله هو خالق البشر من طين.

---

(1) سورة طه، آية: 55.

* وفي أسطورة عند أهل ميلانيزية: نجدهم يعتقدون أن أجدادهم خرجوا من الأرض بشكل عود من قصب السكر نبتت فيه عقدتان: إحداهما صارت رجلاً، والأخرى صارت امرأة، وهما أصل البشرية عندهم، وهم لا يدّعُون نسباً إلى أية أمة أخرى. . .

* وفي أسطورة يونانية تسمى أسطورة «بروميثيوس» وهو الذي جبل إنساناً من التراب ثم سرق قبساً من النار المقدسة من «زفس» سيد الآلهة اليونانية لينفخ فيه الروح، ولكن «زفس» الإله الكبير غضب عليه وعاقبه بأن قيده إلى صخرة في قمة جبل حيث ينهش نسر من كبده، وكلما نهش النسر قطعة من كبد «بروميثيوس» تجددت. «انظر الشكل 4».

* وفي أسطورة هندية أمريكية تقول: إن التكوين من طين وإن نفخة الحياة هي التي تهب الحياة الشكل الجامد روحه وحركته. .

قال تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾[1].

5 ـ خلق الإنسان في القرآن:

إن الحياة خلقت على سطح الأرض بعد أن نشأت وتكونت، وبعد أن تبردت وهطلت عليها المياه مدراراً فكانت النباتات ثم الحيوانات ثم الإنسان وهو قمة المخلوقات وأرقاها، وقد وردت في القرآن الكريم أن المياه هي المصدر الرئيسي للحياة، وهي سبب نمو كل النباتات بأنواعها وأشكالها وخلق كذلك الحيوانات وكل ما دبّ على الأرض. . . قال تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾[2]. وقال جل شأنه: ﴿وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾[3]. تجلت قدرة الخالق الذي أخرج من النباتات أزواجاً لتكون

---

(1) سورة الزمر، آية: 67.
(2) سورة الأنبياء، آية: 30.
(3) سورة طه، آية: 53.

قادرة على استمرار الحياة والتجديد. وقال كذلك: ﴿**والله خلق كل دابة من ماء**﴾[1].

وأما عن الإنسان فقد فسّر لنا القرآن الكريم المراحل التي تم فيها خلق الإنسان منذ عهد آدم عليه السلام وتناسل أولاده من بعده، وامتلأ الكون بشراً فقال: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين**﴾[2].

وقال أيضاً: ﴿**يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم * الذي خلقك فسواك فعدلك * في أي صورة ما شاء ركبك**﴾[3]. يا أيها الكافر ما غرك بربك حتى عصيته، فهو الذي خلقك ولم تكن شيئاً موجوداً، وأحسن الله خلقك وجعلك سوي الخلقة، سالم الأعضاء، معتدل الخلق، متناسب التركيب وقد جعلك على أجمل صورة وأنعم عليك الكثير من نعمه وأنعامه.

بدأ الله خلق الإنسان من نطفة ﴿**خلق الإنسان من علق**﴾ ثم يمر بأطوار أخرى حتى يكتمل الخلق تماماً، قال تعالى: ﴿**وقد خلقكم أطواراً**﴾[4]. وقال كذلك: ﴿**فإنّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة**﴾[5]. ويكرر جل شأنه قوله مؤكداً لنا الطريقة ذاتها في الخلق والتكوين الإنساني، ويصفها بدقة محكمة وتحديد: ﴿**هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة**﴾[6]. ويخبرنا كيفية تطور الجنين في الرحم ومراحل الخلق والتكوين، وهو قول يتوافق معه العلم الحديث، قال تعالى: ﴿**ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً**﴾[7]. أي أن الخلق يتم على ست مراحل هي: النطفة ـ العلقة ـ المضغة ـ العظام ـ اللحم ـ ثم نفخ الروح فيه.

---

(1) سورة النور، آية: 45.
(2) سورة المؤمنون، آية: 12.
(3) سورة الانفطار، آية: 6-8.
(4) سورة نوح، آية: 14
(5) سورة الحج، آية: 5.
(6) سورة غافر، آية: 67.
(7) سورة المؤمنون، آية: 14.

خلق آدم من طين: لقد شرف الله الإنسان على سائر المخلوقات فهو صفوة العالم وخلاصته وثمرته، وأخبر الله تعالى ملائكته أنه سيخلق بشراً من طين وأنه سيجعله خليفة في الأرض يخلفه في تنفيذ أحكامه فخلق الله تعالى آدم من أديم الأرض بأن قبض من وجه الأرض قبضة من جميع ألوانها وعجنت بالمياه المختلفة، ثم سواه ونفخ فيه الروح فصار حيواناً حساساً بعد أن كان جامداً لا حراك فيه. قال تعالى: **﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة * قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾**[1]. ويبين جل شأنه قدرته على خلق الإنسان من طين صلصال قائلاً: **﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون * والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم * وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين *﴾**[2]. وهكذا خلق الله تعالى آدم من طين يابس أسود مسنون متغير تسمع له صلصلة إذا نقر، والصلصال هو الطين اليابس، والطين الحر خليط بالرمل فصار يتصلصل أي يصدر صوتاً إذا جف وإذا طبخ بالنار فهو الفخار. أما إبليس فقد خلقه الله تعالى قبل آدم «قال عبد الله بن عمر: كانت الجن قبل آدم بألفي عام» خلقه من نار لا دخان لها تنفذ من المسام، فسواه الله ونفخ فيه من روحه فصلر حياً».

وكرّم الله آدم بإضافة الروح إليه ثم أمر الملائكة جميعهم بالسجود تحية واحتراماً لآدم أبي البشر. فسجدوا بأمر الله احتراماً وتكريماً، إلا إبليس أبا الجن الذي أبى واستكبر وامتنع عن السجود، ويتكرر خطاب الله لملائكته بأنه خالق بشراً من طين حيث قال: **﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين، قال يا إبليس ما منعك أن**

(1) سورة البقرة، آية: 30.

(2) سورة الحجر، آية: 26-31.

تسجد لما خلقت بيدي استكبرتَ أم كنت من العالين، قال أنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين﴾[1].

لقد كرّم الله بني آدم على العالمين خَلْقاً وخُلُقاً وميزه على غيره بالعقل والتفكير.

قال تعالى: **﴿ولقد كرّمنا بني آدم﴾**[2]. وقد وردت آيات قرآنية كثيرة في مواضع عديدة حول خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام، ومراحل تطوره ثم ولادة البشرية كلها كأبناء لآدم فكلهم لآدم وآدم من تراب. قال تعالى: **﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجانَّ من مارج من نّار﴾**[3].

هذه مقارنة بين خلق الإنسان من الطين وخلق الجان من النار وميز بينهما بهذه الأصول، فكانت صورة البشر على أجمل تركيب وأجمل هيئة. قال تعالى: **﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾**[4].

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك».. وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة عن رسول الله أنه قال: «لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وميضاً من نور ثم عرضهم على آدم، فقال: أي رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك»[5].

وفي حديث قدسي آخر قال رسول الله: «خلق الله عز وجل آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً فلما خلقه قال: اذهب فسلّم على أولئك النفر، وهم

---

(1) سورة ص، آية: 71-76.
(2) سورة الإسراء، آية: 70.
(3) سورة الرحمن، آية: 14-15.
(4) سورة غافر، آية: 64.
(5) أخرجه الترمذي في جامعة.

نفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيّونك به، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، قال: السلام عليكم، فقالوا السلام عليك ورحمة الله، قال: فكل من يدخل الجنة على صورة آدم وطوله ستون ذراعاً، فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن»[1].

وقد ورد في تاريخ ابن جرير أن حواء ولدت أربعين ولداً في عشرين بطناً وقيل مئة وعشرين بطناً، في كل بطن ذكر وأنثى، أولهم قابيل وأخته إقليماً، وآخرهم عبد المغيث وأخته أَمَة المغيث..

وقيل أن آدم لم يمت حتى رأى من ذريته، من ولده وولد ولده أربعمائة ألف نسمة.. والله أعلم.

وكانت مدة حياة آدم ألف سنة، فتباركت يا خالق الخلق ما أجلك وما أعظمك فكل شيء عندك بمقدار.

ويروي المسعودي: في كتابه مروج الذهب: إن الله بعث جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض: إني أعوذ منك أن تنقصني، فرجع ولم يأخذ منها شيئاً، وقال يا رب إنها عاذت بك. ثم بعث ميكائيل، فقالت له الأرض مثل ذلك فرجع ولم يأخذ شيئاً. فبعث الله ملك الموت فعاذت بالله منه، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أُنفّذ الأمر. فأخذ من تربة سوداء وحمراء وبيضاء لذلك خرج بنو آدم مختلفين في الألوان وسمي آدم لأنه أُخذ من أديم الأرض. وقيل غير ذلك.

ووكل الله ملك الموت بالموت.. وجبله الله تعالى وتركه حتى صار طيناً لازباً يلزق بعضه ببعض أربعين سنة، ثم تركه حتى أنتن وتغير أربعين سنة وذلك قوله تعالى: ﴿من حمأ مسنون﴾. ثم صوّره وتركه بلا روح من صلصال من فخار حتى أتى عليه مائة وعشرون سنة وقيل أربعون سنة. وهو قوله تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً

(1) رواه مسلم..

مذكوراً﴾[1]. وكانت الملائكة تمر به فيفزعون منه وكان أشدهم فزعاً إبليس، كان يمر به فيضربه برجله فيظهر له صوت كظهوره من الفخار وتكون له صلصلة وذلك قوله تعالى: ﴿**من صلصال كالفخار**﴾ وكان إبليس يدخل من فيه ويخرج من دبره ويقول: «لأمرٍ ما خُلِقت». . .

6 ـ خلق الإنسان الأول في مفهوم العلم الحديث:

نصت الرواية التوراتية على أن التاريخ العبري بدأ منذ حوالي (5750 سنة حتى هذا العام أي عام 1990). وتعد هذه الفترة الزمنية قصيرة جداً بالنسبة إلى عمر البشرية، وفي الجدول التالي تبين لنا التوراة أبناء آدم وأعمارهم من عهد آدم عليه السلام حتى إبراهيم الخليل وهذه الإحصائية مأخوذة من العهد القديم من نصوص التوراة في سفر التكوين:

الرقم	الإسم	تاريخ الميلاد بعد خلق آدم	مدة العمر	تاريخ الوفاة بعد خلق آدم
1	آدم	....	930	930
2	شيث	130	912	1042
3	أنوش	235	905	1140
4	قينان	325	910	1235
5	مهللئيل	395	895	1290
6	يارد	460	962	1422
7	اخنوخ	622	365	987
8	متوشالح	687	969	1656
9	لامك	874	777	1651
10	نوح	1056	950	2006
11	سام	1556	600	2156
12	ارفكشاد	1658	438	2096
13	شالح	1693	433	2126
14	عابر	1723	464	2187

(1) سورة الإنسان، آية: 1.

15	فالج	1757	239	1996
16	راعو	1787	239	2026
17	سروج	1819	230	2049
18	ناحور	1849	148	1997
19	تارح	1878	205	2083
20	إبراهيم	1948	175	2123

ربما أن هذه الأرقام والتقديرات الموضوعة تكاد تكون متقاربة في نسخ التوراة، لكنها تتعارض مع مكتشفات العلم الحديث التي حددت تاريخ خلق الإنسان بعصر أسبق من ذلك بكثير..

فما رأي العلم الحديث بذلك؟.

تدل المعطيات العلمية من وثائق ومستحاثات وآثار وأدوات بشرية قديمة مستعملة على أن الإنسان ظهر على سطح الأرض لأول مرة منذ أكثر من مليون سنة تقريباً. وهو زمن قصير نسبياً بالنسبة لعمر الخليقة وبداية الكون بل لعمر الأرض ذاتها المقدر بـ (4.5 - 6.00 مليار سنة).

وتقول كل الفرضيات بالزمن البعيد لبداية خلق الإنسان وليس كما ذكرت التوراة..

لقد وُجِد الإنسان على وجه الأرض بقدرته وقوة ذكائه التي تميز بها عن باقي المخلوقات حتى القريبة منه تشزيحياً. فالقرد مثلاً قد يلتقط عصاً أو حجراً كيفما اتفق ويستخدمه كأداة له وفق ما يريد.. بينما الإنسان القديم في ما قبل التاريخ تميز بصفات خاصة ومؤهلات ذاتية وقدرة على صنع أدواته الخاصة مما تقدمه الطبيعة من حجر أو شجر، فهو يستطيع تكييف الحجارة وتصنيعها لتصبح أكثر ملائمة ويُحَسِّنها ويطوِّرها كيف يشاء.. كما أنه اكتشف النار واستخدمها، وكان أقدم موقد عُرِف هو الموقد الذي اكتشف في الصين في كهف عُثِر فيه على أدوات بدائية وبقايا عظام الأيائل ووحيد القرن ويعود ذلك إلى أكثر من (200 ألف سنة).

وبسبب غلبة العنصر الحجري على الأدوات المستعملة حين ذاك فقد اصطلح علماء الأنتروبولوجيا «علماء الإنسان» أن يقسموا الفترة التاريخية لظهور البشر من خلال المعطيات والوثائق إلى:

1 ـ العصر الحجري بأنواعه الثلاثة: وهي القديم: الذي يستمر حتى (12000 سنة ق. م) والوسيط الذي يستمر (10000 حتى 8500 ق.م.). والحديث: الذي يستمر من (5000 إلى 2500 سنة ق. م.). وكان الإنسان يصنع أدواته وأسلحته من الحجر بأشكاله وخاصة حجر الصوان الذي اكتشف منه أقدم أداة مصقولة من طرفيها في منطقة حدودية بين أثيوبيا وكينيا ويقدر عمرها بحوالي (2.2) مليون سنة.

2 ـ العصر البرونزي: حيث اهتدى الإنسان إلى خليطة البرونز من النحاس والقصدير وصنع أدواته وحاجاته منها ويعود ذلك إلى أكثر من (4000 عام ق. م) حيث اكتشف النحاس أولاً ثم البرونز ثم الحديد.

3 ـ العصر الحديدي: اهتدى إليه الإنسان واستخدمه في صناعاته البدائية. . ومع ذلك يصعب تحديد الزمن الذي انتقل فيه الإنسان من عصر إلى عصر، بين منطقة وأخرى، وما ذكرناه من أرقام تاريخية فهي تقريبية إجمالاً، تنقصها الدقة والإثبات. (**الشكل5**).

7 ـ أصل الإنسان:

يعتقد الكثيرون أن أصل الإنسان واحد، بدليل أن جميع الناس على اختلاف طبقاتهم وأصنافهم وأجناسهم ومراكز تواجدهم ليس بينهم اختلاف جوهري يفيد بتعدد الأصول البشرية، وإنما هي تنوعات أو اختلافات اقتضتها الأحوال وفرضتها سنة النشوء والتطور للتكيف مع البيئة، وما تتعرض إليه من مؤثرات خارجية. قال تعالى: **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً﴾**[1]. فالوجود كله

---

(1) سورة النساء، آية: 1.

تأكيد لوحدة الأصل وكل الكائنات البشرية تعود إلى الأصل الأول آدم وحواء. قال تعالى: ﴿**ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون**﴾[1]. ولكن أصحاب فرضية النشوء والارتقاء يرون أن الإنسان انحدر من أسلاف حيوانية أي أنه ارتقى عن حيوان وسط بين الإنسان والقرد لذلك فهم يعدون أن الإنسان والقرد من أصل واحد نظراً للتشابه الكبير بينهما في الأعضاء وبعض الأطوار. وخاصة التشابه التدريجي بين أدمغة القرود وأدمغة البشر، حيث تبين لهم أن حجم الدماغ[2] يتدرج في القرود حتى يبلغ أرقاها ثم يتصل بطبقات الناس بدءً من أحط العروق البشرية حتى أرقاها فكرياً أي أن أرقى فصائل القرود وأذكاها هي أحط فصائل البشر عقلاً وتفكيراً والفرق بين الطائفتين كبير وواضح، والوصل بينما أمر صعب ويقوم العلماء بالبحث عن الحلقة الواصلة بينهما والتي يسمونها «الحلقة المفقودة» ولم يهتدوا إليها حتى الآن (**انظر الشكل 6**). وفي عام 1859 م نشر داروين (1809-1882) كتابه «أصل الأنواع». ودار النقاش الحاد والجدل الجاد حول عملية التطور وكيفية النشوء والارتقاء التي قال عنها داروين، وقد تساءل الناس في ريبة عمّا إذا كان الإنسان ومعه الحيوانات الأخرى قد ارتقى أو تطور منحدراً من نفس الاسلاف الأصليين، ومن المؤكّد أن الإنسان الأول لم يكن مظهره وشكله كما يبدو عليه الآن من الناحية التشريحية وقد كان مميزاً عن جميع القرود التي لم يكن لها ذكاء الإنسان الأول المسمى (شبه الإنسان).

8 ـ جماجم أشباه الإنسان:

* إن أول جمجمة عثر عليها في الصين «إنسان بكين» في منطقة «تل

(1) سورة الذاريات، آية: 49.
(2) تفيد التقديرات العلمية بأن حجم الدماغ عند هذه الحيوانات هي كما يلي:
ـ حجم دماغ الشمبانزي (350 سم^3).
ـ حجم دماغ الغوريلا (500 سم^3).
ـ القرد الإنساني أو الحلقة المفقودة حجم دماغه (1000 سم^3).
ـ الشعوب البدائية من الناس حجم الدماغ (1250 سم^3).
ـ أرقى العروق البشرية (القوقازيين): ما بين (1400-1600).

عظام التنين» منذ أكثر من (300000 سنة)، وهذه الجمجمة من أقدم العظام البشرية المكتشفة وقد تم العثور عليها عام 1929 م، وهي تدل على وجود الإنسان المنتصب القديم. (الشكل 7).

* وفي عام 1892 م عثر على بقايا حيوان قديم كثير الشبه ببقايا الإنسان في جزيرة «جاوة» في أندونيسيا من قبل الدكتور «أوجين ديوا»، وقد وجدت هذه البقايا ضمن طبقات العصر البليوسيني (الحقب 3). وبسبب تشابهه الشديد مع الإنسان سمي بالقرد الإنساني المنتصب وعدوّه الحلقة المفقودة بين الإنسان وما دونه.

* كما اكتشفت بعض الجماجم في افريقيا القديمة وخاصة في تانزانيا وشرق افريقيا، ونلاحظ هنا أن هذه المناطق الثلاث هي المناطق الأكثر دفئاً في العالم..

* وفي عام 1856 م عثروا على جمجمة من بقايا العصور الجليدية في «نياندرتال» في المانيا قرب دوسلدورف، وهي أقدم ما عثر عليه من بقايا الإنسان في أوروبا وحجمها متوسط بين جمجمة القرد الإنساني وجمجمة الإنسان الحالي، وسمّوه الإنسان (البليوستوسيني) الحقب 4.

* كما اكتشف في فرنسا في منطقة الدوردون إنسان «كرومانيون».. وفي استراليا وجدت جمجمة تشبه جمجمة نياندرتال، رغم بعد المسافة بين المانيا واستراليا، وكان التشابه كبيراً في الأدوات الحجرية المستخدمة التي عثروا عليها مما يدل على وحدة أصلها..

فهل يمكن أن نعدّ أشباه البشر هؤلاء بشراً حقيقيين؟. وهل هم من نسل آدم عليه السلام؟.

أم أن وجود هذه المخلوقات كان قبل خلق آدم؟. وأن لا علاقة لهم بخلق آدم لقوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾[1].

(1) سورة التين، آية: 4.

مهما يكن من أمر فتاريخ وجود الإنسان قديم جداً، وما زال الجدل قائماً بين ما تقدمه المعلومات الحسابية لسفر التكوين الخاصة بظهور الإنسان على الأرض وبين المعطيات العلمية الحديثة وما تقدمه المستحاثات الأرضية. . وهذا الجدول يبين لنا بدء الحياة العامة على سطح الأرض: مع ملاحظة أن العلماء يقدرون اليوم عمر الأرض بـ(4.5 - 6) مليار سنة، بينما يقدر الفلكيون ذلـك بـ(13) مليار سنة منذ بدء تشكل المجرات. .

9 ـ مراحل الحياة على الأرض:

المدة المقدرة	الحقب		العصر	الخصائص الجيولوجية وأنواع الحياة فيها
500000 سنة	الرابع		الحديث	عصر الإنسان
			البليوستوسين	العصور الحجرية ـ عصر الجليديات.
51 مليون سنة	الثالث	11 م سنة	البليوسين	بدء ظهور الإنسان.
		11 م سنة	الميوسين	تكوين الجبال الإلتوائية العظمى ـ ظهور الثدييات الكبرى.
		12 م سنة	الأوليغوسين	بدء ظهور القردة.
		20 م سنة	الإِيوسين	بدء الحياة الحديثة.
		55 م سنة	كريتاسي	صخور الطباشير ـ إندثار الزواحف الكبرى بدء النباتات ذات الأزهار.
135 مليون سنة	الثاني	45 م سنة	جوراسي ٥	عصر الزواحف الضخمة والثدييات الأولى.

		40 م سنة	ترياسي	بدء الحياة الوسطى، فترة جفاف في أوروبا.
360 مليون سنة	الأول	50 م سنة	البيرمي	ظهور الزواحف
		80 م سنة	الفحمي	عصر الفحم الحجري.
		30 م سنة	الديفوني	عصر الأسماك الغضروفية.
		50 م سنة	السيلوري	بدء ظهور الأسماك والحيوانات القشرية.
		100 م سنة	الكامبري	ظهور الحيوانات اللافقارية.
2000 مليون سنة	البدائي (الاركي)		ما قبل الكامبري	صخور نارية أو متحولة خالية من المستحاثات..

الباب الثاني

ديانات الأولين

تمهيد:

ينتسب البشر بعد آدم إلى نوح وأولاده عليهم السلام، فسيدنا نوح هو الثاني ممن ذكروا بعد آدم، وهو أول الرسل كما ورد عن أبي هريرة في حديث الشفاعة «يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض»[1]. ولم يبق على الأرض بعد الطوفان المعروف إلا ذرّية نوح عليه السلام. قال تعالى: ﴿**وجعلنا ذريته هم الباقين**﴾[2]. فكثرت ذرية نوح وتناسلت من بعده أمم وشعوب كثيرة، طغت وبغت وأفسدت في الأرض فأرسل الله لكل أمة نبياً أو رسولاً لهدايتهم إلى عبادة الله وحده، وترك الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، قال تعالى: ﴿**ولكل أمة رسولاً**﴾[3]. وجميع هذه القبائل من الأمم التي بادت وانقرض جميعها وانمحت أنسابهم وزالت آثارهم جزاء بما كسبوا، ولقد أخذهم الله بالعذاب ومحقهم عن بكرة أبيهم لأنهم ضلّوا ضلالاً بعيداً وكانوا لرسلهم يكذّبون وبهم يستهزؤون وبما جاؤوهم من رسالة وهداية كافرين، فحق عليهم عذاب الله وغضبه، قال تعالى: ﴿**وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح**﴾[4]. وقال تعالى: ﴿**وكم أرسلنا**

---

(1) رواه مسلم.
(2) سورة الصافات، آية: 77.
(3) سورة يونس، آية: 44.
(4) سورة الإسراء، آية: 17.

من نبيّ في الأولين * وما يأتيهم من نبيّ إلا كانوا به يستهزؤون﴾[1].

كثيرة هي القبائل التي طغت وكذبت وزجرت، منها قوم نوح وعاد وثمود ولوط وأصحاب الأيكة وفرعون وغيرهم كثيرون، وأنزل الله بهم العقاب والعذاب وأرسل عليهم ما يمحقهم ويفنيهم قال تعالى: **﴿وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب * إنْ كل إلاّ كذَّب الرسل فحقَّ عقاب﴾**[2]. وسنخص بحثنا على أمتين فقط من هذه الأمم البائدة التي كانت عبرة لمن اعتبر من السابقين واللاحقين، هما قوم عاد، وقوم ثمود.

---

(1) سورة الزخرف، آية: 6-7.
(2) سورة ص، آية: 13-14.

الفصل الأول

قوم عاد

1 ـ قوم عاد الأولى:

ورد ذكرهم في القرآن الكريم بشكل مفصل ودقيق ولم يذكروا في كتاب آخر غيره من الكتب المقدسة، وهم من القبائل العربية البائدة. يضرب بهم المثل في القدم فهم أول من عبد الأصنام بعد الطوفان فكانت أصنامهم ثلاثة: (صيدي، صمودا، هرا)، فبعد أن أهلك الله قوم نوح بالغمر والطوفان جعلهم خلفاء لهم في الأرض.. قال تعالى: **﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح * وزادكم في الخلق بسطة﴾**[1].

كانت بلادهم متصلة باليمن وهي بلاد الأحقاف وتعني الرمال ويعتقد أنها بين اليمن وحضرموت وتمتد حتى بلاد عمان، قال تعالى: **﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾**[2]. وكانوا يسكنون الخيام ذات الأعمدة الضخمة، **﴿إرم ذات العماد﴾**[3]. ذكرهم المسعودي في كتابه مروج الذهب بقوله: «وكان قوم عاد في هيئات النخل طولاً، وكانت نفوسهم قوية وأكبادهم غليظة، ولم يكن في الأرض أشد منهم بطشاً، وأكثر آثاراً، وأقوى عقولاً، وأكثر أحلاماً، وقد جعلهم

---

(1) سورة الأعراف، آية: 69.
(2) سورة الأحقاف، آية: 21.
(3) سورة الفجر، آية: 7.

الله أشد أهل زمانهم في الخلقة والبطش ولم يكن الهلك يعرض في أجسامهم لقوة آثار الطبيعة فيها، وما أوتوه من الزيادة في تمام البنية وكمال الهيئة وقد أخبر الله تعالى عن ملكهم وشدة بطشهم وما بنوه من الأبنية المشيّدة التي تدعى على مر الدهور «بالعاديّة» لقدمها»، قال تعالى: **﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشدّ منّا قـوةً أو لم يروا أنّ الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون﴾**[1].

ولقد هلكت هذه الأقوام وبادت قبل غيرها من أمم العرب الباغية، قال تعالى: **﴿وأنه أهلك عاداً الأولى * وثمود فما أبقى﴾**[2]، وقوم عاد الذين هلكوا هم عاد الأولى وأما عاد الثانية فهم سكان اليمن من قحطان وسبأ وتلك الفروع، وقيل: هم ثمود.

2 ـ من هو عاد؟:

هو اسم لأبي القبيلة وهو عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح، وهو أول ملك بعد نوح وكان رجلاً جباراً عظيم الخلقة قوي الهيبة ويذكر أنه تزوج من ألف إمرأة وأنه عاش (1200) سنة وأنه رأى من صلبه (4000) ولداً وخلفه من بعده ابنه الأكبر «شديد» وكان ملكه (580) سنة . . وكان يعبد القمر، وكانت قبائله وثنية تعبد الأصنام، «كما ذكر ذلك المسعودي في كتابه مروج الذهب».

3 ـ قوم عاد الثانية:

ملك بعد شديد بن عاد أخوه شداد الذي امتد حكمه وملكه على (900) عام، ويقال أنه احتوى على سائر ممالك العالم، وهو الذي بني مدينة إرم ذات العماد التي ورد ذكرها في القرآن الكريم: **﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم**[3]

---

(1) سورة فصّلت، آية: 15.

(2) سورة النجم: ، آية: 50-51.

(3) إرم: عاصمة عاد، كانت بين عدن وحضرموت ويقال إنها دمشق أو الإسكندرية لوفرة أعمدة أبنيتها، ويقال بأنها بين صنعاء وحضرموت وقد بناها شداد بن عاد.

ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾[1]. ويعتقد أنهم توجهوا إلى الجنوب إلى أرض سبأ، بحيث بنى أحد زعمائهم وهو لقمان سد العرم قرب مأرب.. وقد كانوا أهل زرع وضرع وعمّروا البلاد وأذلّوا العباد.. قال تعالى على لسان النبي هود وهو يرشدهم ويهديهم إلى عبادة الله وحده قال تعالى: ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين، فاتقوا الله وأطيعون، واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون﴾[2].

4 ـ ديانة قوم عاد:

كان عاد وقومه يعبدون القمر، وهم وثنيون يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم.. فعبدوا عدة أصنام وأوثان منها: «صدا، صمودا، هرا»، ويقال لها «هبا، صمود، ضرا». وقد أرسل الله تعالى لهم «هوداً» نبياً.. لهدايتهم وإرشادهم إلى عبادة الله الواحد الذي لا إله غيره، قال تعالى: ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون﴾[3]. فكذبوه وعصوا أمره فأهلكهم الله وجعلهم عبرة لمن يعتبر وقطع دابرهم.. قال تعالى: ﴿وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا﴾[4].

5 ـ هلاك قوم عاد:

كذب قوم عاد الرسل، وأنكروا وحدانية الله، فحق عليهم عذاب الله، فأرسل عليهم ريحاً عاتية لتَمَسُّكهم بالكفر والأوثان، وعُتُوهم وفسادهم في الأرض فجعلهم أثراً بعد عين.. قال تعالى: ﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾[5]. ويذكر الله تعالى في موضع

---

(1) سورة الفجر، آية: 6-8.
(2) سوة الشعراء، آية: 128-134.
(3) سورة الأعراف، آية: 65.
(4) سورة الأعراف، آية: 72.
(5) سورة الذاريات، آية: 41-42.

آخر من القرآن الكريم عذاب قوم عاد وهلاكهم بما أرسل عليهم من ريح صَرصر قاسية، قال تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيامٍ نحساتٍ لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، ولَعذاب الآخرة أخزى وهم لا يُنصَرون﴾[1]. هذا جزاء من الله تعالى لمن كفر واستكبر وكذب وزجر. فويل لهم من عذاب شديد، قال تعالى: ﴿كذبت عادٌ، فكيف كان عذابي ونذر * إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر * تنْزِعُ الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾[2] وقال كذلك: ﴿وأما عادٌ فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً * فترى القوم فيها صرعىٰ كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية﴾[3]. إن هذه الريح العاتية لم تترك منهم أحداً، بل كانت تتبعهم إلى داخل الكهوف الجبلية فتلفهم وتهلكهم وتدمر عليهم البيوت المحكمة والقصور المشيدة، لقد كانت نهايتهم بسبب كفرهم وإلحادهم وتماديهم في طغيانهم وتحديهم لوحدانية الله، والله أشد منهم قوة وبطشاً. هذه دروس وعبر فهل من يعتبر؟ قال تعالى: ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعثَ في أُمِّها رسولاً، يتلو عليهم آياتنا وما كنّا مُهلكي القُرى إلّا وأهلُها ظالمون﴾[4].

6 ـ هود عليه السلام:

من أنبياء الله الصالحين وهو «هود بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح» عليهم السلام، ويقال أنه «عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح» عليهم السلام، وفي قول آخر هو «هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح» عليهم السلام. وهو من قبيلة تدعى الخلود وكان أوسطهم نسباً وأصبحهم وجهاً ويقال أنه أول من تكلم بالعربية «وأن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أول من تكلم بالعربية الفصحى» أرسله الله إلى قوم عاد نبياً وهادياً فدعاهم إلى عبادة الله، وأمرهم أن يوحدوه، وأن يذروا من العبادات

(1) سورة فصلت، آية: 16.
(2) سورة القمر، آية: 18-21.
(3) سورة الحاقة، آية: 6-8.
(4) سورة القصص، آية: 59.

ما لا فائدة منه. . وأن يكفوا عن أذى الناس وظلمهم، وكان يذكرهم دوماً بما أنعم الله عليهم وما أمدهم به وينصحهم بتقوى الله وتوحيده وأنذرهم بأن الله تعالى سيبيدهم ويستخلف قوماً غيرهم وهو يقول لهم: انتظروا حلول العذاب بكم فسفهوه وكذبوه وتجاهلوا حججه الناصعة وبراهينه القاطعة قائلين له: ﴿**يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين**﴾[1] تحمل منهم كل أذاهم وظلمهم، وكان لهم دوماً الناصح الأمين، وكانوا به دوماً مكذبين. . قال الله تعالى: ﴿**كذبت عاد المرسلين، إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون، إني لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون**﴾[2] وكانوا يردون عليه بقولهم: ﴿**قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد أباؤنا. فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين**﴾[3]. وهم يتمادون عليه في تكذيبه، واتهموه في عقله، وقذفوه بالجنون واعتبروا ذلك من شدة تأثير آلهتهم عليه حتى أصبح مجنوناً لا يعي ما يقول: وهم يقولون له: ﴿**إنَّا لنراك في سفاهةٍ وإنَّا لنظنك من الكاذبين**﴾[4]. وقد سكن هود بلاد حضرموت بعد أن هلك قوم عاد إلى أن مات ودفن في شرقي بلادهم على نحو مرحلتين من مدينة «تريم» قريباً من الأحقاف بلاد قوم عاد. . . وقد روي عن علي بن أبي طالب أنه ذكر صفة قبر هود عليه السلام في بلاد اليمن، ويقال أنه دفن في فلسطين، ويذكر آخرون أنه دفن في دمشق وبجامعها في مكان من حائطه القبلي كما يزعم بعضهم أن فيه قبر هود عليه السلام. والله أعلم.

---

(1) سورة هود، آية: 53.
(2) سورة الشعراء، آية: 123-126.
(3) سورة الأعراف، آية: 70.
(4) سورة الأعراف، آية: 66.

الفصل الثاني

قوم ثمود

1 - قبائل ثمود:

من العرب البائدة، كقوم نوح وهود ولوط وأصحاب الأيكة، وقيل أنهم من بقايا العماليق جاؤوا من غرب الفرات أو أنهم من الذين طردهم «أحمس» ملك مصرفي عهد الأسرة (18) وقد أتقنوا صناعة النحت يوم كانوا في مصر ولذلك نحتوا لهم بيوتاً في الجبال ونقر بعضها في الصخر. يذكر بعض المؤرخين أنهم بقية من قوم عاد، وهذا ما يؤيده قول النبي صالح لقومه: **﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد، وبوأكم في الأرض، تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً﴾**[1]. وقد ورد ذكرهم كثيراً في القرآن الكريم منفرداً أو مقترناً بأسماء شعوب بائدة أخرى ليكونوا عبرة للكافرين، وتضرب بهم الأمثال، ويذكر بمصير قوم ثمود، الذين استحبوا العمىٰ على الهدىٰ، والكفر على الإيمان، واستمروا في طغيانهم يعمهون.. قال تعالى: **﴿وأما ثمود فهديناهم، فاستحبوا العمى على الهدى، فأخذتهم صاعقة العذاب الهُون بما كانوا يكسبون﴾**[2]. يعود تاريخهم إلى ما قبل الميلاد بعدة قرون، واستمروا حتى بعد ميلاد المسيح وقد جاؤوا بعد قوم عاد الهالكين، وانتهى أمرهم قبل خروج موسى

(1) سورة الأعراف، آية: 74.
(2) سورة فصلت، آية: 17.

عليه السلام ببني إسرائيل من مصر، وهم أهل خصب وزرع، وماشية كثيرة، وجنّات وفيرة، وعيون غزيرة يشربون منها ويسقون ماشيتهم وزرعهم، يؤكد ذلك قول النبي صالح لهم: ﴿**أتتركون في ما ها هنا آمنين * في جنّات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين**﴾[1]. وكانوا من الوثنيين عبدة الأصنام والأوثان وكانوا بالله كافرين..

2 ـ مساكن قوم ثمود:

كان مُلْك ثمود ممتداً بين الشام والحجاز إلى وادي القرىٰ على طريق الحج لمن جاء من الشام. ومدائن صالح عاصمتهم وهي الحِجْر القديمة باقية إلى اليوم. وكانت ديارهم بفج الناقة في دومة الجندل والحِجْر وغربي واحة تيماء التي كانت أهم مراكز عبادتهم ويُعتَقدُ أنه وادي القرى وأن الحِجر هي إحدى قرى ذلك الوادي.. قال تعالى: ﴿**وثمود الذين جابوا الصخر بالواد**﴾[2]. وكانت بيوتهم منحوتة في الجبال ورسومهم باقية وآثارهم ظاهرة: ﴿**وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين**﴾[3]. أما أبواب بيوتهم الصخرية فكانت صغيرة ومساكنهم على قدر مساكن أهل عصرنا فلم يكونوا كقوم عاد ضخام الأجسام أقوياء البنية. قال تعالى: ﴿**وعاداً وثموداً وقد تبيّن لكم من مساكنهم**﴾[4].

3 ـ من هو ثمود؟:

هو الجد الأكبر في قبيلة ثمود التي سميت باسمه وهو حسب رواية التوراة «ثمود بن جاثر (عابر) بن إرم بن سام بن نوح»[5]. وقد امتد ملكه مدة (200) سنة بين الشام والحجاز إلىٰ ساحل البحر الحبشي.. ثم جاء بعده جندع بن

---

(1) سورة الشعراء، آية: 146-149.
(2) سورة الفجر، آية: 9.
(3) سورة الحجر، آية: 82.
(4) سورة العنكبوت، آية: 38.
(5) وقيل أنه ثمود بن عامر بن إرم بن سام، وقيل أنه ثمود بن عاد بن عوص بن إرم.

عمرو بن الذبيل بن إرم بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، وكان ملكه مدة (327) سنة وفي عهده ظهر النبي صالح عليه السلام وعاصره (40) عاماً[1].

4 ـ ديانة قوم ثمود:

كان أهل ثمود كافرين عاكفين على عبادتهم الباطلة وهي عبادة الأوثان، يعبدون الأصنام ويشركونها مع الله في العبادة وقد كفروا ربهم، قال تعالى: **﴿كذبت ثمود المرسلين * إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعونِ﴾**[2]. وقال عز من قائل: **﴿ألا إن ثموداً كفروا ربهم ألا بعداً لثمود﴾**[3].

وكانت لهم عدة آلهة منها الإله «صلم» في حوالي القرن (6) ق. م. وكانوا يرمزون له برأس ثور وكان مقره في مدينة تيماء ومن آلهتهم أيضاً: هبل، رضو، وهي قريبة بتسميتها من آلهة قوم عاد. . وقد أرسل الله جل شأنه نبياً لهم ليهديهم إلى دين الله واعظاً ومذكراً لهم بنعم الله وآياته التي تدل على توحيده وأنه لا شريك له وهو وحده جدير بالحب والعبادة. . وقال تعالى: **﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بيّنة من ربكم، هذه ناقة الله لكم آية، فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾**[4]. فكذّبوه وأعرضوا عن آياته، قال تعالى: **﴿ولقد كذّب أصحاب الحِجْر المرسلين * وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين﴾**[5].

5 ـ النبي صالح ومعجزته:

رسول من قبيلة ثمود، يعود نسبه إلى أنّه: صالح بن عبيد بن أسف بن ماشخ بن عبيد بن حاذر بن ثمود. كما قال الحافظ البغوي وعن وهب أنه.

---

(1) المسعودي: مروج الذهب.
(2) سورة الشعراء، آية: 141-143.
(3) سورة هود، آية: 68.
(4) سورة الأعراف، آية: 73.
(5) سورة الحجر، آية: 80-81.

صالح بن عبيد بن جابر بن ثمود. . وقد أرسله الله نبياً لقوم ثمود وهو غلام حدث وكانت الفترة بينه وبين النبي هود قرابة (100) سنة، قال تعالى: ﴿**ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً، أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون**﴾[1]. فدعاهم صالح إلى عبادة الله وحده. وكان مَلِكُ ثمود في حينه جندع بن عمرو، ولم يجب صالحاً من قومه إلاّ نفر يسير وكثير منهم كانوا من المستكبرين، قال تعالى: ﴿**قال الذين استكبروا إنّا بالذي آمنتم به كافرون**﴾[2] وكذبوا صالحاً واتهموه بالسحر، يقول تعالى: ﴿**قالوا إنما أنت من المسَحَّرين * ما أنت إلا بشر مثلنا فأْت بآية إن كنت من الصادقين**﴾[3]. كبر صالح وزاد قومه نُصحاً وإرشاداً، ولكنهم زادوا بعداً عنه ونفوراً وقالوا بأنه كذّاب أشِر، فأنذرهم واعداً متوعداً، ولكنهم ساموه المعجزات وإظهار العلامات ليمنعوه من دعائهم، وليعجزوه في خطابهم، وليظهروه فاشلاً أمامهم فكانت معجزة الله تعالى لنبيه: حضر النبي صالح ذات يوم عيداً لقومه، وقد أظهروا أوثانهم، وكان القوم أصحاب إبل فساموه الآية من جنس أموالهم، وطالبوه بما هو مجانس لأملاكهم قائلين على لسان زعيمهم: يا صالح إن كنت صادقاً في قولك وإنك معبر عن ربك فأظهر لنا من هذه الصخرة ناقة، ولتكن وَبْراء سوداء عشراء نتوجاً حالكةً صافية اللون ذات عرف وناصية وشعر ووبر. فاستغاث بربه لتفريج كربه. فتحركت الصخرة وتململت وبدا منها حنين وأنين ثم انصدعت من بعد تمخّض شديد كتمخض المرأة وقت الولادة. وظهرت منها ناقة على نحو ما طلبوه وليس ذلك على الله عسير قال تعالى: ﴿**إنّا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر * ونبّئهم أن الماءَ قسمةٌ بينهم كلُّ شِرْبٍ مُحتَضَر**﴾[4]. لقد آمن قسم منهم وعلى رأسهم زعيمهم جندع بن عمرو، وكُذّب آخرون. يقول الآلوسي في روح المعاني: وأراد أشرافهم أن يؤمنوا به فمنعهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صُعر كاهنهم، وأقامت الناقة يحلبون من لبنها ما

---

(1) سورة النحل، آية: 45.
(2) سورة الأعراف، آية: 76.
(3) سورة الشعراء، آية: 153-154.
(4) سورة القمر، آية: 27-28.

يكفي في ثمود أكلها وضايقتهم في الماء والكلأ قال تعالى: ﴿قال هذه ناقة لَها شِرْبٌ ولكم شِرْبُ يومٍ معلوم﴾[1]. وكانت الناقة تُصَيِّفُ إذا جاء الحَرُّ بظهر الوادي فتهرب منها مواشيهم وتهبط إلى بطن الوادي في حرِّه وَجَدْبِه وتستوفي بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره في بَرِدٍ وجدب، فأضرَّ ذلك بمواشيهم للأمر الذي يريده الله تعالى بهم والبلاء من الاختبار فكبر ذلك عليهم فعَتوا عن أمرِ رَبِّهم فأجمعوا علىٰ عقرها.. ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين * فَعَتَوْا عن أمرِ رَبِّهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون﴾[2].

6 ـ هلاك قوم ثمود:

كان في ثمود امرأتان ذواتا مالٍ وجمال، يقال لإحداهما «صدوق بنت المجبا» وقد عرضت نفسها على رَجُلٍ يُقالُ له «مصدع بن مفرج» إن قتل الناقة، والأخرى «عنيزة بنت غنم» لها بنات جميلات عرضت إحداهن علىٰ رجلٍ يقالُ له «قدار بن سالف» فأجابا فقالا ميلا علينا بالخمر. فشربا حتى توسطا السُكْرُ ثم خرجا فاستغويا سبعة رجالٍ آخرين فصاروا تسعة وهم الذين أخبر الله تعالىٰ عنهم بقوله: ﴿وكان في المدينة تسعة رهطٍ يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾[3] وقصدوا جميعاً طريق الناقة في حال صدورها، فضرب قدار عرقوبها بالسيف، وأتبع صاحبه الآخر العرقوب بسهمه فَخَرَّتْ الناقةُ بوجهها فَعَقَرُوهَا وذهب السبعة وراء سقيها[4] وَفَرَّ منهم إلى الجبل ورغا ثلاثاً فرماه أحدهم بسهمٍ فأصاب قلبه ثم جَرَّ برجله فأنزله ووضع لحمه على لحم أمه فاقتسم أهل البلد لحم الناقة وسقيها. قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثمود بطغواها * إذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقةَ الله وسُقياها * فكذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فَسَوَّاها * ولا يُخاف عقباها﴾[5]. وجاء رسول الله فنظر إلى

---

(1) سورة الشعراء، آية: 155.
(2) سورة الذاريات، آية: 43-44.
(3) سورة النمل، آية: 48.
(4) ولد الناقة ساعة يولد.
(5) سورة الشمس، آية: 11-15.

ما فعلوه. فوعدهم العذاب من عند الله ولكنهم لم يُصَدِّقوه فيما يقول: **﴿فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾**[1].

أنذرهم رسول الله بعذاب أليم خلال أيامٍ ثلاث، فقالوا له مستهزئين: يا صالح متى يكون ما وعدتنا مِنَ العذابِ مِنْ ربك؟ فكان ذلك يوم الأربعاء. فقال: تصبح وجوهكم يوم «مؤنس» الخميس مصفرة، ويوم «العروبة» الجمعة محمرة، ويوم «شيار» السبت مسودة ثم يصحبكم العذاب يوم «أول» الأحد.. **﴿فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾**[2]. وهَمَّ التسعة بقتلِ النبي صالح وقالوا إن كان صادقاً عاجلناه قبل أن يعاجلنا وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته. فأتوه ليلاً، فحالت الملائكة بينه وبينهم وأمطرتهم بالحجارة ومنعه الله منهم، وحلَّ بهم ماقد وعد، وفي ليلة الأحد خرج رسول الله من بين ظهرانيهم مع مَنْ خفَّ مِنَ المؤمنين. وأتاهم العذاب يوم الأحد، ليس العذاب فقط بل كان الهلاك والدمار نتيجة كارثة حلت بهم إما بركاناً أو زلزالاً أرضياً أطاح بهم أو أنها الصاعقة المصحوبة بصوت عظيم ورجفة قوية أو أنها الطاغية..

قال تعالى: **﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾**[3] وقال: **﴿فأخذتهم الرَّجْفَةُ فأصبحوا في دَارِهم جَاثمين﴾**[4] وقال كذلك: **﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة في ديارهم جاثمين﴾**[5]. وهلكوا جميعاً ولم يبق منهم أحد، **﴿فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنَّا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون * وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾**[6] هذا عقاب من ظلم وهذا جزاء من طغى وتكبَّر وكَذَّب بالنُّذُر فويلٌ لهم وويلٌ لمن لا يعتبر.

---

(1) سورة الأعراف، آية: 77.
(2) سورة هود، آية: 65.
(3) سورة الحاقة، آية: 5.
(4) سورة الأعراف، آية: 78.
(5) سورة هود، آية: 67.
(6) سورة النمل، آية: 51-53.

﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المُحتَظِر﴾[1] إلا مَن آمن بالله وأخلص في عبادته، فقد نجًاهم الله مما حاق بهم من العذاب. وقد كان عدد الذين نجوا مع صالح (120) نسمة وكان الذين هلكوا أهل (5000) بيت.. ويقال أن النبي صالح ومن معه توجهوا إلى الرملة في فلسطين وأقاموا فيها، وقول آخر بأن رسول الله صالح توجه إلى مكة ومن معه، وأقاموا فيها حتى ماتوا وقبورهم توجد غرب مكة... والله أعلم.

---

(1) سورة القمر، آية: 31.

الباب الثالث

الديانات في مصر القديمة

الدِّيَانَة الفَرعونيَّة

1 ـ تمهيـد :

مصر الراقدة على ضفاف النيل منذ الأزل والتي نقرأ على أرضها سطور تاريخ مجيد كتبه الإنسان على صفحات الزمان الغابر من خلال حضارة دامت عهوداً طويلة امتدت منذ حوالي (3100 حتى 525 ق. م) إذ احتلها الفرس، والتي حكمتها أجيال متعاقبة من الفراعنة ينتمون إلىٰ ما لا يقل عن 26 أسرة حاكمة، إنها رمز الحضارات الكونية وفيها تكوَّن ضمير الإنسانية، وهي باعثة التطور والتاريخ من خلال صفحاته المجيدة ومما تركه الأقدمون من آثار خالدة، تنتشر هنا وهناك، وقد فسر العلماء كل غموض في حياة البشرية. .

فمصر رمز الفكر البشري الناضج قولاً وعملاً، وفرعونها الإله ابن الشمس يبسط نفوذه فوق هذه البقعة من الكون يفعل ما يريد، ولا يفعل ما لا يريد، وفيها ظهرت أرفع مستويات الحضارة التي عرفها التاريخ القديم، وفيها كانت أرقىٰ معالم العبادات ومظاهر الأديان من خلال بناء المعابد الفخمة والإهرامات الضخمة والمسلّات الحجرية والهياكل والقصور وغير ذلك (**الشكل 8**).

كل هذه الأمور رموز لانبعاث حضارة حقيقية، ونبراس لنهضة علمية قديمة رسّخت جذورها في أعماق أرض مصر الحضارة والدين، وترمز إلىٰ الإيمان الكامل والاعتقاد الجازم بيوم القيامة، يوم البعث والحساب، ثم الحياة

بعد الموت. . قال «هيرودوت»: «إن المصريين أشدُّ البشر تديُّناً، ولا يُعرف شعبٌ بَلَغ في التديُّن درجتهم فيه، فإن صُورهم بجملتها تمثل أُناساً يُصلّون أمام الآلهة، وكتبهم في الجملة أسفارُ نُسكٍ وعبادة. .» هذا التدين أدخل في حياة المصريين أثراً قوياً في كل أعمالهم الخاصة والعامّة، فالدّين مسيطر في كتاباتهم وأوامرهم وفي فلسفتهم وكل تصرفاتهم، وللديانة أهمية كبرى في حضارة مصر فقد آمنوا بوجود الآلهة المتعددة الكثيرة، ثم توصلوا إلى مرحلة توحيد الأديان بين الشمال والجنوب، في عهد «مينا» ثم استمرت الآلهة المتعددة واستمرت عبادتها بين أتباعها القدماء وحفدائهم من بعدهم مدة تزيد على 5000 سنة.

2 ـ تعدد الآلهة في الديانة الفرعونية:

منذ الأزل استقر البشر على ضفاف النيل عندما كان يقوم الإنسان المتنقل بجمع طعامه مما تقدمه له الطبيعة وعلى صيد الحيوانات، ثم اضطر إلىٰ الاستقرار وعمل في الرعي وفلاحة الأرض وزراعتها وإنتاج الغذاء. . وفي مصر بدأ أول اقتصاد منتج للغذاء في العالم كله. لتوفر الأسباب: فكانت أشعة الشمس المشرقة، وخضرة وادي النيل وتبدل الفصول بين شحّ أو فيض. ورياح الصحراء الساخنة وغيرها من مظاهر الطبيعة. .

كل هذه الأمور أثرت في نفوس المصريين، فتنوعت الآلهة عندهم بتنوع القوىٰ الطبيعية، حتى وصل مجموع الآلهة المعبودة في ذلك الحين أكثر من 2000 إلٰه. كان مركزها «هليوبوليس» «عين شمس»، فقد عبد المصريين الشمس والقمر، والأرض والسماء، وقوى الخصب والتوالد، وقد أعطى المصريون لكل منها إسماً خاصاً وأقرّ لها طقوساً مميزة. وكان السحر والاعتقاد بالأرواح يشكلان جزءاً هاماً من طقوس العبادة ومراسيمها. . فقد عبد المصريون ثالوثات إلٰهية، كما عبدوا حيوانات تحولت مع الزمن إلى صور بشرية وهي في أساسها عبارة عن تعويذات أو حجارة، أو نباتات، أصبحت مقدسة لسبب أو لآخر. . وتحولت مع مرور الزمن إلى آلهة بعد أن كانت طواطم للقبائل البدائية التي سكنت مصر، ومهما تكن بدائيتها فقد كانت أكثر تطوراً ورقياً من فكرة الآلهة عند القبائل

والشعوب البدائية الأخرى، والتي لا يرتفع مستواها عن مستوى الحيوانات الشديدة الذكاء إلا قليلاً.. ثم تطورت إلى مجموعة نظم أخلاقية دينية نصت عليها كتبهم حتى أصبحت تمثل فكرة الكائن الأسمى «الإله العظيم» رع إله الشمس، وذلك بعد أن توحدت مصر، وانتقلت من مرحلة الآلهة المتعددة، آلهة المدن، إلى مرحلة التوحيد. فقد كان لكل مدينة، بل لكل قرية، أو كَورة أو صقع، بل لكل عائلة كان لها إله خاص بها.

وأما مكانة هذه الآلهة فقد كانت تأخذ مكانة المنطقة التي يُعبَد فيها.. وكان الرب جزءاً من الأسرة أو المدينة، فإن انهارت انهار الرب وإن عظمت عظم الرب وللآلهة مراتب بعضها فوق بعض، وهي تأخذ مراتب المقاطعات السياسية فكان موطن «أوزيريس» في «أبيدوس» و «فتاح» في «ممفيس»، وآمون في طيبة، و «حورس» في أدفو، وهاتور في دندرة، وكثيراً ما تتوصل مدينة ما إلى فرض إلهها الخاص على سائر المدن المجاورة بالقوة.. وكذلك لم يتردد المصريون في الاقتباس عن ديانات جيرانهم.. وربما قُدِّر لإله محلّي مغمور الشهرة أن يصبح إلهاً مشهوراً لإحدى المدن من خلال انتصاره في حرب ما.. وبالعكس كذلك يمكن أن ينحط إله وينهزم بانهزام من يعبده، وإلى جانب الآلهة المحلية العديدة جداً، كانت هنالك آلهة قومية أخرى وآلهة للطبيعة تخص الأنهار والجبال والأرض والسماء. ويمكن لبعض الآلهة أن تتحد أو تندمج لتشكل إلهاً واحداً، كما هو الحال بالنسبة إلى الإله «آمون ـ رع» (الشكل 9) ومن خلال استعراضنا لأهم الآلهة المصرية نتعرف مهمة كل منها ووظيفته، وعلى مرتبته بين الآلهة ومكان وجوده وهيئته.

3 ـ الآلهة المصرية القديمة:

بالرغم من تعدد الآلهة المصرية إلا أن الذين نالوا حق العبادة والتبجيل هم أولئك الذين كانت لهم صلة بمصير الإنسان وهم الذين يشكلون أعضاء المجمع العظيم لمدينة «هليوبوليس» وهم مجمع الأرباب المنتسبين إلى حلقة «أوزيريس»، وكان كل مجمع يتشكل من أرباب تسعة.. إن العقيدة المصرية

قامت على تقديس الثالوث المكون من «أوزيريس» الأب و«إيـزيس» الأم وحورس الابن (**الشكل 10**). ويرجع الجميع إلى أصل واحد.. وقد انتقلت هذه العقيدة من الثالوث الإلٰهي إلى تقديس التاسوع الإلٰهي الذي يرجع إلى قوى الطبيعة المؤثرة في تحولات الأشياء، فهم يعتقدون أن الماء هو العنصر الأول الذي تكونت منه كل الأشياء في الكون ومن أهم الآلهة وأشهرهم الإله «رع» إله الشمس والنور وهو رمز كل الآلهة. وخالق العالم وكل ما له وجود وهو أقدم الآلهة الذين عُبدوا في مصر. وهو والد الآلهة جميعهم. ومنذ عام (3700 ق. م) من عهد السلالة الرابعة عُدّ «رع» إله السماء العظيم، بل مَلِك الآلهة كافة، وكل الكائنات المقدّسة والأموات الأبرار الذين يسكنون هناك، وهو الذي يقرر موقع الأبرار في السماء، وقد حافظ «رع» على مكانته بوصفه الرئيس الأعظم للمجموعات الإلٰهية على الرغم من الشهرة التي حصل عليها «آمون». وهذه التراتيل[1] موجهة إلى رع مأخوذة عن أقدم النسخ الطبيعية لكتاب الموتى: «إليك التجلّة، يا من أتيت بوصفك خبيراً «خالق الآلهة» ألا إنك لتشرق وتسطع وأنك لتصنع النور ليكون في أمك نوت «السماء». ألا إنك متوّج مَلكاً على الآلهة، ألا إن أمك «نوت» تلقاك بالترحاب مفتوحة الذراعين وتستقبلك أرض «مانو» بالرضى وتحتضنك الرّبة «ماعت» صبحاً ومساءً. تعالوا واهتفوا لرع سيد السماء وخالق الآلهة ومجدده بطلعته البهية حين يأتي في الصباح على زورقه المقدس، تبتهج الآلهة حين يرونك تشرق، يا رع، وحين تغمر أشعتك العالم بالنور». وهذه ترتيلة أخرى تمجّد الإله رع وتذكر قوته وقدرته، وتعده الخالق الباقي: «لك ترتيلة حمد، أنت يا من تشرق كالذهب.. ويا من تغمر العالم بالنور في يوم ميلادك أمك تمنحك الميلاد وأنت على الفور تمنح النور لدرب قرصك أنت أيها النور العظيم الذي يتألق في السموات، تجعل أجيال البشر تزدهر من خلال فيضان النيل وتجعل البهجة في الأيدي كلها، وفي المدن جميعها وفي الهياكل طراً».

أوزيريس Osiries: إله القيامة ورمز الخلود ورب الموتى وديّانهم وأملهم.

---

(1) تراتيل من بردية آني Ani.

ظهر في عهد السلالة الثامنة عشرة، فكان ندّاً لرع ثم نسبت إليه صفات الله ثم صفات الآلهة جميعها وكانت تَنسب إليه صفات خارقة فهو الذي نهض من بين الموتى، ونال حياة الخلود وقد وهبته الآلهة سلطة منح الحياة الأبدية للأموات وفي عهد السلالة 12 حوالي (2500 ق م) أصبح إلٰهاً كونياً ثم إلٰهاً قومياً، وظهر للبشر بوصفه الرب الديّان للموتى، وهو خالق العالم وكل ما فيه إنه ابن «رع» الذي أصبح يعادل أباه ويكافئه وأخذ مكانه إلى جانبه في السماء. . .

إيزيس Isis: أم حورس وزوجة «أوزيريس» وأخته تلقّب بسيدة السّحر لها رأس امرأة وهي إلٰهة الشمس بعد غروبها.

حورس Horis: «الإلٰه العظيم» ويسمى الصقر الذهبي وهو ابن أوزيريس من إيزيس. وربما كانت عبادته أقدم عبادة في مصر ويقال إن روحه بثلاث شعب: أولها: الروح الدنيا. وهي التي تحل في فرعون الزمان، ثم تنتقل إلى من يليه وتغيض عليه بقدسيتها. ثانيها: الروح العليا، الحاكمة في السموات والأرض. وثالثها: روح تبقى في جسد فرعون الميت وتقوم بالنصح لفرعون الحي، ولا تبقى هذه الروح إلا إذا بقي الجسم متماسكاً.

سب Seb: «ابن شو» وهو الرئيس الوراثي للآلهة و«والد الألهة» وهم «أوزيريس» وإيزيس و«ست» و«نفتيس» وكان في الأصل إلٰه الأرض. له رأس إنسان، ثم صار أحد آلهة الموتىٰ، وهو صانع البيضة البدئية التي انبثق منها العالم.

نوت Nut: وهي زوجة «سب» وأم «أوزيريس» وآلهة الليل، وتمثل مبدأ التأنيث في قصة الخلق وتعد أم الآلهة وكل الأشياء الحيَّة. ترسم على شكل أنثى تسافر الشمس على جسدها وأحياناً ترسم كبقرة لها رأس امرأة، شجرتها المقدسة هي شجرة الجميز.

تمو Timo: أو أتمو وهو إلٰه الغروب وصانع الآلهة، وهو صانع البشر أيضاً، وإنه قد اغتصب مكانة «رع» بين الآلهة المصريين وهو على شكل رجل وعلى رأسه تاج الشمال وتاج الجنوب وعبادته قديمة تعود إلى السلالة الخامسة.

شو Shu: وهو المولود الأول لتمو وكان رمزاً للنور وقد نهض من الأرض حاملاً قرص الشمس على كتفيه، فهو يرفع السماء ويمسكها خلال كل يوم وهو مظهر من مظاهر الشمس له رأس إنسان.

تفنوت Tefnut: وهي الأختِ التوأم لشو وهي قوة طبيعية ترمز للرطوبة أو ترمز إلى جانب من جوانب حرارة الشمس، وهي ربَّة الموتى. وهي التي تزود الأموات بالشراب وتشكل العين اليسرى لتمو. وأخوها شو يشكل العين اليمنى له. وهي مظهر من مظاهر القمر ولها رأس أسد. وقد شكل الثالوث المذكور «تمو ـ شو ـ تفنوت» ثالوثاً يمثل بدء الخلق ونجد الإله تمو يقول: «وهكذا غدوت ثلاثة بعدما كنت إلهاً واحداً».

ست Set: ابن «سب» و«نوت» وزوجاً لنفتيس يمثل الليل أي الشر. وحورس (**الشكل 11**) يمثل النهار أي الخير ثم أصبح يمثل الشر كله، وكل ما هو مرعب ومخيف في الطبيعة كالعاصفة والإعصار والصحراء، وكان في حرب دائمة وصراع لا ينتهي مع «حورس» ابن أخيه الذي يثأر لأبيه «أوزيريس»، وانتصر «حورس» على «ست» مرتين في حربين، فالحرب الأولى تمثل انتصار النهار على الليل، والثانية تمثل انتصار الحياة على الموت والخير على الشر. وكان له رأس حيوان يشبه رأس الجمل.

نفتيس Niftes: هي أخت «إيزيس» ورفيقتها، وتمثل الشفق ويعتقد بأنها أم «أنوبيس» من «أوزيريس»، لها رأس امرأة.

تحوت Thote: وهو كاتب الآلهة له شكل قرد برأس كلب.

نو No: والد الآلهة، والحبر الأعلى لمجمع الأرباب العظيم ويشكل الكتلة المائية البدئية التي خرج منها الخلق.

بتاح Bitah: أو فاتح النهار وهو عند الموتى فاتح أفواه الآلهة.

خنمو Khinimo: وهو صانع الكائنات وما سوف يكون وهو مبدع كل المخلوقات ووالد الآباء وأم كل الأمهات وصانع الإنسان على دولاب الخزاف وفقاً لإحدى الخرافات.

خبيرا Khibira: وهو إله بدئي قديم، يمثل الجسد الميت الذي يوشك أن يبزغ منه الجسم الروحاني يرسم بصورة إنسان له رأس خنفساء وقد صارت الخنفساء له شعاراً.

آمون Aman: وهو إله محلّي في مدينة طيبة ثم أصبح إلهاً من الرتبة الأولى. وأصبح اسمه فيما بعد ملك الأرباب. أما آلهة الموتى فمنهم:

أنوبيس: وهو ابن «رع» أو «أيزيريس» إله التحنيط والمقابر (الشكل 12) ورئيس موطن الموتى ويرمز له برأس ابن آوى لأنه اعتاد نبش القبور في الصحراء فاتخذوه إلهاً لعله يرتجع عن عادته هذه.

ماعت: اشتركت مع «تحوت» و«بتاح» و«خنو» في عملية الخلق، واسمها يعني المستقيمة ولذلك يرتبط بها الصدق والحق والعدل فهي ربّة العدالة والترتيب والنظام وهي التي تجعل الشمس تشرق يومياً من مكانها المعين وفي وقتها المحدد بانتظام مطلق لا يتبدل.

هو Hu وسا Sa: وهما ابنا «رع» أو «تمو» يظهران في زورق الشمس يوم التكوين وفي مشهد الدينونة. ولكل منهما رأس إنسان.

ميسه ـ أورث: وهي ربّة تمثل الجزء السماوي الذي تجري في الشمس يومياً حيث تجري محاكمة الموتى.

حتحور ـ حتحيرت: وهو ذلك الجزء من السماء حيث تبزغ الشمس وتغيب، وهي ربّة السماء وكانت شجرة الجميز مقدسة لديها، لها رأس امرأة. .

سيخت وباست: لهما رأس أسد ورأس قط، يرمزان إلى النمير وقوة الشمس اللاهبة، وإلى حرارة الشمس اللطيفة، على التوالي.

ثا ـ أورث: وهي التي تستولد الآلهة.

حابي: وهو إله النيل العظيم وله أهمية كبرى في حياة المصريين لذلك قدسوه لأنهم عدُّوه سبب خصب الأرض وازدهار الحضارة وسبب الحياة في هذه البقعة من الأرض وعدُّوه إلهاً عظيماً منحهم إياه الإله «رع» خالق الكون وكان

يمثل عندهم في شكل ذكر وأنثى في آن واحد فله من الأنثى ثدياها ومن الذكر لحيته الطويلة التي تكتنف وجهه ويظهر تقديس المصريين لنهر النيل واحترامهم إياه في ترنيمة تعرف باسم «عبادة النيل» تعود إلى زمن قديم من تاريخ مصر يعتقد بأنها قيلت بمناسبة أحد الاحتفالات بالفيضان جاء فيها: «المجد لك أيها النيل الذي ينبع من الأرض ويحمل الخير لمصر، ذاك الذي يسقي المروج، خلقه «رع» لينعش القطعان، ذاك الذي يسقي الصحارى التي لا ماء فيها: ذَوْبُه يتساقط من السماء، يا منبت الذرة ومحي الضفادع، يا سيد الأسماك ومنبت القمح والشعير ومعمر المعابد».

4 ـ أسطورة أوزيريس «الإله المقدس»:

تعتمد العقيدة الرسمية عند قدماء المصريين على أسطورة قديمة ترجع في نسبتها إلى ما قبل التاريخ وقد سجلت على جدران معبد «إيزيس».

تقول الأسطورة: أنه في قديم الزمان كان يحكم بلاد مصر ملك اسمه «سب Cab» وكان له ولدان هما «أوزيريس» و«ست» وبنتان هما «إيزيس» و«نفتيس». وقد زوج الملك ابنه «أوزيريس» من أخته «إيزيس» وزوج ابنه «ست» من أخته «نفتيس». كان «أوزيريس» طيب القلب عادلاً، وقد ملّكه أبوه السهول والأنهار والوديان وقد أحبه الناس كثيراً وكان موسيقياً بارعاً. وكان «ست» حاقداً شريراً، وكان مزيجاً من الحمار والخنزير. وقد ملّكه أبوه أراضي الصحارى القاحلة والرمال القفراء. وقد حقد على أخيه «أوزيريس» وتآمر مع جماعة تؤيده، فصنع صندوقاً من الذهب الخالص بحجم «أوزيريس»، وزعم أنه سيهدي هذا الصندوق لمن يتسع له في حفل أقامه على أرض فيلة[1]. وبالطبع لم يتسع الصندوق لغير «أوزيريس» الذي يتميز بطول قامته، وعندما

(1) فيلة: جزيرة في نهر النيل عند الشلال الأول قرب أسوان، وقد وجد فيها معابد فرعونية هامة.. وكانت تعتبر لؤلؤة مصر القديمة يحج إليها المصريون باعتبار هذا المكان منبعاً لنهر الخير، وتقديساً للآلهة «إيزيس».

استلقى «أوزيرس» في الصندوق أمر «ست» بإغلاقه عليه، وإلقائه في النيل، فتقاذفته الأمواج حتى مدينة «رشيد». ثم تناقلته أمواج البحر حتى شواطىء جبيل «بيبلوس»، وقد توفي داخل الصندوق.

بدأت تبحث زوجته «إيزيس»، ووظفت كل ما لديها من علوم السحر الذي برع فيه المصريون فوصلت إلى مكان الصندوق، فتحايلت على ملك «بيبلوس» بعد أن كشفت له عن شخصيتها، فسمح لها باسترداد الصندوق. وتتابع الأسطورة الحديث، فتقول: وعندما حل المساء نامت فوق تابوت زوجها فجاءتها الرؤيا وهي نائمة بأنها حملت من روح زوجها، وعندما عادت إلى الجزيرة اختفت هناك ومعها الصندوق خوفاً من «ست» الحاقد وظلت مختفية حتى ولدت «حورس»، ولكن «ست» هاجمها وأخذ منها التابوت عنوة، ومزق جثة أخيه قطعاً بعدد مقاطعات مصر حينذاك، ونثر هذه الأجزاء وفي كل مقاطعة وضع جزءاً من الجثة. ومع ذلك لم تيأس الزوجة المخلصة لزوجها، فواصلت البحث حتى عثرت على الأجزاء كلها ما عدا قدم «أوزيريس» اليمنى التي وجدت في جزيرة «بيجة» مقابل جزيرة فيلة في نهر النيل، وصارت المياه تنساب من بين أصابعها تحمل معها الطمي والخصب لتنعم أرض مصر بالخير من فيضان النهر، وجمعت الأشلاء من كل مكان. ووضعت كل جزء في موضعه من الجسم وقرأت عليه بعضاً من التعاويذ والرقي السحرية، فعاد إلى الحياة فترة قصيرة بعد أن كابد الموت والتمثيل بجسده على أيدي قوى الشر. . وبعدها أصبح «أوزيريس» ملك العالم السفلي وقاضي الموت، فقد قهر الموت، وعاد مرة أخرى للحياة، وكل المستقيمين يمكنهم أن يقهروا الموت ويعودوا للحياة من جديد.

أما حورس الابن فقد غذّت فيه أمّه روح الانتقام من عمه «ست» الذي ينكر نسب ابن أخيه ويدّعي أنه الوريث الوحيد لعرش أخيه في المملكة الإلٰهية، وخاضا معاً صراعاً مريراً. .

انتصر حورس على عمه وجلس على عرش أبيه وتوج بالتاج الأبيض في مقر حكمه، وأصبح حورس الإله برأس الصقر الذهبي، ولم ينته النزاع بينهما بل أخذ يعمل كل منهما على إفساد أعمال الآخر في الكون. وأصبحت دائرة

حورس في الإنتاج والعمران والخير، ودائرة «ست» في الإفساد والخراب والتدمير، وصار التناحر بين الآلهة في الوجه القبلي والبحري ودارت حروب مستمرة بينهما، وصار كل منهما رئيساً لأحد الوجهين استمرت الحال كذلك حتى جاء «مينا الأول» الذي جمع في سلطانه حكم مصر العليا والسفلى، وأعلن أن الإلٰهين قد حلّا في جسده ومن ثم ابتدأت عقيدة تأليه الملوك وحلول روح الإلٰه فيه. هذه هي أساطير الأولين، وهذه أسماء آلهتهم التي ما أنزل الله بها من سلطان يسمونها وفق مشيئتهم ويزوجون ويولدون.. نعوذ بالله من كل ما قالوا وما ابتدعوا.

﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد﴾[1].

5 ـ تأليه الملوك وتقديس فرعون:

عدّ المصريون ملوكهم آلهة لهم باعتبارهم تجسيداً للآلهة ولهم صفة إلٰهية استوجبت عبادة الملك من قِبل رعيته، وكانوا يقومون بتقبيل الأرض بين يديه، أو تقبيل أقدامه من قِبل المقرّبين منه وادّعى الفراعنة أنهم خلفاء الآلهة على الأرض وزعموا أنهم تقمّصوا أرواحهم وظلت فكرة تأليه الملوك حتى بعد قيام الامبراطورية الجديدة في مصر وكانت ألقابهم تتغير حسب تغير الآلهة، فعندما تم توحيد «آمون» إلٰه طيبة مع «رع» إلٰه هليوبوليس أصبح اسمه «آمون ـ رع».. ولما كان الملك إلٰهاً في حياته، فهو ملك وإلٰه أيضاً بعد موته، حيث ينتقل إلى السماء ويخلفه من بعده إلٰه ملك من أبنائه على الأرض. وكان الاعتقاد سائداً بأن الأرض تخصب بفضل الملوك، وينبت الزرع ويجري النيل ـ الإلٰه ليروي الصحارى ويحمل الحياة للبشر. وكانت أهم وظائف الملك الإلٰه والكاهن الأعظم هي تعيين الكهنة الذين ينوبون عنه في إقامة شعائر العبادة في المعابد المختلفة الواسعة الانتشار في أنحاء المملكة.

---

(1) سورة الإخلاص.

ويُعدُّ فرعون مصدر السلطات في البلاد وكلامه وأحكامه منطق إلٰهي يصدر عن إله. وكل الأوامر والأحكام الملكية مقدسة وغير قابلة للمناقشة أو الاعتراض، كما ورد في أحد النقوش القديمة «إن الفرعون يفعل ما يريد ولا يفعل ما لا يريد» وإذا مات فرعون تستمر ألوهيته بعد الموت وتستمر عبادته كإله ميّت.

6 ـ تقديس الحيوانات عند المصريين:

أجمع المؤرخون أن المصريين القدماء كانوا يعبدون بعض الحيوانات ويخلصون لها ويتحمّسون لعبادتها ففي رواية لأحدٌ المؤرخين يذكر أنه رأى في أثناء زيارته لمصر في قديم زمانها تمساحاً مقدساً في طيبة فوصف هذا المشهد بقوله: «كان هذا الحيوان رابضاً على سيف غدير، فاقترب منه الكهنة وتقدم اثنان منهم ففتحا فمه وحشاه ثالث بالحلوى، والسمك المشوي، والعسل المصفّى» إنه «سُبْك» التمساح الرهيب وهو الإله المعبود في تلك البلاد. (**الشكل 13**)..

كما وجد معبود آخر على شكل تيس يسمى «خُنُم» أو معبود الشلال.

والإله آمون إله طيبة كان علىُ شكل كبش له قرون ملتوية تغطي أذنيه.

والإله «حورس» وهو على شكل صقر من الذهب... وغيرها كثير..

يذكر أحد الكتاب عبادة الحيوانات عند المصريين قائلاً: «وعلى هياكل المعابد سجف منسوجة بالحرير فإذا ما تقدمت إلى نهاية المعبد لترى التمثال تقدم إليك كاهناً في سكينةٍ ووقار وهو يرتِّلُ مزاميرَه، فيزيح قليلاً من الستار ليريك الإله، فلا ترى إلا قِطّاً أو ثعباناً أو تمساحاً أو حيواناً مؤذياً. فكأن إله المصريين دابّة ملونة على بساط أرجواني..

هذا حال معظم الآلهة المصرية التي تحمل رؤوساً لحيوانات مختلفة فبعضها يحمل رأس أسد (**الشكل 13**). أو رأس قطة، أو رأس ابن آوى، أو رأس كلب، أو رأس خنفساء، يقول هيرودوت: إنه شاهد حريقاً قد شَبَّ في مصر فوجد السكان جميعاً قد اتجهوا لإنقاذ القطط قبل أن يتوجهوا لإطفاء النيران

حتى لا يصاب معبودهم بأذى، وكانت القطة عندهم هي إلٰهة الحب، وكانت أفعىٰ الكوبرا حارسة المقابر، وغير ذلك ولكل منها قصّةٌ وحكاية. .

7 ـ دوافع عبادة الحيوانات:

قبل أن تتوحد كلمة المصريين قديماً، كانت القبائل تتصارع فيما بينها فتنتصر قبائل وتنهزم أخرى، وكان يرمز المتتصرون لقراهم ببعض الحيوانات القوية ويتخذونها شعاراً لهم، وأما قرى أعدائهم فكانوا يرمزون لها ببعض الحيوانات الضعيفة. وقد استمرت تلك الرموز تدل على ما تشير إليه زمناً طويلاً، حتى نسي الناس المعنى وبقي الرمز، واقترنت أسماء تلك الحيوانات القوية والضعيفة بالتقديس والتأليه، فاتخذوها أرباباً مقدسةً لهم دون تمييز بين قويّ أو ضعيف وبدون النظر إلى ما ترمز إليه هذه الحيوانات أو تعنيه، وصارت عبادتها على أنها آلهة، لا أنها رموز تدل على غالب أو مغلوب. . . ويمكن القول بأن المصريين اتخذوا منها آلهة بسبب خوفهم منها، كأفعىٰ في الصحراء، والتمساح في النيل، وكانت صفة القدسيّة والألوهية للقوة الكامنة داخل هذه الحيوانات وليس للحيوانات ذاتها. إن هذه الحيوانات لم تكن تُعْبد لأنها آلهة، وإنما كانت رمزاً للآلهة وكان لكل إلٰه من آلهتهم رمز حيواني خاص به، فيرمز لآمون برأس كبش ولفتاح برأس عجل وأنوبيس برأس ابن آوى وحورس برأس صقر. . . الخ.

وتقديس الحيوانات ليس أمراً مطلقاً وعاماً، فلكل إقليم حيوانه المقدس، ويمكن أن يكون حيوان ما مقدساً في إقليم وغير مقدّس في إقليم آخر، فالتمساح مثلاً كان يعبد في طيبة بينما كان يطارد ويقتل في غيرها، وعندما سَرَت فكرة تقديس الحيوان إلى عامّة الناس لم يعبدوه على أنه رمز للآلهة، بل عبدوه على أنه من الآلهة نفسها. . . وهكذا كان. . .

ومن دوافع عبادة الحيوان أيضاً اعتقاد المصريين الأقدمين بأن الآلهة تحل في الأجسام ولا يمكن أن يتجرد العالم الروحاني من الجثمانية، ولا بدّ للروح من جثمان تحلّ فيه، حتى عند الموت فهي تفارقه ثم تعود إليه سريعاً، وكذلك

الآلهة لا بد لها من مأوى تأوي إليه في الحياة وجسم تحلّ فيه، فزعموها في الأحياء التي لها علاقة بالخصب والإنتاج والثمر والبذور، فقد حلّت في ثور أو في قط، أو غير ذلك، وعُبِدت هذه الحيوانات على أنها أوعية قد حلّت فيها الآلهة، وليست هي الآلهة نفسها.

عبادة العجل: يقول «هيرودوت» في وصف العجل «آبيس» الذي وافقت أوصافه العلامات عند الكهنة: «آبيس هذا عجل شاب لا تستطيع أمّه أن تلد غيره، ويقول المصريون أن بريقاً يهبط عليها من السماء وإن هذا البريق ينبئها بأنه الإله «آبيس». ويُعرف هذا العجل ببعض العلامات، فشعره أسود، وفي جبهته غرّة مثلثة بيضاء، وعلى ظهره صورة نسر، وتحت لسانه صورة عجل، وشعر ذيله مضاعف».

وهذا الوصف يعني أنه ليس كل الأبقار مقدسة، بل العجل «آبيس» وحده من بين البقر هو الإله، وقد اختير لصفات موجودة فيه ميزته عن غيره من الأبقار، وعلى مرور الزمن أصبح المصريون يعتقدون أن الآلهة تحل في هذا النوع كلّه من الحيوان، فالبقر كله مقدس والقطط صارت كلها مقدسة، وإذا مات الحيوان الإله عمّ الحزن كل مصر، ومن جهة أخرى فالكهنة لا يتركونه يعيش أكثر من (25 سنة)، فإذا بلغها يغرقونه في عينٍ مخصصةٍ للشمس، وقد دفعتهم عقيدة الحلول هذه إلى اعتقادهم أن الحيوانات المقدسة أوتيت علم الغيب، والتعريف بالمستقبل ولهم في ذلك أساطير وقصص خيالية عجيبة. . .

8 ـ مظاهر التوحيد في المعتقدات المصرية:

كثرت الآلهة في مصر القديمة بشكل يفوق الوصف من حيث العدد والنوع. وهذه الظاهرة غريبة في مثل هذا المجتمع الحضاري المتميز الذي لم يرْقَ ولم يزدهر إلا بتوحيد مظاهر الدين والعبادة، وتوحيد الآلهة. يقول العلامة «ماسبيرو» في وصف الإله الواحد في مصر «كان إله المصريين واحداً، فرداً كاملاً، عالماً بصيراً، لا يدرك بالحس، قائماً بنفسه حياً، له الملك في السماوات والأرض، لا يحتويه شيء، فهو أب الآباء، وأم الأمهات، لا يفنى ولا

يغيب، يملأ الدنيا، ليس كمثله شيء، ويوجد في كل مكان». هذا وصف متميز في وحدانية الإله في مصر. ولكن الحقيقة كانت غير ذلك. حيث يعود «ماسبيرو» ويتراجع عن فكرته هذه في موضع آخر من كتبه. فيقول: «تدلنا الآثار على أنه كان لكل من الرهبان منذ أزمنة الأسرة الأولى آلهته الخاصة، وهذه الآلهة مقسمة إلى ثلاث فرق متباينة الأصول. آلهة الموتى. وآلهة العناصر. والآلهة الشمسية»..

فالآلهة متعددة في مصر. وهذا أمر واقع، ولكن تعديلاً طرأ عليها، فاندمجت الآلهة وتوحدت في إله واحد أحياناً، وظهرت الدعوة إلى عبادته.

ويمكن القول أن مدينة زاهرة وحضارة عامرة استمرت زهاء خمسة آلاف سنة لا يعقل أن تكون ديانتهم. على وتيرة واحدة. بل تحولت وتغيرت من آلهة متعددة إلى إله موحد وإنْ كانت لا تعتمد على أصل سماوي في ديانتهم. حتى أنّ الديانات السماوية قبل الإسلام أصابها التحريف والتغيير والتبديل، كما حصل في كل من التوراة والإنجيل.. وقد دخلت إلى مصر ديانات تدعو إلى عبادة الإله الواحد. إمّا عن طريق حاكم مثل «اخناتون» أو عن طريق رسول مبين مثل (إبراهيم ويوسف وموسى..) عليهم السلام.

(أ) إبراهيم الخليل في مصر:

دخل إبراهيم الخليل مصر، قادماً من أرض فلسطين، بعد أن أصابها الجدب والقحط فانتقل منها إلى مصر يحمل معه إيمانه بالله واعتقاده بوحدانيّته، وبدينه الحنيف، وكانت ترافقه زوجته سارة وكان قد ترك بلاد الكلدان عبدة الأوثان. اختلف إبراهيم في مصر مع فرعون حاكم البلاد. وكانت قصته مع سارة عندما أخبرته أنها أخت إبراهيم وليست زوجته... وقد دعا إبراهيم إلى عبادة الله وحده وترك ما يعبد فرعون وقومه من الآلهة العديدة. ولكن فرعون مصر أمره بالخروج من مصر، والعودة إلى الأرض التي كان فيها، ومعه أنعام وعبيد ومن المال الشيء الكثير، وصحبتهم «هاجر» القبطية المصرية إلى أرض فلسطين..

جاء في سفر التكوين[1]: «وحدث جوع في الأرض فانحدر إبرام إلى مصر، ليغترب هناك، لأن الجوع في الأرض كان شديداً». لقد كانت دعوة إبراهيم إلى توحيد الله وعبادته إلهاً واحداً، قبل ظهور «أخناتون» بزمن طويل، فكان إبراهيم أول مؤمن بالله دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له. قال تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمّة، قانتاً لله حنيفاً، ولم يكُ من المشركين﴾[2].

لقد كان إبراهيم أول من دعا إلى عبادة الله ووحدانيته، وأول من بشر بالدين الحنيف في مصر..

(ب) يوسف ودعوته في مصر:

وردت قصة يوسف مع إخوته أولاد يعقوب وما جرى له بسببهم مفصلاً في القرآن الكريم. كما ورد ذكرها أيضاً في كتاب العهد القديم في سفر التكوين، وفي القصّتين تشابه:

1 ـ تقول القصة القرآنية[3]: إن إخوة يوسف ألقوه في الجب، والتقطه بعض المارّة من التجار واشتراه منهم عزيز مصر، وهو وزير الخزانة المصرية حينذاك، وكما يقول محمد بن إسحق أنه «أطفر بن روحيب» وفي رواية أخرى «قطغير» وهو الذي قال لامرأته «أكرمي مثواه» وهي فيما يقال «راعيل بنت رعاييل»، ويقال أن اسمها «زليخة» وربما كان هذا لقبها. وكان ذلك في عهد «الريان بن الوليد» ملك مصر حينذاك، وهو من العماليق.. ولا نريد الدخول بالتفاصيل في حياة يوسف إلا فيما يهمنا منها، وهو دعوته للتوحيد وعبادة الله وحده. وقد دخل مصر حوالي (1600 ق. م) ودخل بعده بنو إسرائيل بـ (27 سنة) في عهد الأسرة (16) عندما قال لإخوته «وائتوني بأهلكم أجمعين». ورد في القرآن الكريم ما يفيد أن يوسف عليه السلام دعا أهل مصر إلى عبادة الله

---

(1) سفر التكوين، الاصحاح 12.
(2) سورة النحل، آية: 120.
(3) سورة يوسف،

الواحد.. وقد ورد ذلك على لسان يوسف ما قاله لصاحبي السجن، قال تعالى: **﴿إني تركت ملّة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون * واتّبعْتُ ملّة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرِك بالله من شيء، ذلك من فَضْل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون * يا صاحبي السجن: أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار * ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**(1). هكذا كان يدعو الناس وهو في السجن إلى عبادة الله الواحد القهار، وكان يصد الناس وينهاهم عن كل ما اقترفوه من كفر أو إشراك بالله، وكان يقول لهم دائماً: **﴿قولوا آمنا بالله، وما أُنْزِل إلينا، وما أُنزِلَ إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط﴾**(2). هذا كلام حق على لسان يوسف النبي الصادق، وقد مكن الله ليوسف في أرض مصر حتى استلم خزانة الدولة وأصبح وزيراً للمالية عند فرعون، وصار له سلطان وجاه فقد آمن به من آمن، وكفر به من كفر.. قال تعالى على لسان مؤمن من آل فرعون عندما حثهم على عدم قتل موسى: **﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات، فما زلتم في شك مما جاءكم به، حتى إذا هلك قلتم: لن يبعثَ الله من بعده رسولاً. كذلك يضلُّ الله من هو مسرف مرتاب﴾**(3) لقد كان يوسف نبياً صادقاً، أرسله الله إلى مصر، وشعب مصر لهدايتهم وإرشادهم وقد نشأ على أكمل الأوصاف، فقد علم بما علم من آبائه وأجداده الأنبياء كما علمه الله من تأويل الأحاديث..

سُئِل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال رسول الله: «يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» صدق رسول الله.

2 ـ ورد في قاموس الكتاب المقدس عن قصة يوسف ما يلي: يوسف اسم عبري معناه «يزيد»، وهو بكر يعقوب من زوجته «راحيل»، والحادي عشر من أولاد يعقوب الإثني عشر، ولد في «فدان آرام»، وأثارت أحلامه غِيْرَة إخوته،

---

(1) سورة يوسف، آية: 37-40.

(2) سورة البقرة، آية: 136.

(3) سورة غافر، آية: 34.

فنقموا عليه وفكروا في وسيلة للتخلص منه، ولما بلغ السابعة عشر من عمره أرسله أبوه إلى «شكيم» حيث كان إخوته يرعون أغنامهم ليتفقد أحوالهم، ثم لحق بهم إلى «دوثان» وعندما اقترب منهم فكروا في قتله، ولكنهم عدلوا عن هذه الفكرة بسبب اقتراح أخيهم «رأوبين»، وطرحوه في بئر قديمة مهجورة لا ماء فيها، وقد بيع إلى قافلة إسماعيلية كانت في طريقها إلى مصر. أخذ الإسماعليون يوسف إلى مصر، وباعوه إلى «فوطيفار» خصي فرعون ورئيس الشرطة المصرية، فظهرت مقدرة العبد الشاب فوكله «فوطيفار» على كل بيته وعندما اتهمته امرأة «فوطيفار» ظلماً وبهتاناً، ألقي في السجْن سنوات، وهناك اكتسب ثقة السجان فوكله على جميع المسجونين، وقد منحه الله القدرة على تفسير أحلام رئيس السقاة ورئيس الخبازين عند فرعون، وقد كانا في السجن، كما أنه تمكن من تفسير حِلْمَي فرعون، وذكر أنه سوف تأتي سبع سنين شبع وسبع سنين جوع، واقترح أن يعين شخص يجمع الفائض في سبع سنين الشبع ويخزنه لسني الجوع، فوافق فرعون على الاقتراح وعفا عنه، وقد عينه رئيساً لمخازنه، فأصبح يوسف في وظيفته هذه من الرؤساء في الدولة وثانياً في المرتبة بعد فرعون وكان يوسف في الثلاثين من عمره. أعطاه فرعون «أسنات» زوجة له وكانت من أسرة كهنوتية في «أون» أو عين شمس. ذهب إخوة يوسف إلى مصر لابتياع حنطة. ولم يعرفوا يوسف أما هو فعرفهم. وقد أسكن قومه في أرض «جاسان» كي لا يحتكّوا بأهل البلاد ويبقوا منعزلين، مات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين، وحُنِّطَتْ جثته وفقاً لعادات المصريين. وعندما خرج العبرانيون من مصر بقيادة موسى نقلوا رفاته حسب وصيته إلى أرض كنعان ونفذت الوصية ودفن نهائياً بالقرب من شكيم بجانب بئر يعقوب، وقيل أن جثته نقلت بعد ذلك إلى حبرون ودفن في مكفيلة مع أجداده... لم تختلف رواية التوراة كثيراً عما ورد في رواية القرآن الكريم، فكان نبياً صادقاً داعياً إلى عبادة الله حيث تعددت الآلهة في مصر وكثرت الأصنام والأوثان...

(جـ) دعوة موسى إلى فرعون:

ومن الدعوات إلى توحيد الله في مصر، دعوة موسى عليه السلام الذي قام

مع أخيه هارون ليناصر بني إسرائيل في مصر ضد فرعون «رعمسيس» (1299-1233 ق. م) الذي ادعى الألوهية وأنكر وجود أي إله غيره. قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب﴾[1]. دعاه موسى إلى عبادة الله رب العالمين، ولكنه أبى وتمادى في كفره وطغيانه. قال تعالى: ﴿قال فرعون: وما رب العالمين؟ * قال: رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنينَ﴾[2] وخاطب فرعونُ موسى وهارونَ مستنكراً أو متكبراً، ﴿قال فمن ربكما يا موسى؟ * قال: ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[3]. هل تؤمن يا فرعون؟ هذا هو الله الذي خلق كل شيء، فهل أنت قادر على أن تخلق شيئاً؟ ولكن فرعون استمر في طغيانه وتكبره وتحديه إلى عزّة الله وجلاله.

قال تعالى: ﴿وقال فرعون: يا هامان ابن لي صرحاً لعلّي أبلغ الأسباب، أسباب السموات، فأطّلع إلى إله موسى، وإني لأظنه كاذباً، وكذلك زُيِّن لفرعون سوء عمله وصدَّ عن السبيل، وما كيد فرعون إلا في تباب﴾[4]. إنك خاسر يا فرعون، وإن موسى ليس كاذباً، فهناك إله واحد لا شريك له، يدعو موسى إلى عبادته، فافعل ما تشاء، وستلقى جزاءك من عند الله. ويستمر فرعون في تماديه. يقول عزَّ وجل على لسانه: ﴿وقال فرعون: ذروني أقتل موسى وليدْعُ ربَّه، إني أخاف أن يبدل دينكم، أو أن يُظْهِر في الأرض الفساد﴾[5]. فيقوم مؤمن من آل فرعون كَتَمَ إيمانَه يدافع عن موسى ليقول: إنه لا يستحق القتل بمجرد أنه قال: (ربي الله) يريد فرعون أن يتأكد من أن هناك إلهاً آخر غيرَه ويثبت لقومه عدم صحة أقوال موسى فهو يطلب من هامان أن يبني له صرحاً من الآجُر ليصعد إلى إله موسى، فجاء على لسانه قوله تعالى: ﴿وقال فرعون: يا أيها الملأ، ما علمت لكم من إله غيري، فأوقد لي يا هامان على الطين، فاجعل

---

(1) سورة غافر، آية: 23-24.
(2) سورة الشعراء، آية: 23-24.
(3) سورة طه، آية: 49-50.
(4) سورة غافر، آية: 36-37.
(5) سورة غافر، آية: 26.

لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى، وإني لأظنه من الكاذبين﴾[1] لقد حق العذاب على فرعون وقومه، فأرسل الله عليهم آياته ليسومهم سوء العذاب، ومنها ما أصابهم من نقص في الأموال والأنفس والثمرات والطوفان والقمل والضفادع والدم. وفي عهد «منفتاح بن رعمسيس الثاني» تم خروج بني إسرائيل من مصر، وهو الذي خصّه الله تعالى بقوله الكريم: **﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾**[2]. وقد غرق في البحر هو ومن معه، وقد ورد ذكر موسى في التوراة في سفر الخروج وفي القرآن الكريم في مواضع عديدة مع وجود تقارب في معنى النصوص[3].

(د) دعوة التوحيد عند أخناتون:

أخناتون: هو «أمينوفيس الرابع» (1375-1358 ق. م) من الأسرة الثامنة عشر، كان رقيق المشاعر، عالي الأخلاق، عفيف النفس، لم يتقبل ديانة مصر القديمة بآلهتها المتعددة لذلك نادى بتوحيد الديانات، ودعا إلى عبادة إله واحد عظيم وهي الدعوة الأولى من نوعها في تاريخ البشرية يعلنها حاكم من دون رسالة إلهية، فرأى في الشمس مظهراً من مظاهر الألوهية، فهي مبعث الحياة ومصدر الحرارة والضوء، وهي تمثل الآلهة كلهم، وأعطاها اسم «آتون» ولفظة آتون تعني قرص الشمس الذي اختاره معبوداً له، وقد ناوأ جميع الآلهة الأخرى، وحاول القضاء عليها، وعلى مبادئها، وبخاصة «آمون» إله طيبة.

وقد جاءت دعوته التوحيدية هذه بعد إبراهيم الخليل عليه السلام بحوالي (600) عام، فدعوته لم تكن هي الأولى لوحدانية الله، ومع ذلك قال فيه فؤاد شبل: «بأنه أول أبناء الجنس البشري إدراكاً لوحدانية الله وشموليته». ويطلق عليه «بريستد»: بأنه الشخصية الأولى في تاريخ البشرية» يقوم دين أخناتون على الاعتقاد بأن الإله واحد، خلق كل شيء في الكون بكلمة منه وهو رب كل

(1) سورة القصص، آية: 38.
(2) سورة يونس، آية: 92.
(3) انظر في الديانة اليهودية.

البشر، وإله الخير لأنه يبعث الحياة ويملأ العالم خيراً بوساطة أشعة الشمس الدافئة ويملؤه بركة، وأن الشمس هي مبعث الحياة، خلق الله حرارتها لتدفىء الناس وتبعث فيهم الحياة وفي الحيوانات القوة، وفي النباتات النمو والارتقاء. (شكل 14). . وتعد ثورة أخناتون الدينية خطوة رائعة نحو توحيد الآلهة حيث شملت كل أرض مصر من شمالها إلى جنوبها، وأثرت فيها منتهكة حرمة كل الآلهة القديمة، فارضةً إلهاً واحداً لا إله غيره، هو الإله «آتون» وأخذ يتتبع الكهنة وقضى على سحرهم وشعوذتهم وأخذ منهم أموالهم وألزمهم بعبادة الإله الواحد الجديد مرغمين.

يقول آرثر ويكال في كتابه «حياة أخناتون»: «إن أخناتون ألقى إلى النار بشتى كائنات العالم السحري من جان وعفاريت وأرواح، وأنصاف آلهة، وحتى أوزيريس نفسه ـ بكل بلاطه ـ ألقى بهم في اللهب وتحولوا إلى رماد. . ويضيف ويكال قائلاً: وفي أعقاب نشر هذه الديانة الجديدة مباشرة لم يبق ذرة من الخرافات في صلب هذه الديانة». .

ويعتقد أن عقيدة التوحيدُ الآتونية جاءت إلى مصر عن طريق الهكسوس العرب الذين حكموا في مصر حوالي قرنين من الزمن (1785-1580 ق. م) قبل عهد أخناتون مباشرة. .

كما يعتقد أن أتباع موسى عليه السلام كانوا يدينون بدين أخناتون، وأن موسى نفسه كان من أتباع هذه الديانة الجديدة، ويدعم ذلك القول وجود تشابه بين بعض قصائد أخناتون في تسبيحه الإله الواحد، وبين المزمور الرابع بعد المائة من التوراة، مع أن مبدأ التوحيد عند أخناتون يختلف عن مبدأ التوحيد الذي قامت عليه التوراة فيما بعد. .

فعقيدة أخناتون تستند إلى عبادة الله الواحد في رحاب المحبة والسلام عن طريق نشر الإخاء العالمي بين الإنسان وأخيه الإنسان، بينما تقوم التوراة على أساس عبادة الإله **«يهوه»** الخاص باليهود وحدهم باعتبارهم «الشعب المختار». . غادر أخناتون العاصمة طيبة إلى مدينة جديدة أنشأها لديانته دعاها

(أخت آتون) وبنى معبداً جديداً لآتون في تل العمارنة لتكون مركزاً دينياً لدينه الجديد ووضع الأناشيد للشمس آتون[1]. . .

وعندما مات أخناتون، وهو في الثلاثين من عمره حصلت الردّة من قبل رجال الدين التابعين للآلهة الأخرى، وأعاد توت عنخ آمون ـ صهر أخناتون ـ الاعتبار إلى المعتقدات الدينية الوثنية متعددة الآلهة التي يخالطها السحر والأرواح وعلى رأسهم أوزيريس وإيزيس. . ولم يكتب لديانة أخناتون التوحيدية أن تدوم طويلاً لضعف إيمان من جاء بعده. ومحا الكهنة لسم آتون، واسم أخناتون من كل المعابد والهياكل والجدران وقضوا على دين التوحيد تماماً. .

لقد رأى الكثير من العلماء في الديانة المصرية القديمة، بذور ديانة موحدة تسمو بمفاهيمها ومعتقداتها عن الآلهة المتعددة والوثنية، وترتقي إلى فكرة البعث والحساب وأن النتاج الحضاري المصري لم يكن إلا وليد حضارة دينية زاهرة وإن تعددت فيها الآلهة، إلا أنها كانت تؤمن بإله واحد قوي خالد، لا تمكن رؤيته وهو الذي خلق السموات والأرض وما عليها من مخلوقات وغيرها. . والمعتقدات المصرية شبيهة بالمعتقدات السماوية فيما يتعلق بوحدانية

(1) قصائد وأناشيد نظمها أخناتون يمجد فيها الإله آتون ويسبحه كرمز للوحدانية:

1 ـ أي آتون الحي، مصدر كل حياة
حين بزوغك في أفق السموات تغمر كل بلد بجمالك
فأنت رائع عظيم، مشع وعال فوق الأرض
تقبل بشعاعك الكون، وكل بلد خلقت
وعندما تغيب في الأفق الغربي من السماء
تغمر الكون ظلمات كما تغمر الميت
ويهجع الناس في مخادعهم
وتخرج الأساد من عرائنها
فتعم الظلمة، ويغمر الكون سكون
لأن مَن خلقها ذهب ليرتاح وراء أفقه

2 ـ إنك أنت الصانع الذي صنعت أعضاءك،
إنك أنت الذي تعطي الأشياء شكلها،
ولم يعطك شكلك أحد،

. . . فهذا رمز لوحدانية الإله الواحد والخالق العظيم. .

الله وأزليته، وفي وصفهم للإله «رع» إله الشمس يقول الدكتور بروخ هذه المقتطفات: «إن الله واحد وحيد، وما من إله آخر معه، إن الله واحد، وهو الذي خلق الأشياء كلها». «الله هو الحياة ومن خلاله وحده يحيا الإنسان، فهو واهب الحياة للبشر وهو يتنفس أنفاس الحياة بأنفه»، ويقول أيضاً: «إن الله من البداية، ولقد كان منذ البداية، لقد وجد منذ القدم ولقد كان عندما لم يكن لشيء كينونته، ولقد وجد عندما لم يوجد شيء آخر وما يوجد فقد خلقه، هو بعدما جاء إلى الكينونة أنه والد البدايات»، ويقول بروخ كذلك في وصفه «رع»: «لقد خلق الله الكون، وخلق كل ما يكون أنه خالق جميع ما في هذا العالم، جميع ما قد كان، وجميع ما يكون، إنه خالق العالم، وهو الذي صاغه بيديه، قبل أن تكون ثمة أية بداية، ولقد أسسه بما قد انتشر منه، إنه خالق السموات والأرض، والأعماق والمياه والجبال، لقد بسط الله السموات وأسس الأرض فما يتخيله فؤاده يصير على الفور، وحين يتكلم فإن كلمته تتحقق، وأنها سوف تدوم إلى الأبد».

9 ـ الحياة بعد الموت:

لعل أرقى ما في العقيدة المصرية القديمة إيمان المصريين بيوم الحساب واعتقادهم بيوم القيامة وعودة الروح والحياة حياة مادية قصيرة من أجل الحساب. لذلك كان يجب أن يحتوي قبر الفرعون كل حاجاته من أنواع المأكولات والمشروبات ليستطيع بعدها الاستمرار في حياة الآخرة، وكان باستطاعة الفرعون المتوفى «أن يأخذ من يشاء أو يشتهي من النساء من أزواجهن»، وحتى يبعث الميت من جديد يجب أن يبقى جسده سالماً من التفكك والتلف والتشوه، ولهذا كانوا يهتمون بتحنيط جسد الميت ودفنه في قبر يحتوي كل ما يحتاج إليه الإنسان في حياته الأبدية ومن غذاء ولباس ووسائل للصيد أو للقتال، لذلك بَنوا القبور والأهرام وشَيدوها بإحكام حفاظاً على الأجساد من التلف والبلى ويمكن أن يودع في القبر تمثال مشابه لصاحبه إن كان جسمه غير صالح، فتستمر علاقة روحه بجسده، وإن كان مفهوم الروح مختلفاً عندهم، فهي عند «حورس» ذات ثلاث شعب: روح عليا، وروح دنيا، وروح

تسكن في جسد الميت. وقد اعتقد المصريون بأن الحياة تدب في الجسم بعد الموت مباشرة ثم يأتي طير يجثم فوق رأس الميت، ويمسك في مخالبه رمز الحياة، ويتولى نَفْثَ الحياة في خياشيم الميت فيؤمن له استمرار الحياة بعد الموت بالاعتماد على السحر والقيام بعمليات سحرية لها مراسم خاصة مثل سكب الماء السحري أو المقدس في الجسد المتصلب بسبب الوفاة لإعادة الحيوية إليه ويسمى السائل «سائل أوزيرس» أو «ماء النيل»، وبواسطته تعود الحياة إلى جسد الميت، ويصبح «كائناً متصراً» حياً باستمرار يتصف بالقدرة الإلٰهية، ويعد هذا رفض لفكرة الموت الأبدي..

ولذلك اهتم الفرعون بالقبور والهياكل حيث كان يهيىء نفسه دائماً للحياة الآتية، بينما كانت قصورهم في الحياة الدنيا من الطين والآجر لذلك اندثرت وزالت معالمها، بينما قبورهم ما تزال شاهقة إلىٰ اليوم، وكانوا يعتقدون أن أفراد الأسرة الملكية وحدهم هم الذين يعيشون بعد الموت. وتطورت فكرة المصريين إلىٰ الماورائيات، عندما ادعى كهنة «آمون» في طيبة اكتشافهم لأسرار الخلود، فعرضوها بشكل نصوص تحتوي على تعاويذ وكتابات سحرية مختلفة من أوراق البردى، ثم جمعوها في كتاب سمي «كتاب الموتىٰ» لتساعد الميت على العبور إلىٰ الأبدية بسلام والانطلاق من أعماق القبور حيث يوضع هذا الكتاب مع الميت في قبره ليستعين به علىٰ مواجهة الحساب عند مثوله أمام الإلٰه «أوزيريس» إلٰه القيامة.. وكان يزود كل ميت بسلسلة من النصوص تكتب على تابوته أو بعض البرديات والتمائم، وتلاوة بعض الصلوات والأدعية، وإقامة بعض الشعائر على جسد الميت قبل أن يوضع بالقبر ليرتاح الراحة الأبدية، ثم يوضع الجسد في غرفة المومياء، وبفضل كلمات «تحوت» وصلوات الكهنة يتحول الجسم المادي إلىٰ جسد روحاني غير قابل للفساد، فيخرج رأساً من القبر إلى السماء حيث يقيم مع الآلهة هناك، وبعد عودة الحياة إليه يردد الميت في كتاب الموتى: «إني أحيا، إني أنشأ، إني أنشأ». وهذه العودة هي عودة روحانية وليست مادية أو جسدية فيزيائية، فالنفس ترتفع إلى السماء والجسد تناله الأرض..

وعندما يمثل الميت أمام «أوزيريس» إله القيامة وتوزن عليه أعماله في ميزان العدالة، تتمايل كفتا الميزان، وقد وضع في إحداها قلب الميّت، وفي الكفة الثانية ريشة تمثل الحق والعدل «معات»، وخوفاً من أن يكذب القلب صاحبه أو يشهد ضده، يردد الميت هذا القول: «يا قلب، لا تكن شاهداً ضدي، ولا ترجح الكفة عليّ أمام سيد الميزان»، ويشهد هذا الحساب والمحاكمة إثنان وأربعون قاضياً، منهم يمثل إحدى مقاطعات مصر آنذاك، فإذا توازنت كفتا الميزان فإن الميت ينعم باستمرار حياته في مملكة «أوزيريس» في الآخرة، بموجب القانون والعدالة، فيصدر الحكم التالي بحقه: «فليخرج فلان مبرأ. . وليذهب حيث شاء بالقرب من الأرواح والآلهة». وقد فاز بالنعيم ويقود «حورس الصقر» الروح لتمر أمام أوزيريس ثم تدخل حقول السعادة الأبدية، أما إذا رجحت كفة السيئات على الحسنات ابتلعه حيوان مسخ اسمه «الملتهمة». أو يحكم عليهم بأن يولدوا من جديد كخنازير أو حيوانات دنيئة أخرى وذلك بأمر من «تحتوت» الذي يقف خلف «أنوبيس» الذي له رأس ابن آوى، والذي يقوم بعملية الوزن في الميزان.

وهكذا تحاسب كل نفس بمفردها، فيكون مصيرها: إما أن يسمح لها بالعبور إلى مملكة أوزيريس ومملكة الأبرار وتصبح في مرتبة الآلهة، أو أن تلقى الدمار على الفور فتهلك. .

10 ـ دوافع الاعتقاد في الحياة الآخرة:

كان عند المصريين القدماء مجموعة دوافع واعتبارات جعلتهم يؤمنون بالحياة الآخرة بعد الموت. منها: 1 ـ اعتبارهم أن الحياة الدنيا حلبة صراع بين المتناقضات، بين الخير والشر، بين الصالح والطالح، وبين البر والفاجر، وكثيراً ما كان ينتصر الشر على الخير، والباطل على الحق، وهذا مخالف لناموس الحياة، لذلك لا بد من حياة أخرى ينتصر فيها الخير على الشر، والحق على الباطل، والأبرار على الفجار، إنتصاراً أبدياً. .

2 ـ اعتقادهم أن النفس الإنسانية تنفصل عن الجسم، وأن هذه النفس

ذات أربع شعب: إحداها الروح، والثانية العقل والإرادة، والثالثة صورة من الأثير، أو مادة أدق منه على هيئة الجسم تماماً، والرابعة هي الجوهر الخالد الذي يشترك فيه الإنسان مع الآلهة، وعندما يموت تظل الروح تتردد على الإنسان في قبره حتى يجتاز الحساب ويصل إلى مرحلة الثواب، ثم تعود إليه فيشعر بالحياة من جديد.

11 ـ رجال الدين «الكهنة»:

كان في مصر القديمة عدد كبير من الكهنة، لهم مراتب مختلفة وألقاب متنوعة، وكانوا يعدون إعداداً خاصاً لهذه المهمة، وهم نوعان:

(أ) **الكاهنات من النساء**: وهن كثيرات كاللواتي يعتبرون بمنزلة «خليلات الإله»، وأخريات يعشن عيشة النسك والانزواء، ويعتقد أن الوظائف العليا كانت من نصيب بنات الأسر الكبيرة أو سيدات القصور، وكانت الملكة أو «اليد المقدسة» كما كانت تسمى هي الكاهنة الأولى لمعبد الإله «آمون» في الكرنك في زمن الامبراطورية الحديثة، وكان ينوب عنها في حال غيابها كاهنة أخرى من مرتبة اجتماعية عالية تعرف باسم «الكاهنة الكبيرة».

(ب) **الكهنة من الرجال**: كان يرأس كهنوت الرجال كاهن أكبر يحمل ألقاباً مختلفة فكان يسمى «النبي الأول» أو «كبير الأنبياء» أو غير ذلك من الألقاب، وكان في كل معبد كاهن يرأسه يتبع الملك الذي يعينه، وكان رئيس الكهنة يتمتع بسلطان ونفوذ لا يعلوه إلا سلطان فرعون نفسه، وكان أكثر الكهنة نفوذاً وأعلاهم شأناً الكاهن الأكبر لمعبد آمون في الكرنك، وكان يتبع منصب الكاهن الأكبر عدد من أصحاب المراتب الدينية كالقراء والآباء المقدسين والأنبياء وكان بإمكان رجال الدين الانتقال والارتقاء من مرتبة إلى أخرى أعلى منها.

وهذا مثال يعود إلى زمن الفرعون رمسيس الثاني يتحدث عن ابن «نبي ثاني» من كهان الإله آمون يقول: «كان الغلام في سن الخامسة حين أدخله أبوه المدرسة الملحقة بالمعبد، وفي السنة السابعة عشرة انتقل إلى رتبة «طاهر» وفي

السنة الحادية والعشرين أصبح «أباً مقدساً» وفي السنة الثانية والثلاثين وصل لمرتبة «نبي ثالث»، وفي السنة الثامنة والأربعين وصل لمرتبة «نبي ثاني»، ولما بلّغ الستين وصل لمرتبة «نبي أول» وظل في هذه المرتبة حتى وفاته وهو في السادسة والثمانين». هكذا كان يتم إعدادهم حسب مراتب يمرون بها للوصول إلى المرتبة العليا وهي كبير الأنبياء...

12 ـ كتاب الموتى:

هو كتاب يشتمل على آداب وفضائل وعلى ما تلقنه الروح من عبارات لتحسن الإجابة أمام محكمة الحساب أمام «أوزيريس» إله القيامة، ويعد الكتاب الأعلى عند قدماء المصريين يتعبدون بتلاوته وهم أحياء، ويوضع معهم في قبورهم وهم أموات. وهم يزعمون أن أحد الآلهة قد كتبه بيده، وقد جاء عن منزلة الكتاب في أحد أبوابها «إن الكتاب يعلي شأن الميت في أحضان (رع)، ويحبوه السبق لدى (توم) ويجعله عظيماً لدى (أوزيريس) ومرهوب الجانب لدى الآلهة، وكل ميت وضع له هذا الكتاب تخرج روحه نهارا مع الاحياء، وتصعد إلى الآلهة ولا يعترضها أحد، تدنيه الآلهة منها، وتلمسه لأنه شبهها، ويطلعه هذا الكتاب على ما حدث منذ البدء. هذا الكتاب خطي وهو حق لم يعلم به أحد، إنه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، أنه لا يراه أحد سواك، ومن علمك إياه، فلا تزد عليه شيئاً من خواطرك وخيالك، بل قم بكل ما يدعوك إليه وسط بهو التحنيط. إنه سر لا يصل إليه عامي إنه غذاء الميت في عالم الدنيا، وقوت روحه في الأرض يجعله دائماً، فلا يعلو عليه شيء في الأرض ولا في السماء». وهو كتاب يشتمل على جميع الكلمات السحرية التي تستعمل لعلاج الأمراض ويشتمل على الصلوات والأدعية وعلى ما يجب للميت من تحنيط وطقوس دينية، ويحكي ما يقوله الميت الذي أقيمت له الطقوس الدينية التي يدعو إليها الكتاب، فيقول «تحية لك يا أبي «أوزيريس» لقد حنطت لحومي هذه ولن يتحلل جسمي، فأنا كامل غير محسوس مقتدياً بك يا أبي «أوزيريس»، حبذا الإله في صورة رجل لا يتحلل جسمه..». ويحتوي الكتاب على فصل قيّم مما ينبغي أن

تقوله الروح أمام المحكمة الإلٰهية في اليوم الآخر، «يا سادة الحقيقة، إنني حامل الحقيقة إنني لم أَخُنْ أبداً، ولم أغدر بأحد ولم أجعل أحداً من ذوي قرابتي في ضنك، ولم أقم بدنية في موئل الحقيقة، ولم أمزج عملي بشر قط، وجافيت الضرر والأذى، ولم أعمل باعتباري رئيس أسرة ما ليس عمل رباً، ولم أكن سبباً في خوف أحد، ولا عِوز معوز، ولا ألم متألم، ولا بؤس بائس، لم أقدم على ما لا يليق بالآلهة فلم أُجِع أحداً، ولم أبك أحداً، ولم أقتل نفساً، وما حرضت أحداً على قتل أو خيانة، ولم أكذب، ولم أسلب المعابد ذخائرها، ولا المومياء طعامها، ولم أرتكب أمراً لا يليق مع كاهن في كهنوته، ولم أغل في الأسعار، ولم أطفف الكيل والميزان، ولم أسرق الماشية، ولم أصد طير الآلهة، ولم أدفع الماء في عهد الفيضانات، ولم أحول مجرى ترعة، ولم أخدع الآلهة في قرابينها المختارة... فأنا نقي، أنا نقي، أنا نقي». هذا ما يقوله الميت أمام لجنة القضاء وهو يحاول أن يدافع عن نفسه فيما يمكن أن يرتكبه في الحياة الدنيا، طمعاً في رضى الآلهة، ونيل براءته ليعيش الحياة الآخرة مع الأبرار في مملكة «أوزيريس».

وعندما تزكي المحكمة أعمال الميت تصدر المحكمة هذا القرار بحقه: «ليس فيه شر، ولا خطيئة ولا فساد ولا دنس، وليس عليه اتهام، ولا في أعماله ما يثير الاعتراض فقد عاش في الحق تغذى بالحق وأن فعاله لتشرح الصدور، وهي مما يطلبه الرجال ويسر الآلهة محبة، وأعطى الخبز من كان خاوياً والماء من كان صادياً واللباس من كان عارياً، وأعار الزورق لمن ليس عنده».

هذا حكم قاطع ببراءة وتنزيه الميت، يخوله اجتياز الصراط المستقيم إلى مملكة الأبرار ويجنبه «الملتهبة» الجالسة تنتظر قرار المحكمة بفارغ الصبر لتأخذه إلى الجحيم.

13 ـ التحنيط في مصر القديمة:

إن أهم مظاهر الإيمان عند القدماء هو الاعتقاد بالبعث والحياة الآخرة، لذلك بعد أن يقرر «أوزيريس» براءة الميت من الذنوب يمكن للروح أن تعود

إلى الجسد بشرط أن يكون هذا الجسد محفوظاً سليماً غير تالفٍ ولا مشوهٍ، ولذلك بذل المصريون كل جهودهم لحماية موتاهم وصيانة أجسادهم من التلف والبلى ولحفظها من التحلل والفساد لأن البعث لا يكون إلا بالجسد السليم انطلاقاً من حكمتهم المفضلة (لنسع للبقاء، ولنتجنب الفناء)» (شكل 16).

ومن هنا نشأت صناعة تحنيط الجسد المتوفّى، ودفنه في قبر يحوي كل ما يحتاج إليه وقد برع المصريون بالتحنيط وأصبح مهنة لها أصحابها والبارعون فيها، وقد كانوا يلقون أجساد موتاهم في الصحراء، فتجف ولا تبلى. وقد بدأت عملية التحنيط بلف الجسم الميت بالعصائب منذ زمن الامبراطورية الأولى، ثم تطور هذا الفن في العصور التالية، وأصبح هناك أكثر من طريقة للتحنيط. تختلف من حيث الإتقان والكلفة، وقد يضطر إلى إيفاد البعوث العلمية إلى بلاد بعيدة من أجل إحضار المواد اللازمة والعقاقير، كالراتنغ والبلسم وغير ذلك من المواد الأساسية التي تدخل في عملية التحنيط تستمر مدة سبعين يوماً، تبدأ بانتزاع أحشاء ودماغ المتوفّى وغسل داخله، وتعقيمه بمواد مختلفة كالقطران وغيره...

ثم تُترك الجثة مدة سبعين يوماً في الملح، ثم تغسل من جديد، وتلف بعصائب من الكتان وتوضع في تابوت خشبي مغلق لتبقى فيه إلى ما شاء الله.

أما الفقراء فيكتفى بنقع جثث موتاهم بمحلول من الماء والملح فقط ولذلك لا تعمر طويلاً.

الباب الرابع

الأديان في بلاد الرافدين وسوريا

تمهيد:

كانت حضارة بلاد الرافدين بالغة الرقي والتطور متميزة عما حولها بالثبات والاستقرار وكان السومريون في طليعة الشعوب الحضارية في بلاد الرافدين وقد جاؤوا من أواسط آسيا منذ أكثر من (4000) سنة ق. م وامتزجوا بالشعوب السامية الأصيلة وكونوا حضارة سومرية زاهرة عامرة، وجاء بعدهم الآكاديون الذين استوعبوا الحضارة السومرية المتطورة. ثم تكونت الحضارة البابلية ثم الآشورية، وأصبحت بلاد الرافدين مركزاً حضارياً عالمياً انتشرت فيه الأفكار الكونية والأسطورية والعلمية وأبرز مظاهرها الدين والأفكار الدينية وتنوع الآلهة وكثرتها.

وقد أثرت تأثيراً واضحاً في البلدان المجاورة حتى وصل تأثيرها إلى الحضارة اليونانية التي تدين بمعظم أفكارها لشعوب أرض الرافدين في كل نواحي الحضارة وفروعها، وقد غابت معظم معالم هذه الأمبراطوريات الحضارية تحت الرمال فترة طويلة من الزمن ويهمنا منها الجانب الديني الذي سنتناوله بالدراسة والبحث لما له من أثر واضح في كل مظاهر الحياة حيث كان الدين خلاصة القيم الإنسانية.

الفصل الأول

1 ـ المعتقدات الدينية في بلاد الرافدين

(أ) **السومريون**: آمن السومريون بوجود عدد كبير من الآلهة وعبدوها تقليداً لمن سبقهم من البشر وتعدّ الديانة السومرية إحدى الديانات الهامة التي انتشرت في كثير من بقاع الشرق والتي كانت لها آلهة متشابهة، فقد عبد السومريون الإله «دموزى» وهو الإله «تموز» نفسه المذكور في التوراة أو الإله «أدونيس» الذي عبده الفنيقيون والسومريون. فالدين عند السومريين يعدّ عاملاً أساسياً ومسيطراً على كل ركن من أركان الحياة الإنسانية وأثرت الدوافع الدينية في كل مظهر من مظاهر الحياة وكانت معتقداتهم بدائية ككل شعب بدائي. فقد عبد السومريون مظاهر الطبيعة وعناصرها، ثم طوروا معتقداتهم البدائية هذه فعبدوا القوى الكامنة وراءها ثم جعلوا الآلهة على صورة البشر يتصفون بالقوة والضعف، وتعددت الآلهة عندهم بتعدد المدن حتى أصبح لكل مدينة إله يتزعمهم جميعاً أقواها وأعظمها مثل «مردوك» عند أهل بابل و«آشور» عند الآشوريين ومن أهم الآلهة عند السومريين: «نمو، إنليل، أوتو، أنانا، دموزى» سنعرفها فيما بعد.

(ب) **الآكاديون**: أما الدين الأكادي (2360 - 2180 ق. م) فهو متعدد الآلهة أيضاً وكانت لهم خصائص البشر لا يختلفون عنهم إلا في أنهم كانوا أكثر كمالاً

وتجديداً حتى أن لباس الآلهة كان كلباس البشر بل أكثر بهاءً وزهواً وكان للآلهة أَسْرٍ وأَسْلِحَة كانت تتصارعُ مع بعضها كبني البشر وكان صراعهم أعظم وأكثر هولاً وخطراً، وكان الثالوث الإسمي بين آلهة بلاد الرافدين يتكون من «السماء» متجسمة في الإلٰه الأكبر «آنو Anw» و«الهواء» متجسماً في الإلٰه إنليل «إنليل Enlil» و«الأرض» ومياه المحيطات متجسمة في الإلٰه «إنكي» أو «آيا» «Enki Ea-» وكان عندهم ثالوث آخر يتكون من الأجرام السماوية هي الشمس «شماش» إلٰه العدالة، والقمر «سن» الذي يقاس به الزمن، وكوكب الزهرة «عشتار» وقد كان مزدوج الشخصية فهو مذكر في الصباح ومؤنث في المساء، وهو إلٰه الحرب وإلٰه اللذة معاً، وحين ينقلب إلى أنثى تصبح مهمتها غواية الناس ودفعهم إلى طريق الرذيلة. وبتطور الدين صار لكل إلٰه نجمه الخاص وبتقدم علم التنجيم زادت عبادة النجوم، ومن الآلهة البارزة التي ظهرت في أرض الرافدين. . كان الإلٰه «آدد Adad» وهو يمثل العاصفة في جميع مظاهرها، وكانت النار تعبد عندهم في شخص الإلٰه «نُسْكو Nusku» وأما إلٰهة الخصب والحياة فكانت «عشتر» التي كانت رمزاً للأرض الأم. وكانت أيضاً إلٰهة الحرب والمعارك وكان يرتبط بها الإلٰه الشاب «تموز» وله طبيعة إلٰهية بشرية مزدوجة فهو يموت ويولد من جديد عاماً بعد عام. وكان لهذه الآلهة عبادة بالغة الأهمية داخل حدود أرض الرافدين وخارجها وقد نشأت حولها سلسلة طويلة من الأساطير وخاصة بين «تموز وعشتار» ربة «أوروك»[1] «Uruk» وكان إلٰه الحرب «أينورتا» وله أسماء مختلفة باختلاف المدن، وكانت زوجته الإلٰهة «باو» التي عدَّها البابليون إلٰهة الطب والشفاء في زمن حمورابي وأما آلهة الماء فهي الإلٰهة «نينا» ويرمز لها بسمكة تسبح بحوض مائي. وقد كان لكل من بابل وآشور إلٰه من نوع خاص له طابع القوة والعظمة والسيطرة، فكان الإلٰه «آشور» عند الآشوريين أعظم الآلهة وسيدهم جميعاً وقد اتخذ لنفسه صفة الإلٰه الحربي وكان الإلٰه «مردوك Marduk» الذي بلغ السيادة في عهد حمورابي أقدم الآلهة وسيدها جميعاً، والذي كانت تساعده جميع الآلهة في مهمته الضخمة وهي مهمة خلق الكون وتدبير أمره.

(1) أوروك: ورد ذكرها في سفر التكوين (10-10) تسمى الآن ـ الوركات ـ.

فهو خالق البشر ومالك الحكمة الأزلية وكان يمثل على شكل رجل له أذنان كبيرتان ترمزان إلى فهمه الواسع وحكمته الخالدة ويحمل بيده سلاحاً مقوساً يرمز إلى سيطرته على كل الآلهة وأخذه الرئاسة الدينية منهم وخاصة «تعامة»، وقد كان للملك صفة دينية إلى جانب الصفة الإدارية فقد ألّه بعضُ الملوكِ أنفسهم واتخذوا ألقاباً تدل على ألوهيتهم مثل حمورابي «إله الملوك» وكذلك «نارام سن» و«صارغون» وغيرهم.. ومن أهم الآلهة البابلية: أبسو، انكي ايرا، تعامة، شمش، سن، عشتار، مردوك، ننمرساج، نيسابا، اريشكمال، نرجيل، وغيرهم كثيرون...

(جـ) **المعتقدات الآشورية**: الآشوريون هم أقدم الشعوب السامية التي هاجرت من الجزيرة العربية إلى بلاد الرافدين في مطلع الألف الثالثة قبل الميلاد. فهي تشبه إلى حد كبير معتقدات أسلافهم البابلين وكلاهما بنى معتقداته على ما ورثه من أفكار دينية قديمة لكنها تطورت زمن الآشوريين لتلائم تطور المجتمع العسكري المحارب، وكان أول الآلهة عند الآشوريين وأقدمهم «آشور» الذي منح اسمه لأول عاصمة لهم كما منحه لتاريخهم في كافة مراحله وكان أقدم الآلهة وسيدهم جميعاً له مظهر عسكري مميز فهو إله الحرب الذي يخضع له الجميع وكان يمثل دائماً وهو يحمل قوساً في وسطه سهم كدليل على قوته وجبروته، ثم الإلهة «عشتار» وهي أكبر الآلهة بعد آشور وهي زوجته وتسمى أحياناً باسم «بلعيت» أي ملكة ولها صفة حربية أيضاً، تمثل دائماً وهي تحمل قوساً بيد وسيفاً باليد الأخرى وعلى كتفها جعاب السهام وقد عبد الآشوريون آلهة متعددة منها شمش، سن، أدد، نابو، بعل، مردوك، اينورتا، وغيرهم وتختلف عبادتها من مكان إلى آخر باختلاف المدن وأهميتها...

2 ـ الكهنة

كان للكهنة دور هام عند شعوب أرض الرافدين، فقد كانوا يقومون بممارسة الأعمال السحرية والرقي لطرد الشياطين من المرضىٰ، وكان في بابل يسمى «العوذ» وهناك كهنة من نوع آخر يقومون بتفسير إرادة الآلهة، والتنبؤ بها،

ويتم التنبؤ بفحص كبد الحيوان القربان الذي كان يقدم للآلهة، وكان التنجيم صورة من صور التنبؤ بالغيب متتبعين حركة الأجرام السماوية والأفلاك، ولهذا اشتهر البابليون بعلم الفلك وكان لهم مراصد حقيقة تقام على رؤوس الجبال منذ أقدم العصور. . .

والكهنة عند الآشوريين مقسّمون إلى طبقات حسب نوع عملهم وأهمية وظائفهم ومرتبتهم الكهنوتية فأرفع الطبقات الكهنوتية هم الكهان الذين يطهرون الناس عن طريق الأدعية والصلوات والطقوس السحرية ويأتي في المرتبة الثانية الكهان الذين يختصون بقراءة الألواح المقدسة.

وفي آخر السلّم الكهنوتي يأتي المغنون والخدم ومن على شاكلتهم، وكان عدد الكاهنات الإناث قليلاً بسبب ظروف البلاد الحربية.

ويعدّ الملك أكبر الكهنة مقاماً، فهو ممثل الإله على الأرض والحاكم باسمه، وكان عامة الناس يقومون بتقديم القرابين للآلهة وإهدائها الهدايا حتى ترضى عنهم، وكانوا يعتقدون بالسحر كثيراً ويعملون به.

3- الحياة الآخرة

كان الموتى من البابليين يدفنون في توابيت من الخزف أو في حصائر من البوص، وكانت توضع إلى جانبهم أشياء أو مؤن تساعدهم على الحياة بعد الموت، فقد كانوا يؤمنون بالبعث وبالحياة الآخرة، وكانت مقابر الملوك تتميز عن غيرها، ويمكن أن يحتوي القبر على جثتين أو أكثر مما يدل على أن حاشية الملك كانت تدفن معه لترافقه في الحياة الآخرة، ويمكن أن تدفن الملكة حيّةً مع زوجها الميت. وقد ذكرت أساطير كثيرة عما وراء القبر وتحرك الأرواح ولم يكن إبراز فكرة الثواب والعقاب يوم الحساب واضحة، وكذلك الأمر عند الآشوريين، فهم لا يعرفون شيئاً واضحاً عن الحياة بعد الموت، وكانوا يعتقدون أن جزاء العمل الصالح وإرضاء الآلهة، حياة دنيوية طويلة. فقد كان البابليون يعتقدون أن روح الإنسان بعد الموت تَنْفُذُ من القبر وتنزل إلى العالم السفلي «أرولو Arollo» وهو مدينة كبيرة مهجورة يلفها الظلام، ويعيش فيها الموتى حياة

حزينة يأكلون التراب ويشربون المياه القذرة، ولا يمكن التخفيف من هذا البلاء إلا بالقرابين التي يقدمها أصدقاء الميت وأقرباؤه الأحياء.. أما الموتى الذين لا يرعاهم أحد والموتى الذين لم يدفنوا في قبور فإنهم يهيمون دون أن يقر لهم قرار، ويعودون إلى الأرض من حين إلى آخر، في صورة أرواح شريرة تزعج الناس وتخيفهم، فكان الحرمان من الدفن من أكبر العقوبات. أما الأخيار من البشر فتصعد أرواحهم إلى السماء لتلاقي الآلهة، فمصيرهم الاستقرار والخلود الذي تهبهم إياه الآلهة وتباركهم.

4 ـ من أساطير الأولين

لنستمع إلى أهم الأساطير التي قيلت فيما وراء القبر في أرض الرافدين، فهناك أسطورة نزول عشتر إلى العالم السفلي «أرولـو» حيث تنزل إلهة الحب إليه وتطلب مقابلته ملكته «أرشكجيل Ereshkigal» وفي طريقها إلى المملكة تمر بسبعة أبواب، وكان عليها أن تخلع ثوباً من ثيابها السبعة حتى تستطيع المرور منه. وعندما تدخل عشتر على الملكة تحييها هذه بستين مرضاً تصيبها. وفي تلك الأثناء يؤدي غياب إلٰهة الحب عشتر إلى توقف كل تجدد للحياة على الأرض، فتقلق الآلهة وترسل إلى ملكة العالم السفلي تسألها عشتر بعد أن يرشن ماء الحياة على عشتر تمضي راجعة إلى الأرض، وتستعيد أثوابها عند مرورها مرة أخرى خلال الأبواب السبعة، وبعودتها تتجدد الحياة على الأرض.

أسطورة أخرى تتعلق بما وراء القبر، هي أسطورة «نرجـل Nergel» وأرشكجيل. تقول الأسطورة أن «أرشكجيل» ملكة العالم السفلي لم تستطع حضور مأدبة للآلهة فأرسلت وزيرها «نمتر Nemtar»، ليطالب بنصيبها من الطعام والشراب، فلقي ترحيباً من كل الآلهة، ما عدا نرجيل الذي لم يقف احتراماً له، فأمرت الملكة وزيرها أن يأتي بالإلٰه العنيد نرجيل إلى العالم السفلي، فينزل إليه، ولكنه استطاع التغلب على حرس الملكة وأمسك بأرشكجيل من شعرها وجرّها من العرش، فسألته الرحمة وعرضت عليه الزواج منها، فقبل العرض وبذلك أصبح ملكاً على العالم السفلي.

ومن أهم الأساطير التي قيلت في قضية الخلق التي تتضمن قصيدة أكادية طويلة تسمى «الأينوما ـ ايليش» والتي يراد بها تمجيد الإله «مردوخ» وتصويره كبيراً للآلهة وخالقاً للكون وقد ذكرناها بشيء من التفصيل في باب الخلق والتكوين (ص 13).

أما أسطورة جلجامش فهي أبرز أساطير الأبطال، انتشرت عبر حدود الرافدين إلى الشعوب المجاورة وهي أطول الملاحم البابلية كتبت حوالي (2000 ق. م) وقد عثر عليها في مكتبة «آشور ـ بانيبال» وقد طبعت على اثنتي عشرة لوحة من الآجر، ورويت باللغات السامية مع أن أصلها سومري. أما جلجامش فهو رجل يبحث عن الخلود وهو ملك مدينة «أروك Uruk» من الأسرة التي حكمت بعد الطوفان، وهو شديد التشاؤم، ولكنه يحب المغامرة فهو الذي رأى كل شيء وعرف الأسرار الخفية واكتشف سر الحكمة وكان يضطهد شعبه كثيراً، فحقدت عليه الآلهة، وأقامت له نداً، وخلقت له منافياً سمته «أنكيدو Enkidu» ولكن البطلين عقدا صلحاً وتحالفاً بعد مغامرات عديدة قاسية، ثم أصبحا صديقين، وقاما معاً بأعمال خارقة مروعة، وانتصرا على المسخ المخيف الذي يسكن غابات الأرز، فأعجبت الإلهة «عشتار» بجلجامش، وعرضت عليه الزواج منها، ولكنه رفض ذلك الزواج، ويروى أن صراعاً نشأ بينهما لأن جلجامش ذبح أحد الثيران المقدسة التابعة لعشتار التي استطاعت أن تسلبه قوته وتتركه ضعيفاً. . وبعد موت صديقه أنكيدو، تضطرب نفسه ويدرك أنه سيموت لا محالة يوماً ما، فيهرب جلجامش من مكان لآخر وهو يتساءل لماذا كتب الموت على الإنسان؟ ولا يستطيع الإجابة وإدراك كنه هذا السر، فيذهب إلى شيخ حكيم يدعى «أتنابشتم Utnapishtim» وتسميه التوراة «نوح»، وقد وهبته الآلهة منحة الخلود فسأله عن سر الحياة والموت وأجابه الشيخ الحكيم: إن الحياة والموت تقررهما الآلهة ولكن الآلهة لا تطلعنا على اليوم الذي نموت فيه. ويقص الشيخ حكايته قائلاً: إنه ظفر بالخلود زمن «الفيضان الكبير» الذي أنقذ منه نفسه وأسرته ودوابه وكل ما يملك، ويتحدث الشيخ الحكيم عن نبات يصنع العجائب، له القدرة على إعادة الشباب يوجد في قاع البحر، فيغوص

«جلجامش» إلى القاع ويأتي بالنبات، وبينما هو يغتسل في مجرى مائي اجتذبت رائحة النبات أفعى فتأخذه وتذهب به وهكذا يموت جلجامش، ويخفق في البقاء حياً، ولا ينال الخلود إلاّ ما ترك من عمل خالد الذكر.

إن هذه الأساطير الخرافية، تحكي روايات عن آلهة تحب وتتزوج، تأكل وتشرب، وتبحث عن الحياة والخلود فلا تجده، إنها آلهة قاصرة، زائفة لا حول لها ولا قوة، إنها لا تستطيع حماية ذاتها من أقل خطر يصيبها أو كارثة تحل بها. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد من أساطير وخرافات وعبادة الأصنام وأوثان وآلهة متعددة كثيرة بل كانوا يعتقدون بوجود الشياطين التي لا عاصم للإنسان منها، التي تحل به بسبب ارتكاب خطيئة ما كإهمال في الطقوس الدينية، أو القتل أو السرقة حيث يتخلى الإله عن الإنسان المذنب، فتجد الشياطين الطريق مفتوحاً أمامها فتدخل في جسم الإنسان، وكان من أخطرها شيطان الحمّى، وله رأس أسد وأسنان حمار، وأطراف نمر أرقط، وله صوت كصوت الأسد أو النمر، وكان يمسك بيديه أفاعي هائلة ومخيفة، وكان كلب أسود وخنزير يداعبان ثدييه، وكان شيطان الرأس «أشكو Ashakku» هو الذي يسبب الصداع وألم الرأس. فما أكثر الخرافات والأساطير وما أضعف الإيمان في تلك النفوس التائهة.

5 ـ أهم الآلهة في بلاد الرافدين

كثرت الآلهة في بلاد الرافدين وفي سوريا، وعلى كثرتها فهي أقل أهمية وأدنى مرتبة من الآلهة المصرية القديمة، وسنتعرف أهم هذه الآلهة فهي:

1 ـ أبسو Apso: وهو الماء العذب، وأحد ثلاثة آلهة بدئية انحدر منها جميع الآلهة كما تذكر الأسطورة البابلية وتشكلت منها المادة الأساسية للكون، يمزج مياهه مع زوجته «تعامة» الماء الملح البدئي في دعة واطمئنان وسكون أزلي، وينتشر فوقهما الضباب المنبعث منهما وهو الإله البدئي الثالث «نمو»، وقتل آبسو على يد الإله «أنكي» في ثورة قامت بها الآلهة الشابّة.

2 ـ تعامة Tiamat: المياه الأولى، والمحيط البدئي، وتنين العماء والهيولى الأصلية لدى البابليين. مزجت مياهها مع مياه زوجها «أبسو» وانتشر

منهما الضباب «نمو» وهذه الآلهة البدئية الثلاث تبدأ بالتناسل، وتنجب عدداً من الآلهة الشابة التي تتناسل بدورها ليأتي جيل جديد من الآلهة يقوم بالثورة على هذه الآلهة البدئية فيموت «آبسو» على يد «أنكي» إله الماء الجديد، وتموت تعامة على يد مردوك سيد الآلهة الذي يقوم بشطر تعامة إلى شطرين يجعل الأول سماءً والثاني أرضاً، ثم يلتفت بعد ذلك لخلق بقية الكون وتنظيمه.

3 ـ إنكي Enki: إله المياه العذبة الباطنية عند البابليين، ويسمى «إيا Eia» عند السومريين وهو إله المكر والدهاء والحيلة، وإله الحكمة والمعرفة القديمة، يشبه الماء الساكن وهو إله السحر والقوى الغامضة وإليه تُعزى معظم الأساطير في خلق البشر.

4 ـ نمو Nimo: المياه الأولى التي انبثق عنها كل شيء عند السومريين.

5 ـ إنليل Enlel: إله الهواء والعاصفة عند السومريين يأتي في المرتبة الثانية بعد «آن» إله السماء ورئيس مجمع الآلهة، لأنه قام بتنظيم الكون وإخراجه من لجة العماء والهيولى الأولى وأخذ سلطة «آن» وهيبته، وهو الذي فصل السماء عن الأرض بعد أن كانا ملتصقين في جبل واحد في قلب المحيط البدئي الأول، ظل كذلك عظيماً في مركزه حتى استولى مردوك على ذلك المركز في مجمع الآلهة البابلية.

6 ـ مردوك: ثاني إله بعد «آن» إله السماء عند البابليين ولكنه السيد الفعلي لجميع الآله، وأعلاهم شأناً فقد تفوق على آبائه وكل أقرانه ولم يحصل أي إله في أي مكان على ما ناله مردوك من السلطة والتقديس والتبجيل، فهو الذي تصدى لتعامة أم جميع الآلهة وشتت شملها ثم شقها نصفين فخلق بذلك السماء والأرض. وتابع عمليات الخلق الأخرى فخرج الكون من بين يديه كما نراه اليوم. وقد صارع قوى الشمس وقام بأعمال الخلق كلها التي استحق بها سلطاناً أبدياً على الآلهة والبشر والأكوان، وكان له خمسون اسماً تدل على مفاهيم توحيدية وكأن الآلهة جميعها اجتمعت في إله واحد تجسدت في شخصه الإلهي.

7 ـ **ننخرساج**: وهي الأرض الأم عند البابليين، انبثق عنها كل الأحياء من بشر ونبات وحيوان اسمها السومري «كي» ولها أسماء أخرى منها: ننماخ، ننتو، مامي، ماما. وهي لدى الكنعانيين عشيرة زوجة «إيل»، ورغم أن الأرض هي زوجة السماء في البداية إلا أنها تصبح زوجة للماء «إنكي» فيما بعد، ومن اتحادهما يحيا النبات والحيوان.

8 ـ **أنانا**: وهي إلٰهة الحب والخصب عند السومريين، واسمها «عشتار» عند البابليين تهبط إلى العالم السفلي لتحرير زوجها «تموز» الأسير هناك. وكانت إلٰهة الحب فارتبطت بعبادتها كثير من الطقوس الجنسية والاحتفالات الإباحية.. وعند الكنعانيين تتخذ اسم «عناة» في أوغاريت وعشتاروت في الشاطىء الجنوبي.

9 ـ **عشتار**: إلٰهة الحب والخصب عند البابليين، وهي كوكب الزهرة وابنة القمر، يقابلها عند الرومان «فينوس» وعند اليونان «افروريت»، وهي تشبه «عناة» في صفاتها كإلٰهة للخصب، وهي إلٰهة الحرب والمعارك، تنصر عبادها على أعدائهم. تمثل وهي مدججة بالسلاح واقفة على أسد متوثب، تلقب بالعذراء رغم كل غرامياتها الجنسية.

10 ـ **أوتو**: إلٰه الشمس عند السومريين وهو ابن القمر «سن» وحفيد «إنليل» الهواء الذي أنجب القمر من حبيبته «ننتليل»، والقمر بدوره أنجب الشمس من زوجته «ننجال» ويتخذ أوتو اسمه «شمش» عند البابليين، و «شبش» عند الكنعانيين.

11 ـ **شمش**: إلٰه الشمس عند البابليين، اعتبر إلٰهاً للعدالة وهو الذي أوحى لحمورابي بشريعته الشهيرة.

12 ـ **سن**: إلٰه القمر عند الرافدين، وهو ابن الإلٰه «إنليل» الهواء من حبيبته «ننليل» وله اسم آخر هو «نانا».

13 ـ **أريشكيجال**: إلٰهة العالم الأسفل وقد كانت فتاة عذبة وإلٰهة سماوية، اختطفها «كور» وهو وحش العالم الأسفل غنيمة لتعيش معه هناك. ولكن «كور»

قتل في إحدى معاركه الكثيرة، وتبقى «أريشكيجال» سيدة مطلقة للعالم الأسفل.

14 ـ نرجال: زوج أريشكيجال: ويحكم معها مملكة الموتى... وقد كان إلهاً سماوياً ولكنه هبط إلى العالم السفلي بأمر من ملكته عقوبة له لرفضه الوقوف في وجه رسل الملكة واحترامهم. ولكنها أحبته وتزوجته للشجاعة التي أظهرها عند نزوله فغدا سيداً لمملكة الظلام.

15 ـ دموزى ـ تموز: إله راع تقدم لخطبة «أنانا» إلهة الحب عند السومريين، نافسه في ذلك الإله المزارع «انكميرو» وتقدم كل منهما بقربان للإلهة من منتجاته، فقبلت «أنانا» تقدمة الراعي «دموزى» وتزوجته. ولم تنظر إلى تقدمة الفلاح «انكميرو»، ولعل ما جاء بالتوراة يشبه هذه الفكرة عندما يقبل الرب قرباناً من الراعي هابيل ولم ينظر إلى قابيل المزارع.

16 ـ حدد: إله المطر والصواعق والسحاب والرعد وكل مظاهر الخصب في بلاد الرافدين.

17 ـ ايرا: إله الطاعون والأوبئة الفاتكة والدمار عند البابليين وهمّه الدائم إشاعة الخراب والفوضى في العالم.

الفصل الثاني

المعتقدات الدينية عند الكنعانيين

1 - تمهيد:

أطلقت التوراة اسم بلاد كنعان على منطقة فلسطين وفينيقيا، كما أطلقت على شعبها اسم الكنعانيين وهم أسلاف بني إسرائيل، وقد ذكرت التوراة كثيراً من أسماء الآلهة الكنعانية وطقوسهم ومنذ اكتشاف مدينة أوغاريت على الساحل السوري، ظهر عدد من الآلهة الكنعانية الكثيرة، فكان لكل مدينة آلهتها الخاصة التي تدل من خلال أعمالها ووظائفها على أن الكنعانيين عبدوا الطبيعة وقدسوا آلهتها، وقد تموت الآلهة الكنعانية لأنها غير ثابتة ولا مستقرة، فهي كثيراً ما تتبادل صفاتها ووظائفها وصلاتها، وأحياناً جنسها، وربما يعود ذلك إلى انعدام الوحدة بين الكنعانيين أنفسهم، وقد عبد الكنعانيون العديد من الآلهة التي أخذوها عن المصريين، وقد أثّر الكنعانيون بدورهم في الديانة الإغريقية. ويعتبر الدين الكنعاني أقل تطوراً من الدين عند شعوب أرض الرافدين، في المستوى الحضاري لكثرة اهتمامه بالعناصر الجنسية ولقسوة بعض الطقوس عندهم. وقد كثرت الأساطير والخرافات في معتقدات الكنعانيين.

2 ـ التعريف بأهم الآلهة الكنعانية

(أ) إيل: وهو كبير الآلهة ورب السماء، يعتلي عرشه في السماء

السابعة. وقد شاعت عبادته عند جميع الشعوب السورية «الآرامية، الفينيقية، التدمرية» كما عبده العبرانيون في مطلع تاريخهم. وزوجته الإلٰهة «آثرت»، وقد ورد *اسمه في التوراة، وهو أصل اسم «إيلوهيم» كما ذكرت زوجته باسم «آشيرا».

(ب) بعل: وهو أبرز الآلهة الكنعانية، ورب المطر والسحاب والعاصفة، وسيد الدورة الزراعية وله علاقة مباشرة بمعيشة الناس وحياتهم ورزقهم، وهو الذي ينظم الكون ويدبر أمره، بعد أن تغلب على المياه الأولى الممثلة بالإلٰه «يم» المحيط البدئي والهيولى والعماء.. وقد دخل في صراع دائم مع الإلٰه «موت»، انتهى الصراع بهزيمة بعل لولا مساعدة حبيبته «عناة» له، ليبعث من بين الموتى ويقهر الإلٰه «موت»، ثم يعود لصراعه من جديد كل سبع سنوات، ويؤدي اختفاء «بعل» وهزيمته إلى توقف الحياة على الأرض ويتكرر هذا الصراع للأبد ممثلاً تعاقب القحط والخصب منطبقاً على الدورة المناخية السورية.

(جـ) موت: وهو إلٰه مملكة الظلام والموت والعالم الأسفل، بدخل في صراع مع بعل، ويتبادل معه الحكم، وهو إلٰه الجدب والموت، يحل محل «بعل» في الصيف، ولكنه يطرد مرة أخرى بقدوم الخريف ليحكم «بعل» إلٰه المطر والخصب من أيلول حتى أيار.

(د) عناة: إلٰهة أوغاريتية، وهي حبيبة الإلٰه «بعل» وروح الخصوبة الكونية، وتلقب بالعذراء وهي ربة الحب والجنس وربة الخصب والحياة، وربة الحرب والدمار والكوارث والظلام وهي تملك الخصائص المتناقضة وكثيراً ما كانت تصوَّر بأنها متعطشة للدماء، يسرها ذبح الرجال وقتلهم. ولنستمع إلى ترتيلة تمثل انتقام «عناة» من خصم زوجها. هكذا جاءت الإلٰهة المحاربة عناة بالإلٰه «موت» وتذبحه:

«تقترب منه عناة العذراء..
وكما يهفو قلب البقرة إلى عجلها..
وقلب الشاة إلى حملها..

كذلك يهفو قلب عناة إلى بعل
وتمسك بـ «موت»، ابن إيل
وبالسيف تشقه.. وبالمذراة تذروه
وبالنار تحرقه.. وبالرحى تطحنه، وفي الحقل تبذره
فيأكل قطعه الطيور، وتفني أجزاءه العصافير جزءاً جزءاً...».

(هـ) عشيرة: وهي الأم الكبرى وزوجة إيل وكانت تسمى «إيلات» نسبة إلى إيل ومن ألقابها سيدة البحر، وما زال اسمها يطلق على «إيلات» في البحر الأحمر... عشتارت من الآلهة الثانوية في أوغاريت وهي ربّة الخصب والحرب أيضاً.

(و) شبش: وهي إلهة الشمس، عند البابليين يوجد الإله المذكر «شمش».

(ز) داجون: إله القمح وأبوه الإله بعل، تحول إلى إله بحري عند الفلسطينيين، تصوره التوراة على شكل إله له ذيل سمكة..

(ح) بارات: إلهة مدينة بيروت الفينيقية، وهي أحد أشكال الإلهة عشتاروت، حملها الفينيقيون معهم عبر مضيق جبل طارق، وأعطت اسمها لجزيرة بريطانيا.

(ط) أدونيس Adonise: وهو من الآلهة السورية ويمثل إله المطر والسحاب والبرق والرعد وكل مظاهر الخصب الأخرى.. ومعناه السيد، واسمه عند البابليين تموز وهو اسم آخر للإله بعل الكنعاني.. ويطرأ تحوير الأسطورة التي قالت إن أدونيس لم يمت كما مات الإله بعل في صراعه مع الإله «موت»، حيث ورد ذلك في لوح رأس شمرا، وإنما قتله خنزير بري في غابات لبنان، وكانت حبيبته في هذه المأساة عشتارت التي بحثت عن أدونيس حتى وجدته.. فتنهض من بين الأموات إلى عالم الحياة ويرافق رجوع الإله عالم الأموات احتفالات عظيمة حيث يبدأ الناس بالرقص والشراب.. بعد أن قضوا فترة غيابه وموته في ندب وعويل.. كما تتخلل هذه الاحتفالات الممارسات الجنسية

تقليداً للقاء عشتاروت وأدونيس والإيحاء للتربة بالخصب والنماء. .

3 ـ الكهنة عند الكنعانيين

لم تكن طبقة الكهان عندهم منظمةً تنظيماً دقيقاً وكافياً حتى تستطيع تنظيم الدين أصولياً كما كان في بلاد الرافدين، ومع ذلك كان للآلهة عندهم دور كبير، وللكهنة أنواع. . منها الكهنة الكبار وسدنة المعابد والنساء النادبات والبغايا المقدسات والمتنبئون وقد ورد ذلك في نصوص أوغاريت الأثرية أما مراكز العبادة فكانت تقام في العراء قرب الينابيع أو الأشجار، أو فوق التلال، مما يدل على أنها ديانة قريبة إلى الطبيعة والفطرة وكانت القرابين الكنعانية تقدم للآلهة من الحيوانات المألوفة ولكن وقت الكوارث الهائلة العامة كانت تقدم للآلهة قرابين من ضحايا البشر لعظمة المصيبة أو الكارثة، ويمكن تقديم قرابين من الأطفال عند تشييد المباني أحياناً. وكانوا يماسون عادة تدل على انخفاض مستوى الدين عندهم وهي زنا الطقوس التي تعد جزءاً من عبادة الخصوبة قد تطور الدين الكنعاني وبطل استعمال هذه العادة. وكان يستدل من الهدايا الموضوعة في القبور على عبادة الموتى وعلى الإيمان بالحياة الآخرة وإن كان الأمر غير واضح تماماً لديهم.

كثرت الآلهة عندهم وتعددت فقادتهم إلى الهلاك والدمار لأنها لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً. قال تعالى: **﴿تبارك الذي نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً * الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدَّره تقديراً * واتخذوا من دونه آلهة لا يَخْلقُون شيئاً وهم يُخلَقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً﴾**[1].

---

(1) سورة الفرقان، آية: 1-3.

الباب الخامس

الديانات عند القبائل والشعوب البدائية

الفصل الأول

الديانات البدائية

انتشرت الديانات البدائية في أماكن متفرقة من العالم، حيث كانت توجد الأمم البدائية، والقبائل المتوحشة الهمجية وخاصة في المناطق المنعزلة جغرافياً وتختلف درجة البدائية من قبيلة إلى أخرى، فمنها ما يزال في أقصى درجات الهمجية والتخلف والانحطاط، ومنها قبائل حضارية وضعت بصماتها نسبياً على جدار التاريخ، فلها آثارها ومعالمها التي لم يبق منها إلا الذكريات والعبر.

يذكر عالم الأجناس البشرية «ايفارليستر» في كتابه «الإنسان والله والسحر» فكرة شاملة تقول: «إن أسلافنا البدائيين قد اعتقدوا بوجود إله واحد ثم انحطوا بالتدريج بسبب النفوذ الشرير لسحرة القبائل وساحراتها، وتحولوا إلى عُبَّادٍ لآلهة متعددة». وحجته في ذلك رسوم الكهوف التي كانوا يقدمونها كقرابين في بعض الطقوس الدينية لآلهتهم.

فقد كان إنسان «نياندرتال» يصطاد الدببة، وكانت أخطر المخلوقات، منذ ما يزيد على ثمانين ألف سنة، وقد وجدت جماجم الدببة القرابين في كهف في سويسرا مما يدل على أن إنسان نيـاندرتال، كان له دين وآلهة يخشاهم أو يحترمهم أو يعبدهم فيقدم لهم القرابين والضحايا.

إن الأقوام البدائية حيثما كانت هي الأصيلة في أوطانها وكل من جاءهم بعد ذلك غازياً أو مستعمراً أو مبشراً ولكن التخلف المزمن عند هذه القبائل جعل

الأمر معكوساً، فقد اكتسح الأوروبيون واحتلوا بلادهم وعملوا على إبادتهم وإفنائهم من الوجود ليهنأوا بالحياة على أنقاضهم وفوق أرضهم. وهذه الشعوب البدائية المقهورة توجد في مناطق واسعة من العالم، فهي موجودة في القارة الأمريكية من شمالها إلى جنوبها. وفي استراليا والأرخبيلات المجاورة في إفريقيا وفي الهند الصينية وجنوبي شرقي آسيا عند المغول وفي سيبريا السوفياتية، وغير ذلك.

ولهذه الشعوب على اختلاف أجناسها وثقافتها ديانات بدائية تتصف إجمالاً بأنها مادية ووثنية بعيدة عن الروحانيات يقوم أهلها بممارسة عباداتهم لمجموعة من التماثيل ينحتونها. أو من الأنصاب ينصبونها أو مراكز يقيمونها للطواف حولها للتعبّد والبركة أو للاستغاثة أو للاستخارة، وقد ازداد احتياج الإنسان للمزيد من الأرباب والآلهة كلما يزيد من توسيع نشاطاته فهو يحتاج إلى إله جديد يقدسه ويعبده لكل نوع من أنواع العمل. ولذلك نشأت عبادة قوى الطبيعة كالشمس والكواكب وغيرها وغالباً ما تكون لهم آلهة حيوانية كالدب والذئب والنمر والأفعى والغراب وغير ذلك. كلها تنحصر ضمن نطاقات الديانات البدائية المتنوعة التالية:

أولاً ـ الطوطمية:

وهي ديانة محلية بدائية تمارسها بعض القبائل البدائية المتوحّشة، يعتقد كل فرد من أفرادها بتقديس أو باحترام كائنات حية أو غيرها، تؤخذ رمزاً للدلالة على معبود تلك القبيلة، ويؤمن بعلاقة نسب بينه وبين واحد من هذه الكائنات يسميه طوطمه.. شكل 17. وقد يكون هذا الطوطم حيواناً، أو نباتاً، أو جماداً، ويسود الاعتقاد على أنه يحمي صاحبه ويبعد عنه الأذى، وبالمقابل على صاحب الطوطم أن يقدسه أو يعبده أو يحترمه فإذا كان الطوطم حيواناً فلا يقدم على قتله أو تعذيبه، وإذا كان نباتاً فلا يقطعه ولا يأكله ولا يتلفه. إن الطوطمية تختلف عن الديانة الفتشية التي تقول بعبادة الحيوانات أو بعبادة النباتات الشائعة عند تلك القبائل.. فالطوطمية عبادة صنم بصورة حيوان مُعين تخصصت القبيلة في صيده

بمهارة.. والفتشية هي تقديس نوع من أنواع الحيوانات أو النباتات وعبادته.. والطوطم بالنظر إلى جميع القبائل ثلاثة أشكال هي:

(أ) طوطم القبيلة:

وهو حيوان أو نبات أو أي شيء آخر يشترك في تقديسه أو عبادته كل أفراد القبيلة المعنية، يقسمون باسمه ويتخذونه مثلاً أعلى لهم، ويعتقدون أنه جدهم الأعلى، وأنهم من دم واحد، مرتبطون بعهود متبادلة ترجع إلى ذلك الطوطم، وله عندهم اعتبارات دينية واجتماعية: فالاعتبارات الدينية يراد بها العلاقة المتبادلة بين الرَّجل وطوطمه، فالرجل يحترم الطوطم، والطوطم بدوره يحميه ويحفظه من كل شر. أما الاعتبارات الاجتماعية فهي العلاقات المتبادلة بين أفراد القبيلة ذاتها التي يجمعها اسم الطوطم الواحد تجاه القبائل الأخرى المنسوبة إلى طوطمات أخرى. والطوطم من الوجهة الدينية يعدّ أباً للقبيلة وهي من نسله. ولكل قبيلة حديث خرافي عن طوطمها يتناقله أبناؤها أباً عن جد. ويتحدثون فيه عن كيفية انتقاله من الصبغة الحيوانية أو النباتية إلى الإنسانية..

فقبيلة السلحفاة من قبائل «الأيروكوا» من هنود أمريكا، يعتقد أفرادها بأنهم منحدرون من سلحافة سمينة استثقلت صدفتها فألقتها عن ظهرها ثم تحولت إلى إنسان ثم ولدت أولاداً، فتزايد عددهم وتكاثروا.

وقبيلة الحلزون يعتقدون أنهم منحدرون من الحلزون وأنثى الجندبادستر، حيث أن حلزوناً ذكراً خلع صدفته ونبت له يدان ورجلان ورأس، ثم تحول إلى رجل طويل القامة جميل الصورة، فتزوج أنثى الجندبادستر. وأولادهما هم أبناء القبيلة.

كما توجد قبائل تنسب إلى البط والأوز أو غيرها من الطيور المائية.

وقبائل أخرى تنسب إلى وحيد القرن أو فرس البحر أو إلى العقرب أو الثعبان وغير ذلك...

فكل من هذه الحيوانات يعدّ طوطماً للقبيلة التي تسمى باسمه، وهي

تحترمه وتقدسه فعلاً. فلا تؤذيه ولا تقتله، فقبيلة البط مثلاً لا تؤذي هذا الطير ولا تقتله إلا إذا جاع أحدهم، فيأكل البطة وهو يأسف ويستغفر لذنب ارتكبه. وإذا كان الطوطم نباتاً فإنهم يحترمونه ويتحاشون أن يدوسوه أو يأكلوه، فمن كان طوطمه الذرة مثلاً فأكْلها محرّم عليه وإذا كان طوطمهم شجرة حرموا إحراقها أو استغلالها.

وقبيلة الأيل من قبائل «الأوهاما» لا تأكل لحم الأيل ولا تلمس ذكر الأيل أبداً.

وقبيلة رأس الغزال لا تلمس جلد الغزال قط، فهم يحرّمون لمسه أو النظر إليه أو التلفظ باسم الطوطم، وإذا اضطروا إلى ذكر اسمه عمدوا إلى الكتابة أو الإشارة إلى ذلك.

فعند قبائل هنود «الدولاورس» في أميركا قبيلة تنسب إلى الذئب، وإذا اضطروا إلى ذكره عبّروا عنه بقدم مستديرة، وقبيلة السلحفاة يرمز إليها بالزاحف، وقبيلة ديك الحبش يرمزون إليه بغير الماضغ حتى أن القبائل نفسها تعرف بهذه الألقاب والكنايات..

الوفاء عند الطوطم: يعتقد أبناء القبيلة الطوطمية أن الطوطم لا يؤذي صاحبه، فمن كان طوطمهم الثعبان مثلاً فهم لا يخافون لسعه، وكذلك العقرب أيضاً فهي تمر على جسد أحدهم ولا تؤذيه، وكذلك قبائل الذئاب وغيرها، وأما إذا لسع الثعبان أحدهم يوماً، قالوا: إنه مدّعٍ كاذب.. وهم لا يحترمون من لا يراعي الطوطم ويتجنب أذاه وينبذونه جانباً ويعتقد ذوو الطوطم أنه يكفّ آذاه عن أصحابه أو عباده، وهم يتوقعون منه أن يحسن إليهم، ويدافع عنهم، فقبيلة الذئاب تعتقد أن الذئاب تدافع عنهم في ساحة القتال حتى أنهم يتوهمون أن الطوطم يمكن أن ينذر أصحابه بالخطر قبل وقوعه بإشارات أو برموز.. وإذا أرادوا التقرب إلى الطوطم ابتغاء رضاه وحمايته، فإنهم يتشبهون به فيقلدونه في مظهره وشكله وصورته وحركاته، ويلبسون جلده أو قسماً منه أو يتخذون جزءاً منه يعلقونه في أعناقهم أو أذرعهم على نحو التعاويذ والرقي عند الشعوب

الأخرى. فلا يخلو فرد من تعويذة تدل على علاقته بطوطمه. . حتى أن بعض عاداتهم تقترن بعبادة طوطمهم، فهم عند الولادة أو عن الزواج أو الوفاة يقيمون احتفالات تتوافق مع طوطمهم: فقبيلة الغزال الأحمر مثلاً إذا وُلد لهم طفل نقشوا ظهره بالحمرة. . وأما قبيلة الذئب فهم يصيحون عند الولادة «ولد لنا ذئب صغير»، ويخيطون بقميص الطفل قطعة من عين الذئب ومن قلبه، لحفظه وحمايته من الأذى، وفي جاوة: إذا تزوج واحد من قبيلة الكلب الأحمر دهنوا العروسين برماد عظم كلْب أحمر. وقِس على ذلك سائر القبائل البدائية عند الهنود أو عند الزنوج أو المغول، بما يعتقدون به من أساطير وخرافات أصبحت جزءاً من حياتهم ومن طقوسهم يمارسونها وقت المناسبات. ومن الوجهة الاجتماعية، فأهل الطوطم الواحد يعدون أخوة وأخوات، يتعاونون في السرّاء والضرّاء، وهم يرتبطون بروابط أسرية متينة، بل هي أشد مما بين أفراد العائلة الواحدة في أيامنا هذه، ويتزوج الرجل امرأة من غير قبيلته ومن طوطم غير طوطمه، وربما نشأ الأولاد على طوطم آخر، وإذا نشبت حرب تعاون أهل الطوطم الواحد على أصحاب الطوطم المعادي، مهما كانت درجة القرابة، ويمكن أن ينفصل الزوج عن زوجته كما ينفصل الولد عن أمه وأبيه، فارتباطه بطوطمه أقوى من ارتباطه بقومه أو أسرته. ويعتقدون أن رجال الطوطم الواحد لا يتزوجون من نساء قبيلتهم ولا تتزوج نساء الطوطم الواحد برجال منها، ويجب أن يكون الزوج خارجياً ويعتقد أصحاب الطوطم الواحد أن الزواج من القبيلة نفسها مضرّ بالصحة حتى أنه ينخر العظام، ويعاقبون كل من يتزوج من طوطمه بالموت أو بالعذاب الشديد، وهم يتزوجون من نساء القبائل الأخرى نتيجة الغزو أو بالمراضاة أو نحو ذلك. . والأولاد عندهم يرثون غالباً طوطم أمهاتهم، والنسب يتصل بينهم بالأمهات وليس بالآباء. .

موت الطوطم: إذا مات حيوان من نوع طوطم القبيلة، احتفل كل أهل القبيلة بدفنه، وحزنوا عليه حزنهم على أي واحد منهم. فقبيلة البومة في «ساموا» إذا وجد أحدهم بومة ميتة فإنه يجلس بجانبها، ويأخذ في الندب والبكاء ويضرب جبينه بالحجارة حتى يسيل دمه، ثم يكفن البومة ويحملها إلى المدفن

كأنها واحد من أفراد أسرته، وتعتقد بعض القبائل أن من أهان طوطمه أو أساء إليه حلت به المصائب والنكبات، وتعتقد قبائل أخرى أن من يأكل طوطمه تصبح نساء قبيلته عواقر، وهناك من يعتقد أنهم يصابون بالأمراض وتحل بهم الكوارث، ومنهم من يعتقد أن من يأكل طوطمه سيلاقي الموت جزاء على فعلته، حيث يقيم الطوطم في بدنه ولا يزال يأكل منه حتى يموت..

(ب) طوطم الجنس:

وهو ما يختص باحترامه أحد أفراد الجنسين من الذكور أو الإناث حيث يختص برجال القبيلة أو بنسائها.. ففي استراليا تخصّص بعض القبائل لذكورها طوطماً، ولإناثها طوطماً آخر، وكلاهما غير طوطم القبيلة العام.

(جـ) الطوطم الشخصي:

وهو ما يختص باحترامه الفرد الواحد، ولا يرثه أبناؤه من بعده، ويمكن أن يكون طوطم الرجل خاصاً به من غير طوطم القبيلة، وغير طوطم الرجال أمثاله...

هذه ديانات التزم بها هذا النوع من البشر وأخلص لها في عبادته، وقدم لها القرابين، وذبح الأضحيات إيماناً بها أو خوفاً منها، واتقاءً لشرها أو طمعاً في رضاها ونفعها ورحمتها.. وآمنوا بأن الخير والشر من عندها.. وهي لا تضر ولا تنفع. ومع ذلك أحبوها حباً جماً.. فما بالنا بخالق الكون ومدبر السموات والأرض ورازق العباد بغير حساب؟؟؟ أليس هو الأجدر بالعبادة، والأحق بالتقديس؟؟؟...

ثانياً ـ الشامانية:

ليست الشامانية ديناً مستقلاً، وإنما هي نوع من العبادة أو الاعتقاد الديني القديم، الشائع عند بعض الأمم المغولية، وخاصة في شمال آسيا، ويسمون صاحبها: «شامان» وهو الكاهن، وأكثر أعماله سحر، وشعوذة، وله نفوذ يشبه

نفوذ الطبيب الروحي عند الهنود، وهذا النفوذ مبني على اعتقاد الناس بأن الشامان أو الكاهن قادرٌ على أن يدفع الضر والأذى، أو يجلب الخير والمنفعة بتأثيره في الأرواح الصالحة أو الشريرة، وهذه الأرواح في اعتقادهم هي أرواح أسلافهم، وللشامان طقوس وفرائض سحرية أو كهنوتية يستخرج بها النيات. ويأتي بالمعجزات بتقديم القرابين، والأضاحي للأرواح، فهو من هذا القبيل تابع للعبادات الروحية وليس للوثنية. تنتشر الشامانية عند المغول وعند أهل سيبيريا الأصليين، وهم يؤلهون القوى الطبيعية ومظاهرها كالجبال والأودية والأمطار والصواعق، على أيدي كهّانهم الشامان، وهم الواسطة بينهم وبين تلك الأرواح، فكل المياه الجارية في منغوليا قد ألّهها الناس وعبدوها، ولكل جبلٍ من جبالهم خرافة دينية، ويلقبون أعلى قممها بألقاب الملوك..

وهم يخافون إلٰهاً يسمونه «وجه الماعز»، له رأس ماعز أو رأس ثور، عليه تاج من جماجم البشر، وقد اندلع اللهب من فمه وله أربع وعشرون يداً، قبض بها على أعضاء بشرية وعلى أدوات العذاب، يصبغون هذا الإلٰه بلون أزرق قاتم، وامرأته بلون أزرق فاتح، ويعرف هؤلاء باسم المغول الزرق، ويعد اللون السماوي عندهم من الألوان المقدسة. وإذا مات عندهم رئيس أو وجيه فهم يذبحون الذبائح باسمه ويعظمونه.. أما إذا مات الفقراء فيطرحون جثثهم للكلاب أو الوحوش الضارية أو النسور لتأكلها، ولذلك يسمي الصينيون النسور «قبور المغول». وإذا رأت الكلاب جنازة تتبعها لعلها تظفر بجثة الميت وتأكلها..

يذكر ليستر في كتابه «الإنسان والله والسحر» أن شامانات سيبيريا وهي المنطقة التي نبعت منها الكلمة أصلاً لم يكونوا أطباء سحرة أو ساحرات ولكنهم كانوا أقرب إلى الوسطاء بين الشعب والأرواح، والشامان يستثير نفسه حتى يصل إلى درجة من التهوس المقدس أو النشوة عن طريق دق الطبول والرقص، حتى يصل إلى الإغماء الذي يفترض فيه أن روح الرجل قد فارقت جسده.. وفي إغماءته تصدر عنه أصوات مختلف الطيور والحيوانات ويفترض فيه أنه قادر على فهم لغتها. ويصفهم «ميركا افياد» العالم بتاريخ العقائد بأنهم متخصصون في

النشوة، ويورد قائمة بالمنجزات التي يستطيعون تنفيذها من قراءة الأفكار والعرافة والسير على النار، واكتشاف اللصوص بالاستعانة بمرآة، وغير ذلك. .

يذكر «ليستر» وصفاً لاحتفال شعائري لإحدى القبائل يتضمن الرقص على دقات الطبول ومشاركة المتفرجين للراقصين بالتصفيق والإنشاد. حيث يندمج الجميع في حالة بعيدة تماماً عن حياتهم اليومية يقول «ليستر»: تتصاعد الثورة والهياج، متنقلة بسرعة كالشرارة من شخص إلى من يليه حتى يقترب الجميع من النشوة ويصبح كل واحد منهم مؤدّياً ومتفرجاً في الوقت نفسه طبيباً ومريضاً، سنداناً ومطرقة. إن الإنسان البدائي يؤمن تماماً بأن روح الشامان قد غادرت جسده وأنها في تلك اللحظة تتجول بين السموات أو في الجحيم. ويؤمن إيماناً كاملاً بكل ما يقوله له الشامان في حالة إغماءته. .

ومن الأساطير عند أهالي سيبريا الشمالية أسطورة تقول: إن أرواح السحرة المقدسين أو الشامان تولد في شجرة من نوع معين داخل أعشاش من أحجام مختلفة. ثم يأتي طائر ضخم كالنسر، فيضع بيضاً من الحديد في الأعشاش، وهذا البيض هو الذي يتحول إلى الشامان.

وتنتشر الشامانية كذلك عند هنود أمريكا، وخاصة في آلاسكا ويسمون صاحبها «طنجاق». وهو أدنى مرتبة من رفيقه الشامان في آسيا في سلّم الكهانة. وهو أشبه بمشعوذ أو راقٍ. وتعتقد قبائل شمال غرب أمريكا القدرة على التفريج بالتعزيم ونحوه. وقد يستخدمونه لإخراج الشياطين من المرضى أو في تسميم المحكوم عليهم. ونزع فروة الرأس من القتيل في الحرب، ونقل نص الحكم بالإعدام. . وغير ذلك.

ثالثاً ـ الديانة الفتشية «عبادة الأنصاب»:

وهي لفظ برتغالي الأصل، أطلقه البرتغاليون الذين نزلوا غربي إفريقيا قديماً. وتعني عبادة الأنصاب، حيث وجدوا أهلها يحملون على أذرعتهم وأعناقهم تعاويذ يقدسونها، ويطردون عنهم بها الأذى والشر. واسم التعويذة في اللغة البرتغالية تعني «فيتيشو» وقد أطلق على عبادة الأنصاب بشكل عام. وتنتشر

هذه العبادة عند كثير من الشعوب البدئية الفطرية في عقائدها الدينية وهم يقيمون الأنصاب أو التماثيل من الحجارة أو من الخشب أو من الطين أو الشجر وغير ذلك. ويعتقدون فيها الكرامة والقدرة فهي مقر للإله في تلك القرية أو البلدة أو حتى المنزل ويلجأون إليها في أوقات العسرة لقضاء حاجاتهم بالاستشارة أو الاستخارة أو الاستعاذة ويقدمون لها الذبائح والقرابين فإذا رأوا من إلههم في هذه الأنصاب ما يأملون من خير أو رعاية أو وقاية، بالغوا في احترامه وعبادته، واعتقدوا فيه الكرامة والتقديس. وإلا أبدلوا غيره من الأنصاب لأن الإله والروح قد غادرته وحلّت في نصب غيره.

فهل تعدّ هذه الشعوب البدائية من الشعوب المعنية بقوله تعالى: ﴿**ومن الناس مَن يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشدّ حباً لله، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أنَّ القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب**﴾[1]

(1) سورة البقرة، آية: 165.

الفصل الثاني

الديانات عند الزنوج

يعد الزنوج إجمالاً من أدنى طبقات البشر في سلّم الارتقاء والتطور الحضاري، وينقسمون جغرافياً إلى نوعين:

(أ) الزنوج الشرقيون ويقيمون في أوقيانوسيا وما حولها.

(ب) الزنوج الغربيون ويقيمون في إفريقيا.

أولاً ـ الزنوج الشرقيون:

وفيهم الكثير من الأمم البدائية المتوحشة، مثل: البابون، والميلانيز، والاستراليون، والتسمانيون القدماء، والاندامانيون والسامانغ، وأقزام الزنوج في ميلانيزيا. ولنستعرض المظاهر الدينية والمعتقدات عند هذه الشعوب والقبائل:

1 ـ قبائل البابوان:

ينتشرون في غانا الجديدة وميلانيزيا، ويمتازون بكثافة شعورهم ويتفاخرون بها، وهم من أحط أنواع البشرية. يعملون بالزراعة، ويصنعون الخزف، ويبنون السفن ويقيمون منازلهم إما على الشجر أو بأعمدة ينصبونها على الأرض. وأكثرهم من أكلة لحوم البشر ومشهورون بسفك الدماء والتوحش والخداع، وهم يقتلون النفس بلا أي سبب غير رغبتهم بالقتل وسفك الدماء وإذا

أسروا إنساناً ليأكلوا لحمه كسروا يديه ورجليه حتى يعجز عن الفرار ويتركونه لغذائهم وقت الحاجة، فمتى أرادوا الأكل كان لحم الفريسة طرياً، فيطبخون منه ما يريدون حسب حاجتهم ويتغذون بوجبة بشرية شهية.. وإذا أرادوا منع أسراهم من الفرار يثقبون كفي الرجل الأسير ويشدونها وراء ظهره بوتر أو بخيط متين يدخلونه من الثقبين ويربطونه، ثم ينقلونهم في قواربهم إلى منازلهم لتعذيبهم في احتفالاتهم، ثم يلقون الأسرى في الماء يستخرجونهم متى يريدون بأعمدة طويلة في رؤوسها صنانير من الحديد كالشناكل يغرسونها في لحومهم ويجذبونهم إلى البر ثم يضعونهم على الأرض، ويشدون أعناقهم إلى شجرة ليجلسوهم، ويبدأون بجلدهم وتعذيبهم ثم يلفونهم بورق جوز الهند الجاف، ويرفعونهم عن الأرض نحو مترين وهم مشدودن بالحبال إلى الشجرة، ثم يوقدون النار تحتهم حتى ينضج لحمهم، فتحترق الحبال وتسقط الجثث على الأرض وينقض عليهم الأكلة كالوحوش الكاسرة وفي أيديهم السكاكين يقطّعون يد الرجل أو فخذه ويأكلون منه، ولا يزال فيه رمق من حياة، وهم فرحون يرقصون ويصيحون بصخب وعشوائية وقد روى هذه العادة عنهم «القس شالمر» سنة 1895 م. ثم وقع هو نفسه في أسرهم وقتل بالطريقة نفسها.

الدين عند هذه القبائل المتوحشة: إن البابوان يعبدون آلهة شيطانية، لا تقل عنهم بشاعة وفظاعة، وهم يعتقدون أنها تطوف البلاد، وتظهر عليهم بشكل حيوان غريب يسمونه «اتيتيجي» له عين من الأمام، وعين من الوراء، وله ستة أصابع في كل يد، وتنتهي سبابة اليد اليمنى بظفر حاد، وتقيم هذه الآلهة في الكهوف، وتسطو على الناس. فتختار من لحومهم ما لذّ لها وطاب، بعد أن تتذوق اللحم قبل أن تأكله من قطعة صغيرة تنتشلها برأس ذلك الظفر الحاد، فإذا كان اللحم لذيذاً أمرت الآلهة بذلك الأسير فسوّي على النار، وأكلته.. وإذا لم يَسُغ لها طعم لحمه أطلقت سبيله. وليس كل الناس تؤكل لحومهم..

ومنهم من يعبد الأسلاف، وينحت السحرة لهم تماثيل على صورتهم توضع في إحدى زوايا المنزل، ويغطونه بالحصر، ويقدمون له الاحترام والقرابين، ويستخدمونه في كثير من أحوالهم العائلية ويصحبونه معهم في

الأسفار، ليحميهم من الأعداء وإذا بلغوا مأمنهم طرحوه بعيداً، كقطعةٍ من الخشب عديمة الفائدة والجدوى. . .

2 ـ الميلانيزيون:

يعتقد الميلانيزيون بعبادة الأرواح بعد الموت، وهذه الأرواح على فئتين: فئة صالحة، وفئة شريرة. وهم يزعمون أن الأرواح تذهب بعد الموت إلى غابة العليق، فهم يحتفلون للأرواح كل خمسة أشهر احتفالاً يهيئون فيه الأطعمة والمأكولات، فيختبىء العجائز رجالاً ونساءً في كهف يمثلون فيه الأرواح. وهي ترتل ترتيلاً خاصاً، ثم يخرجون من الكهف وهم يرقصون رقصاً همجياً يخيفون فيه المحتفلين. . وينتهي بذلك الاحتفال.

وهم يعتقدون بآلهة متعددة تساعدهم في أزماتهم ويلجأون إليها وقت حاجتهم فلديهم اعتقاد بإلهٍ خاص للعيون يصلون إليه حتى يساعد عيونهم على رؤية النبال وهي تتساقط عليهم من الأعداء، وبإلهٍ خاص للآذان يستعينون به على استطلاع خبر الأعداء ومعرفة مكانهم، وعندهم آلهة تصنع الأمراض. فإذا مرض أحدهم نفخوا في بوق من صدف البحر صلاة لصانع المرض، ويعدونه بالهدايا، ويلتمسون منه أن لا يحرق بقايا الطعام، لاعتقادهم أن احتراقها يميت أصحابها.

وهناك صنف من الكهنة في كالدونيا. يزعمون أنهم ينزلون المطر، بنبش الجثث وسكب الماء عليها وعندهم كاهن لكل عائلة. وعلى رأسهم جميعاً الكاهن الأعظم.

3 ـ الاستراليون:

تميز الأستراليون بالانحطاط والهمجية بسبب عزلتهم داخل جزيرتهم عن سائر البشر، فهم إجمالاً من أقل الأمم شأناً، فلا يبنون لهم بيوتاً أو أكواخاً، بل يلجأون إلى أخصاص من ورق الشجر. وهم لا يحرثون ولا يزرعون، بل يأكلون من جذور الشجر وثمارها كما يأكلون الديدان والخنافس والجنادب ولحوم

الحيوانات، حتى الإنسان نفسه لا يسلم من شرهم فيأكلونه، وهم لا يلبسون ثياباً، بل يعيشون بالعراء. ويتقلدون من العظام حلياً في أنوفهم أو عقوداً من الصدف حول أعناقهم ويدقون الوشم على أجسادهم..

فما هو دينهم؟ يقال عنهم بأنهم لا دين لهم، كما يقال عنهم أيضاً بأنهم يؤمنون بإلهٍ واحد.. والمعروف عنهم أنهم لا يصلّون ولا يضحّون ولا يمارسون شيئاً من الطقوس الدينية، ولا يعرفون خالقاً، ولا يسجدون لصنمٍ، لكنهم يؤمنون بالأرواح الشريرة وينسبون إليها الأخطار التي تصيبهم وخاصة في الليل، لذلك فهم لا يمشون ليلاً إلا على ضوء المشاعل ليطردوا تلك الأرواح من طريقهم وهم يعتقدون بوجود الروح في الإنسان وفي الحيوان. وإنها تنتقل من جسم إلى آخر وصاحبها حيّ، وتزور قبر صاحبها الأول وأنها تقتات الطعام الملقى على الأرض، وأنها تستدفىء بالنار.. وإذا مات أحدهم بغتة نسبوا موته إلى سحر من عدوّه، يتتبعون خطاه ويبحثون عنه بطرق خاصة ومن مات ولم يدفن تحولت روحه إلى روح شريرة تهيم في الأرض، ويزعم بعضهم أن أرواحهم تستقر في جزر في خليج «سبنسر» وتقيهم فيها.. وإذا كان الميت رئيساً أو حاكماً مسؤولاً جعلوا جثته في شجرة وأحرقوها. ويغلب في الأرامل من النساء أن يحلقن رؤوسهن ويلبسن اللباس الأبيض حداداً على أزواجهن...

وهم يعتقدون أن الروح تظل بعد الموت حيّة وهي بعد ذلك إما أن تبقى تائهة وحدها وإما أن تسكن جسداً آخر وتستقر فيه. ومنهم من يعتقد أن الأرواح تصعد بعد الموت إلى منازل علوية في السماء، ويمكن أن تهبط إلى الأرض لتتفقد أجسادها.

وأما سكان جزر «فيجي» فيزعمون أن الآلهة عندهم تحب لحوم البشر، ومن دخل حرباً، وأكثرَ من القتلى فهو يقدم طعاماً للآلهة وقد يقتل الرجل امرأته إرضاء لآلهته الجشعة وإذا استطاع أحدهم قتل رفاقه عدّوه في مصاف الآلهة.. ومن آلهة الفيجيين «آوى» وهو بنظرهم خالق الناس. و«راتومينيولو» إله العقم. ومن بين آلهتهم أصنام لها ثماني أذرع أو ثماني أعين أو ثمانون معدة أو غير ذلك

من غرائب الخلق والأساطير. . وإذا مات أحد رؤسائهم قتلوا واحداً أو أكثر من نسائه أو من أصدقائه أو من أقاربه ليسيروا في خدمته إلى العالم الآخر، وقد تطلب نساء الميت القتل من تلقاء أنفسهن خوفاً من أن يعشن ذليلات أو جائعات بعد وفاته، وقبل دفن الميت يضعون في يده فأساً ليدافع بها عن نفسه، ويصحبونه بأسنان الحوت ليسترضي بها الأرواح. .

ثانياً ـ الزنوج الغربيون:

يقصد بهم زنوج إفريقيا، وينتشرون غالباً في أواسط القارة وجنوبها، ولهم صفات عرقية مشتركة: فرؤوسهم مستديرة قصيرة لونهم أسود فاحم أو أسمر قاتم، شعرهم أسود قصير أجعد، قاماتهم متنوعة، فمنهم الطوال ومنهم الأقزام، والفكان بارزان، الأنوف قصيرة مفلطحة، والمناخر واسعة، العيون كبيرة سوداء ومستديرة اليدان طويلتان، القدمان عريضتان، ومع ذلك فهم أقوام متعددة منهم:

1 ـ الزنوج السودانيون:

تقع بلادهم في أواسط إفريقيا، ومنهم قبائل عديدة أمثال: المندنج، والجلوف، والسونغاري، والحوسا، والكانمبو، والكانوري، والهمج، والشلوك، والنوبيون، وغيرهم.

فأمّة المندنج في مالي وغانا وغيرها، لا تزال القبائل فيها تعرف بأسمائها الطوطمية. أي بأسماء الحيوانات التي يعتقدون أنهم انحدروا منها. وهي: 1 ـ البامبا «التمساح»، 2 ـ مالي «فرس النهر»، 3 ـ ساما «الفيل»، 4 ـ سا «الأفعى».

وأما قبائل الولوف فبالرغم من أنهم أصبحوا مسلمين وتهذبوا بالإسلام إلا أن لدى بعضهم اعتقاداً بأنهم يعيشون بسلام إلى يوم الدينونة. ثم يعودون إلى الأرض ويتمتعون بالمسرات رقصاً وغناء إلى الأبد. ويعتقد آخرون بهجرة الأرواح التي تتجمع في الهلال للتوسل إلى أرواح الليل والهواء. ويعتقدون

بوجود إلٰهين رئيسيين هما: إلٰه العدل الذي يدافع عن المظلوم وينصر الضعيف. وإلٰه الثروة الذي يختص بالشؤون المالية. وهم يحترمون الأفاعي لاعتقادهم أنها تتنكر بمظاهر مختلفة، ويقدمون لها القرابين من الطيور والخرفان وغير ذلك..

وقبائل الفلوب Felupe التي تنتشر غربي إفريقيا هم من الزنوج الأصليين أصحاب الوثنية ليس لهم نظام سياسي ولا اجتماعي، ولا يزال معظمهم يعتقد بسيادة الأم وتعرف بها الأنساب، ولها نفوذ واسع في القبيلة. ومع دخول المبشرين من المسيحيين والمسلمين لإقناعهم بعبادة الله، فلم ينجحوا كثيراً، وما يزالون محافظين على أصولهم الوثنية. وعندهم طائفة من العرّافين والسحرة فإذا اتهموا رجلاً بسرقة أتوه بقضيب من الحديد يحمى إلى درجة الاحمرار وقربوه من لسانه فإذا احترق ثبتت خيانته، وهكذا. وهم يعتقدون بوجود شياطين كثيرة يخافونها ويحسبون حسابها وينسبون إليها كل الأمراض والمصائب التي تحل بهم. كما يعتقدون بوجود كائن عظيم هو عندهم إلٰه السماء والمطر والريح والعواصف.

وفي سيراليون توجد قبائل لا يعرفون الآلهة، وليس عندهم كهنة ولا أي نوع من أنواع العبادات ولكل قبيلة أو عائلة نصب «فيتش» خاص بها يعتقدون أن فيه القدرة على الخير والشر وتكثر هذه الأنصاب خارج القرى، وتكون منصوبة في أكواخ خاصة للعبادة، ويقدمون لها كل احترام، ويحملون إليها القرابين والأضاحي، وإذا أصابهم وباء أو حل بهم بلاء قدموا لهذا النصب الضحايا لتدفع عنهم هذا البلاء، وإذا أخفقت في دفعه عنهم وتقاعست عن نصرتهم تذهب هيبتها من نفوسهم فيطرحونها ويرذلونها..

وعند قبائل شاطىء الذهب نتعرف الإلٰه «تاندو» وهو أكبر الآلهة عند قبائل «الأشانتي» وهو المبغض، ويقدم له الذبائح من البشر سبعة رجال وسبع نساء معاً، وهو يناصر أتباعه ويطلعهم على مكامن أعدائهم ويحميهم منه. وقد يظهر هذا الإلٰه «البغض» بشكل غلام صغير يقف في طريق الأعداء ويعرض نفسه للأسر عنوة. فيأخذونه إلى بلادهم ليبعث إليها الأوبئة القاتلة كالطاعون أو

الجدري أو نحو ذلك.. وهم يخافون الأرواح الناقمة فيبذلون الأموال لاسترضائها، ويعتقدون أن كل حادث يسبب لهم الأذى مصدره الآلهة.

ويعتقدون بوجود إلٰهين كبيرين: أحدهما تعبده قبائل الشمال والثاني تعبده قبائل الجنوب. ويزعمون أن هذين الإلٰهين قد وكلا آلهة ثانوية أخرى لينوبوا عنهما في تدبير شؤون البشر في القرى.. وبعد أن دخل الأوروبيون إلى بلادهم اعتقدوا بإلٰه واحد كبير يسمونه «إلٰه السماء» وعدوه أعلى من جميع آلهتهم، وهو يترفع عن التدخل في شؤون البشر مباشرة. ويعتقدون أنه هو الذي أرسل إليهم وباء الجدري الذي حل بهم بعد دخول المستعمرين إلى بلادهم وأفنى العديد منهم. ويؤمنون بإلٰهين آخرين يتوسطان بين الآلهة الكبرى وآلهة القرى أحدهما أنثى وتبقى محتجبة بين نبات القطن، والثاني إلٰه سفاح يقيم على التلال أو في الغابات ذات التربة الحمراء وهو أكثر أذى من سائر الآلهة، فهو يفترس السياح المنفردين ويأكلهم، وإذا غضب هذا الإلٰه السفاح مرة فيندر أن يصفو مزاجه، وهم يعتقدون أن التراب الأحمر اكتسب لونه من الدماء التي سفكها هذا الإلٰه فيه، ولإرضائه يقدمون له القرابين والضحايا من أبناء البشر، وإذا وقع زلزال ضحّوا على أثره برجلين أو ثلاثة على اسمه لعله يشبع ويكف أذاه عنهم، فهم يزعمون أنه مرسل الزلزال.. وبالرغم من اعتناق بعض القبائل في شاطىء الذهب لدين الإسلام فهم لا يزالون يعتقدون بالوثنية فإذا وقعوا في أزمة أو حلت بهم نكبة يلجأون إلى العرّافين أو السحرة، بدلاً من اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى.. أما البقاع التي لم يدخلها الإسلام فيعدّ أهلها في أشد حالات الهمجية والوحشية والتخلف.

وعند قبيلة الباري يعتقد أهلها أنه لدى زعمائهم القدرة على إنزال المطر، فإذا لم يسقط المطر بادر زعيمهم واستسقى بقرابين من الماعز يقدمها للآلهة، وإذا لم تمطر ذبحوا لها ثوراً، واحتفلوا به احتفالاً راقصاً تُدَقّ فيه الطبول، ثم ينتظرون ثلاثة أسابيع، فإذا لم ينزل المطر قتلوا الأمير واقتسموا تركته. كما يعتقدون أن في زعمائهم القدرة على إمساك المطر بالصفير، وإيقاف العواصف والصواعق بمكنسة يكنسها بها، وإذا أخفق في ذلك قتلوه..

2 ـ قبائل البانتو Bantu:

ينتشرون على مساحاتٍ واسعةٍ في القسم الجنوبي من إفريقيا. ديانتهم أقرب ما تكون إلى الطوطمية، أو عبادة الأسلاف والأجداد. فهم في أوغندا مثلاً: لا يزالون على نظام البداوة يقسمون إلى قبائل وبطون، لكل منها طوطمها الخاص، ومن أنسابهم الطوطمية قبائل الفراش والتماسيح والأغنام وغيرها.

أما قبيلة «الواهوما» فمع أنها بدوية متنقلة إلا أن فيها بعض المظاهر التي تدل على مدنيتها وحضارتها القديمة، وتدل على أنهم قادمون من الحبشة، وهم يعتقدون أنه كان لهم كتابٌ مقدس، ساروا حسب تعليماته وعلى هداه، فأصبحوا في مقدمة الأمم إلا أنهم غفلوا عنه وأهملوه. فأكلته بقرة، ولا يزالون منذ ذلك الحين إذا ذبحوا بقرةً بحثوا في أحشائها عن ذلك الكتاب المقدس..

وقبائل «الواجرياما» المنتشرة في جنوب إفريقيا تعد من أحط شعوب البانتو حيث تظهر عندهم الطوطمية بشكلها الواضح، وهم يعتقدون بالسحر وليس لهم أنصاب ولا هياكل ولا كهّان، وتقوم ديانتهم على عبادة الأسلاف وغيرها من العبادات الأولية، ويعتقدون بأن للأرواح قدرة على عمل الخير والشر، وحتى يحافظوا على صداقتها ورضاها يكرمون أكبر الأقرباء سناً، وهم يسجدون لأرواح القبيلة كلها في احتفالاتٍ عمومية..

وتوجد قبائل «الزولو» إلى جانبهم في جنوب شرق إفريقيا، حيث يقضون معظم أوقاتهم يتحدثون عن مجدهم السالف، يذكرون أبطالهم القدماء ويتقلد الرجال الأشداء منهم الأسلحة مقلدين بذلك أبطالهم القدامى ولهم اهتمامٌ كبير في حفظ الأنساب ومعرفة الأصول، حيث يرجع كل منهم إلى رجلٍ حقيقي أو خرافي يعدّونه مؤسس القبيلة فيفتخرون به ويعتزون..

وقبائل «الهريرو» في جنوب غرب إفريقيا يدفنون أمواتهم من الأمراء باحتفالٍ شائق، بعد أن يكسروا الجثة بحجرٍ ويطووها من الرأس حتى الركبة، ثم تلف بجلد ثور كبير يذبح لهذه الغاية، ثم يدفنونها ووجهها نحو الشمال، تذكاراً للأرض التي جاءت منها، ثم يعلقون أسلحة الميت وثيابه بعمود أو

بغصن شجرة بحيث تظلل القبر، وإذا كان الميت امرأةً فقيرةً دفنوا معها أولادها الصغار ليخلصوهم من عذاب اليُتم ومرارة الحياة..

ومن قبائل البانتو كذلك قبائل «البوشمان والهوتنتوت» المنتشرة في إفريقيا الجنوبية. وهم أهل بداوةٍ وصيد يعيشون بلا روابط عصبية بين أفراد القبيلة أو الأمة، حتى أن الروابط العائلية تكاد تكون مفقودة عندهم خاصة «البوشمان» الذين لا توجد عندهم اعتقادات البتّة، وهم في أحط درجات المجتمعات حتى أنهم لا يعرفون حقيقة الموت، وهم قلما يميّزون الإنسان من الحيوان، ويعتقدون أن الجاموس يستطيع أن يرمي النبال كما يفعل الإنسان، وعندهم قصص وخرافات وحكايات غريبة وخاصة عن الحيوانات فهم يقلدون أصواتها ويتشبهون بها..

وكذلك قبائل «الفالبان Valpans» الموجودة جنوب روديسيا، تعدّ من أحط أنواع البشر أيضاً. ويسميهم جيرانهم «بالقوم الأردياء» كما يطلقون عليهم اسم البطون السنجابية بسبب اللون الذي تكتسبه أبدانهم بسبب زحفهم على الأربعة عند دخولهم إلى منازلهم تحت الأرض ولكن لونهم الأصلي هو الأسود القاتم، وهم أقزام كما هو الحال عند البغمة..

ويعدّهم أهل الزولو كلاباً أو عقباناً، فهم يأكلون اللحوم البشرية. حيث يسْطون على شيوخهم وضعفائهم فيأكلونهم كما تفعل بعض القبائل في الأمازون..

وهم يسكنون نقراً في الصخور أو كهوفاً في الجبال ولا يعرف لهم دين أو شبه دين حيث لم يتمكن أحد من مخالطتهم ودراسة أحوالهم وطبائعهم بشكل دقيق.. ويسود عندهم نظام حكم عائلي. ويسيطر فيهم الرجال الأقوياء البنية شأن الحيوانات الضارية في الغابات، ويطبق عندهم «قانون الغاب» على حقيقته..

الفصل الثالث

القبائل المغولية البدائية

تنتشر هذه الأقوام على مساحاتٍ واسعةٍ في شرق وجنوب شرق آسيا. موزّعة على بلاد التيبت وأواسط آسيا، ومنغوليا، ومنشوريا، وسيبيريا، وفي اليابان، وكوريا، وجزيرة فورموزة، والهند الصينية، وماليزيا، والفيلبين، وغيرها. ولهذه الشعوب صفات خاصة مشتركة ميزتهم من غيرهم من البشر. فهم من الجنس الأصفر ولسنا في معرض الخوض في صفاتهم، وإنما نقتصر حديثنا على معتقداتهم، ودياناتهم الخاصة، وأهم المجموعات المغولية هي:

أولاً ـ المغول التتر:

وهم من الأمم الواسعة الانتشار، سُمّوا بذلك نسبة إلى طائفة منهم تسمى «تاتا» وجمعها «تتر»، وهي طائفة مغولية صغيرة. لكنها صارت أمة مرهوبة الجانب على يد القائد «جنكيزخان» ومنهم المغول الأصليون الذين يقيمون في منغوليا وما حولها. ومن فروعهم: الكاموك في الغرب، والشراء في الشرق والبوريات حول بحيرة بايكال في سيبيريا. ومعظمهم من البوذيين في الظاهر، لكنهم من عبدة الطبيعة ومظاهرها، ويتم ذلك على أيدي كهانهم من الشامان. فهم الوسيلة بينهم وبين الأرواح التي يعتقدون بها، ومن الشعوب المغولية أيضاً: التنغوس، واليابان، والكوريون، والمنشو.

أما التنغوس Tungus فيقيمون على ضفاف نهر الآمور وشرقي سيبيريا، وهم يدينون بالبوذية والشامانية.. يصفهم «ركلوس» أحد الباحثين الاجتماعين بقوله: «إن التنغوسي نشيط مندفع يظل منبسط النفس في أي حال، يحترم نفسه والآخرين، حسن الآداب والأسلوب، لطيف بلا تذلل، وفيه أنفة وكبرياء، يكره الغش، لا فرق عنده بين العذاب والموت، وإجمالاً فإن مزاجه من أمزجة الأبطال العظام».

أما اليابانيون: فهم اليوم في طليعة الأمم المتطورة صناعياً، ومن الناحية الدينية هم أقل تديناً من أهل الصين، وأقل إيماناً بالغيبيات منهم.. ديانتهم الأصلية هي الشنتوية، وتعني «طريق الآلهة» وهي قديمة في اليابان، وقد انحدرت من عبادة الأسلاف، فهم يؤلهون الآباء ويبنون لهم الهياكل للعبادة، ويقدمون لهم الذبائح والقرابين، وكانوا يؤلهون أيضاً الحيوانات والنباتات والرياح، والأنهار والصخور، والأجرام السماوية. وبقوا على ذلك حتى عهدٍ قريب. وقد ألّه اليابانيون آباء الميكادو وشبهوه بالشمس، وبنوا له هيكلاً خاصاً وجعلوا أخته كاهنة له وأصبح بناء الهياكل للآباء سنّة عند اليابانيين منذ ذلك الحين. وتُعد عبادة الآباء من القواعد الأساسية في ديانة اليابانيين ولا يخلو بيت من بيوتهم من مذبح عليه تماثيل لبعض الأسلاف. تقدم لهم العبادة كما تقدم لبوذا نفسه..

وأما قبائل المنشو أو الطاهرين كما يسمونهم، فيرجع تاريخهم إلى القرن (12 م). وكانوا من القبائل الرحل، ويروي المؤرخون عنهم أنهم كانوا في غاية الهمجية والتخلف وكانوا يؤدون الجزية إلى الصين سهاماً حجرية أو غيرها من الأدوات الخشنة. وفي القرن العاشر الميلادي عرفوا باسم «كتيسان» حيث تحضروا وفتحوا مملكة بوهاي ودخلوا حدود الصين، وأنشأوا في شمالها دولة عرفت بالدولة الحديدية، وبعد قرنين من الزمن غزاها فاتح منشوي، وأسس دولة سماها بالدولة الذهبية، وهي دولة «كين» ومعناها الذهبي. ثم ظهر جنكيز خان وجاء ابنه قبلاي خان الذي اكتسح شمالي الصين وأخرج دولة «كين» منها، ثم عادت السيادة إليهم فيما بعد، واستمر المنشو يحكمون في الصين

حتى 1912 م وقد انتشرت عندهم عبادات من نوع خاص مثل الكونفوشية، والبوذية، وغيرهما. وسنأتي على ذكرها بالتفصيل. . .

أما الكوريون فقد قامت عندهم عدة عبادات كبرى كما في الصين، مثل عبادة الأسلاف والبوذية واللاوتسية والكونفوشوسية. لكن العبادة الأصلية القديمة فلا تزال شائعة ومؤثرة فيهم. . فهم يقدمون القرابين والذبائح لأرواح الغابات والجبال، ويعدّون هذه الأرواح أنها سبب كل بلاء وأنها سبب الموت عندهم. .

ثانياً ـ المغول في شمال شرق سيبيريا:

وهم من الشعوب البدائية المتخلفة، رغم أنهم ينتمون إلى بلاد السوفيات الموجدين في طليعة شعوب العالم صناعياً. وهم لا يزالون على فطرتهم التي فطرهم الله عليها، ومنهم: شعوب الشوكشي، وهم نوعان: فمنهم أصحاب الأسماك ويقيمون على سواحل البحر الشمالي. وأصحاب الرنّة وهم من القبائل المتنقلة حسب الفصول. . بالرغم من اعتناقهم النصرانية، إلا أنهم لا يزالون يقدّمون الحيوانات يضحونها عن أرواح الأنهار والجبال، وهم يؤمنون بالحياة الآخرة لمن يموتون في الحروب أو يقتلون غدراً ولذلك فهم يحتفلون قبل تنفيذ الإعدام بإقامة الولائم وشرب المسكرات ابتهاجاً بالموت المقبل وقد يكون الجلاد ابن المحكوم عليه أو أحد أقاربه. .

وشعوب «الكمشدال» لا يزالون يقدمون على عاداتهم الوثنية سراً وإن أصبحوا روسيين لغة وديناً. . وكثيراً ما يضحون الكلاب للأرواح لتسهل عليهم عملية الصيد الوفير.

وكذلك قبيلة «الجلياك» وهم من التنغوس يقيمون في بلاد الأمور ويعتقد أنهم من أحط شعوب سيبيريا السوفياتية عقلاً. ولذلك لم تدخل النصرانية إليهم رغم كل المحاولات، وهم شامانيون أو قدريون يؤمنون بالقدر. فإذا سقط أحدهم في النهر فلا ينقذه أحد لأن ذلك قدره. فأي قدر هذا؟ وهم لا يعاندون القضاء، ويعتقدون أن أرواحهم تنتقل بعد الموت إلى كلابهم، ومن أحبَّ كلباً

انتقلت روحه بعد موته إلى كلبه. ولذلك فهم يهتمون بتغذية كلابهم لأن فيها أرواح أهلهم وأصدقائهم وأحبائهم ويمكن أن يخرجوا الروح من الكلب بالصلاة على يد الشامان «الكاهن» ثم يذبحون الكلب على قبر سيده فالروح تتصرف عند ذلك تحت الأرض وتبقى حية كما كانت في الحياة الدنيا. وهم يعبدون الدب، فإذا اصطادوه في الشتاء احتفظوا به طويلاً حتى يسمن ويكبر. ثم يقطعونه ويأكلونه باحتفال شائق ومهيب.

ثالثاً ـ المغول الأتراك «الغربيون»:

وهم أحد فرعي طائفة المغول التتر، وقد كثر اختلاطهم بالشعوب القوقازية، ومن شعوبهم البدائية المتأخرة..

ففي سيبيريا يوجد «الياقوت» وهم نصارى اسماً، يقيمون على ضفاف نهر لينا، يتأثرون بالشامانية فهم يحترمون قوى الطبيعة ولا يعبدون إلٰهاً عظيماً، ولا يعرفون عن الله شيئاً. يعيشون في منطقة باردة حيث يعدو أبناؤهم على الجليد وهم عراة ودرجة الحرارة دون الصفر. وكل شيء متجمد وهم لا يبالون.

وقبائل «الكَرْج» توجد في جبال بامير وتيان شان، يسمون بالقوزاق أي الفرسان، وقد دخلوا الإسلام، ولكن تمسكهم بالإسلام ضعيف حيث تقتصر عبادتهم على بعض الصلوات والشعائر، يمازجها كثير من المعتقدات الشامانية، وهم يعتقدون أن لكلٍ منهم روحين، تهتمان بشؤونه، إحداهما: ملك على كتفه اليمنى، يوحي إليه الأفكار الصالحة وفعل الخير. والأخرى: شيطانٌ على كتفه اليسرى يُحْسِّنُ إليه السيئات وفعل الشر. فإذا أطاع الملاك نال ثواباً، وإن هو أطاع الشيطان نال عقاباً.

رابعاً ـ المغول في بلاد التيبت «الشرقيون»:

تعد بلاد التيبت مهد الإنسان المغولي. ويتميز سكانها بصفاتٍ عرقيةٍ مميزة، وهم يدينون بالبوذية، وهم بطبيعتهم بسطاء لا يميلون إلى التفاخر

بنسبهم أو بأصلهم. فهم يعتقدون أن جدهم «ملك القرود». وقد ورثوا عنه الذكاء والإخلاص والحنان.. وأن جدتهم «الغول» وقد ورثوا عنها القسوة والشهوة، وأكل اللحوم وحُب التجارة والجندية وخشونة العيش..

وتوجد عندهم طبقة من الكهنة يغلب فيهم الرياء والدهاء مع غطاءٍ من البوذية تحته خرافات الوثنية وشيءٌ من اللاّمية، وتشتهر عاصمتهم «لهاسا» ومعناها «أرض الإله» بأنها مركز ديانة أهل التيبت. ويحجون إليها لكثرة ما فيها من بيوت العبادة البوذية والأديرة، ويأتي إليها الحجّاج من أقصى البلاد ويلتمسون غفران خطاياهم من «بوذا الحي»، ويتوسلون إليه أن يعد لهم تقمصاً سعيداً ثم يعودون إلى بلادهم بالآثار المقدسة والتحف المباركة، ومما يخدعهم به الباعة بأنها من بقايا بوذا فهي من أظافره أو من عظامه، أو من عصاه، أو من بيته.. وغير ذلك من الأوهام.

خامساً ـ المغول في بلاد الهند الصينية:

ما يزالون يعتقدون بإله أعظم أو بشيطان أعظم يقدمون له الذبائح والقرابين وهم لا يتوقعون منه خيراً كثيراً، ولا يريدون منه إلا النجاة من الأوبئة والقحط، وهم يعبدون الأرواح ويسمونها «نات»، ومن هذه الأرواح ما هو خاص بالبيت أو بالعائلة أو بالقبيلة أو بالحقل أو بالهواء أو بالغابات أو التلال.. ولكل من هذه الأرواح مجال وجودها وعملها، وهي إجمالاً لا تصنع إلا الشر والأذى، أما إذا قدموا لها القرابين وأكرموها فإنها تكف عنهم الأذى وتدفع عنهم البلاء والوباء، وإذا جاءهم الشر أو أي مكروهٍ نسبوه إلى تلك الأرواح المخيفة.. وهم يعتقدون بالعين الشريرة، ويرون في بعضها سحراً حقيقياً يمكن أن يؤذي بـ جرد النظر إليه ويعتقدون أن من يموت حتف أنفه فهو سعيد في «بلاد الموتى» وأما من مات مقتولاً فهو شقي حتى ينتقم له ثم يسعد بعد ذلك، ومن قتل في طلب الثأر يصبح عبداً للقاتل بعد مماته.. ويعدّون أن عمل الخير أو العمل الصالح ليس مصدراً للسعادة، وأن الشر ليس مصدراً للشقاء، وإنما يكون الإنسان سعيداً بعدد الذين قتلهم في حياته، فيكثر خدمه وعبيده بعد مماته، ويعدّون الحياة

الأخرى مثل الحياة الدنيا. . . فيا ويلهم من عذاب يوم عظيم.

فأهالي بورما لا يزالون يحافظون على خرافاتهم القديمة مع أنهم يدينون بالبوذية، تقول إحدى الخرافات القديمة بأن الأرض امتلأت بوحوش غريبة الخلقة والشكل، كبيرة الحجم مخيفة، وهي لا تزال تسمى عندهم «الأعداء الخمسة». وهي نمر مفترس وخنزير بري كاسر وتنين طائر، وطائر يأكل البشر، ويقطينة هائلة تكاد تبتلع الأرض. . ولكن الناس نجوا من هذه الأخطار، وفازوا بالحياة. .

وفي بلاد سيام يعتنق أهلها البوذية أيضاً ولا تزال عبادة الأرواح والشياطين سائدة عندهم إلى جانب البوذية، وفي بعض المناطق لا يعرفون إلا عبادة الأرواح. فيبنون لها الهياكل اللائقة بها وفيها آلهة البر والبحر والجبل والأحراج والمنازل وغيرها. . وينسبون لهذه الأرواح كل شر ويعدّونها مصدر كل أذى يصيبهم. وحتى يمنعوا دخول الشر إلى جثث الموتى فهم لا يُخرجون الجثث من الباب أو من النافذة، وإنما من ثقب في الحائط ثم يسدونه بعد ذلك، ويقدمون القرابين بكثرة لهذه الأوراح حتى ترضى عنهم. كما أنهم يكثرون من بناء المعابد والهياكل البوذية لإرضائها واتقاء شرها. . .

وعند الأناميين: لا يزال العامة منهم مؤمنون بعبادة الأجداد وتقديس الأسلاف. ويعدّ الأب عندهم كاهن الأسرة وحاكمها المطلق. وهم متعلقون بشدّة بالأسلاف المتوارثة عن الأجداد. ويذعنون للعرّافين والسّحرة أو الشامان، ويقدمون القرابين لمعبودات الزراعة والمياه والسلم والحرب والمرض، وغير ذلك. وتسود عندهم بعض التعاليم الكونفوشية والبوذية المحلية. ومنهم من يجمع بين هذه الديانات الثلاث. . .

وفي «شبه جزيرة ملقا» والفيلبين وجزر المحيط الهندي، تنتشر شعوب أصلهم من الهنود البراهمة والبوذية، دخلوا في الإسلام أو النصرانية. ولا تزال البراهمية منتشرة عند بعض القبائل هناك، وكذلك الوثنية، وبالرغم من إسلامهم فهم يذبحون الجواميس قرب المساجد أو في بعض المناسبات الدينية أو عند الولادات أو عند الزواج أو الطهور أو حلق الرؤوس، وأشهر آثار الوثنية اعتقادهم

بخرافة الذئب أو خرافة النمر، حيث تكثر في «بورنيو» الأصنام التي تمثل النمور التي تستقر فيها الأرواح من قبيل الديانة الفتشية، وفي «ملقا» يعبدون النمر نفسه، ويعتقدون أن الإنسان يتقمّص فيه ليلاً وكذلك السحر والأرواح الشريرة. .

وفي جزيرة «جاوا» انتشر الإسلام، وهم يتفاخرون به، ويؤمون المساجد ويمارسون شعائر الإسلام إلا أن بعضاً منهم يترددون إلى المزارات الوثنية. يستخيرون الآلهة البراهمية. أو يستشيرون بعض الأشجار، وخاصة شجرة التين التي يجتمعون تحت ظلها لعبادة الأرض، كما يحترمون طير اليمام والقردة، ويقيمون لها التماثيل والأنصاب. . .

وفي «بورنيو» توجد قبائل الدياك وغيرهم، وهم لا يزالون في حالة الهمجية الأولى من صيد الحيوانات، وأكل لحوم البشر، والتضحية بالبشر بأسلوب وحشي، وغايتهم من ذلك توصيل الرسائل إلى أرواح موتاهم. فيأتون بالضحية «الإنسان» يشدّونه إلى جذع شجرة، وبعد الغناء والرقص يتقدمون نحوه واحداً واحداً. وفي يد كل منهم رمح يغرس سنانه في لحم الضحية. وهذا يعني إرسال الرسالة إلى موتاهم عن طريق طعنة بالرمح. . فكل طعنة برسالة. وهم يخافون كثيراً من الأرواح الشريرة التي يسمعون صراخها في الغابات أو الأودية. والتي يعتقدون أنها تستقر في كل شجرة، أو صخرة، أو بركة ماء. . ويعدّون صيد البشر أسمى ما يفخرون به. وهو مقياس الرجولة عندهم، ويعبّرون عنه بصيد الرؤوس. ومقدار ما يجمع من الجماجم البشرية. فالشاب عندهم لا يجرؤ على خطبة فتاة قبل أن يطرح عند قدميها جمجمة بشرية أو أكثر. وهم لا يبنون بيتاً إذا لم يقدّسوه أو يباركوه بصفّ من الجماجم البشريّة، ولا يتوقع أحدهم الخير إذا لم يضف إلى ذلك الصف من الجماجم واحدة أو أكثر. . .

وأما في «جزر سومطرة» فتصل الهمجية إلى أقصاها عند قبائل «البتار Battar» فهم وثنيون، يأكلون لحم البشر، ولهم تقاليد عجيبة غريبة. فإذا نشبت حرب بينهم وبين أعدائهم يدفنون غلاماً إلى عنقه تقدمة لإله الحرب عندهم،

ويطعمون هذا الغلام من المواد المعطّشة مثل الملح والفلفل والزنجبيل وغير ذلك، حتى يكاد يموت من العطش. ثم يحضرون له الماء ويضعونه أمامه دون أن يتمكن من الحصول عليه، حتى يقسم لهم بنصرة قبيلتهم في العالم الآخر. فإذا أقسم بذلك عدّوه وعداً منه، وصبّوا في حلقه رصاصاً ذائباً بدلاً من الماء، فيموت الغلام وهو على قَسَمِه وعلى وعْده.

وعند جيرانهم قبائل «النياس Nias» وهم من عبد الأنصاب والأرواح الشريرة. ولا صورة عندهم للروح المنفصلة عن الجسم، وهم ينصبون أنصاباً صغيرة حجرية أو خشبية تحميهم من الأمراض والمصائب ولديهم إله أعظم يسمى «لوبولاتجي» يقيم في الهواء، أو في شجرة باسقة تنثر في الفضاء ثماراً، إذا ظلت معلقة في الهواء صارت أرواحاً، وإذا سقطت على الأرض صارت بشراً، ويحسبون حساب الأرواح الشرّيرة التي تسبب لهم المصائب. وهم ينسبون الزلازل والمد والجزر والخسوف والكسوف وغير ذلك من حوادث الطبيعة إلى أعمال الشيطان، ويعدّون المذنّبات نجوماً لها أذناب يتعلق بها الشياطين يطوفون العالم ليرجموه بالمصائب والشرور والآلام..

وخلاصة القول: فإن هذه القبائل المغولية على كثرتها تعدّ من الشعوب المتخلفة حضارياً واجتماعياً وعقائدياً، وهي متشابهة في كثير من صفاتها، إلا أنه يبقى لكل منها عادات وتقاليد تميزها عن غيرها من القبائل، انفردت بها وعُرفت من خلال ممارستها.

الفصل الرابع

الهنود الحمر في أمريكا

تمهيد:

عندما وصل كولومبوس إلى العالم الجديد في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، وجد شعوباً وقبائل كثيرة في تلك البلاد المجهولة، فظن واهماً أنه وصل إلى هدفه المنشود، إلى بلاد الهند، بلاد التوابل والبهارات، فدعا تلك البلاد باسم «الهند» وأطلق على شعوبها اسم الهنود، وعندما ظهر خطأ كولومبوس سميت البلاد الجديدة باسم «أميركا» نسبة إلى المكتشف «امريكوفوسبوتشي». وسمّي سكانها باسم هنود أميركا أو الهنود الحمر، تمييزاً لهم عن الهنود الشرقيين في بلاد آسيا.. أما أصلهم فالأرجح أنهم نزحوا من نصف الكرة الشرقي منذ العصر الجليدي أو قبله، ويمكن إرجاع نسبهم إلى أصلين امتزجا فتولدِ منهما الجنس الهندي الأميركي المعروف، وذلك بسبب اختلافاتهم العرقية والجسدية.

فالأصل الأول: نزح من أوروبا، وهم أصحاب الرؤوس المستطيلة.

والأصل الثاني: نزح من مغول آسيا عبر مضيق بهرنغ، وهم أصحاب الرؤوس المستديرة.

وكذلك فهم يتمتعون بصفاتٍ عرقيةٍ مشتركة، فالرأس مختلف بين الاستدارة والطول، والفك غليظ بارز قليلاً، الوجنات بارزة أيضاً، الأنف كبير

أقنى، والعيون صغيرة مستديرة سوداء، القامة تتراوح بين 5 - 6 آقدام، اللون أحمر نحاسي يتراوح بين الأسمر القاتم والأصفر، الشعر طويل مسترسل، والوجوه بلا لحىً. .

أما صفاتهم النفسية: فتغلب عليهم الشراسة والسكوت والحذر مع الحيطة، والحزم وسرعة النفور من الغرباء، والسرور والبشاشة في مواطنهم، ولهم الصبر على احتمال الآلام الجسدية والمشقات.

أما صفاتهم الحضارية: فتتفاوت في درجاتها بين قبائل لا تزال في أقصىٰ الهمجية والتخلف أمثال قبائل «البوتوك والفويجيين»، وأمم أخرى ذات حضارة وتطور أمثال «الأزتيك والمايا والانكا وشعوب البيرو» وغيرهم. .

ويؤخذ على الهنود الحمر عموماً بأنهم وحوش كاسرة لا يوثق بهم، ولا يتورعون عن سفك الدماء وقتل البشر وأكل لحومهم، أما إذا عُوملوا بالحُسنى فهم أصدقاء طيبون. وبالرغم من تشابه العبادات عند هذه الأقوام البدائية فقد كان لكل قبيلةٍ منها تقاليدها وأساطيرها الدينية الخاصة بها، ولا يزال قسم كبير من هذه الشعوب يعدّ من أكلة لحوم البشر. فالرادع الديني أو الخلقي والاجتماعي ضعيف عندها بل يكاد يكون معدوماً. .

ولنستعرض في حديثنا بعض هذه القبائل التي سكنت القارة الأميركية الشمالية والجنوبية ولنتعرف بعض عاداتها وطقوسها الدينية، وإن كانت متشابهة في فطرتها وبدائيتها. . .

أولاً ـ الديانة عند الأسكيمو:

الأسكيمو طائفة من هنود أميركا الشمالية، يقيمون في منطقة ألاسكا المتجمدة. فهم يعيشون في دائرة القطب الشمالي منذ أكثر من ألفي عام. . وأصل تسميتهم «أنويت» ومعناها «ناس». أما لفظة الأسكيمو، فهي كلمة هندية أطلقها عليهم الأوروبيون وتعني كلمة «أكلة اللحوم النيئة». ولهم صفات مشتركة فهم متشابهون بأخلاقهم وأطوارهم وعاداتهم وتقاليدهم، ولغاتهم بالرغم

من اتساع مساحة الأرض التي يعيشون عليها. . وهم يعبدون الأرواح ويعتقدون بوجودها في الأحياء وفي الجماد، ويؤمنون بأن لكل إنسان روحين وحينما يموت إنسان ما تذهبْ إحدى روحيه إلىٰ العالم الآخر إما بائسة أو سعيدة حسب الظروف التي مات بها صاحبها، وتبقى الروح الأخرى إلى جانب الجثة، فإذا خالف أهل الميت وذووه القواعد والمحرمات ولم يتّبعوها فإن سحابة سوداء تحيط بالروح التي تهيم في كل مكان من البيت محدثة الذعر والأذى حتى تزاح عنها تلك السحابة السوداء فيزول الغم والأذى. . ويختلف الدين عندهم حسب المواسم، فهناك ديانة الشتاء وديانة الصيف، ويمكن القول إنه في الشتاء تحتدم عاطفتهم الدينية ويستمر ذلك طيلة فصل الشتاء البارد الذي يعد عندهم عيداً كله يحكون فيه القصص والأساطير.

أما في الصيف فلا توجد لهم ديانة خاصة إلا ما كان من عبادة خاصة في الأسر من حفلات الولادة أو المآتم، أو تجنب بعض النواحي والمحذورات، وفي الآداب العامة قلما تكون بينهم روابط عائلية سامية. . . فمن أساطيرهم الدينية: أن معبودهم الأعظم عجوز تقيم في البحر، تأمر الرياح فتتولد الأعاصير انتقاماً ممّن لا يراعون حرمتها أو يؤذون من هم تحت رعايتها. ولها سلطة على الأسماك في البحار، وهم يعدّون أن هذه الحيوانات البحرية أجزاء من أصابعها التي قطعها أبوها عند نزولها البحر لأول مرة. . .

ومن القبائل الهندية الأخرى في أميركا الشمالية «الأتاباسكان» الذين يعيشون في أرض كندا وحول الجبال الصخرية، وهم من أكلة لحوم البشر مع أنهم يعملون بالتجارة والصيد والسياحة في السفن، ومنهم من يقوم بقطع الطرق واللصوصية وأعمال الإرهاب. .

وكذلك قبائل «المسخوجان» الذين يعيشون قرب خليج المكسيك وشرق المسيسبي.

وقبائل «السيوان والداكوتا» الذين يعيشون غرب المسيسبي حول خليج المكسيك وحتى الأطلسي شرقاً.

وقبائل «الرؤوس المسطحة» التي تنتشر بين الجبال الصخرية والمحيط الهادي غرباً، وهم يسطحون رؤوس أطفالهم صغاراً عنوة.

وقبائل «الشوشـون» أو الأفاعي، وينتشـرون في سهـول كـاليفـورنيـا وتكساس. .

وقبائل أخرى متعددة تنتشر في أميركا الشمالية منها قبائل «الألغونكو، والتـاراهومـار، والأيروكيـو، والجنكديـان، والساليش، والبـوني، والبوبلو، وغيرها». وتنتشر هذه القبائل التي تعيش أدنى درجات الحضارة والحياة إلى جانب الشعوب الأميركية التي تمثل طليعة شعوب العالم حضارة وحياة، فيا للغرابة والعجب!!.

وقبائل «البوبلو» تعدّ أرقى هنود الشمال، وهم ينتشرون في أريزونـا والمكسيك وتشكل هذه القبائل شعوباً مختلفة شكلاً ولغةً ولكنهم متحدون في عاداتهم وتقاليدهم وطقوسهم، ويشكلون الحلقة الواصلة بين هنود الشمال البدائيين وهنود الجنوب الأكثر حضارة وتطوراً.

وتمتاز مجموعة البوبلو بتعاليم رمزية تظهر في احتفالاتهم السنوية كرقص الثعابين وغيرها، وتنتشر عبادة الأفاعي في سهول المسيسبي وفي المكسيك والبيرو، كما أنهم يعبدون آلهة متعـددة تنسب إليها أعمـال مختلفة، وهم يحترمون هذه الآلهة الحيوانية بطقوس راقية يمثلونها بحيوانات حيّة، وأهم معبوداتهم هذه: الثعابين والأفاعي السامة وبخاصة ذات الأجراس التي لها دور كبير في احتفالاتهم كـالاستسقاء وغيـر ذلك، لأن بـلادهم كثيرة الجـدب والجفاف. .

ثانياً ـ قبائل أميركا الوسطى:

وهي قبائل قديمة تميزت على غيرها بقيام حضارات متقدمة لمجموعتين من الأمم؛ تعرف الأولى باسم الأزتيك وتوجد في سهول المكسيك، وهم يعتقدون أنهم جاؤوا من الكهوف السبعة في أقصى الشمال ولما وصلوا مقرهم

الحالي بنوا مدينة مكسيكو قبل مجيء الأسبان إليها بمئتي عام. وتعرف الثانية باسم المايا وتوجد في غواتيمالا ويوكاتان. وكانت أمة «التولتوك» قد سبقتهم في هذه البلاد وهي على جانب كبير من الحضارة والرقي، فقد بنوا الأهرامات وخلفوا الآثار الفنية العجيبة وهم أول من أسس مملكة متمدنة في تلك المناطق، في القرن السادس أو السابع الميلادي.

وقد تميزت هذه الأمة بصفات خاصة، وبآثار ضخمة دلت عليها، تلك الآثار التي تشبه ما خلّفه الفراعنة في مصر من جمال البناء وفخامة العمران التي تنم عن عبقرية بشرية فذّة، وبخاصة تلك الآثار في مدينة متلا Mitla عاصمة الزابوتك..

أما آلهتهم فقد تميزت بكثرة عددها، وعدم وجود زعيم ديني لها، حيث كان عند «المايا» خمسة عشر إلهاً على شكل البشر، ونحو نصفهم بأشكال حيوانية، وفي جملتها هي آلهة الموت والليل والشمس والقمر، والحرب والأفعى والماء والعواصف وغيرها.

أما «الأزتيك» فلا يختلفون عن المايا في هذه الناحية إلا أنهم كانوا يعتقدون بما يشبه «ملك الملوك» أو إله الآلهة. ويعدّونه الإله الأعظم، وهم لا يقدمون له القرابين لأنه باعتبارهم في غِنى عنها، وهو أسمى وأرفع من ذلك...

ثالثاً ـ قبائل أميركا الجنوبية:

يوجد العديد من القبائل البدائية الهمجية، ولا يستثنى منهم إلا شعوب البيرو، الذين أسسوا حضارة الأنكا. تلك الحضارة التاريخية المشهودة.. أما تلك القبائل فلديهم معبود أول هو الشمس، وهو رئيس كل معبوداتهم، ولديهم إله سرّي يسمونه «الإله المجهول» وهو غير مرئي..

من هذه القبائل «الموسكا» الذين يعيشون قرب بنما وفي كولومبيا. ولهم تقاليد تدل على أنهم مدينون بارتقائهم الاجتماعي والسياسي إلى كائن خرافي يسمى «بوتشيكا» وهو وسط بين الآلهة والبشر. جاء قديماً من الشرق فعلّمهم كل

شيء، ثم صار كبير الآلهة عندهم فعبدوه باحترام وقدسية وقدموا له الضحايا والقرابين وقد علمهم صناعة المعادن الثمينة حتى فاقوا بها سائر قبائل الهنود. وعدد الآلهة عندهم كثير. وكلها تمثل قوى الطبيعة. وهم يؤلهون كل شيء لأقل الأسباب. فإذا سمع أحدهم صوتاً خارجاً من غابةٍ أو من جبلٍ اعتقدوا بوجود الأرواح فيها، فيقيمون مزاراً على اسمه، ولذلك تكثر المعبودات عندهم.

ومن خرافاتهم: أن العالم قائمٌ على كتفي رجلٍ عظيم اسمه «شبشيكوم». إذا تعب من حمله نقله من كتف إلى آخر، فتحدث بذلك الزلازل والهزات الأرضية..

وفي شرق البرازيل توجد قبائل «البوتوك» وهي من أشد أبناء البشر تخلفاً وهمجية، حتى أنه يمكن القول أنهم لم يدركوا العصر الحجري حتى الآن، فهم يطوفون عُراة في الأحراج ويقيمون في أكواخ بدائية، ويقتاتون من الجذور والعسل والضفادع والأفاعي، ومما يصطادون من حيوان أو إنسان... ويعدّون لحم الإنسان أطيب المأكولات عندهم، وأكثر من ذلك فهم يتباهون ويتفاخرون بعدد الرؤوس البشرية المنغرسة على الأعمدة أمام أكواخهم علامة للظفر والانتصار. ويمكن أن يصنعوا من أسنان الضحايا البشرية، أو من أصابعهم عقوداً يعلقونها في أعناقهم للزينة والمفاخرة. ولا يقتصر ذلك على الأعداء من البشر، بل فقد يأكلون رفاقهم من القبيلة ذاتها، وهم لا يعرفون إلٰهاً خالقاً، وإنما الإلٰه عندهم روحٌ أو شيطان ليس أكثر، وهم ينسبون أعمال الخير إلى الشمس أو النهار، وأعمال الشر إلى القمر أو الليل، ويخافون من الصواعق كثيراً (شكل 17 مكرر) وعندما تحصل الاضطرابات الجوية، يطلقون الأسهم في الجو ليطردوا بها الأبالسة والتنانين. وقد عمل الاستعمار الأوروبي على إفنائهم، ولم يبقَ منهم إلا بعض القطع الأثرية في متحف التاريخ، فهم يخافون ذلك الإنسان «المتحضر» الذي يبغي لهم القتل والفناء ليحل محلهم ويستوطن أرضهم. وقد اعتنق قسم منهم النصرانية على يد المبشرين الأوروبيين، ولكنهم ما يزالون متمسكين بخرافاتهم الدينية المتوارثة وأساطيرهم القديمة..

أما قبائل «باتاغونيا» التي تعيش في الأرجنتين فهي كذلك من الهنود

الحمر، الذين لا يزالون على عاداتهم وعباداتهم متمسكين بخرافاتهم وتقاليدهم المتوارثة، فهم يتقلدون التعاويذ للأرواح الشريرة، ولديهم ضروب من السحر غريبة، ولديهم اعتقاد قديم بأن الأرواح الشريرة بأجسام عجائز من النساء، لذلك يجوز لأي منهم أن يقتل أي عجوز تقف في طريقه.. والأغرب من ذلك أنه لا يجوز أن يلتقي الصهر بحماته، ويتجنب كل منهما أن يرى الآخر. ومن غرائبهم: إذا تزوج رجلٌ ولم يرزق أولاداً تبنّى كلباً، واختصه بعدد من الأفراس وكأنه ابن له.. وهم يذبحون الأفراس ويشربون من دمها فور خروجه من الجرح وقت الذبح، وإذا ماتت امرأة أحدهم أحرق كل ماله حداداً عليها.. وهم يدفنون موتاهم في الكهوف أو تحت رجم من الحجارة، ومن العادات المألوفة لديهم: أنهم يلبسون نطاقاً يعلقون فيه أجراساً. ويلونون جلودهم بالحمرة أو الزرقة للزينة والابتهاج..

وفي جنوب أميركا الجنوبية توجد قبائل «الفويجيين» الذين لا يقلون بدائية وسذاجة عن غيرهم فهم لا يعرفون إلهاً خالقاً كبيراً، ولا آلهة صغيرةً، حتى ولا يعرفون الشياطين لكنهم يعتقدون بالأرواح ويعدّونها سبباً لكل بلاء..

وفي التشيلي توجد قبائل «الأروكان» الذين ينكرون سلطة ما فوق الطبيعة، وعندهم إله الخير والشر. وهما اللذان يدبران شؤون العالم، ويدبران الكون وهم يعتقدون بالأسلاف ويؤمنون بهم. لذلك كانوا يعتقدون أن آباءهم ينقلون بعد الموت إلى المجرّة. ومنها يشرفون على أحوال أبنائهم، وعلى أعمالهم. ولهذا فهم يتجنبون كل رذيلة، احتراماً لآبائهم وأجدادهم الذين يراقبونهم من فوق..

رابعاً ـ حديث عن «أكلة لحوم البشر»:

بشر يأكل البشر. تماماً كالحيوانات في الغابة، القوي منها يأكل الضعيف، وهي عادة قديمة ومألوفة عند كثير من القبائل البدائية الهمجية، كالتي توجد في القارة الأميركية أو الإفريقية أو الاسترالية.. ففي المكسيك تمارس عملية أكل اللحوم البشرية وقت الاحتفالات الدينية والمناسبات وفي

الجنوب الأميركي وجزر الهند الغربية عادة شائعة عندهم تمارس بلا وازع ديني ولا رادع أخلاقي. ومما يروى عن هذه القبائل قصص كثيرة تقشعر لها الأبدان.

فقبائل «الكاتيو» في كولومبيا يسمّنون أسراهم للاتجار بهم، وبيعهم كالمواشي.

وقبائل «الداديون» بجوارهم يسرقون نساء أعدائهم، ويستولدونهنّ ويربّون أولادهن حتى الرابعة عشرة، ثم يأكلونها بلذّة وشهية ثم يأكلون النساء بعد ذلك..

وقبائل «الكولوما» من سكان الأمازون الأعلى يأكلون موتاهم ويطحنون عظامهم، ويتناولونها مع أشربتهم المختمرة، وحجتهم في ذلك أن من الأفضل لتلك البقايا من الجثث أن تحفظ في أحشاء الأصدقاء من أن تبتلعها الأرض.

وأما عند قبائل «الكريب» فأحشاء الأحياء هي مقابر للموتى في أميركا الوسطى وخاصة في غريننداد فقد شوهد الرجل يأكل جثة امرأته، والأخ يأكل لحم أخيه فعلاً، وابن يتلذذ بوجبة شهية من لحم أبيه الميت. أما الأسرى عندهم فكانوا يأكلونهم بشراهة ومنهم بعد أن يشووهم على النار الهادئة.

وقبائل «البوتوك» التي مرّ ذكرها معنا في شرق البرازيل، فهم يعدّون لحم الإنسان ألذّ المأكولات وأطيبها حيث يطبخونه في حلل ضخمة ويلتهمون كل أعضاء الضحية البشرية إلا الرؤوس التي كانوا يحتفظون بها للزهو والمفاخرة وللزينة كذلك، كما يصنعون من الأسنان والأصابع العقود يعلقونها في أعناقهم وعلى صدورهم.

وهذا غيض من فيض أمثال القبائل الهمجية التي تتعايش إلى جانب الشعوب المتحضرة التي تعمل على قهرها وإفنائها. وهنا لا بد من التساؤل: هل يمكن أن نعدّ هذه الأقوام المتوحشة ذات الطبيعة الهمجية لها صفات الإنسانية؟ وهل مثل هذه الأقوام تلتزم بعبادة إله أو باحترامه على الأقل. إن مثل هذه الشعوب البدائية الفطرية لا تخرج عن كونها مجتمعاً بهيمياً غير منظم تسيطر فيه القوة والغريزة ولا تؤمن بنظام ولا بإله ولا بدين. ولا يعرفون من الحياة الدنيا إلا مفاسدها وإن ظهر عند قلة منهم بعض الطفرات الحضارية الفجّة...

الباب السادس

الديانات في بلاد الهند

الفصل الأول

الدِّيَانة الهِنْدِيَّة القَدِيمَة

1 ـ تمهيد:

الهند بلاد الأساطير والعجائب، وعلى أرضها تتنوع الألوان البشرية، وتتعدد اللغات وفيها تكثر المِلَل والنِّحَل، وتختلف الأديان وتتنوع، وهي تحتوي على المتناقضات في كل شيء وتعدّ بلاد الهند من الأمم العريقة تاريخياً وحضارياً، فلها تاريخ مجيد وحضارة قديمة زاهرة، استمرت بشكل متواصل قرابة خمسة وأربعين قرناً من الزمن، هذا ما دلّت عليه الآثار والحفريات في حوض السند، هذه البقعة من العالم التي شهدت ولادة حضارة رائعة منذ القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد، على يد سكان البلاد الأصليين وهم «الدرافيديون».

ومنذ حوالي عام (1600 ق. م) تعرضت الهند لغزوات خارجية هي الأولى من نوعها، قامت بها عناصر آرية، جاءت عبر ممرات طبيعية أمثال: ممر خيبر، وممر بولان في شمال غرب البلاد، كان الآريون يعملون في الزراعة والرعي في بلادهم، فأدخلوا إلى الهند نظاماً اجتماعياً طبقياً متميزاً، وبقيت الهند مقسّمة في أيامهم إلى ممالك وإمارات تتصارع فيما بينها، الأمر الذي أدى إلى قيام إصلاحات دينية اجتماعية داخل البلاد على يد البوذية والجينية وغيرها، كما أدخل الآريون معهم موجودات بلادهم كالحصان والعربة ذات العجلات والسفن الشراعية وفن تصنيع الحديد وغير ذلك. . .

سمّيت فترة وجود الآريين في الهند (عصر الڤيدا). وفيه تكونت الحضارة المتقدمة، ودخلت إلى الهند ديانة جديدة، فرضتها القبائل الآرية الغازية، على الأمم السالفة والشعوب الأصيلة، فطمسوا معالم حضارتهم، وقوّضوا دعائمها، ولم يتركوهم أحراراً في ممارسة ديانتهم القديمة، بل نسخوا كل آلهتهم الكثيرة، واستبدلوا بها آلهة آرية جديدة، كانوا يعبدونها في بلادهم.

فما هي الديانة الهندية القديمة قبل الغزو الآري؟

2 ـ الديانة القديمة:

إن أقدم ديانات الهند كانت طوطمية لأرواح كثيرة كانت تسكن الصخور والجبال ومجاري الماء والنجوم والأشجار والحيوانات، وغير ذلك..

لقد عبد الهنود أقوى الآلهة وأشدها بأساً، المتمثلة في قوى الطبيعة وعناصرها كالسماء والأرض والشمس والنار، والرياح والماء والجنس، وقد شخّصوا هذه العناصر، فجعلوا السماء أباً، والأرض أماً، وبقيت النار فترة طويلة أهم الآلهة الهندية القديمة، فهي المعبود المقدس الذي تُقَدَّم إليه القرابين من خبز وخمر وأعشاب.. ويتولىٰ الكهنة وهم سدنة معابد النيران القيام بما يقتضيه التقديم من طقوس ورسوم في تلك الديانة. وكانت الشمس الإِله الآخر الذي يشارك إِله النار في التقديس والألوهية، لِمَا تفيضُ به على الكون من أشعة مضيئة وحرارة تنعش الأجسام.

وكان إله المطر، وإله الريح، وإله العاصفة إضافة إلى آلهة أخرى حيوانية مثل تنّين مفزع، أو وحشٍ هائل.. من آلهة قدماء الهنود. وتعددت الطوائف، فبعد أن كان الهنود يؤمنون بأن عدد الطوائف أربع فقط، أصبح عددها تسعة عشر ألف طائفة أو يزيد. وزاد كذلك عدد الآلهة فبعد أن كان الهنود يعبدون ثلاثة وثلاثين إلهاً، في كل الهند في فترة عصر الڤيدا هي آلهة طبيعية، أصبح لديهم عدة مئات من الآلهة المتنوعة حتى أن بعضهم لا يزال يؤمن إلىٰ يومنا هذا بعبادة الثعابين وبعضهم يؤمن بآلهة وأصنام متعددة الرؤوس والأقدام والأيدي،

ومعبودات أخرى لها رأس الفيل أو رأس البشر، وكثير منهم يعبدون الأبقار والثيران والقردة وغير ذلك. .

وقد آمن الهنود القدماء بالعالم الآخر أي عالم الأموات، فإذا مات الأخيار منهم ورضيت عنهم الآلهة تُمْنَح أرواحهم معرفة الغيب، والقُدرة على التأثير في الكون والمشاركة في تصريفه وتدبير أمره بمجرد مغادرتها الأجسام. . وقد استمرت هذه الديانة القديمة سائدة في بلاد الهند حتى جاءت الديانة الجديدة مع الغزو الآري لبلادهم. . وقد تنوعت الآلهة الهندية القديمة بتنوع مظاهر الطبيعة وقواها المعبودة، منها: «فارونا» إله السماء. . «برينيفي» إله الأرض. . «آجني» إله النار. . «بارجانيا» إله المطر. . «فايو» إله الريح. . «آندرا» إله العاصفة. . «أوشاس» إله الفجر. . وأمَّا إله الشمس هو «سوريا» أو «مترا» أو «فشنوا». . «سوما» إله النبات المقدس الذي يسكر عصيره كل الناس والآلهة. . «فيفاسغات» إله ضوء الشمس. . «براجاباتي» إله جميع الأحياء. . أمَّا «براهما» فهو خالق كل شيء، وهو الذي ابتلع براجاباتي داخل جوفه الكبير. . .

الفصل الثاني

1 ـ الديانة الهندوسية:

وهي الديانة السائدة في بلاد الهند، وتختلف عن الأديان المعروفة اختلافاً كبيراً، فهي أسلوب حياتي، وسلوك دنيوي. وليست ديناً سماوياً، وهي لا تنتسب إلى نبي أو رسول، وليس لها كتاب منزل، بل هي دين متطور يحتوي مجموعة من الأفكار والتقاليد والشعائر نمت على مَرِّ السنين والأجيال، تقوم على فكرة خلود الروح، وعلى حرية الفرد في اختيار سبيله في الحياة، وطريقته في العبادة، وهي تجمع بين الوثنية الساذجة والآراء الفلسفية السامية والزهد الصادق.

وترجع في نشأتها إلىٰ الغزو الآري للهند حوالي (1500 ق. م) حيث جاءت معهم، وأقدم كتاب يمثل أفكار الآريين وعقائدهم هو كتاب «الڤيدا» وتعني المعرفة، أي المعرفة التي توصل المخلوق لكسب رضا الخالق وهي مجموعة أغاني دينية، تُنْشَد أمام الآلهة الآرية، عند تقديم الأضاحي لها والتقرب منها، وتشتمل الڤيدا على أساطير وقصص قديمة وعلى توسلات ومدائح موجهة إلىٰ الآلهة، وأقدم الآلهة التي ذكرتها أسفار «الڤيدا» هي قوىٰ الطبيعة وعناصرها، وكان أهمها آلهة النار، فالشعلة المقدسة التي ترفع القربان إلىٰ السماء العليا، ويظهر التوحيد في بعض أناشيدهم الدينية، فقد ورد في كتاب «الڤيدا» ما يلي:

«إنني أنَا الله، نورُ الشمسِ، وضَوءُ القمر، وبريق اللهب، ووميض البرق، وصوت الرياح، أنا الرائحة الطيبة التي تنبعث في أنحاء الكون، والأصل الأزلي لجميع الكائنات. . أنا حياة كل موجود، وصلاح الصالح. . أنا الأول والأخير، والحياة والموت لكل كائن. . .».

وهذا هو «براهما» يقول بصوت هادر متكبر، ولكن الله أكبر منه. . وأعظم من في الوجود. . يقول الإله براهما: «أنَا أقوى من السماء، وأعظم من الأرض، وأرفع من كل هذه الأجرام والكواكب حولي، أنا أعلىٰ من جميع هذه الأشياء. . أنا الكُلُّ في الكُلِّ. . أفعلُ ما أُريد. . وأخلق كل ما يخطر لي. . أنا جوهر العالم الواحد الشامل. . لست بالذكر ولا بالأنثى. . إنما أنا روح غير مشخص في صفاته. . أحتوي كل شيء. . وأكمن في كل شيء لا تدركني الحواس، لأنني أنا حقيقة الحقيقة. . أنا. . براهما».

لقد كانت آلهتهم على شكل البشر في صورة الجسم وفي دوافع العمل أيضاً، ولم يكن للديانة الفيدية في بدايتها معابد ولا أصنام، بل كانت مذابح القرابين تنصب عند تقديم كل قربان. وقلّما نجد هندوسياً لا يعبد عدداً من الآلهة، فالعالم عندهم زاخر بالآلهة، حتى أنه يكاد يتوجّه بصلاته إلى كل شيء، فكل شيء بنظرهم إله معبود. . وهم يتفاءلون بالكوكب (زحل)، ويعدّونه رمزاً للطالع الحسن، كما اعتقدوا بالكواكب السبعة[1]. (الشكل رقم 18).

وعندما جاء الآريّون الزراعيون إلى الهند، كانوا يستخدمون البقرة دون أن يقدّسوها، وكانوا يأكلون من لحومها قدر ما يستطيعون، ويهبون جزءاً منها للكهنة أو للآلهة ولكنهم حرّموا ذلك فيما بعد لتأثرهم بالبوذية. . فالهندوسية هي التي شرّعت أساليب الحياة الهندية ووضعت تقاليدها ونظامها الاجتماعي والاقتصادي، ونظام تعدد الطبقات، وفصل بعضها عن بعض. .

---

(1) الكواكب السبعة: رافي (الشمس). شاندرا (القمر). مانجالا (المريخ). بودا (عطارد). براهسباتي (جوبيتير ـ المشتري). سوكرا (الزهرة). ساني (زحل).

وهي التي تقرر مركز الإنسان الاجتماعي من المهد إلى اللحد، حيث لا يستطيع الهندوسي أن يخرج عن حدود طبقته، مهما بذل من جهود.. أو أن يحطّم الجدران التي تفصل بين الطبقات الاجتماعية الموضوعة.. ويقوم مبدأ الفصل الطبقي على نظام يسمى «فارنا»، ومعناه اللون أي أنه يقوم على أساس الاختلاف في اللون وهو تمييز عنصري بغيض تمقته الأديان والشرائع..

ويشكل البراهمة (وهم رجال الدين) الطبقة الممتازة في المجتمع الهندوسي، ولهم وحدهم حق إقامة الشعائر الهندوسية، وهي شعائر معقدة لا يحفظها غيرهم، ولا يحق لغيرهم تعليمها.. وتطلق كلمة البراهمي على كل من ينتسب إليها.. ومن يدخل في طبقة الكهنة أو البراهمة عليه أن يجتاز أربع مراحل تعليمية:

1 ـ مرحلة التلمذة: ويتعلم فيها الطالب أسفار الفيدا وشروحها.

2 ـ المرحلة التي يصبح فيها الطالب رب عائلة، وتبتدىء من السن الخامسة والعشرين..

3 ـ مرحلة النّسك والعبادة: حيث يهيم المتعلم في الغابات بحثاً عن الحقيقة ويقتات مما يجود عليه الناس..

4 ـ المرحلة التي يصبح فيها المتعلم فقيراً، زاهداً، متجولاً، وهي أسمى الدّرجات عندما يخرج من حكم الجسد. وتتحكم فيه الروح فقط، ويتقرب إلى الآلهة..

وكان التعليم ينقل شفهياً، حتى لا تصل المعرفة المكتوبة إلى الطبقات الدنيا.. وهذا يعني أن البراهمة لا يؤمنون بالتوحيد المطلق.. وهم في ذلك شأن العرب في الجاهلية.. وينتسب البراهمة إلى رجل منهم يقال له (براهم). وقد أنكر النبوّات ونفى وجودها أصلاً، وهو يقول: «إن أكبر الكبائر في الرسالة اتباع رجل، هو مثلك في الصورة والنفس والعقل، يأكل مما تأكل، ويشرب مما تشرب، حتى تكون بالنسبة إليه كجماد يتصرف فيك رَفْعاً ووضْعاً، أو كحيوان

يصرفك أماماً وخلْفاً.. أو كعبد يتقدم إليك أمراً ونهياً.. فأي تمييز عليك؟ وما دليله على صدق دعواه؟.

هذا ما قاله المشركون بحق الرسول الكريم محمد ﷺ، عندما لم يجدوا فيه علة أو عيباً يعيبونه به: **﴿وقالوا مالِ هذا الرسول يأكل الطعامَ، ويمشي في الأسواق، لولا أُنزلَ إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾**[1] ويعتقد الهنود أن بعض آلهتهم حلّت في إنسان اسمه (كريشنه) الذي ولد حوالي (4800 ق. م). والتقى فيه الإله بالإنسان، (كما يعبر المسيحيون عن السيد المسيح حيث يقولون إن الإله يتجسد في عيسى المسيح). ويصفون كريشنه بأنه البطل الوديع المليء ألوهية لإنه قَدَّم شخصه فداء للخليقة عن ذنبها الأول.. ويقولون إن عمله هذا لا يقدر على فعلته أحدٌ سواه، ويذكرون عنه من الأساطير والخرافات ما يشبه ما جاء عن المسيح في الأناجيل.. فقد عمل على تهذيب أبناء جلدته، وحضّهم على التمسك بالأخلاق الفاضلة والابتعاد عن الشر.. من أقوال كريشنه: «إنّ الجسد الذي تهبط إليه النفس شيء زائل، أما النفس التي لا تدركها العين فهي أبدية». ويقول أيضاً: «إذا انحلّ الجسدُ بالموت، طارت النفس التي تتغلب عليها الحكمة إلى الطبقات العليا، التي يرى فيها الأتقياء الله، ويدركون كماله، وإذا كانت الشهوات متغلبة على النفس فإنها ترد ثانية إلى الأرض».

يقولون عن كريشنه: إنه ولد من عذراء مخطوبة اسمها «ديفالي». ويصفونه بأنه الإله وأن ولادته أحيطت بالعجائب، فالأرض سبّحت، وظهر نجمه في السماء، وترنحت الأرواح طرباً وفرحاً، ورتل السحاب بأنغام مطرية، وقد ولدته أمه في غار فأضاء عند ولادته نور عظيم، وصار وجه أمه يرسل أشعة مجد ونور، وهو يشبه بقصته هذه قصة السيد المسيح عيسى ابن مريم..

2 ـ الحيوانات المقدسة في الهند:

إلى جانب الآلهة المعروفة عند الهنود، توجد القردة والأفاعي، فهي

(1) سورة الفرقان، آية: 7.

مصادر الرعب التي ترمز لطبيعة الآلهة ولعل أخطر هذه الأفاعي المقدسة، أفعى تسمى «ناجا». ولها عند الهندوس منزلة خاصة فعضّة واحدة منها تؤدي إلىٰ موت سريع. لهذا فهم يقيمون احتفالاً دينياً كل عام، تقدم لها منه ولكل الأفاعي من نوعها قرابين من اللبن واللوز، وتوضع عند مداخل جحورها اتقاءً لشرها. وأكبر مراكز عبادة الأفاعي في شرقي «ميسور»، حيث تسكن في معابد هذا الإقليم جموع زاخرة من الأفاعي، ويقوم عدد من الكهنة بإطعامها ورعايتها والاهتمام بها.

وكذلك التماسيح والنمور والطواويس والببغاوات والفئران، لها جميعها قدسية عند الهندوس والهندوسي لا يرى فارقاً بين الإنسان والحيوان، فلكل منهما روح وهذه الأرواح تمضي متنقلة بين الإنسان والحيوان عن طريق التناسخ..

أما البقرة فهي خير معبود عند الهندوس وهي أكثر الحيوانات قدسية عندهم، ولها تماثيل في كل معبد أو منزل أو ميدان، ولها مطلق الحرية في ارتياد الطرقات والمحلات العامة والخاصة كيف تشاء، ولا يحل للهندوسي أكل لحمها مهما كانت الأسباب، ولا يجوز له استغلال جلدها في أي صناعة من الصناعات. وتكون الطاقة الكبرى إذا اعتدى أحد عليها أو نَهَرَهَا، وإذا ماتت، دفنت بإجلال وتقديس مع أعظم طقوس الدين. ولله في خلقه شؤون...

3 ـ العقائد الهندوسية:

أهمها:

1 ـ عقيدة التناسخ:

وهي انتقال الروح من جسد إلى آخر يؤثر ذلك على عمل الإنسان، فإن كان صالحاً انتقل إلى مخلوق صالح، وإن كان فاسداً انتقل إلى نسل غير صالح. وقد تنتقل الروح إلى حيوان أيضاً وتستمر الروح في الانتقال من جسد إلى آخر، إلى أن يشاء الله لها أن ترفع بعد تطهيرها من الآثام، والوصول إلى

أسمى مرتبة وهي الاتصال بالروح الأسمى. ويرتبط بعقيدة التناسخ هذه إيمان الهندوس بأن أعمال الإنسان تتبعه من حياة إلى أخرى، فأعماله الصالحة تنفعه في حياته التالية، وسيكون له حظ أوفر.. ولهذا يفسر الهندوس اختلاف الحظوظ بين الناس وتباين أقدارهم ومنازلهم، فهم يتقبلون الشر أو المصائب إذا حلت بهم على أنها جزاء عادل، وهذه العقيدة تعرف «بالكرْما»، ومعناها العمل الذي لا بد منه في الحياة، وقد كانت عاملاً أساسياً في استمرار بعض المظالم الاجتماعية، مثل: نجاسة المنبوذين، واحتقار الأرامل، وغير ذلك.

2 ـ عقيدة تقديس الروح وعبادتها:

فهي من أعظم ما يؤثر في حياة الهندوس الدينية، تقول السيدة أمينة السعيد في كتابها «مشاهدات في الهند» ما يلي: «تقوم الهندوسية أصلاً على عبادة الروح وتقديسها، حتى لو كانت لأحقر الحيوانات أو الحشرات، لهذا فهم يرفضون قتل الحيوان أو تعذيبه حتى لو كان يسبب الضرر لبني البشر.. وللأشجار الكبيرة قدسيتها أيضاً، فقطع الأغصان أو تشذيب الشجرة أمر غير مسموح به، فتنمو الأشجار على فطرتها، وتتكاثف أغصانها حتى تعيق المرور في بعض الأحيان..» وجاء في كتاب ملامح الهند والباكستان[1] ما يلي: «وأساس الهندوسية هو فكر الروح العالمية، وليس العالم المادي إلاّ غطاءً زائفاً يحجب الحقيقة الروحية تحت قناع المادة».

3 ـ عقيدة تقديس البقرة حتى العبادة:

فالهندوسي لا يمكن أن يؤذي بقرة مهما فعلت.. وليس له أن يأخذ منها إلاّ اللبن والروث والبول، فهو يستعمل الروث وقوداً، أما اللبن والبول فهي من الأشياء المباركة عندهم، ولا يشعر الهندوسي بنفور مطلقاً من بول البقرة بل يصفونه شفاء للناس من الأمراض في بعض الحالات. ولهذا تنتقل البقرة في

---

(1) تأليف د. محمد عبد المنعم شرقاوي و د. محمد محمود الصياد.

شوارع المدن كيفما تشاء وتأكل من المزروعات ما تريد، ولا يجوز ذبحها أو أكل لحمها وهم ينفرون من كل من يفعل ذلك أو يعاكسها. .

4 ـ عقيدة تقديس نهر الغانج:

حيث أن غاية الواحد منهم أن تحرق جثته ويُلقى رمادها في ذلك النهر المقدس، وعندما يغتسلون في مياهه يعتقدون أنه يطهرهم من جميع الذنوب والآثام ويطلقون عليه اسم «جانجا ماثا» أي الغانج الأم، فهو عندهم بمثابة الأم، ويؤمه في الأعياد الدينية حجاجاً من أقاصي الهند للاغتسال في مياهه ومعظمهم يأتون مشياً على الأقدام. (شكل 19). يصف العالم «جوليان هكسلي» احتشاد الحجاج عام 1954 في أحد الأعياد الدينية الهندوسية الكبيرة في المدينة المقدسة «الله آباد» حيث زاد عددهم عن أربعة ملايين حاج جاءوا للاغتسال في مياه الغانج فيقول: «إنني لا أنسى منظر هذه الأكوام من النمل البشري وقد تكاتفوا في بقع خاصة، وهم يتحركون نحو جسور مؤقتة أقيمت على قوارب فوق مياه النهر للوصول إلى أماكن المياه المقدسة، وقد تحول المنظر إلى مأساة فظيعة عندما خرج الجمهور من كل سيطرة وداس تحت أقدامه أربعمائة من الناس العاجزين فراحوا شهداء العقيدة الدينية». وقد أثرت البوذية في الهندوسية وقد ترك الهندوس عادة الزواج من زوجات كثيرة واكتفوا بزوجة واحدة. .

وأخذوا عن البوذية فكرة تحريم قتل الحيوان والامتناع عن أكل اللحوم وتحريم الخمور وتركوا عادة تقديم القرابين للآلهة، وأخذوا كذلك مبدأ الخدمة العامة، ومن مبادىء البوذية التي انتقلت إلى الهندوسية عقيدة السلام وتجنب العنف. . وكان غاندي من أحسن المعلمين الذي أثّروا في الثقافة والعقيدة الهندوسية، ودعا إلى اتّباع الوسائل السلمية والابتعاد عن العنف للوصول إلى الحق الإنساني.

4 ـ تعاليم الديانة البرهمية:

وهي: 1 ـ الكائن الإلٰهي. 2 ـ مقابلة الإساءة بالإحسان. 3 ـ القناعة.

4 ـ الاستقامة. 5 ـ الطهارة. 6 ـ كبح جماح الحواس. 7 ـ معرفة الفيدا. 8 ـ الصبر. 9 ـ الصدق. 10 ـ اجتناب الغضب.

وهي الوصايا العشر للديانة البرهمية..

5 ـ الآلهة الهندوسية:

يتكلم الهندوس عن آلهة لا يحصى عددها، ومع ذلك يقولون بالتوحيد وعبادة الإله الواحد- ويخلصون له، ويقدمون له القرابين، ويسمونه رب الأرباب، حتى وصلوا في القرن التاسع قبل الميلاد إلى الاعتقاد بإله واحد، بيده مقادير الكون، وهو الإله «براهما» خالق كل شيء، والجد الأكبر لكل الآلهة، وهو إله الآله. (شكل 20). إن الهندوسية دين معقد، ويتعذر على الإنسان أن يصل إلى حقيقته وجوهره. ويعود سبب تعقيد هذه الديانة إلى أنها خليط من أديان ومعتقدات كثيرة منذ بدايتها حيث سادت لديهم عبادة قوى الطبيعة وعناصرها، وعادة تأليه الأبطال، وإحاطة أسمائهم بالتقديس والمعجزات والخرافات الأسطورية.

جاء في كتاب «ملاح الهند والباكستان» ما يلي: «تختلف الآلهة في أخلاقها، وفي ألوان العبادة التي تتطلبها. فالآلهة «كِالي» تعشق الدماء، وتُعْبَد بتقديم قرابين الماعز لها. بينما ترضى الآلهة اللطيفة «لاكشمي» إلٰهة الثروة (شكل 21) بما يُقَدّم إليها من الفاكهة والزهور. بينما يمثل بعضها الآخر مثل الآلهة «ماريما» إلٰهة الجدري بقية من العبادات القديمة للأرواح الشريرة، وبعضها الآخر كالآلهة «راما» والآلهة «كريستا» ليستا سوى ملوك رفعوا إلى درجة الآلهة. وبعض الآلهة كالإله فشنو (إله الشمس) ينحدر من آلهة الطبيعة الآرية..».

ويعتقد أن منشأ الوثنية في الديانة البراهمية هو أنهم كانوا يعبدون القوى المؤثرة في الكون وتقلباته. ثم جسّدوا تلك القوى، فاعتقدوا بحلولها في بعض الأجسام، فعبدوا الأصنام لحلولها فيها. . وتعددت الآلهة عندهم، فوصلت إلى

ثلاثة وثلاثين إلٰهاً، ثم أصاب عقائدهم التغيير والتبديل. فاعتقدوا أخيراً بالثالوث الإلٰهي المُشَكَّل من:

1 ـ براهما:

وهو الإله الخالق، مانح الحياة وسيد الآلهة، وهو القوي القادر الذي تصدر عنه جميع الأفعال. (شكل 20) وهو يمثل إله الخير، وهو الذي يرجو رحمته وكرمه وعطفه جميع الأحياء وينسبون إليه الشمس التي يكون بها الدفء وانتعاش الأجسام. وتجري بسببها الحياة في النبات والحيوان ويعتقد أنه خالق الكون على طريقته، فقد أخذ براهما يتأمل ويفكر طويلاً. فنشأ عن تفكيره هذا فكرة مخصبة، تطورت إلى بذرة ذهبية ومن تلك البيضة وُلِدَ براهما خالق كل شيء، فهو الخالق والمخلوق!.

2 ـ الإله فيشنو:

الحافظ، وهو إله الحب الذي كثيراً ما ينقلب إلى إنسان ليقدم العون إلى بني البشر، ويجعل من نفسه أرضاً ليستقر عليها الحيوان، وماءً ليغذيهم ويجعلها ناراً وريحاً لينميهم وينشئهم، ويجعلها قلباً لكل واحد منهم، ويعدّون كل معاني الخير والسموّ هي من فيض فيشنو كما قال البيروني. وأعظم ما يتجسد فيه فيشنو هو شخصية كريشنة، وله زوجة اسمها «لاكشمي». (شكل 21).

3 ـ الإله شيفا:

ومعناه «العطوف»، ولكنه في الحقيقة هو المُهلِك المدمِّر. وهو إله الشر والقسوة والخراب. وهو مسبب الهرم بعد الشباب، واصفرار الأوراق الخضراء، وجفاف مياه الأنهار وغورها، وينسبون إليه النار باعتبار عنصر دمار وخراب. فهي لا تُبْقي ولا تَذْر. وهو الذي يسبب الكوارث والأوبئة والفيضانات والمجاعات، وهو الذي يضع نهايةً لكل شيء، ولذلك يخشاه عباده فيقدمون له الأضاحي الكثيرة، ولو كانت من البشر حتى يرضى عنهم ويكف الأذى والبلاء. وله تماثيل

منحوتة في الصخر تمثله وهو يضع فوق رأسه عدداً من الجماجم، وتحيط به أرواح الشر وهو يمارس رقصة العبوس والضراوة، التي تنتهي بتحطيم العالم ونهايته، وله زوجة اسمها «كالي» (شكل 22).

هذه الآلهة الثلاثة أقانيم لإله واحد، وهو الروح الأعظم واسمه «أتما». ودون هذه الآلهة آلهة أخرى أدنى منها سلطاناً وقوة وعبادة، ولكن البراهمة وهم رجال الدين يرجعون كل شيء إلى الآلهة الثلاثة ويمكن أن يرجعوا كل شيء إلى إله واحد..

6 ـ مراكز العبادة:

تنتشر معابد الهندوس في كل مكان من الهند، يذهب إليها الناس للدعاء والابتهال، ولكن لا تقام بها صلوات جماعية كما في المساجد أو الكنائس، بل إن الصلوات تقام في مناسباتٍ خاصة يقوم بها البراهمة وحدهم. ويبقى المعبد في نظرهم مكاناً مقدساً حتى لو تهدم وأصبح أطلالاً تأوي إليها الطيور، وقد قامت وسط الغابات أديرة ومعابد كثيرة يعيش فيها الزّهاد تحت رئاسة معلم ديني يرشدهم إلى أمور الروح وترك ما عداها..

وقد تأثرت الهندوسية بالأديان الأخرى. ويشبّه بعضهم الهندوسية بقطعة من الإسفنج التي تمتص الماء دون أن تتغير معالمها الظاهرية.. فقد تأثرت بالبوذية وبالإسلام وغيرهما. وقد انتشرت البراهمية خارج حدود الهند، فقد توجه البراهميون بحراً إلى الجزر القريبة منهم. مثل سومطرة وجاوا وكمبوديا وغيرها.. وأقاموا فيها ممالك ومستعمرات هندوسية، ظلت تسود فيها حتى سطع نور الإسلام في تلك الجزر سنة (1250 م). وقد خلّف الهندوس معابداً وآثاراً كثيرة في هذه الجزر، لا يزال بعضها قائماً حتى اليوم..

7 ـ النظام الطبقي في الديانة الهندوسية:

جاء في شرائع «مينو» التي وُضِعت قبل الميلاد بثلاثة قرون. والتي عُدَّت مرجعاً دينيّاً ومدنياً للهند «لصلاح هذا العالم وفلاحه تخَلَق الإله الأعظم براهما،

الفرق الأربع من وجهه وذراعيه وفخذه وقدميه». ولهذا فالناس ليسوا سواسية في الديانة الهندوسية، لا من حيث العبادة أو الزهادة أو طلب الزُلفى.. وهم يختلفون من حيث الطبقات والأعمال التي يمارسونها، فقد قسمّ الناس من حيث مهمتهم وأصولهم وأنسابهم إلى أربع طبقات وقد كان التقسيم الطبقي يقوم على أساس اللون أو المواليد. وتنتقل الطبقة إلى الخلف والأعقاب بالولادة والأنساب.. وهذه الطبقات هي:

(أ) **الطبقة الأولى**: وهي طبقة البراهمة وهم رجال الدين، وهم يزعمون أنه خُلِقوا من رأس الإله براهما، أو من فمه، لذلك فهم أعلى الناس، وهم خلاصة الجنس البشري وعقله المفكر ورأسه المدبر. فهم في المجتمع كموقع الرأس من الجسد. وإليهم فقط عُهِدَ بقراءة أسفار الڤيدا المقدسة وتعليمها. والبرهمي يعدّ كل ما في العالم مُلْكاً له وهو خليق بكل احترام كيفما كان وضعه، لأن كل برهمي إله.. وإذا ما غضب يستطيع أن يسحق الملك وجيشه جميعاً بتلاوة لعنات ونصوص مسحورة. ومن حاول ضرب برهمي سيصلى عذاب النار لمئة عام، ومن ضربه فعلاً حقت عليه الجحيم ألف عام.

(ب) **الطبقة الثانية**: وهي طبقة الجند و«الكشترية». وهم يزعمون أنهم خُلِقوا من مناكب براهما ومن يديه، فهم الحماة والغزاة، وهم القوة الضاربة، ومرتبتهم تلي مرتبة البراهمة، وعليهم أن يقرأوا في الكتب المقدسة دون أن يعلموها لأحد..

(جـ) **الطبقة الثالثة**: وهي طبقة الزراع والتجار «الويشيون». ويزعمون أنهم خُلِقوا من ركبتي براهما أو فخذيه، وعليهم تحصيل أرزاقهم بجهدهم. ويقومون بتربية المواشي «لأن إله المخلوقات عهد بالمخلوقات إلى البرهمي والكشترى، وعهد بالماشية وتربيتها إلى الويش» وعليه أن يطعم كل المخلوقات..

(د) **الطبقة الرابعة**: وهم الخدم والأسرى «الشودرا»، ويزعمون أنهم خلقوا من قدمي الإله براهما. وهي طبقة حقيرة، وما عليهم إلا الامتثال لأوامر

البراهمية الأسياد وخدمتهم. . ولكل من هذه الطبقات صفات خاصة تتناسب مع وضعهم الاجتماعي. والكل بارع ومهتم في حدود طبقته. وتحت هذه الطبقات الأربع تأتي طبقة المحرومين وأبناء الزني والأنجاس ويعدّون من المنبوذين، وهم في أحط درك، ولا يجوز التزاوج بين طبقتين متتاليتين. . وليس للمنبوذين وجود في طبقات المجتمع الهندي، وهم من الهنود الأصليين، ولا يحملون الدم الآري ويسمّون زنوج الهنود وليس لهم حقوق الإنسان، وديانتهم بدائية تنحصر في عبادة الأرواح. .

وأعظم الآلهة عندهم تكون على شكل كومة من الحجارة. أو في هيئة أخرى ساذجة. . وهذا الإله هو الذي يمنح الخصوبة للعواقر، ويحمي المحصول من الآفات. .

8 ـ الحياة الآخرة:

من عادات الهندوس الوثنية حرق الأجسام بعد الوفاة عند أبناء الطبقة العليا منهم، وذلك لسببين:

1 ـ لاعتقادهم أن النار في اشتعالها تعلو شعلتها إلى أعلى بخط عمودي على أفقية الأرض، والعمود أقرب المستقيمات بين السطوح والخطوط، لهذا تتجه الروح بالاحتراق إلى الأعلى باتجاه عمودي. فتصعد إلى السماء في الملكوت الأعلى في أقرب وقت وأقصر زمن.

2 ـ تخليص الروح من غلاف الجسم تخليصاً تاماً عند الاحتراق. حيث يعتقدون أن في الجسم نقطة بها يكون الإنسان، ويتحول بالاحتراق إلى ذرات صغيرة فتتخلص الروح من الجسد وتعلو عنه لتصل بجسم آخر. أو أنها تسمو إلى درجة الملائكة، إن كانت قد وصلت إلى درجة الخلاص. وعندما تتخلص الروح من الجسد أمامها ثلاثة عوالم:

أولهما: عالم الملائكة أو العالم الأعلى الذي تصعده الروح إن كانت تستحق الصعود إليه بعملها الصالح. وتسمو إلى الملكوت الأعلى.

ثانيهما: عالم الناس، وهو العالم الحالي لبني البشر، فالروح تعود إليه للحلول في جسم إنساني آخر، لتكتسب عمل الخير، ولتتجنب عمل الشر.

ثالثهما: عالم جهنم وهو لمرتكبي الخطايا الواقعين في الذنوب، وليس هناك جهنم واحدة، بل لكل أصحاب ذنب جهنم خاصة بهم تتناسب مع حجم ذنوبهم، فالروح التي تصعد إلى أعلى ولم تنزل إلى أسفل، تعود إلى جسم آخر لتحل فيه. والبعث عندهم في الحياة الآخرة، تكون للأرواح وليس للأجساد، فهي إما في الملكوت الأعلى وإما في النار..

9 ـ الكتب الهندوسية المقدسة:

(أ) **الفيدا:** وهي أقدم الكتب الهندوسية، وجدت قبل خمسة عشر قرناً قبل الميلاد، وقد دخلت مع الفاتحين الآريين باعتبارها من أصول ديانتهم. ويقال أنها أقدم من التوراة بآلاف السنين فهي قديمة جداً. والفيدا مجموعة أسفار ليس في كلام البشر ما يشبهها، ويزعم الهندوس أن البشر عاجزون عن أن يأتوا بمثلها. ولكن البيروني يقول: «إن خاصتهم يقولون إن في مقدورهم أن يأتوا بمثلها، ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراماً لها وتقديساً..» وتعد الفيدا سفراً كبيراً يحوي كنزاً ثميناً من المعلومات حول ديانة الهندو الأساسية. وللفيدا أربع مجموعات لكل منها منهج خاص في القراءة، وتلحين خاص في الإلقاء، وتتلى كل مجموعة منها في موضوع خاص بها، ولا يتلى غيرها. وهي:

1 ـ فيدا الأناشيد «الديجافيدا». ترتل عند تقديم القرابين للنار، ولها ثلاثة مناهج للتلاوة.

2 ـ فيدا النغمات «السامافيدا». ترتل عند صنع شراب السوما المقدس وتناوله، وله نغم خاص به.

3 ـ فيدا القرابين «الياجورفيدا». ترتل عند تقديم القرابين، ولكنه مختلف عن فيدا الأناشيد في النغم والتلحين..

4 ـ الآثار فيدا. تتلى عند السحر والتعاويذ، ولها لحن خاص بها.

(ب) البرهميات: وهي كتب من النثر، ليس منظومة كالفيدا، يسميها البيروني «البيرانات» وهي أقسام كثيرة مختلفة الموضوعات، فمنها ما يحتوي على أحكام شريعتهم، ومنها ما هو خاص بمطالعات النسّاك الذين يهيمون في الأحراش والغابات، ويرغبون في التخلص من المادة لينعموا بحرية الروح، ومنها كتب في أصول عقائدهم، تذكر فيها نشأة العالم، وكيف ظهرت آلهتهم، وكيف خلق الإنسان، وكيف وجدت المخلوقات؟ وتبحث في علاقة الإنسان بالآلهة والكون. .

(جـ) اليوبانشاد: وهي من الأسفار المقدسة التي تقول: «إن جوهر النفس ليس هو الجسم ولا العقل، ولا الذات الفردية، ولكنه الوجود العميق الصامت الذي لا صورة له. والكامن في دخيلة أنفسنا، واسمه (أتمان)، أما جوهر العالم الواحد الشامل الكامن في كل شيء، والذي لا تدركه الحواس، واسمه (براهما)».

10 ـ تناسخ الأرواح «التقمص»:

يعتقد الهندوس أن النفس خالدة، لا تبيد ولا تفنىٰ، وأنها تنتقل من جسم إلى آخر، فيحصل تناسخ الأرواح، وهو الطابع الذي تميزت به الديانة البرهمية. . يقول البيروني في ذلك: «كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين، والتثليث علامة النصرانية، والاسبات علامة اليهودية، كذلك التناسخ عَلَم النِّحلة الهندية ومن لم ينتحله لم يكُ منها». فالنفس عندهم خالدة لا يصيبها الفناء ولا البِلىٰ، حسب أقوال كتبهم. . يقول البيروني بما تشهد كتبهم «. . إن الأرواح غير مائتة، ولا متغيرة، وإنما تتردد في الأبدان على تغاير الإنسان من الطفولة إلى الشباب والكهولة ثم الشيخوخة التي عُقباها موت البدن، ثم العوْد له». . ويتساءل البيروني قائلاً: «كيف يَذْكُر الموت والقتل من يعرف أن النفس أبدية الوجود، لا عن ولادة، ولا إلى تلف أو عدم؟ . . بل هي ثابتة وقائمة، لا سيف يقطعها، ولا نار تحرقها، ولا ماء يغصها، ولا ريح توبسها؟ لكنها تنتقل من بدنها نحو آخر، كما يستبدل البدن اللباس إذا بلي، فما

عليك لنفس لا تبيد؟».

فالهندوس مع اعتقادهم بخلود الروح إلا أنهم يؤمنون بأن الأرواح تنتقل في الأجسام متدرجة في الرقي من جسم إلى آخر حتى تصل إلى الكمال المطلق، وتكون في صف الروحانيات المتجردة، وهي الملائكة، وتكون غير محجوبة عن التصرف في السموات والأرض وتدبير الكون، وهم يعتقدون أن الروح الواحدة تحلّ في عدة أجسام، وأن الشخص تكون روحه قد حلّت في مئات من الأجسام قبله.

يقول البيروني عن أحد ملوكهم أنه رسم لقومه أن يحرقوا جثته بعد موته في موضع لم يحرق فيه ميت قط، وبحثوا عن هذا الموضوع فأعياهم حتى وجدوا صخرة من البحر ناتئة. فظنوا أنهم ظفروا بالبغية، فقال لهم باسديو: إن هذا الملك أحرق على هذه مرات كثيرة.. فافعلوا ما تريدون، فإنما قصد إعلامكم، وقد قضيت حاجته..». وتخطر بالبال تساؤلات عدة منها: ما الذي يحدث للروح عندما يموت الإنسان؟ يقول الكهنة الهندوس: عندما يموت الإنسان تخرج روحه من جسده، وتدخل على الفور جسد طفل وُلِدَ لتوّه.. فإذا كان الإنسان من الذين يعيشون حياة صالحة وُلِدَ في طائفة أعلى، وإذا كان يعيش حياة فاسدة مليئة بالشر وُلِدَ في طائفة أدنى.. وعليه نتساءل: ما الذي يحدث للإنسان إذا هو استمر يعيش حياة فاسدة بعد حياة أخرى أكثر فساداً؟.

فيجيب الكهنة: مثل هذا الإنسان يظل يولد في طائفة أدنى من طائفته مرة بعد أخرى، وقد يولد عليلاً ليظل يشقىٰ طوال حياته عقاباً له على ما أساء، ولا مانع من أن يولد حيواناً أعجم، وقد يولد الإنسان السيّء فيلاً فإذا صار فيلاً شريراً فإنه بعد موته يولد مرة أخرى كلباً، وإذا صار كلباً شريراً ظل ينحدر كلما ولد حتى يولد برغوثاً أو بعوضة».

إذاً.. ما الذي يحدث لو أن الإنسان استمر يعيش حياة فاضلة حياة بعد أخرى أكثر صلاحاً؟.

يجيب الكهنة: مثل هذا الإنسان يظل يولد في طائفة أعلى حتى يصبح

كاهناً برهمياً. . وبعدها لا يولد مرة أخرى، وهنا تنتهي دورة الحياة. . وكما جاءت أرواح الكائنات من براهما روح العالم، فإنها تعود إلى روح العالم وتتحد مع براهما وهي أعظم سعادة تتمنّاها الروح، وتسمّى (النيرڤانا). .

11 ـ فروع الديانة الهندوسية:

تفرق البراهمة أصنافاً منها:

(أ) **أصحاب البَدَدَة:** معنى «البد» عند الهندوس شخص لا يولد ولا يتكلم ولا يأكل، ولا يشرب ولا يهرم ولا يموت، وأول بد ظهر في العالم اسمه «شاكمين» ومعناه السيد الشريف. . ودون مرتبة البد مرتبة (البوديسعية) وتعني: الإنسان الطالب سبيل الحق، ويصل إلى هذه المرتبة بالصبر وبالامتناع والتخلي عن الدنيا والعزوف عن شهواتها وملذاتها. .

وباجتناب الذنوب العشرة وهي: قتل كل ذي روح، أكل أموال الناس بالباطل، الزنا، الكذب، النميمة، البذاء، الشتم، شفاعة الألقاب، السفه، الجحد لجزاء الآخرة.

وباتباع الخصال العشرة وهي: الجود والكرم، والعفو عن المسيء، والتعفف عن الشهوات، الدينونة الإيمان بالتخلص من الحياة الدنيا الفانية إلى ذلك العالم الدائم الوجود، رياضة العقل بالعلم، والأدب وكثرة النظر إلى عواقب الأمور، القوة على تصريف النفس في طلب العليات، لين القلب وطيب الحديث مع الناس، حسن المعاشرة مع الإخوان بإيثار اختيارهم على اختيار نفسه الإعراض عن الخلق بالكليّة والتوجه إلى الخالق بالكليّة، بذل الروح شوقاً إلى الحق ووصولاً إلى جناب الحق.

(ب) **أصحاب الفكرة والوهم:** وهم الذين يعلمون بالفلك والنجوم وأحكامها المنسوبة إليهم. ويعدّون زحل السعد الأكبر لرفعة مكانه وكبر حجمه، وهم يعظمون الفكر ويعدّونه المتوسط المحسوس والمعقول. . ويقولون إن للوهم أثراً عجيباً في تصريف الأجسام والتصرف في النفوس، فإذا وقع الوهم

على الرجل قتله في الحال، وإذا تجرد الوهم عمل أعمالاً عجيبة، وكانت عاداتهم إذا أصابهم أمراً أن يجتمع أربعون رجلاً من المهذبين المخلصين المتفقين على رأي واحد فيتجلى لهم إلههم وبندفع عنهم البلاء..

(جـ) **أصحاب التناسخ**: وقد مرّ ذكرهم في البحث نفسه.. ومن الهنود من يقول بالروحانيات أمثال: البلستوية، الباهودية، الكابلية، البَهادونية، ومنهم من يقول بعبادة الأصنام المختلفة مثل: المهالكيّة، البرْكَسْهيكية، الدهكينية، والجَلْهكيّة، أي عبَّاد الماء، والأكنواطْريّة، أي عباد النار ومنهم الحكماء الذين عملوا على الطريقة اليونانية علماً وعملاً أمثال برخمنين وغيره[1].

ومنهم من يقول بعبادة الهياكل والكواكب وهم عبدة الشمس وعبدة القمر.

وهذه واحدة من عشرات الأديان السائدة في بلاد الهند الواسعة.

---

(1) للمزيد من المعلومات راجع كتاب الملل والنحل، محمد عبد الكريم شهرستاني..

الفصل الثالث

الديانة الجينية

1 ـ نشأتها :

نشأت احتجاجاً على المعتقدات الهندوسية القديمة. وفي القرن السادس قبل الميلاد وهي دين هندي قوامه تحرير الروح بالمعرفة والإيمان والسلوك الحسن، وهي تستمد عقيدتها من الهندوسية أصلاً، ساهم في تأسيسها أربعة وعشرون قديساً. كان آخرهم وأكثرهم أثراً مهافيرا «البطل العظيم» الذي يعد المؤسس الفعلي لهذا الدين، وقد قام بثورة ضد البراهمة. وأنكر ما جاء في الهندوسية من نظام طبقي، وعدم الاعتراف بسلطة الفيدا، والكتب المقدسة القديمة. . . تقوم هذه الديانة على الإعتقاد بأن كل ماهو موجود في الكون أزلي حتى المادة. وتتشابه مع البوذية في كل هذا، إضافة إلى نُكران دعاء الكهنة البراهمة بأنهم وحدهم أصحاب الحق في إقامة الطقوس الدينية. وقد ساعد على انتشار مذهب الجينية والبوذية معاً بأن كليهما يعلّمان الشعب بلغته الخاصة المسمّاة براكريت Prakrit، وليس باللغة السنسكريتية التي كانت لغة الكهان في الشعائر الدينية. وقد اهتم المذهبان بالأخلاق، والسلوك الحسن والعمل الصالح والمعرفة الصحيحة. ولم يقيما وزناً للطقوس والشعائر الدينية عامة. . وقد جعل كل منهما أساس تعاليمه تقوم على أن خلاص الروح لا يكون إلّا بالأخلاق الفاضلة القويمة، والإيمان الصحيح والسلوك السليم. وكان اتباعهما يعيشون

حياة الزهاد، فهم يستجدون خبزهم اليومي، وتقوم حياتهم على أساس الطهارة والبساطة وحب الخير للناس أجمعين بلا تمييز طبقي. وكان البوذيون يلبسون رداء المتسولين بلون أصفر مميّز. أما الجينية فكثير منهم كانوا يسيرون عراة تقريباً. وكانت البوذية معتدلة في تصرفاتها، بينما الجينية كانت أكثر تطرّفاً في عقيدتها، فإذا كانت الجينية توافق على أن يقتل الإنسان نفسه في بعض الظروف فالبوذية كانت تحرم ذلك وتنفر منه. وكان اتباع الجينية يغالون في عباداتهم، فهم ينظرون إلى كل ما في الطبيعة على أنه كائن حي، له الحق في الحياة فهم يمنعون الأذى عن أحقر الحشرات وأصغرها. بينما البوذية تكتفي بتحريم القتل وأكل اللحوم.

ولهذا كان «مهافيرا» مؤسس الجينية يسمح للحشرات تدب على جسمه وجلده العاري دون أن يزيلها عن جسمه حتى لو عضته أو سببت له أذى جسدياً، وذلك إمعاناً في تعذيب جسده حتى تسمو روحه، وكثيراً ما كان يتعرض هو وأصحابه للإهانة، ويتحملون الضرب المبرح بسبب الاستهجان من منظرهم، أو الإشمئزاز من هذه المظاهر الغريبة، ولم يحاول أحدهم الإنتقام أو ردّ اعتباره وكرامته، وهم لا يخولون أحداً الحق في قتل أي مخلوق حتى لو كان مؤذياً، وإلا بإمكان كل إنسان أن يقتل إنساناً آخر، وإذا وجده ضاراً أو مؤذياً أو شريراً. . .

ويعتقد الجينيون أنه عندما يموت الإنسان فإن روحه لا تموت، ولكنها تتقمص في كائن آخر، وهي تشبه الهندوسية والبوذية في مبدأ تناسخ الأرواح، وليس من الضروري أن يكون إنساناً. وإن مبدأ تناسخ الأرواح هو أحد الأسس التي ترتكز عليها الأفكار الجينية، ويعتقدون أن الأرواح تحتفظ بنفس هويتها دائماً في التقمصات المتتالية التي تترتب على نتائج السلوك مجتمعة. ويمكن الوصول إلى النيرفا، أي الخلاص من الجسد والمادة بعد تسعة تقمصات. كما يعتقد الجينيون «بالكارما» أو القدر، وتتلخص بأن العاقبة الأخلاقية الكاملة لأعمال الإنسان تؤثر على حظه ووضعه في الحياة الأخرى، وأن إزالة الآثام المتراكمة في الروح البشرية. وتنقية الروح هو أحد أهداف العقيدة الجينية. .

يقول مهافيرا: «ان تنقية الروح يمكن إحرازها بترك المسرّات وكل الملذات الحسيّة. «فالرهبان الجينيون يمارسون نوعاً من التقشف العنيف جداً، وكان زعماؤهم كثيري الصيام والزهد، ولم يحتفظ واحدهم لنفسه بأية أملاكٍ من أي نوع حتى لو كان كوباً لشرب الماء، أو لجمع الصدقات.. (شكل 23).

ومن مظاهر الجينية: التشديد على مبدأ «الأهيزما» أو اللاعنف، ويشمل ذلك عدم العنف مع الحيوانات فضلاً عن الإنسان، ولذلك فالجينيون كلهم نباتيون لا يأكلون لحوم الحيوانات مهما كانت، أما المتعصبون منهم: فلا يقتلون ذبابةً أو أية حشرة مهما صغرت، ولا يأكل أحدهم في الظلام حرصاً على أن يبتلع حشرة دون أن يراها. فيسبب لها الموت ويرتكب إثماً عظيماً. وقد كانوا يستأجرون أشخاصاً يقومون بكنس الشارع وتعزيله أمامهم كيلا يبقى شيء من الحشرات التي من المحتمل أن يدوسوها من غير قصد فتموت تحت أقدامهم وتقع الجريمة. وقد أثر مذهب اللاعنف هذا على الزعيم الهندي الشهير «غاندي» محرر الهند الأول والذي تأثر بتعاليم أحد فلاسفة الجينية والذي اعتبره استاذه الروحي.. ولم يعمل الجينيون بالزراعة، فالعمل اليدوي كان ممنوعاً حسب معتقداهم مع أن بلادهم كانت زراعية جيدة، ولكنهم عملوا بالتجارة.

وقد أثرت الديانة الجينية على الهندوسية فأصبحت تحرّم ذبح الحيوانات وأكل لحومها. وقد عاش كل من المذهب البوذي والمذهب الجيني في الهند حقبة من الزمن عدّت فترة ذهبية لكل منهما وبقيا كذلك حتى استعادت الهندوسية كيانها وسلطانها. وعادت إلى مكانها الأول من قلوب الناس، فعملت على طرد البوذية التي غادرت الهند بعد أن دمر الهندوس أديرتهم ومعابدهم ومع ذلك بقيت العقيدة التي يؤمن بها الناس في قسم كبير من قارة آسيا.

بينما الجينية انكمشت على ذاتها وحافظت على وجودها، وبقيت في الهند حتى يومنا هذا. فقد انتشر مذهب مهافيرا حتى بعد وفاته (527 ق.م) وكثر أتباعه ومؤيدوه وأقيمت المعابد الجينية في جهات كثيرة، وخاصة في جنوب الهند.. وهم يشكلون اليوم طائفة ممدودة ويتوزعون في: جوجارات،

وراجبوتانا. ويشتغل معظمهم في التجارة والشؤون المالية، وكثيراً ما يُنشيء الأغنياء منهم عدداً من المشافي الخاصة بالطيور والحيوانات البرية لحمايتها والمحافظة على حياتها. واليوم يعدّ مذهب الجينية إصلاحاً للهندوسية. ومع ذلك فهم يستخدمون البراهمية في إتمام كثير من الشعائر المنزلية وفق التقاليد الهندوسية القديمة، مما يدل على أن الجينية لا تزال تؤمن بارتباطها بالهندوسية ارتباطاً وثيقاً. . .

2 ـ مهافيرا: (599-527 ق. م):

ولد مهافيرا لأب ثري وأم من الأشراف، وقد أزهق أبواه أرواحهما لاعتقادهما أن الإنتحار ميّزة ينعم بها المنتحر، وكان عمره حينذاك واحد وثلاثين سنة. فتأثر بهما تأثيراً كبيراً وخلع عن جسده كل ثيابه وضرب في أرجاء الاقليم غربي البنغال زاهداً متقشفاً ينشد تطهير نفسه من أدرانها وتفهم أسرار الوجود، فهو ينتقل بين القبائل البدائية على حدود البنغال. حتى جاءته الهداية الروحية وهو منهك في التفكير، واستمر يدعو إلى عقيدته حتى وفاته، وكان قد تنازل عن الحكم لأخيه، وهجر العالم وعاش زاهداً منكراً ذاته حتى (527 ق. م) حيث وافته المنية وكان عمره في الثانية والسبعين. . وقد أعلنت جماعة من أتباعه أنه «جنا» أي القاهر أو الفاتح، ومعنى ذلك أنه معلم من كبار المعلمين، ثم اختار هؤلاء الأتباع لزعيمهم اسمه المعروف به «مهافيرا» ويعني البطل العظيم. . واتخذوا لأنفسهم اسماً اشتقوه من اسم عقيدتهم، فأطلقوا على أنفسهم اسم «الجينيين».

ونظم «مهافيرا» طائفة من رجاله ليكونوا رهباناً عزّاباً، وطائفة من النساء ليكنّ راهبات عانسات وقد انتشر مذهبه وتوسع في الهند، وخاصة في الجنوب. وقد ترك وراءه أكثر من (14000) أربعة عشر ألف من أشياع مذهبه وأتباعه وقد عدّوه إلهاً بعد وفاته. شكل 24.

الفصل الرابع

البوذية
Buddhism

1 ـ نشأتها:

وهي مجموعة من التعاليم أو الفلسفة الأخلاقية، نشأت في الهند في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، ومنها انتشرت عن طريق البعثات التبشيرية إلى البلدان المجاورة كالصين واليابان، وبلاد الهند الصينية وغيرها، حتى أصبح عددهم عن (260) مليون نسمة. وهي واحدة من الديانات العالمية، قامت على أساس نبذ الديانة البرهمية وإزالة الفوارق الطبقية في المجتمع الهندي، والاحتجاج على تعاليمها ومبادئها.. ثم تطورت إلى حركة دينية واسعة قائمة بذاتها...

يرجع تأسيس هذه الديانة إلى «بوذا» وهو الأمير «سيد هارتـاغوتـاما» (563-483 ق.م) وأساس آراء البوذية أن حياة الإنسان شر وألم وأن التخلص من هذا الألم لا عن طريق النيرفانا أو النعيم الأبدي. والبوذية ليست ديناً بالمعنى الدقيق لكلمة دين، وإنما هي رياضة روحية منسقة ومنظمة، بل هي واحدة من أعظم الرياضات الروحية التي عرفت عبر التاريخ.. مذهبها الأخلاق الفاضلة، وإصلاح المجتمع وتخفيف ما فيه من شقاء وآلام. وهي توفر للفرد كل الوسائل التي يسمو بها طريق المعرفة إلى المثل الأعلى.. وقد ألغت نظام الطبقات في الديانة البرهمية وجعلت الناس سواسية يتفاضلون عن بعضهم في المواهب

ويتساوون في الحقوق، ولا فرق بين شخص وآخر نسبه أو طبقته. ولكن الفرق بينهما بالموهبة والقدرة والعمل، فقد أزال بوذا الفوارق الطبقية، وتلاقى الناس في مذهبه عند الوحدة الإنسانية من غير اعتبار للاختلاف العنصري. ولا فضل لأحد إلا بالمعرفة وسيطرة الإرادة الإنسانية سيطرة تامة. .

ويعتقد كل بوذي أنه قادر على أن يملك طريق بوذا عن طريق التأمل وعمق التفكير من خلال المراحل المتتابعة للاستنارة حتى يصل في النهاية إلى الحكمة الكاملة. .

2 ـ تعاليم البوذية:

يوصي بوذا أتباعه بالتغلب على الغضب بالشفقة، وعلى الشر بالخير، وعلى الكراهية بالحب، وعدم إلحاق الأذى بأحد، وتؤكد تعاليم بوذا على الاعتماد على النفس وصدق العزيمة، ويؤكد لأتباعه، بأنه ليس من أحد في الأرض ولا في السماء قادر على أن يمد لهم يد العون أو ينجيهم من نتائج أعمالهم السيئة، فالكل مجزي بعمله. .

ويمكن تلخيص تعاليم بوذا بالحقائق النبيلة الأربع التالية وهي:

1 ـ أن الحياة معاناة: يتبين لنا من خلال تجاربنا الخاصة بأن الحياة لا تخلو من المعاناة. وهذه المعاناة سببها الشقاء، ومصادر الشقاء في العالم سبعة هي: الولادة، الشيخوخة، المرض، الموت، مصاحبة العدو، مفارقة الصديق، الاخفاق في التماس ما تَطلبه النفس. وهذه كلها من مظاهر المعاناة التي تعد جزءاً من أسلوب حياتنا العامة وفي هذا المجال يقول بوذا: «إن سر هذه المتاعب كلها هو رغبتنا في الحياة وسر الراحة هو قتل تلك الرغبة».

2 ـ والحقيقة الثانية: هي الأصل في منشأ المعاناة، وعدم وجود السعادة، وهي ناجمة عن التمسك بالحياة. يقول بوذا: «إن منشأ هذه المعاناة الحتمية يرجع إلى الرغبات التي تمتلىء بها نفوسنا للحصول على أشياء، خاصة لنا، إننا نرغب دائماً في شيء ما: مثل السعادة، أو الأمان، أو القوة، أو الجمال، أو

الثراء..». أي أن سبب الشقاء وعدم السعادة هو: الأنانية الإنسانية وحب الشهوات والرغبات.

3 ـ والحقيقة الثالثة: هي حقيقة التخلص من المعاناة، ولا يتم إلا بالكف عن التعلّق بالحياة والتخلص من الأنانية وحب الشهوات والرغبات الجامحة في نفوسنا.. وتسمى هذه الحالة «النيرفانا» أو الصفاء الروحي.

4 ـ والحقيقة الرابعة: وهي أن طريق التخلص من الأنانية والشهوات ومتاع الدنيا يوجب على الإنسان اتباع الطريق النبيل ذي الفروع الثمانية، وهي:

(أ) الإدراك السليم للحقائق الأربعة النبيلة.

(ب) التفكير السليم الخالي من كل نزعة هوى، أو جموح شهوة، أو اضطراب في الأماني والأحلام.

(جـ) الفعل السليم الذي يسلكه الإنسان في سبيل حياة مستقيمة سائرة على مقتضى السلوك والعلم والحق.

(د) الكلام السليم أي قول الصدق بدون زور أو بهتان.

(هـ) المعيشة السليمة القائمة على هجر اللذّات تماماً، والمتطابقة مع السلوك القويم والعلم السليم.

(و) السلوك السليم.

(ز) الملاحظة السليمة.

(حـ) التركيز السليم.

وقد وصف بوذا هذه الفروع الثمانية بقوله المشهور «يجمعها كلها السير في الطهارة»، إن هذا الطريق بفروعه الثمانية يؤدي إلى الراحة، والمعرفة، والسعادة، والتحرر من الألم والشقاء. وقد اتخذت عجلة المبادىء البوذية هذه رمزاً للبوذية. وتمثل محاورها الطرق الثمانية التي توصل من يسلكها إلى النيرفانا. ويمكن تلخيص هذه الحقائق في ثلاث مجموعات أخلاقية هي:

1 ـ السيـلا: ومعناها السلوك الأخلاقي، وتتطلب قواعدها: عدم الكذب

أو السرقة أو القتل أو السماح بمزاولة مهنة غير شريفة كبيع الأسلحة والممنوعات.

2 ـ السمادهي: ومعناها التأمل وتدريب العقل للسيطرة على الأفكار بالسهولة نفسها للسيطرة على الأفعال والأقوال وعلى كيفية تركيز الفكر على موضوع معيّن.

3 ـ البراجنا: ومعناها الحكمة، وهي نتيجة لما يُبذل من جهد في سبيل تحقيق السيلا والسمادهي.

3 ـ ما هي النيرفانا؟

وهي كلمة متعددة المعاني والقصد، فهي تعني الاندماج في الوحدة الشاملة، أو الصفاء الروحي، أو الهدف الأسمى، أو الملاذ الأعلى..

ويقال بأنّها الاندماج في الله والفناء فيه ـ مع العلم أن البوذية لا تؤمن بإله مطلقاً ـ وهي المرحلة التي يصل إليها البوذي في حياته عندما يتحرر تماماً من دورة العودة إلى الحياة أي بعد أن يتجرد من كل أمانيه وجهالاته. وعندما تتكسر جميع القيود التي تكبّل الإنسان وتمنعه من الوصول إلى درجة الكمال الإنساني، وعندما تتحطم قيود الشهوة ويصبح الإنسان في صراط القديسين ويتحرر من كل القيود: كالرغبة في البقاء، والكبرياء، والاعتداد بالنفس، والجهل، يصل إلى النيرفانا.

فالذات أو النفس لا وجود لها في تعاليم بوذا. فإذا مات الجسد زالت الأماني وتلاشت الرغبات. وكل عمل يأتيه الإنسان له ثمرته حتماً. وكل عمل يقوم به البوذي في طور من أطوار الوجود المتكررة «التناسخ» تقرره الأعمال التي يأتيها في الوجود الأسبق، وهي بمثابة كفارة.. فالنيرفانا في حد ذاتها اذن ليست موتاً، بل هي حالة في السلام المقيم والقداسة الكاملة، والتجرد من الأماني والرغبات. ومن كل الأشياء التي تغري الإنسان بالتشبث بهذا الكيان المستقل. وهي جنة البوذيين التي ينعمون فيها بعد مرورهم في الطريق الوسط ذي الشعب

الثمان. . ويعتقد بوذا أن الذين يبلغون «النيرفانا» في جهادهم الأخلاقي قليلون جداً. . .

4 ـ مبادىء البوذية:

(أ) **التناسخ**: «التقمص» تؤمن البوذية بالتناسخ وحلول الأرواح في أجساد أخرى ويزعم البوذيون أن زعيمهم بوذا قبل أن يصبح الرجل المستنير تقمصت روحه (530) جسداً منها (42) حالة تقمص في أجساد آلهة، و (80) حالة في أجساد ملوك وأنه في بعض فترات التقمص ربماكان لصاً، أو مقامراً، أو حصاناً، أو ثعباناً، أو ضفدعة!! ولكنه مع ذلك كان في كل هذه الدورات عاقلاً حكيماً. ويعتقد البوذيون أن الموت الجسدي لا يُنهي وجود الإنسان، فالميت يبعث من جديد في شخص آخر أو في إله أو في حيوان. . والتقمص من وجهة نظر التعاليم البوذية الأخلاقية ليس خيراً، وإنما هو شرّ،لأن الوجود كيفما كانت صورته فهو عذاب وألم، وإذا الإنسان لم يتغلب على آلامه الدنيوية فعليه أن يهجر كل ملذاتها. ولكن هل ينتهي بالموت الجسدي كل ألم أو عذاب؟؟. .

تُعرِّف البوذية الموت بأنه «نهاية مؤقتة لظاهرة مؤقتة»، وأنه ليس إفناء كاملاً للإنسان، والبوذي المؤمن يعدّ الوفاة حادثة وقتية وهي مرحلة انتقال بين حياتين.

ويعود سبب التقمصات الحديثة إلى التعلق بالحياة الدنيا، أما التوقف عن التناسخ فمقتصر على كل من يتحمل كافة الآلام برضى واستكانة، ويقطع كل صلاته بالحياة الدنيا، ويتخلى عن كل رغباته وأهوائه لكن بوذا يقول: إن الحياة في وجود مستمر، وإن الأرواح في تناسخ مستمر إلى ما لا نهاية. . .

(ب) **الروحانية في البوذية**: لم تتعرض تعاليم بوذا للألوهية من قريب أو من بعيد، لا بالنفي ولا بالتأكيد، وكانت فكرته عن الدين خُلُقِيَّة صرْفة، تقتصر على سلوك الناس دون اهتمام بالطقوس الدينية وشعائر العبادة أو باللاهوت وما وراء الطبيعة، حتى ساءت علاقته مع رجال الدين. . ورفض بوذا نظام الطبَقية، ومبدأ التضحية في سبيل الآلهة، وآمن بوذا بمبدأ التقمص كطريق لتحقيق النيرفانا والحصول على السعادة الكلية بعد الموت. وقد اهتمت البوذية ببث

التعاليم الخلقية، فحثّت على طهارة النفس وتجنّب الشر، واتباع السلوك الحسن، والحياة النظيفة وحب الخير وانكار الذات، وقد عارضت السحر والخرافات التي كانت جزءاً من بعض الديانات الهندية القديمة. . .

لم يكن بوذا إلهاً ولم يدّع الألوهية، حتى أنه لم توجد أية آلهة في الديانة البوذية، ولكن الناس في الهند اتخذوا من بوذا إلهاً بعد موته. . وأخذوا يعبدونه، ويقيمون له الهياكل والتماثيل الضخمة، كالتمثال الذهبي في بانكوك (شكل 25)، الذي يعترف النسّاك بذنوبهم أمامه. وقد زعم بعض الكهنة ألوهية بوذا، وقالوا: إن الإله الأعظم تجسّد فيه ليخلّص العالم من خطاياه، ويمنح الغبطة للحزانى. والراحة للمتعبين، مع أن بوذا نفسه كان يوصي أتباعه قائلاً:

«لا تؤمنوا بي كممثل لله على الأرض، ولا تعتبروني إلٰهاً، فإنما أنا إنسان مثلكم أنشد الحقيقة الأبدية فإذا كان كلامي موافقاً للعقل والمنطق فاتبعوني». يقول بعض المؤرخين إن بوذا أنكر وجود إله قد أنشأ الأكوان. بينما يقول آخرون إن جميع أتباع بوذا ومنتحلي ملته كانوا يؤمنون بقوة مسيطرة على العالم. وإجمالاً نقول إن البوذية لم تهتم بالبحث عما وراء الطبيعة من حيث وجود الخالق والروح والملائكة. ويعترف بوذا نفسه بأنه لا يدري عن الإله شيئاً. ولم يحاول قط أن يخوض فيه، وقد أنكر الصلاة، وأكدّ عدم جدواها. . .

5 ـ الرذيلة في البوذية:

إن طريق الفضيلة هو طريق الخلاص من الآلام والشقاء، ومن الأنانية والشهوات، وهو سلوك الصراط المستقيم، أي اتباع الطريق النبيل بفروعه الثمانية. أما الرذيلة عندهم فمنشؤها اللذات والانهماك فيها وما تدعو إليه، وترجع الرذائل إلى أصول ثلاثة:

1 ـ الاستسلام للملذات الذي يجعل الحياة كلها في ألم مستمر وشقاء دائم.

2 ـ سوء النية في طلب الأشياء، الذي يولّد الغش والكذب والنميمة، من

أجل الوصول إلى تحقيق الغرض الفاسد الذي يمكّن اللذّة في القلب واستيلائه عليه.

3 ـ الغباء، وعدم إدراك الأمور على الوجه الصحيح، وهذا ناجم عن سيطرة الشهوات على النفس، حتى أن العقل لم يعد يرى إلاّ ما تعكسه الشهوات عليه...

وتنص كتب البوذية على عشر رذائل، جاء النهي عنها على شكل وصايا.

6 ـ الوصايا العشر البوذية:

1 ـ لا تقتل أحداً. 2 ـ لا تسرق، ولا تغتصب، ولا تأخذ ما لم تُعْطَ. 3 ـ لا تكذب. 4 ـ لا تشرب خمراً، ولا تتناول مسكراً. 5 ـ لا تزنِ، ولا تخالف العفّة. 6 ـ لا تأكل طعاماً نضج قبل أوانه. 7 ـ لا تتخذ طيباً، ولا تكلل رأسك بالزهر. 8 ـ لا ترقص، ولا تحضر مرقصاً، ولا حفل غناء. 9 ـ لا تقتن فراشاً وثيراً، ولا أرائك فخمة، ولا وسائد، ولا حشايا وثيرة. 10 ـ لا تأخذ ذهباً ولا فضة...

هذه الوصايا التي يأخذ بها البوذي حتى يروّض إرادته على ترك الملذات، والعكوف على المجاهدة وتهذيب الذات، وتخفيف ويلات الحياة، وعدم الإقدام على أن يملك شيئاً، وأن لا يقتني شيئاً فهو يطلب طعامه يوماً بعد يوم، ولا يدّخر من يومه إلى غده، ويصرف ما في الجيب حتى يأتيه ما في الغيب...

7 ـ الكتب المقدسة عند البوذيين:

هي كتب ليست منزلة، ولا يدّعون تنزيلها، ولا ينسبون ما جاء فيها إلى وحي أو جانب إلهي، بل هي عبارات منسوبة إلى بوذا قولاً أو فعلاً، أو نقل ما أقرّه أتباعه من أقوال وأفعال..

وتختلف نصوص كتبهم بسبب انقسامهم في نِحَلِهم، وقد تفرقوا إلى فرقتين. وهم:

1 ـ أهل المذهب الشمالي «المهايانا»: وتعني العجلة الكبيرة. وقد دوِّنت كتبهم باللغة السنسكريتية، وانتشرت انتشاراً كبيراً، عدلت فيها البوذية القديمة، وجعلتها قريبة من فهم معتنقيها وأساس هذه العقيدة المهايانية: أنها تمثل كائناً سامياً خالداً، أي تمثل «بوذا مطلقاً» يظهر في القديسين في أجيال مختلفة، وانتشرت في الصين في القرن الرابع والخامس بعد الميلاد. كما انتشرت في اليابان والتيبت والنيبال وغيرها.

2 ـ أهل المذهب الجنوبي «الهينايانا»: وتعني العجلة الصغيرة. وقد دوِّنت تعاليم بوذا في اللغة البالِّية القديمة، وسمي الشرع باسمها: «الشرع البالي». كما وصفه بوذا.. وتعد هذه النصوص الأصح نسباً والأصدق قولاً، والأكثر بعداً عن الأوهام، وتنتشر في الهند ـ الصينية وسريلانكا وغيرها.. وتأتي الكتب البوذية إجمالاً في ثلاثة مجموعات هي:

(أ) الكتب التي تشتمل على مجموعة قوانين البوذية، ومسالكها ونظامها، وقد جمعت سنة (350 ق.م) وهي ثلاثة أقسام. أولها: يتضمن العقوبة المفروضة على البوذي لما يقترفه من ذنوب ومخالفات وفيه 127 فقرة. ثانيها: يتضمن التعليمات الواجب اتباعها لتربية النفس على ما يدعو إليه البوذيون، وفيه قرارات المجالس البوذية المنعقدة في ما بين سنتي (380-320 ق. م). ثالثها: يتضمن خلاصة القسمين السابقين ليكون في متناول الناس، وفيه خلاصته للسلوك القويم الذي يدعو إليه البوذيون.

(ب) الكتب التي تشمل على مجموعة الخطب التي ألقاها بوذا ووصاياه. ومجموعة من الأحاديث والقصص والأشعار والأمثال، مكتوبة في لغة سهلة توضح التعاليم البوذية، وفيها الحقائق الأربعة والمبادىء الثمان...

(جـ) الكتاب الذي يحتوي بيان أصل المذهب والفكرة التي نبع منها، والفلسفة التي قامت عليها الديانة البوذية، والأصل الذي استُنبِطت منه تعاليمها، وفيه بحوث تدور حول الخير والشر، واللذة والألم، فهو كتاب الشرع والتعليقات التي وضعها العلماء البوذيون.

وقد ترجمت هذه الكتب إلى اللغات الحية. لما فيها من كلمات غنية بمعاني الأخلاق والسلوك القويم وهي تقدم دليلاً مرشداً في كل نواحي النشاط الفكري والخلقي والروحي..

8 ـ فروع البوذية:

بالرغم من صعوبة اتباع تعاليم بوذا، فقد انتشرت في معظم آسيا. وبعد وفاة بوذا سنة (483 ق.م) انقسمت البوذية إلى فرعين:

(أ) هينايانا **Hinaiana** أو العجلة الصغيرة، وقد اتخذت مركزها في سريلانكا، كما انتشرت في الجنوب في بورما، وسيام ولاوس كبوديا، وغيرها.. ويرتدي كهنتها ثوباً أصفر اللون، ويحلقون رؤوسهم وعليهم الالتزام بعدد من القواعد الكهنوتية شديدة التعقيد. مثلاً: لا يُسمح لهم تناول أي طعام بعد منتصف النهار، ولا يسمح لهم بحمل أي نقود أو ملكية، وهي أصفى أشكال البوذية. وأتباعها يعتبرون أن بوذا ليس إلا مجرد رجل وضع بعض القواعد للسلوك، وهو ليس إلٰهاً يُعبد. ولا تزال توجد في سريلانكا أشهر آثار بوذا وهو إحدى أسنانه...

(ب) ماهايانا **Mahaiana**: أو العجلة الكبيرة، وانتشرت في الشمال نحو منغوليا والتيبت والصين واليابان وجاوه وسومطرة وغيرها.. وهي شكل منحرف للبوذية، وأتباعها يعتبرون بوذا إلٰهاً. ويعبُدون الروح التي أُلهمت بوذا، وهم يؤمنون بالملائكة والشياطين، وتؤمن بعض طوائفهم بوجود الجنة والجحيم، وأنه لا بد من مرور الروح بهما قبل أن تصل مرتبة «النيرفانا» وتعددت المذاهب البوذية عند أهل الشمال مثل مذهب «اللاّما» في التيبت، وكهنة «الزن» في اليابان..

9 ـ المذاهب البوذية:

(أ) مذهب اللامية: كان من معتقدات أهل التيبت الأسطورية قبل دخول البوذية إليهم أن جدهم «ملك القرود» الذي ورثوا عنه الحنوّ والذكاء والإخلاص. وأن جدتهم «الغول» التي ورثوا عنها القساوة والشهوة وروح

التجارة والجندية وأكل اللحوم. . وأن لديهم طبقة من الكهنة يغلب فيهم الدهاء والرياء مع غشاء من الديانة البوذية، ومن تحته الخرافات الوثنية مع شيء من اللاميّة الخاصة في بلاد التيبت. واللامية فرع من الديانة البوذية انتشرت في مناطق التيبت ومنغوليا، منذ القرن السابع الميلادي وتوطدت فيها في القرن الثامن على يد الراهبين البوذيين الهنديين وهما: سانتا راكستيا، وبادما سامبهابا، اللذيْن ساهما في نشر مبادىء البوذية في بلاد التيبت، ومن امتزاج البوذية بالمعتقدات المحلية نشأت اللامية.

وتعد اللامية ديانة مفتوحة للجميع لا تعترف بأي تمييز عرقي أو طبقي، وفيها مذهب مفصّل في «الخطايا العشر السود» وفي «الفضائل العشر البيض». ينظم جوانب حياة المؤمن، وتتوزع الخطايا إلى خطايا الجسد. ومنها القتل والفجور واستيلاء الإنسان على ما ليس له. وخطايا اللسان ومنها: الكذب والافتراء والهزء والتفوه بكلام السوء. وخطايا الوعي ومنها: الحسد والحقد والبدعة. تقابلها أشكال الجزاء الذي ينتظر المذنب. .

أما الفضائل: كالرحمة والإحسان والصدق والاعتدال والإيمان بالدين الحق، فتثاب بخير تناسخ بالخلاص الأخير «النيرفانا».

واللامية عدة طوائف منها: الطائفة الحمراء، وطائفة الزهر، والطائفة البيضاء، والطائفة الصفراء ولكل منها ميزات خاصة يميزها لون الثوب والطاقية والأشياء التي تزين معابدها عن المعابد الأخرى وتعد الطائفة الصفراء هي الأقوى وتتمتع بأكبر عدد من المؤيدين، وكانت قد تأسست في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي بوساطة: تسونغ خابا (1357-1419 م) وتحت قيادة حوارييه الاثنين: دالاي لاما في لهاسا، وباين فن. . وتعدّ مدينة «لهاسا» مركز ديانة أهل التيبت ويحجون إليها لكثرة ما فيها من الأديرة وبيوت العبادة البوذية، فيؤمها الحجاج من أقصى البلاد حتى منشوريا وهملايا. وأكثرهم يجيئون ملتمسين غفران خطاياهم من «بوذا الحي»، ويتوسلون إليه أن يُعِدَّ لهم تقمصاً سعيداً، ثم يعودون إلى بلادهم بالآثار المقدسة والذخائر المباركة كالأصنام الصغيرة ونحوها. . ولذلك كَثُر باعة هذه الأحجار هناك، وهم يخدعون البسطاء

بأنها من بقايا بوذا أو من أظافره أو عظامه أو من عصاه أو من بيته..

أما مدينة لهاسا و «أرض الإله» فهي واقعة في سهل على ارتفاع (4000 م) عن سطح البحر في بلاد التيبت، تحيط بها الجبال وهي مستديرة الشكل قطرها حوالي ميل واحد، وكان يحيط بها سور كبير بني في القرن السابع عشر الميلادي وقد تهدم عندما احتلها الصينيون عام (1726 م).

(ب) **البوذية في الصين**: انتقلت البوذية من الهند إلى الصين على يد المرسلين الهنود والحجاج الصينيين الذين ذهبوا إلى الهند وعادوا محمّلين بالرسالة البوذية.

وكانت قد دخلت الصين في سنة (76 م) في الفترة الأولى لأسرة «هان» الشرقية. ثم انتشرت في القرن الرابع وما بعده، عندما سافر راهب يدعى «فاشيان (337-422 م) من أسرة «جين» الشرقية باتجاه الغرب باحثاً عن التعاليم البوذية، وقد استغرق سفره مدة أربعة عشر عاماً، زار خلالها ثلاثين بلداً، منها الهند وسيريلانكا.. وكان أول راهب صيني يدرس في الهند، وعاد مصطحباً معه عدداً جيداً من مختارات الأدب البوذي المكتوب بالسنسكريتية، ثم تبعه بعد ذلك عدد كبير من الرهبان لدراسة البوذية في الهند بينما كان المبشرون الهنود من البوذيين يتوجهون إلى الصين لنشر البوذية فيها.. ولكنها بعد أن استوطنت في الصين طرأ عليها بعض التبديل والتغيير وكانت قد تحولت إلى ديانة مادية..

فالبوذية الهندية: لا تؤمن بإله ولا إله لها ولكنها في الصين أخذت تميل إلى الاعتقاد بفكرة كائن مطلق يتمثل في شخصيات مختلفة وبوذا واحد منها. ومن أشهر الشخصيات عندهم «كوان بن» وهي عندهم إلٰهة الرحمة، يرفعون لها الابتهالات في المعابد البوذية. وأصبحت البوذية ديناً يدعو الناس إلى الإيمان الحق بآلهة تعين البشر في أعمالهم وتَعِدُهم بجنات ذات أزهار ورياض. كما أن فكرة النيرفانا زالت من بوذية الصين وحلّت محلها فكرة الفردوس المادية. وفيه تنعم النفس بالحديث مع الشخصيات الإلهية حتى أن البوذي نفسه لا يفقه شيئاً من معاني النيرفانا الهندية إلا أنه يعتقد أنّه سيذهب بعد الموت إلى فردوس في بلاد المغرب.. حتى الصلوات لا وجود لها في البوذية الهندية التي شرعها بوذا

نفسه. بينما هي ذائعة في البوذية الصينية. . وقد زاد التبادل الثقافي بين الصين ووسط آسيا وجنوبها بصورة مستمرة، فقد توجه في سنة (629 م) الراهب «ستيوان تصانغ» (602-664 م) من مدينة تشانفان «شيآن اليوم» إلى الهند، وبعد ست عشرة سنة عاد إلى مدينته بعد أن ترجم 1335 مجلداً وخمس وسبعون مجموعة حِكَم بوذية إلى اللغة الصينية.

واستمرت البوذية في الصين حتى بعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية التي عملت على احترام معتقد البوذية، وبدأ بترميم عدد كبير من المعابد والأبنية والآثار المقدسة للبوذيين وقامت بنسخ التعاليم البوذية والألواح الخشبية البوذية المنحوتة وأقامت التماثيل وكلها تحظى برعاية الدولة ورضاها. . وفي (1953 م) أنشئت الجمعية البوذية الصينية في بكين ومهمتها الرئيسية هي الاتحاد مع البوذيين في كل البلاد وإقامة الصلات بينهم وترتيب تعاليم البوذية. وثقافتها ودراستها. وزيادة روابط الصداقة بين البوذيين في الصين وأنحاء العالم. . . كما أقامت الجمعية الصينية البوذية علاقات وصِلات مهمة مع منظمات وشخصيات بوذية في أكثر من عشرين بلداً. وقد بعثت في كثير من المناسبات الوفود لحضور المؤتمرات البوذية العالمية وقامت بالاحتفال بالذكرى 2500 لميلاد بوذا وحضور مؤتمر السلام للدوائر الدينية في اليابان وغير ذلك.

(ج) البوذية الزينية في اليابان Zen: تعني كلمة «زين» في اليابانية، التأمل والتركيز، وهي إحدى الفرق الدينية التي خرجت من البوذية الصينية في القرن السادس الميلادي، وهي شكل معدّل منها. ظهر في الصين لمعارضة تقديس النصوص البوذية. . ويطرح أتباعها تجربة الإنسان الروحية الشخصية وتعد القدرة على الرؤيا المباشرة أحد المبادىء الأساسية في البوذية الزينية. وهي تعد «البوذا الأعظم» رمز الاستنارة الأبدية، التجسيد الشامل لكل الكائنات متمثلاً في أوضاع مجسّمة مختلفة. . وتوجد أشكال مختلفة من أخلاق البوذية الزينية. لكن هناك قواعد ثابتة بينها تعود إلى التعاليم الأخلاقية البوذية، منها: عدم إضمار الكراهية والحقد، والحفاظ على الطمأنينة النفسية والهدوء، والتخلي عن الرغبات، قهر قوة الأشياء بوصفها أموراً عابرة لا تستحق اهتمام الإنسان، والسعي

لبلوغ الحكمة السامية، حكمة منَ وقف على قانون الحياة، ونزع عنه كل قيود الوجود الفاني. لقد تفشّى وباء الجدري في اليابان عام (735 م) وقضى هذا الوباء على بعض أفراد الأسرة الحاكمة. وكان لا بد من استرضاء الآلهة وبخاصة بوذا وقديسيه، فهم الذين حلّوا محلّ الديانة الشنتوية القديمة وعبادة الأرواح. ولهذا قرر الامبراطور «شومو Shomo» (724-749 م) إقامة تمثال عملاق من البرونز للإله بوذا بعد أن نجحت فيها أكبر نجاح، حيث اعتنق اليابانيون البوذية من الامبراطور حتى العامل الفقير... وأقيمت التماثيل لبوذا وبُنيت المعابد الكبيرة.. كان دخول البوذية إلى اليابان بوساطة الراهب «جيان تشن» (688-763 م) من أسرة تانغ، عندما قدم من الصين بدعوة من بوذيي اليابان، ونجح في دعوته عندما رحل إلى جزيرة كيوشيو عام (753 م). وكان برفقته مهندسون وأطباء وفنانون يحملون معهم كتباً وأسفاراً ضخمة وأعمالاً فنية عديدة...

بدأ هذا الراهب بنشر المبادىء البوذية ويعلمها في مدينة «نارا» عاصمة اليابان حينذاك وكان لهم دور هام في إقامة التبادلات الثقافية بين الدولتين ـ الصين واليابان ـ.

وما زال معبد «توشوداي» في نارا الذي بني تحت اشرافه وإرشاده كما بُني، حتى يومنا هذا.

10 ـ بوذا Buddha (563-483 ق. م) سيد هارتاجوتاما Gautama:

(أ) نشأته وحياته:

ولد بوذا في عام (563 ق. م)، في نيبال من بلاد الهند على بعد 130كم شمال مدينة «بنارس» في بلدة تدعى «كابيلافوستا»، وكان أبوه «راجا» أي زعيماً لمقاطعة «ساكيا» في سهل الغانج، وهو من كبار الأغنياء. وقد دارت كثير من الأساطير حول شخصية بوذا، فقد زعموا أن أمّه بُشِّرت به في المنام، وأن ولادته سبقتها معجزات، وأن الإله حلّ فيه، وأن حياته أحيطت بالكثير من المعجزات والأساطير.

تربّى بوذا في جو من البذخ والترف، ولا يعرف شيئاً عن الفقر والبؤس، وقد توفرت له كل وسائل الحياة والمسرات في قصره وحدائقه الغنّاء وكانت أمّه «مايا» ابنة أحد الملوك المجاورين وعندما حملت به أمه أرادت أن تنتقل إلى مقر أبيها لتضع حملها حسب العادة في ذلك الزمان. ولكن المخاض فاجأها في الطريق، فوضعت طفلها في ظل بعض الأشجار في الغابة، ونشأ الطفل وترعرع في قصره وسط مباهج الحياة، وتوفرت له كل وسائل الحياة والمسرّات حتى أنه لم يكن يعرف في الدنيا غير ذلك.

ماتت أمّه وهو طفل صغير. ونشأ في قصر أبيه وقضى سنوات طفولته الأولى فيه حتى بلغ اثنتي عشر عاماً، وكان قوي البنية، فسمّوه «ساكيا» وتعني القوي. ثم عهد به والده إلى كبار الكهنة ليعلّموه أسرار الديانة البراهمية، اضافة إلى ما ينبغي أن يتعلمه أمير سيخلف أباه يوماً على العرش، وظهرت مواهبه العقلية والفكرية فلقّبوه «ساكيا الحكيم».

ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره، تزوج من ابنة عمه الجميلة الفاتنة «يازود هارا» وعاش معها حياة سعيدة، ولكنها كانت عاقراً، وبدأ الأمير يحس أول لدغات الألم والحرمان، فأخذ يسأل نفسه عن سر الحياة التي لا يستطيع أقوى الناس فيها أن يحصل على كل ما يريد، وأن يحقّق رغباته كلها. . بلغ بوذا التاسعة والعشرين من عمره، ولم يكن يعرف شيئاً عن آلام البشرية من فقر ومرض وشيخوخة. وكان يظن أن كل الناس يعيشون بمثل سعادته هو. . .

خرج ذات يوم من قصره العامر، بعربة متوجهاً إلى المدينة وسط الأحراش التي تحيط ببلدته مصطحباً معه تابعه «كانا»، فقابل لأول مرة في حياته شيخاً فانياً، أثقلت السنون كاهله وأحنت الأيام ظهره، فتأثر «جوتاما»، لمنظره منزعجاً، فهمس في أذنيه تابعه قائلاً: «هذه طريق الحياة يا مولاي». وبعد قليل، وهو في طريقه وقع نظره على متسوّل قد شوهه البرص، وهدّه الفقر والجوع والذّل، فهمس تابعه في أذنه مرة أخرى قائلاً: «هذه طريق الحياة يا سيدي». ثم وقع نظره على جثّة شخص عارية ملقاة على الطريق وقد جافت

ونتنت. فأسرع «كانا» يقول لسيده الذي كاد يُغمى عليه من هول ما رأى: «هذه هي نهاية الحياة يا سيدي». . .

هذه المناظر الثلاث جعلته حزيناً كئيباً لأنه اطلع لأول مرة على شقاء الناس وتفاهة الحياة، واصطدم لأول مرة بحقيقة كون العالم الذي يتضمن الآلام والمآسي الكثيرة.

ويقال بأن جوتاما شاهد هذه المناظر المؤلمة الثلاث في أحد الأحلام في أثناء نومه.

ولتوّه قرر بوذا محاولة اكتشاف المعاناة في هذا العالم، وكيفية التغلب عليها، فانسلّ خِلْسةً من قصره في الليلة نفسها، متوجهاً إلى الغابة حيث قضى عدة سنوات يدرس فيها على أيدي عدد من المعلّمين من نسّاك البراهمة الذين لقنوه كيف يؤدي تمرينات التأمل والتفكير والتقشف. ولكن لم يستطع أحد منهم أن يعلّمه الحكمة التي كان يبحث عنها، فقرر أن يسير منفرداً دون مساعدة أحد، وظل في حل وترحال محاولاً اكتشاف كنه الحياة والموت، والسعادة والشقاء حتى وصل إلى مكان في شمالي الهند يعرف باسم «بودجايا». حيث بقي جالساً تحت شجرة تين وارفة الظلال، سميت شجرة الحكمة، أو الشجرة المقدسة وقد أصبحت موضع تقديس عند البوذية واتخذوها لهم شعاراً. بقي تحتها بضعة أيام مستغرقاً في التأمل والبحث عن الحقيقة، إلى أن تكشّفت أمامه حكمة التنوير الرائعة التي أصبحت تعرف باسم «رسالة التنوير الكبرى».

وأشرق عليه نور الحق يُنبئه: أن شقاء الحياة وآلامها منبعث من رغبات النفس.

هذه هي التي يبحث عنها، والتي تعني وضع حدّ لآلام البشرية ومعاناتها، وأن الإنسان قادر أن يكون سيد رغباته وليس أسيراً لها. . .

(ب) هل كان بوذا نبياً؟؟

لم يدّع بوذا أنه رسول، أو نبي مرسل، بل كان ينهى أتباعه عن زعمهم

بأن الآلهة تتجسّد فيه. وكان يخبرهم أنه ليس إلاّ إنساناً عادياً يبحث عن الحقيقة وينشد للبشرية حياة أفضل خالية من الآلام والأحزان، وذلك عن طريق الأخلاق الفاضلة التي كانت عماد دعوته ومحور تعاليمه، حيث كان منذ البداية مصلحاً لا شارعاً.

كان بوذا عالماً وفيلسوفاً يفكر في أحوال الناس ومعيشتهم، وأسباب بؤسهم وشقائهم، وحاول الوصول إلى العلاج الحقيقي لإسعاد الإنسان ورفاهيته، وكان غرضه الحصول على السعادة من خلال السلام والحب، فهو يقول: «إن البغضاء لا تنتهي بالبغضاء، ولكنها تنتهي بالحب». فهو عندما قرر نبذ الحياة التي يعيشها، وتكريس نفسه بكل جوارحها للبحث عن الحقيقة، ترك قصره العامر وزوجته وطفله الرضيع بعد أن ألقى عليهما نظرة وداع أخيرة وهما نائمان، وخرج ولم يعد، واصطحب معه تابعه، وعندما وصل إلى شاطىء النهر، استلّ سيفه وقص شعره الطويل، وخلع ملابسه الوثيرة وحليه من الذهب والجواهر، وأعطاها لتابعه «كانا»، مقابل عودته، ليخبر زوجته وأهله بما استقر عليه رأيه، وتدثّر بقطعة من القماش الأصفر كما يلبس فلاحو عصره، وزهد في الحياة، مودّعاً الغِنى والترف، وبدأ بالصيام القاسي الذي استمر عدة سنوات. حتى أمات جسمه بكبْح الشهوات والتعذيب الذاتي، ولكنه أدرك أن تعذيب الجسم ما هو إلا قتْل وإضعاف للعقل دون أن يقرّبه من الحقيقة أو الحكمة التي ينشدها. فهو لم يجد السلام والسعادة الروحية في تعذيب جسده، لذلك عاد يأكل ويشرب كغيره من الناس، فانفض أتباعه من حوله، وبسبب هذا الانقلاب في حياته، وعاد وحيداً بعيداً عن كل أصحابه ومريديه الذين هجروه... وبدأ بالتفكير والتأمل العميق وهو جالس تحت شجرة الحكمة، يكافح الشك والوحدة، بين الفيافي والقفار والغابات... وإذا بسكينة وهدوء عظيم يهبطان عليه ويغمران قلبه... إنها لحظة (الإشراق).

لقد أيقن بعدها أن كل ما تعلّمه على أيدي الكهنة باطل لا أصل له... وأن هناك حقيقة كبرى خَفِيَت عنهم وعنه. وأيقن بطلان كل ما لقّنوه له من أن «براهما» هو الذي خلق العالم، وأنه هو الروح الأعظم والثالوث المقدس

«الخالق، والحافظ، والمدمّر». وأيقن أن العالم أزلي قديم لا أول له، ولا يمكن أن تكون له نهاية. كما أيقن أن الآلهة التي يعبدها قومه لا تملك القوة لتغيير قوانين الطبيعة التي لا تؤثر فيها الصلوات والقرابين، ولذلك فلا داعي لعبادتها أو تقديسها، وأن الفيدا وكتب الهند التي يقدسونها ليست مقدسة، وأيقن كذلك أن تقسيم البشر إلى طبقات أربعة هو تقسيم خاطىء، لا عدالة فيه، فالناس إما أخيار وإما أشرار، وليس الخير والشر بتفاوت الطبقات وعندما وصل إلى هذه اليقينات أصبح «بوذا» ومعناها المستنير أو المهدي. . .

وقد خُلِعَت عليه ألقاب عديدة بعد ذلك منها: العاقل، السيد، المعلم، الفاتح، القديس، سيد العالم، الواحد الأحد. . . وكثيراً ما كان يصفه «جواهر لآل نهرو» بأنه: ابن الهند الأعظم وعندما بدأ ينشر دعوته في مدينة «بنارس» وما حولها. التف حوله خمسة من المريدين، صحبوه طوال حياته. وراح يبشر بتعاليمه التي تتلخص في أن الاعتدال أو «الطريق الوسط» هو وحده طريق الخلاص من الآلام البشرية، فلا اغراق في الملذات والشهوات، ولا أسراف في تعذيب الجسد والروح بالجلوس على المسامير، أو النوم على شظايا الزجاج كما يفعل بعض الكهنة وفقراء الهنود. . . قال بوذا: «من يستطيع الادراك أن جميع المخلوقات تفنى، فقد تحرر من الشعور بالألم». لقد آمن به الحواريون الخمسة، وأرسلهم يبشرون الناس، وأوصاهم قائلاً: «إني متحرر من كل القيود البشرية والإلهية، فكونوا أنتم كذلك، سيروا من مكان إلى مكان رحمة للناس، ونعمة على البائسين، وخدمة للآلهة، ولا يقيم اثنان منكم في مكان واحد». هكذا كانت دعوته لصحبه وأتباعه. يقول بوذا: «إن من يستطيع أن يقطع كل صلة بما عـداه، وأن يتغلب على جميع الاغراءات، وأن يرفض استجابة جميع الرغبات لهو أعظم الرجال».

ومن أقواله أيضاً: «ينبغي على الإنسان أن يعيش على الأرض كالنحلة التي تحط على الزهرة فلا تؤذي لونها، ولا رائحتها، ثم تطير محمّلة بالرحيق».

هكذا أقام بوذا فلسفته الأخلاقية التي دعمها بمظهر ديني يقوم على أركان

ثمانية (مرت معنا). وقد ركّز على المبادىء الفاضلة الخمسة الأساسية في البوذية. لا تقتل لا تزن. لا تسرق، لا تكذب، لا تشرب مسكراً... هذا هو بوذا.. وهذه تعاليمه ومبادئه الخلقية الفاضلة، وقد كان له أثر كبير في كل بلاد آسيا الجنوبية والشرقية، وليس ثمة رجل أقوى منه في تلك البلاد.

ولم يعرف التاريخ أميراً غيره تنازل عن مباهج الحياة وملذاتها، وعن عزها وسلطانها وجاهها وعاش متسولاً يبكي آلام البشرية ومشاكلها محاولاً إنقاذها منها وإسعادها.

يقول بوذا: «أن كل من يحيِّ كبار السن ويحترمهم تطول حياته وتزداد سعادته قوته وجماله» فهل طالت حياته؟؟ مات بوذا وهو في الثمانين من عمره، وأُحرِقَ جسده بعد موته بثمانية أيام»... ومن حكمه أنه قال: «كما أنه لا فرق بين جسم الأمير وجسم المتسوّل الفقير. كذلك لا فرق بين روحيهما. وكل منهما أهل لإدراك الحقيقة، والانتفاع بها، وتخليص نفسه». فما رأي بوذا بالنساء؟ عندما كان على فراش الموت سأله «أناندا» أحد تلاميذه هذا السؤال: كيف نتصرف أيها السيد مع النساء؟؟

أجاب بوذا: «لا تروهن ولا تحدّثونهن يا أناندا» وتابع قوله: «وإذا تحدثت إليكم واحدة منهن، لا تكترث ولا تلْقِ بالاً إلى ما تقول يا أناندا».

لقد عاش بوذا عظيماً، ومات عظيماً، وتبلّغ رسالته مئات من ملايين البشر، ولم يزل خالداً بينهم إلى الأبد....

الفصل الخامس
الإصلاح الدِّيني في الهند

1 ـ تمهيد :

تعدّدت الديانات في الهند بتعدد اللغات وتعدد الأقوام والشعوب. ففيها أكثر من ثمانين ديانة ومذهباً. وتنتشر فوق أرضها الآلاف من المعابد أو الهياكل. وفيها الملايين من السحرة والمشعوذين، ومن البقر السائب، والأفاعي الراقصة المتنوعة، وفيها مئات الأطنان من البخّور والبهار، وغير ذلك من الأمور التي لا تُصدق وقد بلغ عدد الهنود اليوم حوالي 800 مليوناً من البشر. وقد ظهر فيهم بعض المصلحين الذين قاموا بإصلاح وتعديل الديانات الكبرى، ومن بينهم السيخ، فمن هم السيخ؟ وما هي معتقداتهم؟...

2 ـ السيخ :

من أقل الفئات البشرية انتشاراً أو توزيعاً. وهم آخر العقائد التي ظهرت في الهند وأحدثهم، ولا يصل تاريخ وجودهم إلى 500 سنة. وهم أقل العقائد أتباعاً في الهند يتراوح عددهم بين 15-20 مليون نسمة يعيش معظمهم في إقليم البنجاب وفي منطقة هاريانا وفي دلهي أيضاً، وتوجد منهم أقليات في ماليزيا، وسنغافورة وفي شرق إفريقيا وفي أطراف الخليج العربي كما توجد أقليات أخرى في الولايات المتحدة وانكلترا وكندا. والسيخ في الأصل هم فرع من الهندوسية البرهمية، وعندما وصل الإسلام إلى الهند آمن به عدد كبير من الهنود. وبدأ

المصلحون الهندوس يدرسون الإسلام الذي يدعو إلى عبادة الإله الواحد فحاولوا إدخال التوحيد في عقيدتهم البرهمية فظهرت مذاهب جديدة جاء بها المصلحون من أمثال: ناناك، كبير، ديانندا، وغيرهم..

3 ـ العقيدة عند السيخ: «القواعد الخمسة»:

تتلخص عقيدتهم في مبدأين هما: وحدة الله، وأخوّة الناس ومساواتهم، فالله عند السيخ واحد أحد، والناس عندهم متآخون جميعاً، بل الأديان جميعها دين واحد. وقد تأثر دينهم بالهندوسية، وأخذ منها فكرة التقمص، والنيرفانا، ووحدة الكون، ورفض ناناك فكرة التزهد والرهبنة عند الهندوس، كما نبذ فكرة الحج والاغتسال في الأنهار المقدسة والتسوّل والبطالة، واستنكر التركيب الطبقي بين الناس. وأخذ من الدين الإسلامي فكرة التوحيد توحيداً مطلقاً خالصاً تاماً. كما أخذ منه فكرة الإله وصفاته، فالإله رحمن رحيم محبٌ لعباده هادم الآلام يحب الفقراء ويعطف عليهم، كما أخذ أيضاً بعض النواحي الأخلاقية فنهى عن قتل الأولاد، وعن دفن الزوجات مع أزواجهم، وعن زواج الأولاد ممّن هم دون سن البلوغ ولتطبيق العقيدة عند السيخ فهم يضعون لدينهم خمسة أركان هي:

1 ـ الكيسا Kesa: أي أن رجل السيخ لا يقصّ شعره أبداً مهما طال، ولا يمسّ شعرةً منه بمقصّ، حتى أنهم يلفّون شعر رؤوسهم تحت عمامةٍ يتميزون بها. حتى الأطفال في المدارس لا يقصّون شعرهم. اقتداءً بشمشون الجبار الذي اشتهر بقدرته في شعر رأسه.

2 ـ الكانغا Kanga: وهي الضفائر المجدولة فوق الرأس تعويضاً عن المشط. ليكونوا على أهبة الاستعداد للنجدة..

3 ـ الكاتش Katch: وهي السراويل البيضاء القصيرة تحت الملابس. بخلاف عادة الهنود الذين لا يلبسونها ويكتفون بلبس السراويل البيضاء الطويلة...

4 ـ الكارا Kara: وهي السوار الفولاذي في اليد اليمنى. على أساس أنه يذكّرهم بالله ويبعد الشيطان.

5 ـ الكابريان Kaberian: وهو السيف ذو الحدين الذي يحملونه معهم دائماً..

ومن شعائر وطقوس المذهب السيخي: تحريم الخمر والتدخين. والنهوض باكراً. وأخذ حمام بارد.

إضافة إلىٰ أنهم يطلقون شعر الرأس واللحية. ويمشطون شعرهم مرتين كل يوم، ولهم كتاب مقدس يحفظونه في معبدهم الذهبي في «أمريتسار» مركزهم الرئيسي. وقد اعتادوا على قراءته يومياً. وأن يحملوا منه نسخة في مقدمة الجيوش المحاربة، ومن عبادتهم التأمل في اسم الله. والصلوات في الصباح والمساء، وتلاوة بعض الأقوال المأثورة. وقد سمح لهم ناناك أكل اللحوم شرط أن يُذْبَح الحيوان ضربة واحدة من سيفٍ حاد..

4«أمريتسار» عاصمة السيخ:

ومعناها بركة الخُلْد، وهي بقعة من الأرض منحها السلطان «أكبر» لأحد زعماء السيخ وهو الغورو. «رام داس» عام (1577 م). قامت فيها مدينة أمر تيسار العظيمة. وأقيم فيها «المعبد الذهبي» وهو المكان المقدس الذي يحجّ إليه السيخ وهو من أجمل معابد الهند ومن أروع المباني في العالم. يأتي إليه السيخ لتقديم الصلوات «لصاحب المواهب» المقدس والكتاب الموضوع فوق المذبح الكبير..

وتقع أمر تيسار في البنجاب الهندية الشرقية، أما القسم الغربي من بنجاب فمعظم سكانه من المسلمين وقد ضم إلى باكستان مؤخراً...

5 ـ مؤسس ديانة السيخ «ناناك»: (1469-1539 م):

يعتقد السيخ أن «ناناك» هو مؤسس مذهبهم، وهو في الأصل هندوسي..

ناناك: ولد ناناك عام (1469 م) في مدينة «تالوندي»، بإقليم لاهور بالهند من أصل هندوسي وتوفي عام (1539 م). . وقد نشأ في عائلة متوسطة فقيرة، وأراد والده أن يجعل منه رجلاً ثرياً عن طريق التجارة، لكنه أبىٰ ذلك، وألقى بثروته وماله إلى الفقراء. كان متميزاً في طفولته بخاصة فردية، كان يحب العزلة والتأمل في الكون فعدّوه مريضاً نفسياً، ولكنه تفوق على غيره. وقد عمل محاسباً في ديوان «سلطان بور» وتصادق مع أحد المسلمين، وعمل خادماً عند شريف من شرفاء المسلمين، وكوّن مع صديقه «ماردانا» فرقة إنشاد دينية، فكان ناناك يؤلف الأناشيد الصوفية، ويقوم ماردانا بتلحينها، ثم أسّسا مطعماً تعاونياً مسلماً ـ هندوسياً لمختلف الطبقات من أبناء البشر لينشر المحبة بينهم. ولمّا بلغ الخامسة والثلاثين من عمره زعم أن الله تجلّى عليه في «سلطان بور» فقد رأى رؤيا كأن يداً تمدّ إليه بكوزٍ من الماء، وكأن أبواب الجنة فُتِحَت له وأن صوتاً يناديه قائلاً: «اذهب وردد إسمي، واجعل الناس يرددونه، ثابر على الصراط المستقيم في الاسم والصدقات والطهارة وذلك خدمة لي ولاسمي ولذكراي».
لذلك كان يقول لأبيه «يا أبي أنا مُلْهمٌ من الرب وعليّ تأدية الأمانة». حمل ناناك هذا القول وسار به يدعو الناس إلى دين جديد، وقد اختفى مدة ثلاثة أيام كان يستحم في النهر. ثم ظهر معلناً أنه: «لاهندوس ولا مسلمين». لقد اهتدى إلى الدين الصحيح وأصبح «غورو» أي معلّم العقيدة الجديدة. وبدأ يبشر بها بين الناس وينتقل من مكان إلى آخر حتى يقال أنه بلغ مكة المكرمة. لقد رفض «ناناك» كل ما تراكم على الهندوسية من وثنيّات، ورفض تعدد الآلهة وكثرة الخرافات الموروثة عندهم ودعا إلى عقيدة توحيديّة تتصف بالبساطة والنظام.
وتقول بعبادة الإله الواحد وتأثر بالمظهر العلمي للمساواة بين المسلمين فثار ضد الهندوسية ورجال الدين من البراهمة فكان دينه الجديد الذي يجمع بين الهندوسية والإسلام. هو دين السيخ الذي يدعو إلى وحدة الله وعبادته. ويقوم هذا الدين على مفهوم الفيدا الهندوسي، وهو مفهوم روحي صوفي يرمز إلى الله وقد أضاف إليه المعلم ناناك صفات الوحدانية والخلق فصار هو الرمز الواحد «أوم كار» أي الله الواحد القهار وهو الحق وهو الخالد الذي لا تدركه الأبصار. .

وأصبح السيخ يستخدمون أسماء إسلامية وهندية للإله وأصبحت كلمة «هايل غورو» الكلمة المرادفة لاسم الله من بعد المعلم ناناك وهو المعلم الأول. وقد توالى بعده تسعة معلمين كان أولهم «آنغاددين» حمل كل واحد منهم لقب غورو Goro أي المعلم. ويعدُّ كل واحد منهم عند السيخ ظل وراء ظل الله وتنتقل الروح من أحدهم إلى الآخر انتقال النور. وتنسب إليهم المعجزات والقوى الخارقة.. وفي موقع كل معجزة حصلت معبد يُبنى ورهبان يُصلّون وذهب يُغطي القباب..

أما قصص الخوارق فتحولت أناشيد للألوهية، والمعابد لا حصر لها وكان أولها المعبد الذهبي في مدينة «أمريتسـار». وقد جمع المعلم الخامس «أرجان» أقوال ناناك وعظاته، وأشعار «كبير» و«أماناند» في كتاب واحد سمّاه (صاحب المواهب). الذي أصبح الكتاب المقدس لأتباع ناناك الذين سمّوا أنفسهم بالسّيخ أي المريدين. وقد قُتِل الغورو العاشر «هارغوبند» سنة (1708 م) في «مهاراشترا» بعد أن أعلن أنّه خاتم المعلمين، إلا أن بعض الفرق من السيخ لا يقبلون ذلك ويعتقدون أن لديهم دائماً غورو ـ معلم ـ حيّ موجود. ومن الذين قاموا ببعض الإصلاحات الدينية في الهند الشاعر الهندي: كبير، ديانانداً...

6 ـ المصلح الديني كبير: (1440-1518 م):

ولد «كبير» يتيماً من أبيه، وواجهت أمّه الفقر واليتم، فوضعته في سلة فوق سطح الماء حتى مرّ به رجل مسلم يعمل نسّاجا اسمه «نيرو» ومعه زوجته «تيما» واتخذاه ولداً لهما وسمّياه «كبير». أرسل النسّاج ابنه كبير إلى أفضل المدارس والمعلمين في «بنارس» لتربيته أحسن تربية. وقد تعلم أصول الدين الإسلامي والبرهمي، واستمروا في دراسته، وتعلم النسيج حتى أصبح نساجاً بارعاً، وعالماً حاذقاً، وأباً صالحاً، وشاعراً عظيماً، ملأت شهرته الآفاق فقد وُلد برهمياً ونشأ نشأة إسلامية...

كان يدعو في شعره دائماً إلى التوحيد، وعبادة الله وحده، فقد كان في

الأصل مسلماً ولكنه تتلمذ على يد هندوسي، وقد تعلم الكثير عن الشاعر الهندي «رامانندا» الذي كان يدعو إلىٰ عبادة الإله الواحد. وقد دعا إلىٰ المساواة بين الناس جميعاً. وأنهم أخوة فلا فرق بين برهمي وكاهن وتاجر ومنبوذ. فالتف الناس حوله، وكثر أتباعه، وانتشرت أشعاره التي تحمل عقيدته الكاملة التي تدعوا إلىٰ التخلي عن التكبر والغرور ونبذ الطائفية، وهجر الأصنام وعبادتها، والإيمان بإله واحد لا شريك له. فقد قام بالتوفيق في العقيدة بين الهندوسيين والإسلام، وكان يعالج في شعرِهِ القضايا الدينية، فهو يقول في شِعرِه هذا النشيد على لسان الإله:

«يا عبدي، إلىٰ أين تذهب باحثاً عني؟ وأنا في جوارك، أنا لست في معبد ولا في جامع، ولست في شعائر ولا مواكب، إن كنت حقاً تطلبني وتريد لقائي فانظر إليّ فإنك ستراني..»

ومع ذلك فقد سخط عليه المسلمون لما في شِعرِه من مخالفات للإسلام، ولم يرضَ عنه الهندوس أيضاً لمخالفته عقيدتهم، ولذلك نُفي من موطنه «بنارس». وقضىٰ شطراً من حياته يتجول بين البلدان إلىٰ أن مات فجأة في «ماجهار» عام (1518 م)، وعمره (79) عاماً. وقد حضر وفاته تلاميذه من المسلمين والهندوس، وتنازع الطرفان جثته مدّعياً كل منهما أنه ينتمي إلىٰ دينه. حتى سمعوا منادياً يدعوهم إلىٰ رفع الغطاء عن الجثة، فلما رفعوا الغطاء، لم يجدوا الجثة، بل وجدوا مكانها كوماً من الزهور وأوراق الورد، فاقتسمها الطرفان ودفن المسلمون نصيبهم حسب شعائرهم الإسلامية. وحمل الهندوس نصيبهم إلى بنارس، وأحرقوه، ونثروا رماده في مياه الخانج المقدس.

وقد جمع أتباعه ومريدوه حِكَمَه وأشعاره في كتاب سمّوه «بيجاك».

ويعدّ هذا الكتاب المصدر الرئيسي لإصلاح الهندوسية وقيام مذهب السيخ. وقد بلغ أتباعه أكثر من مليون نسمة من الهنود..

7 ـ المصلح الديني ديانندا:

ظهر في الهند وهو من أصل هندوسي، رفض الأصنام وعبادتها ودرس

العقائد المختلفة ليبحث فيها عن حقيقة ما يؤمن به الناس وقد اختفى عن أهله والناس، يبحث عن معلم يهديه إلى حقيقة الدين، واجتمع بكثير من رجال الدين الهنود. ولكنه لم يقتنع بتعاليمهم ومعتقداتهم، حتى ذهب إلىٰ نهر الغانج المقدس، ليدرس مع الرجال المقدسين المجتمعين حول أقدس الأنهار، فالتقى بمن آمن منهم بنبذ الأصنام وعدم عبادتها، فآمن بهم، ودعا إلىٰ عبادة الإلٰه الواحد. وقد تفرغ لدراسة الإنجيل لمدة عامين. ودراسة تعاليم الراجا «راموهان» الذي لم يكن راضياً عن تعاليم البرهمية. . وحاول دمج بعض التعاليم المسيحية في العقيدة الهندوسية. آمن ديانانداً بالإلٰه الواحد وتخلّى عن عبادة الآلهة المتعددة ونبذ الطوائف حيث أنه ليست هناك طوائف بالوراثة أو الفطرة وآمن بأن من يتوب يغفر الله له خطاياه. ولكنه ظل مؤمناً بفكرة التجسد والنيرفانا كما بشرت بهما البراهمية عند الهندوس.

أسس مع رسالته ومريديه جمعية دينية سمّاها «آرياساماج» أي جمعية النبلاء. وحمل رسالته من بعده أتباعه، وانتشر أمرهم في أنحاء البلاد حتى زاد عددهم في الهند عن سبعين مليوناً من البشر.

8 ـ دولة السيخ (1792-1849 م):

عندما تولّى زعامة السيخ «كوفيندسينغ» صرف همه الديني إلىٰ تدريب أتباعه عسكرياً مدة عشرين عاماً في جبال الهملايا تعودوا حياة الخشونة والحروب. ثم نزل بهم إلىٰ البنجاب لملاقاة جيوش المسلمين هناك وقد هلك من أتباعه رجال السيخ الآلاف من المقاتلين. ولا يزال السيخ حتى الآن فخورين بتاريخهم كمقاتلين أشداء. وفي عام (1792 م) شكلت دولة السيخ بزعامة «رانجنغ» في النبجاب. الذي جند السيخ وأغار على لاهور وأمرتيسار واستولى عليهما وأقام في «أمريتسار» المعبد الذهبي، وجعلها مقراً له. وفي سنة (1809 م) عقد هدنة مع الإنكليز حدد فيها بلاده بنهر ستلج. رحّب الإنكليز بالصلح معه لأنه رجل قوي يستطيع أن يكون حاجزاً بين الإنكليز والأفغان الذين يشكلون خطراً على الوجود الإنكليزي في الهند. وتوثقت العلاقة بين السيخ

«رانجتسينغ» والإنكليز. وانضم السيخ إلى الإنكليز في حربهم ضد الأفغان عام (1838 م). وفي عام (1839 م) توفي الشيخ رانجت سنغ ويقال أنه عندما أحرقت جثته تبعه في النار أربع زوجات وسبع جواري وقد كانت عادة إحراق الأرامل موجودة رغم مخالفتها لتعاليم السيخ وبعد وفاته عادت الخلافات بين السيخ والانكليز، ووقعت حروب انتهت بزوال دولة السيخ عام (1849 م) وحين جرى تقسيم الهند فَضَّلَ السيخ الالتحاق بها...

وقد كان لهم شأن كبير في حياة الهند، وما يزالون، لما يتصفون به من شجاعة وإقدام، ولخطورتهم في الهند لأنهم يشكلون عنصراً هاماً وقوياً في الجيش الهندي. ولأن منطقة البنجاب هي منطقة إنتاج القمح لمعظم الهنود. وعلى أيديهم تم اغتيال رئيسة وزراء الهند السيدة (انديرا غاندي) عام (1985 م).

وما زال خطرهم يهدد بلاد الهند بالتقسيم، فهم يحاولون الإنفصال عن الهند وإعلان الاستقلال، وفي كل يوم لهم مشكلة جديدة مع الحكومة في البلاد.. وهم يرفعون شعارهم القائل: «بأنهم ليسوا خرافاً تعلّق من رقابها للشنق».

الباب السابع

الدّيانات في بلاد الصّين

تمهيـــد:

تعد الصين من أرقى بلاد العالم، وأقدمها في الفلسفة الإنسانية، والمذهبية الدينية، وقد ظهر فيها عدد من الفلاسفة والحكماء الذين قامت تعليماتهم وأفكارهم وفلسفتهم على السلوك القويم للإنسان، وقد عُرفت النفس الصينية بأنها أقدر النفوس على تحويل الفرضيات الخلقية إلى أخلاق عملية. . وقد تركز المجتمع الصيني على خليط عجيب من الدين والأخلاق والفلسفة، والصينيون من أكثر الشعوب تمسكاً بالخرافات، وأكثرها تشككاً، وأعظمها تُقى، وأبعدها تحرراً من سلطة رجال الدين. ولهذا امتزجت الفلسفة الصينية بالدين وتوافقت معه فقامت الفلسفة على الأخلاق الفاضلة، وتنظيم السلوك الإنساني وإصلاح الأخلاق العملية، بينما قام الدّين على الاشراك بالله والوثنية، وأخذ يدعو إلى حسن المعاملة بين الناس، فهو سلوك إنساني وفلسفة أخلاقية وتنظيم اجتماعي، ولذلك اتخذ الصينيون الأخلاق الفاضلة مذهباً في السلوك القويم وديناً تدعو إليه آلهتهم حسب اعتقادهم، وعملت فلسفتهم ودينهم على إقامة بنيان قوي من الأخلاق والسلوك الحسن وإن كان دينهم في عقائده وأسسه وشعائره لا يمت إلى الحق والمنطق بصلة، وقد بلغت الأخلاق عند الصينيين درجات من السمو والرفعة أدهشت العلماء عندما درسوها، واطّلعوا عليها،

وخاصة ما وجدوه عندهم من حكم ووصايا وآراء خلقية سامية موروثة، ولهذا ظن العلماء أن الصينيين لا بد وأنه قد بُعِثَ فيهم رُسل، وأخذوا يقارنون بين التوراة والكتب الصينية في الأخلاق والحكم والوصايا، وهذا أمر ممكن لأن الله سبحانه وتعالى لا يترك مثل هذه الجماعات البشريّة الكبيرة من غير رسول يهديهم أو يدعوهم إلى عبادة الله وحده، «وإن كان غير معروف أي رسول منهم»، وهذا لا يعني عدم وجود أنبياء أو رسل في تلك البلاد الرحبة، وأنهم لن يُترَكوا سُدى من غير هداية أو إرشاد. قال تعالى: ﴿**ورسُلاً قَدْ قصصْناهم عليك من قبلُ ورُسلاً لم نقصُصْهم عليك**﴾[1].

(1) سورة النساء، الآية: 164.

الفصل الأول

أولاً: الديانة الصينية القديمة:

قامت في الصين تعاليم دينية وثنية قديمة، قبل أن يظهر المصلحون الأخلاقيون، أمثال: «لاوتزو» «كونفوشيوس»، وقد عبدوا مظاهر الطبيعة، لأنهم خافوا منها، وعجزوا عن تفسيرها وقد كانت السماء والأرض في هذا الدين البدائي شطرين في وحدة كونية عظيمة، عملها الأساسي هو التكاثر والنمو، وكانت السماء التي تشمل كل المخلوقات وكل الأشياء هي الإله الأعظم في نظرهم، وقد اعتقد الصينيون القدماء بعبادة ثلاثة مظاهر هي:

عبادة السماء، عبادة قوى الطبيعة، وعبادة أرواح السلف.

1 - عبادة السماء:

عبد الصينيون القدماء السماء باعتبارها الإله الأعظم، وحاكم الحكّام ورب الأرباب. . ولا يقصدون بها القبّة الزرقاء المعروفة لنا، بل يقصدون بها الأفلاك ومداراتها، والقُوى المسيطرة عليها والتي تسيرها في مداراتها، وهم يعبدونها لاعتقادهم أنها عالم حيّ متحرك حسب نظام محكم ودقيق، وإن كل القوى المسيّرة في العالم، إنما هي خاضعة لسلطان السماء، التي لها السيطرة العليا على كل القوى والمادة والأشياء جميعها. . واعتقد كونفوشيوس أن السماء

قوة في الكون فيها قدرة أقوى من قدرة الإنسان تعمل على تحقيق العدل والحق، ولها من العطف والرحمة على الإنسان ما لها. فهي مثال للرحمة والعدل.. ويعتقد قدماء الصين بالقضاء والقدر، فهم يقولون أن كل الحوادث في السماء مقدرة ومعروفة، وقد اختص بعبادة السماء وتقديم القرابين لها ملكهم الأكبر.. ولذلك يطلق على امبراطور الصين «ابن السماء» حتى صار لكل ملك أو أمير الحق في عبادة السماء كالملك الأكبر، بينما لا يحق لعامة الصينيين ذلك.. ويعتقدون أنه يجب على الملك أن يحكم بين الناس بالعدل بأمر السماء، فإن خالف ذلك وقسا أو ظلم الرعية، سلّطت عليه السماء مِنْ رعيته مَنْ يخلعه أو يقتله، ومكّنت السماء لغيره من العادلين من يستولي على عرشه ويطرده. وقد قيل على لسان أحد ملوكهم كان قد انتصر على ملك من بيت (هشيا) كان قبله وقتله: «أعطى الإله لكل إنسان ضمير، إذا تبعه يحفظه ويقوده إلى الطريق السَّوي والإله دائماً يبارك الطيب ويعاقب السيء، ولذلك أنزل الإله المصائب على بيت «هشيا» كي يضع حداً لآلامه».

2 ـ عبادة قوى الطبيعة:

عبد الصينيون القوى المسيطرة على الأشياء الموكلة بها، فهم يعتقدون أن لكل شيء قوة تسيطر عليه وتسيّره، فللشمس قوة تسيّرها، وللقمر وللسحاب وللمطر والجبال والكواكب وكل الأشياء كذلك..

وتختلف عبادة الملوك لها عن عبادة عامة الناس، فالملوك يعبدون القوى الخاصة بكواكب السماء، وكل ما فيها، بينما يعبد الصينيون كل قوى الأرض وما يختص بها.. وكانت دوافع تلك العبادات: الخوف من خوارق الطبيعة، وتقديس ما على الأرض من صور رهيبة، وما فيها من قدرة على الإنتاج والتوالد..

3 ـ عبادة أرواح الأجداد:

من معتقدات القدماء الصينيين، أن أرواح الأموات تنفصل عنهم بعد

موتهم وتبقى في الدنيا مع أسرتهم، لذلك فهم يعبدون أرواح الآباء والأجداد تقديساً لهم ووفاء لعهودهم وشكراً لهم على ما أسدوا من نِعَم لأبنائهم، ويقدمون لهم القرابين، ومع ذلك لم يهتموا بإقامة قبور ضخمة لهؤلاء الأجداد كالمصريين. . يقول أحد المؤرخين: «إن الصين ليست مقبرة كمصر، ولكنها بيت كبير للأجداد». كما عبدوا أرواح كبار الحكماء والأبطال الوطنيين، وعبدوا أباطرتهم الذين كانوا بنظرهم مقدسين. . وعبد الصينيون بعض القوى السحرية الموجودة داخل المنزل «قبل باب البيت أو العتبة أو موقد المطبخ أو ساحة المنزل أو الحديقة». وغير ذلك. . وكانت العبادة عند الصينيين غناءً ورقصاً وموسيقى، وكأنهم يشركون آلهتهم معهم في أفراحهم وسرورهم وأغانيهم وموسيقاهم. . ولم يؤمنوا بالجنة ولا بالنار. . ولا بالثواب ولا بالعقاب. . وإذا لاحظ الصيني عدم استجابة الآلهة لدعائه شتمها وقذف بتماثيلها وصورها بعيداً، ولهم مقولة بهذا المعنى: «ليس بين صانعي التماثيل والصور من يعبد الآلهة، لأنهم يعرفون من أي مادة تصنع».

ومن معتقدات الصينيين القدماء، أن الأحداث الكونية تتبع الأخلاق التي تسود بين الناس، وملوكهم فكلما كان العدل والانسجام والتفاهم والفضيلة تسود بين الناس وتربط العلاقات بينهم برباط من المودة والمحبة والرحمة، فالكون يسير في فلكه من غير اضطراب يعيش الناس بسعادة وهناء، أما إذا حاد الإنسان عن جادة الحق وابتعد عن السلوك القويم، اضطرب الكون لمخالفة القانون الأخلاقي، ويُعِدُّون حدوث القحط والزلازل والدّمار، وكسوف الشمس، وخسوف القمر، دلالات على فساد خُلقي موجود بين الناس، أما السلوك الطيب فيجلب الخير والبركات ويجعل كل ما في الكون يجيء وفق رغبة الإنسان، وهم يعتقدون أن المؤثرات في الكون أمور ثلاثة هي:

السماء: ولها السلطان الأعلى. ثم الأرض: لأنها تقبل أحكام السماء. ثم الإنسان: بما يؤثره بإرادته، فإذا أراد الفضيلة وسلك سبيلها يجعل مظاهر الكون لخير الإنسان. . .

ثانياً: تقديم الأضاحي للآلهة القديمة:

كانت عباداتهم تقوم على تقديم الذبائح الخمس التي ترمز إلى العناصر الخمسة التي يرجع إليها أصل كل الموجودات وهي: المعدن ـ الخشب ـ الماء ـ النار ـ التراب.

وكان الصينيون يقدّمون الذبائح والقرابين حسب اعتقادهم على ثلاث مراتب وهي:

(أ) الذبائح العظمى:

وكانت تقدّم باسم السماء «تيان» Tian والأرض «تي» Te. والهياكل العظمى لأسلافهم، وفيها أسماء الأباطرة المتوفين من العائلة الحاكمة منقوشة على ألواح وباسم «شي تسي» إله الأرض والمزروعات..

(ب) الذبائح المتوسطة:

وكانت تقدم باسم الشمس والقمر وأرواح المتوفين من العائلات والتي حكمت قبل العائلة الحاكمة، وباسم كونفوشيوس وقدماء أصحاب الفلاحة والحرير وآلهة الأرض والسماء...

(جـ) الذبائح الدنيئة:

وكانت تقدم باسم المتوفين من أهل الإحسان والمصلحين وأرباب الشهرة، وباسم الرياح والأمطار والجبال والأنهار وغيرها...

الفصل الثاني

الكونفوشيوسيّة

مذهب يهتم بالدولة والعائلة فينظم شؤونها أخلاقياً. وسميت بذلك نسبة إلى «كونفوشيوس» المشرع والمصلح الديني الصيني الشهير (551-479 ق.م). وهي ليست ديانة بالمعنى المعروف، بل هي مجموعة تعاليم وآراء فلسفية إنسانية، يقوم أساسها على القواعد الأخلاقية، والفضائل الطبيعية التي تؤيدها البراهين الحسّية، وتؤكدها العواطف النفسية. وتستند إلى حكمة القدماء، ومبدأ المعاملة بالمثل. يقول كونفوشيوس: «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به».

ومن أقواله أيضاً في الفضيلة والأخلاق القويمة: «أن تتعاطف مع كل شيء وأن تحب كل الناس وأن لا تدع مجالاً لأفكارٍ أنانية ذلك هو الصلاح». ويقول كذلك: «إذا كلّفت إنساناً بعمل فثِقْ به، وإذا كنت لا تثق به فلا تكلّفه». ويقول أيضاً: «لا تحزنْ لجهل الناس بك، ولكن احزن لجهلك بهم». وكان يهدف إلى توصيل الحكمة القديمة كأساس لمبادئه وتعاليمه فيقول:

«إنني لا أعلّم شيئاً جديداً، وكل ما أفعله هو توصيل الحكمة القديمة».

وقد أدخلت التعاليم الكونفوشيوسيّة في برامج تعليم الشباب واستمرت تسيطر على العقلية الصينية من أول أسرة هان (206 ق. م ـ 220 م) حتى سقوط أسرة منشو الذي أطلقوا عليه اسم «أحكم الأساتذة الأقدمين» في عام 1657م.

1 ـ المبادىء الخلقية:

من مبادئها الخلقية إطاعة الوالدين، واحترام الأسرة، السلم بين الحكّام والرعية، والعدالة والرحمة بين الإنسان وأخيه الإنسان. فقد جاء فيها: «الأب درْع للإبن والإبن درع للأب، والعلاقة بين الإثنين يجب أن تكون قوية». وكان يسعى كونفوشيوس للابقاء على التقاليد في تعليماته التي تعد المجتمع نظاماً مقدساً يقوم على قواعد خمس تبين العلاقات الاجتماعية بين أنواع خمسة من الناس هي: 1 ـ علاقة الحاكم بالرعية. 2 ـ علاقة الزوج بزوجته. 3 ـ علاقة الوالد بولده. 4 ـ علاقة الأخ بأخيه. 5 ـ علاقة الصديق بصديقه...

فهو يقول: «أكرِمْ أباك وأمك وافعل كلّ ما تستطيعه لجعلهما سعيدَيْن، واعبد ذكراهما ما حييت» وكان يفرض كونفوشيوس في تعليماته وجوب الطاعة والولاء من غير مناقشة، وكان ينصح أتباعه بالابتعاد عن التفكير فيما وراء الطبيعة، وكنه الروح. وقد يوصل هذه الأفكار والتعليمات إلى أبناء شعبه بشكل تدريجي وباقناع بطيء وببساطة أخاذة مفهومة. ويحدد كونفوشيوس الرجل الفاضل في المجتمع فيقول: «إن القاعدة الأساسية التي تقوم عليها أخلاق الرجل الفاضل هي العطف الفيّاض على الناس جميعاً وهذا الرجل الأعلى لا يغضبه أن يسمو غيره من الناس فإذا رأى أفاضل الناس فكّر في أن يكون مثلهم وإذا رأى سَفَلَة الناس عاد إلى نفسه يتقصىٰ حقيقة أمره». ويقول أيضاً: «الرجل الفاضل لا يتحيّز ولا يتعصب» وعلى الرجل الأعلى أن يضع نصب عينيه أموراً تسعة يقلّبها في فكره ويحرص على اتباعها وسلوكها.

1 ـ من حيث عينيه، يحرص على أن يرى فيهما بوضوح.
2 ـ من حيث وجهه، يحرص على أن يكونِ بشوشاً ظريفاً.
3 ـ من حيث سلوكه يحرص على أن يكون وقوراً.
4 ـ من حيث حديثه يحرص على أن يكون صادقاً مخلصاً.
5 ـ وفي تصريف شؤون عمله يحرص على أن يبذل فيه كل عناية واهتمام.

6 ـ عليه أن يبثّ الإحترام فيمن معه.
7 ـ في الأمور التي يشكك فيها، يحرص على أن يسأل غيره من الناس.
8 ـ إذا غضب يفكر فيما يَجرّ عليه غضبه من الصعاب.
9 ـ إذا لاحت له المكاسب فكّر في العدل والاستقامة.

وفي كتابه (الحوار) يميّز كونفوشيوس بين الرجل الكامل الخلق والناقص الخلق ويقارن بينهما فيقول: «الرجل الكامل الخلق يطلب الفضيلة، والرجل الناقص الخلق يطلب اللذّة. والرجل الكامل يفكّر في اجتناب الرذيلة وأداء الواجب، والرجل الناقص يفكّر في كسب المنافع. والرجل الكامل واقف على البر، والرجل الناقص واقف على الريح». وقد تركزت مبادىء الكونفوشيوسية على فضيلتين اثنتين حسب رأي مؤسسها، وهي فضائل خالدة:

أولهما: آداب اللياقة، فهي تشمل آداب المجتمع وآداب البلاط والشعائر الدينية، ونظم العدالة وقواعد السلوك الحسن، والمبادىء الأخلاقية الرفيعة.

وثانيهما: العطف الإنساني، أي حب الآخرين وطيبة القلب وسلامة النية.

ويعتبر كونفوشيوس أن قواعد اللياقة وآداب السلوك أساسي لكل فضيلة، كما توجد فضائل أخرى كان يلقّنها لتلاميذه، مثل صدق الولاء والشعور بالخجل والتواضع والحكمة وحب الآخرين، ويقول: «إن الطبيعة الإنسانية مستقيمة فإذا فقد الإنسان هذه الاستقامة في حياته افتقد معها السعادة».

ويؤكد على عظمة الإنسان الصادق فيقول: «إن الإنسان هو الذي يجعل الصدق عظيماً، وليس الصدق هو الذي يجعل الإنسان عظيماً». ومن أهم القواعد الأخلاقية كذلك قولهم أن الإنسان مفطور على الخير عندهم، والإرادة الإنسانية لها الشأن الأول ولها أثر واضح في الأكوان ويعدّون آلهتهم عادلة، ولعدلها تجعل مشيئتها في الأكوان على حسب عمل الإنسان، إن عمل خيراً فخير، وإن شراً فشرّ... يقول كونفوشيوس: «إن الناس يولدون خيّـرين

متساوين بطبيعتهم، وكلما شبّوا اختلف الواحد منهم عن الآخر تدريجياً وفق ما يكسب من عادات».

فطريق الخير هو الاعتدال والاقتصاد في كل أفعال النفس وسجاياها وهم يعدّون أن القناعة مع الجد من غير استسلام فضيلة، وأن الرحمة والعدل مع المسيء فضيلة وغير ذلك. ويعدون أن أقصى الطرفين من إفراط أو تفريط رذيلة وإن الفضيلة طريق السعادة والرذيلة طريق الشقاء والويل لمن يخالف قوانين الأخلاق عندهم. فالآلهة تغضب عليه وترسل عليه شواظاً من نار فيكون الشقاء في مخالفة قانون الأخلاق والسعادة في اتباعها والموافقة عليها. . يقول في كتابه (الحوار): «لو أنني ارتكبت ما لا يليق، لغضبت عليّ السماء». ويرون أن الرحمة تربط أفراد المجتمع لبعضهم وتجعل الناس متحابين سعداء. وكل مجتمع سعيد تكون الرحمة هي الرابطة بين أفراده وليست الرحمة هي العفو المطلق أو التسامح المطلق، إن الرحمة التي تسبب السعادة هي الرفق بالمجموع ومحبتهم ومعاملة أهل السوء بما يستحقون وغاية الفضيلة عندهم هي الكمال الإنساني والسعادة لبني البشر، وإقامة بناء المجتمع على التّواد والتراحم والتعاطف. . وقد اتخذ الدين وسيلة لدعم الأخلاق وتوثيق العلاقة بين أفراد المجتمع بعضهم ببعض من ناحية، وبين الحكام من ناحية أخرى وهم يعدُّون الدين والأخلاق والسياسة شيئاً واحداً وقد جمعت مبادىء الكونفوشيوسية في خمسة مجلدات هي أقوال المعلم الحكيم عرفت باسم كتب القانون الخمسة» بحث في أولها في المراسم وآداب المجاملة، وفي ثانيها شرح وعلق على كتاب «التغييرات»، وفي ثالثها شرح كنه الحياة البشرية ومبادىء الأخلاق الفاضلة، وفي رابعها «حوليات الربيع والخريف» التي سجل فيها أهم أحداث وطنه، وفي خامسها كل ما عرفته الصين في تاريخها.

الأخلاق الفاضلة:

عندما دعا كونفوشيوس إلى الأخلاق الفاضلة سلك فيها ثلاثة مسالك هي:

(أ) احترام الآباء والعناية بتماسك الأسرة وترابطها فهو يقول: «واجب

الولد البر بأبويه إذا كان داخل المنزل، والاحترام لذوي الإنسان إذا كان خارجه. والصدق في أقواله والرحمة بالناس في كل أفعاله وأن يتقرب إلى الفضلاء وأن يقضي فراغ وقته في كتب الأخلاق».

(ب) الدعوة إلى الفضيلة بالتدريج وإلى الأخلاق برفق ومخاطبة الناس كل حسب طاقته. يقول أحد تلاميذه المخلصين واصفاً آراء معلمه وأثرها في نفسه «إذا رفعتُ النظر إلى آراء الأستاذ رأيتها أعلى مما كانت وهي ملءُ نفسي وتحيط بي وتستغرق كلّ حسي وهو يرشد الناس بالتدريج إرشاداً حسناً وقد وسع بالعلوم مجال فكري وضبط بالآداب سلوكي حتى أني لو رغبت في ترك آرائه ما طاوعتني نفسي».

(ج) الدعوة إلى الخلق القويم والقدوة الحسنة فكان يدعو تلاميذه إلى السلوك الخلقي بأخلاقه ودعاهم أيضاً بكلماته فهو يقول لهم «أتظنون أني أخفي عليكم شيئاً؟ ما من أمر أعلمه إلاّ في إرشادكم وهذه هي طريقتي في التربية». إن الكونفوشيوسيين يكرهون أن يظهر الرجل على غير حقيقته ويسمون الأفراد من هذا النوع «لصوص الفضيلة»، وما أكثرهم في هذه الأيام.

2 ـ المبادىء السياسية:

للكونفوشيوسية رأي في السياسة والحكم فهم يعدون أن قوانين الأخلاق لا تنفصل عن السياسة والحكم فأقوام الأخلاق تنتج أقوام السياسة وأفضل أنواع الحكم ويجب على الحاكم أن يُصلِح نفسه قبل إصلاح رعيته. وإذا لم يستطع الملك أن يسوس نفسه وشعبه بالأخلاق القويمة ينزل عليه غضب من السماء، ينزع منه الملك، فالسياسة الحكيمة تقوم على الأخلاق القويمة، وهي ليست منفصلة عنها والغاية السامية في السياسة هي إصلاح الأخلاق. يقول كونفوشيوس: «السياسة الحكيمة تهذّب الرعية حتى لا تكون مخاصمة» فهي التي تعطي كل ذي حق حقه، فلا تسامح في قانون الأخلاق ولا تهاون في مصلحة الشعب ولو كان الآثم ملكاً ستغضب عليه السماء، ولهذا فقد استمر

العدل قائماً بينهم مع إنهم وثنيون ولا يدينون بدين سماوي. . وهو الذي يقول: «. . إن الحاكم الظالم أخطر على الناس من النمر المفترس». ومن تعليمات كونفوشيوس في أمور السياسة أنه يجب إنشاء حكومة صالحة أو جمهورية واحدة يتولى أمرها ذوو المواهب والفضائل تعطي الحقوق لأصحابها. وتؤمن الحياة الكريمة لمن لا يستطيعون كسب العيش كالأرامل والشيوخ العاجزين والمرضى الذين أقعدهم المرض عن العمل. . وكان أباطرة الصين يعدّون أنفسهم قدوة صالحة لشعوبهم ومسؤولين عن رفاههم وعاملوهم أحسن معاملة لذلك كان الامبراطور يفرض على نفسه الصيام حين تصاب بلاده بمجاعة وهو دائماً يتحسس آلام شعبه ويعمل على تلافيها وعلى مشكلات الرعية، وفي صفات القادة يقول كونفوشيوس: «إذا كان سلوك الرئيس مستقيماً أطاعه المرؤوسون من غير أن يأمرهم وإن كان غير مستقيم لم يطيعوه ولو أمرهم». فالطاعة إذاً تكون عن رغبة النفس واقتناعها. . ومن أقواله في طلب المنصب: «لا يكن همّك أن تتولى المنصب، بل ليكن همك ما يؤهلك لهذا المنصب، ولا تهتم بجهل الناس قدرك، بل اهتم بالفضل الذي تريد أن يعرفوك به». ويعتبر كونفوشيوس أن الشعب ليس إلا معبّرا عن السماء أو الله، فهو يخاطب الأمير بقوله: «إذا نلت حب الشعب فإنك تنال حكم الامبراطورية وإذا فقدت حب الشعب فقدت الامبراطورية». وهو يصف أخلاق الرؤساء بالرياح وأخلاق المرؤوسين كالعشب وإلى أية جهة هبت الريح مال العشب فهو يقول: «إن أخلاق الرؤساء كالريح، وأخلاق المرؤوسين كالعشب، وإلى أية جهة هبت الريح مال العشب». وكان الحكام والولاة والموظفون يجتازون امتحاناً معيناً على أساس ما ورد في الكتب الكونفوشيوسية، فإذا اجتازوا ذلك الامتحان بنجاح أسندت إليهم الوظائف وألقابها. . ويؤكد ذلك في قوله: «إن الرجل العاقل لا يحكم على الناس بأقوالهم بل بأفعالهم، ففي العالم المتحضر نجد المجتمع زاخراً بالأعمال السامية وفي العالم المتخلف نجد المجتمع زاخراً بالخطب الرنّـانة». . ويقول في ذاته: «إني أكره جعجعة الخطب». . ويقول: «قلّما يكون الشخص ذو الخطب المؤثرة في المظهر رجلاً فاضلاً».

3 ـ المعتقدات الدينية:

كان يؤمن كونفوشيوس بأنه ليس في الوجود سوى إله واحد قوي الإرادة هو السماء، وكان أول من صرّح بوجود العناية الوحدانية بالصين عندما كانت الصين غارقة في ظلمات الوثنية والوحشية. ولم يكن هو نفسه موضع عبادة أو تأليه، ولم يرض بذلك، لأنه كان يعتبر الآلهة رموزاً لقوى الطبيعة وأرواح السلف ليس أكثر، وقد قام هذا المصلح دون مبالاة بالأخطار والأسفار من أجل الفضيلة والتعليم لا يثنيه شيء عن نشر مبادئه مع ما فيها من تناقض لعبادة ذلك الزمان وتعاليمه، فكان يكره رجاء الإله أن يشفيه أو أن ينعم عليه أو أن يغفر له، لأن الصلاة باعتقاده لا غاية لها، إلا تنظيم سلوك الأفراد والتأليف بينهم وهو يقول: «إن الفرد الذي يرتكب خطأً ضد السماء لن يجد من يغفر زلّته». فالصلاة عنده لا تمحو ذنباً وكان يفرض على أتباعه الاستحمام قبل أداء الصلاة وكان يقوم بتأدية الصلاة وهو صامت على غير عادة الناس في عصره، وهكذا نجده موحداً يؤمن بإله واحد، ولم يؤمن كونفوشيوس باليوم الآخر، ولم يكن يفكّر بالحياة بعد الموت، بل كان همّه إصلاح الحياة الدنيا، وقد سئل عن الأرواح بعد الممات فقال: «نحن لم نقدر على خدمة الأحياء، فكيف نقدر على خدمة الأموات؟ ولم نعلم الحياة فكيف نعلم الممات؟». . لم يتميز كونفوشيوس في عبادته عن غيره من أتباعه، فكان يقوم بواجب العبادة التي يقوم بها كل صيني. وكان يقدم القرابين للآلهة كغيره بل يُحكى عنه أنه كان ساذجاً في الناحية الدينية، فكان يتشاءم من صوت الرعد ويرتجف منه ويخشاه، ويقرأ التعاويذ لطرد الأرواح الشريرة من بيته والأوهام والخرافات من عقله، وفيه موضع لأساطير الأولين التي كتبها وحفظها. . ولكن عبقرية كونفوشيوس وقوة إرادته وعظمته كانت تتجلى واضحة في آرائه في السلوك الإنساني والخُلق القويم ورياضة النفس حتى أن الصينيين اتخذوه قدوة لهم واعتبروه من «الذين وُهِبوا تفويض السماء أو الله» لهداية الناس وإرشادهم، واعتبروه نبياً مرسلاً واعتقدوا بكتابه «المحاورات الفلسفية» بأنه كتاب مقدّس ومع ذلك فقد كان يقابل بفتور في أماكن كثيرة باعتبار أفكاره خيالية لا يمكن تطبيقها ووضعها موضع التنفيذ، حتى أنه في أواخر أيامه

شعر بخيبة الأمل لإخفاقه في حث الناس على تحسين مستوى حياتهم وهو محطم القلب. فقد حاول الامبراطور «شي هوانج تي» الذي حكم من (221-211 ق.م) أن يبدأ التاريخ به، وحاول إلغاء تأثير آراء كونفوشيوس وتعاليمه، فأمر بحرق كتبه. ولكن كثيراً من العلماء في الصين كانوا يحفظون تعاليم كونفوشيوس عن ظهر قلب. وعاد الأباطرة الذين جاؤوا بعده فأحيوا ذكراه وبنوا له المعابد والهياكل في أماكن كثيرة وقد تعاظم إجلال الناس له حتى أصبح في المكانة الثانية بعد السماء، وأخذت تُشاد له الهياكل وتُقدّم له القرابين ويُحرق البخور.

وقد أقيم له في بكين العاصمة هيكل هو أجمل الهياكل الصينية في القرن 13م.

4 ـ من آرائه التربوية:

اهتم كونفوشيوس بالتعليم فكان له العديد من التلاميذ والأتباع فقد كان يقرأ وينشدُ مثلَه العليا في حكمة الصين القديمة وتعليم فلاسفتها وحكمائها السابقين ويلقّنها لتلاميذه وكان يرى أن تعاليمه لا تعطي ثمارها إلا إذا استندت إلى حكمة القدماء. وقد وضع كونفوشيوس مجموعة القوانين الاجتماعية القديمة التي تقوم على الاقتداء والتقليد، فالامبراطور في رأيه هو النمودج الأعلى الذي تحتذى فضائله. وتتبع مزاياه وشمائله. وقد بذل جهداً طويلاً في تثقيف نفسه واطلاعه على علوم الأقدمين فهو يقول عن ذاته: «علقت المعرفة في الخامسة عشرة من عمري وهام قلبي بها في الثلاثين وانكشف لي سرها في الأربعين وتعلمت الشريعة في الخمسين ولما صرت في الستين صرت أفقه ما أسمع وفي السبعين تسلّطْتُ على عواطفي وأخضعتُ لسلطان العدل...».

ومن أقواله في مواضيع التربية والتعليم «حين أعرض للطالب زاوية واحدة من الموضوع ولا يستطيع الطالب أن يتعرف على الزوايا الثلاث الباقية، فأنا غير مستعد أن أُعيد درسي».

ويقول أيضاً: «التعليم الذي لا يكمّله التفكير جهد ضائع والتفكير الذي

لا يكمّله التعليم خسارة كبرى». ويقول كذلك: «من تعرف على الحقيقة في الصباح يمكنه أن يموت في المساء دون أن يشعر بأسى». ويقول أيضاً: «ليكن الشّعر البداية. ولتكن الأخلاق الحميدة الوسط، ولتكن الموسيقى النهاية».

5 ـ كتب الكونفوشيوسية:

إن المعرفة عند كونفوشيوس أصل من الأصول في الحكمة والإدارة. أما الكتب التي تعطي الحكمة وتمكن الإنسان من المعرفة وتجعله قادراً على تولية شؤون الناس في الصين فهي نوعان:

(أ) الأصول الخمسة القديمة.

(ب) الكتب الأربعة الملحقة.

(أ) إن كتب الأصول الخمسة التي اعتمد عليها كونفوشيوس هي كتب قديمة أعاد النظر فيها وأصلح ما فيها ووضعها بصيغتها النهائية وأضاف إليها كتاباً من مؤلفاته فأصبح عددها خمسة هي:

1 ـ كتاب الوثائق التاريخية ويحتوي على خطب وأعمال رسمية لقدماء أباطرة الصين.

2 ـ كتاب القصائد والشعر ويحتوي على (305) أغاني قديمة رسمية دينية.

3 ـ كتاب التبدلات وهو كتاب صوفي يبحث في التنجيم ويحوي معلومات هامة عن الفلك وأسراره وأسرار الكون وطرق الكشف عن المستقبل.

4 ـ كتاب القداس والحفلات: ينظم الحفلات الرسمية وأصولها...

5 ـ حولية الخريف والربيع: وهو من مؤلفات كونفوشيوس يبحث في أوضاع وأخبار مقاطعة «لو» «Lo» بين سنة (722-479 ق.م).

(ب) الكتب الملحقة الأربعة: وفيها آراء كونفوشيوس وحياته وآراء تلاميذه وأتباعهم وأفكارهم وهي:

1 ـ مختارات كونفوشيوس من قول وفعل التي جُمعتْ في كتاب «العلم الكبير».

2 ـ المعرفة الكبرى وهو كتاب ينسب إلى أحد تلاميذ كونفوشيوس وهو «تسين تسان».

3 ـ الاعتدال أو مذهب الوسط وفيه بيان للنظام الذي يجب أن يسير فيه أتباع كونفوشيوس.

4 ـ آثار «منسيوس» (372-289 ق.م) وهو مصلح من كبار مصلحي الصين. أكمل مذهب كونفوشيوس بعده بـ (150) عاماً.

وتعتبر هذه الكتب التراث الفكري الحقيقي للصين في الفلسفة والتاريخ والأدب والأخلاق..

كونفوشيوس (551-479 ق.م)
Confucius «المعلم الحكيم والملك غير المتوج»

نشأته وحياته:

ولد عام (551 ق.م) في مدينة «تشوفو» التابعة لإمارة «لو Lo» المسماة اليوم بمقاطعة «شانتونج» من أسرة عريقة وكانوا يسمونه (كونغ ـ فو ـ تسو) ثم حرِّف إلى كونفوشيوس وتوفي في «لو» في (4 آذار 479 ق.م) ويوجد قبره في معبد «الكمال العظيم» في بكين وقد نسجت حوله القصص والأساطير الكثيرة.. كان أبوه «تشوليانج هيه» من أسرة كونغ ضابطاً حربياً ثم أصبح حاكماً لإحدى المدن ثم مديراً لإحدى المقاطعات في ولاية «لو» التي كانت حينذاك أرقى ولايات الصين حضارة وأكثرها تطوراً. وكانت الوظائف الحكومية فيها وراثية، توفي عندما كان ابنه في الثالثة من عمره، وكان قد جاوز السبعين من عمره حين ولد ابنه، عاش مع والدته «تشنج تساي» يرافقهما الفقر، اشتغل برعي الأغنام عند أحد الأمراء، وكان أميناً فقد تربىٰ على الآداب السامية والتهذيب، فهو لا يعتبر الغنى سبباً للسعادة ولا الفقر سبباً للتعاسة، يقول كونفوشيوس «الفقر لا

يستلزم التعاسة والغنى بلا فضيلة ظل زائل». تزوج وهو في التاسعة عشر من عمره، ولما شب شغل وظيفة حكومية متواضعة وهي الإشراف على بعض الأراضي العامة، ثم عمل بالتدريس. لرفع مستوى دخله القليل، ثم استقال منه بعد زمن، وبدأ ينشر تعاليمه عندما بلغ الثانية والعشرين من عمره حيث أنشأ مدرسة ليتلقى فيها الشباب أصول الفلسفة الأخلاقية والسياسية، وقد كان شاباً جاداً، واسع المعرفة والاطلاع، عميق التفكير، بعيد النظر، سامي الأخلاق، لا يهتم بالاحتفالات التي تقام في بلده، ولا يتبع المواكب والمهرجانات. درس الآداب الصينية وارتشف من حكم وتقاليد أسلافه الشيء الكثير.. كان يحب الرياضة والموسيقى والعزف على القيثارة، وكان أديباً يحب الشعر أيضاً..

فقد قال عنه تلاميذه: «كان المعلم مبرأ من عيوب أربعة: إنه لم يكن عنيداً، ولم يكن أنانياً، وكان لا يجادل وفي عقله رأي سابق ولا يفرض على الناس عقائده». وقد عرف باستقامة أخلاقه ورجاحة عقله ورباطة جأشه وكان رجلاً عالماً فاضلاً، ولكنه لم يدع قط أنه كان نبياً أو صاحب رسالة دينية أو أنه موحى إليه من السماء، وقد عاش طوال حياته دارساً منقباً مهتماً بشؤون مواطنيه وقد وضع الكتب والمؤلفات العديدة التي تضمنت مبادىء خلقية لإرشاد الناس وتهذيبهم.

وكان عميق التدين، ويعنى بالشعائر الدينية الوثنية ويلحقها بالتقاليد التي كان يلزم تلامذته باحترامها. إلا أنه كان فيلسوفاً وحكيماً أكثر منه رجل دين أو صاحب رسالة، ومع ذلك فقد آمن بإله واحد هو السماء.. وفي سنة (496 ق.م) كوفىء بتعيينه رئيساً للوزارة في ولاية «لو» لأنه أثبت كفاءته عندما كان يشغل منصب وزير الأشغال العامة ثم وزير العدل، حيث نظم الأمور تنظيماً رائعاً. وساد العدل في زمانه وقوي سلطان الحكومة واختفى الأشرار فهو يقول: «وانتشرت الأمانة حتى لم يعد يفكر أحد أن يلتقط شيئاً لا يخصه من الأرض مهما كان ثميناً» وأصبح الرجال يمشون على جانب الطريق والنساء على الجانب الآخر وقد استطاع أن يؤثر تأثيراً كبيراً إلى حدٍ يقال معه أن كونفوشيوس هو الصين وأعدم المشاغبين من الوزراء ورجال السياسة، وأدَّب اللصوص وقطاع

الطرق ومنع الغش والاحتكار، كل هذا جعل أعداءه في البلاط يتآمرون عليه، مما سبب طرده من الوظيفة ونفيه من تلك الدولة ثم عاد إلى ولايته، وهو يشعر بالأسى والإشمئزاز إزاء الفساد وسوء الحكم الذي يمارسه أفراد من الطبقة الحاكمة الذين لم يهتموا بالتفكير في مصالح رعاياهم بل انصرفوا إلى تأمين مصالحهم الخاصة على حساب الآخرين. ثم عاد واستأنف التدريس لاعتقاده أن التعليم خير وسيلة لنشر الأفكار والآراء والتعاليم فقد كان عالماً جليل الشأن ومدرساً موهوباً حتى أطلق عليه معاصروه «معلم الجنس البشري» حيث نادى بالتمسك بحكمة القدماء، ونقل التراث القديم إلى أبناء عصره ودعا إلى إحياء هذا التراث والسير على قواعده ومبادئه فتملّك نفسية الجماهير.

وقد انحدرت قيمة كونفوشيوس في الوقت الحاضر بسبب مهاجمة الجمهورية الحديثة في الصين له ولتعاليمه وأبطلت عبادته، ومع ذلك فقد اعتبرت ذكرى ميلاده عيداً وطنياً عاماً ولكن الصين الشيوعية ألغت من المدارس الأولية كتب الدين الكونفوشيوسية، بما فيها الأصول الخمسة والكتب الملحقة الأربعة.. وكانت عبادته خلال ما يقرب من خمسة عشر قرناً تقام في الصين مرتين كل عام في موقع الاعتدالين الخريفي والربيعي. وكانت تقدم له القرابين في الهياكل التي بنيت من أجله، حتى أن أباطرة الصين أنعموا عليه ألقاباً مختلفة فسمي أميراً وسمي أستاذاً وأعطي رتبة الكمال وأعظم الحكماء وقد قرروا في عام (555 م) تأسيس هيكل في كل مدينة صينية وقرروا أن تقدم له القرابين وأن يعبد فيها، وفي عام (479 ق.م) استقبل كونفوشيوس أَجَلَهُ باسماً. ولم يظهر عليه خوف ولا وجل. ولم يتل صلاة ما أو تعويذاً، وأصبح مكان دفنه مزاراً ومحجّاً لأهل الصين. فهل كان نبياً؟ الله أعلم. فكم أنت عظيم يا كونفوشيوس...

ومن أقواله المأثورة: «اثنان لا يغيران رأيهما: أعقل الناس، وأسخف الناس. أعقل الناس لثقته بعقله، وأسخف الناس لضعف عقله».

الفصل الثالث

الطَّاوِيَّة
«Toism»

هي إحدى الديانات الصينية الكبرى القديمة، أسّسها الفيلسوف الصيني (لاوتسي) أو الفيلسوف القديم، في القرن السادس قبل الميلاد، وقد جمعت أحاديثه وآراؤه في كتاب الأخلاق أو (طاوتو تشينج)، ويعني الطريقة وفيه مبادىء الطاويّة ويعد كتابهم المقدس. وهو كتاب معقّد كل التعقيد، ومتناقض في فصوله وأجزائه وصعب الفهم. أما كلمة «طاو» فهي تعني الطريق الذي يبين عالم الظواهر ونظامه كما تعني نظام الكون الذي لا يداخله الخلل. وتعني القوة الكامنة في الطبيعة والأشياء، وهي المبدأ الأخلاقي الذي يحكم سلوك الإنسان الطيب..

والطاوية في رأي مؤسسها، إنها الطريقة لحياة، تهدف إلى تحقيق السلام الشخصي في الحياة الدنيا، فحوّلها الفقهاء وادّعوا وجود إكسير الحياة الذي وصل إليهم من صاحب الطريقة ليهب صاحبه الخلود، ولذلك أقبل الناس بلهفة على هذا الدين الجديد الذي يمنحهم الخلود، وشادوا له الهياكل واغدقوا على كهنته العطاء، وأصبح (لاوتسي) إلهاً معبوداً ولذلك اهتمت الطاوّية بإيجاد اكسير الحياة الذي يضمن خلود الإنسان ويبعد عنه الموت، والطاويون يقدّسون المخلوقات الخارقة للطبيعة ويؤمنون بأن أسلوبهم في العبادة يمكّنهم من إحراز الخلود والتخلص من آلام الحياة الدنيا إلى الأبد.. وقد دخلت على الطاوية

بعض الأفكار والنظريات حتى أصبحت تشبه الديانة الزرادشتية، فظهرت فيها فكرة الصراع بين قوتين تتمثل الأولى بكل قوى الخير بشكل عام، وتتمثل الثانية بكل قوى الشر بشكل عام، وتتسلط قوى الشر على الناس الأشرار فتنتقم منهم وتجازيهم على أعمالهم الشريرة، بينما قوى الخير تحصي الناس الطيبين وتكافئهم على أعمالهم الخيرة. . وتؤمن الطاوية بالسحر والتنجيم والقوى الطبيعية وما شابه ذلك من خوارق. وهم يعتقدون بتناسخ الأرواح، وأن لكل إنسان ثلاثة أنفس هي:

النفس العاقلة: ومقرها في الرأس.

النفس الحساسة: : ومقرها في الصدر. .

النفس المادية: ومقرها في المعدة. .

فإذا مات الإنسان ذهبت نفسه العاقلة إلى الأرواح الأبدية، ونزلت الثانية في القبر، بينما النفس الثالثة تظل تائهة ضائعة تلتمس الدخول في جسم آخر وتتقمّص فيه، وإذا لم تُتّخذ الاحتياطات اللازمة أصبحت تلك النفس عدوّة للعائلة، ولهذا فهم يوقدون عيداناً من الطّيب عند أبواب منازلهم عند موت أحدهم حتى يمنعوا بهذه العيدان دخول نفسه أو سواها من الأرواح الشريرة إليهم. . والطاوية قريبة من مذهب الحلول الذي يقول بأن الخالق يحلّ في كلّ الموجودات والطاويّون يحتقرون العادات القديمة كما يحتقرون الدراسة والتحصيل العلمي. ويحتقرون العقل كأساس لاكتساب المعرفة لأنه في زعمهم يؤدي إلى تشويه الحقائق التي يكتسبها الإنسان بالفطرة وبدون حاجة إلى التعلّم. . والمثل الأعلى عندهم هو التحرر من الشهوة والتجربة الحسية وذلك بالتأمل الصوفي، والمعرفة الصحيحة لديهم هي معرفة القانون الأعظم أو أنها المعرفة التي يكتسبها الفرد عن طريق التصوف، والتصوف عندهم هو الطريق الوحيد للوصول إلى المعرفة.

1 ـ التصوف:

ويقوم التصوف عند الطاويّة على المراحل التدريجية التالية:

1 ـ أن يخلو الفرد إلى نفسه وأن يقطع كل صلة بينه وبين عالم الأشياء المحسوسة.

2 ـ الامتناع عن كل ما من شأنه تدنيس الروح والحيلولة بينها وبين الوصول إلى الحقائق المجردة عندها يتحرر ذهن الإنسان عن الماديات حتى يصير روحاً خالصة.

3 ـ مرحلة الرؤيا أو الإشراق وفيها يدرك الفرد الحقائق المجردة إدراكاً مباشراً.

4 ـ مرحلة الاتصال التام أو الوحدة بين الفرد والقانون الأعظم، ومنها يحصل اندماج تام بين شخصية المتصوف والذات العليا بحيث تفنى الشخصيتان في شخص واحدة.

ويعتقد الطاويون بأن الفضيلة هي عدم العمل والاقتصار على التأمل والتجربة الصوفية ويؤمنون بالحرية وعدم التدخل في شؤون الأفراد ويمكن أن تتحقق الفضائل وأن يسود السلام إذا لم نتدخل ولم نعمل، على عكس الكونفوشيوسية التي تدعو الناس إلى العمل والجد والاجتهاد.

وتسود بين اتباع الطاوية حكمة تقول: «اشغل نفسك بلا مشغلة». أي أن الإنسان يجبَ أن لا يُشْغِل نفسه بشيء على الإطلاق، فهي مذهب يدعو إلى ترك الأمور تسري على أعنّتها، والطاوية تُلخّص بأن الإنسان يجب ألا يناضل ضد الطاو أو الطريقة وعليه أن يستسلم ويخضع لها ويسير طبقاً لها وأن السعي وراء السلطة هو أمر سخيف وغير أخلاقي والطريقة لا يمكن أن تُهزَم وعلى الإنسان أن يتعايش معها. فالمعتنق لهذا المذهب يقول: إن الماء في منتهى الرقة وينساب إلى الأسفل بكل سهولة وهو يتجاوب مع أضعف قوة دون إبداء أي مقاومة ومع ذلك فلا يمكن تحطيم الماء والقضاء عليه. بينما نجد أن أقسى الصخور تتفتت بعوامل الحت والتعرية بمرور الزمن، وعلى الإنسان أن يتجنب العنف وأن تكون البساطة والمعيشة الطبيعية هي غايته وأن يتجنّب المساعي للوصول إلى المال أو السلطان وألا يحاول إصلاح هذا العالم.

2 ـ مبادىء الطاوية :

خلال مراحل تطور الطاوية أخذت من المبادىء البوذية والكونفوشيوسية فوضعت المبادىء العشر لمعتنقيها وهي على شكل فضائل وقواعد أخلاقية وهي :

(أ) احترام الأبناء لآبائهم وأجدادهم.

(ب) الإخلاص للامبراطور وللمعلّمين.

(ج) المعاملة الطيبة مع كل المخلوقات.

(د) الصبر واستنكار السلوك السيء.

(هـ) التضحية بالنفس في سبيل مساعدة الفقراء.

(و) تحرير الأرقاء.

(ز) غرس الشجر.

(ح) حفر الآبار وفتح الطرقات للنفع العام.

(ط) تعليم الجهال وتحسين الأحوال.

(ي) دراسة الكتب المقدسة وتقديم القرابين للآلهة.

وهم يعتقدون أن على رأس آلهتهم ثلاثة هم: لاوتسي. الامبراطور «جادي» وهو سلطان الكون عندهم. ثم أول كائن في السماء. على أن تبقى «الطاو» مقدمة على الآلهة لأن فيها سر الكون، وفي فلسفة الطاوية تفريق بين قوتين كونيتين إحداهما موجبة وهي «يانغ» المبدأ المذكر وهي السماء والأخرى سالبة وهي «ين» المبدأ المؤنّث وهي الأرض. وباتحاد القوتين خرج العالم وعمّ الكون.

أما رجال الدّين عندهم فهم قسمان: الرهبان وهم الذين يقيمون في الصوامع ويتعبدون بالتأمل وبممارسة الفضائل العشر المذكورة. ثم القسيسون الذين يقيمون بين الناس ويتدخل كلاهما في حياة الناس فيطببونهم ويزوجونهم على الطريقة الروحية

3 ـ عادات دينية أسطورية:

من عاداتهم الدينية أنه إذا مات أحدهم يوقدون عند أبواب منازلهم عيداناً من الطيب حتى يمنعوا بها دخول الأرواح الشريرة إليهم. وكذلك فهم يوقدون في أول كل شهر وفي منتصفه الشموع لإله المطبخ. ويقدّمون له الذبائح والقرابين لأنهم يعتقدون أن إله المطبخ هذا يصعد إلى الإله الأعظم ويُطلِعه على ما ارتكبته العائلة أثناء هذه الحياة. ومن عاداتهم أنه إذا مرض أحدهم واشتد عليه مرضه حتى تفارقه روحه، فتظل هذه الروح تحوم حوله دون أن تعود إليه، فيأمرهم الكاهن بإرجاعها بواسطة ثوب المريض فهم يعلقونه من طوقه بقصبة لها أوراق خضراء يحملها أحد أقارب المريض وقد يعلقون بطرفها ديكاً أبيضاً، فيطوف الرجل ويقول عبارات دينية خاصة يُلقنُه إياها الكاهن، وذلك محاولة منه لاقناع الروح بالعودة إلى صاحبها فإذا شاهدوا القصبة بدأت تدور على نفسها استبشروا بالنجاح وعودة الروح.

أما شياطينهم فهي نوعان حسب اعتقادهم: شياطين بيضاء وأخرى سوداء، تُصنَع لها تماثيل من الخشب ويزعمون أنهما أسباب الوباء والبلاء وأنهما يتسلطان على الأمراض الوافدة إليهم، وهما شيطان أبيض طويل، والآخر أسود قصير، يُصنعان من الخشب مجوّفين، يمكثُ في كل منهما رجل يطوف به في الشوارع في أوقات معلومة لدفع تلك الأمراض الوافدة إليهم...

4 ـ حكماء الطاوية:

(أ) لاوتزو **Laotzu** هو مؤسس الطاوية، ولد عام (604 ق.م) في الصين أي قبل ولادة كونفوشيوس (551-479 ق.م) بأكثر من خمسين سنة، تولّى بعض الأعمال في حداثته فكان من جملة الكتبة أو أصحاب السجل في مجلس الملك «تشاه». يدوّن له القصص والتواريخ وكان مسؤولاً عن المكتبة الملكية برمتها، يطالع فيها من الكتب ما يريد، فقد أمضى قسماً من حياته كمؤرخ، وكأمين على الارشيف الرسمي في «لويانغ» عاصمة أسرة «تشو». ولما نضج رأيه دوّن تعاليمه التي أخذت شكل الديانة في أواسط القرن الثاني للميلاد، وقد اعتزل في آخر

حياته وعكف على حياة الزهد، والتأمل الفلسفي، ويعدّ لاوتزو مؤلف أعظم كتاب قرىء خارج الصين وهو كتاب الطريق والفضيلة «طاوتي ـ كنغ». كان لاوتزو متصوفاً يحب المتناقضات، وكان يدعو في فلسفته إلى القناعة والزهد والتسامح المطلق ومقابلة السيئة بالحسنة على عكس كونفوشيوس الذي كان يدعو إلى طريق لا إفراط فيه ولا تفريط، ومقابلة السيئة بسيئة مثلها. . ولم يؤمن بالعمل الحكومي كوسيلة لإسعاد الشعب كما لم يؤمن بالعقل والتفوّق العقلي مثل كونفوشيوس. وكان يقول دوماً «دعوا العقلانية، وتخلّصوا من الحكمة، ففي تركها سعادة البشرية». . فهو يرى أنه إذا تخلى الناس عن الدراسة والتعلم قلّ عدد اللصوص والمنحرفين في المجتمعات، وهو لا يعني من ذلك أنه ضد التعلّم أو العلم ولأنه كان يؤمن بأن الإنسان طيّب بفطرته. وأن فطرته الطيبة تغنيه عن وجود مؤدّبين أو مربّيـن. ومن أقواله: «إنّ من يقهر رغبات نفسه فهو إنسان جبّار».

ويقول كذلك: «تواضع، فإن تواضعك سيرفعك إلى أعلى المراتب». وهناك خلاف حول ما إذا كان لاوتسي شخصية تاريخية حقيقية أم أنه مجرد خرافة أو أسطورة. وكان بين فلسفته الخلقية وفلسفة كونفـوشيوس خـلاف قومي. . يرى لاوتسي أن الخير ليس في محاولة إصلاح المجتمع الفاسد بالعمل والنشاط والدعوة بل الخير كل الخير في الزهد والاعتزال واللامبالاة.

ويردّ عليه كونفوشيوس الشّاب يحاوره قائلاً: «إذا كان واجب كل فرد من أفراد الأمة أن يعتزل في كهف من الكهوف،فمن الذي يبقى في المدن يعمّرها؟ وفي الأرض يفلحها ويزرعها؟ وفي الصنائع يمهر فيها؟ ومن الذي يعمل ليبقى الكون عامراً ببني الإنسان؟ وإذا كان الاعتزال مقصوراً على الحكماء والفضلاء فمن الذي يربّي الإنسان ويؤدبه؟ أم أن الناس يُتركون حائرين بلا هادي ولا مُرشد؟».

كما اختلفا في أسس المعاملة بين الناس، يقول لاوتسي: «إن الصفح والعفو هو ما يجب أن يعامل به المسيء».

ويقول كونفوشيوس: «إن المسيء يُعَامل بالعدل، ولكن ليس من العدل العفو عن سيئاته بل يجب أن يؤخذ بجريرة أعماله، فالمسيء لا يُعفَى عنه ولكن يُعدَل معه، لا يظْلِمُ ولا يُظلمُ ومن أشهر فلاسفة مذهب الطاويّة «تشانغ تسي» الذي عاش في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، اشتهر بأسلوب أدبي جميل، وكان يؤمن بالتناقض، وخاصة التناقض بين الصواب والخطأ وبين الخير والشر، والحياة والموت، وغير ذلك. وقد حلم ذات مرة بأنه فراشة فتساءل في نفسه: هل هو حقاً رجلٌ حَلِمَ بأنه فراشة؟ أم أنه فراشة حَلِمَت بأنها رجل؟ واشتهر كذلك فيلسوف آخر من الطاوية هو «هوى تزو» (370-319 ق.م)...

وقد كتب كتباً كثيرة، وكان له آراء غريبة جداً، فهو يقول مثلاً: «إن البيضة يجب أن يكون لها ريش، لأنها حينما تصبح دجاجة يظهر لها ريش».

ويقول: «إن النار ليست حارّة، وإنما أجسامنا هي الحارّة، وإنه لا نهاية للشيء الذي نقسمه إلى أنصاف». وغير ذلك من أمور غريبة وعجيبة...

* * *

الباب الثامن

ديانة أهل اليابان

1 ـ الشنتوية:

وهي الدين الأصيل في بلاد اليابان، وتعني كلمة الشنتوية: «الطريق إلى الآلهة» وهي تقوم على تقديس أرواح الأبطال، والأباطرة، وتقديس قوى الطبيعة. . وليس لها مؤسس ولا عقيدة، ولا تعاليم مكتوبة، ومع ذلك فقد عاشت طويلاً في اليابان قبل دخول البوذية إليها في القرن السادس الميلادي، حيث اندمجت بها، ثم استقل عنها ثانية. .

والشنتوية ديانة البلاط والدولة، وقد كانت في أدوارها الأولى نوعاً من عبادة الأرواح ولكنها تقلصت من تطور الأديان، ومع ذلك بقي كثير منها عالقاً في أذهان العامة من اليابانيين، فهي تظهر بوضوح في التعاويذ الخشبية أو الورقية التي تعلّق فوق أبواب المنازل، أو قطع القماش التي ترفرف فوق الآبار، أو الأشجار المقدسة، أو حبال القش التي تتدلّى فوق أبواب الهياكل، وعلى اليابانيين استرضاء هذه الأرواح. .

ومن مميزات الشنتوية: عبادة الأسلاف، فاليابانيون يؤلهون الآباء والأجداد، ويبنون لهم الهياكل ويقدمون لهم الذبائح، وكانوا يؤلهون أيضاً الحيوان والنبات، كما كانوا يعبدون قوى الطبيعة كالنار والرياح والأجرام السماوية، والأنهار والصخور والشلالات فهم يؤمونها في مواسم معينة ويتقربون

إليها بالصلوات والتراتيل والقرابين. ولهم عقائد غريبة وخرافات اسطورية عجيبة في هذه العبادة، فهم يعتقدون مثلاً: أن لكل جبل مرتفع إلٰهاً أو قديساً يحرسه، ولا بد من ارضائه وتحاشي غضبه، فيحج الناس إلى قمته في مواكب دينية يرتدون ملابس بيضاء خاصة ليقوموا بتأدية الفروض الدينية، والصلوات الخاصة اتقاء لشره وطلباً لرضاه، يقدمون ما تيسر لهم من القرابين والأضحيات، وهم يعظمون إلٰهة الشمس حتى العبادة. ومن آلهتهم الطبيعية: إلٰه الأرز الذي تكثر معابده في مناطق زراعة الأرز في البلاد، وهم يطلقون لفظة (كامي) على كل إلٰه، أو أي شيء يسمو فوق الفرد، كالسماء مثلاً، أو سلطة الحكومة أو الامبراطور.. والشنتوية من الوجهة الخلقية ليست ديناً سامياً، وهي لا تعير اهتماماً للأخلاق والآداب، لأنها لا تقيم للفرد وزناً، إلا أنها اهتمت بناحية النظافة الشيء الكثير، فمن قواعدها: «الدّنس مصيبة، والرجس خطيئة، والطهارة الجسدية قداسة، وكل شيء يدنس الجسد أو الثياب مستقبح ومكروه».. والشنتوية تعارض إقامة الزينات وزخرفة المعابد، ولا يخلو منزل من ضريح للشنتوية وصورة بوذية، ولوحة خاصة لأرواح الأجداد الذين يجب تقديسهم وتقديم القرابين لهم وحرق البخور من أجلهم...

مثل هذا الاعتقاد، غالباً ما نجده عند الأقوام البدائية، كقبائل الأمازون أو مجاهل افريقيا، والفرق كبير وشاسع بين الشنتوية، المذهب البدائي، وبين مذاهب البوذية والكونفوشية، التي جاءت اليابان من الصين، والتي تقوم على الفضيلة والأخلاق.

ومع ذلك فقد تمسك اليابانيون بالديانة الشنتوية، التي وقفت في وجه الديانة البوذية القادمة من الصين وكوريا في القرن السادس الميلادي، حتى ظهر راهب بوذي في القرن الثامن الميلادي تمكن من تأسيس نظام ديني جديد ذابت فيه الشنتوية، حيث ادمجت كل آلهة الشنتوية، على أنها مظاهر متجسدة لبوذا، وعلى أن يكون هذا شأن الميكادو في المستقبل، وأن يدمج الأباطرة ضمن هذه الألهة الصغرى واندمجت الشنتوية في البوذية.. ويمكن القول: إن معظم اليابانيين يعتنقون الديانتين معاً، وفي الوقت الحاضر ينظر معظم اليابانيين إلى

المعبد البوذي مكاناً وقوراً للعبادة، فهم يجرون فيه مراسم الجنازات والمآتم في حين أنهم ينظرون إلى معبد الشنتوية نظرتهم إلى مكان أكثر بهجة. فهم يقيمون فيه حفلات الزواج، أو تحقيق الأمنيات والسعادة.

وتنتشر المعابد البوذية والشنتوية في جميع أنحاء البلاد، ويكثر زوارها من الناس ليقوموا بفرائض الأدعية والصلوات. وعند زيارتهم لها يشدّ زوّار المعبد الحبل المدلّى على باب المعبد، ليلفتوا نظر آلهتهم إليهم قبل قيامهم بالصلوات، وتلاوة الأدعية فتقبلها منهم..

وبعد ثورة (1868م) استيقظ الشعور القومي عند اليابانيين، فأظهروا نفوراً من كل ما هو أجنبي، وأخرجت البوذية من حياتهم، وأزيلت تماثيل بوذا من الهياكل، وأوقف الكهنة البوذيون عن ممارسة نشاطهم وعادت الشنتوية ديناً قومياً في المرتبة الأولىٰ. وقد وطدت الحكومة أركانها. وجعلت غايتها الاحتفاظ بعبادة الامبراطور، وخلود مركزه، وتنزيهه عن العيوب والنقائص، والسمو به إلى درجة لا يشاركه فيها أحد.

ويعتقد اليابانيون أنهم صفوة الخلق، وأنهم أول الخلائق، وليس عندهم في حوادث الخليقة ذِكْر للأمم الأخرى، وهم يعتقدون أنه كان في بدء الخلق آلهة ثلاثة تولّد منهم مع مرور الزمن أزواج من الآلهة الصغرى، كل زوج منها أصل لنوع من المخلوقات، وكان آخر تلك الأزواج: «إيساناجي» و«إيسانامي» ومنهما نشأت الأرض والشمس والقمر وكل المخلوقات الحية.

ومن الآلهة اليابانية إله يُعبّر عنه بالشمس، انحدرت منه العائلة الحاكمة في اليابان وأول ملوكها «جيموتنو»، وهو مؤسس هذه الدولة، نبغ سنة (660 ق.م) وهو متسلسل من «إما تراسو» إلٰهة الشمس، وهي أكبر المعبودات الشنتوية، والملك عندهم يُسمى «تيوشي» أي ابن السماء.

ويعتقدون أن الشمس عندما ولدت «تنجو» سلمت إليه طريق الآلهة، وعاهدته على بقاء السلطة في نسله ما بقيت الشمس والقمر، وألقت إليه ثلاثة مواد مقدسة هي: السيف، والمرآة، والحجر، وقالت له «انظر إلى هذه المرآة، نظرك إلى روحي، واحفظها معك، واعبدها كما تعبدني».

2 ـ عبادة الميكادو:

الميكادو هو زعيم قبيلة «يماتو» التي كانت أشد القبائل إحياءً لاحترام السلف وتقديرهم، والتي صار رجالها سادة اليابان فيما بعد. وكان الميكادو زعيمهم، ومركز دينهم، ومحور عبادتهم، ويزعمون أن الشمس تمت إليهم بصلة القربى. ومنها انحدر الميكاد وعدّوه ممثل الشمس وآلهة السماء على الأرض، وقد ألهوا بعض آباء الميكادو، وشبهوه بالشمس، وبنوا له هيكلاً خاصاً، وجعلوا أخته كاهنة له. وأصبح بناء الهياكل للآباء سنّة عند اليابانيين منذ ذلك الحين. وصار لكل هيكل كهنة وسدنة خاصة به يكون من أعوانه أو من أعقابه. وهم يعدّون الامبراطور والدولة كل شيء في حياتهم.. وكثيراً ما يضحّي الياباني بنفسه في سبيل الامبراطور، ويعدّون هذه التضحية شرفاً عظيماً لهم، وتُعدّ عبادة الامبراطور من المظاهر البارزة من القواعد الأساسية في ديانة اليابان. ولا يخلو بيت من بيوتهم من مذبح عليه تماثيل لبعض السلف، تقدم لها العبادة في كل حين، وبقيت كذلك حتى الحرب العالمية الثانية حيث صدرت قرارات بتعطيل عبادة الامبراطور، وحاولت القضاء على الوطنية المتطرفة التي تغرسها الشنتوية في نفوس اليابانيين.. وقد اعتقد اليابانيون بتقديس الامبراطور، فهم يعدونه أباً للشعب، ويخلصون له كل الإخلاص، ويدينون له بالولاء، ويعود أساس تقديسه وتأليهه إلى اعتقادهم بأن جده الأول نزل من السماء ليحكم البلاد.

تقول إحدى الأساطير اليابانية: «عندما تكونت بلاد اليابان وهي أول بلاد خلقت على سطح الأرض أرسلت آلهة الشمس (وهي ابنة الآلهة الذين خلقوا السموات والأرض) أرسلت حفيدها من السماء ليحكمها، قائلة له: «هذه البلاد سيكون أحفادي فيها سادة إلى الأبد، وأرجو لها البقاء ما بقيت الأرض والسماء» فنزل الحفيد إلى اليابان وفي صحبته حاشية كبيرة، واتخذ له مكاناً مختاراً بجبل «تاكاشيمو» جنوب جزيرة كيوشيو. وهناك وُلد حفيده الرابع «جيمو» فكان أول امبراطور وُلد في أرض اليابان ونشأ فيها، وتمكن من تأسيس الامبراطورية وحكمها، واعتلى عرشها سنة (660 ق.م) وهي أقدم أسرة حاكمة في العالم،

فقد جلس على العرش من أبنائها (125) امبراطوراً، كان آخرهم الامبرطور الحالي الذي تسلَّم الحكم بعد وفاة أبيه الامبراطور «هيرو هيتو» عام (1989 م).

ويعدّ الامبراطور رمز الدَّولة ووحدة الشعب.. وفي بيان صادر عن وزارة المعارف اليابانية عام 1937 جاء فيه: «إن أرضنا بلد إلٰهية يحكمها الامبراطور، وهو الإلٰه».

3 ـ الكونفوشيوسية في اليابان:

دخلت كتب كونفوشيوس وتعاليمه المكتوبة إلى اليابان عن طريق الصين حوالي سنة (405 م) بواسطة شخص كوري اسمه «وانفين»، وقد انطبعت أخلاق كونفوشيوس وتعاليمه على الإنسان الياباني.. وتكاد تكون فلسفته وتعاليمه دستوراً غير مكتوب. بحكم تصرفاتهم ويؤثر في نفوسهم.. فالصغير يحترم الكبير، والمرؤوس يحترم رئيسه. والمرأة تحترم زوجها جداً، والعلاقة بين الجميع قائمة دائماً على أساس الاحترام المتبادل والحب الأخوي. والارتباط الأسري الذي لا يزال قوياً بين الآباء والأبناء، بين السلف والخلف في الأسرة اليابانية.

الباب التاسع

الديانات عند الفرس

الفصل الأول

الديانة القديمة:

عبد الفرس قديماً مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والنار والماء والريح والعاصفة والخير والشر. وأولوا عُنصري النار والنور اهتماماً خاصاً. والملاحظ أن ديانتهم كانت تقوم على مبدأ التناقض بين فكرتين، فقوى الطبيعة إما أن تدر الخير أو تبعث الشر. وكانت الآلهة المتعددة هي عماد ديانتهم إلى أن ظهر فيهم زرادشت نبي المجوسية في القرن السابع قبل الميلاد، فوجدهم يعبدون الحيوانات، ويعبدون أرواح السلف كما يعبدون الشمس والقمر أيضاً. وكان من أكبر الآلهة في الدين الآري السابق لزرادشت:

الإلٰه مترا Mitra: إلٰهة الشمس وقد أخذها عنهم الرومان فيما بعد..

الإلٰه أنيتا Anita: إلٰه الأرض والخصب والثروة..

الإلٰه هوما Homa: الثور المقدس الذي مات ثم بعث حياً ووَهَبَ البشر دَمَهُ شراباً ليسبغ نعمة الخلود..

وكان الإيرانيون القدماء يتصورون أن العالم مليء بالشياطين التي تناصب البشَر العداء وأن هناك كائنات روحانية تضفي على البشر الخير والبركات. واقترنت تلك الكائنات عند الإيرانيين بالنور مثل ما اقترنت الشياطين بالظلام

وكان النور والظلام ظاهرتين طبيعيتين اقترنا بالخير والشر عندهم.

وكان المجوس وهم الكهنة الذين يعبدون هذه الآلهة البدائية، يقدمون لها القرابين ويصلون لها. حتى جاء زرادشت واستنكر عليهم عملهم هذا وثار عليهم.. وأعلن أن العالم كله هو «أهورامزدا» إله النور والسماء. وهذه دعوة التوحيد... وقد آمن به الملك داريوس، واعتنق مذهب الزرادشتية الجديد، وحارب الكهنة المجوس أصحاب العبادات القديمة وجعل الزرادشتية دين الدولة فانتشرت انتشاراً عظيماً.. وتدور الماجوسية كلها على قاعدتين هما: بيان سبب امتزاج النور بالظلمة. وبيان سبب خلاص النور من الظلمة.. فالنور والظلام جوهر الدين الجديد.

الفصل الثاني

الديانة الزرادشتية "المزدية"

1 ـ مبادىء وتعاليم:

تطورت عقائد الفرس بعد القرن السادس قبل الميلاد، فترفعت عن المادة وعبادة قوى الطبيعة، وانتقلت إلى طور الروحانيات، وانصرف مجوس فارس إلى إحلال إله النور «آهورا ـ مازدا» أو «أرمزدا» أي السيد الحكيم في المرتبة الأولى عندما استبدل زرادشت تلك العقائد الآرية المتعددة بدين جديد أسهل فهماً، وأكثر وضوحاً، عرف فيما بعد باسم «المزدية». تمتاز هذه الديانة ببساطة طقوسها ومراسمها فلا هياكل ولا معابد ولا أنصاب، بل مذبح حجري منصوب في العراء يضرم عليه الكهنة النار، وينصرف المتعبدون للصلاة ويحتسون شراباً مسكراً، فيغيبون في نشوة مقدسة، وقد لاءمت هذه الديانة ببساطة مظهرها طريقة العيش الساذجة في بلاد صحراوية «كإيران».

تقوم أسسها على وجود إلهين متناقضين متنازعين: إله الخير، إله الشر. وبناء عليه فقد قسّم زرادشت جميع الأشياء الموجودة في الكون إلى نوعين متضادّين هما: الخير والشر. وأطلق على إله الخير اسم «أهورا مزدا» وعلى إله الشر اسم «أهريمان»، إن التثنية اختصت بالمجوس حتى أثبتوا هذين الأصليين القديمين المدبرين.. وقد دعا زرادشت الناس إلى حب الخير وفعله للتغلب على الشر بشكل دائم، واعتبر النور خيراً، والظلمة شراً، وبما أن الشمس هي

أكبر وأعظم مصدر للنور فيمكن اعتبارها رمزاً لإله الخير.

عندما جاء زرادشت في أواسط القرن السادس قبل الميلاد وحاول تشذيب المعتقدات والطقوس المزدية فقد حمل بشدة على النشوة المقدسة، ولكنه أبقى على مذابح النار ثم انتقل إلى إصلاح جوهر العقيدة، فقال بوحدانية «أهورامزدا» واعتبر أن سائر الآلهة ليسوا إلّا أرواحاً للخير والشر دائمة الصراع والتناقض حتى تمّ إعلان انتصار أهورا مزدا وأنصاره على أرواح البشر جميعاً. . . وقد ادّعى بأن وحي الديانة الحقيقية قد نزل عليه فجمع تعاليمه في كتاب سمّاه «الأفستا». ويعتقد زرادشت أن طريق الإيمان الكامل والسبيل الوحيد إلى الإله الواحد هو: «الاعتقاد الطيب والكلمات الطيبة والأعمال الطيبة» وقد انتقل بالدين إلى مرحلة التطبيق الأخلاقي، فحمّل الإنسان مسؤولية أعماله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وهو لا يعتبر أن الإنسان مجرد أداة تتحرك بلا إرادة في الصراع الدائر بين الخير والشر، وإنما له إرادة حرة. . والمفروض أن ينقاد لأعمال الخير فيساعد «أهورامزدا» في القضاء على خصمه «أهرمان»، وهو يطلب من الإنسان أن يجعل هدفه في الحياة مكافحة الأرواح الشريرة فلا ينقاد إلى غوايتها، وأن يحافظ على الطهارة والنظافة ولما كانت التقوى أعظم الفضائل على الإطلاق فعلى الإنسان قبل كل شيء أن يعبد الله ويتقرب إليه بالطهر والتضحية والصلاة. يقول زرادشت وهو يحاور كبار كهنة الملك «كتشاسب» شارحاً مبادىء دعوته وتعاليمها: «لم أجيء لأبشر بعقيدة ولكن لتحسين عقيدة قديمة. والذي أعلمه هو حقيقة الخالق، وهو لهذا خير. أما عبادتكم الأصنام فليست حقاً وهي من أجل ذلك شر».

وقد أوضح زرادشت أن الآلهة المتعددة كالشمس والنار والنجوم والجبال وغيرها بأنها ليست آلهة زائفة فحسب، بل قال إنها ليست آلهة على الإطلاق وهي جميعها من صنع الخالق.

تقول الأوفست: إن على الإنسان واجبات ثلاثة هي «أن يجعل العدو صديقاً وأن يجعل الخبيث طيباً وأن يجعل الجاهل عالماً». ويحض دين

زرادشت على التقوى والشرف والأمانة، ويحرم الربا ويجعل الكفر رأس الخطايا، وكان يهدف دائماً إلى تهذيب الأخلاق والتمسك بالخير والعمل الصالح. وهذا هو العهد الذي يتخذه الزرادشتي على نفسه كما ورد في أوفستا:

«لن أقدم على سلب أو نهب، ولا تخريب أو تدمير، ولن آخذ بالثأر، وأقر بأني أعبد الإله الواحد أهورامزدا، وأن أعتنق دين زرادشت وأقر بأني سألتزم التفكير في الخير والكلام الطيب والعمل الصالح».

ويحث زرادشت أتباعه على أن يقاتلوا في سبيل الإله الحكيم باتباع الخصال الست التالية:

1 ـ طهارة الفكر والقول والعمل.
2 ـ النظافة والبعد عن كل دنس...
3 ـ الإحسان بالعقل والقلب.
4 ـ الرفق بالحيوانات النافعة...
5 ـ القيام بالأعمال النافعة.
6 ـ تعليم من لم يتيسر لهم ذلك ومساعدتهم.

ومن يتبع هذه التعاليم يسلك سبيل الإله الحكيم الواحد الأحد. وقد دعا زرادشت الإنسان إلى أن يختار بين أن تكون له روح خيّرة تملأ نفسه بالخير والنور. أو أن تكون له روح شريرة تميل إلى الشر والظلام.. واعتبر أن الإنسان سينال جزاءه في الآخرة بمقدار جهاده لنصرة الخير على الشر والنور على الظلمة.

وتتلخص تعليمات زرادشت بمبدأين هما:

1 ـ أن للعالم قانوناً ثابتاً يسير عليه وله ظواهر طبيعية ثابتة.

2 ـ أن الكون كله خاضع لصراع بين الخير والشر.

وهو يؤمن أن أفضل الفضائل عنده الطهر والأمانة وهما اللذان يقودان الإنسان إلى الحياة الخالدة وبعد وفاة زرادشت، انتعشت الديانة الزرادشتية في

عهد الأسرة الساسانية (226-651 م). ثم أخذت تتضاءل في ظل الدولة الفارسية عاماً بعد عام. حتى جاء الفتح الإسلامي الذي حطم امبراطورية الفرس تماماً بعد معركتي: القادسية 636 م ونهاوند 641 م. وقضى عليها القضاء الأخير إلا من بعض العشائر قليلة العدد في بلاد فارس. وبعض البارسيين في بلاد الهند. الذين لا يزالوان مخلصين لتعاليم الكتب الزرادشتية المقدسة ويحفظونها. .

وقد انقسم أتباع المجوسية إلى فرق دينية عديدة، تختلف فيما بينها بعض معتقداتها، من هذه الفرق الكيومرتية. الزروانية. السيسانية[1].

2 ـ زرادشت «المؤسس»[2] (660-580) ق. م:

هو زرادشت بن بورشب بن فذراسف بن أريكدسف بن هجدسف بن حميش بن باثير بن أرحدس بن هردار بن أسبيمان بن واندست بن هايزم بن أرج بن دورشرين بن منوشر الملك.

وكان من أهل أذربيجان يقال له «زراثوسترا»، وهو مؤسس الديانة الزرادشتية. ظهر من زمن كشتاسب بن لهراسب الملك، وكانت أمه «دعذويه» من بلاد الري وهو نبي المجوس، الذين أتاهم بالكتاب المعروف بالزمزمة عند العوام من الناس. واسمه عند المجوس بستاه أو «الأوفستا» ولم تعرف حقيقة تاريخه بالضبط.

(أ) نشأته وحياته:

تذكر روايات التاريخ أنه منذ أن ولد الصبي بدأ «دوران سرون» كبير السحرة ونائب الملك في مقاطعة يرتعد فرقاً لأنه علم بولادته وأنه سيكون له شأن كبير في محاربة الأصنام وطرد السحرة والكهنة من حميع البلدان. . تمكن «دوران سرون» من إحضار الصبي بوساطة ثلاثة من سحرته، ووضعه وسط النار

---

(1) انظر الملل والنحل للشهرستاني.

(2) مروج الذهب للمسعودي.

على المذبح وتركه وانطلق من المعبد مع سحرته معتقداً أن هذه هي نهاية زرادشت الصبي، ولما عادت إليه أمه من بيتها ولم تجده ذهبت إلى معبد النار لتصلي وتدعو الآلهة أن ترده إليها. وإذا بطفلها على المذبح يلعب وسط النار بابتهاج وسرور.

ولمّا فشل دوران سرون دبّر خطةً جديدة لقتل الطفل، فوضعه وسط الطريق العام حيث يمر قطيع من الماشية، ولكن الذي حصل أن أول بقرة من القطيع أسرعت نحو الطفل ووقفت تغطيه بجسدها لتحميه من بقية القطيع.. حاول مرة أخرى التخلص من الصبي فوضعه في وكرٍ للذئاب ظاناً أنه إذا لم تقتله الذئاب فسيموت جوعاً، ولكن ما حصل عكس ما توقع كبير السحرة هذا، فلم تجرؤ الذئاب على دخول الوكر، وإنما دخلته عنزتان حلوبتان بغير خوف وبدأتا ترضعانه...

قصص كثيرة قيلت حول زرادشت لذلك توقع له والداه مستقبلاً عظيماً، وقرّرا تعليمه أحسن تعليم وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره أرسله أبوه ليدرس مع «بورزين ـ كوروس» الحكيم الإيراني المشهور حينذاك، وظل زرادشت برفقته مدة ثمانية أعوام، تعلّم منه خلالها الشيء الكثير. وعندما عاد إلى موطنه ارتدى القميص المقدس، وتمنطق بالحزام رمزاً لتعميده في عقيدة شعبه ثم تطوع للدفاع عن وطنه ضد أعدائه التورانيين. وبدأ بمعالجة الجرحى والمرضى من الجنود استمر في ذلك العمل مدة خمسة أعوام، وبعدها نصحه أبوه بالزواج والاستقرار، وتزوج فعلاً بفتاة اسمها «هافوية». واستمر في خدمة المرضى وعلاجهم وظل يعمل بين الفقراء والمحتاجين مدة عشرة أعوام، محاولاً تخفيف الآلام عنهم قدر الإمكان، وراح يبحث عن مصدر العناء ليجعل الناس سعداء.. قال لزوجته يوماً: «سأذهب بعيداً لأعيش ناسكاً فترة من الوقت. أفكّر خلالها في الخير والشر، فربما تَبَيَّنتُ مصدر العناء في العالم».

وفعلاً ذهب بعيداً نحو جبل «سابلان» وظل أياماً وشهوراً يفكر فوق الجبل محاولاً أن يفهم سر هذا العالم باحثاً عن مصدر الشقاء والآلام البشرية فيه..

(ب) نبوة زرادشت:

لم يذكر القرآن الكريم أسماء كل الأنبياء والمرسلين بل ذكر بعضهم. قال تعالى: ﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾[1].

فهل كان زرادشت ممن لم يقصصهم الله تعالى على نبيّه الكريم؟ يقول ابن عباس: «إن أهل فارس لمّا مات نبيهم كتب لهم إبليس المجوسية». فهل كان زرادشت نبياً؟...

تذكر روايات التاريخ: أن زرادشت جلس ذات يوم أمام كهفه في جبل «سابلان» حيث كان يتعبد ويبحث عن الحقيقة هناك، وهو يتأمل في غروب الشمس وراء الأفق، ولما حلّ الظلام بدل النور وقت الغروب، قفز زرادشت واقفاً على قدميه فرحاً لأنه أمسك بيديه سر الحكمة التي يبحث عنها، فقد أدرك أن اليوم فيه ليل ونهار، أي أنه فيه ظلام وفيه نور. فالعالم إذن يتشكل من الخير والشر وكما أن الليل والنهار لا يغيران طبيعتهما، وكذلك فالخير لا بدّ أن يكون خيراً دائماً والشر لا بد أن يكون شراً دائماً.. وأن آلهة الخير لا يمكن أن تصنع الشر، وآلهة الشر لا يمكن أن تفعل الخير. هذا هو سر الحكمة، وهذه هي الحقيقة التي طالما بحث عنها زرادشت حتى توصل إليها، وهي: أن العالم تحكمه قوتان ـ خير واحد وشر واحد ـ وإن الإله «أهورامزدا» هو قوة الخير، وأن «أهرمان» هو قوة الشر.. ويقول زرادشت: إن لهذه الآلهة مساعدين سماويين يسمون الملائكة، وقال إن أهم هذه الملائكة سبعة هم: العقل الخيّر، والنور، والحكمة، والخير، والتقوى، والخلود، والأمر الصالح...

(جـ) بدء الدعوة ونشرها:

بينما كان زرادشت فوق الجبل مستغرقاً في تفكيره، إذا به يحسّ فجأة بنشوة روحانية تغمره وتنتشر في جميع أنحاء جسمه وتملؤها نوراً وهّاجاً. ثم يرى كائناً نارياً يدنو منه وكأنه عمود من نور، حجمه تسعة أمثال حجم الإنسان.

---

(1) سورة النساء، آية: 164.

يحمل في يده عصاً من اللهب ولم يلبث ذلك الكائن أن حلّق فوق رأس زرادشت في صورة عمود آخر من النور، وأمره بخلع ملابسه ثم أخبره أنه «فاهومانا» كبير الملائكة، وأنه جاء ليقوده إلى السماء ليحظى بشرف المثول بين يديّ رب السماء نفسه. وصدع زرادشت بالأمر، ولم يلبث أن وجد نفسه لدى إله النور الأكبر الذي يحيط به ضياء عظيم.. وهناك تلقى كلمات الحق والحقيقة، وتعلم أسرار الوحي المقدسة.

واستمع إلى أمر النبوة ثم أفاق من نشوته وعاد إلى إنسانيته، وتكررت معه التجربة الروحانية ثلاث مرات وعندها انتبه إلى نفسه وقال: «الآن.. سأنزل إلى الناس وأقود شعبي باسم (أهورا مزدا). من الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن الشر إلى الخير». فهل نعدّ هذه الحكايات علامات نبوّة وإلهامُ وحيٍ حقاً؟ وهل يمكن اعتبار زرادشت نبياً مرسلاً؟ قال تعالى: ﴿ولكل أمة رسولٌ، فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يُظلَمون﴾[1] وقال جل شأنه: ﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم، وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾[2] نزل زرادشت من فوق الجبل متحمساً لإعلان الحقيقة لكل الناس من أمته، فلم يستمع إليه أهل إيران في بداية دعوته، لأنهم كانوا غارقين في عبادة الآلهة الآريّة المتعددة، وأصنامها، والتي يعدونها حقيقة ملموسة بين أيديهم، بينما الخير والشر وآلهتهما لا يمكن رؤيتهما أو سماعهما أو لمسهما، حتى أن أسرة زرادشت نفسها لم تؤمن به ولا بالتعاليم التي جاء بها...

استمر بدعوته عشر سنوات، ذاق بها الأمرّين وهو يبحث عن مؤمنين يتبعونه، وقد تحمّل خلالها من العنت والشقاء والعذاب ما لا يتحمله بشر. وقد تخلّى عنه أهله وعشيرته منذ أن أعلن فيهم رسالته، وطردوه، فترك مسقط رأسه مهاجراً من بلدٍ إلى بلد، تسبقه سمعته وصيته، ورهبته في النفوس، حتى خافه الناس وأبوا استضافته، وكانوا يغلقون الأبواب في وجهه أينما اتجه، فلا يجد له

---

(1) سورة يونس، آية: 47.

(2) سورة النحل، آية: 89.

مأوى يبيت فيه لياليه الطويلة القاسية إلّا حظائر الخيل والحمير. ومع ذلك استمر في دعوته يعظ الناس ويرشدهم ويجادلهم في دينهم.. ولكن أحداً لم يتبعه حتى كاد يسيطر عليه اليأس الكامل، ولكن الإله «أهورا مزدا» لم يتركه ولم ينسه، فقد نزل عليه الوحي في هذه الفترة سبع مرات، ظهر له في إحداها أهورا مزدا نفسه، وظهر له بعد ذلك الملائكة الستة الكبار ليلقنوه أصول الحكمة وهؤلاء الملائكة هم أساطين العرش، فثلاثة منهم ذكور يمثلون:

التفكير الطيب، والإحسان، والحق الأسمى. وثلاثة منهم إناث يمثلن: الفداء، والخلود، والتقوى، وقد لقنه كل منهم حقيقة من الحقائق الكبرى. فتعلم زرادشت حقيقة النار المقدسة والأسرار التي تنطوي عليها الأرض، وحياة الحيوانات والنباتات، وخواص المعادن والسر في وجوب العناية بالماء، والصراع الأزلي بين الخير والشر..

وبعد مرور عشر سنوات من العذاب والشقاء، بدأ يدخل بعض الناس في دينه الجديد، وكان ابن عمه «ميتيوماه» من الذين آمنوا به وصدقوه، وقد نصحه أن يبدأ دعوته بالمتعلمين من أبناء قومه لصعوبة فهم تعاليم الدين الجديد، فتوجه زرادشت إلى «بلخ» يشرح عقيدته للملك «كاشتاسب» ويعلمه طريق الخير والشر ولم يتمكن من مقابلته إلا بعد أن أبدى بعض المعجزات: فقد أمسك بيده كرة من النار تلتهب دون أن تحرقه. وأنبت شجرة أرز على عتبة قصر الملك.. وعندما قابله قال له: «أنا زرادشت سبتاما نبي الإله الواحد الحكيم، جئت إليك أيها الملك لأحوّل قلبك من عبادة الأصنام الشريرة التافهة إلى مجد إلهٍ حق، خالدٍ حكيم». طلب منه الملك برهاناً على صدق دعوته ورسالته فقال زرادشت: «إني أعلم كلمة الحق ضد كلمة الباطل فإذا شئت أنت وحكماؤك أن تسألني فسأرد عليكم بما يثبت لكم أن طريق العبادة الذي تسيرون فيه وتمسككم بتلك الأصنام خطأ يشوبه ظلم حالك وأن طريق الإله الحكيم الواحد خير مشرق كضوء النهار».

وبعد حوار مع الملك وكهنته تمكن من إقناعهم برسالته وأنه نبي من عند إله حكيم. واعتنق الملك تعاليم الإله الواحد وأعلن أن زرادشت هو النبي الحق

لهذه العقيدة الجديدة وبعدها تدفق الناس على زرادشت يدخلون في دينه أفواجاً. إلا أن السحرة والكهنة اتهموه بأنه كذاب شرير وقالوا ذلك للملك الذي دخل الشك نفسه فأرسل من يفتش غرفة النبي.... فعثروا على رؤوس قطط وكلاب ميتة وعظام منوعة وشعر وأظافر مما كان يستخدم وسيلة للسحر في تلك الأيام. فقبض عليه الملك وسجنه وأمر الناس بالعودة إلى عقيدة الآباء والأجداد وارتد عن الإيمان بدين أهورا مزدا. ولحسن الحظ عند زرادشت أن حصان الملك مرض حتى أصبح عاجزاً عن الوقوف على قوائمه. وحاول أطباء البلاط وكهنته علاجه واستعانوا بآلهتهم وأصنامهم ولكن دون جدوى، فعرض زرادشت على الملك أنه يستطيع معالجة الحصان بشروط أربعة وهي:

- أن يعتنق الملك دينه ويؤمن بتعاليمه وألا يهجرها أبداً..

- أن يعتنق ابنه الأمير «أسفنديار» تعاليمه وأن يجعل حياته وفقاً على نشر دينه في كل مكان وبكل الوسائل..

- أن تعتنق الملكة تعاليمه وتؤمن بأهورا مزدا وتترك دين أهرمان..

- معاقبة الذين تآمروا ضد واتهموه باطلاً بالسحر والكذب..

وفعلاً تمكن من علاج الحصان حتى شفاه وأنقذه من مرضه فأصدر الملك أمراً بالإفراج عنه. وتنفيذ كل الشروط بحذافيرها وعاد إلى دين زرادشت من جديد.. بدأت الدعوة بالانتشار سريعاً وارتفعت مكانة زرادشت عند الملك فقد عيّنه كبيراً للكهنة في بلاط الملك وزوج ابنته «بوروكيستا» إلى رئيس وزراء بلخ. وانتشرت الدعوة خارج حدود إيران وسرعان ما انتشرت تعاليم زرادشت في جميع أنحاء إيران وخارجها بالرضا أو بالإكراه، كما حصل في مملكة توران المجاورة. ولما قوي التورانيون هاجموا إيران بعد سبعة عشر عاماً مدينة بلخ وسقطت بأيديهم واجتاحوها.

(د) وفاة زرادشت:

كان زرادشت وقت الاجتياح في معبد النار يصلي مع ثمانين من كبار الكهنة يدعون ربهم لإنقاذ شعبهم ومناصرتهم في حربهم المقدسة وبينما هو

راكع أمام النار طعنه الجنود التورانيون داخل المعبد في ظهره وقتلوه. وكان عمره 77 عاماً كما أعملوا سيوفهم في الكهنة جميعاً. دامت نبوة زرادشت في قومه 35 سنة ثم خلفه العالم «خاناس» وكان من أهل أذربيجان وهو أول موبذ قام بالفرس بعد زرادشت وقد نصبه عليهم «يستاسف» الملك. لقد اعتقد المجوس أن عقيدتهم هي الأفضل في العالم وهم يحرمون على أي إنسان أن يعتنق هذا الدين إذا لم يولد زرادشتياً.

3 ـ الكتب المقدسة عند الزرادشتية:

هي مجموعة من الكتب جمعت فيها أقوال زرادشت وأفعاله وأدعيته وأعماله من قبل أصحابه ومؤيديه سميت بالأبستا «الابستاق»، وهي قسمان: كتاب الأُبستا ومعناه المعرفة وكتاب زنداي وهو تفسير لكتاب الأبستا وضعه علماء الدين. وتشتمل هـذه الكتب مجموعـة من الأناشيـد والأقاصيص والأدعيـة والطقوس الدينية والقواعد الخلقية وفيها أوامر ونواهٍ. وفيها الوعد والوعيد والكثير من العبادات والشرائع.. واستمر العمل بأحكام الأبستا حتى عهد الاسكندر عندما قتل دارا بن دارا، حيث أحرق الاسكندر بعض هذا الكتاب الذي جمع في اثني عشر ألف جلد ثور بالذهب، واستمر الفرس والمجوس على قراءة سورة فيه يقال لها «إسناد» إلى وقت طويل. وقد عمل زرادشت تفسيراً للأُبستا سماه «الزند» وهو عندهم كلام الرب المنزل على زرادشت وتفسيراً للتفسير سماه «بازند».

وبعد وفاة زرادشت عمل علماؤهم تفسيراً لتفسير التفسير وشرحاً لسائر التعليمات سموه «باردة» ويدور معجم هذا الكتاب على ستين حرفاً من أحرف المعجم وليس في سائر اللغات أكثر منه حروفاً وفيه إحدى وعشرون سورة في كل سورة مائتان من الأوراق ويحتوي خمسة أسفار مختلفة ونصوصه مضطربة في بعض أقسام الكتاب فقرات من أصل بابلي قديم كالتي تصف خلق الدنيا وتسلسل الناس من أبوين وإنشاء جنة على سطح الأرض وغضب الخالق على خلقه واعتزامه أن يسلط الطوفان عليهم ليهلكهم جميعاً إلا طائفة منهم. ومع ذلك

بقيت الصبغة الفارسية دارجة في كثير من شواهد هذا الكتاب المكتوب بالفارسية القديمة. والفكرة السائدة فيه هي ثنائية العالم الذي يقوم على مسرحه صراع بين الإله أهورا مزدا والشيطان أهرمان الذي يدوم مدة اثنتي عشر ألف عام على شكل دورات متتالية وقد عجز المجوس عن حفظ كتابهم هذا فصار علماؤهم وموابذتهم يأخذ كثير منهم بحفظ أسباع أو أرباع أو أثلاث من هذا الكتاب. فيبتديء أحدهم بما حفظه من جزئه فيتلوه ثم يبتديء الثاني منهم فيتلوا جزءاً آخر وهكذا إلى أن يأتي الجميع على قراءة سائر الكتاب لعدم استطاعة الواحد منهم حفظ الكتاب بكامله.. وبعد إيمان الملك كشتاسب بمبادىء الزرادشتية أمر بذبح 12 ألف بقرة ودبغ جلودها وربطها بخيوط من الذهب الخالص وكتب عليها بحروف من الذهب جميع تعاليم زرادشت نبي الإله الواحد التي سميت بالأوفستا.

4 ـ الآلهة المزدوجة (الثنوية):

اعتقد زرادشت بوجود إلٰهين متضادّين يقوم بينهما صراعٍ أزلي وقال أن النور والظلمة أصلان متناقضان وهما مبدأ موجودات الكون ويتمثلان في:

(أ) أهورامزدا:

وهو إلٰه النور والحق والطّهر والصحة والحكمة والخير وهو الذي خلق كل ما هو خير في هذا الكرن فخلق الأرواح الطيبة وخلق النجوم والكواكب والأرض ثم خلق النور الأول ثم خلق «كيومرث» الإنسان الأول. وهو قديم أزلي منزّه من كل نقص، لم يلد ولم يولد، وان يموت وهو روح الأرواح يَرى ولا يُرى لا تُدركه الأبصار واحد لا شريك له، ولا ضدّ له ولا نِدّ، موجود في كل مكان ولكنه لا يُرى في أي مَكان يعلم الحاضر والمستقبل، كما يعلم الغيب قادر على كل شيء، وهو القوة الخفية التي يتطلع إليها البشر لتشد أزرهم وتقوّي نفوسهم لهذا لا يقدر على إدراك حقيقته عقل بشري ولا يقوى على تصوره خيال إنسان.

يرمز له بالشمس والنار، فالشمس في السماء تمثل روح أهورا مزدا،

والنار في الأرض تمثل القوة العليا الخفيّة. وقد خلق هذا الإله عدة خصال يعتمد عليها في إدارة الكون وتدبيره، كالخير والعدل والعفو والخلود وكل الأعمال الصالحة...

(ب) أهرمان:

وهو إلّه الظلمة وروح الشر، يمثل الموت والمرض والرذيلة والجهل، والليل والجدب، والعقم وكل المفاسد في العالم، وقد خلق أرواحاً شريرة من جنسه، وخلق الغضب والقسوة والذنوب والسحر. كما خلق بعض الحشرات والزواحف المؤذية، وألقى بكل قوته ضد خصمه أهورا مزدا وخلقه، فقتل الثور الأول وقتل الإنسان الأول ولكن بذوره بقيت مخبأة في الأرض حتى نتج منها بعد أربعين سنة شجرة كبيرة خرج منها أول زوجين من بني البشر. ويقوم عرشه في ظلمة العالم السفلي. وهو ناتج عن الأرواح الشريرة، ويرئس الشياطين الذين لا يحصى عددهم ويظهرون في صورة كل من شاؤوا من صور البشر، وهم يتنازعون دائماً مع الكائنات الخيّرة التي تلحق بهم الهزائم المتكررة، ولكنها لا تقضي عليهم قضاء مبرماً حتى يستمر الصراع في هذا العالم. ولكن زرادشت يؤمن بأن الخير سينتصر في النهاية على الشر...

(جـ) صراع الآلهة:

العالم كله بما فيه من تناقضات وخطايا هو ميدان صراع دائم بين الخير والشر، تتمثل في الحرب الدائرة بين إله الخير وإله الشر.. يقول زرادشت: «إن العالم يمر بدورة زمنية مدتها اثنتي عشر ألف سنة، فيها أربعة عهود لكل منها ثلاثة ألاف عام يسيطر في كل عهد على التوالي أهورا مزدا وأهرمان وفي النهاية يتمكن إله الخير أهورا مزدا من حبس أهرمان في الظلمة، ولكنه تمكن من الإفلات والهروب، ودخل العالم فأحدث فيه الفوضى، وملأ الدنيا بالأرواح الشريرة، وأفسد النيران المقدسة بإضافة الدخان إليها. وسلّط على البشرية الأمراض والأوبئة، ولكن أهورا مزدا المنتصر في النهاية قال لأهرمان: «إن

طرقك "لا تتفق وطرقي وأفكارك لا تتفق وأفكاري، وكلماتك ليست كلماتي، وأعمالك ليست أعمالي، فلنفترق»...

وكان أهورا مزدا على علم بالمستقبل فعرض على أهرمان حقبة من الحرب مدتها تسعة آلاف سنة، وقبل أهرمان العرض لجهله، فهو لا يعرف غير الماضي. وانتهت الجولة بين الإلهين بهزيمة إله الظلمة وفزع وهرب ولم ينتبه إلا وهو يسقط في الظلمات ويقضي فيها مشلولاً ثلاثة آلاف سنة. وهكذا ينتصر الخير على الشر، ولم يبق في العالم إلا رب واحد على اتصال وثيق مع أبناء البشر..

5 ـ الحساب بعد الموت:

جاء في الأوفستا «يبعث الموتى، وتعود الحياة إلى الأجسام وتتردد فيها الأنفاس ويخلو العالم المادي كله إلى الأبد من الشيخوخة والموت والفساد والانحلال» لقد آمن زرادشت بالبعث ويوم الحساب والجزاء في الآخرة، ويتولى أهورامزدا حساب الناس بنفسه ويعتقد الزرادشتيون أن الموت دليل على تغلب الأرواح الشريرة ولذلك فملامسة الميت تتنافى مع النظافة وتفسد الطهارة ولا يدفن الجسد الميت في الأرض حتى لا ينجسها، ولا يحرق في النار للأسباب ذاتها فهم يعرضون الجثث فوق برج مرتفع لتأكلها الطيور الجارحة والحيوانات المفترسة وعندما اقتبس الفرس بناء المقابر عن جيرانهم جعلوا هذه المقابر في أماكن مرتفعة وليس في جوف الأرض وقد تبدلت هذه العادة في عهد «قورش» و«دارا» وصار الفرس يدفنون أمواتهم بعد طلاء الجثة بالشمع. ومن معتقداتهم أنه عند حدوث الوفاة تبقى روح الميت ثلاثة أيام فوق رأسه تتلو الصلاة وتدعو للسعادة وتنعم بسلام في عالم الأحياء وفي نهاية الليلة الثالثة تهب نسمة عطرة يليها ظهور «ضمير الميت» أو «دينه» على شكل فتاة عذراء ذات قوة وبهاء في سن الخامسة عشرة نبيلة القامة بضّة الذراعين فائقة الجمال والروعة وعند سؤالها تجيب:

«أيها الشاب البهي الفكر والعبارات، الجميل الأعمال والنيات، فيّ

تقمّص ضميرك لقد أحببتني لعظمة جمالي، ومن محبوبة جعلْتني مُحبّبَة ومن شهية جعلتني أشهى هكذا كرّم البشر أهورا مزدا».

وعندما تصل الروح إلى الجسر الفاصل الذي بناه أهورا مزدا تبدأ بتعدد ما كانت تقوم به في الحياة الدنيا من خير وأعمال حسنة، فتظهر العذراء وتقود الروح الصالحة إذا كانت أفكارها وأقوالها وأفعالها الصالحة إلى بيت الخلود أو الجنة لتلتقي هناك مع أهورا مزدا وتعيش معه بسعادة أبد الدهر. أما الأرواح الشريرة التي كانت أفكارها وأقوالها وأعمالها غير صالحة، فلا تستطيع اجتياز الجسر فتتردّى في الجحيم المظلم الذي يتناسب عمقه مع ما اقترفت كل روح من الذنوب. وعندما ينتهي العالم ويحل يوم الحساب الأخير تقوم مملكة أهورا مزدا وتزدهر، بينما يهلك أهرمان مع جميع قوى الشر هلاكاً لا قيام بعده. وتبدأ الأرواح الطيبة حياة جديدة في عالم خال من الشرور والآلام.

6 ـ صلاة زرادشت إلى أهورا مزدا:

مقتطف من الصلاة التي يؤديها زرادشت إلى الإله الواحد من كتاب ديورانت «قصة الحضارة» «هذا ما أسألك عنه، فاصدقني الخبر يا أهورامزدا مَن رسم للكواكب وللشمس طريقها؟ إن لم يك بك فبمن يكمل القمر وينقص؟ من ثبّت الأرض في الأدتي وأمسك السماء أن تقع؟ مَن ـ أيها الحكيم ـ خلق روح الخير؟ أي فنان أبدع النور والظلمات؟ مَن خلق الصباح والظهر والمساء، ليعيّن للّبيب واجبه؟ إنه أنت يا واحد أحد، اكشف عن أسرار المعرفة كي تساعدني على نشر دينك، أيها الإله الواحد الحكيم يا أهورا مزدا.

وأنتم أيها الشياطين، ويا مَن، يجلّهم، أنتم جميعاً صنيعة روح الشر والكبرياء. وعندما تعينون الأعمال السيئة، تريدون ممن يقوم بها أن يعتقد بحظوته لديكم، وأن يقلّل من حظوته لدى روح الخير وأن يتفلّت من سلطان السيد الحكيم والعدالة. فقد انتزعتم من الإنسان سعادته وخلوده. هذا هو العمل الذي ألهمكم روح الشر»...

7ـ النار المقدسة عند المجوس:

كانت النار موضع عبادة وتقديس عند الآريين القدماء. ولما أقام زرادشت دينه الجديد، عدّ النار مصدراً للخير والنور، فأقرّ تقديسها وعبادتها، وجعلها جزءاً من الزرادشتية وقبلتها وبقيت معابد النار القديمة معابد للدين الجديد. وللنار كهنة يطلق عليهم اسم المجوس أو موقدي النار وكان أهم واجباتهم إبقاء النار مشتعلة دائماً، وممارسة الطقوس الدينية بتقديم الضحايا والقرابين لها. . ولكن زرادشت يؤكد أن تعاليم دينه ومبادئه لا تقوم على عبادة النار ولا يتخذ من النار إلٰهاً، ولكنه يرى النار إلى جانب الشمس رمزاً لقوة الإلٰه الواحد الذي لا يمكن أن يراه أحد، ويقول أتباع زرادشت أنهم يقدسون النار كرمز ولا يعبدونها كإلٰه وأنهم يعظمونها باعتبارها جوهراً علوياً شريفاً، وبتعظيمهم لها تحميهم من عذاب أليم. ويقدسونها لأنها كانت برداً وسلاماً على إبراهيم، فهم يوقدون النار دائماً في المعابد والهياكل وعلى رجال الدين أن يحافظوا على اشتعالها باستمرار فيأتون إلى الهياكل خمس مرات يومياً ليقدموا الوقود إلى النار لتبقى مشتعلة وفي كل مرة يتلو الكاهن عبارات دينية يدعو بها الناس إلى التأمل في الخير والكلام الطيب والعمل الصالح، وهي جوهر الزرادشتية التي تتضمن الكثير من الفضائل والآداب. كالأمانة وحسن المعاملة والعفة والطهر والإحسان إلى الفقراء والعطف على الغرباء. وكان أهل فارس يقدمون إلى الشمس وإلى النار وإلى أهورا مزدا القرابين من الأزهار والفواكه والخبز والعطور والضأن والجمل والخيل وذكور الوعل التي لا يصيب الإله منها إلا رائحتها. أما ما يؤكل منها فيبقى للكهنة والمتعبدين. والآلهة تحتاج إلى روح التضحية ولا تحتاج إلى لحومها. أما الفقراء فيتقربون إلى آلهتهم بالأدعية والصلوات وقد كان أهل فارس يقيمون المذابح المقدسة على قمم الجبال وفي القصور أو في قلب المدن أو على صخرة مرتفعة يصعد إليها بدرج حجري. ويقوم الكهنة عادة بإيقاد النار فوقها تكريماً لأهورا مزدا. فهم يعدون أن النار أكثر العناصر طهارة فكلها حركة وحياة وهي تزيل الظلمة وتطرد الشياطين فضلاً عن أنها ابن إلٰه النور. وكل أسرة تعمل جهدها على أن تبقى النار مشتعلة دائماً في دارها ويعدون انطفاءها بؤساً للأسرة

ودليل شؤم لها ينذر بزوالها. وقد كان ملوك فارس يتفاءلون بها كثيراً فهم لا يسيرون إلى حرب أو إلى حملة عسكرية أو رحلة إلا وتتقدم مواكبهم المشاعل المقدسة ومحاريب النار اللاهبة..

يقول تعالى في محكم كتابه: **﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعادٍ وثمودٍ والذين من بعدهم لا يعلمهم إلّا الله﴾**[1].

(1) سورة إبراهيم، آية: 9.

الفصل الثالث

الدِّيَانَة المانويَّة

1 ـ نشأتها:

شهدت بلاد الرافدين في بداية القرن الثالث الميلادي صراعاً حاسماً بين ديانتين رئيسيتين هما: المسيحية والزرادشتية الروحيتين المتنافستين في المنطقة. ثم ظهرت ديانة جديدة بزعامة «ماني» سميت باسمه: الديانة المانوية. وقد انضم إليها عدد كبير من الأتباع والمريدين في زمن انتشارها فقد انتشرت عقيدة ماني خلال حياته من غرب الامبراطورية الرومانية إلى الهند ومن الصين إلى جزيرة العرب واستمر تأثيرها أكثر من ألف سنة، وقد أصبحت الديانة الرسمية للدولة الإيغورية في آسية الوسطى. في عهد الأمير بقوق خان (760-780 م) الذي اعتنقها واتخذها ديناً لدولته. كما أنها تمتعت بمكانة عالية داخل بلاد الصين من القرن الحادي عشر الميلادي حتى الرابع عشر، حتى أن بعض كتبها أُقِرّت في العقيدة الطاوية.

وقد تعرضت لاضطهاد شديد من المعترضين عليها ولاقى أتباعها الإهانة والقهر والتعذيب بدون شفقة ولا رحمة وخاصة في عهد العباسيين أيام المهدي (775 785 م) والمأمون (813-833 م) والمقتدر (908-932 م) حتى أنها انقرضت تماماً في هذه الأيام وأصبحت في ذمة التاريخ.

والديانة المانوية هي مجموعة من الأفكار والمعتقدات المأخوذة من

ديانات أقدم منها. تأثرت بها دون أن تنكرها فقد اعترف «ماني» بزرادشت وبوذا والمسيح كأنبياء حقيقيين. وادّعى أن يسوع بشّر به، ويعد ماني نفسه خاتم الرسل وأعظمهم أجمعين، ويعتقد أن دينه أفضل كل الأديان.

يقول ماني: «إن أول من بعث الله تعالى بالعلم والحكمة آدم أبو البشر، ثم بعث شيثاً بعده، ثم نوحاً ثم إبراهيم، ثم بعث بالبددة «بوذا» إلى أرض الهند، وزرادشت إلى أرض فارس، والمسيح كلمة الله وروحه إلى أرض الروم والمغرب، ثم بولس بعد المسيح إليهم، ثم يأتي ماني خاتم الأنبياء ورسول إله الحق إلى أرض بابل». فهو لم يعترف بنبوة موسى عليه السلام، مع أن يقر بوجود ديانات سبقته وأخذ عنها واقتبس منها، فالديانة المانوية تختلط بأفكار بوذية ومسيحية وتحتوي كثيراً من معتقدات زرادشت الثنوية. ومع ذلك شكلت ديانة جديدة مستقلة تماماً..

وتدور العقيدة المانوية على الصراع الدائر بين النور والظلام، فهو جوهرها ومحور وجودها.. يقول ماني: «إن العالم كله مركز صراع بين قوتين: إحداهما مبدأ الخير ويقترن مع الضوء والروح. والثانية: مبدأ الشر ويقترن مع الظلام والمادة».

وهو يعتقد أن النور والظلام متجاوران لا حاجز بينهما، ويعد أن هذين المبدأين متساويان في القوة، وفي القِدَم، فهما أزليان.. وينكر وجود أي شيء من غير أصل قديم، بخلاف المجوسية التي قالت بحداثة الظلام وقدَم النور، ويعتقد المانيون باختلاف النور والظلمة في الجوهر والطبع والفعل والمكان والأجناس والأرواح والأبدان، ويحدد ماني خصائص كل من الكونين: النور والظلمة.

فالنور عنده هو العظيم الأول وهو الإله ملك جنان النور، وله خمسة أعضاء هي: الحلم، العلم، العقل، الغيب، الفطنة. وله خمسة أخرى روحانية هي: الحب، الإيمان، الوفاء، المروءة، الحكمة. فهو لهذه الصفات أزلي خالد، ومعه شيئان أزليان أيضاً هما: الجو، والأرض.

وأما الكون الآخر فهو الظلمة، وله خمسة أعضاء هي: الضباب، السموم، السم، الحريق، الظلمة.

ويعتقد أن الشيطان جاء من هذا الكون المظلم وهو يصوّره بشكل يناسب، فله رأس أسد، وجسم تنين، وجناح طائر، وذيل حوت، وأرجل أربع كالدواب[1]. وتقوم المانية على كثير من الأساطير، والتعليلات الكلامية والتصورات، ويقال عنهم: إن حكمتهم لم تكن فلسفة بل تعليلات كلامية فقط. ويقول الإسكندر الليكوبولي: «إن المانيين يفوقون بحكاياتهم أصحاب الأساطير كثيراً» ويصوّر هذا الفيلسوف الأفلاطوني مبادىء المانيّة بقوله: «إن افتراضاتهم ليست قائمة على برهان معقول بحيث يمكن أن نتولّى القيام في التحقيق فيها. كما أنها ليست مبنيّة على مقدمة منطقية أو مقدمتين. حتى نستطيع أن نرى ما الذي ينجم عنها، كما أن أي نبذة في الفلسفة في ثرثراتهم المعادية ليست أكثر من مصادفة، فهم يلجأون إلى الكتابات القديمة والحديثة على حد سواء، وينتحلونها على أنها إلهامات ووحي من السماء، ويجمعون أفكارهم منها»...

2 ـ المبادىء والمعتقدات المانية:

تتلخص الأخلاق المانوية ومبادئها الدينية ومعتقداتها في الوصايا الثلاث التالية التي جاءت على شكل تواقيع ثلاثة، كما ذكرها أوغسطين، وهي:

(أ) تنص الوصية الأوليّة على نظافة الفكرة والكلمة، والامتناع عن التفوه بأي شيء فيه تجديف على الله بالنسبة إلى تعاليم ماني، وتحتفظ هذه الوصية بالخير المطلق، والامتناع عن كل متعة يأخذها الإنسان عن طرق الفم، حتى لا تقوى عنده شهوة الجسد الحسيّة، فهي تحرم أكل اللحم لأنه ينشأ عن الشيطان كما تمنع شرب الخمور، واجتناب تناول مقادير كبيرة من الماء لأنه مادة جسدية،

---

(1) من كتاب الفهرست للنديم.

وتحرض على تناول الفواكه وخاصة ثمار البطيخ، وتستحسن تناول الزيوت وعصير الفواكه.

(ب) تنص الوصية الثانية على تحريم أي عملٍ يضرّ بحياة النباتات أو الحيوانات، فهي تحرم قطع أي نبات أو قتل أي حيوان، ومن تجاوز هذه المحرمات ينال عقاباً يتناسب مع عمله الإجرامي، فالإنسان الذي يحصد القمح سيولد من جديد على شكل سنبلة قمح، والذي يقتل فأراً سيكون في الآخرة فأراً..

(جـ) تفرض عليهم الوصية الثالثة تجنب العلاقات الجنسية والتخلي عن الزواج، ولو كان بغرض النسل، فقد حرّم ماني الزواج منعاً للنسل، واستعجالاً للفناء، فهو يؤمن بأنه يجب إنهاء العالم بالقضاء على أسباب الحياة، وهم يعدون الإثارة الجنسية من شهوات الجسد، فهي لذلك شريرة، كما يعدون إنجاب الأطفال أكثر سوءاً، لأنه يسبب استمراز الحياة، ويوفر تجميع ذرات النور.

وقد فرض ماني على أصحابه عشر فرائض هي:

ترك عبادة الأصنام، واجتناب الكذب، واجتناب البخل، والقتل، والزنى، والسرقة، وتعليم العلم، وتعليم السحر، وعدم الشك في الدين، وعدم التقاعس في العمل.

هذه شريعة ماني، التي فرضها على أتباعه ومريديه، فائتمروا بأوامره وانتهوا عمّا نهى، فهي تميل إلى التشاؤم، وتعمل على منع أسباب الحياة، والوصول إلى الفناء، ومع ذلك فهي تؤمن بالفرائض التالية: الإيمان بالعظائم الأربع، وهي الإيمان بالله، ونوره، وقوته، وحكمته، فالله تعالى ملك جنان النور، ونوره الشمس والقمر، وقوته الأملاك الخمسة: النسيم، الريح، النور، الماء، النار. أما حكمته فهي الدين المقدس، الذي يقوم على الصيام والصلاة ويعظّم المانيون عامة نهار الأحد، وأما خاصتهم فيعظّمون نهار الاثنين.

هكذا أراد لهم ماني، وهكذا أوجب عليهم، وأمرهم بالتنفيذ. فالذين

يقومون بتنفيذ هذه التعاليم والوصايا، يسميهم ماني «المجتبين» أو الصدّيقين، وهم الذين يوقفون أنفسهم على حياة غايتها فداء أرواحهم فقط، ويعملون على إعادة توحيد ذرات النور مع عالم النور.

وقد أوكل ماني إلى من يسميهم «السّماعين» القيام بالأعمال المحظورة على الصديقين، فهم يزودونهم بأنواع التغذية الضرورية، ولهم تعاليم خاصة بهم، فشريعة ماني لم تحرم عليهم أكل اللحوم، لكنها حرّمت عليهم المعاشرة الجنسية يوم الأحد حيث كتب عليهم الصيام فيه.

وكان أتباع ماني يرغبون في اتخاذ الخليلات أفضل من الزواج والالتزام به. أما الصيام عند الصديقين ففرض يومي الأحد والاثنين من كل أسبوع، باعتبارهما مقدسين، ويمكن أن يمتد الصيام عندهم مدة شهر كامل، قبل العيد الأكبر عندهم، وهو عيد الوليمة المقدسة[1]. وهو مطور عن البوذية فتعاليم ماني تميز بين من يسميهم الصديقين والسّماعين، ولكل منهم تعليمات خاصة يقوم بتنفيذها.

ورد في كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية لأبـي الريحان البيروني المتوفى سنة (1048 م) يقول: «ذكر ماني في إنجيله الذي وضعه على حروف الأبجدية الاثنين والعشرين حرفاً، أنه الفارقليـط الذي بشّر به المسيح، وأنه خاتم النبيين، وأخبر عن كون العالم وهيئته بما يضاد نتائج البراهين والدلالات، ودعا إلى ملك عوالم النور، والإنسان القديم، وروح الحياة»...

وقال ماني بقدم النور والظلمة وأزليتهما، وحرّم ذبح الحيوان، وإيلامه، وإيذاء النار، والماء، والنبات على أي وجه. وشرّع نواميس يفترضها الصديقون ـ وهم أبرار المانوية وزهّادهم ـ على أنفسهم، من إيثار المسكنة، وقمع الحرص والشهوة، ورفض الدنيا والزهد فيها، ومواصلة الصوم والتصديق بما أمكن، وتحريم اقتناء أي شيء خلا قوت يوم واحد، ولباس سنة واحدة، وترك

(1) الوليمة المقدسة هي: الوجبة التي تم الاحتفال بها في نهاية الشهر الثاني عشر، أو نهاية شهر الصوم المانوي.

الفساد، ودوام التطواف في الدنيا للدعوة والإرشاد..

كما فرضوا على السّماعين وأتباعهم والمستجيبين لهم من المختلطين بالأسباب الدنيوية من التصديق رسوماً أخرى بعشر الملك، وصوم سبع العمر، والاقتصار على امرأة واحدة، ومواساة الصديقين وإزاحة عللهم... ويحكى عن ماني أنه حلل قضاء الشهوة في الغلمان، إن اهتاجت على الإنسان، ويستشهد على ذلك باختصاص كل واحد من المانية بخادم أمرد أجرد يخدمه، إلا أن سيرته تدل على خلاف ذلك[1]. لا شك في أن ديانة ماني فيها أفكار تشاؤمية عن الحياة، وأن غرض مؤسسها ماني الاستعجال في الفناء، وذلك بالحد من النسل أو منع الزواج، ويقال بأن ماني كان يحتقر النساء، ويشمئز من الجنس...

3 ـ كتب الشريعة المانويّة:

كتب ماني باللغة السريانية معظم كتبه، ما عدا كتاب واحد كتبه باللغة الفارسية الوسيطة، هو المجلّد المسمى «الشابرقان» الذي أوقفه ماني على الملك شابور بن أردشير، وقد احتوى المنشور الذي عرض فيه عقيدته، وذكر فيه عن نزول الأنبياء والرسل وعن الوحي النازل من السماء، كما تكلم فيه عن الإيمان بالآخرة.

وله كتاب «الإنجيل الحيّ» أو الإنجيل العظيم الذي أعدّه ماني ليكون نظيراً وبديلاً لإنجيل عيسى، ويلغي به كل الأناجيل المسيحية المعترف بها وفيه اثنان وعشرون سفراً.

وكتاب «كنز الأحياء» وفيه سبعة أسفار. وكتاب «سفر الأسرار» وفيه ثمانية عشر باباً. وكتاب «سفر الجبابرة» و«سفر الأحياء» وغيرها... وله عشرات من الرسائل باللغة القبطية تناولت كثيراً من المواضيع وبحثت فيها..

---

(1) من كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني..

4 ـ الحساب بعد الموت:

آمنت الديانة المانوية بيوم الحساب، كما آمنت بالثواب والعقاب لكل فرد حسب قوله أو فعله، وكل امرىء مجزي بعمله، وقد قسّم ماني أفراد البشر حسب أعمالهم وصلاحهم إلى ثلاث فئات:

ـ يقول ماني: إن هناك ثلاث طرق لحساب الناس، أحدها إلى الجنان، وهم الصديقون، فإذا حضرت الوفاة الصديق أرسل إليه الإنسان القديم إلٰهاً نيّراً بصورة الحكيم الهادي، ومعه ثلاثة آلهة: ومعهم الركوة، واللباس، والعصابة والتاج، وإكليل النور. وتأتي معهم البكر الشبيهة بنسمة ذلك الصديق، ويظهر له شيطان الحرص والشهوة، والشياطين، فإذا رآهم الصدّيق استغاث بالآلهة التي هي على شكل الحكيم، والآلهة الثلاثة، فيقربون منه، فإذا رأتهم الشياطين ولّت هاربة وأخذوا ذلك الصديق وألبسوه التاج والإكليل واللباس، وأعطوه الركوة بيده، وعرجوا به إلى فلك القمر، وإلى الإنسان القديم وإلى النهنهة أم الأحياء إلى ما كان عليه أولاً في جنان النور، ثم يبقى ذلك الجسد ملقى فتجتذب منه الشمس والقمر والآلهة النيرون القوي التي هي: الماء، والنار، والنسيم، فيرتفع إلى الشمس، ويصير إليها، ويقذف باقي جسده التي هي ظلمة كاملة إلى جهنم..

ـ أما الإنسان المحارب القابل للدين والبر والحافظ لهما من الصديقين، فإذا حضرت وفاته حضر أولئك الآلهة أنفسهم، وحضرت الشياطين، واستغاثوا بما كان يعمل من البر وحفظ الدين والصديقين، فيخلصونه من الشياطين فلا يزال في العالم شبه الإنسان الذي يرى في منامه الأهوال ويغوص في الوحل والطين، فلا يزال كذلك إلى أن يتخلص نوره وروحه، ويلحق بملحق الصديقين ويلبس لباسهم بعد مدة طويلة من التردد...

ـ أما الإنسان الأثيم المستعلي عليه الحرص والشهوة، فإذا حضرت وفاته، حضرت الشياطين، فأخذوه وعذبوه وأروه الأهوال، فيحضر أولئك الآلهة ومعهم ذلك اللباس، فيظن أنهم جاؤوا لخلاصه، ولكنهم حضروا لتوبيخه

وتذكيره بأعمال، وإلزامه الحجة في ترك إعانته للصديقين، ثم لا يزال يتردد في العالم في العذاب إلى وقت العاقبة، فيلقي بهم في جهنم[1]..

ومن خلال التراتيل المانوية يظهر لنا أنها لم تهمل عذارى الجنة لمن أحسن قولاً أو عملاً، وفيها يلتقي الإنسان الصالح في الحياة الآخرة مع ذاته السامية على شكل عذراء إلهية رائعة الجمال في الخامسة عشر من عمرها، تخبره أنها روحه، ترافقه في طريقه إلى الجنة، وهي تجسد أعماله على الأرض. وهذا مقتبس من العقيدة الإيرانية القديمة المتعلقة بالحياة الآخرة، وهي تؤمن بأنه سيقترب من الإنسان الصالح إثر موته أكثر من ثمانين ملكاً من الجنس الآخر، مزيّنين بالورود، ويحضّونه على التقدم نحو جنة النور ليتذوق السعادة هناك، فالإنسان يلقى جزاءه نتيجة أعماله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ويحاسب كذلك حسب فئته في مجتمعه إن كان من الصديقين أو من السّماعين.

وفيما يتعلق بالأرواح عند المانوية، فهي تقوم على مبدأ التقمّص الذي يعني إعادة الصياغة أو التشكيل، وهذا مقتبس من البوذية في الهند. لقد تأثر ماني بالديانة البوذية، وبخاصة بوذية «ماهايانا» في القرن الأول الميلادي. وتأثر بالديانة الزرادشتية وبخاصة الزروانية. وتأثر بالديانة المسيحية وبخاصة الغنطوسيّة منها.. ولذلك امتزجت أفكاره الدينية، واختلطت عليه الأمور وتعمّق في كتابة الأساطير والتخيلات حسب ما يتصور ويشتهي.

وسبحان الله عما يقولون.. وتعالى عما يصفون..

5 ـ ماني Mani (216-276 م):

هو ماني بن فاتك الحكيم، ظهر في زمن شابور بن أزدشير بن بابك، وهو من إيران الشمالية الغربية أو أرمينيا. وُلد ماني حوالي 216 م، في قرية «مردينو» ببابل في منطقة بلاد الرافدين التي كانت جزءاً من امبراطورية فارس في القرن

---

(1) من كتاب الفهرست للنديم، محمد بن إسحق المعروف بالوراق (ت 990 م).

الثالث الميلادي فهو يقول: «إنني رسول شاكر قائم من أرض بابل». تربّى في عائلة تأثرت بالديانة المسيحية، وكان يحلم برؤى دينية، وهو في الثانية عشر من عمره، وكان يتكلم بالحكمة على صغر سنه.

بدأ يبشر بدينه المانيّ الجديد في الرابعة والعشرين من عمره، وكان دينه بين المجوسية والنصرانية وكان مولعاً بالتنجيم، وكان طبيباً قادراً على طرد الشياطين المتلبّسة للمرضى، وشفاء المرضى. وكان حكيماً بارعاً قادراً على صنع المعجزات، وهو رجل الأساطير، ونبيّ المانوية ومؤسسها، ويقال لها حامل الوحي السماوي، ورسول النور، وآخر نبيّ للشريعة السماوية السرمدية، وخاتم الرسل.

ادّعى أنه قد عُرج به إلى السماء وأنه تلقى الوحي الإلهي هناك على شكل كتاب، توجه إلى شمال الهند لنشر دينه هناك، بعد أن فشل في نشره في بلاد الرافدين. كتب عدة كتب، بعضها بالفارسية والأخرى بالسريانية، أصبحت فيما بعد الكتب الرسمية للديانة المانية، وتنوعت مواهبه الفنية والأدبية بشكل مذهل وكان شخصية غير عادية. ورد في كتاب الفهرست للنديم، أن محمد بن إسحق المعروف بالوراق المتوفى (380 هـ، 990 م) قال في ماني ومذهبه ما يلي:

«ماني بن فتق بابك بن أبي برزام من الحسكانية، واسم أمه مس ويقال أوتاخيم، ويقال مـرمريم، من ولد الأشغانية، وقيل أن ماني كان أسقف قنىٰ، والعربان من أهل جوخي ومايلي بادرا وباكسايا وكان أحنف الرجل.. ويقال أن أصل أبيه من همذان، انتقل إلى بابل، وكان ينزل المدائن في طيسفون، وبها بيت الأصنام، وكان فتق يحضره، كما يحضره سائر الناس. فلما كان يوم من الأيام هتف به هاتف من هيكل بيت الأصنام قائلاً: «يا فتق، لا تأكل لحماً، ولا تشرب خمراً، ولا تنكح بشراً».

تكرر عليه ذلك عدة مرات في ثلاثة أيام، فلما رأى فتق ذلك لحق بنواحي دستمسان حيث كان ـ المغتسلة ـ على المذهب ذاته الذي أُمِرَ فتق بالدخول فيه،

وكانت امرأته حاملاً بـ «ماني»، فلما ولدته، زعموا أن أمه كانت ترى له المنامات الحسنة، وأنها كانت ترى في اليقظة كأن آخذاً يأخذه، فيصعد به إلى السماء، ويقيم به يوماً أو يومين ثم يرده، ثم حمله أبوه إلى الموضع الذي كان فيه لينقذه فرُبّي معه، وعلى ملته، وكان يتكلم «ماني» بكلام الحكمة رغم صغر سنه وحداثته. .

ولما أتمَّ الثانية عشرة من العمر جاءه الوحي ـ على حد قوله ـ، من ملك جنان النور، وهو الله تعالى الإله عما يقوله، وكان الملك الذي جاءه بالوحي يسمى «التوم» وهو بالنبطية، ويعني القرين، فقال له: «اعتزل هذه الملة، فلست من أهلها، وعليك بالنزاهة وترك الشهوات، ولم يأن لك أن تظهر لحداثة سنك».

فلما أتم الرابعة والعشرين من العمر. أتاه «التوم» موحياً إليه بأنه «فقد حان لك أن تخرج فتنادي بأمرك». ويخاطبه بقوله «عليه السلام «ماني»، منّي ومن الرب الذي أرسلني إليك، واختارك لرسالته، وقد أمرك أن تدعو وتبشر ببشرى الحق من قبله، وتحيل في ذلك كل جهدك».

ويذكر محمد بن إسحق ما جاء به ماني، وما قاله في صفة القديم وبناء العالم والصراع بين النور والظلام، النور وهو العظيم الأول والإله الأكبر وهو أحد الكونين، والظلمة هي الكون الآخر وكل منهما ينفصل عن الآخر. قال البيروني في كتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية» ما يلي: «ثم جاء ماني تلميذ فادرون، وكان قد عرف مذهب المجوس والنصارى والثنوية فتنبأ وزعم في أول كتابه الموسوم بالشابورقان وهو الذي ألفه لشابور بن أردشير أن الحكمة والأعمال هي التي لم يزل رسل الله تأتي بها في زمن دون زمن، فكان مجيئهم في بعض القرون على يدي الرسول الذي هو البد إلى بلاد الهند، وفي بعضها على يدي زرادشت إلى أرض فارس، وفي بعضها على يدي عيسىٰ إلى أرض المغرب، ثم نزل هذا الوحي وجاءت هذه النبوءة في هذا القرن الأخير على يدي أنا ماني: رسول إله الحق إلى أرض بابل».

نهاية محزنة:

في أواخر أيامه تعرض لرقابة شديدة في عهد بهرام الأول (274-277 م) فقد ورد في هذا النص القبطي وصف لأيام ماني الأخيرة، عندما تلقى الاعتراض الملكي. يقول النص: «رجع لتـوّه، يكتنفه الغضب والأسى، فغادر هرمزاردشير إلى ميسان ثم إلى نهر دجلة، ومن هناك ركب النهر إلى طيسفون، وعندما كان على ضفاف النهر يتابع رحلته، حذّر أتباعه وأنذرهم بقرب موعد نيله الشهادة، وذلك بقوله: انظروا إليّ، واملأوا عيونكم منّي، يا أولادي ففي قريب سيرحل جسدي عنكم، وقد استدعـاه الملك «بهرام» لاتهامه بنشر مبادىء دينية تعارض شريعة زرادشت المعترف بها رسمياً، ولما جاء لمقابلة الملك دار بينهما حوار فيه اتهام وتجريح من الملك، وفيه دفاع وتصريح من الرسول ماني، كانت النتيجة أن أقرّ الملك بتقييد ماني بالأغلال، وأن يؤخذ إلى السجن، حيث بقي فيه أقل من شهر في عام (276 م)، وكان ماني يقابل تلاميذه وحوارييّه في سجنه ولكن قوته انهارت بسبب تقدمه في السن، فهو في الستين من عمره، وهو مستمر في صيامه إلى أن مات في الرابع عشر من نيسان من العام نفسه...

ويعتقد المانيون أنه صعد من جسده إلى مساكن جلالته في عليين «ويقال إن الملك بهرام قتله وسلخ جلده وحشاه تبناً، وعلّقه على باب مدينة جند يسابور الذي يعرف بباب ماني».

ويحكى أن الملك أمر بغرز مشعل محترق في جسد ماني ليتأكد فيما إذا كان ميتاً بالفعل أم لا. ثم مزقت جثته، وقُطِعَ رَأسه، وعُلِقَ فوق باب «بيت ـ لابات». ثم قام الأتباع المخلصون له بدفن بقايا جسده في طيسفون..

ومهما كانت طريقة قتله فالموت واحد، ولم تتعرض ديانة كما تعرضت ديانة ماني للاضطهاد والملاحقة، كما أن نهاية حياته كانت مأساة شنيعة فظيعة بسبب ما قدّم من أفكار ومعتقدات أسطورية..

وقد انقسم أتباعه من بعده إلى شيع وطوائف توافقه في بعض عقائده، وتخالفه في بعضها. ومن فرق المانوية الثنوية:

1 ـ المزدكية، وهم أتباع مزدك.
2 ـ الديصانية، وهم أتباع ابن ديصان.
3 ـ المرقيونية، وهم أتباع مرقيون.
4 ـ الجنجين، وهم أتباع جنجي الجوخاني.

ثم الرشيين، المهاجرين، الكشطين، المغتسلة، وغيرهم...

الباب العاشر
ديانة الأوثان عند اليونان

أولاً: مذاهب ومعتقدات يونانية:

يقول «ارستوفانيس» أشهر الكتاب الساخرين في القرن الرابع قبل الميلاد «وما أكثر ما يقدم إلى الآلهة من ضحايا، وما أكثر ما يقام من هياكل وتماثيل، ومواكب مقدسة إنا لنشهد في كل ساعة أعياداً دينية وضحايا عليها أكاليل من الزهر تقرب للآلهة».

ويقول «هوميروس»: إن ديانة الإغريق تكونت من مجموعة كبيرة من العقائد الوثنية، فقد عبد البشر كثيراً من الآلهة التي جعلت على صورة البشر في مرحلة تجسيد الآلهة». وقد استمرت تلك العبادات منذ القرن التاسع قبل الميلاد.

وكان سكان أثينا يقدسون قوى الطبيعة بصور بشرية، اعتقدوا أنها تسكن جبل «أولمب». كما اعتقدوا أن اختلاف الطقس مصدره إله السماء «زيوس» حيث تهب العواصف عندما يغضب الإله ويتحول إلى طقس جميل إذا رضي الإله. وكان عند الإغريق مجموعة أخرى من الآلهة ترجع إلى الفترات البدائية من حياتهم فقد تأثر أهل اليونان بديانات الشعوب التي كانت تعيش في حوض المتوسط، أو تلك التي غزت بلادهم- والتي فرضت دياناتها عليهم، لتحل محل

الديانة القائمة. لذلك اعتقد الإغريق بكثرة الآلهة المتخصصة، وهي تتوزع في مجموعات منها:

1 ـ مجموعة الآلهة الأولمبية:

التي يرئسها زيوس Zeus (**شكل 26**) وهو أبو الآلهة والبشر على حد سواء، ويصوره هوميروس بأنه كالقدر، فهو الذي يقدر حظوظ البشر ويزينها في ميزانه الذهبي.

2 ـ مجموعة الآلهة الفطرية أو البدائية:

فقد عبد الإغريق مظاهر الطبيعة كالشمس والنجوم والسماء والأرض والجبال والبحار، وكانوا يخرّون لها ساجدين لما لها من أثر عظيم في حياتهم، فهي التي تنفعهم أو تضرهم.. ويقول هوميروس بأن الديانة الفطرية عندهم كانت خالية من المثل الأخلاقية العليا، حيث تمارس الآلهة النواحي الجنسية كما يفعل بنو البشر، حتى أنها اتخذت لنفسها صفاتاً آدمية، فمنها ما اتصف بالحقد والضغينة، ومنها ما اتصف بالجبن والخيانة. ويمكن أن تلجأ هذه الآلهة إلى أحط السبل غير الأخلاقية في معاملتها مع بعضها أو في معاملتها مع البشر، إلا أنهم يمتازون عن البشر بأنهم خالدين...

3 ـ مجموعة عبادة الأرواح:

الذين يعتقدون أن قوة خفية تسيطر على كل شيء وتبعث الحياة في كل شيء. وقد دعوها «مانا Mana».

4 ـ مجموعة عبادة الأشياء:

التي تقوم على عبادة وتقديس شيء ما. كأنه جسد تقمّصته روح تسمى «الفتشية Fetshism» وربما كان هذا الشيء أو الـ Fetish. شجرة أو قطعة خشب تحولت فيما بعد إلى تماثيل أقامها الناس وعبدوا فيها الروح التي تقمصتها. ثم

تطورت هذه العبادة إلى عبادة الأوثان بمختلف أشكالها، والديانة الفتشية شبيهة بالطوطمية. غير أن الطوطم تعبده قبيلة بأجمعها، بينما الفيتش لا يعبده إلا شخص واحد. وقد وجدت عند الاغريق مجموعة عقائد منها:

1 ـ **عقيدة ديونيزيس**: وهو ابن الإله زيوس، وهو من تراقيا في الأصل، كان يهتم بشؤون الزراعة والخصب، توفي أثناء الحصاد، عندما كان يقوم بمهمة الاشراف عليه، وقد أوغل في باطن الأرض تاركاً عالم الأحياء إلى عالم الموتى. وباستطاعته تأمين الخلود لأتباعه فيصبح ملكاً عليهم. ثم صار يعدّ إله الخمر في أثينا، وقد انتشر في عقيدته اللعب واللهو خاصة. وكان ذلك في القرن الرابع قبل الميلاد...

2 ـ **المذهب الأورفي**: وضعه الشاعر «أورفيوس» في القرن السادس قبل الميلاد، وقد اشتقّت عقيدة هذا المذهب من أسطورة كريتية الأصل..

تقول الأسطورة: «أن زاغروس أحد أبناء زيوس، تحول إلى عجل افترسه أحد الشياطين الخمسة والأربعين المدعوين بـ «التيتانس» بعد معركة دارت بين زاغروس والشياطين، لكن الآلهة «آتينا» احتفظت بروحه، فأعاد لها زيوس اللحياة تحت اسم: ديونيزيوس...

يعتقد أصحاب المذهب الأورفي: أن الإنسان يتكون من عنصرين هما: الروح والجسد. وأن الجسد قبر الروح. فإن مات الإنسان غادرت الروح هذا القبر ويدعى «سوما». وتبدأ الآلهة بمحاسبة الروح وتطهيرها، فتمر بدورات كبيرة من دورات التناسخ لتتخلص من الأدران التي علقت بها عندما كانت أسيرة الجسد، ثم تعود إليه لتحيا حياة نسك وزهد. وتصبح صلاتها وثيقة بعالم الآلهة بعد إخضاعها لعدد من الطقوس الإلهية، ثم تحاط علماً بكلمة السر التي توصلها للعالم الآخر، أو أن تذهب إلى الجحيم حيث يحاسبها آلهة العالم السفلي. وقد انتشر هذا المذهب بسرعة لأنه يستمد قوته من أفكار دينية معقولة بنظرهم...

3 ـ **عقيدة ايلوزيس**: اشتهرت بما فيها من معجزات وأمور خارقة

وغامضة، وهي عدة عقائد يكتنفها الغموض، ويستطيع أن يكون سعيداً في الدنيا والآخرة من يتبعها. وتقوم على عبادة الآلهة ديميتر وابنتها كورة. وكانت العبادة تقتصر على النساء في بادىء الأمر على حد قول الأسطورة التي تعود إلى القرن السادس أو السابع قبل الميلاد. تقول الأسطورة: إن كورة ابنة ديميتر أخذها الإله «هادس» بأمر من زيوس إلى عالم الآلام البعيد، فأخذت أمها تبحث عنها حتى وصلت إلى ايلوزس. حيث استقبلها ملكها «كيليوس» الذي اعترف بها «بديميتر» إلهة كبرى. وأقام لها معبداً خاصاً سكنته وأصبحت بعد ذلك الآلهة التي تقدم للأفراد الغلال والخيرات، وتحفظهم من المجاعات. لكن زيوس استاء من عمل ديميتر، وبعث إليها بجميع الآلهة يطلبون منها العودة إلى جبال أولمب لتعيش مع بقية الآلهة هناك، على أن يعيد لها زيوس ابنتها كورة... وأعادها فعلاً لأمها تحت اسم «بيرسيفونيا». فازدهرت الأرض وأخضرت، وأصبحت الآلهة ديميتر وابنتها كورة إلهتي عام الآلام والخصب.

وقد علمتهم ديميتر أصول الزراعة وطرق تحسينها.. ومن المعلوم أن الاغريق اقتبسوا معبودتين من سورية هما: أدونيس وعشتاروت. وأخذ من مصر عبادة ايزيس، وشيدوا لها معبداً في أثينا والإله آمون الذي شيد له معبد في بيوشيا.

وبالرغم من أن حكومة أثينا أشرفت على العبادات الدينية من حيث حمايتها وتأمين ممارستها بحرية تامة. إلا أنها لم تسنّ القوانين الدينية لاتباعها في أثينا، ولم تكن لها نصوص مقدسة معروفة ولم يشكل الكهنة فيها طبقة مستقلة كما كانوا في مصر وبلاد الرافدين.

ثانياً: الآلهة المتعددة في بلاد الإغريق:

يتوزع آلهة اليونان جغرافياً إلى ثلاث مجموعات:

1 ـ آلهة جبال الألمب: أشهرها: (شكل 27).

* زفس (زيوس): وهو إله السماء والرعد والصواعق، تلازمه على جبل

أولمب أسرته المشكلة من زوجته وأبنائه الثلاثة وبناته الثلاث. .

* هيرا: ربة القوى المنتجة في الطبيعة. وهي زوجة زفس الشرعية وشقيقته.

* اريس: إله الحرب (المريخ) وعشيق افروديت، وابن هيرا وزفس. .

* ابوللو: إله الفنون والموسيقى والشعر وهو ابن زفس، وسهام قوسه لا تخطىء. .

* هيرمس: رسول زفس، وسيد الرياضيين، وإله التجّار والمسافرين. .

* افروديت: ربّة الجمال والحب، وتسمى (الزهرة)، خلقت من زبد البحر. .

* أثينا: ربة الحكمة والحساب والذكاء، وهي على صورة عذراء ذات عينين براقتين، على رأسها خوذة، وعلى صدرها سلاح لامع، وهي ابنة زفس ولدت من رأسه. .

* ارتيميس: تمثّل بالقمر، وهي ربة النور الليلي، وإلهة الصيد والغابات لم يترك لها شغفها بالحيوانات مجالاً لحب الرجال. .

* هيفا يستوس: ابن زفس وهيرا، ألقى به أبوه من أعلى جبل أولمب في إحدى ساعات غضبه، فصار أعرجاً، وهو إله النار والحدادين. وزوج غير كفء لأفروديت. .

2 ـ إلهة الأرض وجوفها: وعلى رأسهم:

* هيريز: شقيق زفس، يحكم على جوف الأرض، وعالم الأموات. .

* ديميتر: شقيقة زفس، وإلهة الزرع والثمار، تتمثل فيها الأرض الأم. .

* ديونيسيوس: إله الخمر، تحتفل النساء في عيده بالسكر والنشوة. .

3 ـ آلهة البحار: وأهمهم:

* بوسيدون: إله المحيطات والبحار والزلازل، وشقيق زفس، تتفتح أمامه

أبواب البحار.. عربته وخيوله البيضاء تثير زبد البحر.. يعصف في الأصداف فيدوّي صوت الأمواج.. كل هذه الآلهة العديدة في بلاد اليونان، كان يتم تكريمها ببناء المعابد لها، لممارسة الطقوس الدينية التي تتخذ شكل مواكب وأناشيد وصلوات، وخاصة تقديم القرابين التي تشمل على تقديم حيوان مكلّلة بالزهور أو الفاكهة لهذه الآلهة.. وكان الكهنة يذبحون القربان الذي يحرق جزء منه فوق الهيكل حيث يعتقدون أن الإله يأكل هذا الجزء.. والباقي يأكله الكهنة والمتعبدون وكانت تقام أعياد خاصة حسب المواسم. ومنذ عام (776 ق. م). اقترنت الأعياد الدينية بألعاب رياضية، أصبحت تقام كل أربع سنوات في منطقة أولمبيا، تكريماً للإله زفس، تستمر خمسة أيام، تشمل كل بلاد اليونان.. توزع في نهايتها الجوائز على الفائزين..

ولا تزال هذه التقاليد حتى أيامنا هذه، حيث تقام مرة كل أربع سنوات في بلد من بلدان العالم.. لقد استمرت الوثنية في بلاد اليونان بآلهتها المتعددة، حتى ظهرت الديانة المسيحية التي قضت عليها.. حيث تولى القدّيس بولص التبشير بالمسيحية لأهل أثينا، ومن بعدها عمّت المسيحية أرجاء اليونان.....

الباب الحادي عشر

ديانة الأوثان عند الرومان

أولاً: عقائد ومبادىء رومانية:

يقول وول ديورانت: إننا لا نعرف قط ديناً يبلغ فيه عدد الآلهة ما بلغه عند الرومان. ويقدرها «فارو» بثلاثين ألفاً، ويشكو بترونيوس من أن بعض المدن الإيطالية كان فيها من الآلهة أكثر مما فيها من الرجال. فالرومان عبدوا أعداداً كبيرة من الآلهة، تعددت بتعدد مظاهر الطبيعة، التي تتجلّى أوامر آلهتهم ونواهيها، وقد اقتبسوا بعض أسماء الآلهة وخواصها من المصريين القدماء، فعندهم ايزس أويزارس وهيراميس، وهي تشبه الوثنية اليونانية إلى حد كبير..

وقد ترسّب في ديانة الرومان الوثنية بقايا من الديانات القديمة البدائية، كعبادة قوى الطبيعة وعبادة الأشياء «الفيتشية»، وهي عبارة عن عبادة شيء ما على شكل جسد تقمصته روح، والطوطمية التي كانت تعبدها القبيلة بأجمعها وهي تشبه الفيتشية. كان الرومان يؤمنون بالسحر والتمائم، ويعتقدون بأنها تدفع الأذى، وتحمي الإنسان من الشر، وتشفيه من الأمراض وكانوا يستسقون الغيث بوساطتها، ويلتمسون من الآلهة النصر على الأعداء، وكان الرومان يحيطون بعض الأمور بالقدسية، وكذلك بعض الأماكن والأشخاص أيضاً، وخاصة الوليد حتى يكبر، والمرأة في الطمث حتى تطهر، والمجرم إذا ثبتت إدانته، فهؤلاء الأشخاص مثلاً يقدّسون ولو لفترة محدودة، وكان الرومان يؤمنون بالطيرة والفأل والخوارق والمعجزات.

وكانوا يصدقون نبوءات الكهنة والعرّافين، وكانوا يعبدون آلهتهم المتعددة دون أن يتخذوا لها تماثيل أو أصناماً، ثم اتخذوا بعد ذلك أصناماً من الخشب ثم من الرخام. .

وقد تعدد الأرباب عند الرومان، فكان لكل مظهر من مظاهر الحياة رب، ولكل قوة في الإنسان رب، فعندما يولد الطفل يأتيه رب يعلّمه النطق، وربة تعلّمه الشرب، وأخرى تقوي عظامه. وربّان آخران يرافقانه إلى المدرسة، وآخران يرجعان به من المدرسة، وهكذا. . . وكانوا يعتقدون بوجود أرباب للمدينة وللجبل، ولكل نهر ولكل نبع ولكل شجرة رب خاص. وبذلك يقول الكاتب اللاتيني «بترون» في إحدى قصصه على لسان امرأة صالحة: «إن بلادنا غصّة بالأرباب، بحيث يسهل عليك أن تلقى فيها ربّاً من أن تصادق رجلاً».

وقد ادّعى بعض المؤرخين أن وثنية الرومان لم تكن على مستوى رفيع، فقد أدّت إلى انحلال أخلاقهم وفسادها، وكانت آلهة الرومان لا تكافىء الإنسان بأعماله، ولا بتقواه أو ورعه، وإنما بمقدار ما كان يقدم لها من هدايا وقرابين، وإلى ما يتلوه من أدعية وصلوات في معابدها، ولكن المعروف أن الآلهة الرومانية كانت تدعو إلى الأخلاق الفاضلة، وكانت تحبّذ العظام والقوة، كما كانت تدعو إلى توثيق عرى الأسرة، ودعم حقوق الأب، وإجبار جميع أفراد الأسرة على تبجيله وتعظيمه، لدرجة العبادة، كما ساهمت هذه الآلهة في ترسيخ دعائم بناء الدولة، فهي تشد أزرها، وجعلت حب الوطن دليلاً على تقوى الأفراد وإيمانهم.

لقد فهم الروماني قديماً أن آلهته مجرد أرواح مختلفة، كانوا يسمونها (مومينا) صنفوا هذه الأرواح في فئات هي:

1 ـ أرواح المرضى وأرواح الموتى والأطياف

2 ـ أرواح فصول السنة. .

3 ـ آلهة الماء ومنها (نبتون)، وأرواح الغابات، والآلهة المستقرة في الأشجار. .

4 ـ الأرواح التي تتقمص الحيوانات المقدسة، ومن بينها الحصان والحيوان الذبيح، والأوز المقدس المحتفظ به على الكابيتول، دون أن يجرؤ أحد على مسّه بسوء..

5 ـ أرواح التناسل والخصب..

كما أن لهم آلهة أخرى معنوية مجردة، مثل: الشرف والفضيلة، والعفاف، والوفاق، والذاكرة، والحظ، والشباب، والصحة، والنصر.. وقد كان الرومان يقدسون بعض ملوكهم ويرفعونهم لدرجة الآلهة أمثال: يوليوس قيصر، وأوكتافيوس...

ثانياً: الآلهة في بلاد الرومان:

وهي كثيرة ومتنوعة منها:

* جوبيتر Jupiter: وهو أهم الآلهة القومية عند الرومان، وكان في البداية يمثل السماء الصافية وأشعة الشمس ونور القمر، وقصف الرعد، ثم صار إلهاً للمطر المخصب، أقيم له هيكلاً على الكابيتول ثم صار إله السماء بعد أن توحد مع الإله ديانوس Dianus وكان يرافق الجيوش ليمنحها النصر، كما كان يهزم بدوره إله الأعداء، والرومان مدينون له بكل انتصاراتهم التي أحرزوها..

* المريخ Mars: كان إله الحرث ثم أصبح إله الحرب. ثم صار رمزاً لروما وشعاراً لها، ويعتقد الرومان بأن مارس كان أحد جبابرة الحروب.. وكان شجاعاً وفارساً مغواراً، يسهر على حماية القوات الرومانية في ساحات القتال، ويمنحها النصر في المعارك..

* زحل Saturne: وهو إله الزرع، ويقال عنه بأنه أحد ملوك ما قبل التاريخ، وقد نجح في إخضاع جميع القبائل لقانون موحد، وأقر السلام بينها، ثم علّمها الزراعة..

* يونيو Juno: أو تموز وهي آلهة عدّت ملكة السماء، وحامية الأنوثة،

والزواج والأمة ويعتقدون أن الزواج في شهرها زواج سعيد..

* **فينوس (الزهرة) Venus**: وهي ربّة الشهوة والزواج والأخصاب وشهرها هو شهر نيسان وفيه تتفتح الأزهار...

* **ديانا Diana**: وهي آلهة القمر والنساء، والولادة والصيد والغابات ووحوشها...

* **مينرفا Ninerva**: وهي ربّة الحكمة والذاكرة والحرف اليدوية والفن.. وتعدّ ربّة المفكرين والعمال الحرفيين.. وعند الرومان آلهة أخرى ثانوية منها:

* **عطارد Mercury**: حامي التجار واللصوص..

* **هرقل Hercules**: إله الخمر والأفراح..

* **آبس Aps**: إلٰهة الثروة والإنتاج..

* **بلونا Bellona**: إلٰهة الحرب والدمار...

ثالثاً: الكهنة الرومان:

كان للكهنة دور عظيم في سياسة الدولة حيث ساعدوا السلطات الحاكمة في تدعيم الحكم وتثبيته، وكان يرأسهم الكاهن الأعظم أو الحبر الأعظم الذي يختاره المجلس المئوي، وقد كانت المنفعة متبادلة بين الكهنة والحكام الذين كانوا يغضون النظر عن الثروة التي تتنامى لدى الكهنة نتيجة النذور والأوقاف والهبات العينية والنقدية.. أما الكاهنات فقد ألّفن مجمعاً خاصاً بهنّ وأوكلن إليهنّ أمر إيقاد الشعلة الخالدة في الهيكل فإذا انطفأت عوقبت الكاهنة بوأدها حيّة..

ومن أهم فئات الكهنة: العرافون التسعة الذين يتمكنون من الوقوف على رغبات الآلهة ومشيئتها بزجر الطير، وبالتدقيق في أحشاء الضحايا أو القرابين التي تُقدّم للآلهة..

رابعاً: الأضاحي والقرابين:

كانت تقدم هذه الأضاحي للآلهة لكسب رضاها، ولدفع أذاها وغضبها، وكانت تقدّم بطقوس دينية، تُتلى فيها صلوات خاصة على الأضحية ليتقبلها الإله. وتقتصر عملية تقديم الأضحية إلى الإله على حرق أحشائها على المذبح ثم يأكل الكهنة، والأفراد ما بقي منها. . وكان بعض الأفراد يضحّون بأنفسهم للآلهة أو يضحّى بهم لها، واستمرت هذه العادة حتى صدر قانون سنة (97 م) بتحريم ذلك. . . .

الباب الثاني عشر

العرب قبل الإسلام في الجزيرة العربية

1 ـ لمحة تاريخية:

سكنت في الجزيرة العربية أقوام عديدة، فمنهم من أقاموا في بلاد اليمن، التي كانت تشمل من الوجهة الجغرافية الجزء الجنوبي من جزيرة العرب وأطلِق عليها اسم عرب الجنوب. أو العرب العاربة أو البائدة ومعظم هذه الشعوب التي أقامت هناك قد أسست حضارات سادت ثم بادت، وازدهرت فترة ثم اندثرت، وهاجرت شعوبها الباقية إلى مواقع أخرى، ولم يبق فيها إلا بعض آثارها. منها: عاد، ثمود، معين، سبأ، العمالقة، طسم، جديس، أميم، عبيل، جرهُم الأولى، وغيرها.

ومن المتفق عليه تاريخياً أن جميع قبائل العرب البائدة هذه هي من أولاد إرم بن سام بن نوح[1]. ويرجع سبب هلاك هذه القبائل واندثارها إلى كوارث طبيعية نزلت بها، أصابها الله تعالى بها بسبب سوء أعمالها وتحدّيها لقدرته، فحلّ بها غضب الله على شكل عواصف رملية، أو براكين أو هزات أرضية، أو جفاف، وما إلى ذلك.

وقد وردت أخبارهم في القرآن الكريم أو في الحديث الشريف أو في كتب الأدب القديمة.

---

(1) العرب واليهود في التاريخ ـ أحمد سوسة.

* ومنهم من أقاموا في شمال الجزيرة العربية على حدود فلسطين وأرض ما بين النهرين حتى حدود اليمن جنوباً، وقد أطلق عليهم اسم عرب الشمال، أو العرب المستعربة أو الباقية، وسميت كذلك بالقبائل الإسماعيلية، نسبة إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، كما سميت بالعرب العدنانيين نسبة إلى جدهم عدنان أحد حفدة إسماعيل. «أنظر جدول الأنساب المرفق».

ويطلق عليهم أيضاً النزاريون أو المعديون. . . وهم جميعاً من القبائل العربية الباقية. ويرجعون في أصولهم إلى إسماعيل عليه السلام، الذي يعد جدهم الأكبر، ويرجع جميع عرب الحجاز في أصولهم إلى نابت وقيذار ابني إسماعيل. . وكانت معظم هذه القبائل من البدو الرحل ما عدا قبيلة قريش التي استقرت في مكة، وجعلتها عاصمة لها، وكانت مكة تعد الوطن الأول للعدنانيين، بل المهد الأول للإسماعيليين، ومنها هاجروا أو تفرقوا لعوامل قاهرة، ويبدأ تاريخهم أصولياً بنقل إبراهيم الخليل زوجه هاجر وابنهما إسماعيل إلى مكة في القرن التاسع عشر قبل الميلاد. . وسنأتي على دراسة حياة كل من إبراهيم الخليل كأب للأنبياء والرسل، وابنه إسماعيل كجد لأمة العرب.

وقد حصل تمازج واختلاط بين عرب الجنوب وعرب الشمال، مع بعض الاختلاف الاقتصادي والاجتماعي فقد كان عرب الجنوب متفوقين في حضارتهم وثقافتهم وصناعتهم وأحوالهم السياسية على عرب الشمال وهم من القبائل الرحل، وكان يطلق على عرب الجنوب أهل المَدَر، وعلى عرب الشمال أهل الوَبَر. وكان بينهم تشابه في عبادة الأوثان والأصنام، وإن وجدت بعض الاختلافات الثانوية. . وقد أطلِق على فترة ما قبل الإسلام في جزيرة العرب اسم الجاهلية.

فكيف كان العرب في جاهليتهم؟

2 ـ الجاهلية في التاريخ:

يجمع المؤرخون على تسمية تاريخ العرب قبل الإسلام مباشرة بالجاهلية وذلك لتفشي الوثنية والعداوات والنظم القبلية فيها، وقد ظهرت هذه التسمية صراحة بظهور الإسلام، وترددت كلمة الجاهلية في أكثر من موضع في القرآن

الكريم. قال تعالى: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾[1]. وقال جل شأنه: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾[2]. وفي هذا القول تمييز واضح بين عباد الرحمن الذين يوحدون الله، وبين الجاهلين عباد الأوثان والمشركين بالله يقول عز وجل: ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾[3]. وتعني الحمية هنا: الأنفة والغيرة، والمحافظة على المحارم والأعراف..

ويذكر جل شأنه مخاطباً نساء النبي: ﴿وقَرْنَ في بيوتكن، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾[4] أي يا نساء النبي إلزمن بيوتكن، ولا تخرجن لغير حاجة شرعية، ولا تخرجن لتمشين بين يدي الرجال كما كانت تفعل بعض النساء في الجاهلية أي قبل الإسلام. وقال سبحانه وتعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿خذ العفوَ وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾[5]. وعلى لسان رسول الله ﷺ جاء في الحديث الشريف مخاطباً أبي ذر، وقد عيّر رجلاً بأمّه قائلاً: «إنك امرؤ فيك جاهلية». وجاء في مطلع خطاب جعفر بن أبي طالب بين يدي النجاشي ملك الحبشة عندما هاجر المسلمون إليها فراراً بدينهم من بطش قريش وأذاها قائلاً:

«أيها الملك: كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء إلى الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا كذلك حتى بعث الله فينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، وخلع ما كنا نعبده نحن وآباؤنا من دونه من الأوثان». هذا خطاب صريح وواضح يصف الجاهلية بأنها عبادة الأصنام وإتيان الفواحش، والاعتداء على الحرمات، والشرك بالله، ويميزها عن فترة الإسلام

---

(1) سورة المائدة، آية: 50.
(2) سورة الفرقان، آية: 63.
(3) سورة الفتح، آية: 26.
(4) سورة الأحزاب، آية: 33.
(5) سورة الأعراف، آية: 199.

اللاحقة التي هي عبادة الله وحده لا شريك له. وفي معلقة الشاعر عمرو بن كلثوم يقول:

ألا لا يجهلنْ أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فالجاهلية هنا لا تعني الجهل وعدم المعرفة، والمقصود بها: السفه والطيش، والغضب والحماقة والنزق والأنفة، وهي على عكس الإسلام الذي يعني الخضوع والطاعة لله وحده، فالجاهلية هي فعلاً الفترة التي سبقت ظهور الإسلام حيث لم يكن لبلاد العرب فيها ناموس وازع، ولا نبي ملهم، ولا كتاب منزل، بل كانوا يعبدون الأصنام ويدينون بالوثنية، وتقوم أخلاقهم على الحمية والأخذ بالثأر، وارتكاب الجرائم، وتحليل الحرام، وتحريم الحلال.

يقول ابن خلدون في مقدمته: «إن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا عِلم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية في أسباب مكونات، وبدء الخليقة وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدون منهم».

* لقد كان فضل محمد عليه الصلاة والسلام على العرب عظيماً، فقد جاءهم بالحق من عند الحق ويتجلى ذلك في جواب رسل عمر بن الخطاب إلى كسرى حين سألهم عن أعمال النبي..

قال هؤلاء الرسل «فأما ما ذكرت من سوء حالنا فما كان أحد أسوأ حالاً منّا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان، والعقارب والحيات، فكنا نرى ذلك طعامنا، أما المنازل فكانت ظهر الأرض، ولم نلبس إلّا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم، كان ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً، ويغير بعضنا على بعض، وكان أحدنا يدفن ابنته وهي حيّة، كراهيّة أن تأكل من طعامنا، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرنا لك. فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً، نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده، فأرضه خير أرضنا، وحسبه خير أحسابنا، وبيته أعظم بيوتنا، وقبيلته خير قبائلنا، فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتّباعه، فما قال لنا هو قول الله، وما أمرنا فهو أمر الله، وقال لنا: إن ربكم يقول: إني أنا

الله وحدي لا شريك لي، كنت إذ لم يكن شيء، وكل شيء هالك إلا وجهي، وأنا خلقت كل شيء، وإليّ يصير كل شيء، وإنَّ رحمتي أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي ولأحلّكم داري دار السلام، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق»[1]. . .

3 - إبراهيم الخليل والدين الحنيف:

هو إبراهيم بن تارح «آزر» بن ناحور، ولد حوالي سنة (1996 ق. م)، وكان عمر أبيه خمس وسبعون سنة، في مدينة «أور»[2] في أرض الكلدانيين، وتعرف اليوم باسم «مُغير» تقع بين نهري دجلة والفرات. ويذكر الطبري في تاريخه: أن مولد إبراهيم كان في بابل في منطقة السواد، وكما جاء في التوراة فهو من «فدان آرام» من العراق، ولد في عهد الملك «نمرود بن كنعان بن كوش» الذي كان يدعي الألوهية، وكان أهل بابل يعتقدون بمظاهر الطبيعة ويعبدون الكواكب، كالقمر «نافارا» والشمس «شماس»، والزهرة «عشتار»، والمريخ «مردوخ». . .

انطلق تارح بابنه إبراهيم وامرأته سارة[3]، وابن أخيه لوط بن هاران، انطلقوا من أرض بابل إلى أرض كنعان، قاصدين بلاد بيت المقدس، فنزلوا حرّان[4]، وأقاموا فيها، وكان أهلها كذلك من عبدة الكواكب السبعة، كما كان أهل الشام والجزيرة، ومعظم أصقاع الأرض من عبدة الوثنية حينذاك، ثم توجه إلى أرض كنعان، ومنها إلى مصر، وعاد منها إلى الأرض المقدسة، واستقر فيها وعاشر أهلها، حتى توفي هناك. . .

وتقول التوراة أنه عندما كان إبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر له الرب وغيّر

---

(1) من كتاب حضارة العرب (غوستاف لوبون).

(2) أور: مسقط رأس إبراهيم، ولد ونشأ فيها، خرج منها إطاعة لدعوة الرب، وذهب منها إلى حرّان ثم إلى أرض كنعان. .

(3) سارة: كان اسمها ساراي «المجاهدة»، أما سارة فتعني الأميرة، وأصل الكلمة عبري.

(4) حرّان: اسم أكادي معناه طريق أو قافلة. تقع على نهر بليخ على بعد 280 ميلاً شمال شرق دمشق.

اسمه من إبرام إلى إبراهيم، ووضع له الختان علامة للعهد، وغيّر اسم ساراي امرأته إلى سارة.

كلفه الله بالدعوة إلى عبادة الله وحده، وترك الوثنية والأصنام، فبدأ الدعوة بأهله، وأمره الله أن يرفع قواعد البيت الحرام مع ولده إسماعيل من هاجر..

(أ) الدعوة إلى التوحيد:

لقد كان كل من على وجه الأرض كفاراً إلا إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط، فقد آتاه الله رشده في صغره، ثم بعثه رسولاً، ثم اتخذه خليلاً. قال تعالى: **﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن، واتبع ملّة إبراهيم حنيفاً، واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾**[1]. فكان الله به عليماً فاختاره نبياً وأوحى إليه رسالة التوحيد، وعبادة الله وحده ليبلّغها إلى أهله وقومه.. قال تعالى: **﴿ولقد آتينا إبراهيم رشدَه من قبل، وكُنّا به عالمين﴾**[2] لقد كان إبراهيم نبياً يجمع كل الفضائل والأخلاق الرفيعة والشيم العالية والإيمان الكامل بوحدانية الله بل قال تعالى فيه بأنه كان أمة كاملة، بكل فضائلها وإيمانها وسمّو أخلاقها.. قال تعالى: **﴿إن إبراهيم كان أمّةً، قانتاً لله حنيفاً، ولم يكُ من المشركين﴾**[3]. لقد جعله الله إماماً وهادياً يقتدي به كافة العالمين يدعو إلى عبادة الله الواحد القهار. قال تعالى: **﴿إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾**[4] وقد أوضح الله له طريقه. وبيّن له هُداه ورسم له دينه وجعله للعالمين قدوة. قال تعالى: **﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل﴾**[5]. جاء إبراهيم حاملاً رسالة الله إلى البشرية، كل البشرية، وبلّغها لكل العالمين. فيا عباد الله، اتّبعوا إبراهيم

---

(1) سورة النساء، آية: 125.
(2) سورة الأنبياء، آية: 51.
(3) سورة النحل، آية: 120.
(4) سورة البقرة، آية: 124.
(5) سورة الحج، آية: 78.

أبيكم، فدينُه حنيف وطريقُه صحيح، فاتّبعوا ما أتاكم به، وانتهوا عما نهاكم عنه، اعبدوا الله وحده، ولا تدعوا مع الله إلٰهاً آخر، واتركوا الوثنية وعبادة الأصنام، تُفلِحوا. . هكذا بدأت الدعوة إلى عبادة الإله الواحد، ونبذ الوثنية.

(ب) بدء الدعوة:

بدأ إبراهيم بدعوة أهله وقومه لعبادة الله وحده، ونهاهم عن عبادة الكواكب والأصنام التي لا تبصر ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع. قال تعالى: **﴿وإبراهيم إذْ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، إنّما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً، فابتغوا عند الله الرزق، واعبدوه، واشكروا له، إليه ترجعون، وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم، وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾**[1] وكان أبوه واحداً ممن يعبد الأصنام، بل كان ينحتها ويصنعها ويبيعها، ويتعامل بها كتجارة رابحة، فبدأ بدعوته إلى عبادة الله وحده وبلّغه رسالة ربّه، وترْكِ ما هو عليه، ولكنه بقي على كُفْره، وظل على دين أهله وقومه في بابل.

فخاطبه إبراهيم قائلاً: **﴿وإذْ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتّخِذُ أصناماً آلهةً﴾**[2]. «وقال كذلك: **﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾**[3]. فعبادتهم لهذه الآلهة كانت تقليداً لآبائهم وليست إيماناً بها وهم يعلمون أنها لا تنفع ولا تضر.

قال تعالى على لسان إبراهيم وهو يخاطب أهله وقومه: **﴿قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم؟ أفٍّ لكم ولِما تعبُدون من دون الله أفلا تعقلون؟﴾**[4]. وقد عزّ على إبراهيم أن يرى والده يصنع التماثيل ويسجد

---

(1) سورة العنكبوت، آية: 16-18.
(2) سورة الأنعام، آية: 74.
(3) سورة الأنبياء، آية: 52-54.
(4) سورة الأنبياء، آية: 66-67.

لها ويشرك بالله فنهاه عن ذلك بقوله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً، إذ قال لأبيه يا أبت لِمَ تعبُد ما لا يسمع ولا يُبصر ولا يُغني عنك شيئاً؟ يا أبتِ إنّي قد جاءني من العلم ما لم يأتِك فاتبعْني أهدِك صراطاً سويّاً يا أبَتِ لا تعبدِ الشيطان إن الشيطان كان للرّحمنِ عَصِيّاً يا أبتِ إني أخاف أن يمسّك عذابٌ من الرحمن فتكون للشيطان وليّاً﴾[1]. لم يعبن زالد إبراهيم نصيحة ابنه وهدايته بل هدّده بقول عنيف فيه زجر وتجريح. قال تعالى: ﴿قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنتهِ لأرجمنّك واهجرْني مليّاً﴾[2]. فردّ عليه إبراهيم النبي المرسل قولَةَ الإبن البار﴿قال سلامٌ عليك سأستغفر لك رَبّي إنّه كان بي حَفِيّاً﴾[3]. هذه مشيئة الله وهدايته، ولمّا رفض الإيمان بالله وأصرّ على كفْره تبرأ منه نبي الله. قال تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلمّا تبيّن له أنه عدوّ لِلّه تبرأ منه إن إبراهيم لأوّاهٌ حليم﴾[4].
هذا الحوار يدور بين إبراهيم الخليل نبي الله. وأبيه بائع الأصنام وعابدها الذي لم يقبل الدعوة إلى عبادة الله وترك الوثنية. فهل آمن قوم إبراهيم؟ قال تعالى على لسانهم: ﴿قالوا أجئتنا بالحقّ أم أنت من اللاّعبين، قال: بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهنّ وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾[5]. لم يقتنعوا من إبراهيم بأنّه جادّ في دعوته، ولذلك فهم لم يؤمنوا بما قاله لهم بل كذبوه وقاوموه وحرّقوه لولا أن أنجاه الله تعالى من النار، وذلك لأنه أنكر عليهم آلهتهم، وحقّرها وصغّرها لهم وسَخر منها وأهانها غاية الإهانة، فسألهم إبراهيم يوماً ماذا تعبدون؟ وما ظنّكم بربِّ العالمين؟؟.

قال تعالى: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون؟ أئفكا آلهة دون الله تريدون؟ فما ظنكم برب العالمين؟ فنظر نظرة في النجوم فقال إنّي سقيم، فتولّوا عنه مدبِرين، فراغ إلى آلهتهم فقال: ألا تأكلون؟ ما لكم لا تنطِقون؟

(1) سورة مريم، آية: 41-45.
(2) سورة مريم، آية: 46.
(3) سورة مريم، آية: 47.
(4) سورة التوبة، آية: 114.
(5) سورة الأنبياء، آية: 55-56.

فراغ عليهم ضرباً باليمين، فأقبلوا إليه يزفّون، قال أتعبُدون ما تنحِتـون؟ والله خلقكم وما تعملون، قالوا: ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم، فأرادوا به كيْداً فجعلناهم الأسْفلين﴾[1] آلهة ضعيفة لا حوْل لها ولا قوّة، القرابين أمامها ولكنها لم تأكل منها، ولما سألها إبراهيم، لم تنطق بحرف واحد وانهال عليها ضرباً باليمين، وحطمها تحطيماً ولم تستطع حماية نفسها فكيف تدافع عن عبادها؟.

قال تعالى: ﴿وتاللّه لأكيدنّ أصنامَكم بعد أن تولّوا مدبِرين. فجَعلهم جُذاذاً إلا كبيراً لهم، لعلّهم إليه يرجعون. قالوا من فعل هذا بآلهتنا؟ إنه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتىً يذكرُهم يُقال له إبراهيم. قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلّهم يشهَدون. قالوا أأنت فعلت هذا بآلِهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا. فاسألوهم إن كانوا ينطِقون. فرجعوا إلى أنفُسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون. ثم نُكِسوا على رؤوسهم. لقد علمت ما هؤلاء ينطِقون﴾[2].

هذا كبيرهم الإله مردوخ، فاسْألوه مَن فعل هذا بهذه الآلهة الكثيرة؟ من حطّمها؟ إنهم لا ينطقون... يا قوم ما دامت آلهتكم عاجزة عن حماية نفسها، وغير قادرة أن تنطق أو تعقل أو تسمع أو ترى أو تمنع شراً يحلّ بها أو بعبادها أو أن تجلب رزقاً لها أو لعبادها فلا خير فيها، لأنها لا تمثل إلا الباطل، فالتحطيم أولى بها..

تضايق قومه منه، وتذمّروا لقوله، فما لهم إلا أن يتخلّصوا منه، وينصروا آلهتهم، فأعدّوا له ناراً ليحرّقوه بها، ولكن الله أنقذه منها وجعلهم الأخْسرين... قال تعالى على لسانهم: ﴿قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إنْ كنتم فاعلين. قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم وأرادوا به كيْداً فجعلناهم الأخْسرين﴾[3].

ولما تبيّن لهم أنّهم لن يؤمنوا به أعلن براءته منهم، ومما يعبدون.. قال تعالى:

---

(1) سورة الصافات، آية: 85-98.

(2) سورة الأنبياء، آية: 57-65.

(3) سورة الأنبياء، آية: 68-71.

﴿يا قوم إني بريء مما تشركون﴾[1]. وقال كذلك على لسان إبراهيم: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنّني براء مما تعبدون﴾[2]. وكان ردّ الله جلّ شأنه حاسماً بعيداً عن عواطف القرابة والدّم، فلم يقبل منه استغفاراً ولا شفاعة. وكذلك كان ردّه على نوح عليه السلام من قبل.. قال تعالى: ﴿وإذا ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمّهن قال إنّي جاعلك للناس إماماً، قال: ومن ذريّتي قال: لا ينال عهدي الظالمين﴾[3]. فلم يستطع الإبن البار والنبي المرسل، الشفاعة والاستغفار للأب المشرك بائع الأصنام.. وقد حثّ الله جل شأنه المؤمنين على الاقتداء بإبراهيم والتمثل بسلوكيته الفاضلة.. قال تعالى: ﴿قد كانت لكم أُسوة حَسَنة في إبراهيم والّذين معه. إذ قالوا لقومهم إنّا برآؤا منكم ومما تعبُدون من دون الله. كفرنا بكم. وبدا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاءُ أبداً حتى تؤمنوا بالله وحْده﴾[4]. إنّه نبيٌّ صادق، مخلِص في دعوته، فكان حقاً أبا الأنبياء، وكان حنيفاً مسلماً نبياً عظيماً فهو القائل بصدق: ﴿إنّي وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾[5] لقد أعطاه الله ما يريد فقد جعل له ذريةً وهو طاعن في السن وكانت امرأته عاقراً، كما وهبه الأنبياء الصالحين، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، فكل نبيّ بُعث من بعده من ذريته، فهو أبو الأنبياء، وكل كتاب أنزل من السماء على نبيّ من بعد إبراهيم فقد نزل على أحد من نسْله وخلفه، تكريماً له، وإعلاء لِشأنه، فقد ترك بلادَه وأهله، وجاء إلى ربّه بقلب سليم، مهاجراً إلى بلد غير بلده ليتمكن فيها من عبادة الله وحده، وهي أرض الشام حيث كان الكنعانيون في فلسطين اليوم..

جاء في قوله تعالى: ﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة﴾[6].. لقد وصفه الله جل شأنه بأنه كان حليماً رقيق القلب عطوفاً رؤوفاً باراً بوالده رغم

(1) سورة الأنعام، آية: 78.
(2) سورة الزخرف، آية: 26.
(3) سورة البقرة، آية: 124.
(4) سورة الممتحنة، آية: 4.
(5) سورة الأنعام، آية: 79.
(6) سورة النساء، آية: 54.

قسوته عليه وعناده في كفره، فقد استغفر له وهو مشرك بالله ولكن إله إبراهيم قال له: لا ينال عهدي الظالمين.

(جـ) هجرة إبراهيم:

رحل إبراهيم من بلده «أور» في العراق إلى حران، ثم توجه إلى أرض كنعان في فلسطين، وكان غريباً فيها، ومعه زوجه سارة وابن أخيه لوط وزوجه أيضاً.

أقام إبراهيم في أرض كنعان كما تدّعي التوراة وأقام في مدينة شكيم «نابلس» عند بلّوطة مورة، فترة قصيرة، حيث ظهر الرب لإبرام «إبراهيم» وأبرم معه ميثاقاً، قائلاً له: «لنسلك أعطي هذه الأرض، فبنى هناك مذبحاً للرب شكراً على هذه النعمة، ثم ارتحل إبرام ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب، وكان جوع وقحط في الأرض وشدة وغلاء فارتحل إلى مصر في عهد ملوك الرعاة وهم العماليق[1] ويسمون الهيكسوس. ورد في سفر التكوين ما يلي: «وحدث جوع في الأرض فانحدر إبرام إلى مصر ليتغرب هناك»[2]وحصلت قصة سارة مع فرعون مصر، عندما طلب منها إبراهيم أن تقول أنها أخته تخلصا من شره ومن ظلمه، وكان عمر سارة حوالي سبعين عاماً حينذاك..

ولكن فرعون مصر عاتب إبراهيم على هذا. ثم أعطاه أموالاً ومواشي وجواري وعبيداً، وعاد إبراهيم مرة أخرى إلى أرض بيت المقدس وما حولها.

جاء في سفر التكوين ما يلي: «ثم عاد من مصر محملاً بالهدايا مع لوط

---

(1) العماليق أو العمالقة، وهم الكنعانيون شعب واحد، كان منزل جدهم عِمليق في جوار مكة ثم انتشرت قبيلته في جزيرة العرب والشام والعراق ومصر وغيرها، وسلائل عمليق استقرت في فلسطين قرب الخليل وجنوب البلاد، عرفوا بجبابرة الشام لضخامة أجسامهم وطولهم وارتفاع أبنيتهم، وهم أول شعب عربي كنعاني حارب اليهود في غزوتهم الأولى لفلسطين في القرن 12 ق. م وقد أخضعهم الملك داود بعد الضربات المتكررة لهم. عن القبائل العربية وسلائلها في فلسطين.. مصطفى الدباغ.

(2) التكوين: الاصحاح 12.

ابن أخيه، ثم افترقا لخلاف حصل بينهما، قال إبرام: اعتزل عني فإن ذهبت شمالاً فأنا يميناً وإن يميناً فأنا شمال»[1].

فاتفق رأي إبراهيم مع لوط على الافتراق في إقامتهما حفظاً لعلاقة المودة وصلة الرحم. عاد إبراهيم من مصر ومعه دواب وعبيد وأموال ورزق كثير وقد أعطاه فرعون «هاجر» القبطية وهي أميرة أسيرة كانت عند فرعون، وقد اتخذها زوجة له فيما بعد، وهي أم إسماعيل عليه السلام.

وأقام لوط في سدوم وعمورة وأقام إبراهيم حيث كان من أرض كنعان. وقد دخل إبراهيم بهاجر بناء على تعليمات سارة زوجه التي كان عجوزاً عاقراً، رغبة في البنين والذرية فولدت له هاجر ابنهما الأول والبكر إسماعيل عليه السلام الذي بعثه الله نبياً مرسلاً. وكان الأمر من الله ولحكمة منه أوحى إلى إبراهيم أن يترك ابنه إسماعيل وأمه هاجر بالفلاة فتوجه بهما إلى أرض مكة فوضعهما في مكان البيت العتيق وابتعد عنهما زمناً.

وكان يأتي إبراهيم مراراً من فلسطين لزيارتهما حيث أمره الله في آخرها برفع قواعد البيت وبناء الكعبة، واستعان لذلك بابنه إسماعيل ورفعا معاً قواعد البيت وبنيا الكعبة في مكة المكرمة. وطلب إبراهيم من ربه أن يجعل أفئدة الناس تهوي إليهم في بيت الله الحرام، وفي كل عام يهرع إلى مكة الملايين من البشر من كل حدب وصوب لزيارته، وهذه إرادة الله ومشيئته...

قال تعالى: ﴿**ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة، فاجعل أفئدةً من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون**﴾[2]. صلوات الله وسلامه على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، أبي الأنبياء، خليل الرحمن، رافع قواعد البيت مع ولده إسماعيل، أول من دعي حنيفاً مسلماً، واضع ملّة إبراهيم، الداعي إلى الله بالهداية أن يجنّبه وبنيه عبادة الأصنام.

---

(1) التكوين: الاصحاح 13.

(2) سورة إبراهيم، آية: 37.

وقد توفي عليه السلام في فلسطين عن عمر يناهز 175 عاماً، ثم دفنه ولداه إسماعيل وإسحق في مغارة المكفيلة حيث دفنت زوجه سارة من قبل، في قرية أربع في حبرون وهي مدينة خليل الرحمٰن اليوم.

(د) حريق إبراهيم:

لقد كان كُرْه الكلدانيين (قوم إبراهيم) شديداً لإبراهيم لأنه منعهم من عبادة آلهة آبائهم وأجدادهم، ودعاهم إلى عبادة الإلٰه الواحد، فأرادوا التخلّص منه بحرقه في النار، فجمعوا الحطب الكثير لذلك، وكانت المرأة من الكلدانيين تنذر إذا مرضت لتحملن الحطب لحريق إبراهيم لئن عوفيت. وتأججت النار فعلاً، وعلا شرارها، وجاؤوا بإبراهيم ووضعوه في كفة منجنيق، كما تذكر الروايات، صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له «هزن» وكان أول من صنع المجانيق فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة. ثم أخذوا يقيّدونه ويكتفونه، وهو يقول: لا إلٰه إلا أنت سبحانك، لك الحمد، ولك الملك، لا شريك لك. فلما وضع في كفة المنجنيق مقيداً مكتوفاً، ثم ألقوه إلى النار، قال: حسبنا الله ونعم الوكيل.. روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لما ألقي إبراهيم في النار قال: اللهم إنك في السماء واحد، وأنا في الأرض واحد، أعبدك» لقد كان إبراهيم واحداً يعبد الله وحده ولكنه كان أمّة بكاملها بعقيدته وإيمانه.. جاء في التوراة أنه عندما خاطب الرب إبراهيم وأنجاه من النار قال له: «أنا الرب الذي أنجيتك من نار الكلدانيين لأجعل هذه البلاد لك ميراثاً». وجاء في القرآن الكريم: ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾[1] وعن أبي هريرة أنه قال: أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم، إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال نعم الرب ربك يا إبراهيم... روى ابن عساكر عن عكرمة أن أم إبراهيم نظرت إلى ولدها فنادته يا بني إني أريد أن أجيء إليك، فادع الله أن ينجيني من حر النار حولك، فقال: نعم، فأقبلت إليه لا يمسها شيء من حر النار، ولما وصلت إليه عانقته وقبلته ثم عادت.

---

(1) سورة الأنبياء، آية: 69.

عن المنهال بن عمرو أنه قال: أُخبِرت أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين أو خمسين يوماً. وأنه قال: ما كنت أياماً وليالي أطيب عيشاً إذ كنت فيها، وددت أن عيشتي وحياتي كلها مثل تلك الأيام أو الليالي التي كنت فيها. قال تعالى: ﴿**وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخْسرين**﴾[1]. وفي آية أخرى تفيد المعنى ذاته قال تعالى: ﴿**فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين**﴾[2] هذه ناركم كانت برداً وسلاماً على إبراهيم نبي الله ورسوله. أما نار رب إبراهيم فهي نار جهنم، قال تعالى: ﴿**وإن جهنم لموعدهم أجمعين. لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم**﴾[3]. وهي جهنم، لظى، الحطمة، السعير، سقر، الجحيم، الهاوية، أجارنا الله منها..

4 ـ إسماعيل جد العرب:

إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فلسطيني المولد، من أمه هاجر المصرية، من قرية «أم العرب» من أعمال الفَرَما في سيناء، جنوب شرقي بورسعيد، وهي أميرة أسيرة أهداها فرعون إلى إبراهيم عندما كان في مصر، واتخذتها سارة زوجة إبراهيم أمَةً وجاريةً لها.

يقول ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان: «من الغريب أن إسماعيل أبو العرب، وأمّه من أمّ العرب». وإسماعيل الابن الأكبر لإبراهيم والابن الذبيح الذي فداه الله بذبح عظيم، وكان وحيداً لأبيه حينذاك. وهو اسم عبري «على ما يذكر قاموس العهد القديم» معناه: يسمع الله، وقد سمّي كذلك لأن الله سمع دعاء أمه هاجر ورحمها، حيث هربت من سارة كما يقول المسعودي. وجاء في سفر التكوين: «قال لها ملاك الرب، ها أنت حُبلى، فتلدين ابناً وتدعين اسمَه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلّتك»[4]. أو لأن الله قد سمع دعاء إبراهيم الذي

---

(1) سورة الأنبياء، آية: 70.
(2) سورة الصافات، آية: 98.
(3) سورة الحجر، آية: 43-44.
(4) التكوين: الاصحاح 16.

كان يطلب الأولاد منه، وكانت امرأته سارة عاقراً.

ولد إسماعيل في فلسطين حوالي عام 1794 ق. م في منطقة بئر السبع غالباً، وكان عمر أبيه ستاً وثمانين سنة، وكان قد مضى على وجوده في أرض فلسطين حوالي عشر سنوات.

خُتِن إسماعيل وعمره ثلاث عشرة سنة، بينما خُتِن أبوه إبراهيم وعمره تسع وتسعون سنة عندما أمره الرب بذلك، وقد أمضى إسماعيل سنين من طفولته في «رامة الخليل» قرب مدينة الخليل اليوم.

وعندما وُلِد أخوه إسحق من سارة كان عمر إبراهيم أبيهما حوالي مئة عام. وبدأت الغيرة تدب في نفس سارة ـ حسب ادعاء التوراة ـ فطلبت من إبراهيم طرد جاريتها وابنها إسماعيل، وكان عمر إسماعيل ست عشرة سنة، حتى لا يرث مع ابنها إسحق. كما جاء في التوراة: «ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمرح، وقالت لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحق، فقَبُح الكلامُ جداً في عينَيْ إبراهيم لسبب ابنه، فقال الله لإبراهيم لا يُقبَح في عينيك من أجل الغلام، ومن أجل جاريتك، في كل ما تقول لك سارة، اسمع لقولها، لأنه بإسحق يدعى لك نسل، وابن الجارية أيضاً سأجعله أمّة لأنه نسلك»[1].

وعلى ما تذكر أسفار التوراة بأن هاجر الأم توجهت بابنها نحو برية بئر السبع، وكان على وشك الموت من الظمأ، فأرى الله هاجر بئر ماء فسكن إسماعيل في برية «فاران» جنوب فلسطين وأصبح ماهراً في استعمال القوس، ويقال أيضاً بأن أمه أخذت له زوجة من بلادها من مصر.

وفي هذا القول شك، لأن القول الصحيح والقريب من العقل والمنطق هو أن إسماعيل سكن مع أمه هاجر بوادي مكة بين جبال فاران، وليس معهما إلا قليل من الزاد والماء. . . .

---

(1) التكوين: الاصحاح 21.

ولما شبّ إسماعيل تزوج من امرأة من العماليق وهي عمارة بنت سعد بن أسامة بن أكيل العمالقي، ولكن أباه إبراهيم قد أمره بفراقها من خلال إحدى زياراته إلى مكة، ففارقها وطلّقها، ثم تزوج ثانية من رَعْلة بنت مضّاض بن عمرو الجرهمي، وبقيت معه، وباركها أبوه من خلال زيارة أخرى إلى مكة، فولدت له إثنا عشر ولداً ذكراً[1] وبنتاً واحدة، هم آباء العرب المستعربة اليوم ويقال بأنه تزوج من ثالثة وهي سامة بنت مهلهل بن سعد بن عوف.. وقد جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، ووضعهما هناك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم قفل إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أن تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها. وقالت له: آالله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يضيّعنا الله». وقد شارك إسماعيل مع أبيه في بناء البيت العتيق، بناء على أوامر الله تعالى لإبراهيم، فكان إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يرفع قواعد البيت، وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. وجاء ذكره في التوراة التي قالت: «بأن الله بارك إسماعيل وأكثر نسله»[2]. وجاء كذلك: «وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأثمره وأكثّره كثيراً جداً، اثني عشر رئيساً يلد واجعله أمة كبيرة». ولقد ولد له فعلاً اثنا عشر ولداً ذكراً وبنتاً واحدة هي «محلة» أو «نسمة» زوجة عيسو ابن أخيه إسحق..

عاش إسماعيل مائة وسبعة وثلاثين عاماً، توفي ودفن بالحجر مع أمه هاجر بجوار الكعبة. ويقال إنه مات بفلسطين، كما يشير إلى ذلك العهد القديم، وهو خبر غير مؤكد...

---

(1) أبناء إسماعيل: بنايوت، قيدار، ادئيل، ميسام، مشماع، دومة، مسا، حدار، تيما، يطور، نافيش، وقدمة. التكوين 25.

(2) التكوين: الاصحاح 17.

صفات إسماعيل عليه السلام:

لقد وصفه الله تعالى في محكم آياته بأجمل الصفات وأكملها، فقد ذكر اثنتا عشرة مرة في القرآن الكريم، فقال عنه بأنه غلام حليم، صبور، صادق، الوعد، يحافظ على الصلاة، ويأمر أهله بها وقد برّأه الله من كل ما نسب إليه الجاهلون..

قال تعالى: **﴿فبشرناه بغلام حليم، فلما بلغ معه السعي قال: يا بني، إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى؟ قال: يا أبت افعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾**[1]. لقد طاوع إسماعيل أباه إبراهيم إلى ما دعاه إليه، ولو كان إلى الهلاك والموت، وهذه أعلى درجات الإيمان ومنتهى الطاعة والاحترام..

ولقد قيل أن مسألة الذبح وكبش الفداء، كانت في الحجاز على «مِنى»، وقيل أنها حصلت على الجبل الذي أقيم عليه حرم بيت المقدس.. قال تعالى: **﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد، وكان رسولاً نبياً، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً﴾**[2].

لقد حاز إسماعيل على رضا ربه لصدقه وإيمانه، فهو نبي الله ورسوله، وقد افتداه الله بكبش عظيم.. وتزعم التوراة بأن الذبيح هو إسحق وليس إسماعيل. وهذا ادعاء باطل وليس له ما يؤكده أو يدعمه. يقول علماء النسب أن إسماعيل كان أول من ركب الخيول.

وعن رسول الله ﷺ قال: «اتخذوا الخيل واعتبقوها، فإنها ميراث أبيكم إسماعيل». وقيل أنه كان أول من تكلم بالعربية البليغة، وكان قد نقلها من العرب العاربة، الذين نزلوا عندهم بمكة من قبيلة جرهم، والعماليق، وأهل

---

(1) سورة الصافات، آية: 101-102.

(2) سورة مريم، آية: 54-55.

اليمن من الأمم السالفة من العرب قبل إبراهيم الخليل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أول من فتق لسانه بالعربية البينة إسماعيل، وهو ابن أربع عشرة سنة»...

5 ـ عبادة الأصنام:

كان العرب في جزيرتهم كباقي الأمم السالفة، من عبدة الطبيعة وقواها. كما عبدوا الشمس والقمر والنجوم، وبنوا الأصنام في مكة قرب الكعبة، وعبدوها، ومنهم من تعلق بعبادة الله متأثراً بدين إبراهيم الحنيف..

وقد غزت الوثنية مكة حتى أصبحت الكعبة حارسة للوثنية في الجاهلية وانتشرت عبادة الأصنام بشكل واسع بين قبائل العرب لما كانت تدرّه عليهم من الأرباح الطائلة. فصوروها ونحتوها واتخذوها رمزاً لآلهتهم بأشكال وأحجام وصور شتى واحتفظت كل قبيلة بصنم خاص بها في الكعبة، أو حولها ليأتي إليه الحجاج في مواسم الحج زائرين. وتكاثر عددها حتى بلغ 360 صنماً، ويقال أنهم كانوا يعبدون واحداً منها كل يوم من أيام السنة، وكانوا يجعلون بينهم وبين الله هذه الآلهة لتقرّبهم إليه ولتشفع لهم عنده، وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض هذه الآلهة والرموز الدينية من أصنام وأوثان، مستنكراً إياها على اختلاف أشكالها وألوانها قال تعالى: ﴿**أفرأيتم اللاّت والعُزّى ومَناةَ الثالثة الأخرى**﴾[1] وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿**ولا تذرنّ وداً ولا سُواعاً ولا يَغوث ويعوقَ ونَسْراً**﴾[2] وكانوا يصنعون هذه الآلهة من التمر أو من الطين، أو من الحجر، تبعاً لمنظورهم المادي في علاقتهم مع المقدسات، وكانوا إذا سافروا اصطحبوا معهم حجراً من حجارة الحرم، فحيث ما نزلوا طافوا به كطوافهم بالكعبة ذاتها، أو أنهم كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم شكله..

---

(1) سورة النجم، آية: 19-20.

(2) سورة نوح، آية: 23.

يذكر في الصحيح عن أبي رجاء العطاردي أنه قال: «كنا في الجاهلية، إذا لم نجدْ حجراً، جمعنا جِثية من التراب، وجئنا بالشاة فحلبناها عليه، ثم طنا بها».

فالمهم عندهم أن يخلقوا الإله الرمز، ليقدموا له العبادة والولاء، آملين بأنه سيقربهم من الله ويشفع لهم عنده.. هؤلاء هم الذين نسوا الله، وأهملوا عبادته، واستعاضوا عن الإله الواحد بآلهة متعددة، صنعوها من الخشب أو الحجارة، لا نفع فيها ولا ضرر، وظنوا بالله الظنّون، وأوجدوا له أقراناً وبدائل، واتخذوا له زوجات وأولاداً وحفدة.

﴿وأنّه تعالى جَدُّ رَبِّنا ما اتَّخذ صاحبةً ولا ولداً﴾[1].

ولم يعد الإله بالنسبة إليهم إلا كما كان عند الشعوب البدائية، مجرد رمز للوجود المطلق والديمومة ونسوا دين أبيهم إبراهيم، وابتعدوا عنه، وكانوا يقيمون عند هياكل هذه الأصنام والأوثان أنصاباً من الحجارة يصبّون عليها دماء الذبائح، التي يتقربون بها إلى آلهتهم المتعددة، وكانوا يقدّسون هذه الأنصاب، ويعدّونها مقراً لبعض الأرواح، ويعدّها الله تعالى رجْساً من أعمال الشيطان وأمرهم باجتنابها. ولم يسلم من الحساب يوم الحشر، لا العابد ولا المعبود، جاء في قوله تعالى: **﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله، فيقول: أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلّوا السبيل﴾**[2].

لقد نسي سكان مكة ومن حولهم دين إبراهيم الحنيف، وانحرفوا عن تعاليمه، وخالفوا أوامره ونواهيه، وضلّوا عن سبيله.. **﴿قالوا سبحانك، ما كان ينبغي لنا أن نتّخذ من دونك من أولياء، ولكن متّعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر، وكانوا قوماً بوراً﴾**[3].

على الرغم من أنهم استمروا في تقديس بيت الله الحرام، وتعظيمه،

---

(1) سورة الجن، آية: 3.
(2) سورة الفرقان، آية: 17.
(3) سورة الفرقان، آية: 18.

والطواف حوله، والحج والعمرة إليه، والوقوف على عرفة، والمزدلفة، وهدي البدن، وتعظيم الحجر الأسود، وتقديس حجارة البيت الحرام. فقد اهتم سكان مكة بالتجارة وكثرة الأسفار والارتحال، وكان واحدهم لا يرحل إلى مكان دون أن يحمل معه حجراً من حجارة الحرم إجلالاً وتعظيماً، وحيثما يحلّ يضع ذلك الحجر، وهو في اعتقاده مقدس بمثابة الحجر الأسود، ويطوف به طوافه بالكعبة، وكانوا يعتقدون أنهم يؤدون فرضاً من فروض التقديس والطاعة لبيت الله الحرام، ولكن من أين جاءتهم هذه الأصنام؟ وكيف دخلت إليهم في الجزيرة العربية؟

يُحكى أن عمر بن لحي بن غالوثة بن عمرو بن عامر الخزاعي - وهو أحد ملوك خزاعة - كان في بعض رحلاته إلى بلاد الشام الجنوبية فبلغ أرض البلقاء، فوجد فيها العماليق، فرآهم يعبدون الأصنام فسألهم عنها وأجابوه: «بأن هذه أرباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والأشخاص البشرية، نستنصرُ بها فتنصر، ونستسقي بها فتسقي، ونستشفي بها فتشفي». فأعجبه ذلك، وطلب منه صنماً يأخذه معه إلى أ رض العرب ليعبدوه هناك، فأعطوه صنماً يقال له «هُبَل». فجاء به إلى مكة ونصبه في الحرم، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه، ويقال أنه كان معه صنم إساف ونائلة على شكل زوجين. وبدأت تنتشر عبادة الأصنام ويزداد عددها، حتى بلغت أصنام الكعبة في عام الفتح ثلاثمائة وستين صنماً كما أسلفنا..

وهكذا كان أول من بدّل دين إبراهيم الحنيف، وبعث العرب على عبادة مثل هذه التماثيل، هو ملك خزاعة «عمرو بن لحي الخزاعي» وانمحت الحنيفية إلاّ قليلاً». وكان أعظم ما فيها تعظيماً وتقديساً هو الحجر الأسود، الذي يختلف عن باقي حجارة الكعبة بلونه الأسود، وسبب تكريمه اعتقادهم أن جبريل هبط به من الجنة، وبقاؤه من عهد إبراهيم الخليل، ويعدّونه مفتاح الذاكرة لفكرة التوحيد عندما انتشر دين الله الحنيف في مكة منذ عهد إبراهيم عليه السلام، وهو لا علاقة له بفترة الوثنية منذ أن دخل «هُبَل» إلى الكعبة، حتى حطّمها محمد رسول الله يوم فتح مكة عن آخرها وفقدت الأصنام نفوذها، ودبّ الهرم والعجز

في آلهتها، والآلهة الحقيقية رمز القوة والوحدانية. وكانت العبادة الوثنية في الجاهلية على أشكال ثلاث: فهي إما صنم، أو وثن، أو نصب.

فالصنم: هو ما صنع على شكل إنسان من معدن، أو من خشب.

والوثن: هو ما صنع من الحجر على شكل إنسان.

والنصب: هي صخرات ليس لها صور معينة، وقد ظن أتباعها إنها من أصل سماوي.

ومن الأصنام ما كانت عبادته خاصة لقبيلة واحدة، ومنها ما كان عاماً تنتشر عبادته بين قبائل العرب.

6 ـ الأصنام الآلهة في الجاهلية:

كثر عددها وزاد انتشارها، وكان أهمها:

* **هُبَل**: وهو أعظم الآلهة عند أهل قريش، وهو تمثال من العقيق الأحمر، وضع في جوف الكعبة في مكة، وهو أول صنم انتشرت عبادته عند عرب الشمال، وهو على صورة إنسان كُسِرت ذراعه اليمنى فأبدلته قريش بها ذراعاً من ذهب، وكان كبير الآلهة عند العرب قبل الإسلام، يحج إليه أبناء القبائل من كل حدب وصوب، وكانوا يستنصرون به وقت الغزو وفي الحروب «اعْلُ هُبَل». وكانت العرب تستقسم عنده بأقداح سبعة لكل منها دور وعمل، ويعدّ بمنزلة إله الخصب والرزق والنمو والسعادة، ويكون إله الحرب أحياناً..

* **اللاّت**: وهي صخرة مربعة بالطائف، كانت تعظمها قبيلة ثقيف وقريش وكل العرب، وهي ترمز إلى فصل الصيف، وكان حُجّابُها من بني مغيث من ثقيف، يحاولون منافسة كعبة قريش بمكة.

* **العُزّى**: وكانت لغطفان وقريش وكنانة، وهي شجرة بوادي نخلة على طريق مكة ـ الطائف وهي من أعظم الأصنام عند قريش، وقد قطعها خالد بن الوليد. وهي ترمز إلى الخصب والثروة.

* **مَناة**: وهي صخرة سوداء، أقيمت على ساحل البحر بين مكة ويثرب، وكانت لخزاعة وهُذَيل وكل العرب، وكانت عظيمة عند الأوس والخزرج بيثرب، وهي في الأصل للأنباط، وتعد من أقدم الأصنام عند العرب، وترمز إلى الموت، فهي إلٰهة القضاء والقدر.

* **ذو الخِلصة**: وهو صنم خشعم وبجبلة في اليمن، وهو مروة بيضاء هي الخلصة، كان موضعه بتبالة، وله بيت يحجون إليه، ويستقسم عنده بالأزلام.

* **وُدّ**: من آلهة عرب الجنوب، ويعدّ مع اللات والعزى ثالوث: الأب والأم والابن، عبدته قضاعة في اليمن، وهو إله القمر، وكان صنمه في دومة الجندل، وقد ظل قائماً حتى جاء الإسلام، وهو على صورة رجل..

* **إساف ونائلة**: من أصنام قريش المشهورة، ويقال إنهما كانا شخصين أتيا أعمالاً سيئة، فمُسِخا حجرين، وعبدهما الناس، وهما: اساف بن عمرو، ونائلة بنت سهيل، وكان أحدهما ملاصقاً للكعبة، والثاني في موضع زمزم، ويقال أنهما كانا صنمين جاء بهما عمرو بن لحي فوضعهما على الصفا. يقول المسعودي: «وبغت جرهم في الحرم، وطغت حتى فسق رجل منهم في الحرم بامرأة، وكان الرجل يدعى اساف والمرأة نائلة، فمسخهما الله حجرين، صيرا بعد ذلك وثنين، وعبدا تقرّباً بهما إلى الله تعالى». وقيل إنهما حجران نُحِتا ومثّلا بالمذكورين، وسمّيا بأسمائهما، وقد وضع القرشيون كل منهما في ركن من أركان بيت الله الحرام، فكان اساف بإزاء الحجر الأسود، ونائلة بإزاء الركن اليماني، وكان الذي يطوف يبدأ طوافه باساف فيقبّله، ويختم طوافه به، وكان لهم صنم على جبل الصفا يسمى «مجاور الريح» وعلى جبل المروة ويسمى «مطعم الطير»..

* **سواع**: صنم هُذيل وكنانة ومضر، يرمز إلى إله الشر والهلاك، وهو على صورة امرأة، وكانوا يحجون إليه، وينحرون له..

يَغوث: صنم مذحج وعشائر من مراد وهوازن، ومن اسمه يدل على أنه المعين، وهو على صورة أسد..

يعوق: صنم همذان وخولان ومن والاهما من القبائل، ومن اسمه يدل على أنه يحفظ ويمنع وهو على صورة فرس..

نَسْر: صنم حِمْيَر ومعبودهم، انتشرت عبادته في الشمال، ومن اسمه يدل على أنه الطائر المعروف باسمه، وهو على صورة نسر من الطير..

ذو الشّرى: وهو معبود قديم، كان له معبد ضخم في سلع، وهو على شكل صخرات غرب مكة..

ذات أنواط: شجرة قرب مكة، كان يُناط بها السلاح، ويذبحون عندها كل سنة، ويعتكفون يوماً كاملاً،.... وغير هذه الآلهة الكثير..

وكان العرب يتخذون لهذه الأصنام بيوتاً، وفيها كعبات كبيرة، يحجون إليها، مثل كعبة ذي الخلصة اليمانية، وكعبة الطائف لصنم اللات، وكعبة مكة المعروفة. ويطوفون بها، وينحرون عندها، ولها سدنة وحُجّاب، وكانت تدعى هذه البيوت بالطواغيت، وكانت لهم طقوس كثيرة في قرابينهم ونذورهم، وقد هدّمها الإسلام وحرّمها، كما كانت لهم شعائر وطقوس كثيرة في الحج، منها التّلبية، والطواف، والسعي، وغير ذلك.. وكانوا يؤمنون بالأرواح إيماناً واسعاً، ويعتقدون بأنها تحل في مظاهر الطبيعة حولهم، منها أرواح خيّرة هي الملائكة، وأرواح شريرة هي الشياطين. قال تعالى: **﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً * اشهدوا خلْقهم ستكتب شهادتهم ويُسألون *﴾**[1].

وكانوا يزعمون أنها بنات الله، ويعدونها كأصنامهم تشفع لهم عند الله، وهم لم يتخذوا هذه الأصنام إلا لتكون لهم شفعاء عند الله.

وقد أنكر الوثنيون الرسل وكذبوهم، كما أنكروا وجود خالق واحد، وإله عظيم.

قال تعالى: **﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر**

---

(1) سورة الزخرف، آية: 19

كذّاب، **إجعل الآلهة إلٰهاً واحداً، إن هذا لشيء عجاب**﴾[1]. وقد أنكر الوثنيون يوم الحساب ولم يعتقدوا بيوم القيامة قال تعالى: ﴿**وقالوا: إن هي إلا حياتنا الدنيا، وما نحن بمبعوثين**﴾[2]. وقد تعرضنا لهذا البحث في موضع آخر.

لقد جاء يوم الفتح، ودخل محمد ﷺ مكة فاتحاً، وأخذ يحطم الأصنام جميعها، كما حطمها إبراهيم الخليل عليه السلام من قبل، وعلا صوت الحق والإيمان فوق الباطل والكفر. قال تعالى: ﴿**وقل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً**﴾[3].

تهاوت الأصنام كل الأصنام، وسقطت الآلهة كل الآلهة، ولم يبق إلا الله وحده لا شريك له. وجاء في محكم آيات الله: ﴿**ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون**﴾[4].

جل شأنه، وعلت قدرته، خالق كل شيء، لا إلٰه غيره. ﴿**وهو الذي في السماء إلٰه وفي الأرض إلٰه وهو الحكيم العليم**﴾[5].

وقال جل شأنه: ﴿**ومن يدعو مع الله إلٰهاً آخر لا برهان له به، فإنما حسابه عند ربه، إنه لا يفلح الكافرون**﴾[6].

7ـ معتقدات العرب في الجاهلية:

سيطرت الوثنية بكل أشكالها وصورها على كل القبائل التي سكنت الجزيرة العربية قبل الإسلام، فقد كانت تعتقد بقوى إلٰهية متعددة، تتمثل في عبادة الكواكب والنجوم، أو في مظاهر الطبيعة وقواها، وكانت أقرب ما تكون

---

(1) سورة ص، آية: 4-5.
(2) سورة الأنعام، آية: 29.
(3) سورة الإسراء، آية: 81.
(4) سورة الأنبياء، آية: 22.
(5) سورة الزخرف، آية: 84.
(6) سورة المؤمنون، آية: 117.

إلى الطوطمية، حيث كانت تلتف كل قبيلة أو جماعة حول طوطم خاص بها، تتخذه موئلاً لها، ومدافعاً عنها، وحامياً لها، وتعده رمزاً لها، كالكلب أو الثعلب أو الثور. كما آمنوا بقوى خفيّة كثيرة نباتية أو حيوانية أو جماد. وقد وصلت إليهم عبادة النجوم والكواكب من الصابئة، وبقايا الكلدانيين، كما وصلتهم عبادة القمر والشمس، والزهرة من عرب الجنوب في بلاد اليمن، الذين ظلوا محافظين على عبادتها حتى ظهور الإسلام..

وكان لهم اعتبارات خاصة في آلهتهم فقد كان الإله القمر، إلهاً مذكراً في جنوب الجزيرة العربية بينما كانت الشمس، إلهاً مؤنثاً عند عرب الجنوب، ومذكراً عند عرب الشمال، وكانت الزهرة، إلهاً مذكراً عند الجنوب، ومؤنثاً عند الشمال. وقد اهتم أهل اليمن إجمالاً بإقامة المعابد الكثيرة لهذه الآلهة، ليمارس الكهنة طقوسهم الدينية حولها، ويقدمون للآلهة القرابين والهدايا والنذر أمام هذه المعابد، ويتقرب الناس منها في المناسبات الدينية، وللآلهة عندهم سيطرة كاملة على كل أعمالهم في الحياة الدنيا، ولم يكن تقرُّبهم منها إلا لدفع الشر عنهم، وحمايتهم من الأذى وجلب الخير والمنفعة. وقد حذّرهم الله تعالى من قبل هذه العبادات الباطلة، وأمرهم بعبادة الله والسجود إليه وحده. قال تعالى: **﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾**[1]. فكل هذه الآلهة التي تعبدونها هي من آيات الله العلي العظيم الذي خلقهن فأحسن خلقه وأبدع صنعه.. أما عبادة النار وتقديسها فقد وصلت إليهم من المجوسية التي تفشت في أطراف الجزيرة العربية في البحْرين وعُمان وتميم وغيرها... وكانوا يقدمون لها القرابين والأضحيات، من خلال طقوس خاصة، ومع ذلك فقد كانت الجزيرة العربية مهبطاً لعدد من الأنبياء والرسل الذين نادوا بعقيدة التوحيد، وقد ذكر بعضهم في القرآن الكريم مثل: نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وإسماعيل، وشعيب في مدين، وكان آخرهم محمد الذي جاء متمماً لهذه الديانات صلوات الله عليهم أجمعين. ومنهم من لم يذكره.

---

(1) سورة فصلت، آية: 37.

فالجزيرة العربية احتوت على فئات روحية متعددة، اختلفت في اعتقادها وطريقة تفكيرها الروحي، بين متطرف يؤيد الوثنية وعبادة الأصنام ويشرك بالله، ومن يؤيد التوحيد وعبادة الله وحده، وما بين الشرك والإيمان من أفكار ومعتقدات غير مستقرة.

يقول المسعودي: «إن العرب كانت في جاهليتها فِرقاً، فمنهم الموحّد المقرّ بخالقه، المصدّق بالبعث والنشور، مؤمناً بأن الله يثيب المطيع، ويعاقب العاصي، فهناك من دعا إلى الله عز وجل ونبّه أقوامه على آيات الله في هذه الفترة، كقس بن ساعدة الأيادي، وبحيرىٰ الراهب وغيرهما كثيرون»[1].

فالفئة الأولى هم هؤلاء الحنفاء[2] الذين كان الإيمان بالله راسخاً في نفوسهم، كانوا مسلمين قبل بعثة محمد، فهم يعتقدون أن الله هو الخالق الأعظم، وهو الرازق والنافع والضار، ويؤمنون بأنه هو الذي خلق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وهو الذي ينزل الغيث من السماء، وهم الذين قال تعالى عنهم: **﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر؟ ليقولنّ الله، فأنّى يؤفكون﴾**[3]. قال كذلك: **﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها؟ ليقولنّ الله، قل الحمد لله، بل أكثرهم لا يعقلون﴾**[4].

هؤلاء الناس يؤمنون بأن لهذا الكون سيداً أعظم، ومدبّراً أكبر، قادراً على أن يقول للشيء كن فيكون، وهم يقرون بوحدانيته، ويرفضون عبادة الوثنية والأصنام.

يقول ابن إسحق: «اجتمعت قريش يوماً في عيدٍ لهم عند صنم من

---

(1) المسعودي في كتابه مروج الذهب.

(2) الحنفاء: كانوا في مكة، وانتشروا في كثير من قبائل العرب، وهم الذين حرموا على أنفسهم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام في الجاهلية. وكلمة حنيف: تعني المائل عن دين آبائه، وكانوا يشكون في الدين الوثني القائم، ويلتمسون ديناً جديداً.

(3) سورة العنكبوت، آية: 61.

(4) سورة العنكبوت، آية: 63.

أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعتكفون عنده، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً، فخلص منهم أربعة نفر نجيًا، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا.. ولْيكتم بعضكم على بعض، قالوا: أجل. وهم ورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل.. فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله ما قومكم على شيء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به لا يبصر ولا يسمع، ولا يضر ولا ينفع.. يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً فإنكم والله ما أنتم على شيء. فتفرّقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم».

لقد كان الحنفاء الموحدون يبحثون عن دين لهم، وهم على يقين بأنهم وأقوامهم ليسوا على شيء، وعليهم الرجوع إلى دين إبراهيم الحنيف مسلمين لله وحده، مؤمنين بقوله تعالى: **﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً﴾**[1] ويقول عز وجل: **﴿ومن أحسن ديناً ممّن أسلم وجهه لله وهو محسن، واتبع ملّة إبراهيم حنيفا، واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾**[2].

فعقيدة التوحيد أهم مبادىء القرآن الكريم، وقد كان في الجزيرة كثير ممّن اتبع ملة إبراهيم، قبل ظهور الإسلام ورسوله محمد خاتم الأنبياء والمرسلين..

والفئة الثانية كانت ممّن آمن بالله الخالق، وأقر بيوم البعث والإعادة، ولكنهم أنكروا الرُّسل وعكفوا على عبادة الأصنام... هؤلاء هم الوثنيون الذين عبدوا الأصنام وحجّوا إليها وقصدوها ونحروا لها البُدْن ونسكوا لها النسائك، وأحلوا لها وحرّموا، ولكن عبادتهم لم تكن مرتبطة بشعور ديني عميق، ولم تكن أصنامهم موضع احترام وتقديس كاملين، فقد رمى امرؤ القيس الصنم بالأزلام ولم يأبه به أو يحترمه.. وأكل بعض بني حنيفة إلٰههم ومعبودهم الذي صنعوه لهم من التمر عندما جاعوا ولم يحترموه أو يخشوه.. كما أن أحد بني ملكان من

---

(1) سورة الروم، آية: 30.
(2) سورة النساء، آية: 125.

كنانة، أقبل بإبله على سعد «صخرة على شكل صنم» التماساً لبركته، فنفرت منه الإبل، فأخذ الرجل حجراً، وقذف به سعداً وهو يقول: «لا بارك الله فيك لقد نفّرت عليّ إبلي».

فهذه الآلهة المتعددة لم تكن موضع احترام وتقديس روحاني، يؤمنون بها، يطلبون رضاها، ويخشون غضبها، ويرجون شفاعتها. ففي حديث قاله أبو سفيان لأمية بن الصلت عندما بلغه أن الرهبان يتحدثون عن قرب ظهور نبي من العرب قال: «إن هؤلاء الرهبان يتحدثون بذلك لأنهم في جهل من دينهم، فهم بحاجة إلى من يدلهم عليه، أما ونحن نتخذ الأصنام ليقربونا إلى الله زلفى فلا حاجة بنا إلى شيء من هذا، وعلينا أن نحارب كل حديث من مثله...».

قال تعالى على لسانهم: ﴿**ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾[1].

وهم على علم بأنها لا تنفع ولا تضر، لكنها تقربهم إلى الله وتشفع عنده، ولا تشفع حاجة إلى الرُّسل والأنبياء. قال تعالى: ﴿**ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله**﴾[2].

والفئة الثالثة: كانت ممن آمن بالله وكذب بالرُّسل، ولم يؤمنوا بالحياة بعد الموت، ومالوا إلى قول أهل الدهر، وهم الذين قال جل شأنه على لسانهم: ﴿**وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر**﴾[3] فيرد عليهم بقوله: ﴿**وما لهم بذلك من علمٍ، إنّ هم الا يظنون**﴾[4]... إنهم لا يعلمون شيئاً، فآيات الله البينات تتلى عليهم، وهم ينكرون بأنهم سيبعثون يوماً لا ريب فيه هم وآباؤهم وكل الناس أجمعين.

قال تعالى: ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بيناتٍ، ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين * قل الله يحيّكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[5] وأنزل فيهم قوله تعالى:

---

(1) سورة الزمر، آية: 3.
(2) سورة يونس، آية: 18.
(3-4-5) سورة الجاثية، آية: 24-26.

﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه، قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾[1] قال كذلك: **﴿أفعيينا بالخلق الأول؟ بل هم في لبس من خلق جديد﴾**[2]. إن الله قادر على أن يحيي العظام وهي رميم، فهو الذي أنشأها أول مرة وهو على كل شيء قدير.

والفئة الرابعة: هي التي أنكرت الله الخالق، وكفرت بالبعث والإعادة، قال تعالى فيهم آيات كثيرة في مواضع متعددة، يحثّهم فيها ويحرضهم على التفكير بخلق الله وآياته.

قال تعالى: **﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله..﴾**[3]، وقال كذلك: **﴿أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض..﴾**[4]، وقال جلّ شأنه: **﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين..﴾**[5] آياتٍ كثيرة ومتعددة قالها جلّ شأنه، يأمر الناس في التفكير بمعجزة الخالق، والتأمل بكل شيء، وكيفية خلقه، وهذا يدل على قدرة الله وعظمته فلينظر الإنسان ممّ خلق؟ وكيف خلق؟ وليتأمل في خلق كل ذرة في هذا الكون البديع..

والفئة الخامسة: ممّن كان يعبد الملائكة زاعمين أنها بنات الله، فكانوا يعبدونها لتشفع لهم عند الله، وهم الذين قال تعالى فيهم: **﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾**[6] وقال كذلك: **﴿أفرأيتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذاً قسمة ضيزى﴾**[7] وقال: **﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمّون الملائكة تسمية الأنثى﴾**[8]، فسبحان الله عما يصفون، فهو منزّه عن كل ما يدّعون، وهو الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد..

والفرقة السادسة: التي مالت إلى اليهودية والنصرانية، وهم أهل الكتاب،

---

(1) سورة يس، آية: 78.
(2) سورة ق، آية: 15.
(3) سورة النحل، آية: 48.
(4) سورة الأعراف، آية: 185.
(5) سورة فصلت، آية: 9.
(6) سورة النحل، آية: 57.
(7) سورة النجم، آية: 19-22.
(8) سورة النجم، آية: 27.

كما وصفهم القرآن الكريم، وهم الذين يؤمنون بوحدانية الله، ويدعون إليها، كما تقول التوراة والإنجيل. .

كل هذه الفئات الدينية كانت تعيش في الجزيرة العربية شمالها وجنوبها، وكانت تتخبط في حالة من الضياع وعدم الاستقرار، فهم لا يلتزمون بعقيدة راسخة، ولا يدينون بدين أصيل. يسودهم الجهل والضلال، حتى جاءهم الإسلام، فصقل نفوسهم، ووحّد شعورهم ومحا الجهل عنهم، وأزهق الباطل فيهم، وعمّ نور الحق الجزيرة كلها، ومنها إلى أرجاء العالم.

إنه نور الإسلام الذي قال فيه سبحانه وتعالى: **﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾**.

8 ـ مكة المكرمة:

تعد مكة المكرمة من أقدم المدن الروحية في الجزيرة العربية. بل من أقدمها في العالم. وقد تضاربت أقوال المؤرخين بشأنها.

ويعتقد أن أول من سكنها العمالقة إثر هجرتهم من العراق، قبل قدوم إبراهيم الخليل بابنه إسماعيل إليها في القرن 19 ق. م وقد ذكرت في القرآن الكريم في أكثر من موضع. قال تعالى: **﴿وإذ قال إبراهيم رب إجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾**[1]. وقال في موضع آخر: **﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾**[2]. تقع مكة في منطقة الحجاز على بعد 80 كم شرقي البحر الأحمر وقد كانت قرية صغيرة في وادٍ ضيق غير ذي زرعٍ تحيط به الجبال من جميع الجهات في وسط الصحراء. ثم تطورت حتى أصبحت حاضرة الجزيرة.

وتعد مكة مركزاً تجارياً هاماً يقوم على طريق القوافل التجارية، بين مأرب

---

(1) سورة إبراهيم، آية: 35.

(2) سورة البقرة، آية: 126.

وغزة، لاستقبال رحلات الشتاء والصيف، التي كان قد أوجدها «هاشم بن عبد مناف» للتجارة بين الشام واليمن. وقد نافسها على مركزها التجاري أهل بيزنطة والأحباش. . . وتتميز بمناخ قاري متطرف، شديد الحرارة والجفاف مما ساعد على التخلص من الأوبئة والأمراض المحلية، كالملاريا وغيرها. . . وبسبب قلة الأمطار حفرت فيها آبار كثيرة لسقاية الحجاج. وقد تسقط على شكل عاصفي سريع وعنيف، فتشكل سيولاً أحياناً تسبب الدمار والخراب للمنطقة، فأقاموا في وجهها سدوداً كان آخرها السد الذي بني في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. . وقد دعاها بطليموس وسائر مؤرخي الإغريق والرومان باسم «مكوريا» وهو اسم سبئي يعني: المقدس أو الحرم. وبلغة أهل الجنوب تلفظ: «مكربة» أي المكان الذي يتقرّب فيه إلى الله. . وقد ورد اسمها في كتاب الله بأسماء متعددة هي: مكّة، بكّة، وأم القرى، ونعتت بالبلد الأمين. ويقال إن العمالقة لما أقاموا فيها أول الأمر أطلقوا عليها لفظ «بكّا» وهي كلمة بابلية تعني البيت، ولا تزال مدينة «بعلبك» في بلاد الشام تحمل نفس المعنى، فهي تعني بيت الإله بعل. . قال تعالى: **﴿إن أول بيت وضع للناس للّذي ببكة مباركاً﴾**[1]. وقد رفع فيها إبراهيم وإسماعيل بيت الله الحرام، ليحج من استطاع إليه سبيلاً. . . قال جل شأنه: **﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾**[2]. .

توالى على حكم مكة عدة قبائل وأسر، حتى آلت إلى قريش بزعامة شيخها «قصي بن كلاب». وقد بدأ القرشيون يبنون البيوت، ويشيدون العمران بجوار الكعبة، ولم يكن بها منازل حجرية مبنية قبل ذلك، وكانت جرهم والعمالقة يتخذون من جبالها وأوديتها بيوتاً لهم حين كانت ولايتهم على البيت الحرام. . وكانت البيوت تقترب من الكعبة أو تبتعد عنها، حسبما كان لكل أسرة أو فخذ من مكانة واحترام. وكان القرشيون أكثر القبائل اتصالاً بالكعبة، وهم المجاورون لها في نطاق الدائرة المحيطة بالكعبة مباشرة، وتسمى قريش

---

(1) سورة آل عمران، آية: 96.

(2) سورة آل عمران، آية: 97.

البطاح. ثم تليهم طبقة قريش الظواهر الذي يسكنون في ظواهر مكة، ثم تليها طبقة قريش الأحلاف أو الأحابيش. ثم تأتي طبقة الموالي. ثم طبقة العبيد وكانت منازلهم هي الأبعد عن الكعبة، ويجاورون الخلعاء المستهترين..

وعندما فتحت مكة في (8 هـ) دخل رسول الله ﷺ الكعبة، وشكر الله على فتحها، ودار حول الكعبة سبع مرات. وحطّم الأصنام، وأعلن حرمة الكعبة في اليوم الثاني حيث قال: «أيها الناس إن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة، لا يحل لامرىء يؤمن بالله، واليوم الآخر، أن يسفك دماً أو يقص فيها شجراً»...

9 ـ بناء البيت الحرام:

لقد فضّل الله سبحانه وتعالى بقاعاً من الأرض، اختصّها بتشريفه وجعلها مواطن لعبادته، يضاعف بها الثواب، وينمو بها الأجر، وقد أخبرنا جل شأنه بذلك على ألسن رسله وأنبيائه، لطفاً بعباده وتسهيلاً لسعادتهم. وكانت المساجد الإسلامية هي أشرف بقاع الأرض وأقدسها، وهي مسجد مكة، ومسجد المدينة، والمسجد الأقصى في القدس. قال رسول الله ﷺ: «لا تشدّ الرّحال إلا إلى ثلاث، مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى». أما البيت الحرام فقد اختلفت الروايات في من رفع أسسه، ومن بنى قواعده في مكة؟؟

فقد جاء في كتاب الملل والنحل للشهرستاني، ما يفيد أن آدم عليه السلام، لما هبط الأرض وقع إلى سرنديب «سريلانكا» من أرض الهند، وكان يتردد في الأرض متحيراً بين فقدان زوجته ووجدان توبته، حتى وافى حواء بجبل الرّحمة من عرفات، وعرفها وصار إلى مكة، ودعا وتضرع إلى الله، حتى يأذن له في بناء بيت يكون قبلة لصلاته، ومطافاً لعبادته، كما كان قد عهد في السماء من البيت المعمور الذي هو مطاف الملائكة، ومزار الروحانيين، فأنزل الله عليه مثال ذلك البيت على شكل سرادق من نور.. فوضعه مكان البيت فكان يتوجه إليه ويطوف به، وهذا كلام غير موثوق وليس له ما يؤكده، مع أن ابن خلدون ذكر

في مقدمته: أن آدم عليه السلام بنى مكة قبالة البيت المعمور ثم هدمها الطوفان.. ويتابع الشهرستاني حديثه قائلاً: ثم لما توفي آدم تولى وصيته «شيث» بناء البيت من الحجر والطين، ثم خرب بطوفان نوح، وامتد الزمان حتى غيض الماء، وقضي الأمر، ويقول: وانتهت النبوّة إلى إبراهيم الخليل وحمله هاجر أم إسماعيل ابنه إلى الموضع المبارك، وولادة إسماعيل عليه السلام هناك، ونشوئه وتربيته ثمة، وعود إبراهيم إليه، واجتماعه به في بناء البيت، وذلك في قوله تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾[1] فرفعا قواعد البيت على مقتضى إشارة الوحي، مرعياً فيها جميع المناسبات التي بينها وبين البيت المعمور وشرّعا المناسك والمشاعر محفوظاً فيها، جميع المناسبات التي بينها وبين الشرع الأخير وتقبل الله العظيم ذلك منهما، وبقي الشرف والتعظيم إلى زماننا وإلى يوم القيامة دلالة على حسن القبول والرضا..

وقد اختلفت آراء العرب في ذلك، إذ تذكر روايات التاريخ أنه لمّا جاء إبراهيم إلى مكة كان عمر ابنه إسماعيل ثلاثين عاماً، حين أمره الله ببناء الكعبة. وقد بنى إبراهيم وإسماعيل بيت الله العتيق، في وسط مكة فوق ربوة حمراء، أقامت عليها هاجر عريشاً، اتخذتها وابنها مسكناً لهما في واد غير ذي زرع، فكانت إرادة الله، وألقى أوامره بوساطة الوحي برفع قواعد البيت في مكة، ليُعبد فيها الله وحده ويذكر فيها اسمه، بناء على أوامر الله وتعاليمه..

جاء في الذكر الحكيم أن إبراهيم خليل الرحمن، وإمام الحنفاء، ووالد الأنبياء، هو الذي رفع قواعد البيت الحرام الذي يعد أول مسجد وضع للناس كافة، يعبدون فيه الله وحده لا شريك له. وما قيل غير ذلك فهو غير مؤكد. قال تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين﴾[2] وأوصى إبراهيم ربه بذريته أن يرزقهم من رزقه، وأن يجعل قلوب الناس تهوي إليهم، ليقيموا الصلاة، ويعبدوا الله وحده، فتجلت عظمة الخالق وقدرته على

---

(1) سورة البقرة، آية: 127.
(2) سورة آل عمران، آية: 96.

جعل الناس يتسابقون لأداء فريضة الحج، معتقدين بتلبية نداء الله لهم، رغم كل المصائب والمتاعب، وتحمل المشقة والنفقات من كل حدب وصوب. .

قال تعالى على لسان إبراهيم: **﴿ربّنا إني أسكنت من ذرّيتي بوادٍ غير ذي زرع، عند بيتك المحرم، ربّنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾**[1] وقال عز وجل: **﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾**[2]. أي أن الله أرشده وهداه إلى ذلك المكان المقدس إلى الأبد، ليرفع فيه بيت الله الحرام. لقد تعاون إبراهيم وإسماعيل على رفع قواعد البيت، فكان إسماعيل يأتي بالحجر من عدة جبال حول مكة، وكان إبراهيم يقوم بالبناء ورفع أسس البيت المعظّم. . ثم أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج ليأتي إليه الناس أفواجاً من كل أرجاء الأرض. قال تعالى: **﴿وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾**[3]. . . وأصبحت الكعبة محجّاً لقبائل العرب قبل ظهور الإسلام، تحج إليها في كل عام يقدسُه العرب من كل بقاع الجزيرة، حتى أصبح مثابةً للناس وأمْناً.

قال الله تعالى: **﴿وإذْ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهِّرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾**[4].

لقد تقبل الله منهما عندما دعوه قائلين: **﴿ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم﴾**[5] وقد ثبت في الصحيحين أن هذا البلد الأمين حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام يحرمه الله إلى يوم القيامة وسيبقى المسلمون يتوجهون إليه من كل بقاع الأرض، فهو القبلة الثانية بعد أن كانت القدس القبلة الأولى لكل المسلمين. . .

---

(1) سورة إبراهيم، آية: 37.
(2) سورة الحج، آية: 26.
(3) سورة الحج، آية: 27.
(4) سورة البقرة، آية: 125.
(5) سورة البقرة، آية: 127.

كسوة الكعبة:

أما الكعبة فهي بيت صغير مربع البنيان تقريباً، يقع وسط الحرم. . أربعة أركان هي: ركن الحجر الأسود، والركن الشمالي، والركن الغربي، والركن اليماني. وقد ظلت الكعبة على البناء الذي وضعه إبراهيم الخليل، حتى آل إلى قصي بن كلاب، فبناها من جديد، وفرضت في عهده كسوة الكعبة على القبائل العربية حسب ثرائها. ولما جاء الإسلام كساها رسول الله ﷺ بالثياب اليمنية، ثم كساها عمر، وعثمان، القباطي المستوردة من مصر حتى عهد معاوية الذي كساها بالديباج والقباطي. . وكان أول من ابتدع فكرة عرض كسوة الكعبة على هودج، هي الملكة شجرة الدر سنة (645 هـ).

10 ـ ولاية البيت الحرام:

كان أول من تولّى شؤون بيت الله الحرام إسماعيل عليه السلام، وبعد وفاته تولى شؤون البيت ابنه الأكبر «نابت» ثم تحولت السدانة إلى أخواله من بني جرهم، وكان ملكهم «مضّاض بن عمرو الجرهمي» هو أول من ولي البيت منهم ثم جاء ابنه الحارث ثم انتقلت إلى عمرو بن الحارث الذي قيل عنه بأنه قذف غزالي الكعبة الذهبيين والحجر الأسود وسيوف محلاّة وغير ذلك في بئر زمزم. .

واستمرت الولاية في بني جرهم، ما داموا متمسكين بمبادىء الدين الحنيف. يعظمون مكة وبيتها الحرام، ولم يُقِرّوا فيها بغياً ولا ظلماً، ولم يسفك العرب دماً، ولم يقطعوا شجرة ولم يطردوا صيداً، ولم يقتلوا ظهيراً، وكان الحرم[1] آمناً مطمئناً، ولكن ولاة البيت من جرهم لم يستطيعوا الحفاظ على حرمات مكة وكعبتها المشرفة وبيتها الحرام. بل بغوا فيها، وطغوا، واستحلوا الحرمات المقدسة، وأكثروا الفساد، وألْحدوا بالمسجد الحرام، وصاروا يظلمون من يدخل إليها من غير أهلها، وأكلوا ما تقدم للبيت من هدايا وأموال، وتذكر روايات التاريخ أن جرهمياً فسق بامرأة في الحرم، فمسخهما الله حجرين

(1) الحرم: وهي المساحة المحيطة بالكعبة، تقدر مساحتها بـ 125 ميلاً مربعاً.

هما أساف ونائلة. وبعث الله على جرهم الرعاف والنمل، وغير ذلك من الآفات فهلك كثير منهم. وقد استمرت ولاية البيت فيهم نحواً من 300 سنة.. ثم تحولت الولاية إلى العماليق بقيادة «السميدع بن هوبر»، بعد هزيمة جرهم أمامهم، وزاد العماليق في بناء البيت ورفعوه على ما كان عليه من بناء إبراهيم عليه السلام.

ثم صارت ولاية البيت في ولد «إياد بن نزار بن معد»، وقامت حروب كثيرة بين مضر وإياد، كانت النتيجة لمضر على إياد، الذين أجلوا من مكة باتجاه العراق.

يقول المسعودي: «ولما ثارت الحرب بين إياد ومضر ابني نزار، كانت على إياد، قلعت الحجر الأسود، ودفنته في بعض المواضع، فرأت ذلك امرأة من خزاعة، فأجْبرت قومها فاشترطوا على مضر، أنهم إن ردّوا الحجر جعلوا ولاية البيت فيهم».

وهكذا آلت الولاية إلى خزاعة، ومنها إلى قصي بن كلاب عن طريق زوجته «حبي ابنة حليل بن حبشية الخزاعي» آخر من تولى منصب ولاية البيت من خزاعة وقد أوصى بالولاية من بعده إلى قصي، لما وجد من كثرة نسله من ابنته، وهي زوجة قصي، وكان قد أسند فتح الباب وغلْقه إلى أبي غبشان الخزاعي، الذي باعه إلى قصي ببعير وزق خمر، فكان المثل العربي «أخسر من صفقة أبي غبشان». وبعدها طردت خزاعة من مكة، واستمر قصي قائماً على خدمة الحرم الأشرف حتى تقدمت به السن حيث فوض أمر جميع الوظائف التي كانت إليه، من رئاسة قريش وشرفها من الرّفادة والسّقاية، والحجابة واللواء والندوة، إلى أكبر أولاده وهو عبد الدار، حيث اختلف الأخوة فيما بينهم، وتفرقت بطون قريش إلى فرعين: منهم من بايع عبد الدار وحالفه، ومنهم من بايع عبد مناف وحالفه، لكنهم اتفقوا أخيراً على أن تكون الرفادة والسقاية لبني عبد مناف، وأن تكون الحجابة والندوة واللواء لبني عبد الدار، واستمر الأمر كذلك فترة طويلة من الزمن...

11 ـ أبرهة الحبشي يغزو الكعبة:

في عام 570 م. تعرضت الكعبة المشرفة لغزوة عاتية خارجية، قادها أبرهة الأشرم وعلى رأسها الفيل الكبير «المحمود» وكانت غاية هذا القائد هدم الكعبة وإزالتها، لتحويل الحجاج العرب عنها إلى كنيسة كان قد بناها في صنعاء، هي كنيسة القلّيس. وذلك انتقاماً لما فعله اثنان من أبناء الحجاز بداخلها. . وكانت بلاد اليمن حينذاك تحت سيطرة الأحباش الذين يعتنقون النصرانية.

توجه جيش أبرهة حتى بلغ ظاهر مكة، وتمركز حولها، وأصاب مئتي بعير لزعيم مكة عبد المطلب ثم أرسل أبرهة رسولاً إلى مكة ليخبر أهلها أنه لم يأت لحربهم أو قتلهم، بل جاء لهدم الكعبة. وعليهم أن يخلوا بينهم وبين البيت الحرام، وطلب مقابلة زعيمهم، وجاء عبد المطلب زعيم مكة لمقابلة أبرهة، وكان قد شهد ذلك الجحفل الجرار المعزز بالفيلة الضخمة.

وعرف أنه لا قبل لقريش بردّه، وهي تفتقر إلى مثل هذا السلاح الغريب العجيب. . فلما مَثَل بين يدي أبرهة أعجبه وأجلسه معه، ولكن عبد المطلب لم يرج أبرهة العودة بجيشه وفك حصار الكعبة. بل سأله أن يرد إليه مئتي بعير أصابها له، فدهش أبرهة لهذا الطلب قال له: «قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني. أتكلمني في مئتي بعير قد أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك وقد جئت لهدمه ولا تكلمني فيه؟».

فقال له زعيم قريش بكل ثقة: «إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رب يحميه». ورد عليه إبله، وعاد إلى مكة وطلب من أهلها الانسحاب إلى بطون الأودية وشعاب الجبل وترك الأمور إلى الله، لأن مواجهة جيش العدو أمر مستحيل. خاصة وأنه حاول إغراء أبرهة بالمال والذهب، فقد عرض عليه ثلث أموال تهامة ويرجع عن مكة دون أن يهدم البيت الحرام، فأبى وتكبر رافضاً ذلك. . . أخذ الجميع يبتهلون إلى الله أن يدفع عنهم ذلك البلاء الأعظم ويشكون ضعفهم إلى الله، وحدثت المعجزة من رب البيت، فأرسل وباء أطاح

بجيش أبرهة وجعلهم عبرة لمن يعتبر على مر الدهور والعصور حيث فني جيشه الضخم عن آخره.

قال تعالى: **﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول﴾**(1). هذه الطيور الصغيرة التي تشبه الخطاطيف على ما قيل فيها. أرسلها الله تعالى ليهلك أصحاب الفيل لأنهم تحدّوا إرادة الله وهاجموا بيته المكرم. حيث كان كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار تلقيها على جيش أبرهة، فما يقع من حجر على رأس إلا خرج من دبره، وإذا وقع على شيء من جسده خرج من الجانب الآخر.. وبعث الله ريحاً شديدة ضربت الحجارة فزادتها شدة، وأهلكوا جميعاً. وأصبح الجيش القوي هشيماً تذروه الرياح. يقول ابن إسحق: بأنه ليس كلهم أصابته الحجارة، حيث رجع منهم إلى اليمن ليخبروا أهلهم بما حلّ بقومهم من النكال.. وذكروا أن أبرهة رجع وهو يتساقط أنملة أنملة فلما وصل إلى اليمن انصدع صدره فمات... وروى ابن إسحق، قال حدثني عبد الله بن أبي بكر عن سمرة عن عائشة قالت:

«لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يُستطْعمان». لقد أهلكهم الله وأذلهم وأصبحوا حكاية من حكايات الزمن، تضرب في كل متكبر جبار، وقد أورد القرآن الكريم قصتهم كاملة لأهميتها.

وهكذا.. فقد هلك أبرهة الملك، وابنه «يكسوم» وابنه الآخر «مسروق» الذي كان آخر ملوك الأحباش في اليمن.. وأصبحت كنيسة القلّيس بكل ما احتوت من مفاخر وآثار جلبت من قصر بلقيس هناك. أصبحت خاوية لا أنيس فيها. وقام بيت الله الحرام في مكة برعاية الله وحمايته..

وفي العام ذاته، أي في عام الفيل الموافق 570 م كانت ولادة سيد البشر محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ الذي جاء لحماية البيت ونشر الدين الإسلامي، دين التوحيد والإيمان..

---

(1) سورة الفيل،

وأخذ العرب يؤرخون أحداثهم بعام الفيل، حتى خلافة عمر بن الخطاب، حيث استبدل به هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى يثرب.

12 ـ تقاليد عربية جاهلية أقرها الإسلام:

إن الجزيرة العربية خلّفت حضارات خاصة بها. ولا تزال آثارها تتمثل بحياة البداوة ونظمها المعمول بها في المجتمع البدوي الحالي.. نتعرض إلى بعضها التي ورثتها عن تلك العصور البعيدة. فقد تمتع العرب في جاهليتهم بكثير من العادات والتقاليد الخاصة بهم والتي تتناسب مع بيئتهم الصحراوية، وحياتهم القبلية وظروفهم البدوية المتنقلة، من هذه التقاليد ما لم يقبل بها الإسلام فأبطلها ونهى عنها، ومنها ما قبل الإسلام وكرّس وجودها وأمر باتباعها بموجب تشريعات دينية سمحة..

فقد أبطل الإسلام من جملة ما أبطل: وأد البنات المتّبع في الجاهلية، وقتل الأبناء خشية الإملاق، ونهى عن الجمع في الزواج بين الأختين. وعن زواج امرأة الأب، فقد كان الإبن البكر ملزماً بزوجة أبيه بعد وفاته.. وإن لم يقبل اختلف الأبناء فيما بينهم على الزواج منها. وأبطل زواج المشاركة الذي كان شائعاً قبل الإسلام، وكان أمر الجاهلية في نكاح النساء على أربع حالات هي[1]:

1 ـ رجل يخطب فيتزوج.

2 ـ امرأة يكون لها خليل.. يختلف إليها، فإن ولدت قالت: هو لفلان، فيتزوجها بعد ذلك.

3 ـ امرأة يختلف إليها النفر وكلهم يواقعها في طهر واحد فإذا ولدت ألزمت الولد أحدهم وهذه تدعى المقسمة..

4 ـ امرأة ذات راية يختلف إليها الكثير وكلهم يواقعها فإذا ولدت جمعوا

---

(1) كتاب الملل والنحل، الشهرستاني.

لها القافة فيلحقون الولد بشبيهه. .

كما أبطل بعض التقاليد الروحية فيما يتعلق بالوثنية، وتقديم القرابين للأصنام وغير ذلك من العادات والتقاليد التي رفضها الإسلام لأنها تتنافى مع مبادىء الرسالة الإسلامية الإنسانية والروحية والخلقية.

وقد أقر الإسلام عادات عربية أصيلة منها:

أن العرب كانوا يحجون بيت الله الحرام، ويعْتمرون ويُحْرِمون ويطوفون سبعاً. . وقد احتفظ الإسلام بكثير من شعائر الحج في الجاهلية، فقد كانوا يمسحون بالحجر ويَسْعوْن بين الصفا والمروة. . وكانوا يلبّون ويذكرون في تلبيتهم إشراكاً بالله، قائلين: إلا شريك هو لك تملِكُه وما مَلَك. . وكانوا يهدون الهدايا، ويرمون بالحجارة، ويحرّمون الأشهر الحرم[1].

وكان العرب في الجاهلية يؤدون الزكاة عن أموالهم، وقد فرضت زكاة الفطر في السنة الثانية للهجرة، وكان العرب يقومون بالصيام قبل الإسلام، فقد صامت قريش اليوم العاشر من محرم. لأنه كان اليوم الذي سترت فيه الكعبة، وقد صامه النبي ﷺ، وكانوا يصومون ثلاثة أيام في الشهر إلى العشاء. . وفي شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة فرض صيام شهر رمضان. قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾[2]. وكان العرب في جاهليتهم يؤدون الصلاة ويغتسلون من الجنابة، وكانوا يغسلون موتاهم قبل الدفن. . وكانوا يكفنون موتاهم ويصلّون عليهم، وكانت صلاتهم إذا مات الرجل حُمِل على سريره، ثم يقوم وليّه، فيذكر محاسنه كلها، ويثني عليه ثم يُدفن ثم يقول: عليك رحمة الله وبركاته. . .

وكان العرب يداومون على طهارات الفطرة التي ابتُلي بها إبراهيم عليه السلام، وهي الكلمات العشر: منهن خمس في الرأس وخمس في الجسد:

---

(1) الأشهر الحرم: رجب، محرم، ذو القعدة، ذو الحجة.
(2) سورة البقرة، آية: 183.

فأما اللواتي في الرأس فهنّ: المضمضة والاستنشاق، قص الشارب، الفرق، السواك. وأما اللواتي في الجسد فهنّ: الاستنجاء، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، وحلق العانة، الختان. . ولما جاء الإسلام أقرها سنة من السنن. . ومن قوانين الأحوال الشخصية في الجاهلية: أنهم كانوا يحرمون زواج الأمهات والبنات والعمّات والخالات، وكانوا يطلقون ثلاثاً على التفرقة، وكان يقطعون اليد اليمنى للسارق، وكانوا يصلبون من يقطع الطريق، وكانوا يوفون بالعهود، ويكرمون الجار ويقرون الضيف ويصدقون الحديث، ومنهم من حرم الخمر والزنا على نفسه. .

هذه عادات جاهلية لكنها أصيلة وطيبة، اعتنقها العرب أو قسم منهم في جاهليتهم وأقرها الإسلام في مبادئه وشريعته لأن فيها كل الخير للبشرية. . ولما جاء رسول من أنفسهم يحمل رسالة الإسلام، ودعا لاعتناق مبادئها. أبوا واستكبروا خوفاً على مصالحهم ومكاسبهم الشخصية من الأرباح التي كانت تدرّها عليهم زيارة الأصنام في مكة المكرمة وفيها بيت الله الحرام وقد كانت المركز الرئيسي للوثنية.

كما خافوا أن يضيع جاههم وزعامتهم إذا جاء الإسلام، حيث احتلوا مركز الصدارة بين القبائل الجاهلية باعتناقهم الوثنية. واعتقدوا أن الإسلام سيفوت عليهم الفرصة وسيضيع عليهم مكانتهم الدينية والتجارية والاجتماعية. . .

الباب الثالث عشر

اليهودية "الموسوية"

أولاً ـ مقدمة البحث:

لقد صاغ اليهود كتابة تاريخهم بأيديهم، من خلال توراتهم وتلمودهم في إطار من المقدسات والغيبيات. فقد جعلوه كلَّه وحْياً من السماء نافذاً بإرادة الله.. فوق كل الشبهات، فلا جدال فيه ولا نقاش، وقد صدَّقوا كل شيء فيه، حتى أنهم صدقوا أنفسهم من خلال تاريخهم هذا بأنهم شعب مختار من بين كل شعوب البشر. وأنهم ينتسبون إلى أصل طيب ومنبت كريم، وأنهم ينتظرون اليوم الموعود الذي سيصبحون فيه سادة العالم وتسود امبراطوريتهم. ومع ذلك فقد اختلفوا في ما بينهم وتباينت آراؤهم عندما كانوا يتحدثون عن أصولهم الأولى.

فالتوراة تنسبهم إلى إبراهيم الخليل في القرن (19 ق. م) وإلى إسحق ويعقوب «إسرائيل»، تقول توراتهم: «تقول لبني إسرائيل: يهوه إله آبائكم، إله إبراهيم، وإله إسحق ويعقوب، أرسلني إليكم»[1]... وهذه محاولة من كتّابهم وحاخاماتهم لتثبيت الاستمرار بين إبراهيم وموسى. وهو ادّعاء مزيف، فإبراهيم وُلِد في بلاد الرافدين ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولم يصل اليهود إلى بلاد

(1) سفر الخروج: 15.

الرافدين قبل السبي إلى بابل الذي قام به بختنصر بعد إبراهيم بحوالي 1300 سنة فهم يدّعون نسبهم إليه ولم يكن له وجود في عهده فهو منهم براء. . . وأن موسى تبلغ الرسالة السماوية في طور سيناء بعد إبراهيم بحوالي 600 سنة ورد في سفر إشَعْيا أن النبي إشَعْيا ينسبهم إلى كنعان على أيام السبي البابلي ويسمي اللغة العبرية نفسها «لغة كنعان»[1].

بينما ورد في سفر التثنية على لسان يعقوب وهو يصرخ أمام ربه قائلاً: «آرامياً تائهاً كان أبي، فانحدر إلى مصر وتغرّب هناك في نفر قليل»[2].

فكيف يكون إبراهيم وإسحق ويعقوب آراميين ويهوداً في آن واحد. وقد نسبوا كنعان إلى حام بن نوح - أبي العبيد - كما يقولون عنه وهو الذي لا يولد من سلالته إلاّ سود الوجوه. وذلك لأنه كان يناصبهم العداء، فحقدوا عليه.

ورد في سفر التكوين: «وحام هو أبو كعنان»[3] وقال «ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لاخوته». وفي مواقع أخرى يقولون: «إن كنعان سلالة ساميّة، لعلها أنقى في ساميتها من اليهود أنفسهم». وإن كان بعض الباحثين يشكّون في نسبتهم إلى الساميّة أصلاً. أمثال العالم الفرنسي أدولف لودس في كتابه تاريخ البشرية.

من هنا بدأت روائح التمييز العنصري والتفوق العرقي تفوح في نفوسهم، وقد ظهر التناقض الواضح والغرور الفاضح، الذي يتخبطون به في كتابة تاريخهم الخرافي، من خلال تلمودهم، وتوراتهم المزعومة، وفق ما يشتهون، وكيفما يريدون، واتخذوا لهم أسماء مختلفة وأصول متناقضة.

ثانياً - البحث عن الأصول:

إذا عدنا إلى التوراة أو كتب التاريخ، وبحثنا عن أصول هذه المجموعة البشرية الغريبة المنشأ، لوجدنا أنها سميت عبر التاريخ بأسماء مختلفة منها:

---

(1) إشعيا: 19.

(2) التثنية: 26.

(3) التكوين: 9.

(أ) العبرانيون:

وردت هذه التسمية في كتاب التوراة، وفي «قاموس الكتاب المقدس» جاء ذكرهم بأنهم أحد فروع الدوحة الساميّة، وينسب اسمهم إلى «عابر» أحد أجداد إبراهيم الذي أتى إلى فلسطين، وقد منحهم الكنعانيون هذا اللقب إذ سمّوا إبراهيم[1] أبرام العبراني[2][3] بعد أن عبر نهر الفرات إلى فلسطين، وهو كلام غير مؤكد وغير صحيح. والعبراني هو غير اليهودي في عرف التوراة، ويحاول الحاخاميّون ربط تاريخهم بأقدم العصور واعتبار عصر اليهود متصلاً بأقدم العصور عند استعمالهم مصطلح (عبري - عبراني) للدلالة على اليهود بوجه عام، وهو ادّعاء باطل.. وقد أشارت بعض الوثائق الهيروغليفية في رسائل العمارنة في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، إلى أنه كان في مصر نزلاء غرباء، وجنود وعبيد عملوا بالفلاحة وأعمال الصناعة، يقال لهم «الخابيرو» أو «الهابيرو» أو «العبيرو» أو «العبرى».. وكان يقصد بهم عرب البادية أو البدو الرحل الذين كانوا ينتقلون بخيامهم وإبلهم من مكان إلى آخر وصار المصريون يسمون الإسرائيليين بالعبرانيين باعتبارهم من تلك الجماعات البدوية المتنقلة[4] كما اعتقد بعض المؤرخين صواباً أو خطأً أنهم العبرانيون، وانتشر هذا الاسم بين الأمم.

يقول عنهم الأب ديفو: «إنهم لا ينتمون إلى السكان المحليين، ولا يجدون هويتهم في طبقة المجتمع»[5].. ويقول مانتون كاهن هليوبوليس في القرن الثالث قبل الميلاد: «إن العبرانيين هم أحفاد المصابين بالجذام وذوي العاهات الأخرى من سكان مصر، والذين كان فرعون مصر «مينوفتيس» قد عزلهم عن الناس، وأرغمهم على الإقامة في مقالع خاصة، حفظاً للصحة العامة

---

(1) إبراهيم: تعني «أبو رحام» أي أبو جمهور.
(2) أبرام: معناها «الأب الرفيع أو المتكرم».
(3) تكوين: 14.
(4) تكوين: 12.
(5) موريس بوكاي: دراسة الكتب المقدسة.

وأن موسى لم يكن سوى كاهن مصري أصيب بالجذام، فعزل في المقلع مع الآخرين، ولما طالت عليه العلة، يئس من الشفاء فتمرد على آلهة مصر، واتصل بالهكسوس سراً، وطلب مساعدتهم ومن ثم حرّض على التمرد، فعلم فرعون مصر بأمره وقرر تأديبه، فلما شعر موسى بالخطر، لاذ مع أنصاره بالفرار ليلاً، واعتصموا في صحراء سيناء»...

بينما تقول رواية أخرى أن كلمة عبري، أو عبراني، مشتقة من فعل عَبَرَ في كل اللغات السامية بمعنى تخطى واجتاز، وقد كانت تطلق على كل من يهاجر من العراق فيعبر نهر الفرات إلى الشام، وقد نسبوا أنفسهم إلى عبور إبراهيم من العراق إلى حران.

جاء في التوراة: «قال يشوع لجميع الشعب: هكذا قال الرب إلـه إسرائيل، آباؤكم سكنوا عبر النهر منذ الدهر، تارح أبو إبراهيم وأبو ناحور، وعبدوا آلهة أخرى، فأخذْتُ إبراهيم أباكم من عبر النهر وسِرْت به في كل أرض كنعان»[1].

وقد تمت أحداث هذا العبور في بداية الألف الثاني قبل الميلاد، ولم يكن لهم أي وجود في عهد إبراهيم، وهو كلام لا يستند إلى دليل. وقد أطلق على اليهود خطأ اسم العبرانيين بدليل أن القرآن الكريم لم يستخدم كلمة العبرانيين للدلالة على اليهود مطلقاً، بل استخدم صيغة «بني إسرائيل» و«قوم موسى» و«يهود» ولم يعرف العرب في عهد النبي محمد ﷺ اليهود في غير هذه التسميات. ويعلق فرويد على مسألة «العبيرو» بقوله: «ونحن نعرف أخبار هؤلاء المحاربين من الرسائل المكتشفة عام 1887 م في سجلات تل العمارنة المتهدمة، فهي تسميهم باسم «عابيرو» وقد أطلق هذا الاسم فيما بعد على الغزاة الجدد اليهود العبرانيين، الذين ما كان في مستطاع رسائل العمارنة أن تذكرهم لأنهم قدموا في زمن لاحق»[2] وعبور آخر هو عبور يعقوب بن إسحق بن

(1) سفر يشوع: 24.
(2) فرويد: موسى والتوحيد.

إبراهيم، عندما عبر النهر وجعل وجهه نحو جبل جلعاد[1] وهناك عبور آخر سلكه يوشع بن نون عندما دخل غازياً أرض فلسطين حيث عبر نهر الأردن باتجاه الغرب.. ولكنه كان متأخراً.. وكل هذه الأقوال لا تستند إلى دليل بـأن العبرانيين هم أنفسهم اليهود..

(ب) بنو إسرائيل:

أما تسميتهم ببني إسرائيل فتعود إلى يعقوب حفيد إبراهيم، وتروي التوراة قصة متناقضة في هذا الأمر. تقول التوراة: إنه كان في طريقه إلى أرض كنعان. وحتى إذا انتهى من عبوره النهر، وقد أرخى الليل سدوله وجد رجلاً في انتظاره ليس كالبشر، قيل إنه ملك من السماء، فصارعه حتى مطلع الفجر، فلما أراد الانطلاق طلب منه يعقوب أن يباركه فقال له: ما اسمك؟ قال يعقوب. قال: لا يكون اسمك يعقوب فيما بعد، بل إسرائيل، لأنك كما علوت عند الله، فعلى الناس أيضاً تعلـو» . وفي موضع آخر تروي التوراة حديثاً آخر جاء فيه: «وظهر الله ليعقوب بعدما رجع من فدان آرام، فباركه. وقال له الله: اسمك يعقوب، لا يكون من بعد اسمك يعقوب، بل إسرائيل يكون اسمك. وقال الله: أثمر وأكثر ستكون منك أمة وجماعة أمم، وملوك من صُلْبك يخرجون»[3]. وقد ورد اسم إسرائيل لأول مرة خارج الكتاب المقدس في نقش على نُصُب أقامه الفرعون منفتـاح بن رمـسيس الـثـاني مـن الأسـرة 19 الـذي حكـم مصـر مـن (1234 - 1227 ق. م). والذي نقش أنشودة نصر يذكر فيها أنه يفتخر بفتوح بعض المدن الفلسطينية وأنه أهلك إسرائيل أيضاً. ويوجد هذا النقش في المتحف المصري في القاهرة. وقد أطلق اسم إسرائيل على الاثني عشر سبطاً منذ غزو فلسطين على يد يشوع إلى موت سليمان، وقد حكمها ملوك ثلاثة: شاؤول وداوود وسليمان من سنة (1050 - 930 ق. م).

---

(1) التكوين: 31.

(2) التكوين: 35.

(جـ) اليهود:

اما تسميتهم باليهود فقد ظهرت بعد وجود مملكة يهوذا التي اشتق منها كلمة يهود وتعود إلى عهد داوود وسليمان عليهما السلام، وأبنائهما عندما تمكنوا من إقامة مملكة في فلسطين حوالي (1000 ق. م) وهم ينتمون إلى قبيلة يهوذا رابع أبناء يعقوب تمييزاً لهم عن الأسباط الإسرائيلية. وبعد السبي صارت تشمل جميع اليهود ممّن رجعوا من الأَسْر من الجنس العبراني. ثم صارت تطلق على جميع اليهود المشتتين في العالم. وقد وردت تسمية اليهودي في كتابات الملك الآشوري سنحاريب (681 - 705 ق. م) ولفظة يهود أعم من العبرانيين.. فهي تشمل العبرانيين الأصلاء والدخلاء.. ويقال بأنهم سُموا باليهود اشتقاقاً من كلمة هادوا أي تابوا فيقال: هاد الرجل أي تاب ورجع إلى الحق، وقد لزمهم هذا الاسم لقول الله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿إنّا هُدنا إليك﴾[1] أي رجعنا وتُبنا إليك.

وقال جل شأنه: ﴿مِن الذين هادوا يحرّفون الكَلِم عن مواضعه﴾[2]. وقد خاطبهم الله في كتابه المجيد باسم «أهل الكتاب» في مواضع متعددة. ويطلق عليهم قوم موسى و الموسويون. ثم أطلقت عليهم أسماء أخرى هي الأكثر انسجاماً مع طبيعتهم العنصرية والعرقية، وهي الصهيونية وشعب الله المختار، وغير ذلك من أسماء ما أنزل الله بها من سلطان.

فاليهود لم يتركوا أي كيان سياسي يهودي خاص بهم في تاريخ فلسطين القديم، وكل الذي تركوه ديانة يهودية متأخرة مقتبسة من التراث الكنعاني والآرامي والبابلي.. حتى أن عهد الملوك بما فيه عهد داوود وسليمان كان عهداً كنعانياً بتراثه وحضارته، ولغته وثقافته، وأخفق اليهود في إنشاء مملكة يهودية دائمة في فلسطين، وذلك لأن الكيان اليهودي لم يقم على أساس قومي راسخ، أصيل بمقوماته.. إنما قام كيانهم على أساس الدين وحده، وهو عرضة للتغيير

---

(1) الأعراف: 156.

(2) النساء: 46.

والتبديل، وأن كيانهم قام على الإرهاب والاغتصاب والاعتداء على شعب آمن، له ثقافته وحضارته، وجد على أرض فلسطين منذ أكثر من خمسة آلاف سنة، مبرّرين كل همجيتهم ووحشيتهم بأنها رسالة من عند الله «يَهْوَه» إله اليهود السفاح، وهم ينفذون أوامره ليس إلا . . .

ثالثاً ـ المعتقدات والتعاليم اليهودية:

الدين اليهودي أقدم دين سماوي منزل يقوم في الأصل على عبادة الله الواحد الأزلي، خالق كل شيء، العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، الحاضر في كل مكان، وهو دين يجرد الإله من الوثنية ومن مظاهر الطبيعة، وينهى عن عبادة الأوثان، ويعاقب من يعبد الأصنام، وفيه تشريعات اجتماعية وأدبية وإدارية، أنزله الله جل شأنه على موسى منذ ما يقارب أربعين قرناً من الزمن وبه بدأت. . وكان قد سبقه في الدعوة إلى وحدانية الله كل الأنبياء الذين بُعِثوا قبله، وهم كثيرون منذ عهد آدم عليه السلام، حيث جاء لكل أمة رسول يدعوها إلى وحدانية الله وعبادته، قال تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً، أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾[1]. فكل الأنبياء الذين بُعِثوا قبل موسى قالوا بوحدانية الله، ودعوا أممهم إلى ذلك. . .

كتابهم المقدس التوراة، فيه هدى ونور، ويتضمن نصوص شريعتهم ومعتقداتهم. . جاء فيه «وقال الرب لموسى: اصعد إليَّ، إلى الجبل وكُنْ هناك، فأعطيك لوحي الحجارة، والشريعة، والوصية التي كتبتها لتعليمهم»[2].

ورد في التلمود ـ كتاب السنة عند اليهود ـ «أن موسى تلقى شريعة سيناء، وبلغها إلى يشوع ويشوع بلغها إلى الأقدمين، والأقدمون إلى الأنبياء، والأنبياء إلى أعضاء الكنيس الأكبر».

وقد ورد تفصيل في ذكر الشرائع اليهودية في سفر الخروج الإصحاح (12،

---

(1) النحل: 36.
(2) الخروج: 24.

22، 23) على شكل قوانين دنيوية، ونصائح وإرشادات وعظات، وهي أقرب ما تكون إلى شريعة حمورابي البابلي (1792 - 1750 ق. م)، وذكرت هذه الأحكام أيضاً في سفر اللاويين الإصحاح 24، فقد جاء فيها تعليمات وأوامر، نورد بعضاً منها:

فهي تنهى عن القتل «من ضرب إنساناً فمات يقتل قتلاً»[1].

وتنهى عن عقوق الوالدين «من ضرب أباه أو أمه يقتل قتلاً»[2].

وجاء كذلك: «من شتم أباه أو أمه يقتل قتلاً».

وتنهى عن السرقة «من سرق إنساناً وباعه أو وجد في يده يقتل قتلاً»[3].

وتأمر بالمعاملة بالمثل «وإن حصلت أذية تعطي نفساً بنفس، وعيناً بعين، وسنا بسن، ويداً بيد، ورجل برجل، وكيّا بكيّ، وجرحاً بجرح، ورضّاً برضّ».

وينهى عن السحر «لا تدع ساحرة تعيش».

وينهى عن الذبح لغير الرب «من ذبح لآلهة غير الرب وحده يهلك» «لا تسيء إلى أرملة ولا يتيم» فهو يرأف بحال المرأة واليتيم.

«لا تضايق الغريب، فإنكم عارفون نفس الغريب، لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر».

«لا تضطهد الغريب، ولا تضايقه، لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر»[4].

وينهى عن الربا «إن اقترضت فضة لشعبي الفقير الذي عندك، فلا تكن له كالمرابي، لا تضعوا عليه الربا».

وينهى عن الكذب «لا تقبل خبراً كاذباً، ولا تضع يدك مع المنافق، لتكون شاهد ظلم».

«لا تتبع الكثيرين إلى فعل الشر». «ابعد عن كلام الكذب»، «لا تقتل

---

(1) الخروج: 21.

(2) الخروج: 21.

(3) الخروج: 21.

(4) الخروج: 23.

البريء والبار». «لا تسبّ الله، ولا تلعن رئيساً في شعبك»

«لا تأخذ رشوة، لأن الرشوة تعمي المبصرين، وتعوج كلام الأبرار»[1].

وفي سفر الخروج وردت التعاليم والأوامر التالية.. إذا راود رجل عذراء لم تخطب فاضطجع معها، يمهرها لنفسه زوجة، إن أبى أبوها أن يعطيه إياها، يزن له فضة كمهر العذارى»[2]. والمعتقدات الدينية اليهودية إجمالاً هي عقائد قومية ووطنية قبل كل شيء، وكل من يدين بها فهو وطني أو قومي، لأنها تربطه بالأمة اليهودية ـ على حد زعمهم ـ بروابط لا انفصام لها». وهم بهذا لا يملكون من مقومات القومية إلا وحدة الدين، وعلى هذا المبدأ وضعوا كّل تشريعاتهم وتنظيماتهم، لذلك قل معتنقوها على مر الزمن..

يقول البروفسور «كلاين»: «ليست اليهودية من الأديان التي ترغّب الناس في اعتناقها» ولذلك قالت النصارى ﴿**ليست اليهود على شيء**﴾[3]. وقالت اليهود: ﴿**ليست النصارى كل شيء**﴾[4] وتبادلوا الاتهامات..

وقال جل شأنه مخاطباً اليهود والنصارى معاً: ﴿**لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل**﴾[5] فقد أغفل اليهود التوراة المنزّلة وعملوا بالتوراة المكتوبة على هواهم، ولذلك ضلّوا السبيل، وأرسل الله لهم النبي بعد الآخر، ليرشدهم، ويهديهم وينقذهم من شرور أعمالهم..

﴿**كلّما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا، وفريقاً يقتلون**﴾[6].

الوصايا العشر الموسوية: ورد في التوراة ذكر للوصايا العشر التي أوصى بها الرب موسى في أكثر من موقع وهي تنص على ما يلي:

---

(1) الخروج: 23.
(2) الخروج: 22.
(3 - 4) سورة البقرة، آية: 113.
(5) سورة المائدة، آية: 68.
(6) سورة المائدة، آية: 70.

1 ـ لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. 2 ـ لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولا صورة ما، ولا تسجد لهن، ولا تعبدهن. 3 ـ لا تنطق باسم الرب إلٰهك باطلاً. 4 ـ احفظ يوم السبت لتقدسه، كما أوصاك الرب إلٰهك. 5 ـ أكْرِم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض. 6 ـ لا تقتل. 7 ـ لا تزن. 8 ـ لا تسرق. 9 ـ لا تشهد على قريبك شهادة زور. 10 ـ لا تشته امرأة قريبك، ولا تشته بيت قريبك، ولا حقله، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره، ولا كل مال لقريبك»[1] هذه الوصايا التي أوصى بها الرب موسى، هي روح التعاليم الموسوية وأهم معتقداتها.

ومن الأحكام التي أمرت التوراة باتباعها، وحفظها والعمل بها، مجموعة النصائح التي وردت في سفر اللاويين «لا تلفتوا إلى الأوثان، وآلهة مسبوكة لا تصنعوا لأنفسكم، لا تسرقوا، ولا تكذبوا ولا تغدروا أحدكم بصاحبه، ولا تحلفوا باسمي للكذب، فتدنس اسم إلٰهك، لا تغضب قريبك، ولا تسلب، ولا تبت أجرة أجير عندك إلى الغد، لا تشتم الأصم، وقدّام الأعمى لا تجعل معثرة، بل اخش إلٰهك، لا ترتكبوا جوراً في القضاء، لا تأخذوا بوجه مسكين، ولا تحترم وجه كبير، بالعدل تحكم لقريبك، لا تسع في الوشاية بين شعبك، لا تقف على دم قريبك، لا تنتقم، لا تحقد على أبناء شعبك، بل تحب قريبك كنفسك، لا تدنس ابنتك بتعريضها للزنى لئلا تزني الأرض، وتمتلىء الأرض رذيلة، وإذا نزل عندك غريب في أرضكم فلا تظلموه، كالوطني منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم، وتحبه كنفسك، لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر، فتحفظون كل فرائضي، وكل أحكامي، وتعملونها»[2] فأين بني إسرائيل اليوم؟ من كل هذه الأحكام والفرائض والوصايا؟؟.

لقد اتبعوا الضلالة وتركوا الهدى، لأنهم ليسوا يهوداً في الأصل، إنما هم صهاينة من آفاق الأرض يتوافدون، ولا يربطهم ببعضهم رابطة عرق أو دم أو لغة

---

(1) سفر التثنية: 5 وسفر الخروج 20.

(2) سفر اللاويين: 19.

أو تاريخ، وقد حرفوا كلام الله، وساروا على غير هدى، وكانوا من الضالين. . . وستبقى عقدة الغرور والكراهية، والحقد والأنانية، تطاردهم وتلعنهم أينما حلوا إلى يوم الدين، لأنهم يعدون ما جاء في توراتهم بأنه خاص ببني إسرائيل وينطبق على الأمميين، لقد كفروا بآيات الله، فأذلهم الله وقال فيهم جل شأنهم:

﴿وضُربت عليهم الذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله﴾[1]. وأمر سبحانه وتعالى المؤمنين أن لا يتخذوهم أولياء، لأن الله غضب عليهم حيث قال: **﴿يا أيها الذين آمنوا، لا تتولّوا قوماً غضب الله عليهم، قد يئسوا من الآخرة، كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾**[2] لقد غضب الله عليهم، وتاهوا في الأرض، وأصبحوا فيها مفسدين، لا يؤمنون بالحياة الآخرة، فهم بذلك كافرون. . . **﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلٰهاً واحداً، لا إله إلا هو، سبحانه عما يشركون﴾**[3]. فاليهود لم يكونوا موحدين، إنما كانوا يعبدون «يهوه» في المرتبة الأولى، ويشركون به آلهة أخرى، أو يعترفون بوجودها، وهذه العبادة تسمى «العبادة التفضيلية» وهي من أنواع الشرك لا التوحيد. . .

(أ) الحياة الآخرة عند اليهود:

إن التوراة اليهودية المكتوبة والتلمود المنطوق، لا يوجد فيهما ذكر للحياة الآخرة، ويوم البعث أو يوم الحساب، ولا يذكران عن الروح شيئاً، بخلاف التوراة المنزلة. فالدين اليهودي، بعيد عن الروحانيات، لأن حياتهم تقوم على المادة وحب التملك، والشهوة إلى جمع المال بشتى الوسائل والأحوال، فرأس المال هو إله إسرائيل الحقيقي كما يقول اليهودي ماركس. ورد في التلمود: «إن اليهود الذين يرتدّون عن دينهم بقتلهم يهودياً آخراً لا يدخلون الجنّة، وإنما تدخل أرواحهم في الحيوانات والنباتات، ثم تذهب إلى الجحيم، ثم تعذّب

(1) سورة البقرة، آية: 61.
(2) سورة الممتحنة، آية: 13.
(3) سورة التوبة، آية: 31.

عذاباً أليماً مدة اثني عشر شهراً، ثم تعود ثانية لتدخل في الجمادات ثم في الحيوانات، ثم في الوثنيين، ثم ترجع إلى جسد يهودي بعد تطهيرها»[1].

فهم يعتقدون بمبدأ تناسخ الأرواح والتقمص، كما يعتقد الهندوس في الهند، ووجه الشبه بينهما قريب!! فذكر الجنة والنار في التلمود أقرب إلى الخرافة والأساطير.

يقول «ول ديورانت»: «إن اليهود قلّما كانوا يشيرون إلى حياة أخرى بعد الموت، ولم يرد في دينهم شيء من الخلود وكان ثوابهم وعقابهم مقصورين على الحياة الدنيا»[2].

فهم يعتقدون أن الإنسان يجزى في هذه الدنيا عما يفعل، إن خيراً فخير.. وإن شراً فشر.. وقد يكون بين الناس من يفعل الخير ولكنه يجزى بالشر، وتفسيره عندهم، أنه مسؤول عن أعمال غيره. فيجزى بالشر الذي فعلته قبيلته، على مبدأ الذنب الوراثي، والإنسان ابن شعبه فهو مسؤول عما يفعله غيره، ويتحمل وزره ووزر غيره، فهم يعتقدون بأن كل الأرواح خلقت في آدم، لذلك تشارك في تحمّل مسؤولية خطيئته. فاليهود يحبون الحياة الدنيا حباً جماً، ويتمسكون بها، فهم يتعلقون بمباهجها وزخرفها، ويعبدون المال، ويحرصون على جمعه بشتّى الوسائل.. يقول السيد المسيح المرسل لهداية البشر مخاطباً بني إسرائيل: «لا تعبدوا ربين: الله والمال».

ولشدة تمسكهم بالحياة يتمنّى واحدهم أن يطول عمره في هذه الحياة، وألا يصيبه الموت. قال تعالى: **﴿ولتجدنّهم أحرص الناس على حياةٍ، ومن الذين أشركوا، يودّ أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾**[3] وقد خاطبهم بقوله: **﴿قل يا أيها الذين هادوا، إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾**[4].

---

(1) من كتاب الكنز المرصود في قواعد التلمود.

(2) ول ديورانت في قصة الحضارة.

(3) سورة البقرة، آية: 96.

(4) سورة الجمعة، آية: 6.

فهم حريصون على الحياة ويتمسكون بها، مهما كانت ذليلة أو دنيئة وهم غير صادقين، لقد انقسم اليهود على أنفسهم لاختلاف عقيدتهم وإيمانهم بيوم الحساب والآخرة، إلى قسمين:

1 ـ الفريسيّون: وهم الذين يعتقدون بالحياة بعد الموت للصالحين فقط من البشر، ليشتركوا مع المسيح القادم، في إنقاذ الناس وإدخالهم في دين موسى.

2 ـ الصديقيون: وهم الذين ينكرون يوم القيامة والحساب ويؤمنون بالحساب الدنيوي، ومنهم من عصمهم الله من زيغ العقيدة وتحريفها.

(ب) لماذا يقدّسون السبت:

تقديس يوم السبت من المعتقدات الجوهرية عند اليهود، فقد ورد في سفر التكوين، ما يلي:

«اذكر يوم السبت لتقدسه. ستة أيام تعملُ وتصنع عملك، أما اليوم السابع، ففيه سَبْت للرب إلٰهك. لا تصنع عملاً ما، أنت وابنك، وابنتك وعبدك وأمتك، وبهيمتك، ونزيلك الذي داخل أبوابك، لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، واستراح في اليوم السابع، لذلك بارك الرب يوم السبت وقدّسه». ـ سبحان الله وتعالى عمّا يصفون ـ فالراحة يوم السبت ممارسة للشعائر الدينية ولا يمكن اجتنابها، وليس عند اليهودي خطيئة أكبر من التعدّي على حرمة يوم السبت، إلا عبادة الأوثان. . ولا تقتصر الراحة على البشر فحسب، فهم يعتقدون أن تربة الأرض يجب أن تستريح سنة كل سبع سنوات، تسمى عندهم سنة السبت، فلم يُبذَر أو يُحصد فيها شيء، وبعد سبع دورات أي (7×7) تأتي سنة اليوبيل وهي السنة الخمسون، فقد ورد في التوراة:

«وكلّم الرب موسى في جبل سيناء، قائلاً: كلّم بني إسرائيل وقل لهم: متى أتيتم إلى الأرض التي أنا أعطيكم، تسبت الأرض سبتاً للرب، ست سنين

تزرع حقلك، وست سنين تُقضِب كرْمك، وتجمع غلتها وأما السنة السابعة ففيها يكون للأرض سبت عطلة، سبتاً للرب. . . »[1].

فهم يعتقدون بدورات زمنية تبنى على فكرة السبعة، وأن الله خلق العالم في أيام ستة[2].

هذه فرائض الرب وهذه أحكامه، فإذا عملوا الفرائض وحفظوا الأحكام وعملوها، سكنوا على الأرض آمنين، هذا ما يعتقد به بنو إسرائيل، وهو منطق توراتي خاطىء، فالرب قادر على خلق كل شيء، دون أن يمسّه كَلَلَ أو مَلَل. .

(جـ) الصيام يوم الكفارة:

الصيام عند اليهود، يوم واحد في السنة هو صيام التكفير، فهم يحتفلون بيوم التكفير الذي يصادف اليوم العاشر من الشهر السابع العبري، (اوكتوبر)، وهو أهم يوم في السنة العبرية، حسب قول التوراة، والغرض من طقوس يوم التكفير تطهير الشعب والهيكل تطهيراً شاملاً. . » في هذا اليوم يكفّر عنكم لتطهيركم من جميع خطاياكم، أمام الرب تطهّرون. هذه فريضة دهرية للتكفير عن بني إسرائيل من جميع خطاياهم مرة في السنة»[3] إنّه يوم الغفران، ومن شرائع اليهود، النهي عن أكل لحم الخنزير، أو حتى لمسه أو لمس جلده. وجاء في كتاب الله: **﴿كل الطعام كان حِلًّا لبني إسرائيل، إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه، من قبل أن تُنزَّل التوراة، قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾**[4].

فالتوراة فيها هدى ونور، هاتوها واتلوها، ستجدون فيها كل الأحكام الإلٰهية، والأوامر السماوية والتعاليم الروحية التي تريدون، ولا تتعاملوا بهذه

---

(1) سفر اللاويين 25.

(2) واستراح في اليوم السابع ويعدون كل يوم بألف سنة، وقد حدّد الأزمنة كما يلي: عام (4004 ق. م) وهو يوم وجود آدم، فهناك أربعة آلاف قبل المسيح، وألف بعد ولادته، ويكون المجموع ستة آلاف سنة (أي ستة أيام).

(3) سفر اللاويين 16.

(4) سورة آل عمران، آية: 93.

التوراة المكتوبة، من عهد موسى وما بعده بقرون، فهي ليست كلام الله، ولذلك اختلف اليهود فيما بينهم وانقسموا على أنفسهم إلى طوائفٍ وشيع لكل منها عقيدة ومذهب بلغ عددها (71) فرقة..

(د) الأعياد اليهودية:

جاء في سفر الخروج ما يلي: «ثلاث مرات تعبّد لي في السنة تحفظ عيد الفطير، تأكل فطيراً سبعة أيام، كما أمرتك في وقت شهر أبيب لأنه فيه خرجت من مصر، وعيد الحصاد، أبكار غلّاتك التي تزرع في الحقل، وعيد الجمع في نهاية السنة عندما تجمع غلاتك من الحقل»[1]. وأهمها على الإطلاق هو:

عيد الفصح[2]: ويُعرف بعيد الفطير، أنشىء في مصر، تذكاراً للحادث الذي بلغ فيه خلاص بني إسرائيل ذروته، حين ضرب الرب ليلاً كل بكر في مصر، وعبّر عن بيوت بني إسرائيل المرشومة بالدم، والمقيمون فيها واقفون، وعصيّهم في أيديهم في انتظار الخلاص الموعود فكان المفروض أن تحفظ تلك الليلة للرب. كان العيد يبدأ مساء الرابع عشر من شهر أبيب (نيسان) أي في بداية الخامس عشر منه، فهو مطلع سنتهم الدينية. كان يذبح خروف أو جدي بين العشاءين نحو غروب الشمس، ويشوى صحيحاً، ثم يؤكل مع فطير وأعشاب مرّة، فالدم المسفوك يشير إلى التكفير والأعشاب المرّة ترمز إلى مرارة العبودية في مصر، والفطير إلى الطهارة، إشارة إلى أن المشتركين في الفصح ينبذون كل خبث وشر، ويكونون في شركة مقدسة مع الرب.

ويشترك جميع أفراد البيت في أكل الفصح، وإذا كانت الأسرة صغيرة، اشتركت معها أسر أخرى حتى تأكل الخروف بكامله، ويتلو عليهم رأس الأسرة أو المتقدم فيهم تاريخ الفداء.

تقول التقاليد إن المشتركين في أكل الفصح كانوا في أول عهده يقفون،

(1) سفر الخروج: 23.

(2) اسم عبري معناه «العبور».

ثم صاروا يتكئون، وقد أضافوا إلى فريضة الفصح الأمور التالية: أربع كؤوس خمر يديرها رأس العائلة بالتتابع ممزوجة بالماء، وترنيم المزمورين (113 - 118)، وتقديم وعاء من الأثمار ممزوجة بالخل، لتذكيرهم بالطين الذي استعمله أبناؤهم في أثناء العبودية في مصر. وكان عشاء الفصح أول شعائر العيد وأهمها وكان ينتهي في الحادي والعشرين من الشهر. ولم يبلّغ الناس في بادىء الأمر بأن العيد سبعة أيام حتى اليوم الذي هربوا فيه.. وكان اليومان الأول والسابع من أيام العيد مقدسيْن كالسبت، وفي اليوم الثاني من العيد كان يؤتى بحزمة أول حصيد من الشعير، فيرددها الكاهن أمام الرب مدشناً أول الحصاد. وبالإضافة إلى الذبائح العادية، في بيت العبادة في كل يوم من أيام الفصح كان يقدم ثوران وكبش وسبعة خراف محرقة وتيس ذبيحة للتكفير، ويمكن أن تكون الذبيحة من البشر[1]. وطيلة الأيام السبعة كان الخبز يؤكل فطيراً، إشارة إلى الإخلاص والحق وتذكاراً للسرعة التي هربوا بها من مصر. وكان الفصح وعيد الفطر في بادىء الأمر عيديْن مستقلّين، اقترنا فيما بعد لتقاربهما في الزمن.

وعيد الفطير عيد زراعي في مستوى عيدي العنصرة والمظال.. وقد احتفل بعيد الفصح في سيناء، وعند الدخول إلى أرض كنعان، وفي أثناء حكم حزقيا، وفي حكم يوشيا، وفي أيام عزرا وما بعد ذلك.

وعيد استير أو البوريم ويقع في شهر شباط أو آذار من كل عام، ويحتفل اليهود فيه بذكرى نجاتهم من مذبحة كانت تنتظرهم وقد نجوا منها بفضل استير الكاهنة زوجة أحد ملوك الفرس.. كما تقاُم مراسم معقدة بمناسبة ختان الأطفال اليهود، والختان من أهل شعائر دين اليهود..

رابعاً ـ الردة اليهودية:

سبعون إنساناً هم الذين دخلوا مصر قادمين من فلسطين[2] هم يعقوب

---

(1) جاء في سفر إشعيا الإصحاح السابع والخمسين مخاطباً بني إسرائيل، «أقبلوا يا بني الساحرة، ألستم أنتم الذين يذبحون الأطفال في الوديان وتحت شقوق الصخور».

(2) التكوين: 46.

وأبناؤه إخوة يوسف، وتجمع روايات التاريخ على أنهم كانوا قبائل متنقلة يرتحلون من مكان إلى آخر يرعون المواشي، حتى عندما دخلوا أرض مصر، أخذوا غنمهم معهم، قال فرعون لأخوة يوسف: ما صناعتكم؟. فقالوا لفرعون: عبيدك رعاة غنم نحن وآباؤنا جميعاً[1]. وليست المشكلة في رعي الغنم، فمعظم الأنبياء كانوا يعملون بالرعي وإنما لأنهم كانوا قبائل رحل لا يستقر لهم قرار، ولا يعرفون الإقامة في مكان..

وقد نسوا دعوة إبراهيم عليه السلام لعبادة الله الواحد الأحد.. رغم ادعائهم الزائف بالتقرب إليه، متأثرين بمن كان يجاورهم من أبناء مصر.

وتسلسل تاريخ بني إسرائيل يؤكد أنهم لم يتبعوا إبراهيم ولا دين إبراهيم، ولا ملة إبراهيم، بل كانوا يتقلون أيضاً من دين لآخر، حسبما تقتضيه مصالحهم، وأهدافهم. حتى أن النبي موسى عليه السلام كما يقول الباحثون من أمثال فرويد وويل ديورانت وتوينبي كان توحيدياً يعبد الإله الواحد الذي بشر به أخناتون فرعون مصر في حينه. وبعد أن خرج الإسرائيليون من مصر ووصلوا سيناء، ارتد أتباع موسى بمجرد غيابه عنهم مدة عشرة أيام فقط، وبناء على أوامر ربه، وعندما عاد إليهم وجدهم يعبدون العجل الذهبي ويرقصون حوله فرحين بإلههم الجديد متأثرين بديانة المصريين وهي عبادة العجل «أبيس»، وقد اتهموا هارون عليه السلام بأنه قد يسر لهم عبادة الأصنام والحيوان فصنع لهم عجلاً ذهبياً. وبالرغم من تلقي الرسالة الإلهية في سيناء، وبدء الدعوة الموسوية فقد كان الإسرائيليون يحنّون دائماً إلى الردّة والإشراك بالله، والعودة إلى الوثنية المتأصلة في نفوسهم فدين التوحيد لم يتمكن من قلوبهم، حتى أنه ورد في التوراة الاتهام صراحة للنبي سليمان بدخول الوثنية إلى مملكته، وبأنه كان من عبدة الآلهة السورية، تقول التوراة: «وكان في زمن شيخوخة سليمان أن نساءه أملْن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتاروت إلهة الصيدونيين و«ملكوم» رجس العمونيين،

---

(1) التكوين: 47.

وعمل سليمان الشرّ في عيني الرب ولم يتبع الرب تماماً كداوود أبيه»[1].

هذا كلام غير صحيح، وليس لنبي أن ينحرف أو يرتد، والله يعصمهم من الخطأ. ويقولون إنه قد اتبعه كل من جاء بعده أيضاً، فعبدوا بعلاً وسجدوا له. تقول التوراة: «فصرخوا إلى الرب وقالوا: أخطأنا لأننا تركنا الرب وعبدنا البعليم والعشتاروت»[2].

قال تعالى: ﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾[3]. وفي عهد القضاة تركوا عبادة الله كذلك، وعبدوا الإله بعل والإله عشتار. وفي زمن عجلون ملك موّاب، عبدوا الأوثان، ثم عبدوا آلهة آرام، وآلهة صيدون وموّاب وآلهة بني عمون وآلهة الفلسطينيين، وكانوا يدينون بعبادة «إيل» وهو أكبر الآلهة عند الكنعانيين، الذي يؤكد كتابهم بأن: «إيل إله إسرائيل»[4] فقد تأثروا بالكنعانيين في فلسطين بعد استيلائهم عليها، واتخذوا من آلهتهم أرباباً لهم، وتحولوا إلى عبادة الإلٰه الدموي «يهوه» بعد خروجهم من مصر. يقول ول ديورانت: «يبدو أن اليهود الفاتحين قد عمدوا إلى أحد آلهة الكنعانيين فصاغوه في الصورة التي كانوا هم عليها. وجعلوا منه إلٰهاً ذا نزعة حربية» ولعل أوضح الأدلة على أثر الكنعانيين في «يهوه» هو أن اليهود استعملوا الاسم «أدونـاي» في الكتاب المقدس بدلاً من الإله يهوه. فقد ورد في قانون الإيمان اليهودي: «اسمعي يا إسرائيل إن إلٰهنا أدوناي هو الإله الأوحد»[5]. وهذا الإله أدوناي كما يظهر في ألواح أوغاريت الأثرية أنه كان إلٰه برق ورعد وصواعق، يتخذ الغيوم مركبته والبرق ضوء وجهه الرباني إذ تجلى والرعد صوته والصاعقة سوطه، والمطر نعمته ورضاه على عبيده. وهو أشهر الآلهة عند الكنعانيين، فقد تأثروا بآلهة الكنعانيين ولغتهم ولم يؤثروا فيها. وهم أهل كتاب وأصحاب شريعة سماوية

(1) الملوك الأول: 11.

(2) صموئيل: 12.

(3) سورة البقرة، آية: 102.

(4) التكوين: 12.

(5) إسرائيل: اسم مركب من «إسرا» وتعني عبد أو صفوة أو إنسان، ومن «إيل» وتعني الله فيصبح المعنى عبد الله أو صفوة الله.

منزلة. وتقول التوراة أن يربعام الأول (931 - 901 ق. م) أول ملك للغزاة بعد الانقسام، أقام عجلين ذهبيين، ووضع واحداً في بيت إيل قرب القدس، ووضع الآخر في «دان» شمال فلسطين وراح يذبح للعجلين وكانت السامرة وهي قرية قرب نابلس مركزاً لعبادة الأصنام. وفي عهد «آخاب بن عمرى» سابع ملوك الغزاة من بني إسرائيل أقيم معبد للإله بعل وعبده. فالإسرائيليون عبدوا كلاً من الإله «إيل» و «بعل» وهما إلهان كنعانيان وقد اتصل اليهود بالبابليين والآشوريين والفرس منذ الألف الأول قبل الميلاد، وأخذوا عنهم أكثر معتقداتهم عن السحر والحيوانات الخرافية السحرية التي تبدو في رؤى دانيال، ومراثي أرميا وحزقيال. .

وقد أخذوا عن الفرس كل تصوراتهم ومعتقداتهم عن الجن والشياطين بمعالمها وأسمائها الفارسية والمجوسية، إلى جانب الثنوية الفارسية في الخير والشر.

ومما يؤكد كفرهم وارتدادهم قوله سبحانه وتعالى وهو أصدق القائلين: **﴿وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، قاتلهم الله أنّى يؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلٰهاً واحداً، لا إلٰه إلا هو، سبحانه عما يشركون﴾**[1].

إن ديانة اليهود ديانة كهنوتية فالكهنة هم الذين يقومون بتفسير التوراة، وهم الواسطة بين اليهود وإلٰههم، وهم الذين ينفذون أحكام الشريعة، ويوجهون اليهود إلى ممارسة شعائرهم الدينية وكانت وظيفة الكهّان عند اليهود وراثية، وقد حصرت في نسل هارون، وهم اللاويون على حد قول التوراة[2]. حتى إن اليهود قد أساؤوا الظن بالأنبياء، فعذبوا فريقاً منهم، وفريقاً كانوا يقتلون، واتهموا أنبياءهم بالكذب والخداع، وارتكاب المعاصي والكبائر، وذلك

---

(1) سورة التوبة، آية: 30 - 31.

(2) سفر الخروج: 16. سفر العدد: 16.

بنصوص توراتية مكتوبة، فنسبوا إلى يعقوب الخداع، وزعموا أن لوطاً زنى بابنتيه[1] وقالوا عن هارون أنه دعا إسرائيل إلى عبادة العجل، وقالوا عن داوود أنه زنى بزوجة القائد، أوريّا الحثّي.. وقالوا عن سليمان أنه ارتدّ إلى الوثنية وعبد الأصنام إرضاء لزوجاته[2]، وإنه ابن داوود من زوجة القائد أوريا قبل أن يتخذها له زوجة.. إنهم أنبياء الله أرسلهم لهداية البشر، وكانوا من عباد الله الصالحين، قد رفع الله منزلتهم جميعاً، ووصفهم بالترفع عن كل المعاصي والخطايا دون تمييز، ومع ذلك لم يسلموا من قذف اليهود لهم بأية وسيلة..

ومن دلائل كفرهم قولهم إن لله تعالى أولاداً ذكوراً، فُتِنوا بجمال بنات الآدميين واتخذوهن خليلات، وولد لهم منهن نسل امتاز ببسطة كبيرة في الجسم وهم الجبابرة الذين سكنوا الأرض قبل الطوفان[3]، وتطاولوا على الذات العليّة، فوصفوه في تلمودهم بالنقص والتردد والانفعال وذكر التلمود بكل صراحة عن جسم الإله وضخامة أعضائه، وعن أعماله ونشاطاته ليلاً نهاراً، وعن حالته بعد هدم الهيكل وتشريد بني إسرائيل، وما أصابه من ندم ومن تردد في أوامره تجاههم، وعما يخصصه الرب من أيام في كل عام لعبادة إله آخر صغير، وعن حرص الإله على أن تقدم له أضحية من الآدميين وما إلى ذلك من خرافات أسطورية باطلة[4].

خامساً ـ الفرق اليهودية:

انقسم اليهود في مختلف مراحل تاريخهم إلى فرق دينية عديدة، ادعت كل منها أنها هي الأمثل، وأنها الأكثر تمسّكاً بأصول الدين اليهودي وروحه من غيرها، ولكنها متفقة فيما بينها فيما يتعلق بالنواحي القومية والعنصرية، وقد انقرضت معظم هذه الفرق، ومن أهم الفرق المنقرضة أو الباقية:

---

(1) سفر التكوين: 19.
(2) سفر الملوك الأول: 11.
(3) سفر التكوين 6.
(4) ابن حزم/ الملل والأهواء والنحل.

1 ـ الفريسيون «الربانيون»:

وهي أهم الفرق اليهودية وأكثرها عدداً، وهي تعترف بجميع أسفار العهد القديم وأحاديث موسى، وأسفار التلمود، ويعتقدون أن الربانيّين منهم هم الذين ألّفوا أسفار التلمود. تتميز بأنها تؤمن بالبعث وباليوم الآخر، وهي تعتقد أن الصالحين من الأموات يبعثون ليشتركوا في ملك المسيح المنتظر الذي يزعمون أنه سيأتي يوماً لينقذ الناس ويدخلهم في ديانة موسى عليه السلام، وكانوا ألدّ أعداء المسيح عيسى بن مريم وأشد المتآمرين عليه. ويقال بأنها تشكلت في عهد «يوناثان»[1]، صديق داوود عليه السلام وتسمى بالمعتزلة أو المعتزلين. وينظر أتباعها إلى الأمم من غير الإسرائيليين كأعداء...

2 ـ الصديقيون:

وتأتي بعد فرقة الفريسيين من حيث الأهمية وهي على نقيض منها، تتميز بأنها لا تعترف إلا بالعهد القديم، وترفض ما عدا ذلك، وهي لا تؤمن بالبعث ولا باليوم الآخر، ويؤمن أتباعها بأن الحساب يتم في الحياة الدنيا، وقد انفردوا باعتقادهم أن العُزير ابن الله، وينسبها ابن حزم إلى رجل يسمى صدوق[2].

3 ـ السامريون[3]:

وهم قوم يسكنون جبال بيت المقدس، وقرايا من أعمال مصر، يقرون بنبوة موسى وهارون ويوشع بن نون، وينكرون نبوة من جاء بعدهم، ولم يؤمنوا بالبعث ولا باليوم الآخر، وآمنوا بأسفار التوراة الخمسة وسفري يوشع والقضاة فقط، وهم يعتقدون أن القدس هي نابلس، وهم لا يعرفون حرمة لبيت المقدس أو تعظيماً له.

---

(1) يذكر ذلك فيلافيوس يوسيفوس (37 - 95 م). وهو من أقدم الباحثين في تاريخ اليهود وأشهرهم وأوثقهم.

(2) ابن حزم: في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل.

(3) تطلق كلمة السامريين على جماعة من غير بني إسرائيل واعتنقت اليهودية وامتزجت بهم وهم ينظرون إلى أتباعها على أنهم أحط منهم قدراً أو منزلة.

وقد انقسمت إلى:

(أ) الدوستانية: وهم الألفانية، نسبة إلى رجل يقال له «الألفان». ادعى النبوة، وتعني الفرقة الكاذبة، وتزعم أن الثواب والعقاب في الحياة الدنيا فقط.

(ب) الكوستانية[1]: وتعني الجماعة الصادقة، وهم يقرّون بالآخرة، والثواب والعقاب فيها. وقبلة السامرة جبل «غريزيم» بين القدس ونابلس، وقالوا إن الله أمر داوود عليه السلام أن يبني بيت المقدس بجبل الطور الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام، فتحول داوود إلى «ايليا» وبنى البيت هناك، وخالف الأمر فظلم. وتوجّه السامريون إلى تلك القبلة دون سائر اليهود، ولغتهم غير لغة اليهود، ويزعمون أن التوراة كانت بلسانهم، وهي قريبة من العبرانية فنقلت إلى السريانية...

4 ـ الحسديون «المشفقون»[2]:

ظهرت حوالي القرن الثاني قبل الميلاد، وانقرضت في القرن الأول الميلادي، وهي تختلف اختلافاً تاماً عن سائر فرق اليهود في عقائدها، وعباداتها، وفي نظمها، وتقاليدها.. فقد حرمت القرابين والأضاحي، وتميزت بكثرة مناسبات الغسل والطهارة في شعائرها. فقد أنكرت التفرقة العنصرية، وقررت مبدأ المساواة بين جميع الناس، وعملت على إلغاء الحروب والعيش بسلام دائم وعدم إيذاء أحد من الناس على اختلافهم.. وحرمت طرق الكسب غير المشروع، كما حرمت الرق والعبودية، وحرمت الملكية الفردية، وحتمت وجوب الملكية الجماعية المشاعية، وحرمت أيضاً التجارة والعمل بها، وصناعة الأسلحة، وحرمت استخدام الذهب والفضة والعمل بها، وحرمت الزواج وأوجبت البعد عن النساء، ودعت إلى الزهد والتقشف، والبعد عن جميع متع الجسم التي تعدها شروراً، كما حرمت شرب الخمر وأكل اللحوم وأوجبت

---

(1) الملل والنحل الشهرستاني.

(2) اليهودية واليهود د. علي عبد الواحد وافي.

الاقتصار على الأغذية النباتية . . فهي بهذا لا يربطها بباقي فرق اليهود إلا رابطة الجنس، لأن أفرادها كانوا من بني إسرائيل . . .

5 ـ العنانيون أو القرّاؤون :

نسبوا إلى عنان بن داوود أحد علماء اليهود في بغداد في عهد الخليفة المنصور (754 - 775 م) وهم يخالفون سائر اليهود في السبت والأعياد، وينهون عن أكل لحم الطير والظباء والسمك والجراد ويذبحون الحيوان على القفا. وهم يصدقون عيسى في مواعظه ويعدّونه من بني إسرائيل ويتمسكون بتعاليم العهد القديم وحده، ولا يعترفون بما جاء في التلمود وتعاليم الربانيين والحاخامات . . .

كما توجد فرق أخرى كالعيسوية نسبة إلى أبي عيسى إسحق بن يعقوب الأصفهاني . وفرقة اليوذعانية نسبة إلى يوذعان بن همذان . وفرق المقاربة، وغير ذلك . وهذا تأكيد لقول موسى عليه السلام : «إنكم بعد موتي تفسدون وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم، ويصيبكم الشر في آخر الأيام» .

سادساً ـ الكتب اليهودية :

تضم الكتب اليهودية المقدسة، عقيدة اليهود وتاريخهم ورسالة أنبيائهم وتعد المرجع الأساسي للبحث عن الديانة وتاريخها . وقد جمعت الكتب المقدسة عند اليهود مع الأناجيل المسيحية فكونت الكتاب المقدس، الذي يضم العهدين القديم والجديد .

1 - العهد القديم[1] :

جمع في أوقات متأخرة عن عهدهم، وهو يحتوي تاريخ بني إسرائيل

(1) العهد القديم : يسميه اليهود ت . ن . خ . اختصاراً لعناوين أقسامه الكبرى، وهي التوراة والأنبياء، والمكتوبات .

المضطرب، الذي تشغله مظاهر الحياة القبلية البدائية حتى أن النصوص الدينية والآيات تنضح بالعنصرية والحقد والكراهية والإنعزال عن العالم، والانغلاق على الذات. والاحتقار لكل البشر، والشراهة لنخب المال، وامتلاك الأرض وهو أقرب ما يكون إلى وثيقة سياسية ظاهرها ديني، وقد استخدمت الرب والأنبياء كوسيلة لتنفيذ مخططها المرسوم، ومنهجها الموضوع. وهو الوثيقة التي تستند إليها الصهيونية في ما تدّعيه من حق مزعوم لها في أرض فلسطين، تلك الأرض التي وعدهم الرب بها لهم ولذراريهم في العهد القديم المبرم بين «يهوه» و «أبرام» قبل آلاف السنين ـ على حد زعمهم ـ ويحتوي العهد القديم على ثلاثة كتب هي: التوراة (بنتاتيك)، أسفار الأنبياء (بنييم)، الكتابات (كتوبيم).

(أ) التوراة Torah:

كلمة عبرية مشتقة من الأرميـة تعني الهداية والإرشاد، وهي أول كتاب سماوي منزل عدا الصحف[1] وهي الكتاب المقدس عند اليهود.

تعد التوراة كتاب تاريخ وإنشاد، تشتمل على التعاليم والأحكام الدينية وعلى قواعد السلوك بين الناس وعلى مجموعة من القوانين والعادات والتقاليد وأنماط الحياة عند اليهود. وقد كتبت التوراة بالعبرية المشتقة من الآرامية بعد مرور أكثر من ستمائة عام على غزو اليهود أرض فلسطين، والتوراة بالآرامية «تورة»، مشتقة من «تارا» بمعنى وصايا أو أوامر أو شريعة. وأصبحت في القرن السادس تشير إلى شريعة موسى، وتدل اليوم على أسفار موسى الخمسة التي كُتِبت باليد. . وتحفظ في تابوت العهد في المعبد اليهودي، والتي عرفت باسم «لفائف الشريعة» ثم أصبحت تعني العهد القديم. وهي تشمل التفسيرات والأوامر والنواهي التي دُوّنت في التلمود. ويقال بوجود توراتين أو شريعتين: واحدة مكتوبة تلقاها موسى عند جبل سيناء وهي التوراة[2]. والثانية شفهية تناقلها

(1) أنزلت الصحف على كل من: آدم 21 صحيفة، وشيث وعددها 29 صحيفة، ونوح وعددها 30 صحيفة، وإبراهيم وعددها 10 صحف.

(2) عثر في عام 1947 على مخطوطات قيّمة كتبت باللغة السامية واليونانية القديمة عرفت باسم=

الحاخامون عن موسى، ولها نفس قدسية التوراة المكتوبة وهي التلمود. وتذكر المصادر أن أقدم قراءة للتوراة العبرية جرت حوالي (444 ق. م)، عندما دعا النبي عزرا اليهود إلى سماع بعض منها...

والتوراة خمسة أسفار، تتضمن تاريخ اليهود وشريعتهم المنزلة، وهي:

1 ـ **سفر التكوين**: وفيه تـاريخ بدء الخليقة وتاريخ العالم حتى عهد النبي يوسف، وهو سفر تاريخي فيه أقاصيص وعبر تحكي هجرة أجداد العبرانين إلى فلسطين ثم إلى مصر.

2 ـ **سفر الخروج**: وفيه تاريخ اليهود منذ خروجهم من مصر وفيه مختصر الشريعة التي لقّنهم فيها موسى شريعته من جبل سيناء، ومن ضمنها الوصايا العشر.

3 ـ **سفر اللاويين (التوابين)**: ويحتوي على طقوس الكهنة أبناء لاوي وفيه العبادات والأخلاق والنكاح وغير ذلك من شرائع اليهود.

4 ـ **سفر الأعداد**: وفيه إيضاح لتجوال إسرائيل في الصحراء وغزوهم أرض كنعان وتقسيم الأراضي بينهم وتعدادهم. ولقد ألّف في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد.

5 ـ **سفر التثنية (الاشراع)**: وفيه عرض تاريخي سريع ونصائح أخلاقية وتشريعات خاصة وتبريك موسى لقومه ثم وفاته وأرض الميعاد على مرأى عينيه. وقد ألف أواخر القرن السابع قبل الميلاد وتعد هذه الأسفار الخمسة القاعدة الأساسية للعهد القديم وللدين اليهودي كله. وهي تتعرض إلى نقد واسع من حيث تاريخ تأليفها وتحديد مصادرها وقيمتها التاريخية. تقول التوراة اليهودية:

= (مخطوطات قمران) على اسم المغارة التي عثر عليها فيها. وتسمى مخطوطات البحر الميت. وهي عبارة عن لفائف كتابية مغلقة بإحكام ومحفوظة في قدور من الفخار... وتشمل على أسفار أصيلة من العهد القديم التي تختلف كثيراً عن التوراة المزيفة المتداولة ويقدر عمرها بين (300 ق. م و70 م) وقد وردت بلغتها الأصلية الآرامية كما عثر على عدد من نسخ التوراة عام 1951 م في منطقة بيت لحم.

إن موسى هو مؤلف هذه الأسفار الخمسة ولكن بعض الباحثين من أمثال العالم الألماني (يوليوس فلها وزن) يقول: إن تأليف الأسفار هذه تم بعد موسى بعدة قرون. وحتى الذين قالوا إن الأسفار الخمسة تنسب إلى موسى اقتنعوا بأنها كانت من مصادر مختلفة:

1 ـ **المصدر اليَهوي**: (نسبة إلى يَهوَد) وهو اسم الله. وقد ألف عام 850 قبل الميلاد في مملكة يهوذا في جنوب فلسطين.

2 ـ **المصدر الألوهيمي**: (نسبة إلى ألوهيم) وهو اسم الله الخالق العظيم. وقد ألف عام 770 قبل الميلاد في مملكة إسرائيل شمال فلسطين وقد أدمج المصدران في مجموعة واحدة عام (650 ق. م).

3 ـ **مصدر التثنية**: الذي أُعلِن العثور عليه زمن (يوشيا) ملك يهوذا عام (620 ق. م) ويعود إلى القرن السابع أو الثامن قبل الميلاد.

4 ـ **المصدر الكهنوتي**: الذي صدر عن كهنة معبد القدس ويرجع إلى زمن عزرا المُتوفَّى عام (444 ق. م) وهو أكبر معلم يهودي بعد موسى، تحت إشراف النبي حزقيال. فتحديد نصوص الأسفار الخمسة امتد على ثلاثة قرون بأقل تقدير[1].

ويوافق العلماء الكاثوليك على أن الأسفار الخمسة قد جمعت من مصادر مختلفة وربما اشتملت على تغييرات وإضافات متأخرة ولكنهم يُصرون على أنها صادرة أساساً عن موسى. وقد ورد في هذه الأسفار ما يفيد أن موسى هو الذي كتب وأملى فعلاً توراة فيها شرائع الله ووصاياه وسلّمها للكهّان من بعده. فقد ورد في سفر الخروج ما يلي: «وقال الرب لموسى: اكتب لنفسك هذه الكلمات لأنني بحسب هذه الكلمات قطعت عهداً معك ومع إسرائيل. فكتب على اللوحين كلمات العهد ـ الكلمات العشر»[2]. يقول العالم اليهودي سلفر: «إن

---

(1) موريس بوكاي. دراسة الأديان السماوية،

(2) سفر الخروج: 34.

التوراة الحالية لا تمثل توراة موسى الأصلية في أية ناحية وحتى الوصايا العشر التي يكاد يجمعُ العلماء على أنها الشيء الوحيد المتبقّي من التوراة الأصلية، لم تكن في شكلها ومضمونها الحاليين كتلك التي أتى بها موسى».

وجاء في سفر التثنية ما يلي: «وعندما يجلس على كرسي مملكته. يكتب لنفسه نسخة من هذه الشريعة في كتاب من عند الكهنة اللاويين. فتكون معه. فيقرأ فيها كل أيام حياته، لكي يتعلم أن يتّقي الرب إلهه. ويحفظ جميع كلمات هذه الشريعة وهذه الفرائض ليعمل بها»[1].

وجاء كذلك: «وكتب موسى هذه التوراة وسلّمها للكهنة بني لاوي، حاملي تابوت عهد الرب ولجميع شيوخ إسرائيل»[2].

هذا ما كتبته التوراة فربما أن كاتب بعض هذه الأسفار هو موسى على لسان ربه وأن بعضاً منها كُتِب بعد موسى بقرون فأين التوراة السماوية؟؟.

قال تعالى: **﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾**[3].

وقال كذلك: **﴿وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾**[4].

إن هذه التوراة المتداولة باسم العهد القديم لا يمكن أن تكون من كلام الله عز وجل، فهو منزه عن مثل هذه الترّهات والأباطيل. إنها لا تتعدى كتابات حاخامات يهود أو ربّانيين منهم. تصوروا واقعاً فأرادوه لهم ونفّذوه وفق مشيئتهم وأهوائهم بما يخدم مصلحتهم ومنفعتهم، متجرّدين من القيم الروحية والخلقية

---

(1) سفر التثنية: 17.
(2) سفر التثنية: 31.
(3) سورة البقرة، آية: 78.
(4) آل عمران، آية: 18.

وحتى الإنسانية فهم الذين يحرّفون الكلام وفق ما يشتهون. . .

قال جل شأنه: ﴿**مِن الذين هادوا يحرّفون الكَلِم عن مواضعه**﴾[1].

يقول الدكتور محمود الشريف: «إن التوراة المتداولة اليوم، والتي يترنم بها اليهود ويرددها الإسرائيليون في معابدهم، لا يعترف بها القرآن، بل سجل في عديد من الآيات أنها محرّفة مزورة زيد عليها وأنقص منها فشوّهت بما استحدِث فيها وحُرِّفت بما نقص منها»[2].

لقد كتبت التوراة بأسلوب الحكاية أو القصة، وبأقلام مختلفة لما فيها من تناقضات ومفارقات ومبالغات كثيرة ولهذا لا يمكن أن تكون قريناً للقرآن الكريم، فهو قول الله الحق. . . قال تعالى: ﴿**قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين**﴾[3]. إنها التوراة المنزلة على موسى من عند الله، والتي قال عنها جل شأنه: ﴿**فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء**﴾[4].

أنواع التوراة:

توجد عدة كتب من التوراة، منها:

1 ـ **التوراة الهيروغليفية**: نزلت على موسى باللغة الهيروغليفية المصرية بعد خروجه من مصر، لأنها اللغة التي كان يعرفها في مصر، ولم يكن لبني إسرائيل لغة خاصة بهم حين كانوا في مصر وقد توفي موسى قبل أن تظهر اللغة العبرية كلغة فعلية. وإن ما ورد في التوراة كان وثيق الصلة بالعقيدة الأخناتونية المصرية. . .

2 ـ **التوراة اليونانية «السبعينية»**: وقد كتبها اثنان وسبعون كاهناً يهودياً (282 - 283 ق. م) وقد ترجمت إلى اليونانية في الإسكندرية عام (250 ق. م)

(1) سورة النساء، آية: 46.
(2) الدكتور محمود الشريف في كتابه اليهود في القرآن.
(3) سورة آل عمران، آية: 93.
(4) سورة المائدة، اية: 44.

تلبية لرغبة «بطليموس فلادلفوس» (280-247 ق.م) ثم ترجمت إلى اللاتينبة في القرن الأول الميلادي ثم ترجمت إلى الحبشية عام (320 م) وحدد عددهم على أساس ستة فقهاء عن كل سبط منهم...

3 ـ **التوراة السامرية**: نسبة إلى السامرة قرب نابلس وقد كتبت التوراة بعد انقسام حكومة الغزو اليهودي بعد سليمان، عرفت فيما بعد بالتوراة الآرامية. وقد كتبت في أثناء السبي البابلي (586 ق. م) ومضمونها غير مضمون التوراة الموسوية، وقد سموها توراة الكهنة، وهي التوراة الحالية المتداولة عند اليهود. .

(ب) أسفار الأنبياء:

وهي أقل قدسية من التوراة عند اليهود، تتضمن أسفار أنبيائهم وهي قسمان: أسفار الأنبياء المتقدمين، وأسفار الأنبياء المتأخرين.

1 ـ **أسفار الأنبياء المتقدمين**: وتتناول تاريخ اليهود من دخول يشوع فلسطين حتى هدم الهيكل في بيت المقدس، وهي: 1 ـ سفر يشوع: وهو سفر المذابح والإبادة. 2 ـ سفر القضاة. 3 ـ سفر صموئيل الأول. 4 ـ سفر صموئيل الثاني. 5 ـ سفر الملوك الأول. 6 ـ سفر الملوك الثاني.

2 ـ **أسفار الأنبياء المتأخرين**: وهم 1 ـ سفر أشعيا. 2 ـ سفر أرميا. 3 ـ سفر حزقيال، وهو نبي المنفى. 4 ـ سفر هوشع. 5 ـ سفر يوئيل. 6 ـ سفر عاموس. 7 ـ سفر عويديا. 8 ـ سفر يونس. 9 ـ سفر ميخا. 10 ـ سفر نحوم. 11 ـ سفر حبقوق. 12 ـ سفر صفنيا. 13 ـ سفر حجي. 14ـ سفر زكريا. 15 ـ سفر ملاخي...

(جـ) الكتابات والأشعار:

وهي نصوص مختلفة في الشكل والاتجاه منها:

1 ـ المزامير. 2 ـ الأمثال. 3 ـ أيوب. 4 ـ نشيد الأناشيد. 5 ـ راعوث.

6 ـ مراثي ارميا. 7 ـ الجامعة. 8 ـ استير. 9 ـ دانيال. 10 ـ عزرا. 11 ـ نحميا 12 ـ أخبار الأيام الأولى. 13 ـ أخبار الأيام الثانية...

ويرجح أن هذه الأسفار رُتِّبت هكذا بالنسبة إلى زمن كتابتها...

2 - المزامير «الزبور»:

ورد ذكرها في القرآن الكريم باسم الزبور. قال تعالى: **﴿وآتينا داود زبوراً﴾**[1] وقال كذلك: **﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض، وآتينا داود زبوراً﴾**[2] يعد الزبور أو المزامير كما وردت في التوراة، أعظم الأسفار الشعرية في العهد القديم، بل هو من أعظم ما نظّمه الإنسان من شعر، وهو يشتمل على (150) أغنية مختلفة تاريخياً، فبعضها شخصي الطابع، وبعضها جماعي، وهي ليست كلها لداود، بل ينسب بعضها إلى «قورح» إمام المغنين، وبعضها للمغنين على السوسن، وبعضها غير منسوب لأحد، والكثير منها منسوب إلى داود وبعضها كتب بعد داود بمئات السنين..

تحتوي المزامير على عبارات فيها تسبيح بالله ودعاء له أن يعين المرء في الملمات المختلفة، التي ألمّت به، وكثير منها له طابع الطقوس من أجل الترتيل في الصلاة، وليس فيها أحكام أو أوامر أو نواه.. جاء في قصيدة لإمام المغنين لبني قورح في المزمور الرابع والأربعين ما يلي:

«اللهم بآذاننا قد سمعنا، آباؤنا أخبرونا بعمل عملته في أيامهم في أيام القدم. أنت بيدك استأصلت الأمم، وغرستهم، حطّمت شعوباً، ومددتهم، لأنه ليس بسيفهم امتلكوا الأرض، ولا ذراعهم خلّصتهم لكن يمينك وذراعك، ونور وجهك لأنك رضيت عنهم»[3].

---

(1) سورة النساء، آية: 163.
(2) سورة الإسراء، آية: 55.
(3) المزمور: 44.

«أحسن برضاك إلى صهيون، وابن أسوار أورشليم، حينئذ يقربون على مذابحك العجول»[1].

3 - التلمود:

كلمة عبرية معناها: التعاليم أو الشرح والتفسير، وهو كتاب السنّة في الشريعة اليهودية ويعد أهم المراجع الدينية الشفهية لليهود. . ويشمل ثلاثاً وستين كتاباً تعالج قضايا الدين والشريعة والتأملات الميتافيزيقية والتاريخ والأدب والعلوم الطبيعية كما تتضمن فصولاً في الزراعة والصناعة والمهن والتجارة والربا والضرائب وقوانين الملكية والدين والرق والميراث وأسرار الأعداد والفلك والتنجيم والقصص الشعبي. فهي تغطي كل جوانب الحياة لليهودي، حتى أنها تتناول دقائق الأمور مثل إعداد الطعام وتناوله والعلاقات الخاصة بين الرجل وزوجته. . وهو يتحدث عن فترة ثمانية قرون، ثلاثة منها قبل ميلاد المسيح وخمسة بعدها. وقد استغرق تدوين التلمود ما لا يقل عن ألف عام من الزمن. ويذكر المؤرخون أنه ساهم في كتابته عدة آلاف من كهنة اليهود. يقول المؤرخ جواد اتيلهان: إن أول من باشر بكتابة التلمود هو عزريا في القرن الخامس قبل الميلاد ثم ساهم في إكماله سبعة آلاف كاهن ومثقف يهودي استمر حتى القرن السادس الميلادي. ويعرف التلمود بالقانون الشفهي الذي يتمم التوراة التي لم تُبيِّن كل الأحكام الضرورية لتنفيذ الوصايا العشر. كما أن قضايا دينية جديدة طرأت بعد التوراة فاستوجبت الحل عن طريق تفسير النصوص بروح التوراة، وهذا التفسير هو التلمود.

وهو كتاب جامع مانع بشكل لا يدع للفرد اليهودي حرية الاختيار في أي وجه من وجوه النشاط في حياته العامة والخاصة، ومع ذلك لا يذكر كلمة واحدة عن الحياة الآخرة ويوم الحساب. ولم يرد ذِكْر التلمود لا في الإنجيل ولا في الحواريين المسيحيين والفرق اليهودية. ولم يرد له ذكر أيضاً لا في القرآن

---

(1) المزمور: 51 ويتلى في القداس.

الكريمْ ولا في الأحاديث النبوية. . وقد أنكرت فئة من اليهود التلمود بعد كتابته وهم القرّاؤون. . بينما آمن معظم اليهود بما جاء فيه وادعوا أن ما كتب فيه كان يوحى به وهم الربّانيون. .

أقسام التلمود:

يتألف من كتابين هما:

(أ) المشناه Mishna:

وهي مجموعة قوانين اليهود ويسمى القانون الثاني. وهو أول لائحة قانونية وضعها اليهود لأنفسهم بعد التوراة، وهو مجموعة من التقاليد اليهودية التي يزعمون أنها أعطيت لموسى حين كان على جبل سيناء، ثم تداولها هارون واليعازر ويشوع وسلموها للأنبياء ثم انتقلت عنهم إلى أعضاء المجمع العظيم وخلفائهم حتى القرن الثاني الميلادي حينما جمعها يهوذا هاناسي فيما بين (190 - 200 م) بعد تدمير الرومان للهيكل وهو خلاصة القانون الشفهي الذي تناقله الحاخامات أمثال «عقيبة» وتلميذه «مئير». .

يعرف موسى بن ميمون المشناه بقوله: «منذ أيام معلمنا موسى حتى حاخامنا المقدس» يهوذا هاناسي (125 - 217 م). لم يتفق أحد من علماء اليهود على أية عقيدة من العقائد التي كانت تدرس علانية باسم «القانون الشفهي». بل كان رئيس محكمة كل جيل أو نبيّه، يضع مذكرة عما سمعه عن سلفه وموجهيه، لينقلها شفهياً إلى شعبه وهكذا ألف كل فرد من العلماء كتاباً مماثلاً ليستفاد منه حسب درجة كفاءته. . .» وقد دون يهوذا هاناسي أول نسخة معتمدة من تفسيرات القانون الشفهي بالعبرية وفيه كثير من الكلمات الآرامية واليونانية واللاتينية. .

ويطلق على الربانيين الذين اشتركوا في تأليف المشناه اسم: التنائيم «المعلمين» ويتجاوز عددهم 200 عالم يهودي لُقّب معظمهم بالحاخام، أي المعلم أو الحكيم.

ويزعم اليهود أن المشناه أنزل على موسى في طور سيناء، فيروي اليهود عن الحاخام «ليفي بن شما» الذي يروي عن سيمون بن لاكتيس الذي قال مفسراً ما جاء في التوراة: إنا سنعطيك ألواح الحجر وقانوناً ووصايا كتبناها لتعلّمها لهم»[1].

يفسر قوله: بأن المراد من الألواح، الوصايا العشر. والقانون هو القانون المكتوب والوصايا هي المشناه، والمقصود من «كتبناها» ما كتبه الأنبياء من كتابات مقدسة يتناقلها اليهود والمقصود من «لتعلّمها لهم». أي الحجارة، وهذا يدل على أن هذا كله أعطي لموسى في طور سيناء»[2]. ويضيف اليهود أن المشناه تناقله عن موسى أربعون «مستقبلون» جيلاً عن جيل حتى جاء الحاخام يهوذا هاناسي المقدس.

أبحاث المشناه: يتألف المشناه من ستة مباحث: الأول، يتعلق بالحياة الزراعية والبذور. والثاني، بالأعياد والمواسم والصيام. والثالث، بالنساء وفيه قوانين الخطوبة والزواج والطلاق. والرابع، يتحدث عن التعويضات ويعرض الفقه المدني والجزائي المتعلق بها والقواعد الأخلاقية التي يضمها فصل الآباء. والخامس، يتحدث عن المقدسات والذبائح والقرابين والأضاحي وقوانين الصلاة. والسادس والأخير، وهو قسم الطهارة وفي كل قسم أبواب وفصول فرعية.

(ب) **الجمارة Gemara**:

ومعناها التغير. وهو كتاب مخصص لشرح القوانين ومناقشتها، وسرد القصص والأمثلة للتدليل على معانيها وغير ذلك. وقد كُتب معظمه بالآرامية. وهو من وضع الرّباني يهوذا هاناسي وولديه «جامائيل» و «سيمون» ثم تابع العمل الحاخام آشي (365 - 427 م)، وأكمله الحاخام آبينو أو رابينا، ووضعه في

---

(1) الخروج: 12/24.

(2) من كتاب الأدب العبري/ ترجمة د. جوزيف باركلي.

صورته الختامية الحاخام جوسي سنة (498 م) وهو آخر من سمي عند اليهود بالآمر أو الملقّن ومن تبعهم من العلماء أطلق عليهم لقب أصحاب الرأي. . وخلفهم السامون ثم جاء أخيراً عهد الحاخامات العاديين وقد جاء في التلمود: «إن موسى تلقى شريعة سيناء، وبلّغها إلى يشوع، ويشوع بلّغها إلى الأقدمين ـ الشيوخ ـ، والأقدمون إلى الأنبياء، والأنبياء إلى أعضاء الكنيس الأكبر».

أنواع التلمود:

(أ) **تلمود فلسطين أو الأورشليمي**: وهو سجل للمناقشات التي أجراها حاخامات طبرية في فلسطين لشرح أصول المشناه، ويرجع تاريخ جمعه إلى (400 م). ويشتمل على 750 ألف كلمة، منها قصص وحكايات يهودية هي أساس الإسرائيليات، وهو مكتوب بالعبرية والآرامية الغربية. يقول محرر دائرة المعارف اليهودية العامة: «إن النص الحالي لتلمود فلسطين في حالة فاسدة جداً» وقد وضعه حاخامون من بيت المقدس، عرفوا باسم «أمورايم» أو المفسدين. . .

(ب) **تلمود بابل**: وهو سجل للمناقشات حول تعاليم المشناه، دونها علماء بابل اليهود وانتهوا من جمعه سنة (500 م)، يشتمل على 2,5 مليون كلمة، منها القصص والأحكام وهو الأهم عند اليهود. وأول من قام بتدوينه الحاخام «آشي»[1] المتوفى سنة (427 م) بمساعدة رابينا، وهو مكتوب بالآرامية الشرقية مع قليل من العبرية.

وهناك سفر مماثل للتلمود يسمى «مدراش» يجمع الحِكَم والأقاصيص والأحكام التي جمعها أو اختلقها الحاخامات بعد إتمام التلمود، فدوّنوها فيه خوفاً من ضياعها. .

من أقوال التلمود:

جاء في التلمود أفكار يهودية صرفة تنم عن كفرهم وحقدهم وكرههم

---

(1) آشي: وهو كبير أحبار مدينة «سورة» قرب بغداد، يدعى راشي أو رب آشي.

للعنصر البشري كله. يزعم التلمود أن الله لا عمل له في الليل، إلاّ قراءة التلمود مع الملائكة والإعلان عن ندمه ولومه لذاته عندما تغاضى عن هدم هيكل بيت المقدس. وهذا غاية الكفر والإلحاد.

يقول التلمود: «كما يسمو الإنسان على الحيوان، كذلك يسمو اليهودي على باقي أهل الأرض ذوي الطبيعة البهيمية».

ويقول: «إن الله قد منح السلطة على مقتنيات كل الشعوب وحياتها...».

ويقول: «إن الله أمَرَنا باستعمال الربا ضد الغوييم (غير اليهود) وحرّم علينا إقراضهم المال بدون تقاضي فوائد عليه».

ويقول: «إن أملاك غير اليهود تعدّ كالمال المتروك، الذي يحق لليهودي أن يمتلكه..».

وقال الكثير الذي يدل على مدى حقد اليهود وكرههم للبشر، وحبّهم لذاتهم، وانعزالهم.

يقول الدكتور جوزيف باركلي: «إن بعض أقوال التلمود مُغالٍ، وبعضها كريه، وبعضها الآخر كفر».

ويقول القس لومان في كتابه «نابليون واليهود»: «كان على المسيحيين أن يزيلوا من الوجود منهاج أبالسة الجحيم المسمى بالتلمود، والشبيه بالصخرة الملساء، التي تخفي تحتها وكر الثعابين القاتلة، قبل أن ترسخ تعاليمه السامّة في عقول اليهود، وتحوّلهم إلى أفاعي تتربص للانقضاض على العالم كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً».

وقد سرد في نصوصه كثيراً من الخرافات والأساطير التي لا يقبلها العقل ولا المنطق. وردت فيه أسطورة تقول: «إن (طيطس) النجس دخل الهيكل، وبهزّة سيف مزّق الهيكل فسال من الستار الدم، فأرسلت بعوضة لعقابه، ودخلت فمه، وأخذت تكبر حتى صارت مثل الحمامة، وحين فتحت جمجمته

وجدوا أن البعوضة لها فم من نحاس ومخالب من الحديد».

لذلك تعرض التلمود إلى الإحراق والإتلاف مرات عديدة لخطورته على البشرية، فقد عمدت بعض الحكومات الغربية والمسيحية والكنيسة إلى إحراقه أكثر من مئة مرة بغية التخلص من شره.

إحراق التلمود:

هوجم التلمود بشدة باعتباره أهم مصدر للتعاليم اليهودية التي قاومت السلطة النصرانية سراً وعلانية، ففي عام (1244 م) أُحرق التلمود بأمر البابا «اينوسان» وأُحرق فعلاً في إيطاليا، كما أحرق كذلك في فرنسا في عهد لويس التاسع، لما فيه من عبارات الطعن والإهانة ضد المسيحية بوجه خاص.

وفي عام (1248 م) أحرق التلمود بأمر الكاردينال «لوكات أودو».

وفي عام (1299 م) أحرقه الملك فيليب الجميل الذي طرد اليهود من فرنسا.

وفي عام (1322 م) أُحرق بأمر البابا جون الثاني والعشرين في كل بلدان أوروبا.

وفي عام (1553 م) أُحرق خمس مرات متتالية في عهد البابا جوليوس الثالث.

لقد أحرق مراراً وتكراراً لكثرة ما احتوى من كلمات نابية وعبارات لا أخلاقية. وقد تنبّه أحبار اليهود الذين اجتمعوا في بولونيا عام (1631 م) لخطورة هذا الموقف، وقاموا بحذف الكلمات النابية، والعبارات التي تنال من السيد المسيح والمسيحية، وتركوا مكانها فراغاً، واتفقوا على تلقينها مشافهة تلاميذ المدارس الدينية فقط[1].

لقد جاء في التلمود من الكلام البذيء الذي يصل إلى حد الكفر والإلحاد

---

(1) من كتاب الكنز المرصود في قواعد التلمود، آوغست روهلنج.

الشيء الكثير فلنسمع، ولنحكم.

جاء في التلمود: «أن يسوع الناصري، موجود في لجّات الجحيم، بين النار والزفت، وأن أمه مريم أتت به من العسكري «باندارا»، بمباشرة الزنا، وأن الكنائس النصرانية هي بمستوى قاذورات، وأن الواعظين فيها أشبه بالكلاب النابحة، وأن قتل المسيحي من الأمور المأمور بها، وأن العهد مع المسيحي لا يكون عهداً صحيحاً يلتزم اليهودي القيام به، وأن من الواجب ـ دينياً أن يُلعن ثلاث مرات رؤساء المذهب النصراني وجميع الملوك الذين يتظاهرون بالعداوة ضد بني إسرائيل»[1].

فهل يستحق الإحراق على هذه الكتابة؟ نترك الإجابة إلى كل المسيحيين في كل أرجاء الأرض.

4 - الألواح:

أُنزِلت على موسى في جبل الطور، وهي على شبه مختصر ما في التوراة، تشتمل على الأقسام العلمية والعملية. قال تعالى: **﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة، وتفصيلاً لكل شيء﴾**[2]. ولقد أوصى موسى بأسرار التوراة والألواح إلى يوشع بن نون، وصيّه وفتاه، والقائم بالأمر من بعده، ليفضي بها إلى «شبير» و«شبر» أولاد هارون أخيه، وشريكه في الدعوة، الذي توفي في حياة موسى في التيه، وقد كان اليهود يميلون إليه أكثر من موسى عليهما السلام[3].

وقد ورد في أسفار التوراة ما يلي: «ثم أعطى الرب موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء لوحيّ الشهادة، لوحيّ حجر مكتوبين بأصبع الله»[4].

وقد كتبهما الله بيده مرة ثانية بعد أن كسرهما موسى بسبب غضبه من

(1) من كتاب الكنز المرصود في قواعد التلمود، أوغست روهلنج.
(2) سورة الأعراف، آية: 145.
(3) الملل والنحل، الشهرستاني.
(4) سفر الخروج: 32.

قومه، عندما وجدهم يعبدون العجل الذهبي، ويرقصون حوله بعد أن عاد إليهم من عند حضرة الله.

جاء في التوراة: «وكتب على اللوحين كلمات العهد، الكلمات العشر»[6]. ويذكر الباحثون أن الشريعة التي كُتبت على لوحي الحجر اختفت ولم يبق لها أثر. وقد كتبت باللغة الهيروغليفية التي كان يتقنها موسى بعد خروجه من مصر، كما أُنزِلت التوراة على موسى التي تقوم على مبادىء ديانة أخناتون التوحيدية باللغة المصرية المذكورة نفسها..

5 - القَبالة Cabala:

مجموعة باطنية من الحِكَم التي لها علاقة بأسرار الكون وبالإله والكائنات الأخرى، ظهرت على يد عدد من أحبار اليهود الذين تأثروا بالآراء الشرقية، ودين زرادشت، ونشأت عنهم حركة سميت «الحكمة المستورة»، وصارت تعرف عند اليهود بالقَبالة، وهي كلمة آرامية تعني القبول أو التصوّف.

وهذا الكتاب وضعه الكاتب «موسى ليون» وهو من كتب التوعية عند اليهود، وقد كتبه باللغة الكلدانية القديمة، لكنه أنكر تأليفه، وزعم أنه عثر عليه في إحدى خزائن الكنيس القديم، وادّعى أنه من أقدم الكتب الدينية التي يعود عهدها لزمن ظهور موسى عليه السلام، لذلك أدخله اليهود ضمن مجموعة كتبهم المقدسة السرّية.

وبالرغم مما أخذته القبالة من الزرادشتية، إلا أنها بقيت في جوهرها موسويّة يهودية، ويدّعي القباليون أن سفر التكوين عندهم مستمد من موسى، وأن موسى استمدّه من إبراهيم، إذا لم يكن من آدم، أو ممن هم أقدم من آدم، وأعلى مقاماً.. ويجمع الباحثون على أنه كتاب شيطاني يبحث في أمور مختلفة، وعلى الأخص في الخرافات والسحر والتنجيم، وأمور قذرة أخرى، بينما يدّعي مؤلفه أنه التفسير الحقيقي للتوراة.

---

(1) سفر الخروج: 34.

يذكر المؤرخ جواد اتيلهان في كتابه «الإسلام وبني إسرائيل» بأن القبالة يتألف من جزأين:

1 ـ سفر زوراح ويبحث عن الشياطين والجن والتنجيم والسحر والشعوذة..

2 ـ سفر باتريراح ويبحث في الطقوس الدينية السريّة وشؤونها. مثل الخبز المعجون بدم أعداء اليهود، وأساليب القتل والتعذيب، وعبادة العجل الذهبي وغير ذلك..

6 ـ الزوهر:

هو كتاب وضعه موسى الليوني (1250 - 1305 م) وهو كلمة آرامية تعني النور أو الضياء، والتسمية مأخوذة من التوراة.

يحتوي هذا الكتاب على مجموعة أدبية، وشعائر صوفية، وحِكَم ترجع إلى زمن الحاخام «سمعان بن يوشاي» من القرن الثاني للميلاد، وهو الذي قيل عنه أنه بقي مختفياً في إحدى مغاور فلسطين مدة ثلاث عشرة سنة، كشفت له خلالها أسرار السماء والأرض، وتتصل أسرار الزوهر بالتوراة. وكل كلمة أو حرف من حروفها يحمل باعتقاد القباليين معنىً باطنياً، والحياة في عرف الزوهر صراع بين الخير والشر.

من أساطير الزوهر: أن الإثنين والعشرين حرفاً من الأبجدية العبرية المشتقة من الآرامية نزلت من السماء قبل الخليقة بستة وعشرين جيلاً، وأنها نقشت بنار ملتهبة...

7 ـ الأنبياء:

1 ـ إبراهيم الخليل عليه السلام «أبو الأنبياء»:

يعد اليهود النبي إبراهيم عليه السلام جدهم الأول، ونبيهم الأكبر، فهم أبناء إسرائيل «يعقوب» بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام، فقد اختاروا أن

يكونوا أفضل نسل لأقدس شخصية عرفها التاريخ حينذاك، فقد كان إبراهيم موضع احترام وإجلال وتقدير، وقد دعا إلى عبادة الله الواحد، وترك عبادة الأصنام والوثنية، وحطمها بيده، وعرض نفسه للهلاك في سبيل عقيدة التوحيد، وقد كان نبياً صادقاً وفياً. قال تعالى: ﴿**واذكر في الكتاب إبراهيم، إنه كان صديقاً نبياً**﴾[1].

فاليهود يعدونه جدهم وحدهم، وإليه يعيدون نسبهم وأصلهم، وعلى هذا الأساس كتبوا تاريخهم في أسفارهم، على أنهم شعب طيب، من منبت طيب وأصل كريم، وهم وحدهم الشعب الذي اختاره الله من بين جميع شعوب الأرض، ودفّق عليهم الخير والبركات، بينما كان نصيب الشعوب الأخرى العبودية والذل وتدفق الويل واللعنات، هكذا يتصورون، وهكذا يعتقدون وهكذا يكتبون.. ورد في سفر التكوين سرد لقصة الخلق بشكل مقتضب فيه اختزال لتسلسل البشر. يحذفون منه ما يريدون، ويختارون ما يشاؤون، من الأصول من عهد آدم عليه السلام وحتى أبناء يعقوب، ليظهروا أنفسهم أنهم الأسياد المفضلين، وأن غيرهم من البشر هم الأدنى وقد أخذتهم الأنانية، والغرور بالعزة، وتفوق العنصر، متعامين عن كل البشرية ومستواها الإنساني. قال تعالى: ﴿**يا أهل الكتاب لِـمَ تلبِسون الحق بالباطل، وتكتمون الحق وأنتم تعلمون**﴾[2]. إنهم يحاجون في إبراهيم ويرجعون أصولهم إليه وقد أُنزلت كتبهم ورسالتهم بعد إبراهيم بزمن بعيد. فقد كتبت التوراة بعد إبراهيم بألف وثلاثمائة سنة وكتبت بعد موسى بأكثر من سبعة قرون. قال تعالى: ﴿**يا أهل الكتاب لِمَ تحاجّون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون**﴾[3].

فهل كان إبراهيم يهودياً، واليهودية لم تنزل بعد كدين من عند الله؟ وبين إبراهيم وموسى أكثر من 575 سنة[4]. وهل كان إبراهيم نصرانياً، والنصرانية لم

(1) سورة مريم، آية: 41.
(2) سورة آل عمران، آية: 71.
(3) سورة آل عمران، آية: 65.
(4) المسعودي مروج الذهب.

تنزل بعد كدين من عند الله؟ قال جل شأنه: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾[1]. لقد كان لإبراهيم أكثر من زوجة وله أكثر من ولد، وكان إبراهيم لكل أولاده، فكانت زوجته هاجر وابنهما إسماعيل «جد العرب» وهو جد النبي محمد ﷺ. وكانت زوجته سارة وابنهما إسحق الذي رُزق يعقوب «إسرائيل»، وإليه ينتسب الأسباط، وظهر منهم أنبياء كثيرون، كان آخرهم عيسى بن مريم الذي قال لأتباعه: «أبوكم إبراهيم تهلّل بأن يرى يومي، فرأى وفرح»[2].

وجاء في التوراة أن إبراهيم اتخذ زوجة أخرى اسمها «قطورة»، فولدت له: زمران، ويقشان وقدان، ومديان، ويشباق، وشوحا. .» ثم تزوج بعدها «حجون بنت أمين» فولدت له خمسة هم: كيسان، وسورج، وأميم، ولوطان، ونافس، كما ذكره أبو القاسم السهيلي في كتابه التعريف والأعلام. . . وهؤلاء جميعاً من نسل إبراهيم وهو جدهم كلهم، لكن اليهود يعتقدون أن إبراهيم أعطى إسحق كل ما كان له، وأما بنو السّراري التي كانت لإبراهيم فأعطاهم عطايا، وصرفهم عن إسحق ابنه شرقاً إلى أرض المشرق، وهو بعدُ حيّ[3].

جاء في كتاب الله ما يؤكد أبوة إبراهيم للأنبياء الذين خلفوه. قال تعالى: ﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب كلاً هدينا، ونوحاً هدينا من قبل، ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، وكذلك نجزي المحسنين، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وكل من الصالحين وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين﴾[4].

وقال كذلك: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم﴾[5]. وجاء في قوله تعالى

---

(1) سورة آل عمران، آية: 67.
(2) يوحنا: 8 - 65.
(3) التكوين: 25.
(4) سورة الأنعام، آية: 84 - 86.
(5) سورة آل عمران، آية: 33.

مخاطباً المؤمنين: ﴿**وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل**﴾[1].

فالإسلام موجود قبل إبراهيم، فهو من عهد آدم عليه السلام، فالنبي إبراهيم لم يكن لليهود وحدهم فهو جد اليهود والنصارى والمسلمين، وجميع أنبياء هذه الديانات الثلاثة يلتقون في نسب واحد ويرجعون إلى أصل واحد، ويدْعون إلى هدف واحد، هو عبادة الله الواحد، ولكن أولى الناس بإبراهيم من آمن به وسار على دينه واتبع دعوته. قال تعالى: ﴿**إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه**﴾[2] وقال: ﴿**قل آمنا بالله وما أُنزل علينا، وما أُنزِل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى والنبيّون من ربهم، لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون**﴾[3].

2 ـ موسى نبي اليهود:

هو موسى بن عمران بن قاهت بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام. ظهر في القرن السادس عشر قيل الميلاد. واسم والدته كما تذكر التوراة: يَوْكابَدُ بنت لاوي التي هـي عمة عمران وزوجته في الوقت نفسه. تقول التوراة: «واسم امرأة عمرام يوكابد بنت لاوي، التي وُلِدت للاوي في مصر فولدت لعمرام هارون وموسى ومريم أختهما»[4].

ولادته ونشأته: لما ولدته أمه، وضعته في تابوت تربطه في حبل وهو في نهر النيل القريب من بيتها خوفاً عليه من فرعون الذي كان يقتل كل مولود ذكر لبني إسرائيل الموجودين في مصر، منذ أن دخلها يعقوب وأبناؤه، فكانت إذا داهمها أحمد تترك التابوت في النهر وتمسك بالحبل، وإذا زال الخطر تشد الحبل فيعود إليها التابوت وترضع المولود. قال تعالى: ﴿**وأوحينا إلى أم موسى أن**

---

(1) سورة الحج، آية: 78.
(2) سورة آل عمران، آية: 68.
(3) سورة آل عمران، آية: 84.
(4) العدد: 26 - 60.

أرضعيه فإذا خِفْتِ عليه فألْقيه في اليَمّ ولا تخافي ولا تحزني إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾[1]. . ولكن آل فرعون التقطوه، واتخذته امرأة فرعون ولداً لها وهي آسيا بنت مزاحم بنت الريان بن الوليد، فرعون مصر في زمن يوسف.

قال تعالى: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحَزنًا إن فرعون وهامان وجنودَهما كانوا خاطئين، وقالت امرأة فرعون قرّة عين لي ولك لا تقتلُوه عسى أن ينفعنا أو نتّخذه ولداً﴾[2] لأنه لم يكن لهما أولاد. . ولما استقر الطفل في دار فرعون أرادوا أن يغذّوه برضاعة، ولكنه لم يقبل ثَدْياً ولم يتقبل طعاماً. قال تعالى: ﴿وحرّمنا عليه المراضع من قبلُ﴾[3]. . ولكن أخته مرّت به، وتظاهرت بعدم معرفتها إياه، وقالت: ﴿هل أدلُّكم على أهل بيت يكفلُونه لكم، وهم له ناصحون﴾[4]. . وأخذته إلى أمه، التي بدأت ترضعه بلهفة وحنين، وبقي عندها لترضعه، وتربيه لآسيا امرأة فرعون، وخصصت لها الأجر والمرتب، وتربّى موسى بكل حكمة المصريين، قال تعالى: ﴿فرددناه إلى أمّه كي تقرّ عينُها ولا تحزن﴾[5]. وقد تربى عند أمه وفي بيت أهله، ولما كبر وأصبح في الأربعين من عمره أتاه الله حُكْماً وعِلْماً، وهو النبوّة والرسالة. قال تعالى: ﴿ولما بلغ أشُدّهُ واستوى آتيناهُ حكماً وعلماً﴾[6]. وقد حصل أنه قتل أحد الأقباط الذين تشاجر مع واحد من بني إسرائيل، وقد استجار به فخاف موسى على نفسه في مصر من فرعون وجنوده. ﴿فخرج منها خائفاً يترقّب﴾[7]. . . لقد خرج موسى هائماً على وجهه لا يعرف أين يتجه وكان عمره (22) سنة فقصد بلاد مدين[8] ونزل بها ضيفاً على شيخ كبير فيها هو «شعيب»، وقد أجّر نفسه عند

---

(1) سورة القصص، آية: 7.
(2) سورة القصص، آية: 8 - 9.
(3) و (4) سورة القصص، آية: 12.
(5) سورة القصص، آية: 13.
(6) سورة القصص، آية: 14.
(7) سورة القصص، آية: 21.
(8) مدين: البلاد الواقعة حول خليج العقبة وجنوبي فلسطين.

شعيب، ثماني سنوات أو عشراً، حيث تزوج من (صفّورة) صُغرى ابنتي الشيخ الكبير وولد له ابنان. وفي هذه الفترة مات فرعون مصر[1]. . وعندما أراد العودة إلى مصر، سأل امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ومواشيه ما يعيشان به، فأخذ ما قدر الله له، وتوجه مع أهله إلى سيناء، في جانب الطور، حيث كلمه الله في الوادي المقدس، وبدأت الدعوة النبوية. . .

بدء الدعوة: تلقى موسى الوحي في سيناء على نار العوسج، وعاد بألواحه وفيها قانون شريعته، جاء في قوله تعالى: ﴿**فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلّي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون، فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنّي أنا الله رب العالمين وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولّى مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملأيه إنهم كانوا قوماً فاسقين. . .**﴾[2]. وفي موضع آخر يذكّرنا جل شأنه بقوله تعالى: ﴿**فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربُّك فاخلع نعليك إنّك بالواد المقدّس طُوىً وأنا اخترتك فاستمع لما يُوحى إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذِكْري إن الساعة آتية أكاد أخفيها لِتُجْزىٰ كل نفس بما تسْعى فلا يصدّنك عنها من لا يُؤمن بها واتّبع هواه فتردى**﴾[3]. . هذا وحي من الله إلى موسى، بلغه الدعوة وأعطاه المعجزة آيتين وهما: أن يُلقي عصاه فإذا هي حيّة تسعى، وأن يضع يده في جيبه تخرج بيضاء من غير سوء وأمره بالتوجه إلى فرعون مصر قائلاً: ﴿**اذهب إلى فرعون إنه طغى**﴾[4]. . وأن يدعو فرعون وملائه لعبادة الله وحده، ولكن موسى خاف من فرعون مصر لأنه كان قد قتل نفساً فيها

(1) الفرعون: هو رمسيس وهو فرعون الطغيان والاضطهاد، حكم (67) سنة من 1301 إلى 1235 ق.م.

(2) سورة القصص، آية: 29-32.

(3) سورة طه، آية: 11 - 16.

(4) سورة طه، آية: 24.

وطلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون، وكان له ذلك. . قال تعالى: ﴿قال رب إنّي قتلتُ منهم نفساً فأخاف أن يَقتلُون وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدّقني إني أخاف أن يكذّبون. قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا. أنتما ومن تبعكما الغالبون﴾[1]. . فتوجها معاً إلى فرعون مصر «وكان عمر موسى حينذاك 80 عاماً وعمر هارون 83 عندما تحدثا إلى فرعون»[2]. . وطلبا منه بكلام ليّن أن يفك أسارى بني إسرائيل من قبضته وسطوته، وأن يتركهم يعبدون ربهم ويوحّدونه، لكن فرعون طغى وتكبّر، وزعم أنه هو الإله الأكبر، واستنكر اسم الله ووجوده، مخاطباً موسى وهارون: ﴿وما ربّ العالمين﴾[3]. . عند ذلك ألقى موسى برهان ربه وقدم معجزته وجاءه بالشيء المبين، قال تعالى: ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين. ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾[4]. . ومع ذلك لم يؤمن برب العالمين وقال لهما بعد أن كذّب وتولّى ﴿قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[5]. . لم يصدقهما فرعون، واعتبرهما قومه أنهما ساحران، واجتمع سحرة فرعون من كل حدب وصوب، والكل ألقى ما عنده، وألقىَ موسى عصاه المعجزة فإذا هي تلقف ما يأفكون، فوقع الحق، وبطل ما كانوا يعملون، وألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون. . لقد انقلب السحر على الساحر، وحق الحق وزهق الباطل. . ولم يؤمن فرعون: ﴿وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلّي أبلغ الأسباب أسباب السموات فاطّلع إلى إله موسى، وإني لأظنه كاذباً﴾[6]. .

ويخاطب فرعون قومه، وهو في طغيانه وضلاله، قائلاً: «ما علمت لكم من إله غيري»، ثم أمر الله تعالى موسى أن يخرج من مصر مع بني إسرائيل

---

(1) سورة القصص، آية: 33-35.
(2) سفر الخروج: 7.
(3) سورة الشعراء، آية: 23.
(4) سورة الأعراف، آية: 107.
(5) سورة طه، آية: 50.
(6) سورة غافر، آية: 36-37.

لينقذهم من عذاب فرعون وطغيانه. **﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي، إنكم متبعون﴾**[1]. فتوجه موسى مع قومه من بني إسرائيل ليلاً هاربين نحو سيناء، وتبعهم فرعون وجنوده، يريدون قتلهم أجمعين، فأمره الله أن يضرب البحر بعصاه ليشق طريقه فيه. قال تعالى: **﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾**[2]. انفتح لهم طريق البحر في خليج السويس اليوم، ونجا موسى وقومه، وغرق فرعون وقومه **﴿وأنجينا موسى ومن معه أجمعين، ثم أغرقنا الآخرين﴾**[3] هكذا انتقم الله من فرعون ـ وهو منبتاح بن رعمسيس الثاني ـ وقومه، وأغرقهم في اليمّ، لأنهم كانوا بآيات الله يكذّبون، وكانوا عنها غافلين، فأهلكهم الله بجريرة أعمالهم.

يقول بعض المفسرين: إن جيش فرعون الذي لحق بموسى يزيدون على ألف ألف وستمائة ألف من المقاتلين وأن بني إسرائيل كانوا نحواً من ستمائة ألف مقاتل غير الذريّة.

وكان بين خروجهم من مصر صحبة موسى ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنة وستاً وعشرين سنة شمسية[4].

موسى كليم الله في صحراء التيه: أعلن موسى لقومه أن الله جدّد معهم العهد وعليهم الطاعة والالتزام به، وإلاّ حلّت عليهم اللعنة، وعليهم عبادة الإله الأوحد، الذي دعا إليه إبراهيم، ولكنه عندما وصل إلى سيناء مع قومه وجدوا أهلها يعبدون الأوثان والأصنام التي كان شكلها على هيئة البقر، لزعمهم أنها تنفعهم وتضرهم، وبها يسترزقون عند الضرورة، فطلبوا من نبيّهم آلهة كما لهؤلاء القوم، وأخبرهم موسى أنهم لا يعقلون، ولا يهتدون.

قال تعالى: **﴿وجاوزنا ببَني إسرائيل البحر، فأتوا على قوم يعكُفون على**

---

(1) سورة الشعراء، آية: 52.
(2) سورة الشعراء، آية: 63.
(3) سورة الشعراء، آية: 65 - 66.
(4) البداية والنهاية/ ابن كثير.

أصنام لهم، قالوا يا موسى اجْعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهةٌ، قال إنكم قومٌ تجهلون إن هؤلاء مُتَبَّر ما هُم فيه، وباطل ما كانوا يعملون﴾[1] ويقول جل شأنه: **﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعَشْر، فتمّ ميقاتُ ربه أربعين ليلة، وقال موسى لأخيه هارون اخلُفني في قومي وأصلحْ ولا تتّبع سبيل المفسدين﴾**[2].

ولما استبطأ القوم موسى، انتهز «السامري» غيبة موسى، وأخذ من بني إسرائيل بعض حليّهم التي كان نساؤهم قد أخذنها من نساء مصر بالمكر والخديعة قبل رحيل بني إسرائيل وألقاها في النار وسبك منها عجلاً له خوار، وقال لهم هذا إلٰهكم وإله موسى، وقد ألِفوا في مصر عبادة العجل «آبيس» ولذلك عبدوه. حاول هارون صدهم عن ردّتهم هذه فلم يستطع، وقالوا له: «لن نبرح عليه عاكفين، حتى يرجع إلينا موسى». ولما عاد موسى ومعه الشرائع، وجد قومه على الوثنية غضب ولامَ بني إسرائيل أشد اللوم وألقى الألواح التي كتبها الله له من شدة غضبه، وقال لهم «إنما إلٰهكم الله لا إله إلا هو». لقد انحرف بنو إسرائيل عن عبادة الله ودخل الشك إلى نفوسهم فتحولوا إلى عبادة ذلك العجل الذهبي. وورد ذلك في أسفار التوراة: «قال الرب لموسى: اذهب، انزل، لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر، زاغوا سريعاً عن الطريق الذي أوصيتُهم به، صنعوا لهم عجلاً مسبوكاً وسجدوا له»[3] أراد موسى الوصول إلى البلاد المقدسة بناء على أوامر الله سبحانه، لامتلاكها. وقد استطلعها فوجد فيها قوماً جبارين من الكنعانيين والفزاريين والحيثانيين، وغيرهم. فأمر بني إسرائيل بالدخول إلى تلك الأرض ومحاربة ساكنيها وأهلها. خاف بنو إسرائيل على أنفسهم ودبّ الرعب فيهم من هول ما رأوا من العمالقة في أرض فلسطين، فرفضوا الامتثال لأوامر موسى بالقتال **﴿قالوا يا موسى إنّا لن ندخلَها أبداً ما داموا فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون﴾**[4]. هذا

---

(1) سورة الأعراف، آية: 138 - 139.

(2) سورة الأعراف، آية: 142.

(3) سفر الخروج: 23.

(4) سورة المائدة، آية: 24.

قول بني إسرائيل لنبيّهم الذي أنقذهم من ظلم فرعون وتسلّطه، الذي أورثهم الذل والخنوع فنفوسهم صغيرة وقلوبهم ضعيفة، لا يقدرون على المجابهة أو القتال. لذلك حرّم الله عليهم دخول أرض فلسطين، وحكم عليهم بالضياع في أرض سيناء مدة أربعين سنة يتيهون **﴿قال فإنها محرّمةٌ عليهم أربعينَ سنة يتيهون في الأرض، فلا تأس على القوم الفاسقين﴾**[1].

هكذا أراد الله لهم، حتى يفنى الجيل الذي نشأ في الذل والاستعباد في أرض مصر، وينشأ جيل آخر أكثر قدرة وأصلب عوداً، لقد عاقبهم الله وهم ـ الشعب المختار ـ، لأنهم تركوا الجهاد، وخالفوا أوامر نبيّهم، وأشركوا بالله، وحكم عليهم بالتيهان والضلال في الأرض يسيرون بدون هدف ومن غير قصد، ويقال إن جميع من كانوا في التّيه لم يخرجوا بل ماتوا، ولم يبق منهم إلا ذراريهم، وبقي معهم يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا[2].

تقول التوراة أن موسى توفي وأرض الميعاد على مرأى منه[3] وأن يشوع بن نون هو الذي قاد حملات الغزو الإسرائيلي الأول إلى فلسطين على شكل حملات متتالية وعبروا نهر الأردن وملكوا أريحا وما بعدها من الأرض غرب النهر فترة من الزمن. . .

8 ـ يَهْوَهْ «إله التوراة»:

يهوه: في العبرية اسم علم للإله الحقيقي، معناه «هو الذي يكون»، وقد ترجم بلفظ الرب، ويفسره بعض العلماء بأن معناه «هو الذي يوجد» أي الخالق، ويفسره آخرون بأن يَهْوَه من هوى في العربية التي منها الهواء، ومعناه «يسري في الأهوية»، أي يهبّ، فهو إله العاصفة. .

---

(1) سورة المائدة، آية: 26.

(2) كالب بن يوفنا زوج مريم أخت موسى وهارون.

(3) يقال إن الله أمر موسى أن يذهب إلى جبل «نبو» وأن ينظر إلى الأرض المقدسة ولا يدخلها، وهناك مات ودفن على الفسجة وهي الكثيب الأحمر. وأما هارون فقد توفي قبل موسى في جبل «هور» ودفنه موسى هناك.

ويرد في العهد القديم باسم يهوه، والله، وإله، ورب، وجميعها لها مدلول واحد يدل على الإله يهوه، إله القبيلة الإسرائيلية، الذي أعلن توراته بلسان موسى في صحراء سيناء، حسبما ورد في التوراة. . . فيَهْوَه إله شعب بدوي قبلي، وهو إله حرب إقليمي، اتخذه موسى إلٰهاً يضع أوامره وأحكامه على لسانه ليكتسب صفة القدسية، وفرض عبادته على قومه بني إسرائيل بالإرهاب الذي ما يزالون يتّبعونه كأسلوب في تثبيت دعائم كيانهم ووجودهم. .

وهو إله محجوب عن عيون البشر، لا يُصوَّر بأية صورة، ليس له مسكن ثابت، يوجد في كل مكان، لا أسرة له، وهو ليس بذكر أو أنثى، عَقد عهداً خاصاً مع إسرائيل وجعل منهم شعبه المختار الخاص به، وعلّمهم العداء للشعوب وأثار فيهم روح التعصّب والتفوّق والتميّز العنصري، فهو يقول: «أتّخِذُكُم لي شعباً، وأكون لكم إلٰهاً، أنا يَهْوَه الذي ميّزكم من الشعوب. .» إنه إله التوراة. . وكان يظهر وسط السحب بدون معبد أو مذبح، وتظهر قوته في البرق والعاصفة، وهو يقود شعبه في ترحالهم مستقراً فوق «تابوت العهد»[1].

وقد وصف يهوه بأنه إله مجرّد، لا تمثيل مادّي له، فهو ليس بالوثن ولا بالصنم، ولا يمثل مظهراً من مظاهر الطبيعة، وهو منزّه عن المادة، خالق كل شيء بكلمة منه، يتصرف بمخلوقاته كيف يشاء، وها هو يفصح عن نفسه مخاطباً موسى قائلاً: «أنا يَهْوَه، وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء، وأما اسمي يَهْوه فلم أُعَرف عندهم، وأيضاً أقمت معهم عهدي أن أعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم التي تغرّبوا فيها. وأنا قد سمعت أنين بني إسرائيل، الذين يستعبدهم المصريون، وتذكّرت في عهدي، لذلك قل لبني إسرائيل، أنا يَهْوَه، وأنا أُخرجكم من تحت أثقال المصريين، وأتخِذُكم لي شعباً، وأكون لكم إلٰهاً، وأدخلكم إلى الأرض التي رفعت يدي أن أعطيها

(1) تابوت العهد: وهو صندوق مصفح بالذهب يحمله بنو إسرائيل معهم فإذا استقر بهم المقام، وضعوه في «خيمة الاجتماع»، ولم تستبدل هذه الخيمة بمعبد إلاّ حين جاء عصر سُليمان، الذي قدّم ليهوه أرفع آيات الإجلال ببناء المعبد المجيد في أورشليم. .

لإبراهيم وإسحق ويعقوب، أعطيكم إياها ميراثاً. . أنا يَهْوه»[1].

فمنذ عهد الله مع موسى في حوريب يُطلق عليه يَهْوَهْ. هكذا تقول لبني إسرائيل يهوه إلى آبائكم، أرسلني إليكم[2] «قل لبني إسرائيل أنا الرب يهوه، وأنا أخرجكم»[3] وهو الذي قال لموسى عن اسمه، وأمره أن يخبر بني إسرائيل بذلك قائلاً: «أهْيَهْ أرسلَني إليكم، يهوه أرسلني إليكم، هذا اسمي إلى الأبد»[4] وعندما اختار الرب «يهوه» موسى نبياً وقائداً ناداه قائلاً: «أنا إله أبيك، إله إبراهيم، وإله إسحق، وإله يعقوب، فغطّى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله، فقال الرب: إنّي قد رأيت مذلة شعبي، فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين، وأصعدهم إلى أرض جيدة وواسعة، إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً، إلى مكان الكنعانيين والحثيين، والآموريين، والفرزيين، والحُويين، واليبوسيين. فالآن هلّم، فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر»[5]. وفي إشَعْيا يصبح لاسم يَهْوَه وقْع جديد يدل على سرمديته فهو «إله الدهر»[6] ويقول: «أنا الأول وأنا الآخر»[7] هذا هو الرب يهوه الذي لا يعرف الاعتدال في انفعالاته، يكابد من الآلام أشدّها، بسبب افتقاره لهذا الاعتدال، ويعترف بأن الغضب والغيرة يأكلانه أكلاً. . ومعرفته لهذه الحقيقة تؤلمه إيلاماً شديداً، فهو لا يطيق آلهة أخرى أمامه، لأنه يترفع عن كل الآلهة. جاء في التوراة: «الرب إلٰهك هو نار آكلة، إله غيور»[8].

يهوه: إله من نوع خاص، تتوفر فيه صفات مميزة هي: الغضب، والحقد، والشر، والاغتباط بسفك الدماء، وإشعال نار الحروب، إنه ينصر شعباً

---

(1) سفر الخروج: 3/6.
(2) سفر الخروج: 15/3.
(3) سفر الخروج: 6/6.
(4) الخروج: 3.
(5) سفر الخروج: 6/3.
(6) إشعيا: 28/4.
(7) إشعيا: 4/41.
(8) سفر التثنية: 24/4.

علي آخر، وهو يسحق كل الشعوب المعارضة لحكمه، ويكّون بينه وبين أتباعه نوعاً من المنفعة المتبادلة، فهم يعبدونه ويقدمون له القرابين، وهو ينصرهم في الحروب، ويملكهم أرض الأمم الأخرى، ويجمع شتاتهم على حساب شعوب الأرض، ولو أدى ذلك إلى إفنائهم تماماً. . .

ورد في سفر الخروج وصفاً دقيقاً للإله يهوه، يبيّن فيه حقيقة تكوينه، ونزعته الدموية اللاإنسانية: «الرب رجل الحرب. بيمينك يا رب تحطم العدو. . وبكثرة عظمتك تهدم مقاوميك. . ترسل سخَطك فيأكلهم كالقش. . وبريح أنفك تراكمت المياه. . من مثلك بين الآلهة يا رب؟ من مثلك معتزّاً في القداسة، صانعاً عجائب، تمد يمينك فتبتلعهم الأرض، ترشد برأفتك الشعب الذي فديته، تهديه بقوتك إلى مسكن قدسك، يسمع الشعوب فيرتعدون، تأخذ الرعد سكان فلسطين، حينئذ يندهش أمراء آدوم أقوياء مؤاب تأخذهم الرجفة، يذوب جميع سكان كنعان، تقع عليهم الهيبة والرعب، بعظمة ذراعك يصمتون كالحجر. . حتى يعبر شعبك يا رب»[1].

فالإله يهوه ليس هو الله، ولا يؤمن بوحدانية الله، فهو معجب جداً بربه من بين الآلهة المتعددة من مثلك بين الآلهة يا رب؟ وهذا غاية الإلحاد. ولنستمع إلى نشيد موسى وبني إسرائيل التليد، وهو من وحي التوراة على لسان الرب: «اسمعي يا شعوب المقهورين، فليمتلك الخوف منا الفلسطينيين وليرتعب من هولنا صناديد البتراء ولترتجف عول موأب، وليطاير كل سكان كنعان ويخيم على سمائهم الذعر والرهبة. . فجبروت بطشك جمّدهم كالحجارة، وعندئذ ينتقل شعب الله المختار إلى حيث أراد الله له» كلام ما قاله الله ولا نقله موسى، عندما تفنى البشرية يصبح حراً «شعب الله المختار» ينتقل في أرجاء الكون إلى حيث يشاء الرب لهم. فهم وحدهم يمتلكون الأرض، وهم وحدهم لهم حق الحياة، هذا هو يهوه، إله الحقد والرعب والدم، يغتبط مشاهد الذبح، وينتشي برائحة الدّم والمحروقات، وجبروت بطشه يجمّد الناس كالحجارة، وهو يحارب

---

(1) سفر الخروج: 15.

معهم. . . تقول التوراة: «ويَهْوه يطرد جميع الشعوب من أمامكم، فترثون شعوباً أكبر، وأعظم منكم، كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم، من البرية ولبنان، من نهر الفرات إلى البحر الغربي يكون تخمكم لا يقف إنسان في وجهكم، يهـوه إلٰهكم يجعـل خشيتكم ورعبكم على كـل الأرض التي تدوسونها»[1] هكذا علّمهم يهوه، يذكر كتّابهم ما فعلوه في مدينة أريحا عندما دخلوها أول مرة. . «وأبْسِلوا جميع ما في المدينة، من رجل وامرأة، وطفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحدّ السيف»[2] وهذا ما فعله يوشع بن نون عندما دخلها غازياً.

هذه المبادىء الدينية التي يعتقدون بها ويهتدون بهديها، فهم يفسدون في الأرض حيث حلّوا ويُبيدون أبناء البشرية أينما وجدوا دون تمييز بين صغير أو كبير فهم يعملون بوصايا الرب يهوه، وتنفيذ أحكامه التي تنحصر في إبادة شعوب الأرض، وتدمير مظاهر الحياة الحضارية غايتهم الملك والتملك، يقول الرب: «حين تقرب من مدينة لكي تحاربها، استدعها إلى الصلح، فإنْ أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير، ويُسْتَعْبَدُ لك، وإنْ لم تسالمك، بل عملت معها حرباً، فحاصِرْها، وإذا دفعها الرب إلٰهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم، وكل ما في المدينة فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلٰهك، هكذا افعلْ بجميع المـدن البعيدة منك جداً، التي ليست من مدن هؤلاء الأمم، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك يَهْوه إلٰهك نصيباً، فلا تستبْقِ منها نسمة ما بل تحرّمها تحريماً»[3].

كل شيء في نظر يهوه مباح، القتل والإبادة، التدمير والتشريد، والاقتلاع من الجذور. . . لكل شعوب الأرض، حتى أن قومه اليهود لم يسلموا من غضبه، ومن شره، ومن بطشه، فعندما تكلم القوم على الرب وعلى موسى،

---

(1) سفر التثنية: 11.
(2) سفر يشوع: 6.
(3) سفر التثنية: 20.

عندما سباهم ملك عراد الكنعاني، سخط عليهم يهوه، لأنهم يخالفون مشيئته، ويتمرّدون عليه وعلى موسى أيضاً فهو يغضب منهم ويرسـل إليهم الآفات كالحيّات وغيرها «فأرسل الرب على الشعب الحيّات المحرقة، فلدغت الشعب فمات قوم كثيرون من إسرائيل». أو يرسل الزنابير على الشعوب التي تخالف أوامره حتى يفنيها تماماً.

ما أكثر الآيات في كتاب التوراة التي تفيد البطش والإرهاب والتهديد بالموت وسفك الدماء، فلْنستمع: «الآن إذن، أضرب أمامك، واحظر عليه كل ما يملك، لا تترك له شيئاً، اقتل الكل: الرجال والنساء والأطفال والرضّع، والأبقار والخراف والجمال والحمير». هكذا سوّغت لهم توراتهم، وألصقوا كل أعمالهم الحقيرة اللاأخلاقية، واللاإنسانية بربهم يهوه الذي يصدر أوامره وكأنه في غرفة عمليات حربية يقود معركة، ويشنّ هجوماً، يقول: «يهوه كلّمَنا في حوريب قائـلاً: كفاكم قعـود. . ارتحلوا وادخلوا جبل الآمـوريين، تملكوا الأرض. . اصعد، تملّك، الرب يحارب عنكم. . قال الرب لي: لا تصعدوا ولا تحاربوا لأني لست في وسطكم، كفاكم دوران بهذا الجبل. . تحولوا نحو الشمال. . قال الرب: قوموا واعبروا وادي زارد. . قوموا واعبروا وادي أرنون. . دفعْ الرب ملك حشبون وأرضه. . ابتدىء تملّك، ودفع ملك باشان. . قال الرب لموسى لا تعد تكلّمني في هذا الأمر».

هذا هو يهوه، يرسل الحياة، ويرسل الزنابير، ويسلط الأمراض والآفات، ويطرد الشعوب ويقتل الأطفال والشيوخ، ويقتلع الأشجار، ويقتل الحمير، ويقاتل على كل الجبهات. . . إنه غرور الآلهة يتجسّد في ذات يهوه، الذي اختار شعباً وأراد له التفوق والانتصار على كل شعوب الأرض، فهو الملك القاهر القوي يعدُهم بالحماية والبقاء. ويعدهم بتمليك أرض الآخرين واستلاب أموالهم. وهو الذي يفجّر المياه لقومه من قلب الصخر إذا عطشوا، وينزل المن والسلوى إذا جاعوا. وتنطق التوراة باسم موسى أيضاً فهذا هو يوصي قومه ويعطيهم خطة الغزو والإرهاب لمتابعة تنفيذها بعد موته. يقول مخاطباً جميع بني إسرائيل: «أنا اليوم ابن مئة وعشرين سنة لا أستطيع الخروج والدخول بعد،

ويهوه قال لي: لا تعبـر هذا الاردن، يهوه إلٰهك هو عابر قدّامك، هو يبيد هؤلاء الأمم من قدامك فترثهم.. فمتى دفعهم يهوه أمامك تفعلون بهم حسب كل الوصايا التي أوصيكم بها. تشدّدوا وتشجّعوا ولا ترهبوا وجوههم لأن يهوه إلٰهك سائر معك. لا يُهمِلك ولا يتركك، فدعا موسى يشوع وقال له: أمام أعين جميع إسرائيل تشدّد وتشجّع لأنك أنت تدخل مع هذا الشعب الأرض التي أقسم الرب لآبائكم أن يعطيكم إياها وأنت تقسمها لهم. والرب سائر أمامك، هو يكون معك ولا يهملك ولا يتركك، ولا تخف، ولا ترتعب»[1] لا يشغل بال الرب شيء إلا تمليك بني إسرائيل الأرض، وتحديد هذه الملكية، وكيفية الاستيلاء على أرض كنعان وتمليكها لهم، فهو يعقد ميثاقاً واتفاقاً مع بني إسرائيل بإعطائهم أرضاً مأهولة بأصحابها عامرةً بحضارتهم وآثارهم، تفيض أرضهم بالعسل واللبن.. فهو يعطي شعباً بلا أرض، أرضاً بلا شعب يا له من إله حاقد متزمِّت، عنصري متعصّب، اختار بني إسرائيل من بين شعوب العالم، وفوض لهم السلطة والتسلط على أموال وأعراض وأملاك بني البشر..

فها هو يقول لموسى: «خذ جميع رؤوس الشعب وعلّقهم للرب مقابل الشمس، فيرتد حمو غضب الرب عن إسرائيل»[2]. إنه لا يرضى عن إسرائيل، ولا يرتد حمو غضبه عنهم إلا إذا علّق جميع رؤوس الشعب أمام الشمس.. إنه إله سفاح حقاً، دموي فعلاً، لا يعرف العدل، ولا يرحم العباد فهو يفعل تماماً كما يفعل مصاصو الدماء، وأكلة لحوم البشر، المتنقلون بين البراري والقفار عند الشعوب البدائية، يتلذذون بأكل فريستهم، ويغتبطون بمشاهد الذبح، وينتشون برائحة الدم والمحرقات، وهكذا يحدد طريقة التعامل مع شعوب سيناء وفلسطين وكل البشر.

تقول التوراة في وصفها لحياة هذه القبيلة الغازية البدائية الهمجية بأنها: «تلحس كل ما حولهم كما يلحس الثور خضرة الحقل»[3]. وأنها: «لا تنام حتى

(1) التثنية: 31.
(2) العدد: 25.
(3) العدد: 22.

تأكل فريسة وتشرب دم قتلى»[1]. هذه هي إسرائيل اليوم ورثت هذه العدوانية والإرهاب كابراً عن كابر، وهم يؤدون رسالة آبائهم وأجدادهم في القتل والذبح والتشريد، عن طريق عصاباتهم المحترفة للإجرام، أمثال: الهاغاناه والأرغون وشتيرن.. ويعزون كل أفعالهم البذيئة إلى الله «يهوه»، ويعدون كل ممارساتهم الإجرامية تعاليم دينية موروثة من كتبهم الدينية، المكتوبة وفق أهوائهم وأمزجتهم وينسبونها إلى إلٰههم «يهوه».. ألا ساء ما يفعلون..

الله هو الله، واحد لا شريك له، أنزل التوراة والإنجيل والقرآن على أنبياء ورسل شرفاء عظماء رحماء بوحي من عنده، وهو الخالق البارىء، اللطيف بالعباد، غافر الذنوب كلها القائل جل شأنه: ﴿**إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾[2]. هذا هو الله رب العالمين، وأما يهوه إلٰه التوراة فهو من نسج الخيال. وما سيرة التوراة إلا سيرة هذا الإلٰه الغاضب، الحقود، الذي يسفك الدماء ولا يرتوي، ويقيم الحروب، وينصر فئة على أخرى، ويتخذ له شعباً دون آخر، ويسر لرائحة المحرقات، ويقيم الأخ على أخيه، ويكره الشعوب، ويسحق كل من يعارضه، اقترن اسمه بإبليس، واليهود عبدوا إبليس من خلال إلٰههم «يهوه» إلٰه الشر والغضب.. وهو إلٰه باطل، قضى على المبادىء الجميلة التي كانت تنادي بالإلٰـه الحق كالكنعانيين، وقد قاوم اليهود إلٰه الكنعانيين واعتبروه كاذباً، وهو الإله الحق، وثبتوا إلٰههم لنشر ديانتهم الكاذبة والمراوغة، ومن هنا جاء توحيدهم الذي لا يشير إلى معرفة الله الحق، الواحد الأحد، بل يعني الانفراد والتخصص بالإلٰه يهوه الذي لا يتركون للأمم مجالاً لعبادته، فهو إلٰههم وحدهم، ومن هنا كان التوحيد اليهودي.

9 ـ الوعد التوراتي المزعوم:

تعددت الآيات التوراتية التي ذكرت الميثاق الذي عقده الرب مع

---

(1) العدد: 23 - 24.

(2) الحجرات: 13.

إبراهيم، وجدده مع إسحق ثم جدده مع يعقوب، الوعد بالذريّة الكثيرة والأرض الواسعة. . وتذكر التوراة أن هذا الوعد كان في بدايته وعداً لقبيلة بدوية متنقلة، لا تملك أرضاً، ولا تعرف استقراراً، فوعدهم الرب أن يقيموا في أرض كنعان ـ حصراً ـ إلى جانب أهلها وجيرتهم وكنفهم، تقول التوراة: «وقد قطع الرب مع أبرام ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير»[1]. . أي من النيل إلى الفرات، هذه بدعة ابتدعوها، وأسطورة اختلقوها، وكذبة افتروها وصدقوها، وأعلنوها بأن حدودهم ستكون من الفرات إلى النيل، فعندما أُعطي هذا الوعد لإبراهيم ـ حسب زعمهم ـ لم يكن له ذرية ولا نسل، ولا ولد، وكانت امرأته عاقراً وهو شيخ كبير. فلمن الأرض إذاً؟

وفي موضع آخر تعود التوراة وتؤكد وعد الرب لأبرام: «أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها»[2]. إن الله أخرج إبراهيم من أور لأن فيها قوماً فاسدين ظلموا إبراهيم وحرقوه. . . وعندما خرج لم يكن معه إلا زوجته سارة، وابن أخيه لوط، وبعض عبيده فقط، ولم يكن يهودياً، بل كان حنيفاً مسلماً، وكان عمره حينذاك 75 سنة، ثم وصل إلى أرض كنعان بناء على أمر ربه. كما تدعي التوراة.

تقول التوراة: «وكان الكنعانيين حينذاك في الأرض»[3]. إذن لم تكن الأرض بلا شعب كما يزعمون دائماً، ولم يكن هناك شعبٌ موجود باسم إسرائيل أو اليهود في عهد إبراهيم. وبين إبراهيم وموسى أكثر من 575 سنة. . فقد كانت أرض كنعان عامرة بالحياة يسودها النظام والحضارة، وكانت تفيض لبناً وعسلاً قبل الغزو الإسرائيلي الأول لها بزمن بعيد. .

وقد وصفتها التوراة: «بأنها أرض صالحة، ذات أنهار وعيون، يتفجر الماء في غورها ونجدها، وتسقيها مياه المطر أيضاً، أرض حنطة وشعير، وكرم وتين، وزيت وعسل، أرض في حجارتها الحديد، وفي جبالها تقطع النحاس، أرض

---

(1) و (2) التكوين: 15.

(3) التكوين: 12.

تدر لبناً وعسلاً. ذات مدن عظيمة وحسنةً». هكذا كانت فلسطين، وهكذا هي اليوم.

عاش إبراهيم عيشة بدوية متنقلة في جيرة أهلها وكنفهم نحو مئة سنة، ولم يكن له فيها حسب ونسب ولا أصل له فيها ولا جذور، فهو آرامي منبتاً وثقافة وعقيدة. تقول التوراة: «وتغرّب إبراهيم في أرض الفلسطينيين أياماً كثيرة»[1]. فإبراهيم كان غريباً في أرض فلسطين ولم يكن من أهل البلاد أصلاً. وقد رزقه الله في شيخوخته أولاداً وحفداء من أكثر من زوجة، عاشوا جميعاً حياة بدوية راحلة، في جيرة أهل فلسطين وكنفهم، ولم يكن لهم أي ملك أو كيان أو قرار.. ثم تطور الوعد التوراتي بالإقامة المؤقتة إلى وعد ذي أبعاد قومية لتبرير غزواتهم المتكررة على أرض الجوار، وأخذهم الغرور والصلف بأنهم شعب الله المختار، الشعب السيد في كل المناطق المحصورة بين «نهر مصر والنهر الكبير ـ نهر الفرات».

وتوسع الوعد على لسان الرب ليشمل جميع قبائل الأرض: «وقال لرب لأبرام: اذهب من أرضك ومن عشيرتك، ومن بيت أبيك، إلى الأرض التي أُريك، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك، وأُعظّم اسمك، وتكون بركة، وأُبارك مُباركيك، ولاعِنُكَ أَلْعَنُه، وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض»[2]. على أرض فلسطين فقط كان يتجدد الوعد، ويتأكد العهد، تقول التوراة: «ظهر الرب لأبرام، وقال: لنسلك أعطي هذه الأرض، فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له»[3]. فمن هم نسله؟ ولماذا لا يكون نسله كل أولاده؟ ولماذا تكون الأرض لنسله من إسحق ولا تكون لنسله من إسماعيل الابن الأكبر والأول في كل أولاد إبراهيم. قال تعالى: **﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾**[4] فالله المتعالي على كل الماديات لم يذكر في كتبه أنه

---

(1) التكوين: 21.
(2) التكوين: 12.
(3) التكوين: 12.
(4) سورة الأنبياء: 105.

خصّ شعباً دون آخر، وملكه أرضاً على حساب غيره، والأنبياء لا يورثون. . . وحسب الرواية التوراتية لم يثبت إبراهيم على أرض كنعان، فهي تقول: «ثم ارتحل أبرام ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب»[1].

لقد غادر فلسطين بمجرد الجوع الذي لحق به، بسبب القحط الذي أصاب أرض كنعان ولم يثبت بها فتوجه إلى مصر وقابل فرعونها، وكانت قصة زوجته سارة مع فرعون. . ولكن فرعون مصر كرّمه وأجزل له العطاء.

«وعاد إبراهيم من مصر محملاً بالهدايا مع لوط ابن أخيه ثم افترقا لخلاف حصل بينهما، قال أبرام اعتزل عني فإن ذهبت شمالاً فأنا يميناً، وإن يميناً فأنا شمالاً»[2]. لقد افترقا ليس لخلاف على مبدأ أو عقيدة وإنما لكثرة مواشيهما وقلة المراعي في سدوم جنوبي البحر الميت، وكان الاعتزال اختياراً للوط وليس لإبراهيم.

10 ـ من هو اليهودي:

لم يتفق اليهود حتى أيامنا هذه على وضع تعريف عملي لليهودي في دستورهم غير الموجود، والذي يقوم على أساسه بناء الدولة الصهيونية اليهودية، وعليه وضع قانون العودة الذي يدفع أفواج اليهود إلى أرض فلسطين «أرض الميعاد» والذي ينص على أنه: «يحق لكل يهودي أن يهاجر إلى إسرائيل» لكن من هو اليهودي الذي ينطبق عليه هذا القانون؟

وورد في تعليمات إسرائيلية صدرت على شكل قانون في عام (1960 م) يسجل يهودياً في حقلي الديانة والجنسية في سجلات الحالة المدنية ممن تتوفر فيه الشروط التالية:

1 ـ من ولد من أم يهودية ولا يعتنق ديناً آخر.
2 ـ من اعتنق اليهودية وفقاً لشروط مفروضة.

---

(1) التكوين: 12.
(2) التكوين: 13.

فالدين والجنسية عند اليهودي شيء واحد وهذا أمر غير معروف لشعب من شعوب الأرض، أن يكون دينه هو جنسيته وقوميته، فالصهيونية قائمة في اليهودية وهما وجهان لعملة إسرائيلية واحدة، وقد أقر مؤتمر الكتاب اليهودي أن «كل يهودي صهيوني» والمعيار العرقي عندهم قائم على العنصرية المتميزة بانتقال الدم من الأم وليس من الأب، وقائم كذلك على أساس الدين واعتناق اليهودية حتماً. ولا يحق لأي شخص دخول اليهودية إلا بموافقة حاخام من الأصوليين اليهود.

فمن منهم اليهودي؟ ينسب العرق والدم الوراثي عند اليهود إلى الأم، وإذا كانت الأم غير يهودية فالابن ليس يهودياً بالطبع، وكذلك الآباء والأحفاد.

ومن خلال استعراض ما كتب في التوراة عن زوجات أنبياء بني إسرائيل، اللواتي هنّ أمهات أبنائهن.. نجد أن معظم أمهاتهم لسن من بني إسرائيل ولسن من اليهود أصلاً. إنما يرجعن إلى أصول غير يهودية، فمن منهم اليهودي ابن اليهودية إذن؟؟؟

فإبراهيم عليه السلام الذي يدّعون باطلاً الانتساب إليه لم يكن يهودياً في يوم من الأيام، بل هو من أصل كلداني من مدينة أور هو وزوجته سارة أم إسحق، كما مر معنا. وتزوج إسحق ابنهما من رِفعة بنت بتوئيل الآرامي أخت لابان الآرامي من فدّان أرام في بلاد الرافدين[1]، وهي ليست يهودية الأصل.. وولدت له عيسو ويعقوب. وتزوج عيسو من يهوديت ابنة بيري الحثي وهي حثية الأصل ومن بسمة ابنة ايلون وهي حثية الأصل أيضاً. كما تزوج مَحْلة ابنة عمه إسماعيل. وتزوج يعقوب من لَيئة وراحيل ابنتي خاله لابان الآرامي وهو ليس يهودياً، وتزوج من زِلفة جارية ليئة ومن بَلْهة جارية راحيل فولدن له الأسباط الاثني عشر.

وقد تزوج يهوذا ابنة رجل كنعاني اسمه «شوع» وولدت له ثلاثة أبناء.

---

(1) التكوين: 22.

وتزوج موسى من «صفورة» ابنة شعيب من بلاد مدين، ورزق منها ولدان.

وتذكر التوراة كيف أحب داوود زوجة اوريا الحثي وكانت كنعانية وتزوجها وأنجبت له سليمان. وتزوج سليمان العديد من النساء من غير الإسرائيليات. تقول التوراة: «وأحبَّ الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون، مؤابيّات، وعمّونيات، وآدميّات، وصيدونيّات، وحثيّات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل «لا تدخلوا إليهم، وهم لا يدخلون إليكم، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة، وكانت له سبعمئة من النساء والسيدات، وثلاثمئة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه[1].

فمن منهم اليهودي الأصل حسب دستور اليهود؟.

11 ـ الصهيونية العنصرية:

الصهيونية أم الخبائث، حركة عنصرية عرقية تقوم على مبدأ التميز العنصري والتفوق العرقي.. وهي حركة دينية سياسية تقوم على أساس التوسع والعدوان والاغتصاب. كما أنها دعوة قومية تستند في دعواها إلى وعد الرب لآباء اليهود، بتمليكهم أرض كنعان وما حولها، وإخضاع شعوب العالم كلها لهم.. وهم يعتقدون دائماً وأبداً «أن كل يهودي صهيوني» وقد أخذوا اسمهم من صهيون، وهي قطعة من مدينة القدس حددت في العهد القديم على أنها مدينة داوود. وجبل صهيون يعني هو جبل الرب الذي توجد فيه محافل الملائكة، وعليهم عبادة إلهم عليه، وهو مقدس في نظر اليهود.. فلا صهيونية بدون يهودية، ولا يهودية بدون صهيونية. وهم يفسرون توراتهم وفق أهوائهم، وعلى نحو تعسفي باطل، فهم يزيفون إرادة الله، ويسوّغون سياسة الإرهاب والتوسع الدائم بنصوص توراتية، كتبوها وفق ما تقتضيه مصلحتهم.. يستمدون منها الأعذار لكل وسائل القتل والإرهاب، والتشريد والدمار، التي تمارسها عصاباتهم في القديم وفي الحديث.. إن كل ما ورد في توراتهم من وعود

---

(1) الملوك الأول: 11.

بمنحهم أرض كنعان، وبأنهم شعب الله المختار، وأنهم صفوة الشعوب بأسرها. . وما شابه ذلك من أساطير خرافية، ومن ترّهات وأباطيل. . إن هي إلا من نسج الخيال ومن ترتيب كهنة اليهود وكتبة التوراة وتصوراتهم. . فهم يذكرون أن «يهوه» إله التوراة أراد تأسيس مملكته في فلسطين، وأراد أن يعمر بيته على جبل صهيون. . كما أراد أن تأتي إليه كل أمم الأرض لتقديم الطاعة والخضوع، وفي اعتقادهم بأنه لن يمر وقت طويل حتى تتحقق نبوءتهم القائلة: «سيخضع اليهودي شعوب الأرض جميعها ويصبح سيدها المطاع». وتؤكد نصوص التوراة على المواقف التالية:

إن رب إسرائيل قد منح بني إسرائيل جميع أراضي فلسطين وجميع الأراضي الأخرى الممتدة من الفرات إلى النيل. .

وإن الإسرائيليين شعب الله المختار والمقدس دون شعوب العالم. .

وإن الرب قد جعل شعوب العالم عبيداً لهم فهي تقول: «وبنو الغريب يبنون أسوارك وملوكهم يخدمونك، ليؤتى إليك بغنى الأمم، وتُقاد ملوكهم، لأن الأمة والمملكة التي لا تخدمك تبيد، وخراباً تخرب الأمم»[1].

وتؤكد على أن من حقهم إبادة جميع طوائف فلسطين، ذكوراً وإناثاً، صغاراً وكباراً، وهم بهذا المنطق العقيم والتمييز العرقي الفاضح يتصرفون داخل أرض فلسطين اليوم، بممارستهم القتل والإرهاب والموت وكل أصناف العذاب. . . وجاء في التلمود ما يؤكد زعمهم وادعاءهم الباطل الوارد في أسفار التوراة، فقد جاء فيه ما يلي:

يجب على بني إسرائيل قتل من أمكنهم من غير اليهود (الجوييم)، واغتصاب أموالهم وسرقتها.

إن الله قد منح السلطة لليهود على مقتنيات الشعوب. .

إن أملاك غير اليهود تعتبر كالمال المتروك الذي يحق لليهودي امتلاكه. .

---

(1) إشعيا: 60.

إن اليهود أحب إلى الله من الملائكة، وهم من عنصر الله، كالولد من عنصر أبيه..

من صفع يهودياً يكون كمن صفع الإله، والموت جزاء «الغوييم» إذا ضَرب يهودياً..

لولا اليهود لارتفعت البركة من الأرض، واحتُجبت الشمس، وانقطع المطر..

الغوييم كالكلاب والخنازير نجاسةً، وكحظائر البهائم بيوتهم، ويحرّم على اليهودي أن يعطف عليهم، وكل شر يفعله اليهودي معهم هو قُربى إلى الله.. والكثير الكثير...

هذا مصدر رئيس في ديانتهم، فهل هذه أوامر الله سبحانه وتعالى؟

إنّه منزّه عن كل ما يقولون أو يفعلون، وسبحانه عما يصفون، فهؤلاء ليسوا يهوداً، ولا يمتّون إلى دين اليهودية المنزل بصلة، إنهم صهاينة عنصريون وليسوا أصحاب دين سماوي. إن هذا التلمود اليهودي هو عنوان العنصرية، ورمز لخرافة التفوّق العرقي الذي تقرّه الصهيونية وتنهج نهجه، إنه مجتمع متوحش لا يعرف الأخلاق ولا الإنسانية، ومن تعاليم التلمود التي تدعو اليهود إلى الحقد والفساد، وإلى الوحشية والأنانية المقيتة:

- اقتل الصالح من غير الإسرائيليين.

- إن الله لا يغفر ذنباً ليهودي، يرد لأجنبي ماله المفقود.

- محرم على اليهودي أن ينقذ أحداً من باقي الأمم، من هلاك أو يخرجه من حفرة وقع فيها.

فالشر متأصل في نفوسهم والحقد يتطاير من عيونهم كُرهاً وبُغضاً لكل بني البشر. والصهاينة مسؤولون عن هلاك الكثير من الناس، الذين لا يعدّونهم سوى «رماد» ليس أكثر، ولا يستحقون حتى الأسف عليهم - حسب رأي أحد منظريهم -.

إن الصهيونية رمز العنصرية بل هي قمة العنصرية والتمييز العنصري، باعتراف العالم كله، فقد أصدرت الجمعية العمومية للأمم المتحدة قراراً برقم 3379 لعام 1975 اعتبرت فيه الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري.

حتى أنها جعلت الصهاينة أنفسهم فوق بعضهم درجات، أشبه بطبقات المجتمع الهندوسي في الهند، حيث ينقسم سكان إسرائيل إلى طبقات متميزة بفروق واضحة هي:

1 ـ الاشكيناز: وهم اليهود من أصل أوروبي غربي وهم السّادة، ومنهم الحكام والقادة.

2 ـ الصابرا «اليهود الشرقيون»: وهم اليهود من أصل فلسطيني أو عربي يقيمون في البلاد العربية، ومن إيران وأفغانستان وكردستان.

3 ـ السفارديين: وهم اليهود من أصل آسيوي إفريقي والذين يسمّونهم بإسرائيل احتقاراً لهم «اليهود السود» للتدليل على قربهم من العرب السمر، من حيث لون البشرة، وهم يتعرّضون إلى تمييز عنصري فاضح في كافة مجالات الحياة، لقد عاش أسلافهم في اسبانيا حتى طُرِدوا منها عام (1492 م)[1].

4 ـ ثم يأتي العرب وكل الغرباء من الغوييم، فهم في أسفل السلم الاجتماعي وليس لهم في القيادة نصيب... هذه هي المنطلقات التي يعتمدونها في إرساء قواعد الحركة الصهيونية وركائزها. فهم يعدون أن اليهود أمّة، وأنهم متفوقون كعرق سامي، وأنهم شعب الله المختار. ويتذلّلون للعالم بأن اليهود مضطهدون، وأنهم مظلومون، يستحقون عطف العالم وتأييده، وأنهم بحاجة إلى جمع شتاتهم في وطن قومي هو «أرض الميعاد».

ورد في مقدمة كتاب الكوزاري، الصادر بتوجيه شعبة التربية، التابعة

---

(1) فر اليهود من الأندلس إثر اضطهادهم في عهد فرديناند الخامس (1452 - 1516 م) وإيزابيلا الأولى (1451 - 1504 م) وقيام محاكم التفتيش. ورفض اليهود الكاثوليكية.

«لكنيست إسرائيل» المزعوم، والحائز على مصادقة وزارة الثقافة والمعارف، وهي بقلم الدكتور: أ. تسفروني: «إن الفلسفة والعلوم تقرب الإنسان من الحقيقة، ولكن ديانة إسرائيل وتوراة موسى هما الحقيقة بعينها، ومن لم يتلقَّ علوم الفقه الديني عن آبائه لن تفيده الفلسفة شيئاً، واليهود لا تلزمهم الفلسفة، لأن توراتهم هي الفلسفة الكليّة والحقّة، وقد منحت التوراة لشعب إسرائيل من دون العالمين جميعاً. . لأنه صفوة الشعوب بأسرها، ولأن بلاده خير بلدان العالم قاطبة، ولأن لغتهم أشرف لغة ينطق بها البشر».

ورد في سفر أشعيا ما يلي: «ويقف الأجانب، ويرعون غنمكم، ويكون بنو الغريب حرّاثيكم، وكرّاميكم أما أنتم فتدعون كهنة الرب، تأكلون ثروة الأمم، وعلى مجدهم تتآمرون» يا له من غرور ما بعده غرور. إن الصهيونية المتجسّدة في «دولة إسرائيل المزعومة»، ليست وليدة وعد بلفور الذي ظهر في القرن العشرين، وإنما يعدّونها وليدة الوعد الإبراهيمي الأول في القرن التاسع عشر قبل الميلاد. . يقول هرتزل «أبو الصهيونية» مبيناً الطريق إلى إنشاء دولة يهودية بجثة على أرض فلسطين: «لنفرض على سبيل المثال، أننا بحاجة إلى تطهير البلاد من الحيوانات المتوحشة، ولن تحل هذه المسألة على الطريقة التي تصرف بها الأوروبيون في القرن الخامس عشر إننا لن نطلق الرماح والسهام في تعقّب الدّببة، بل سننظم عملية صيد واسعة، ونطرد الحيوانات المتوحشة، ونلقي عليها القنابل الشديدة الانفجار».

كلام في منتهى الوقاحة والحقد، ومنطق دموي، ينمُّ عن أصل صهيوني عريق في السفح والإرهاب، لقد ابتدع الصهاينة أسطورة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» لتسويغ غزوهم واحتلالهم لأرض فلسطين العامرة، كما ابتدعوا أسطورة الأرض الصحراوية التي حولوها إلى جنات عدن لطمس حقيقة فلسطين وواقعها التي كانت ـ ولا تزال ـ رمزاً حضارياً أبدياً.

هكذا تحرضهم التوراة على التوسع في احتلال أرض الآخرين، وتخبرهم

---

(1) إشعيا: 61.

بأن «كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم، من البرّية ولبنان، من النهر ـ نهر الفرات ـ إلى البحر الغربي يكون تخمكُم»[1] إنهم يطمحون إلى إنشاء إسرائيل الكبرى، التي تمتد حدودها إلى منابع النفط في الكويت، والمراكز الدينية في الجزيرة العربية، وإلى النيل غرباً والبحر المتوسط حتى نهر الفرات شمالاً، فهل من يعتبر؟ ألم يقم الصهاينة في أرض فلسطين المحتلة بتنظيم عملية صيد واسعة، وإبادة جماعية، من أجل طرد كل الناس واقتلاع جذورهم من أرضهم على طريق نبيّهم هرتزل بإلقاء القنابل شديدة الانفجار؟. أنتم يا أهلنا على أرضنا خير من يجيب، وأنتم جاثمون على صدور أعدائكم ترفعون شارات النصر، وتطردون قطعان المستوطنين الغرباء كل يوم حتى النصر والاستقلال. . .

يؤكد علماء البيولوجيا ومنهم علماء يهود[2] «أن اليهود ليسوا شعباً واحداً، بل هم طائفة دينية تضم جماعات مختلفة من الناس، اعتنقوا ديناً واحداً».

ويؤكد ذلك «يوجين بيتار» فيقول: «إن اليهود طائفة دينية دخلتها عناصر من أجناس مختلفة». وجاء في كتاب «اليهودية دين لا قومية» الصادر عن المجلس الأمريكي لليهود:

«إن الشعب اليهودي بالمعنى السياسي والطائفي ليس له وجود أبداً. . وإنما كان يرمز بعبارة الشعب اليهودي إلى الناحية الروحية فقط».

إن الصهيونية الحاضرة تستغل الأساطير الدينية وخرافات التوراة والتلمود من أجل إثارة عواطف وحماسة جماهير اليهود وخاصة في أوروبا لتثبت وجود قومية يهودية صهيونية أو أمة يهودية بربطهم الحاضر بالماضي القديم. يقول دعاة الصهيونية: إن الصهيونية دعوة وحركة سياسية حديثة، وهي من صميم اليهودية حتى من العهود المتقدمة. يقول سوكولوف[3]: لقد كانت الصهيونية طيلة آلاف

---

(1) سفر التثنية: 11.

(2) مثل جور فينيش أستاذ علم الإنسان في الجامعة العبرية.

(3) سوكولوف: كتاب تاريخ الصهيونية.

السنين وما زالت مثالاً، ناضل وعمل وتعذب ومات من أجله خيرة أعمال شعبنا». إن بذور الفكرة الصهيونية ظهرت إلى الوجود من خلال عوامل سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو روحية حديثة من أهمها:

ظهور «المسألة اليهودية» وتعني الصراع الديني بين اليهودية والمسيحية الأوروبية واضطهاد المسيحية لليهودية، مثل ما حدث في اسبانيا عام (1492 م) حيث قامت محاكم التفتيش لتجبر اليهود على اعتناق الكاثوليكية، أو الهجرة من اسبانيا، أو الموت الزؤام. .

كما ساهم في ظهور الصهيونية قضية «الانغلاق اليهودي» في أحياء «الغيتو»[1] الخاصة بهم والمفروضة عليهم من قبل المسيحيين الأوروبيين وما فرض عليهم من قيود قاهرة من الحكومات القيصرية بعد أن قام اليهود بتدبير اغتيال قيصر روسيا في عام (1881 م) فوقعت المذابح الشهيرة ضدهم مما أدى إلى هجرة واسعة خارج حدود روسيا وبولونيا القيصرية وإلى المزيد من انغلاق اليهود على أنفسهم في مدنهم وقراهم. .

وفي عام (1880 م) تجدد نشاط الحركة المعادية لليهود «اللاسامية» في أوروبا الغربية وبخاصة في ألمانيا، بنتيجة الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي رافقت نمو الرأسمالية بعد الثورة الصناعية[2]. كل ذلك أدى بهم إلى التفكير في إظهار قوميتهم حتى لا يبقون مضطهدين أو منبوذين، يقول «موسى هيس» (1812 - 1875 م) أحد مفكري اليهود الألمان: «إذا ما استمر اليهودي في إنكار قوميته، وإذا ما استمر في إنكار انتمائه إلى شعب مضطهد ومنبوذ، فإن موقفه سيصبح غير محتمل، لقد اعتبرت الشعوب الأوروبية بأن وجود اليهود بينها شذوذ، وسوف نبقى غرباء بين الأمم إذا ظل اليهودي ينكر قوميته وانتماءه، وسوف لا يكتسب احترام الأمم التي يعيش بينها».

---

(1) كانت البندقية أول من أدخل نظام الغيتو في حياة اليهود عندما أصدر مجلسها عام (1516 م) أمراً يقضي على سكان المدينة بالسكن في حي مغلق خاص بهم، ثم انتشر في العالم.
(2) اليهودية والصهيونية ـ دراسات فتح.

.فأين هذه القومية التي يتحدث عنها؟ إن كل يهودي في أوروبا يحمل قومية البلد الذي ينتمي إليه ولا يحمل من عناصر القومية إلا الدين أي المظهر الروحي فقط.

ولذلك يرى بعضهم أن مفهوم الشعب الواحد، مرتبطٌ بالجانب الروحي والفكري، ليس إلا. . يقول ب. سمولنسكين (1842 - 1885 م): «نحن شعب لأننا نعد أنفسنا بالروح، وبالفكر مرتبطين مع بعضنا بروابط الأخوة». . فأي ارتباط؟ وأي أخوة تجمع بين يهود الحبشة ويهود ألمانيا ويهود بولونيا، ويهود أميركا، ويهود الهند، ويهود الاتحاد السوفياتي، ويهود الصين؟ إنهم إخوة في الاضطهاد، وفي الضلال، وفي الفساد، فقد اضطهدتهم كل شعوب الدنيا، وألحقت بهم المصائب، لفجورهم، وجشعهم، وسوء أخلاقهم. . فلا وجود لشعب يهودي بالمعنى الصحيح ولا وجود لأمّة أو قومية يهودية بالمعنى الصحيح، يقول مونتاجو ـ وزير يهودي بريطاني ـ «لا توجد أمّة يهودية، ولا يصح القول إن اليهودي الإنكليزي واليهودي المغربي ينتميان إلى أمة واحدة» أما ماكس نورداو (1849 - 1923 م) وهو أحد دعاة الصهيونية البارزين فيوضح الفرق بين اليهودي الصهيوني واليهودي غير الصهيوني، فيقول: «النقطة الوحيدة التي تسبب عدم التفاهم بين الصهيونيين وغير الصهيونيين، هي مسألة القومية اليهودية، فمن لا يؤمن بأن اليهود أمّة ليس بصهيوني حتماً، ومن يؤمن بهذا يجب أن يتحوّل إلى صهيوني»[1].

ويجيبه ليوبنسكر وهو داعية صهيونية بارز أيضاً بقوله: «اليهود ليسوا أمة لأنهم يفتقرون إلى صفات قومية موجودة عند الأمم الأخرى، تلك الصفات الناجمة عن السكن معاً في بلد واحد، وتحت ظل حكم واحد. ولكن يجب عليهم إذا أرادوا التخلص من حالتهم المخزية أن يصبحوا أمة». إذن هي «عنزة ولو طارت» كما يقول المثل، ويجب أن يصبحوا أمة ولو بلا مقومات، ويجب أن يدخلوا التاريخ ولو رفضهم التاريخ خلال عمرهم، ويجب أن يكونوا دولة

---

(1) الفكرة الصهيونية، النصوص الأساسية، سلسلة كتب فلسطين. مركز أبحاث م. ت. ف.

ديمقراطية تحب السلم والسلام، ولو أبادوا كل الأمم، ويجب أن يكونوا دولة حضارية ولو هدّموا صرح الحضارة في كثير من بلاد العالم. نسأل رواد الصهيونية ومفكريها، ونسأل أحبار اليهودية وربانيها أن يثبتوا على قرار، فهل اليهود أمّة؟ أم أنهم لا يملكون مقومات الأمة؟. إن الحقيقة التاريخية تقول إنهم لا يملكون من مقومات الأمة أو القومية الواحدة إلا عنصر الدين والفكر المتزمّت، ويختلفون في باقي المقومات، كاللغة الواحدة والأرض الواحدة، والتاريخ الواحد، والعادات والتقاليد وغير ذلك...

ونسألهم: أين الحضارة اليهودية عبر التاريخ؟ فإن لم يستطيعوا الإجابة فالتاريخ يجيب وهو الحافظ الأمين: بأنه ليس لليهود حضارة خاصة بهم، ولم يتركوا بصماتهم على جدار التاريخ. وهي وإن وجدت فهي حضارة شعوب أخرى سرقها «الشعب المختار» وشوّه معالمها، ولم تكن يوماً من الأيام حضارة تحمل اسمهم، فلا يوجد فن يهودي؟ أو هندسة عمرانية يهودية؟ أو فلكلور خاص بهم؟ أو عادات أو تقاليد خاصة بهم؟ اللهم إلا ما سرقوه من الآخرين... وهم تمازج حضاري ساهمت بوجوده حضارات عالمية رفيعة، وكان دورهم: السرقة أو النقل أو التقليد وليس لهم المقدرة على الخلق والإبداع، وربما كان أفضل مظهر حضاري في تاريخهم هو بناء المعبد في عهد داوود وسليمان عليهما السلام، الذي أقيم على الطراز الآشوري، فقد قام على أكتاف الأمم من غير اليهود، من تخطيط وتنفيذ لأن همهم التخريب وليس العمران.. يقول هتلر: «إن ذكاء اليهودي متجه دوماً نحو الهدم والتخريب، فهو وإن فعل خيراً أحياناً فعن غير قصد، لأنه يعتقد فيه الشر فيفعله، إن العالم لم يعرف شيئاً يدعى «حضارة يهودية»[1]. فمن أين تأتيهم الحضارة وهم بدو رحل؟ بل هم أقل من ذلك إذ يخالفنا هتلر بقوله: «إن اليهود ليسوا رحّلاً، لأن الرحل يتميزون بالمثاليّة، وهم لم يكونوا رحّلاً قط، بل كانوا، وما يزالون طفيليات تنافس الشعوب على مقومات وجودها، ولَئِن تركوا المناطق التي سكنوها، فإنما تركوها

---

(1) هتلر: كتاب كفاحي.

مرغمين، ملعونين من الشعوب التي طردتهم بعد أن ضاقت بهم وبخروجهم عن آداب الضيافة».

وفي مقدمة كتاب «اليهود في تاريخ الحضارة الأولى» للدكتور غوستاف لوبون، يقول مترجمه الكاتب عادل زعيتر: «انتهى لوبون إلى أنه لم يكن للقوم «اليهود» فنون ولا علوم ولا صناعة ولا أي شيء تقوم به حضارة، وهم لم يأتوا بأيّة مساعدة مهما صغرت في شَيْد الحضارة البشرية، وإنهم لم يجاوزوا قط مرحلة الأمم شبه المتوحشة، التي ليس لها تاريخ»[1].

حقاً، إنهم أشبه ما يكون بالشعوب المتوحشة التي لا تقيم وزناً للإنسانية ومفاهيمها، ولا للحضارة ودعائمهما، لأن تفكيرهم المادي يطغى على تفكيرهم الروحي، وهم بذلك يفقدون كل شروط لقيام الحضارة، وكل أسس لتكوين شعب أو أمة، حتى أنهم لم يتمكنوا من الاندماج مع الشعوب الأخرى، بل عاشوا ضمن أحياء خاصة داخل مدن معينة هي أحياء الغيتو كما ذكرنا، والحقد يملأ نفوسهم على أهل البلاد التي تحتويهم، وعلى الشعوب التي تأويهم. فهم غرباء أينما حلّوا، ووجودهم شاذ أينما وجدوا، ولهذا قال هرتزل: «إن اليهود شعب فريد، لا يمكنه الاندماج مع غيره».

إن معظم الذين يدّعون اليهودية اليوم كدين لهم، جاؤوا من منطقة بحر الخزر، ويسمون أنفسهم بالاشكنازيين، ولغتهم «اليديتش» وهي مزيج من الألمانية واللهجات المحلية، ولا علاقة لها باللغة العبرية الكنعانية الأصل، ولا صلة بينهم وبين القبائل العبرية الغازية التي عاشت على أرض فلسطين فترة وجيزة من عمر التاريخ، ولا رابطة بين يهود الغرب ويهود الشرق إلا أنهم يهود، تجمعهم رابطة الدين والعنصرية، فكل يهودي صهيوني ـ حسب قولهم ـ وهم في الحقيقة صهاينة وليسوا يهوداً. . . يقول هتلر المعروف بعنصريته: «ليس لليهودي حضارة خاصة، ولا أخلاق، فالشرط الذي يجعل من الشعب شعباً ذا حضارة ليس موجوداً في «الشعب المختار»، فليس لليهود مثالية، ذلك أن روح

(1) أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ.

التضحية عند اليهود لا تتعدّى نطاق «الأنا»، أما التضامن الذي تجده بينهم والذي يبدو قوياً، ليس أكثر من تجمّع زمني، أشبه بتجميع قطيع من الغنم، يواجه خطراً مشتركاً، أو أشبه بتجميع قطيع من الذئاب لمهاجمة الفريسة، فما أن تنتهي الوليمة حتى يتفرق المدْعوون واليهودي لا يعرف التضامن إلا في حالة الخطر، والتضامن هذا يصبح واجباً في حالتين: ـ تجاه العدو المشترك، ـ أو تجاه فريسة مشتركة، فإذا زالت مسببات التضامن يرجع اليهود إلى أنانيتهم، ويصبح همهم الوحيد الكيد والمؤامرات، ونهش بعضهم بعضاً».

إن كيدهم لمعلوم، وإن حقدهم لظاهر، وإن ذكرهم تتقزز منه النفوس البشرية.

وجاء كذلك: «إذا تمكن الشعب المختار يوماً أن ينشىء دولته اليهودية فستكون دون حدود لأن تحديد الدولة يفترض وجود مثالية لدى العرق الذي ينشئها، كما يفترض أن يكون مفهومه للعدل مبنياً على تقديرات صحيحة، وإذا فُقِد هذان الشرطان تخفق المحاولات لإيجاد دولة ذات حدود». فاليهود بحكم طبيعتهم ليسوا شعباً مثالياً، ولا هم يقدّرون العدل بوضع سليم، لأنهم عنصريون، وها هي «دولتهم» على كف عفريت وآيلة إلى السقوط بإذن الله.

جاء في الحديث الشريف: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتل المسلمون اليهود فيختبىء اليهودي وراء الشجر أو الحجر، فيقول يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي تعال فاقتلْه، إلا شجر الغرقد»[1].

وفي حديث موسى عليه السلام يقول: «أنا أعرف تمرّدكم، وقلوبكم الصلبة، إنكم بعد موتي تفسدون وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم، ويصيبكم الشر في آخر الأيام».

12 ـ عقدة الشعب المختار:

إن الحقد والأنانية والغيرة والكراهية التي تنبعث من نفوس الصهاينة

---

(1) رواه أبو هريرة.

جعلتهم ينظرون إلى باقي الشعوب على أنهم «جوييم»، وأنهم لا شيء في الوجود، وهم وحدهم الجيل الأفضل والعنصر الأمجد، وهم الشعب الذي اختاره الله وفضّله على العالمين، لذلك فهم يرتّبون تسلسل العرق والنسب، ويختارون من النسل ما يريدون، وفق ما يبتغون، منذ آدم عليه السلام حتى أبناء يعقوب، فهم يعتقدون أن آدم الأول، الذي خلقه الرب بنفسه كان كاملاً في غاية الكمال.. وقد ولد لآدم أبناء كثيرون كان أحسنهم (شيث)، وقد وقع عليه الخيار كي يستمر عنصر آدم الأول ويتكون منه شعب إسرائيل ـ حسب قولهم ـ وكان لـ (شيث) أبناء كثيرون كان أحسنهم (أنوش) الذي اختاره الرب لاستمرار نقاء العنصر... وهكذا حتى نوح، وكان لنوح ثلاثة أبناء كان أحسنهم (سام)، وكان أحسن أبناء سام (ارفخشاد) وأحسن أبنائه (شيلح) وهكذا حتى إبراهيم، فكان لإبراهيم ابنان: هما إسماعيل وإسحق، فوقع الخيار على إسحق. وكان أبناؤه عيسو ويعقوب، وكان يعقوب هو الأفضل، وهو الذي اختير لمواصلة نقاء العنصر، وكان أبناء يعقوب وهم الأسباط وكلّهم أخيار، ولا داعي لاختيار واحد منهم، فعنصر إسرائيل هو أنقى العناصر وأفخرها ـ على حد زعمهم ـ لأنه تكون عن طريق انتقاء الأفضل في كل جيل. ويقولون إن تربية شعب إسرائيل كانت أشرف تربية لأنها قامت على أيدي الأنبياء...

ومن المسلّم به أن شعباً يتولى تهذيبه أمثال هؤلاء الأفاضل لهو خير من باقي الشعوب على وجه الأرض. من هنا تولدت عندهم عقدة التفوق في العرق، والنزاهة في الحسب والنسب، والارتباط بهذه الذرية الطيبة. ولكن الحقيقة أن كثرة أنبياء اليهود دليل على ضلالتهم، وارتدادهم عن عبادة الله وعن الدين الحنيف بين الحين والآخر، وكلما كان يأتيهم نبيٌّ برسالة فإنما يكذبونه أو يقتلونه. يقولون: إن الفرق بين اليهودي وغيره كبير جداً، ولا وجه للمقارنة بينهما، فهما من مستويين مختلفين كلياً، ففي حين يجلس اليهودي في المرتبة العليا، وينحدر من الصنف الأسمى، تكون بقية الأمم في الدرك الأسفل، وتنحدر من الصنف الأدنى، حتى أن جسد اليهودي يختلف عن أجساد باقي البشر، وأرواحهم كذلك متميّزة..

ورد في كتاب «الجمارا» المقدس أن جسد اليهودي يختلف كلياً عن أجساد بقية الشعوب، وكذلك عن الأرواح، فأصل أرواح شعوب العالم هو من طبقات النجاسة الثلاث، بينما أصل أرواح بني إسرائيل هو من الروح المقدس بالذات. .

يقول برنار لازار: «لقد انعزل اليهود وراء جدران أحاط بها التوراة، حتى أصبح اليهودي ينعت نفسه بوصف خطير، فهو يزهو بامتياز توراته، الأمر الذي أدى أن يعد اليهودي نفسه نسيج وحده، وأن شعبه فوق الشعوب جميعاً»[1]. هذه هي معتقداتهم بأن «شعب إسرائيل هو صفوة الشعوب كلها، ويرجع ذلك إلى تمييز عنصره وتفوّق تربته وجودة مناخ البلاد التي نما فيها وتطور». فإذا كان كذلك فمعظمهم جاء من أرض الشتات، وفيها ولدوا، وفيها نموا وتطوروا جيلاً بعد جيل لعدة قرون خلت، فما البلاد التي تميزت بهذه السمات؟.

فالقسم الأعظم منها لم يولد على أرض «الميعاد» ولم تربطهم بها رابطة وليس لهم بها أي علاقة.

إن الديانة اليهودية تزعم أن اليهود انحدروا من سلالة واحدة هي سلالة إسرائيل، فلو صح هذا الزعم لتشابه اليهود في جميع أنحاء العالم، لأن الفروع يجب أن تشبه الأصول تشابهاً وراثياً، خاصة وأنهم منعزلون في بيئة مغلقة، لكن الحقيقة غير ذلك فمنهم اليهودي الأشقر ذو الشعر الأصفر ومنهم اليهودي الأسمر ذو الشعر الأجعد، مثل يهود الفلاشا القادمين من أثيوبيا، ومنهم الزنوج في جنوب الهند، ومنهم الصفر في بلاد الصين. وأما مصادر قدومهم فمتعددة بعدد بلدان الدنيا، ومعظمهم من مخلفات بحر الخزر اليهودية المنهارة. فأين وحدة الدم؟ وأين وحدة العرق النقي؟ . . .

إن معظمهم لا يعرفون آباءهم، لأن نقاء الدم والعرق يعود إلى أمهاتهم وليس إلى الآباء. . . إن اليهود في أوروبا من أصل أوروبي اعتنقوا الدين

(1) برنار لازار في كتابه اللاسامية الصادر عام (1894 م). . .

اليهودي على أيدي المبشرين اليهود، فاليهود الألمان ينتمون إلى الأصل الجرماني، وكذلك اليهودي الفرنسي والانكليزي والروسي والخزري، وهكذا...

فاليهود ليسوا من سلالة واحدة. بل هم ينحدرون من سلالات متعددة، وقد تفرقوا شيعاً في الأرض.

الباب الرابع عشر

النصرانية

1 ـ تمهيـد:

النصرانية ديانة سماوية منزلة، ظهرت بعد اليهودية على يد نبيها ومبلغ رسالتها المسيح عيسى بن مريم، جاءت لتكمل اليهودية إلا أنه دخل عليها مع الزمن تطور في المعتقدات والأفكار، وفي العبادات والطقوس، وهي منذ نشأتها ديانة توحيدية... فهي لم تعترف أصلاً بالوثنية الرومانية، ولا بالديانات الوثنية الأخرى، ولا بعبادة الامبراطور، ولا بعبادة مظاهر الطبيعة.. ومنذ أن ظهرت أخذت تدعو الناس كافة إلى عبدة الله وحده، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان، ولم تقتصر في دعوتها على اليهود وحدهم، كما فعلت اليهودية من قبل. بل كانت رسالة سلام ومحبة لجميع البشرية.

وقد رفض أتباعها عبادة الامبراطور والسجود العلني أمام تمثاله، أو تقديم القرابين، وغير ذلك. لهذا لاقوا اضطهاداً مريراً على أيدي الرومان لتعميم رسالتهم، تلك الرسالة التي تقوم على أساس المحبة والإخاء بين البشر بلا تمييز، ومن دون وجود طبقة اجتماعية مختارة أو مفضلة على أخرى. وتدعو إلى المساواة بين الناس، فالدين لم يكن لفئة دون أخرى، وقد تضمنت مبادؤه المثل العليا في الحياة، والدعوة إلى نبذ الأحقاد البشرية والكراهية، لذلك انضم إليها البؤساء والمستضعفون وزاد انتشارها عن طريق التبشير.. على الرغم من قصر

مدة دعوة السيد المسيح لها، حتى زاد عدد معتنقيها على 1200 مليون مسيحي . .

إن معظم ما جاءت به النصرانية هو عظات ونصائح وحكم وأمثال لترشد الضالين من اليهود إلى الإخلاص في عبادتهم لله وحده كما ورثوها عن موسى عليه السلام . . وقد آمنوا بأن المسيح آت لينقذهم مما هم عليه من الشر والظلم، وأن يحمل العدل والمحبة ويسود السلام العالم كله، لقد كان عيسى عليه السلام مصلحاً اجتماعياً، دعا الناس إلى الفضائل ونهاهم عن الرذائل، ولم يتعرّض للتوراة بالتغيير والتبديل . .

يقول «بولس» في رسائله إن عيسى جاء مخلّصاً للإنسان أينما كان، وليس لإنقاذ اليهود وحدهم ففي رسالته إلى أهل غلاطية يقول «لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع، لأنكم كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح، وقد لبستم المسيح، ليس يهودي، ولا روماني، ليس عبد ولا حر، ليس ذكر ولا أنثى، لأنكم جميعاً واحداً في المسيح يسوع»[1].

2 ـ المعتقدات المسيحية :

تقوم العقيدة المسيحية في جوهرها على أساس المحبة والسلام بين البشر «فالله محبة» . . ويتمثل ذلك بقول السيد المسيح عندما سئل عن أعظم وصايا الرب قائلاً : أن تحبَّ الربَّ إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك، هذه هي الوصية الأولى، والثانية مثلها هي : أن تحب قريبَك كنفسك، ليس وصية أخرى أعظم من هاتين» . . .

فقد ميّز في هذا القول بين حب الدنيا، وحب الآخرة، الذي عدّه مقياساً للإيمان في قلب كل مؤمن. يقول السيد المسيح : «لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة في قلب كل مؤمن، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد»[2].

(1) رسالة بولس إلى أهل غلاطية، الإصحاح 3.
(2) رواه سفيان الثوري.

ولهذا كان أتباع السيد المسيح أقرب الناس مودّة للذين آمنوا، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿ولتجدَنَّ أقرَبهم مودَّة لِلّذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى﴾[1].

وقد أخذت العقيدة المسيحية شكلها النهائي بعد السيد المسيح في القرن الرابع الميلادي، واستقرت على ما هي عليه، وهي تتلخص حسب الروايات المسيحية المتفق عليها كما ورد في كتاب: «سوسنة سليمان» لنوفل بن نعمة الله بن جرجس النصراني، الذي جاء فيه:

«تتلخص العقيدة المسيحية بالإيمان بإله واحد، أب واحد، ضابط الكل، خالق السماء والأرض كل ما يُرىٰ، وما لا يُرى وبرب واحد، يسوع الابن الوحيد المولود من الأب قبل الدّهور من نور الله، إله حقّ من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر الذي به كان كل شيء، والذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خطايانا نزل من السماء، وتجسد من الروح القُدس، ومن مريم العذراء نأنس، وصُلِبَ عنا على عهد بيلاطس، وتألم وقبر، وقام من الأموات في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء، وجلس على يمين الرب، المحيي المنبثق من الأب الذي هو مع الابن يسجد له ويمجّد، الناطق بالأنبياء» . . .

هذا هو جوهر العقيدة المسيحية، الذي يقوم باختصار على ثلاثة عناصر:

1 ـ التثليث، والإيمان بثلاثة أقانيم. .

2 ـ صلبُ المسيح فداء عن الخليقة، وقيامه من قبره، ورفعه. . .

3 ـ أنه يُدين الأحياء، والأموات، ويحاسبهم على أفعالهم. . .

لقدِ سارت المسيحية طريقها في التطور، حتى تكونت فكرتها عن الثالوث المقدس، الذي يعني: الله الأب، والله الابن، والله الروح القدس. . فإلى الأب ينتمي الخلق بواسطة الابن وإلى الابن الفداء، وإلى الروح القدس التطهير، وإن العلاقة بين الأب والابن ليست ولادة بشرية بل هي علاقة المحبة والاتحاد في الجوهر، وهم يعتقدون أن الإنسان أخطأ خطيئة كبرى، عندما

---

(1) سورة المائدة، آية: 82.

عصى آدم ربه في الجنة، فأخرجه الله منها عقوبة له، ثم أراد أن يُنقِذَه فأرسل «ابنه» منقذاً له، يفتدى خطيئته بدمه، وما صلْبُه وسفك دمه إلا فدية لخطيئة الإنسان الأولى والخطيئة تبقى مع الإنسان، وعليه أن يشارك بدم المسيح لكي يُنقِذَ نفسه، ومن هنا كان ما يسمّى بسرّ القربان المقدس، فإذا أكل الإنسان من القربان اشترك بدم المسيح وافتدى خطيئته الكبرى، وقد أسس المسيح كنيسته قبل أن «يُصلَب»، والكنيسة جماعة من المؤمنين يجمعهم إيمانهم بسر القربان المقدس، وإيمانهم بالمسيح، وبأنه ينقذهم من أخطائهم، وإيمانهم بحرية الإنسان في أفعاله.. وبأنه يُنقذ نفسه بتلك الأفعال وبأنه يتمتع بشفاعة القديسين.

وقد استمرت المسيحية في تطوّرها، واشتدت عقيدة أتباع المسيح وإيمانهم به لإنقاذ البشرية وخلاصِها يقول شارل غيبر في كتابه «النصرانية القديمة»: «إن أتباع المسيح رأوه بعد محاكمته، وبعد حكم الصلْب فيه، فاشتدت عقيدتهم به، وزاد إيمانهم به ورأوا أن الله مؤيّد له وأن له عنده منزلة كبيرة، وتمسكوا بالتبشير بدينه أكثر من ذي قبل، وتأصلت في نفوسهم فكرة عودة المسيح وأنه هو المسيح المذكور في التوراة».. وتكونت الديانة المسيحية مستقلة متمتعة بحريتها مع كنيسة ليست على اتفاق مع اليهودية، وقد عدّ المسيحيون أنفسهم جنساً جديداً متميزاً عن اليهود.. يقودهم السيد المسيح صاحب هذه العقيدة ومؤسسها، وهو الذي وضع قواعدها، وسنّ تشريعها فكل ما أمر به كان حقاً ويجب أن يُتَّبَع فهو رسول من عند الله، وما ينطِق عن الهوى..

وكان معظم أتباعه من الفقراء يقوم بعظتهم ونصحهم وإرشادهم في منطقة كنعان وكفرناحوم وقيصرية السامرية، وكان يبشر هؤلاء المساكين والمضطهدين، وقد ألقى السيد المسيح بجمع من الناس عند بحيرة الجليل «طبرية» في قرية كفرناحوم سنة 28 م موعظة سميت موعظة الجبل ذكر فيها أهم تعاليمه، وكشف لهم أن تعاليمه هذه تختلف عن تعاليم الكهنة والحاخامات الذين سبقوه من اليهود قال السيد المسيح في موعظته الخالدة كما ورد نصها في إنجيل متى:

«طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات، طوبى للحزانى لأنهم يتعزّون، طوبى للودعاء لأنهم يرثـون الأرض طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يُشبعون. طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون، طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله، طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يُدعَون، طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوتَ السموات، طوبى لكم إذا عيّروكم وطردوكم، وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجل كاذبين، افرحوا وتهلّلوا لأن أجركم عظيم في السموات، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم»[1].

ويتابع السيد المسيح وعظه وإرشاده لمن آمن به، واتّبعه في موعظة الجبل الخالد قائلاً: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس، أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمّل.. لقد سمعتم أنه قيل للقدماء: لا تقتل ومن قتل يكون مستوجب الحكم، وأما أنا فأقول لكم: إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم. وقد سمعتم أنه قيل للقدماء: لا تزن. وأما أنا فأقول لكم: إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه..

وقد سمعتم أنه قيل: عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً...

ولقد سمعتم أنه قيل: تحب قريبك، وتبغض عدوك، فأما أنا أقول لكم: أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم، ويطردونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات فإنه يُشرق شمسَه على الأشرار والصالحين ويُمطِر على الأبرار والظالمين، لأنكم إن أحببتم الذين يحبونكم، فأيّ أجر لكم؟ أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك؟ وإن سلّمتم على أخوتكم فقط، فأي فضل تصنعون؟ أليس العشّارون أيضاً يفعلون أيضاً هكذا؟ فكونوا أنتم كاملين، كما أن أباكم الذي في السموات كامل»[2].

هذا وعظ وإرشاد من رسول كريم، في منتهى الرفعة والتسامح وسمو

---

(1) متى: الإصحاح 5.

(2) متى: 5.

الأخلاق، فقد جاء ليعلّم البشرية المحبة والمسرة، ولينشر على الأرض السلام. لقد جاء مكملاً ومعدلاً لما جاء في ناموس موسى عليه السلام، ولكن من اتبعوه انحرفوا عن خط دعوته التوحيدية، وحرّفوا الكلام عن مواضعه، وادّعوا الإيمان. .

خاطب محمد ﷺ وفد نجران من النصارى الذين جاؤوا لمبايعته على الإسلام حينما دعاهم إلى الإسلام. . فأبوا وقالوا: نحن مسلمون قبلكم. . فقال رسول الله ﷺ لهم إنما يمنعكم من الإسلام ثلاثة: «عبادتكم للصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن لله ولداً. . .».

3 ـ العبادات في المسيحية:

تقوم المسيحية على ركنين من العبادات هما: الصلاة والصوم.

والصوم شرع اختياري وقد اختلفت فيه فرقهم المتعددة. .

أما الصلاة فهي أهم أركان الدين. لأنها تقربهم إلى الله عن طريق المسيح. فهم يردّدون كل يوم صلاة تدعى الصلاة الربانية، وهي الصلاة التي علمها الرب تلاميذه[1] وهي ثلاثة أقسام: دعاء، وطلبات وتمجيد. . كما ورد في إنجيل متى.

فالدعاء: هو «أبانا الذي في السماء» ينبّهنا إلى أننا أولاد الله وإخوة في الأرض التي نعمرها وأن السماء هي وطننا الحقيقي الذي يجب أن نرتقبه في الصلاة.

والطلبات: وهي قسمان: ثلاث منها تختص باسم الله وملكوته ومشيئته، وثلاث منها باحتياجات الإنسان الزمنية والروحية.

والتمجيد: هو القول: «لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد. .

---

(1) إنجيل متى: 6-9.

آمين»[1]. وتؤدى الصلاة كل يوم، وليس عليهم عدد معين من الصلاة يومياً، وليس لها مواقيت معلومة.. ويستحسن الإكثار منها على عكس اليهود الذين يقلّلون من الصلاة حتى لا يملّ منهم الرب...

وللصلاة شرطان هما: أن تقدم باسم المسيح[2]. وأن يسبق الصلاة الإيمان الكامل بما عندهم جاء في كتاب الأصول والفروع: «إن الدين قلب مقتنع بوجود الله الخالق، والحافظ والفادي، فتكون الصلاة ترجمان ذلك القلب يعبّر بها عمّا يخالجه من الأشواق والعواطف، فبالنظر لاقتناعه بقداسته، تكون الصلاة كلمات التعظيم والتسبيح له، وبالنسبة لاقتناعه بجوده وإحسانه، تكون الصلاة عبارات الشكر والحمد، وبالنسبة لوقوعنا في الخطيئة، تكون الصلاة كلمات التذلّل والتواضع والاستغفار، وبالنسبة للاحتياج إليه تعالى، تكون الصلاة طلباً ودعاء».

وللمسيحية شعائر يجب القيام بها، ولا يصح التخلي عنها، ويعدونها فرائض مقدسة وضعها المسيح مثل التعميد، والعشاء الرباني..

فالتعميد: كما يقول صاحب كتاب الأصول والفروع: «فريضة مقدسة يشار فيها بالغسل بالماء، باسم الأب والابن والروح القدس، إلى تطهير النفس من أدران الخطيئة بدم اليسوع المسيح، وهي ختم عهد النعمة، كما في الختان في الشريعة الموسوية. والمعمودية تدل على اعترافهم العلني بإيمانهم وطاعتهم للأب والابن والروح القدس، كإلههم ومعبودهم الوحيد، ولا يجوز أن يعمّده إلا إذا اعترفوا جهاراً أمام كنيسة الله». فهم لم يقبلوا بالختان لأنهم عدّوه من الأسباب التي نفّرت الناس من اعتناق المسيحية وقبلوا التعميد الذي هو التطهير بالماء المقدس..

أما العشاء الرباني: فكان عندما حان وقت «تناول فطر الفصح» في عيد

---

(1) قاموس الكتاب المقدس.

(2) يوحنا الإصحاح: 16.

(3) مرقس: 11.

الفصح اليهودي. حيث التقى يسوع بحوارييه الاثني عشر، في غرفة بالطابق العلوي في أحد بيوت القدس ليتناولوا معاً العشاء الأخير، وجلسوا جميعاً، وقال لهم يسوع: «شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألّم، ثم أخذ قطعة خبز فباركها وشطر منها جزءاً ناوله إلى حوارييه قائلاً لهم (خذوا كلوا هذا هو جسدي) ثم أخذ كأساً من النبيذ وقال لهم: (اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد، الذي يُسفَك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا). (الشكل 28).

لقد بارك يسوع الخبز والنبيذ خلال العشاء الأخير، وقدمهما إلى تلامذته على أنهما جَسدَهُ ودَمَهُ يقول صاحب كتاب الأصول والفروع في العشاء الرباني:

«هو فريضة رسمها المسيح في الليلة التي أسلم فيها الجسد، ويستعمل في هذه الفريضة قليل من الخبز والخمر، فيأخذ كل من المؤمنين لقمة من الخبز وقليلاً من الخمر على المثال الذي رسمه المسيح تذكاراً لموته، فالخبز يشير إلى جسده المكسور، والخمر إلى دمه المسفوك، فالمؤمنون الذين يشتركون في هذا العشاء يقبلون المسيح بالإيمان كالخبز الذي نزل من السماء، وكل من يأكل منه لا يجوع ولكنهم لا يقبلوا له طعاماً جسدياً بل طعاماً روحياً لحياة روحية لأجل النمو في النعمة والإيمان».

ويقول أيضاً: «ويشير العشاء الرباني إلى مجيء «المسيح الثاني» كما يشير إلى موته فيكون تذكاراً للماضي والمستقبل لقد علّم الناس التضحية والإيثار، فكانت أعماله دروساً تربوية مارسها ليقتدي به الآخرون لقد غسل أرجل تلاميذه في آخر لقاء معهم، ليعلّمهم كيف سيكونون معلّمين مثله.

4 ـ دعوة المسيح بدأت في المهد:

بدأت دعوة المسيح عيسى بن مريم، وهو لا يزال في المهد وكان أول كلام تفوّه به لما كان صبياً ما ذكره الله جل شأنه في كتابه الكريم على لسانه، قال: ﴿إني عبد الله، آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً، وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً، وبراً بوالدتي، ولم يجعلْني جباراً شقياً،

والسلام عليّ يوم ولِدتُ ويوم أموتُ ويوم أُبعثُ حيّاً﴾[1].

لقد أوحى الله إلى نبيه المرسل إنطاقاً وهو في المهد. وأوصاه بالصلاة والزكاة، وبارك فيه أينما كان وحيثما كان. . وأوحى إليه تبليغاً وهو في الثلاثين من عمره. بينما أوحى إلى معظم الأنبياء وهم في سن الأربعين، ويقال إن دعوته استمرت ثلاث سنوات وثلاثة أشهر وثلاثة أيام[2].

يقول «برنابا» في إنجيله: «ولما بلغ يسوع الثلاثين سنة من العمر، كما أخبرني بذلك نفسه، صعد إلى جبل الزيتون مع أمه ليجني زيتوناً، وبينما كان يصلي في الظهيرة إذا بنور باهر قد أحاط به، وجوق لا يُحصى من الملائكة كانوا يقولون ـ ليتمجّد الله ـ فقدم له الملاك جبريل كتاباً كأنه مرآة براقة، فنزل إلى قلب يسوع الذي عرف به ما فعل الله. وما قال الله. وما يريد الله، حتى أن كل شيء كان مكشوفاً له، ولما تجلّت هذه الرؤية ليسوع وعلم أنه نبيّ مرسل إلى بني إسرائيل، كاشفَ أمه مريم بكل ذلك، قائلاً لها: إنه يترتّب عليه احتمال اضطهاد عظيم لمجد الله. وإنه لا يقدر فيما بعد أن يقيم معها ويخدمها. فلما سمعت مريم هذا أجابت: يا بني إني نُبّئت بكل ذلك قبل أن تولد، فليتمجّد اسم الله القدوس»[3].

ومنذ ذلك اليوم انصرف يسوع عن أمه ليمارس وظيفته النبوية ويبلغ رسالته للبشرية، لقد أيده الله ببعض المعجزات التي لم تكن لغيره من الرسل، كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه، والأبرص، ونطقه السليم وهو في المهد من غير تعليمٍ سلف. . وكان يرى العجائب في صباه إلهاماً من الله تعالى.،

جاءته النبوة وهو في الثلاثين من عمره، عندما جاء عيسى إلى يوحنا بن زكريا «يحيى» إلى شاطىء نهر الأردن الذي كان يُعمّد الناس في ماء النهر، قبل أن يعظهم: إيماناً منه بأن الغطس في الماء المتدفق يغسل الآثام ويمحو الذنوب

---

(1) سورة مريم، آية: 30-33.
(2) الملل والنحل للشهرستاني (479-548 هـ).
(3) إنجيل برنابا.

ولذلك سُمّيَ يوحنا المعمدان. . قابله يسوع على شاطىء النهر قرب أريحا وهو يقول لأتباعه ومريديه: أنا أعمّدكم بالماء ولكن سيأتي بعدي من هو أقوى مني، ولست جديراً بأن أصل إلى درجة الانحناء لفك رباط حذائه، .ىو سيعمّدكم بالروح القدس وبالنار».

وعندما طلب منه يسوع أن يُعمّدَه تردّد يوحنا وهو يقول: «أنا الذي في حاجة إلى أن تعمّدني ثم تأتي إليّ؟». فكانت بداية النبوّة، يقول متى في إنجيله «فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء وإذا السموات قد انفتحت له، فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة، وآتياً عليه وصوت من السموات قائلاً: هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت»[1].

إن حياة النبوة عند المسيح لم تستمر أكثر من ثلاثة أعوام تقريباً، لكنها كانت مليئة بالأحداث السريعة إنها طريق الآلام التي أدّت إلى نهاية درامية محزنة.

وبعد الدعوة والتبليغ بدأ السيد المسيح بالصيام في البرية أربعين يوماً، لا يأكل فيها ولا يشرب يُصلّي ويتأمل، ويتفكر في خلق الله. . . ثم عاد إلى الجليل وأخذ يعظ عباد الله في الناصرة ثم توجه إلى كفرناحوم وبدأ يرشد الناس هناك. . وفي عزلته تجلى له الشيطان لكي يجرّبه ويثبت كفاءته كمخلص للبشرية ومُنقِذ لها، وبدأ يجري معه محاولات إغراء وتضليل، فكان المسيح صابراً مؤمناً، يعرف كيف يرد كيد الشيطان وإغراءاته وعروضه الدنيوية، فها هو يعرض عليه ممالك الدنيا وما فيها مقابل سجوده له وطاعته. . فهو يقول للمسيح: «وقال إبليس له: أي يسوع أعطيك هذه الدنيا جميعها إن خررت وسجدت لي». فيرد عليه بقلب مؤمن: «اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تَسجُد وإياه وحده نعبد، ثم تركه إبليس وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه»[2].

لقد انتصر يسوع على إبليس وإغراءاته، وهزمه وجنوده الضالين. . قال

---

(1) إنجيل متى: 3.
(2) إنجيل متى: 4.

يسوع لأمه وهو طفل: «يا مريم، أنا يسوع ابن الله، جئت كما أخبرك جبرائيل الذي أرسله أبي إليك، وقد أتيت لأخلص العالم»[1]. ثم بدأ خدمته الجهرية، ودعا تلاميذه الأوليين، وأظهر قوته الإلهية في تحويل الماء إلى خمر، وقد اتخذ كفرناحوم مركزاً لبث دعوته، ونشر رسالته لمدة عام من الزمن.. أعلن المسيح دعوته وخاطب بني إسرائيل جهاراً بأنه رسول الله إليهم، وأنه جاء مصدّقاً للتوراة ومكمّلاً لها.. وبشرهم بقدوم خاتم الأنبياء والمرسلين وسيدهم أجمعين محمد ﷺ، قال تعالى: **﴿وإذ قال عيسى بن مريم: يا بني إسرائيل، إني رسول الله إليكم، مصدقاً لما بين يدي من التوراة، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾**[2].

لقد جاء المسيح رسول الله وكلمتُه حاملاً معه رسالة الإسلام والمحبة، رسالة الإخاء والمساواة بين جميع الناس، ودعا إلى عبادة إلٰه الواحد الأحد، والإيمان به، بأنه الإله الحق وحده لا شريك له، مردّداً: الحمد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام. وفي الناس المسرة، هكذا قامت دعوته عليه السلام على أساس أنه لا توسّط بين الخالق والمخلوق.. فالأحبار والرهبان ليس لهم الوساطة بين الله وعباده وكل عبد يتصل بالله في عبادته بنفسه مباشرة.

وتقوم دعوته كذلك على الزهد في الحياة الدنيا. والإيمان باليوم الآخر الذي هو غاية الحياة، لقد جاء المسيح مكملاً لرسالة سلفه موسى عليه السلام ناشراً تعاليمه ومعتقداته. قال السيد المسيح: «أتيت لأكمل لا لأنقض».

لقد جاء لينقذ قومه من بني إسرائيل الضّالّين التائهين، المرتدين عن تعاليم الدين وليخلّصهم من الشتات والاضطهاد اللذيْن لحقا بهم.. وقد أخبر تلاميذه أنه لم يأتِ ليدين العالم، بل ليقدّم نفسَه فدية عن الكثيرين..

لقد كان يسوع رسولاً لكل العالمين، وكان صريحاً جريئاً في دعوته، فكان يهاجم الحكام من بني إسرائيل وحاخاماتهم، مبيّناً لهم أن البشر لا

---

(1) إنجيل الطفولية: الإصحاح الأول.

(2) سورة الصف، آية: 6.

يحصلون على السلام، إلا بصفاء النفوس والتّفاني في حب الآخرين، وحب الله والناس، ونكران الذات والمساواة بين كل البشر والحكم بينهم بالعـدل والتّفرغ لعبادة الله وحده، والتّخلي عن مَلّذات الدنيا وعبادة المال قائلاً لهم «لا تعبدوا ربّين: الله والمال»، وقد خلت توراتهم من ذكر اليوم الآخر وما يعقبه من نعيم أو جحيم.

فزاد حقد اليهود عليه وظلّوا يبيّتون له الغدر والمكيدة، ويغوون به رُعاع الناس، وسلطات روما، وعلى رأسها حاكم بيت المقدس الوالي «بيلاطُس البُنطي»، وقد رشوا يهوذا، أحد حواريّي عيسى ليخونه، ويدل عليه رجال الأمن الرومان الذين جاؤوا للقبض عليه..

ورد في إنجيل يوحنّا: «وقد ألقى الشيطان في قلب يهوذا سمعـان الأسخريوطي أن يسلمه»[1] وعن المسيح أنّ نهايته قد دنت، وعرف أن ما سيلقاه من عذاب إنما هو تضحية يكفّر بها عن ذنوب شعبه.. وكان العشاء الأخير بين حواريّيه الاثني عشر.

واقتيد المسيح إلى رئيس الكهنة الذي عقد اجتماعاً من الكهنة والشيوخ لمحاكمته، وكانوا قد عقدوا العزم على التخلص منه بعد محاكمة صورية أجراها الكهنوت اليهودي.. وأصدروا عليه الحكم بالموت قائلين فيه: خيـر لنا أن يموت إنسان واحد من الشعب، ولا تهلك الأمة كلها»..

وصدّق الوالي الروماني الحكم للتنفيذ عن غير رضا، وكانت طريقة الإعدام عندهم الموت صلْباً على الخشب.. كان ذلك في يوم الفصح على جبل الجلجثة[2] (انظر الشكل 29) حوالي عام 30 م، عندما «صُلِبَ» بين لصّيْن حُكِم عليهما أيضاً ـ كما تقول الروايات المسيحية ـ أما أتباعه، وتلاميذه فقد

(1) إنجيل يوحنا، آية: 13.

(2) جبل الجلجثة: موضع بالقرب من أورشليم خارج أسوار المدينة، وفي حدودها دفن وفيها صلب يسوع حسب الاعتقاد المسيحي ويعتقدون ذلك لوجود جماجم غير مدفونة، وربما لأن المنطقة كانت ساحة إعدام. «قاموس الكتاب المقدس».

خافوا ولم يحضروا عملية الإعدام على الصليب. . ومات المسيح، ثم بعث في اليوم الثالث من نومه، ومكث أربعين يوماً، ثم صعد إلى السماء أمام تلاميذه الذين عينهم لنشر دينه. وقد زارت بعض النسوة قبر المسيح في اليوم الثاني، ولم يجدْن الجثة. ورأت مريم المجدلية المسيح بكامل هيئته، ورآه غيرها أيضاً، واعتقدوا أنه أعيد إلى الحياة ثانيةً وبُعِث من جديد.

هذا ما ترويه الأناجيل في خاتمة السيد المسيح، بأنه مر في أواخر أيامه على الأرض بنهاية شنيعة ومأساة فظيعة ـ ما عدا إنجيل برنابا الذي قال غير ذلك ـ وجعلوا هذا الاعتقاد وهو صلْب المسيح أصلاً من أصول دينهم ودعامة من دعائم عقيدتهم. . . .

5 ـ الثالوث المقدّس «الأب، الابن، الروح القدس»:

تطورت المسيحية إلى أن تكونت فكرتها عن الثالوث المقدس، الذي يُعدّ جوهر العقيدة المسيحية. وهي أن الله الواحد له ثلاثة أقانيم «شخصيات» متساوية في الجوهر هي: الله الأب، والله الابن[1] والله الروح القدس. وهذه كلها واحد، فكلمة الله حلّت في مريم البتول وتجسّد منها إنسان وُلِد هو يسوع، فالأب: هو الذي خلق العالمين بوساطة الابن، والابْن هو الذي أتمّ الفداء وقام به، والروح القدس: هو الذي يطهّر القلب والحياة. . .

ولكن كيف تكونت هذه الفكرة؟ وما هي أسسها؟؟

لقد عرّف قانون الإيمان هذه العقيدة بالقول التالي: «نؤمن بإله واحد، الأب والابن والروح القدس إله واحد جوهر واحد، متساوين في القدرة والمجد»[1].

---

(1) الابن: أو ابن الله ورد في قاموس الكتاب المقدس أنه أطلق هذا اللقب على المسيا، وهو يدل على العلاقة بين الأب السماوي والابن الأزلي والمسيح بما أنه ابن الله فهو إله بكل الكمالات غير المحدودة التي للجوهر الإلهي، والابن مساوٍ لله في الطبيعة، فالمسيح ابن الله ليس من وجهة النظر الجسدية كما يفهم من كلمة «ولد» إنما يفهم به كتشبيه ليعبر عن مقدار المحبة والتعاون والتساوي في الطبيعة بين الأقنوم الأول والأقنوم الثاني في الثالوث الأقدس. .

يعتقد المسيحيون بوجود الله خالق كل شيء، لكنهم بعد أن رأوا معجزات السيد المسيح الكثيرة واعتقدوا أنه صُلِب، ثم ظهر ثانية، وهذه من خوارق الأمور، تكونت فكرة راسخة في نفوسهم عن مكانة المسيح وعن قدرته وقوته، فصاروا يبحثون عن طبيعة تكوينه وخصائصه معتقدين أنه لا مثيل له من حيث ولادته من غير أب، ولكنّ ذلك على الله هيّن.

قال تعالى: ﴿**إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**﴾[2]. وتكونت عندهم آراء مختلفة في القرن الرابع الميلادي، أهمها ثلاثة آراء هي:

1 ـ رأي الأب بولس الذي قال إن المسيح شخص سماوي نزل إلى الأرض وأنه روح الله وصورته..

2 ـ رأي اليوصفية: الذين قالوا إن المسيح هو كلمة الله، فهو إلٰه لأن الكلمة فيض من الله...

3 ـ رأي ثالث يقول إن المسيح ليس رجلاً إلا في ظاهره ومظهره..

وفي هذه الآراء الثلاثة إجماع على أن المسيح أكثر من بشر وأنه متصل بالله. ولنسمع قول الله فيهم: ﴿**يا أهل الكتاب لا تَغْلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلاَّ الحق. إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم، وروحٌ منه فآمِنوا بالله ورسله، ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد، سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً**﴾[3].

إن المسيحية متمّمة لليهودية. فهي ديانة توحيد، لأنها رسالة من السماء، لكن فكرة التثْليث هذه تتعارض مع فكرة وحدانية الله وهذا تناقض واضح في

---

(1) قاموس الكتاب المقدس..
(2) سورة آل عمران، آية: 59.
(3) سورة النساء، آية: 171.

الاعتقاد، وهي مشكلة معقّدة ظهرت أمام المسيحيين قبل القرن الرابع فكان عليهم إما الاعتقاد الكامل بوحدانية الله أو الاعتقاد المتناقض بأن الله ثالث ثلاثة. يقول غنيبر: «إن المسيحيين فضلوا الاعتقاد المتناقض على إهمال الثالوث، فقالوا: بإله واحد في ثلاثة، وهذه النتيجة عارضها اليهود المتنصرون في عهد المسيحية. هذا الجدل حول الثالوث المقدس، مزّق المسيحية إلى فرق متعددة، مع أنه لا يوجد أي دليل على أن رسل السيد المسيح سمعوا منه شيئاً عن الثالوث أو على الأقل سمعوا شيئاً عن ذلك من سيدهم نفسه.. وكذلك لا يقول عيسى كلمة واحدة عن عبادة والدته مريم..»[1].

وقد جاء ذلك في كتاب الله المجيد عندما سأله قائلاً: **﴿وإذ قال الله: يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتّخذوني وأمي إلٰهيْن من دون الله؟ قال سبحانك ما يكون لي أن أقولَ ما ليس لي بحق. إن كنتُ قلتُه فقد علمتَه، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علامُ الغيوب﴾**[2]. فالله تعالى وحده المتجلّي على عباده وخلقه لا شريك له في ملكه، وما الأنبياء والرسل من عهد آدم إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ إلاّ بشر يأتمرون بأوامرُ الله بوساطة وحي من عنده وكل ما عدا ذلك فهو باطل، بل يعد كفراً وإلحاداً..

لقد جاء المسيح ليقود الناس في طريق السلام، ويهديهم إلى الصراط المستقيم، وهو حاضرٌ معهم حضور الله الأزلي الدائم، ومتى اجتمع عدد من المسيحيين وكانت نيّتُهم صافية كان الروح القدس معهم. واستناداً إلى هذا الوعد من السيد المسيح عُدّ روح القدس مبدأ إلٰهياً دائماً حاضراً يعمل للمسيحية وللكنيسة المسيحية.

يحدّث الإنجيل عن المسيح بوجود روح القدس، ويصفه بأنه مُعزّ وأنه روح الحقيقة. يقول: «وأما المُعزّي الروح القدس الذي سيرسله الأبّ باسمي فهو يعلّمكم كل شيء ويذكّركم بكل ما قلتُه لكم»[3].

---

(1) من كتاب ويلز «معالم تاريخ الإنسانية».

(2) سورة المائدة، آية: 116.

(3) إنجيل يوحنا: 14.

وتتفق كل المبادىء المسيحية تقريباً على وجود روح القدس شاهداً أزلياً بين المسيحيين. .[1].

وتتلخص رسالة السيد المسيح بثلاثة مبادىء. . هي:

1 ـ إن المسيح كان يؤمن بالتوراة الموسوية، وإنه جاء مصدّقاً لِما بين يديه منها، ولم يكن يهدف إلى تأسيس دين جديد، ينقض اليهودية، بل جاء ليصدّقه ويتمّمه. . إلا أنه نبذ كل ما يخالف فكرة الدين التوحيدية الأصلية، وأغفل من كتبهم كل ما هو غير مقبول أو غير معقول، مما يدل على ضيق فكرهم وعدم تعمق فهمهم لأصول دينهم. .

2 ـ إن المسيح كان يقول بأن الله أب للناس جميعاً يحبهم كلهم بقدر متساوٍ وأنه رسوله لكل البشرية، دون تمييز، على عكس اليهودية التي اعتقد أتباعها بأنهم شعب الله المختار وأن الله إلههم وحدهم.

3 ـ إن المسيح كان يبشر بمجيء ملكوت الله، قاصداً بذلك السلام، والصفاء التام، والمحبة بين الناس، لكن اليهود فهموا من ذلك مجيء ملك وعرش وسلطان ينازعهم، فلم يؤيدوه بدعوته، فحاربوه وعذبوه، وزعموا أنهم قتلوه، كما قتلوا غيره من الأنبياء والرسل. ألا ساء ما يفعلون.

6 ـ انتشار الديانة المسيحية:

إن الأتباع الأوائل للسيد المسيح، كانوا قلة من اليهود، الذين آمنوا بقرب ظهور المهدي المنتظر أو المسيح المرتقب، وكانوا يعدون أنفسهم فئة متميزة في الدين اليهودي القديم.

وأنهم لا ينتمون إلى دين جديد مستقل إلى أن انتشرت المسيحية بين اليهود وغير اليهود حتى أخذت تشكل ديناً مستقلاً قائماً بذاته، منفصلاً عن اليهودية ومتميزاً عنها. . وعندما رفع المسيح حوالي عام 30 م كان عدد المؤمنين

---

(1) تاريخ الأديان د. يوسف العش، و د. محمد الزحيلي. .

بالمسيحية لا يتجاوز المائة والعشرين، كان أبرزهم: الحواريّون الإثنا عشر والتلاميذ الإثنان والسبعون، الذين راحوا يكرزون يسوع مسيحاً مما أغاظ مجمّع اليهود عليهم، وعدهم خارجين على الله والناموس، فقبض على الرسل، وقُتِلوا أمام المجمع اليهودي، وجُلِدوا بلا رحمة ولم يتراجعوا عن الكرازة.. واستمروا في تبشيرهم بالدين الجديد وحصروا نشاطهم بادىء الأمر في فلسطين، بلد السيد المسيح عملاً بوصية «المعلم» الذي قال لهم: «إلى طريق الأمم لا تمضوا بل اذهبوا إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة».

ولما توطّد العمل، وسّعوا نطاق التبشير، متجاوزين حدود البلدان والأمم، عندما أمرهم المسيح بقوله: «اذهبوا إلى العالم أجمع، واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلّها».

وفي خاتمة إنجيل متّى جاء على لسان السيد المسيح: «إني أرسلكم إلى الأمم، كما أرسلني أبي إليكم فاذهبوا، وادْعوا الأمم، باسم الأب، والابن، والروح القدس».

وقد تضاعف عدد الأتباع والمريدين في فلسطين مهد المسيح، ولكن حادثة موت استفانوس[1] أحد الرسل رجْماً بالحجارة على يد اليهود، أثرت في المسيحيين الذين لاقوا الظلم والاضطهاد، فاضطروا إلى الفرار من أورشليم القدس، حيث لجأوا إلى لبنان وسورية، والبادية وآسيا الصغرى واليونان وغيرها. وحلّ الاضطهاد بالرسل والتلاميذ، فقصدوا أنطاكية حيث لحق بهم بطرس الرسول في 45 م وفيها عُرِف المسيحيون بهذا الاسم أول مرة. وبعد مئة عام من رفع يسوع، انتشرت المسيحية في أرجاء واسعة من العالم، وزاد عدد المسيحيين، وأصبح كل منهم يَعُدّ نفسه مبشراً يقوم بنشر الدين الجديد في العالم..

---

(1) استفنوس: أول شهداء المسيحية، اسمه يوناني، لذلك فهو هيليني، أي أنه يهودي، تكلم اليونانية وكان واحداً من سبعة عُرِفوا بأول شمامسة في الكنيسة المسيحية، وهو مؤمن بالروح القدس وكان ينادي بالرسالة، اتهمه اليهود زورا بأنه كان يجدف على الله وعلى موسى فقتلوه.

7 ـ الاضطهاد المسيحي:

تغلغلت المسيحية في روما، إلاّ أنها لاقت أثناء انتشارها اضطهاداً واسعاً من الأباطرة والناس هناك، ومن اليهود الذين كانوا يشجعون على ذلك الاضطهاد ويقومون به، ويحرّضون الأباطرة على اضطهاد المسيحيين وذبْحهم أينما كانوا، وليس أدلّ على ذلك من قتل أصحاب الأخدود في نجران.

وأشد ما نزل بهم من أذى كان في عهد نيرون 64 م الذي أنزل بهم العذاب والبلاء، واتّهمهم بحرق روما فعاقبهم.. وفي عهد تراجان 106 م الذي أمر بمنع الاجتماعات السرية لقيام الصلاة وأنزل بهم الذل والعذاب، وكان أول مرسوم امبراطوري اضطُهِد النصارى بموجبه في القرن الثالث هو المرسوم الذي صدر في عهد الامبراطور سبتيموس سيفروس 192-211 م.

وكان أشد الأباطرة خطراً على النصارى، الامبراطور «ديكيوس 249-251 م» الذي يُروىٰ عنه بأن ضحاياه من المسيحيين زادوا على 12 مليون نسمة، ومع ذلك استمر انتشار المسيحية باضطراد، بالرغم من تعنّت سلطات روما وتعذيب من اعتنق المسيحية بالموت أو بالارتداد إلى الوثنية، وذلك بشتْم يسوع أو السجود للامبراطور، وكان المؤمنون منهم يضحّون بأنفسهم، ويفضّلون الموت على الردّة إلى الوثنية وبذلك دخلت المسيحية إلى بلاط الأباطرة أنفسهم..

وممن قاوم انتشار المسيحية الإمبراطور «دقلديانوس 284-305 م» الذي حكم على العديد من رجال الدين المسيحي بالتعذيب وبالإعدام، ويذكر التاريخ عنه «بأن عماله قطعوا الأنوف والآذان والألسن، وغرزوا القصب تحت الأظافر، ودقّوا الحديد في البطون».

لقد حل بهم العذاب الأليم لرفضهم الانخراط في جيش روما الوثني: وتذكر روايات التاريخ أن عدد الذين قُتِلوا في عهده من الأقباط تجاوز ثلاثمائة ألف إنسان، ولشدة بطشه في مصر جعلوه مبدأ تقويمهم في 284 م.

كل ذلك كان بتحريض من اليهود، لإنزال أشد العذاب في كل من يعتنق الدين الجديد. وفي عهد الإمبراطور قسطنطين كلوروس 306-337 م أعطاهم بعض الحرّية الدينية، وخفّف عنهم الاضطهاد والعذاب، وظهر بعض المدافعين عن المسيحية فقالوا «إنّ المسيحيين يعيشون على الأرض، أما مملكتهم فهي في السماء، إنهم يحترمون القوانين الموضوعة، لكنهم يتجاوزون في حياتهم عدالة هذه القوانين» وفي سنة 313 م أصدر الإمبراطور المذكور مرسوم «ميلان»، الذي أقر مبدأ حرّية العقيدة، وسمح بموجبه للناس باعتناق المسيحية دون خوف من أحد، وتوقف الاضطهاد ضدّهم، وأصبحت المسيحية ديناً رسمياً للدولة. وفي سنة 319 م أصدر مرسوماً آخر أعفى بموجبه رجال الإكليروس من جميع الواجبات المترتّبة عليهم كمواطنين رومان من أجل التفرغ والانصراف إلى ممارسة واجباتهم الكهنوتية. وبعد ذلك توالت الاعترافات بالمسيحية وأقيمت الكنائس، وكُتِبت الأناجيل، وتُرجِمت، وتقهقرت الوثنية أمام انتشار المسيحية ديانة التوحيد والمحبة والسلام. وأصبحت المسيحية ديناً رسمياً لروما، أكبر ديانات الشرق، وأكثرهما تلبية لأماني وآمال الناس، وخاصة المستضعفين منهم، الذين هوت قلوبهم إليها واعتنقوها فسادت المحبة والمساواة بين الناس واختفت التفرقة العنصرية أو الجنسية التي جاء بها اليهود، ثم انتقلت المسيحية إلى شمال افريقية، وإلى غرب أوروبة وشرقها، ثم إلى روسيا وإلى أوروبة الشمالية[1] في القرن 13 م، حتى عم انتشارها عن طريق الموجات الاستعمارية إلى البلدان المغلوبة، وبعدها بدأ النزاع بين المسيحيين أنفسهم، وظهرت حركات الإصلاح الديني، وتعدّدت الطوائف والفرق وأخذت تنشر كل واحدة منها اعتقادها الخاص ومذهبها المستقل، حيث افترقت النصرانية إلى اثنتين وسبعين فرقة، أكبرها ثلاثة هي: الملكانية، والنسطورية، واليعقوبية.

وتشعبت منها: الاليانية، والبليارسية، والمقانوسية، والسبالية، والبوطينوسية، إلى سائر الفرق الأخرى وقد أقيم العديد من الكنائس المسيحية تجتمع في ثلاث كبرى هي:

---

(1) الملل والنحل: أحمد الشهرستاني.

الكنيسة الأرثوذكسية، والكاثوليكية، والبروتستانتية. . كما توجد كنائس أخرى أقل أهمية وأقل انتشاراً.

8 ـ مريم[1] العذراء «البتول»:

هي ابنة عمران، من سلالة داوود، من سبط يهوذا، اصطفاها الله وطهّرها وفضّلها على نساء العالمين. . فهي من منبت طيب وأصلٍ كريم، وقد كان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه. . وكانت أمُّها (حنة بنت فاقود بن قبيل) من العابدات المؤمنات. قال تعالى: **﴿يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوءٍ، وما كانت أُمُّك بَغِيّا﴾**[2].

وقد نشأت نشأة طهر وعفاف، بعيدة عن الرذيلة والاسفاف، وكانت أمها قد نذرتها لخدمة هيكل الرب الذي تقبلها بقبول حسن، وأنبتها منبتاً كريماً. . وكانت عناية الله تكلؤها وترعاها. فهو يرسل لها من رزقه كل يوم قوتها بغير حساب، وكفلها النبي زكريا[3] وقد اختارها الله لتكون أُمّاً لكلمته المتجسدة، وكانت مخطوبة ليوسف بن يعقوب النجار، أحد أقاربها. .

وقد أرسل الله تعالى جبريل إليها ليخبرها بأنه سيكون لها غلام زكي، وأنها ستصبح أمّاً. . فأخذتها الدهشة، إذ كيف يكون لها ولد وهي عذراء ولم يمْسَسْها بشر. إلا أن جبريل عليه السلام أدخل الطمأنينة إلى قلبها الحائر الخائف، بأن الله على كل شيء قدير وهو عليه هيِّن.

فقد خلق الله جل شأنه آدم قبله من طين، فكيف لا يخلق إنساناً من إنسان؟. . فالله قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء. وبشرها جبريل باسم ابنها وهو المسيح عيسى ابن مريم، وأنه سيكون وجيهاً في الدنيا والآخرة، ومن المقرّبين، ومن علامات نبوته وصدقه أنه يكلّم الناس في المهد وكهلاً، وأن الله

---

(1) مريم: اسم عبري معناه «عصيان» كما ورد في قاموس الكتاب المقدس.
(2) سورة مريم، آية: 28.
(3) النبي زكريا: زوج خالتها اليصابات أم يوحنا المعمدان المسمى في القرآن يحيى. .

سيعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة، ويعطيه البشارة «الإنجيل» وسيكون آية للناس على قدرته ورحمة من الله لعباده ليهديهم إلى الصراط المستقيم من بعد ضلالهم وليخرجهم من الظلمات إلى النور، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين ويكلّم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين﴾[1]. وحملت مريم العذراء بيسوع بمجرد أن نفخ فيها جبريل وأدخل إلى نفسها الأمان قائلاً لها: قال ﴿إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً. قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغيّاً، قال كذلك قال ربُّك هو علي هيّن﴾[2] ولقد كاشفت خطيبها يوسف النجار بالإلهام الإلهي، وصُعِقَ لهَول الخبر الذي لم يكن يصدقه لولا ثقته المطْلَقة بمريم التي نذرت نفسها لخدمة الهيكل ولعبادة الله. وقد رأى ملاك الرب في المنام يخاطبه بقوله: (يا يوسف بن داوود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك لأن الذي حُبِلَ به هو من الروح القدس فستلد ابناً وتدعوه يسوع لأنه يخلّص شعبه من خطاياهم)[3].

وقد عاتبه ملاك الرب عندما حاول الابتعاد عن مريم قائلاً: «لماذا عزمت على إبعاد امرأتك؟ اعلم أنه ما كُوّن فيها إنما هو بمشيئة الله فستلد العذراء ابناً وستدعونه يسوع، تمنع عنه الخمر والمسكر وكل لحم نجس، لأنه قدّوس الله من رحم أمه، فإنه نبيّ من الله، أرسِل إلى شعب إسرائيل، ليحول يهوذا إلى قلبه، ويسلك إسرائيل في شريعة الرب، كما هو مكتوب في ناموس موسى، وسيجيء بقوة عظيمة يمنحها الله له، وسيأتي بآيات عظيمة تفضي إلى خلاص كثيرين» وهكذا فقد جاءها المخاض كعادة النساء ولجأت إلى جذع النخلة فولدت عيسى من غير أب. . وقد وُضِع بعد ولادته في مزود للبقر. حيث ولدته أمه لعدم وجود بيت يأويها في بيت لحم. كما تدّعي كتبهم. ولكنها إرادة الله، وكان الرّعاة غائبين مع ماشيتهم في الرعي، فكانت كلمة الله، ومعجزته

---

(1) سورة آل عمران، آية: 45-46.

(2) سورة مريم، آية: 19-21.

(3) إنجيل متى: الاصحاح الأول. .

الخارقة، وقد أُقيمَت كنيسة بيت لحم على موضع ولادته فيما بعد، والتي أُطلِق عليها اسم كنيسة المهْد، وهي موضع إجلال وتقديس لدى كافة الطوائف المسيحية.

وأما مدّة الحمل، فقد اختلف الرّواة في تحديدها، فمنهم من قال: ـ تسعة أشهر كباقي النساء. ـ وهو الرأي الأرجح. ـ ومنهم من قال: ثمانية أشهر، ـ ومنهم من قال: عدة ساعات. والله أعلم. وكذلك عن عُمْر مريم حيث جاءت بالمسيح، يقول البيضاوي في تفسيره: إنـه كان عمرها (13) سنة ويقال إنها عشرين سنـة، وإنها حاضت قبل الحمل مرتين فقط. والله بذلك عليم..

لقد جاء المسيح الرسول من أم صالحة صدّيقة طاهرة، ذكرها جل شأنه في كتابه وابنها في مواضع متعدّدة، قال تعالى: **﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبلِه الرّسل وأمّه صِدّيقة﴾**[1] وفي الأخبار عن سيد البشر أنه قال: «كل مولود من بني آدم يمسه الشيطان بإصبعه، إلا مريم بنت عمران، وابنها عيسى»[2].

إن ولادة عيسى من غير أب، معجزة خارقة من معجزات الله، وآية فائقة من آياته البيّنات التي تدل على عظمة الخالق، وقدرته سبحانه وتعالى، وقد ظلّت مريم بعد عيسى خمس سنين وماتت وعمرها (53) سنة تقريباً. رضي الله عنها وأرضاها...

9 ـ المسيح رسول السلام:

عيسى بن مريم: هو عبد الله، وكلمته، ألقاها إلى مريم، وروحه، وهو النبي المبعوث برسالة بعد موسى وقد بشرت التوراة بمجيئه، وهو خاتم أنبياء الله ورسله من بني إسرائيل، وقد بشرهم بقدوم خاتم الأنبياء والرّسل من بعده، قال تعالى: **﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدّقاً**

---

(1) سورة المائدة، آية: 75.

(2) رواه أبو هريرة.

لما بين يدي من التوراة ومبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾[1].

وكان بنو إسرائيل ينتظرون مجيئه لينقذهم من ضلالهم من جيل إلى جيل، وتجدد الوعد به إلى أن بشّر بقدومه يوحنا المعمدان في (6) كانون الثاني عام (27) ميلادية . .

إن عيسى معجزة الله في خلقه، وفي نبوته، وكانت له آيات بيّنات، ودلائل ظاهرات ومعجزات باهرات وقد اختلف المسيحيون في نسبه، كما ورد في إنجيل متّى، وإنجيل لوقا، المنفردين بذكر النسب، والاختلاف بينهما واضح[2].

وُلِدَ يسوع في بيت لحم في فلسطين: (مهد الأنبياء سنة 4 أو 5 ق. م). تقريباً، عندما كانت أمّه مريم بصحبة خطيبها يوسف النجار، الذي أنزلها في إحدى الحظائر في مدينة بيت لحم حيث وَضَعَت طفلَها هناك، وقد لاحظ الرعاة في المدينة نوراً باهراً. . وإذا بملاك الرب يخاطبهم قائلاً: «لا تخافوا، فها أنا أبشركم بفرح عظيم، يكون لجميع الشعب، أنه وُلِدَ لكم اليوم في مدينة داوود مخلّص هو المسيح، وهذه لكم العلامة، تجدون طفلاً مُقمّطاً مُضطجِعاً في مِزود». ذهب الرعاة إلى المكان المقصود، فوجدوا الطفل بالمزود، وكان أمْرُ الله . .

كان هيرودس ملكاً على اليهود في ذلك الحين بأمرٍ من قيصر أوغسطوس، امبراطور الرومان الذين احتلّوا فلسطين في ذلك الزمان، وقد علم بولادته من حكماء المجوس ثلاثة، جاؤوا إلى أورشليم لعبادة المسيح «ملك اليهود في المستقبل». فأمر هيرودس الملك العجوز الظالم بقتل كل طفل يولد في بيت لحم، خوفاً على عرشه، وكان ملكاً شديداً، وهو في السبعين من عمره، يحب المُلْك ويخشى ضياعه، فكان يثور غضبه بمجرد أحاديث الناس عن مجيء المسيح من نسل داوود الذي سيصبح ملكاً على اليهود، ولذلك قرر التخلّص

---

(1) سورة الصف، آية: 6.

(2) ارجع إلى العهد الجديد.

منه، فبدأ بقتل كل مولود ذكر في بيت لحم وفي كل تخومها من ابن سنتين فما دون. . .

ورد في إنجيل متى بأن الله أمر يوسف النجار وهو في المنام بأن يأخذ الطفل إلى مصر، خوفاً عليه وحماية له، يقول متّى: «فقام يوسف وأخذ الصبيّ وأمه ليلاً، وانصرف إلى مصر، وبقي هناك إلى وفاة هيرودس»[1]. ويُعتَقدُ أن مكان استقرارهما في مصر كان عين شمس، أو حيث الدير المحرق، ولم يطل بهما المقام فبعد أن أقاموا بضعة أشهر اعتزموا الرحيل بناء على أوامر الربّ. يتابع متّى حديثه قائلاً: «فلما مات هيرودس، إذا ملاك الرب قد ظهر في حلم ليوسف في مصر قائلاً: قمْ وَخُذْ الصبي وأمّه إلى أرض إسرائيل، لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبيّ، فقام وأخذ الصبيّ وأمه إلى أرض إسرائيل ولكن لما سمع أن أرخيلاوس يملك على اليهودية عوضاً عن هيرودس أبيه، خاف أن يذهب إلى هناك، وإذ أوحي إليه في حُلْم، انصرف إلى نواحي الجليل. . وأتى وسكن في مدينة يقال لها ناصرة، لكي يتم ما قيل بالأنبياء، إنه سيدعى ناصرياً»[2].

إن حياة عيسى المسيح من طفولته إلى شبابه كانت حياة عادية كأي إنسان، إلا أ نها كانت حياة مثالية كاملة كما أرادها الله فقد بدأت في معجزة، وانتهت بمعجزة. . لقد ختن المسيح لما مرت ثمانية أيام من ولادته، وترعرع في مدينة الناصرة حتى السابعة من عمره. . ولما بلغ اثني عشر عاماً، صعد مع أمهِ مريم ويوسف إلى أورشليم للحج في عيد الفصح، ليسجد هناك حسب شريعة الرب المكتوبة في توراة موسى، وقد علمه الله الكتاب والحكمة وما جاء في التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿**وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل**﴾[3]. وذهب إلى الهيكل في القدس وخالط العلماء، وأخذ يردّ على

(1) متّى: 2.
(2) متّى: 2.
(3) سورة المائدة، آية: 110.

حججهم ويجيب على أسئلتهم بحكمة وبلاغة وحصافة رأي، ثم عاد مع أمّه إلى الناصرة ومكث فيها. . ولم تتضح فترة حياته منذ كان عمره اثنتي عشرة سنة إلى أن بلغ من العمر تسعة وعشرين عاماً، فلم تذكر نشاطاته بشكل بيّن وإن كانت بعض الإشارات تدل على أنه قضاها في الناصرة مع أمّه بعد أن مات يوسف، ثم انتقلت أمُّه من الناصرة إلى «كانا» موطنها الأصلي، حيث اشتغل بحرفة النجارة التي تعلّمها عن يوسف النجار. وبقي حتى جاءه الوحي وبدأت الرسالة، وبدأ يبشر بالروح وحجْر الملذات الدنيوية. التي غمرت النفوس، ويدعو إلى عبادة الله وهو في الثلاثين من عمره، حتى رُفِع إلى السماء وهو في الثالثة والثلاثين من عمره.

كان السيد المسيح يحمل خطايا البشرية، مع أنه بلا خطيئة، وقد أيده الله بمعجزات بدء من ولادته من غير أب، حتى رفعه إلى جوارهِ[1]، وقد خلق سبحانه وتعالى على يديه طيراً من الطين وأحيا الموتى على يديه، وأبرأ الأكمه والأبرص، وأنزل المائدة التي طلبها الحواريون من السماء، وأنبأ بأمور غائبة عن حسه البشري ولم يعاينها[2]. . .

وفي فترة من حياته يذكر بعض الباحثين الأوروبيين أن السيد المسيح ذهب إلى الهند، وتلقى تعاليم بوذا وأخذ آداب البوذية، وبعض معتقدات الهندوسية مستندين في ذلك إلى تطابق الوصف الذي ورد لكل من كريشنة، وبوذا، والمسيح. .

وفي مجمل القول أن عيسى عليه السلام نبيّ من بني إسرائيل، جاء لهداية البشر جميعهم، ولينقذهم مما هم فيه من ظلمات وخطايا، وارتداد وعبادة أوثان، وكان لليهود انتشار واسع في امبراطورية الرومان، وكان لهم تأثير واضح، فقد ناصبه أحبار اليهود العداء وبيّنوا له الغدر والمكيدة، وتآمروا عليه فخافت أمُّه عليه وهربت به بوحي من الله لها أن تنطلق به إلى ربوة تأويه. قال

---

(1) راجع سورة المائدة. . .

(2) سورة آل عمران.

تعالى: ﴿وجعلنا ابن مريم وأمَّه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾[1].

وقد اختلف المفسرون في المقصود بهذه الربوة الموصوفة بقوله تعالى، فمنهم من قال إنه المكان الذي وَلَدت فيه المسيح، وقيل إنها الرملة في فلسطين، وقيل إنها دمشق، ولكن الأرجح أنها مصر على نحو ما بيّناه...

نشأ عيسى ابن مريم نشأة طيبة، وكان غيوراً على الدّين منذ صغره، حريصاً على تفهّم أحكامه، وتعاليمه، ودرس العهد القديم، وكان يجالس العلماء ويناقشهم ويتفوق عليهم ويسائلهم ويجيب على تساؤلاتهم بحجج بالغة وإجابات دامغة، وكانت ولادته آية من آيات الله الخالق، وكانت رسالته معجزة خارقة من معجزات الله العظيم.. يقول لوقا: «وأما يسوع فكان يتقدّم في الحكمة والقامة والنّعمة عند الله والناس»[2] لقد اصطفى الله من النساء مريم، وألقى إليها كلمته وروحاً منه... فماذا قال عنها اليهود ومن هم في حكمهم؟؟؟..

اتّهم اليهود مريم بالزّنا والبُهتان، وكانوا يسمّونه ابن البغيّة، لقد كفروا في قولهم، يقول جل شأنه: ﴿وبكفْرهم وقوْلهم على مريم بُهتاناً عظيماً﴾[3]. وقالت فئة منهم أنه هو الله، وكانوا بذلك كافرين.. وقال غيرهم إنه ابن الله، وكانوا أيضاً كافرين.. قال تعالى: ﴿وقالت اليهود عُزيْر ابن الله وقالت النّصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم﴾[4].

وفي هذا القول إشراك بالله، إنه ما اتخذ صاحبة ولا ولداً، سبحانه عمّا يصفون.

وقالوا عن المسيح بأنه ثالث ثلاثة وفي هذا القول كُفْر بالله أيضاً.. قال تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالثُ ثلاثة وما من إله إلاّ إله واحد﴾[5]

---

1) سورة المؤمنون، آية: 50.
2) إنجيل لوقا: الاصحاح 2.
3) سورة النساء، آية: 156.
4) سورة التوبة، آية: 30.
5) سورة المائدة، آية: 73.

والمراد بذلك قولهم بالأقانيم الثلاثة: اقنوم الأب، واقنوم الابن، واقنوم الكلمة المنبعثة من الأب إلى الإبن وهي روح القدس.

وقد أنذرهم الله بكفرهم من عذاب أليم قال تعالى: ﴿**فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم**﴾[1] تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً..

ولكن الذين آمنوا بالله ورسوله قالوا إن المسيح هو عبد الله ورسوله وابن أَمَتِه، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، أولئك هم المؤمنون الصّادقون. قال تعالى: ﴿**والتي احْصَنتْ فرْجَها فنفخْنا فيها مِنْ روحِنا، وجعلْناها وابنَها آية للعالمين**﴾[2].

نعم لقد كانت ولادة المسيح معجزة، وحياته معجزة، ونهايته معجزة خارقة، تدل على قدرة الخالق وعظمته، وقد لاقى العناء الشديد في سبيل دعوته، وتحمّل العذاب، ومشى على طريق الآلام، ودعا الناس إلى كل عمل عظيم، وإلى نُكران تام لذاتهم، ودعا إلى بعث جديد في عالم يسوده الحب والإخاء والمساواة بين الناس، كل الناس، رضي الله عنه.. وأرضاه..

10 ـ رأي الإسلام في كلمة الله وروحه:

يعتقد المسلمون بأن عيسى هو رسول الله، وعبد الله، وكلمة ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن مريم بنت عمران نشأت على الطهر والعفة، والبعد عن الدنس، تكلؤها عناية الله ورعايته منذ ولاتها، ولما بلغت مبلغ النساء أرسل الله إليها الملك جبريل على صورة فتى، وأعلمها أنه مرسل من عند الله ليهب لها غلاماً زكياً، فحملت به وولدته، فجاء المسيح ليكون رسولاً للبشرية من عند الله، وإنه ليس إلٰهاً ولا ابناً للإلٰه.. ﴿**إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**﴾[3].

---

(1) سورة مريم، آية: 37.
(2) سورة الأنبياء، آية: 91.
(3) سورة آل عمران، آية: 59.

ورد في القرآن الكريم توضيح لهذا الحدث في مواضع كثيرة منه لأهميته وعظمته، قال تعالى: **﴿يا أهل الكتاب لا تغْلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلاّ الحق، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فآمِنوا بالله ورسلِه، ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيراً لكم، إنما الله إلٰه واحد، سبحانه، أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض، وكفى بالله وكيلاً﴾** (1).

لقد سأله الله جل شأنه مستفسراً وهو خير العارفين، ودار حوار بين الله الخالق القوي، وعبده الضعيف الفقير إلى الله، هل يدّعي الألوهية؟.

جاء في قوله تعالى: **﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم، أأنت قلْت للناس اتّخذوني وأمي إلٰهين من دون الله، قال سبحانك، ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما نفسي، ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علام الغيوب، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به: أن اعبدوا الله ربّي وربّكم، وكنتُ عليهم شهيداً ما دمت فيهم، فلما توفّيْتني كنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم، وأنتَ على كل شيء شهيد﴾** (2). فعيسى لم يكن إلٰهاً ولم يكن ابن إلٰه، ولم يدّع الألوهية يوماً، وهو العبد الصادق المخلص الذي يدعو إلى عبادة الله وحده من دون تثنية ولا تثليث، هذا بشرع الإسلام وعُرْفِه، بينما المسيحيون يؤمنون بتجسد المسيح وباتحاد طبيعتي اللاّهوت والنّاسوت فيه، وأنه هو الله تجسّد في صورة البشر..

قال رسول الله ﷺ في رسالته إلى النجاشي امبراطور الحبشة: «.. وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونفخه، كما خلّق آدم بيده ونفخه.. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له..» صدق رسول الله.

هذا هو رأي الرسالة المحمديّة في أن الله واحد لا شريك له، وأنه لم

---

(1) سورة النساء، آية: 171.

(2) سورة المائدة، آية: 116.

يتّخذ له صاحبة ولا ولَداً، وأن عيسى واحد من أنبياء الله ورسله بعثَه الله لهداية البشر جميعهم إلى عبادة إلٰه واحد. . .

11 ـ مقارنة بين المسيحية والديانات الأخرى:

يعتقد المسيحيون في المسيح ما يعتقده الهنود في كريشنه الهندوسي، وما يعتقده البوذيون في بوذا. ومن خلال مقارنة أقوالهم يظهر التشابه في أصولهم الثلاثة ومعتقداتهم ونورد بعض القول هنا لمعرفة ذلك وللمزيد من المعلومات نعود إلى كتاب الشيخ محمد أبو زهرة «محاضرات في مقارنات الأديان ـ الجزء الأول، مأخوذة من كتاب «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية» الذي أجرى صاحبه مقارنة بين الأقوال الثلاثة، وهذه الأقوال تقاربت إلى درجة المطابقة شبه التامة. .

* يقول الهنود الوثنيون في كريشنة «ابن الله»:

1 ـ كريشنة: هو المخلص والفادي والمعزي والراعي الصالح والوسيط، وابن الله، والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس، وهو الأب والابن وروح القدس. . .

2 ـ لقد مجّد الملائكة «ديفاكي» والدة كريشنة ابن الله، وقالوا: يحق للكوْن بأن يفاخر بابن هذه الطاهرة. . .

* ويقول المسيحيون في يسوع «ابن الله» القول نفسه:

1 ـ يسوع المسيح: «هو المخلص والفادي والمعزي والراعي الصالح والوسيط، وابن الله، والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس، وهو الأب والابن وروح القدس. .».

2 ـ دخل الملاك على مريم العذراء والدة يسوع، وقال لها سلام لك أيها المنعم عليها، الرب معك.

* ويقول الهنود في بوذا «ابن الله»:

1 ـ كان تجسد بوذا بوساطة حلول روح القدس على العذراء «مايا».

2 ـ لمّا نزل بوذا من مقعد الأرواح، ودخل في جسد العذراء مايا صار رحمها كالبلور الشفاف النقي، وظهر بوذا فيه كزهرة جميلة..

* ويقول المسيحيون في المسيح ابن الله القول نفسه:

1 ـ كان تجسّد يسوع المسيح بوساطة حلول الروح القدس على العذراء «مريم».

2 ـ لمّا نزل يسوع المسيح من مقعده السّماوي، ودخل في جسد مريم العذراء صار رحمها كالبلور الشفاف النقي، وظهر فيها يسوع كزهرة جميلة.. وإذا عدنا إلى تاريخ كل من البرهمية والبوذية لوجدناهما أسبق من النصرانية بكثير. فمن الأصل؟ ومن الفرع؟ ومن المشتق؟ ومن المشتق منه؟.

12 ـ الإنجيل المقدس «البشارة»:

كتاب منزل من عند الله على المسيح عليه السلام، تضمن الهدى والنّور وقول الحق بالدعوة إلى وحدانية الله، وقد أهاب بني إسرائيل الضالين، الرجوع إلى عبادة الله وحده..

وقد جاء متمماً لتوراة موسى عليه السلام، بشّر به الرسل والمبشرون ولكن، أين هذا الإنجيل المنزل من عند الله؟. إنه غير متداول الآن، ولا وجود له بين الكتب المسيحية التي يعدونها مقدسة...

قال تعالى: **﴿وآتيناه الإنجيل فيه هدىً ونور، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين﴾**[1].

وبدون هذا الإنجيل فهم ليسوا على شيء، لأن فيه شريعة السماء، وتعاليم الرب رب العالمين، جاء في قوله تعالى: **﴿قل يا أهل الكتاب لستم**

(1) سورة المائدة، آية: 46.

على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل، وما أنزل إليكم من ربكم﴾[1].

فالإنجيل الذي أنزل على السيد المسيح، والذي سلمه بدوره إلى حوارييه وتلاميذه، وأمرهم أن يبشّروا به، غير موجود بين أيديهم.. فقد هجره الناس على مرّ الزمان، وترتب على ذلك ضياعه أو نسيانه، ولذلك قام تلامذة المسيح وغيرهم بتأليف الكثير من الأناجيل بشكل قصصي، يزيد عددها على مئة إنجيل، منها أناجيل غير قانونية، وأخرى غير مشروعة، مثل أناجيل الناصريين وأناجيل العبرانيين وأناجيل المصريين، وإنجيل توما، وإنجيل برنابا، وبعض الرسائل الدينية الأخرى، وقد تعرضت هذه الأناجيل إلى التحريف والتكرار، والتناقض والزيادة والنقصان، لذلك لا يعمل بها على مستوى الكنيسة وهي أشد اختلافاً وأكثر تفاوتاً من التوراة...

أما الأناجيل القانونية فهي التي أقرّتها المجامع الكنسيّة وذوو السلطان فيها، حيث اتفقوا على عدد من الكتب، عدوها صادقة صحيحة، لأنها تحتوي على شهادات الرسل عن حياة المسيح وتعاليمه، وهي التي تعبر عن دينهم وعقيدتهم، فأقرّوها، وهي أربعة أناجيل هي:

إنجيل متّى، إنجيل مرقس، إنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا. إضافة إلى بعض أعمال الرسل، مثل رسائل بولس، ورسالة يعقوب، ورسائل بطرس الرسول، ورسائل يوحنا الرسول، ورسالة يهوذا ورؤيا يوحنا اللاهوتي، وما عداها فهي أناجيل مزيّفة ومزّورة، وغير صحيحة، وبالتالي فهي غير مشروعة، ولا يؤخذ بها، وغير معترف بها رسمياً.

إن هذه الأناجيل المتداولة تقص أخبار السيد المسيح وسيرته، في أحواله وأقواله وأفعاله.. سجلها أتباعه بعد وفاته بإلهام صادق وبشكل صحيح، وأول من ذكر هذه الأناجيل الأربعة «آرينيوس» في سنة (209 م)، ثم جاء بعده «كليمنس اسكندريانوس» في سنة (216 م) وقد دلت بعض الإشارات الواردة في هذه الأناجيل المعترف بها وبخاصة رسائل بولس على أن السيد المسيح كان

---

(1) سورة المائدة، آية: 68.

يتكلّم عن إنجيل منزل خاص به حيث يقول: «.. ولكن إن كان انجيلنا مكتوماً فإنما هو مكتوم في الهالكين»[1].

وتتفق هذه الأناجيل في بعض أقوال وأعمال السيد المسيح وخاصة منها: إنجيل متّى، ومرقس ولوقا، وتسمى الأناجيل المتشابهة، وتختلف في مواقف كثيرة أيضاً. ولعل هذه الاضطرابات في الأناجيل أنها دوّنت في عصور اضطهاد المسيحية الأولى التي استمرت مدة (313 سنة)، ويقرّ مناظروهم بأن هذه الاضطهادات كانت سبباً في فقدان سندها المتصل بصاحب الشريعة.

إن هذه الأناجيل التي أصبحت رسمية فيما بعد لم تعرف إلا في عصر متأ- ر على الرغم من أنها كُتِبت في بداية القرن الثاني. يقول كولمان: «إن المبشرين لم يكونوا إلا متحدثين باسم الجماعة المسيحية الأولى التي تثبت التراث الشفهي، فقد بقي الإنجيل طيلة ثلاثين أو أربعين سنة في شكله الشفهي فقط»[2]. ويتابع حديثه قائلاً: «إن احتياجات التبشير والتعليم والممارسة الدينية هي التي دعت الجماعة الأولى إلى تثبيت هذا التراث عن المسيح بأكثر من اهتمامها بتسجيل حياة المسيح ذاته».

إن أول الكتابات المتداولة قبل الأناجيل هي رسائل بولس التي كُتبت قبل ذلك بعشرات السنين، وأنه قبل عام (140 م) لم يكن هناك ما يدل على وجود كتابات إنجيلية صادقة.

إن الأناجيل المذكورة تكاد تخلو من النقاط النهائية التي وصلت إليها العقيدة المسيحية على حد قول «ويلز» في كتابه «معالم تاريخ الإنسانية» حيث يقول: «هنالك أمر ثابت، هو أننا لا نجد في الأناجيل شيئاً تقريباً يثبت ما تؤكّده النصوص اللاهوتية، مما يشكل في مجموعه دين المسيحية، فلا يوجد في أي

(1) رسالة بولس كورنثيوس.
(2) كولمان في كتابه العهد الجديد.

موضع منها بصورة صريحة ما يثبت بوضوح المذاهب التي يعدّها كل المبشرين من شتى الفِرق ضرورية للسلام، ومن العسير أن نجد كلمة واحدة خرجت من فم المسيح يمكن أن تدل على أنه كان يعدّ نفسه مسيح اليهود، أو أنه كان يعتقد بأنه يشارك في الألوهية . . ». وقد جاء في إنجيل متّى على لسان المسيح: «ولا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السموات، ولا تدعوا معلمين لأن معلمكم واحد، المسيح»[1].

إلاّ أن النصارى خالفوا أحكام التوراة والإنجيل بتشريعات وضعوها لأنفسهم، من ذلك: تحويل صلاتهم جهة الشرق لأنها مطلع الكواكب النيِّرة، وتصويرهم في كنائسهم صوراً آدمية، وتركهم الخِتان، ونقلهم صيامَهم إلى فصل الربيع، وزيادته إلى خمسين يوماً، وأكلهم لحم الخنزير واتباع الرهبانية، وتحريم الزواج لمن أراد التعبّد، واتباع القوانين التي وضعها أساقفهم ورهبانهم في زمن قسطنطين الامبراطور، وكثرت أعيادهم بسبب عظمائهم، وكثرت كنائسهم على أسماء عبادهم، فقد بُني في أيام قسطنطين بالشام وغيرها من المدائن والقرى أكثر من اثنتي عشر ألف كنيسة، وتفاقم كفرهم، وغلظت مصيبتهم، وتخلّد ضلالهم، وعظم وبالهم، ولم يهدِ الله قلوبهم ولا يصلح بالهم، بل صرف قلوبهم عن الحق وأمالها عن الاستقامة. . ثم اجتمعوا في النّسطورية واليعقوبية، وكل فرقة من هؤلاء تكفّر الأخرى، وكلهم يقول في الأقانيم الثلاثة: أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الكلمة. . ولكن بينهم اختلاف في الحلول والاتحاد، فيما بين اللاهوت والناسوت، هل تدرعه، أو حلّ فيه، أو اتحد به؟. . واختلافهم في ذلك شديد. .[2].

الأناجيل الأربعة:

هي كتب ذُكرت فيها ترجمة حياة السيد المسيح وأقواله وأفعاله وتعاليمه، وأقرّت بوحدانية الخالق الأب السماوي لجميع البشرية والعمل بأوامره،

---

(1) متى 33.

(2) ابن كثير في البداية والنهاية.

واجتناب نواهيه، وحسن المعاملة بين الناس والتواضع والابتعاد عن الكبرياء والتعدي، وتأمر بالبذل في سبيل الخير وعدم الاهتمام بالحياة الدنيا ومباهجها. وأنه مرسل من عند الله، ليخلّص النـاس من الخطيئـة، وليمنحهم طريق الخلاص، والسعادة بعد الموت وقد وُضِعت هذه الكتب بعد رفعه إلى السماء بفترة من الزمن حيث ظهر منها ثلاثة في بادىء الأمر كتبها: متّى ومرقس ولوقا، وهذه الأناجيل ترجع إلى مصدر واحد وتستقي من معين واحد، وقد كتبت بإلهام صحيح من الله، فهي صحيحة على حد قول رجال الكهنوت المسيحي بالرغم من وجود بعض الاختلافات في ما بينها مما يدل على أنها ليست من الوحي أو الإلهام الرّباني.

ولو أن هذه الاختلافات ليست في جوهر العقيدة وإنما في التفاصيل، فقد تشابهت هذه الأناجيل الثلاثة في أكثر من (330) آية مشتركة بينها، وهي لم تتكلّم عن ألوهية المسيح، ولم ترمز إليها بشيء، حتى جاء إنجيل يوحنا، ليتحدث عن ألوهية المسيح وعن العقيدة المسيحية التي يؤمن بها المسيحيون اليوم، وإن كان هناك رأي يقول بأن يوحنا ليس هو كاتب الإنجيل المسمى باسمه وقد عاش حتى (100) ميلادية تقريباً. وقد اختلفوا فيمن كتب لهم هذه الأناجيل، يقول القس إبراهيم سعيد: «كُتب إنجيل لوقا لليونان، وإنجيل متّى لليهود، وإنجيل مرقس للرومان، وإنجيل يوحنا للكنيسة العامة..» وهذه الأناجيل هي:

(أ) **إنجيل متّى**: متّى من الاسم العبري «مثتياه» ويعني عطية يَهْوَىٰ.. يقع في ثمانية وعشرين إصحاحاً، ويحتل المكانة الأولى عند المسيحيين، ويُعدّ امتداداً لكتاب «العهد القديم»، وهو أول الأناجيل وأقدمها عندهم، جاء فيه أن المسيح «يكمّل تاريخ إسرائيل»، وفيه يرجع نسب عيسى إلى إبراهيم عن طريق داوود عليهم السلام. وهو إنجيل طائفة يهودية ـ مسيحية، يوجه فيه المسيح تعاليمه إلى شعبه، ويقول للحواريين: «إلى طريق الوثنيين لا تمضوا، وإلى مدينةٍ للسّامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا إلى خِراف بيت إسرائيل الضّالة»[1]. وفيه

---

(1) متّى:.10.

يخبر أن عيسى المسيح جاء لهداية بني إسرائيل الضّالين عن الهداية والحق، يقول متّى: «ولم أُرسَل إلى خراف بيت إسرائيل الضّالة»[1]. بل يدعو متّى في خاتمة إنجيله كل الأمم، فيصدر أوامره إلى حوارييه قائلاً: «اذهبوا، وتلمِذوا جميع الأمم»[2] فمن هو متّى؟. اسمه: لاوى بن حلفي، كان يعمل جابياً للضرائب في قرية كفر ناحوم من أعمال الجليل عندما دعاه السيد المسيح ليجعل منه أحد تلامذته الاثني عشر.

وهو يهودي كتب إنجيله بالعبرانية، أو الآرامية في أورشليم «القدس». ثم تُرجِم إلى اليونانية بين (60-65 م). وهو متبحّر في الكتب المقدسة والرسالة اليهودية، وهو يحترم ويقدّر الرؤساء من اليهود، وهو أستاذ في فن التدريب، وفي شرح أقوال المسيح لمستمعيه، وهو معلّم حاذق كما يقول: «يُخرِجُ من كَنْزِه جديداً وقديماً»[3].

وفي الترجمة المسكونية جاء عن أصل هذا الإنجيل ما يلي: «يُقدَّر غالباً أن إنجيل متّى قد كُتِب في سوريا وربّما بأنطاكية أو فينيقية، ففي هذه المناطق كان يعيش عدد كبير من اليهود».

ويقال إن هذا الإنجيل كُتِب بعد رفع المسيح بثمان سنين أي حوالي تسع وثلاثين ميلادية وهو أمر غير مؤكد.. قال جيروم: «إن متّى كتب الإنجيل باللسان العبري في أرض يهودية للمؤمنين من اليهود».. استقر متّى في أواخر حياته في بلاد الحبشة التي قضى فيها نحو ثلاث وعشرين سنة يدعو للمسيحية ويبشّر بها، وقد توفي فيها، في سنة (70 م) على أثر ضرب مبرّح أنزله به أحد أعوان ملك الحبشة.. وفي رواية أخرى أنه طُعِن برمح في سنة (62 م) بالحبشة توفي على أثرها....

(ب) **إنجيل مرقس**: وهو أقصر الأناجيل الأربعة، يقع في ستة عشر

---

(1) متّى: 15.
(2) متّى: 28.
(3) متّى: 13.

إصحاحاً، كُتب اللغة اليونانية، وهو كتاب حرّره تلميذ لأحد الحواريين واسمه يوحنا وهو من السبعين، وليس من الحواريين يقول عنه الأب روجيه: «إن مرقس كاتب غير حاذق، وهو أكثر المبشرين ابتذالاً، فهو لا يعرف أبداً كيف يحرر حكاية». ويقول عنه بطرس قرماج: «إن مرقس كان يهودياً لاوياً، وهو تلميذ لبطرس، صنف إنجيله بطلب أهل رومية، أنكر الألوهية للمسيح هو وأستاذه بطرس الحواري، مات مقتولاً في سجن الإسكندرية سنة (68 م) حيث قتله الوثنيون»[1].

لقد اتخذ مرقس مصر مستقراً له للتبشير بدينه، حتى مات..

إن الكتّاب المحدثين يعدّون خاتمة هذا الإنجيل في الإصحاح السادس عشر مؤلفاً مضافاً إليه، وهي لا تنتسب إلى مرقس وإنما هي مستخرجة من أناجيل أخرى، وقد اختُلف في تاريخ تأليفه، ويُعتقد أنه كُتِب بتدبير بطرس ما بين 61-68 م. يقول ابن البطريق: «وفي عصر نيرون قيصر، كتب بطرس رئيس الحواريين إنجيل مرقس، عن مرقس في مدينة رومية، ونسب إلى مرقس». ولكن أربينوس يقول عكس ذلك: «إن مرقس كتب إنجيله بعد موت بطرس وبولس»..

(جـ) إنجيل لوقا: يقع في أربعة وعشرين إصحاحاً، كُتب بلغة يونانية راقية، وهو إنجيل أدبي جيد، انفرد بذكر طفولة السيد المسيح، وقد أعطى نسباً مختلفاً عما جاء في إنجيل متّى، كُتِب حوالي 60 م وربما بعد ذلك، حرّره لوقا وهو كاتب روائي حقيقي. وحسب رأي الباحثين فيه أنه كاتب حوليّات، وهو وثني آمن بالمسيحية، ويُعتقد أنه كان طبيباً ناجحاً، وهو من أهل أنطاكية ومنهم من قال إنه من إيطاليا، ولم يرَ المسيح أصلاً، لُقِّنَ النصرانية عن بولس وعمل معه، وبولس كان يهودياً، متعصّباً على المسيحية، ولم يرَ المسيح في حياته، وكان يسيء كثيراً إلى النصارى، ثم اعتنق النصرانية..

يذكر الأب كانينجر: «لوقا هو أكثر كتّاب الأناجيل الأربعة إرهافاً في

---

(1) كتاب مروج الأخبار في تراجم الأبرار لبطرس قرماج..

الحسّ وأكثرهم ميلاً للأدب، إنه يتمتع بكل صفات الكاتب الروائي الحقيقي. ويرجح الدكتور بوست أنه كُتِب في قيصرية في فلسطين مدة أسر بولس سنة (58-60 م)..

(د) إنجيل يوحنا: يقع في واحد وعشرين إصحاحاً، وهو مختلف عن الأناجيل الثلاثة السابقة له، حُرِّرَ في نهاية القرن الأول. وله ثلاث رسائل أخرى، كتبه يوحنا بن زبيدي الصياد، وهو أحد الحواريين، وُلِد في بيت صيدا من الجليل، وأمّه «سالومة» كانت فاضلة نقية، وكان يحبه المسيح كثيراً، حتى سمّاه «التلميذ الحبيب».

يروي يوحنا في إنجيله قصة ظهور المسيح بعد قيامته، وربما ساهم في كتابة هذا الإنجيل أكثر من كاتب واحد، وهو يتميّز بذكر بعض الأحداث التي لم ترد في الأناجيل الثلاثة السابقة، وقد جاء ليكمّل ما لم يُكْتب في هذه الأناجيل، فكتب عن ألوهية المسيح التي لم تذكر عند غيره من قبل، مع أن هذه الألوهية هي أصل الدين عند النصارى.. كتبه يوحنا في أفسس بعد انتشار الأناجيل الأخرى واستمر في تبشيره في أفسس حتى توفي شيخاً هرماً في 98 م، وكان يوحنا يهودياً من فلسطين، من أقواله في الألوهية: «أما هذه فقد كُتِبَت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله، ولكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه»[1]..

(هـ) إنجيل برنابا: اسم آرامي معناه (ابن الوعظ) وهو لاوي من قبرص. يذكر في إنجيله ترجمة عن حياة المسيح، وعن أعماله وأقواله، يمتاز ببلاغته ودقة تعبيره، وقوة تصويره، وسموّ تفكيره، بشر باقتراب ملكوت السموات، يعده رجال الكهنوت المسيحي بأنه إنجيل منحول، لأنه يخالف رأي الكنيسة ولا يتفق مع الكتب المسيحية في كثير من المواقف الدينية الجوهرية، وبخاصة قضية الثالوث وقضية الصلب وألوهية المسيح، وقوله أن الذبيح الذي تقدم به إبراهيم الخليل للفداء، هو إسماعيل وليس إسحق كما تدعي التوراة، وقوله إن المسيح أو مسيا المنتظر هو محمد ﷺ.

---

(1) يوحنا: 20.

فهو لم يذكر أن المسيح لم يُصلَب، ولم يُقتَل ولكن شُبِّهَ لهم، حيث أنه كان مع أصحابه يوم جاء طالِبوه، ثم دخل هو ويهوذا الاسخريوطي غرفة مجاورة، خرج منها يهوذا وكانت هيئته تشبه هيئة المسيح، وصار أصحابه يدعونه باسم المسيح، وهو يقول لهم: أنا لست المسيح، أنا يهوذا.. وهو يسأل عن المسيح أين ذهب؟ ثم أتى طالِبوا المسيح، وألقوا القبض عليه وصُلِب بدلاً منه. قال فيه على لسان يسوع: «الحق أقول لكم أني لم أمت، بل يهوذا الخائن».

وذكر فيه أن المسيح ليس إلٰهاً، ولا ابن إلٰه، إنما هو كسائر البشر. يقول برنابا: «قال يسوع إني أشهَد أمام السماء، وأشهِد كل ساكن على الأرض أني بريء من كل ما قاله الناس عني، من أني أعظم من بشر، لأني بشر مولود من امرأة، وعرضة لحكم الله أعيش كسائر البشر عرضة للشقاء العام»..

وقد جاء فيه بعض الأفكار والمعتقدات المطابقة للعقيدة الإسلامية، فهو يذكر قصة إسماعيل الذبيح المُفتدى وليس إسحق يقول: فكلّم الله إبراهيم قائلاً: «خذ ابنك بكرك واصعد الجبل لتقدّمه ذبيحة» وقد صرح في التبشير باسم النبي محمد ﷺ، وقال عنه إنه رسول الله، وقال إن آدم عليه السلام لمّا طُرِد من الجنة رأى سطوراً كُتِبت فوق بابها بأحرف من نور «لا إلٰه إلا الله، محمد رسول الله» لذلك يرى النصارى أن مؤلف هذا الإنجيل في القرون الوسطى قد انتحل اسم برنابا باطلاً، وهو نصراني اعتنق الإسلام فأيّده.. وقد اكتشف هذا الإنجيل عام 1709 م بنسخته الإيطالية، ويعتقد أنها النسخة الأصلية والصحيحة لإنجيل برنابا، ويعدّه رجال الكهنوت المسيحي مزيّفاً وغير معمول به رسمياً..

13 ـ الحواريون والرسل:

اختار المسيح من بين تلاميذه وأتباعه اثني عشر رجلاً ليكونوا تلاميذه المقربين، وكان أولهم بطرس وأخوه أندراوس، وكان له سبعون رسولاً آخرون، علّمهم ودرّبهم ليكونوا رُسلاً له، ولمّا انفرد بهم وسألهم: «وأنتم من تقولون أني أنا»[1] أجابه بطرس نيابة عن جميع الرسل قائلاً: «أنت هو المسيح ابن الله

.15-16

الحيّ» فبدأ المسيح منذ ذلك الحين يُعِد تلاميذه للحادثة التي تنتظرهم في أورشليم وخاطبهم قائلاً: «أقيموا في أورشليم حتى تلبسوا قوة من الأعالي، واذهبوا وتلْمِذوا جميع الأمم، وعمّدوهم باسم الأب والابن والروح القدس وعلّموهم جميع ما أوصيتكم به، وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر».

وفي هذا دليل أكيد على أن السيد المسيح رُفِع إلى السماء، وهو لا يزال حيًا يباركهم حتى انقضاء الدهر وهكذا فقد أقام هؤلاء الرسل في أورشليم، وصعدوا إلى جبل الزيتون، وأقاموا الصلاة وعبدوا الله، وزاد الأتباع يوماً بعد يوم، فخاف الكهنة اليهود وقبضوا على بطرس وغيره من الرسل والأتباع. وجلدوهم وعذّبوهم في السجون بسبب عقيدتهم. وقد بلّغ المسيح رسالته إلى تلاميذه، وقال لهم في إحدى وصاياه «ها أنا أرسلكم كغنم في وسط ذئاب، فكونوا حكماء كالحيّات وبُسطاء كالحمام. ولكن احذروا من الناس لأنهم سيسلّمونكم إلى مجالس وفي مجامع يجلدونكم وتُساقون أمام وُلاةٍ وملوك من أجلي شهادة لهم وللأمم»[1] إلا أن بعض الحاخامات اليهود حاولوا إنقاذ زعماء المسيحيين قائلين «تنحّوا عن هؤلاء الناس ودعوهم وشأنهم، فإذا كان عملهم وتعاليمهم هي تعاليم البشر انتهت إلى لا شيء. أما إذا كانت من عند الله كما يدّعون فإنكم لا تستطيعون القضاء عليها».

وقد وردت أسماء الحواريين الاثني عشر في إنجيل متّى مرتّبين كما يلي: «وأما أسماء الاثني عشر رسولاً فهي هذه: الأول سمعان الذي يقال له بطرس، وأندراوس أخوه، يعقوب بن زيدي، ويوحنا أخوه، فيلُبّس، وبَرْتولماوس، توما، متّى العشّار، يعقوب بن حَلْفي، ولبّاوس الملقب تدّاوس، سمعان القانوني، ويهوذا الأسخريوطي الذي أسْلَمه»[2]. هؤلاء هم أقرب المقربين إلى المسيح وهم أنصاره إلى الله، فكانوا أول من آمن به، واقتفى أثره. وقد ذكرهم الله تعالى في كتابه العزيز حيث قال: ﴿وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمِنوا بي

---

(1) متّى: 10.
(2) متّى: 10.

وبرسولي قالوا آمنا وأشهد بأنّا مسلمون﴾[1]. فالحواريون كانوا مسلمين بعقيدتهم وتفكيرهم، فقد آمنوا بالله ورسوله، وعملوا بوصاياه، وامتثلوا أوامره، لأنهم أحبوه وصدّقوه، بينما كذّبه اليهود، ونعتوه بأقذع الكلمات، ورفضه أبناء قومه وأهل بلده، ولهذا قال عليه السلام: لا كرامة لنبي في أرضه..

ويذكر جل شأنه الحواريين في موضع آخر من كتابه الكريم، يؤكد فيه على أن الحواريين كانوا مسلمين قال تعالى: **﴿فلمّا أحسَّ عيسى منهم الكفر قال: من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله، آمنّا بالله، واشهد بأنّا مسلمون﴾**[2].

يقول يوحنا على لسان يسوع: «إن كنتم تحبّونني، فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزّياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد»[3]. ويبين لنا قصده من المعزّي فيقول في موضع آخر: «وأما المعزّي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، ويذكّركم بكل ما قلته لكم»[4]. وقد فرّق كتابهم المقدس بين التلاميذ وأخوة الرب، فقد ذكر في العهد الجديد أسماء أربعة هم: «يعقوب، ويوسي، وسمعان، ويهوذا، وقد ذكر أنهم أخوة الرب»[5]. فهل آمن هؤلاء الأخوة برسالة المسيح؟؟.

يقول يوحنا: «وحتى نهاية خدمته لم يكونوا قد آمنوا به بعد»[6]. ويقول متّى: «ومرة فيما كان يسوع يكلّم الجمع جاءت أمّه وأخوته طالبين أن يكلموه»[7]. وربما كان هؤلاء الإخوة الأربعة أولاد مريم من يوسف بعد أن ولدت ابنها البكر يسوع، وهي عذراء. أو أنهم أخوته، أي أولاد يوسف من زوجة

---

(1) سورة المائدة، آية: 111.
(2) سورة آل عمران، آية: 52.
(3) يوحنا: 14.
(4) يوحنا: 14.
(5) متّى: 13.
(6) يوحنا: 7.
(7) متّى: 12.

أخرى قبل أن يخطب مريم العذراء.. والرأي الأخير هو الأكثر قبولاً وتصديقاً...

14 ـ قصة التلميذ الشبيه بعيسى المسيح:

تقول الروايات الدينية أن كل الحواريين آمنوا بيسوع رسولاً ونبياً هادياً، إلا أن واحداً منهم قد خانه وتآمر عليه هو: يهوذا الأسخريوطي. الذي وعد على تسليمه إلى أعدائه من اليهود، الذين كانوا لا يعرفونه شكلاً، مقابل ثلاثين قطعة من الفضة، وكان يسوع ـ بقدرة الله ـ يعلم ذلك فقال لأصحابه في نهاية العشاء الأخير «أقول لكم إن واحداً منكم يسلِّمُني».. وفي وقت متأخر من الليل خرج يسوع إلى جبل الزيتون عند أطراف المدينة المقدسة وصلّى للرب ليخفّف عنه العذاب القادم إليه، الذي سيلقاه قريباً... ولقد جاء في إنجيل برنابا: «ولمّا دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع، سمع يسوع دنوّ جمّ غفير، فلذلك انسحب إلى البيت خائفاً، وكان الأحد عشر نياما، فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وإدريل سفراءه، أن يأخذوا يسوع من العالم، فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب فحملوه، ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبّح الله إلى الأبد، ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أصعِدَ منها يسوع، وكان التلاميذ كلهم نياماً، فأتى الله العجيب بأمر عجيب، فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه، فصار شبيهاً بيسوع حتىٰ أننا اعتقدنا أنه يسوع أما هو: فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم؟.. لذلك تعجبنا.. وأجبنا أنت يا سيدي معلّمنا.. أنسيتنا الآن؟». وكان ما كان، لقد صُلِبَ يهوذا نفسه الذي أوقعه الله في شر أعماله، فقد أخذ وهو في شبه المسيح، واقتيد وهو يحمل الصليب وعلى رأسه الشوك إلى مكان الصلب، وضُرِبَ وعُذِّب وجُرِح على أنه المسيح، والكل يظنونه المسيح، ودُقّت يداه وقدماه إلى الصليب، ثم ضُرب حتى مات مصلوباً، وكُفِّن ودُفن في مقبرة (يوسف الرامي). ثم اختفى منها، بينما كان المسيح في طريقه صاعداً إلى السماء للقاء ربه في الأعالي، وما قتلوه يقيناً. وقال يسوع: الحق

أقول لكم إني لم أمت، بل يهوذا الخائن.. لقد كان اليهود حاقدين على المسيح، يطالبون دائماً بقتله وإعدامه، ويحرضون الوالي الروماني على قتله، مع أنه لم يكن ميالاً لذلك، لأنه لم يجد له ذنباً، ولا مبرّر لقتله.. وبسبب ضعف الوالي حُكِم بالإعدام عليه، ولكن الله جل شأنه أنزل العقوبة بشبيهه، إنه يهوذا الأسخريوطي...

15 ـ الصليب الرمز:

اتُخِذَ الصليب رمزاً لبعض الديانات القديمة، قبل أن يكون رمزاً للمسيح أو المسيحية. فقد اقترن الصليب بعدد من آلهة الخصب الشرقية القديمة، فهو رمز الإله «اندارا» أحد أشكال الإله بعل أو حدد ويدل شكل الصليب على الخصب والعطاء في اللغة السومرية، وقد اتُخِذ رمزاً للإلٰهة الفينيقية «بارات» وهي إلٰهة مدينة بيروت، وأحد أشكال آلهة الخصب «عشتار» أو عشتروت. وكان يتم صلْب الضّحية على صليب تنفيذاً لحكم الإعدام فيها، وكانت طريقة القصاص هذه معروفة عند أمم كثيرة، فقد حكم الاسكندر الكبير على ألف من سكّان صور بالصلب. وقد توّعد «كورش» بصلب كل من يحول دون تحقيق عودة اليهود من بابل إلى فلسطين، كما توّعد «داريوس الفارسي» بهذه النية من يخالف أوامره..

يقول يوسيفوس بأن أنطوخيوس أبيفانيس صلب اليهود الذين رفضوا أوامره بترك دينهم لاعتناق المسيحية، وقد صُلب كثير من اليهود بعد استيلاء تيطس على أورشليم.. وأما عند الرومان، فكان الصلْب قصاصاً للعبيد، أو لمن يرتكب أقبح الجرائم.. وأما عند اليهود فكان شعورهم بأن من يحمل الصليب فقد حمل اللّعنة حيث يقول قاموسهم: «ملعون كل من علّق خشبة»...

وكثيراً ما كان يسبق الصلب تعذيب الضحية بالجَلْد، وبعد ذلك يحمل صليبه إلى حيث يصلب للتنفيذ. وللصلبان ثلاثة أنواع رئيسيّة هي: صليب على شكل X، وصليب على شكل T، وثالث على شكل سيف T وقد كان الصليب علامة الذل والعار قبل المسيح، ولكن بعد ذلك صار أتباعه ينظرون إلى الصليب

نظرة افتخار وطهر. . فقد افتخر بولس بصلب المسيح الذي تم فيه الفداء، لأنه بدمه يمسح خطايا الكثيرين، وجعلوه من شعائر الدين وإن كان تقديس الصليب عندهم لا يرتفع إلى مرتبة العقائد المسيحية الأساسية. . يقول إنجيل لوقا: «وقال للجميع إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه، ويحمل صليبه كل يومٍ ويتبعني. . ». وقد اعتقد أتباع المسيح أنه صُلِب على خشبة اتّخذوها لهم رمزاً وشعاراً لإنكار الذات واقتفاء أثر المسيح، مخلّصهم. .

وعندما صلب اليهود ذلك الرجل الشبيه بيسوع وهو ـ يهوذا الأسخريوطي ـ، اعتقدوا خطأ أنه المسيح عليه السلام، ألقوا بخشبته، وأنزلوا جسده عن الصليب، ودُفِن في قبر جديد في بستان، وجعلوا مكانه مطْرحاً لإلقاء القمامة والنجاسة، وبقوا كذلك حتى زمن الامبراطور قسطنطين، حيث عمدت أمّه «هيلانة الحرّانية» إلى استخراجه من هناك كرد اعتبار للمصلوب، فقد أمرت بإزالة القمامة وبناء كنيسة القيامة مكانها التي يعتقدون بأن جسد المسيح يقوم منها، كما أمرت بوضع القمامة على الصخرة التي يعدّها اليهود قِبلتهم، وبقيت كذلك حتى فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس فطهّرها من الخبَث والنّجس وأزال عنها القمامة، وأقيم أمامها المسجد الأقصى حيث صلى النبي محمد ﷺ بالأنبياء في ليلة الإسراء. . .

وصار النصارى يعظّمون تلك الخشبة التي اعتقدوا بأن المسيح صُلِب عليها، واعتقدوا بَبَرَكَتها، وغشوها بالذهب واللآلىء. . وقالوا عنها إنها ما مسّها ذو عاهة إلاّ عوفي ولا مريض إلا شُفي، ثم اتخذوا الصُلْبان رمزاً دينياً وتبركوا بها وتفننوا بصناعتها وزخرفتها. . . .

16 ـ صعود المسيح:

لم يتحدث إنجيل متّى، ولا إنجيل يوحنا عن صعود المسيح ورفعه بشكل واضح وصريح، ولكن مرقس ولوقا، تحدثا عن حدث الصعود كلٌ بدوره. . يقول مرقس في خاتمة إنجيله: «ثم إن الرب بعد ما كلّمهم، ارتفع إلى السماء،

وجلس على يمين الله»(1). وإن كان بعض الباحثين مثل الأب روجي، يعدّ هذه الجملة ليست نصّاً صحيحاً، وأنها ليست من أصل الإنجيل، وإنما كُتبت وأُضيفت بعد ذلك، مع أن الكنيسة تعدّه نصاً قانونياً، ومن صُلْب الإنجيل. .

بينما يذكر لوقا حدث الصعود في خاتمة إنجيله أيضاً قائلاً: «وفيما هو يباركهم انفرد عنهم، وأُصْعِد إلى السماء، فسجدوا له ورجعوا إلى أورشليم بفرح عظيم»(2). وهو يحدد الصعود مساء يوم الفصح حيث اكتشف القبر فارغاً يوم القيامة، وكان رابع عيد الفصح حضره السيد المسيح مع تلامذته وحوارييه. .

وفي أعمال الرسل ذُكِر حدث الصعود صراحة، فقد ذُكِر أن يسوع كان يخاطب الرسل الذين اختارهم، والذين أراهم أيضاً نفسه حيّاً ببراهين كثيرة بعدما تألّم. وهو يظهر لهم أربعين يوماً، ويتكلم عن الأمور المختصة بملكوت الله»(3). فهو يحدد العيد المسيحي للصعود بأربعين يوماً بعد الفصح حيث يحتفل بالقيامة. .

ويتابع القول في أعمال الرسل: «ولما قال هذا ارتفع وهم ينظرون، وأخذته سحابة عن أعينهم. .»(4). وكان في منطقة الجليل، وأهل الجليل هم المعنيون بالأمر، واليهم كان الخطاب ومن بينهم قد ارتفع إلى جوار ربّه. . واختتمت حياة المسيح على الأرض بهذا النصر النهائي، وتم فيه ما أعلنه الرسل يوم الخمسين. . «إن الله قد جعل يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم ربّاً ومسيحاً»(5).

وفي كل هذه الأقوال تصريح وإقرار بصعود المسيح عليه السلام إلى جوار ربه في السموات العُلا. .

17 ـ رأي الإسلام في صلب المسيح ورفعه:

للإسلام رأي واضح وصريح في صلْب المسيح وقتْله كما يدّعي أتباعه. . جاء ذلك في قوله تعالى وهو القول الفصل: ﴿**وقولهم إنا قتلْنا المسيح عيسى ابن**

---

(1) مرقس: الاصحاح 16.
(2) لوقا: الاصحاح 24.
(3) أعمال الرسل: الاصحاح الأول.
(4) أعمال الرسل: الاصحاح الأول.
(5) أعمال الرسل: الاصحاح 2-36.

مريم رسول الله، وما قتَلوه، وما صلَبوه، ولكنْ شُبِّهَ لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه، ما لهم به من عِلْم إلاّ اتباع الظن، وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه﴾[1].

هذا هو رأي الإسلام صراحة، قطع الشك باليقين للذين آمنوا وإن عيسى لم يُصْلَب ولم يُقْتل بل رفعه الله إليه. إلا أن بعض الباحثين من أتباع المسيح قال إنه عندما أحرَج السيد المسيح الكتبة والفريسيين من اليهود بتعليمه، وتجريحه إياهم في طريقتهم، وفضح ريائهم وخبثهم وكشف مكرهم وخداعهم بدأوا يكيدون له، ويدبّرون قتله ـ على نحو ما ذكرنا ـ فادّعوا عليه إلى الوالي الروماني «بيلاطُس البُنطي» بأن المسيح يدعي أنه مِلِك اليهود وأنه يثير الشغب بين الناس، وهم لا يعترفون إلا بقيصر ملك روما وكانت أيام حكم طيباريوس قيصر (42-37 ق. م) وكان ما كان، على الشبيه كما ذكرنا. وهكذا فقد نجا المسيح من شرهم بقدرة الله، واختفى عن أعين أعدائه، فقد رفعه الله بروحه وجسده حياً إلى السماء. قال تعالى: **﴿إذ قال الله يا عيسى، إني متوفيك ورافعك إليّ، ومطهّرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتّبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾**[2]. لقد رفع الله المسيح إلى السماء حيّاً جسداً وروحاً بعد أن توفّاه بالنوم فقط، وكان عمره ثلاثة وثلاثين سنة، وكان ذلك في 7 نيسان عام 30 ميلادية على ما يذكر التاريخ، والمسيح الآن في السموات العُلا إلى جوار ربه. . وإنه سينزل يوماً إلى الأرض سينزل في آخر الزمان قبل قيام الساعة، وأنه سيقوم بإصلاح ما فسد من أمر فسيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويقتل المسيح الدّجال الكاذب الدّاعي إلى الضّلال، رمز الأسطورة والدّجل وكل القبائح، والله بذلك عليم. . .

18 ـ يوم ميلاد المسيح:

إن العالم المسيحي وكل العالم الحديث الذي يتبع في تاريخه التقويم

---

(1) سورة النساء، آية: 157-158.
(2) سورة آل عمران، آية: 55.

المسيحي الغربي يحتفل بميلاد المسيح في 25 كانون أول، وهذا اليوم الذي يعدونه فلكياً يوم الانقلاب الشتوي، الذي تصل فيه الشمس إلى آخر مدى لها في ميلها عن كبد السماء، ويكون أقصر نهار في السنة في النصف الشمالي للكرة الأرضية. ثم يبدأ بعد ذلك يطول على حساب الليل، لذلك اعتبر هذا اليوم في الديانات الشمسية عيد ميلاد للشمس، وقد ارتبطت بالشمس عبادة أدونيس في سورية، وأويزيرس في مصر، وكان السوريون يحتفلون بمولد أدونيس ليلة 25 ك١ فكانوا يجتمعون في المعابد، ويصرخون عند منتصف الليل: «لقد أنجبت العذراء ابناً والنور ينتشر» ويقصدون بالعذراء هنا عشتار أو عشتاروت ملكة السموات.. وقد اعتُبِر كذلك يوم 25 ك١ عيد ميلاد «ميترا» إله النور والخير، وكانت الشمس رمزاً له، الشمس التي لا تقهر، والتي تبدأ في هذا اليوم بالصعود إلى كبد السماء، دافعة أمامها قوى الشر والظلام.. وفي المسيحية يختلف الأمر، فيعد هذا اليوم تاريخ ميلاد المسيح، ولو أن الأناجيل الأربعة لم تذكر تاريخاً محدّداً لميلاده، ولذلك لم تحتفل الكنيسة الأولى بميلاد السيد المسيح، وإنما اتفق المؤرخون على أن ولادته في 25 كانون أول من عام 5 ق. م. بينما احتفل المسيحيون في مصر، وبلاد الشرق بيوم 6 كانون ثاني على أنه يوم ميلاد السيد المسيح وهو تاريخ المعمودية، لكن الكنيسة الغربية تبنت يوم 25 ك١ تاريخاً رسمياً لميلاد المسيح مع نهاية القرن الثالث الميلادي أو مع بداية الرابع، ثم تبعتها الكنيسة الشرقية في ذلك، وأصبح يوم 6 كانون ثاني على أنه عيد الغطاس..

أما عيد الفصح، فهو عيد قيامة المسيح من بين الأموات بعد أن عانى ما عاناه على درب الآلام في يوم الجمعة الحزينة ويأتي في أول يوم أحد يأتي بعد أول «بدر» يلي نيروز الربيع.. وهذا ارتباط بحركة القمر...

الباب الخامس عشر

الدِّين الإسلامي

1 ـ الإسلام:

دين البشرية كلها، ورسالة كل الأنبياء والرسل، منذ عهد آدم عليه السلام حتى بعثة محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، والذي كلفه الله بتبليغ شريعة الإسلام ونشر تعاليمه، والتي هي آخر شرائع السماء وأكملها، الصالحة لكل زمان ومكان. وهو يعني عبادة الله وحده، والإخلاص له دون سواه. . .

فدين الإسلام هو دين محمد عليه الصلاة والسلام. وقد سمّاه الله كذلك في كتابه الكريم. فقد وردت كلمة الإسلام والمسلمين في مواقع كثيرة منه، وعلى لسان معظم الرسل. .

فالإسلام هو الشريعة السمحاء، والدين القيم الذي رضيه الله لعباده وأمرهم بطاعته من خلاله. وهو الدين الكامل الذي لا يعتريه الشك، ولا يأتيه الباطل. قال تعالى: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾**[1].

والإسلام من الوجهة الشرعية يعني توحيد الله وطاعته، والخضوع له، والإخلاص في عبادته، والإيمان بالأصول الدينية التي جاءت من عند الله ودعا

---

(1) سورة المائدة، آية: 3.

إليها جميع الأنبياء والمرسلين منذ عهد آدم عليه السلام إلى عهد نوح من بعده الـذي أمره الله أن يكـون من المسلمين إذ قال: ﴿وأمِـرْتُ أن أكونَ من المسلمين﴾[1] وتبعته ذريته من بعده إلاّ من كفر. ثم جاء أبو الأنبياء إبراهيم الخليل الذي اصطفاه الله في الدنيا، وجعله في الآخرة من الصالحين، فلبّى نداء ربه وكان من المسلمين. قال الله يخاطبه: ﴿إذْ قـال له ربُّه أسْلِم، قال: أسلَمْت لربّ العالَمين﴾[2].

وجاء على لسـان إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام قوله تعالى: ﴿ربّنا واجعلْنا مُسلِمَيْن لك ومن ذرّيتنا أمّةً مُسلمةً لك﴾[3]. وقال في محكم كتابه: ﴿ومن أحسنُ ديناً ممن أسْلَم وجهَهُ لله وهو مُحسِن واتّبع ملّةَ إبراهيمَ حنيفاً﴾[4]. وجاء في قوله تعالى: ﴿قل إنّي أُمِرْت أن أكونَ أوّلَ مَن أسْلَم ولا تكوننَّ من المشركين﴾[5]. فمن أسلم فقد اهتدى، ومن رفض الإسلام فقد زاغ، وضلّ عن الصراط المستقيم فهود دين الهداية والتقوى، وليس ثمة أعظم من الإسلام ديناً. وليس أفضل وأجلّ ممّن اتخذوا الإسلام ديناً. . . فهذا يعقوب عليه السلام يقول لأبنائه: ﴿إن الله اصطفى لكم الدّين، فلا تموتُنّ إلاّ وأنتم مسلمون﴾[6]. فأبناء يعقوب كانوا من المسلمين، وأمرهم ألاّ يموتوا على غير دين الإسلام الذي اختاره الله لهم. . . .

وكذلك يوسف عليه السلام، إذ خاطب ربّه راجياً أن يتوفّاه مسلماً ويُلحقه بالصالحين، حيث قال: ﴿أنتَ وليي في الدنيا والآخرة، توفّني مُسلِماً وألحقني بالصالحين﴾[7].

---

(1) سورة يونس، آية: 72.
(2) سورة البقرة، آية: 131.
(3) سورة البقرة، آية: 128.
(4) سورة النساء، آية: 125.
(5) سورة الأنعام، آية: 14.
(6) سورة البقرة، آية: 132.
(7) سورة يوسف، آية: 101.

وعلى لسان سيدنا موسى جاء في التنزيل الحكيم ﴿**يا قوم إن كنتم آمنتم بالله، فعليه توكّلوا إن كنتم مسلمين**﴾[1]. . . وجاء على لسان سحرة فرعون الذين آمنوا بموسى نبياً قالوا: ﴿**ربّنا أفرِغْ علينا صبراً، وتوفّنا مسلمين**﴾[2]. . . وجاء كتاب التوراة من عندالله فيه الهدى وفيه النور لمن يحكم به، كشريعة الإسلام تماماً. قال جلّ شأنه: ﴿**إنّا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونور يحكم بها النبيّون الذين أسلموا للّذين هادوا والربّانيون والأحبار**﴾[3].

وقد جاء على لسان السيد المسيح وهو يخاطب حوارييه: ﴿**قال: من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله آمنا بالله، واشهد بأنّا مسلمون**﴾[4].

فمصدر الديانات السماوية واحد، وكتب التشريع من عنده جلّ شأنه، وقد دخلها التحريف والتحوير والتزوير، إلاّ ما أُنزِل على محمد ﷺ وهو القرآن الكريم، ناسخ كل الكتب السماوية وفيه تشريع الإسلام آخر شرائع السماء. قال تعالى: ﴿**ومِمّن خلقنا أُمّةٌ يهدون بالحق وبه يَعدِلون**﴾[5] فالأمة المعنية هي أمة محمد ﷺ الذي جاء ليكمل رسالة سلفه من الشرائع السماوية وليعيد الحنيفية إلى البشرية الضالّة، وهي دين إبراهيم ودين نوح وآدم من قبله، دون تفريق بين أحد من أنبياء الله الذين أوحى الله إليهم بالدعوة إلى وحدانيته وعبادته وحده.

فقال لرسوله محمد ﷺ: ﴿**قل يا أيها الناس إنّي رسولُ الله إليكم جميعاً**﴾[6] وقال جلّ شأنه: ﴿**وما أرسلناك إلاّ كافّة للناس بشيراً ونذيراً**﴾[7].

---

(1) سورة يونس، آية: 84.
(2) سورة الأعراف، آية: 126.
(3) سورة المائدة، آية: 44.
(4) سورة آل عمران، آية: 52.
(5) سورة الأعراف، آية: 181.
(6) سورة الأعراف، آية: 158.
(7) سورة سبأ، آية: 28.

فرسالة محمد ﷺ كانت لكل العالَمين لهدايتهم وإرشادهم، ولم تكن لفئة دون غيرها، لقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالَمين﴾[1]. فرسالته إنقاذ ورحمة لكل البشرية، ويذكّرنا جلّ شأنه بأنه ما من رسول كان قد أُوحي إليه قبل محمد ﷺ إلاّ وكان يدعو إلى وحدانية الله وعبادته. قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون﴾[2]. فالإسلام هو الديـن عند الله، ولا دينَ غيره، ومن جاء بغيره فقد ضلّ، وكان من الخاسرين، قال تعالى: ﴿إن الدّين عند الله الإسلام﴾[3]. ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين. وكذلك قال: ﴿ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يُقْبلَ منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[4].

وجاء في الحديث الصحيح قول رسول الله ﷺ: «مَثَلي ومثل الأنبياء قبلي، كمثَل رَجُل بنىٰ بيتاً فأَحْسنهُ وأجْملَهُ إلاَّ موضع لَبنةٍ في زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون به، ويقولون: هلاّ وُضِعَتْ هذه اللَّبِنة؟ فأنا تلك اللَّبِنَة وأنا خاتم النّبيّين»[5].

فالدين الإسلامي هو الدّين المقبول عند الله، والشرع الإسلامي هو الشرع المعتمد عنده، ومن جاء بغير ذلك فقد خسر وضلّ، وقد نسخ الله بالإسلامَ كل شرع سابق، ولن ينزل بعده شرع لاحق. فالنبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، والشرع الإسلامي خاتم كل الشرائع السماوية، وقد جاء دين الإسلام ليوفّق بين من اختلف من أصحاب الشرائع والأديان، وليبيّن الحق لمن حاد عنه، وليصلح ما طرأ عليها من البدع والضلالات، وكل ما جاء بعد محمد باطل.

فقد جاء في فاتحة كتاب الله بعد حَمْـده تعالى: ﴿إهـدنا الصراط

---

(1) سورة الأنبياء، آية: 107.
(2) سورة الأنبياء، آية: 25.
(3) سورة آل عمران، آية: 19.
(4) سورة آل عمران، آية: 85.
(5) أخرجه الشيخان...

المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين﴾[1].

والـدين الإسلامي في جـوهره، عقيـدة وعبادة وبنـاء.. فهو عقيـدة تتمثل بالشهادتين، وأركان الإيمان..

وهو عبادة تتمثل بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج..

وهو بناء يقوم فوق كل هذه الأركان ديناً قيّماً مستقيماً، كاملاً متكاملاً..

ومن هداه الله يشرح صدره للإيمان وينور قلبه بالإسلام لقوله تعالى: **﴿فمن يُرد اللَّهُ أنْ يَهديَه يشرح صدره للإسلام﴾**[2] ربّنا اشرح صدورنا للإسلام، ونوّر قلوبنا بالإيمان.

2 ـ من تعاليم الإسلام.

جاء جبريل عليه السلام إلى حضرة المصطفى ﷺ على هيئة أعرابي وجلس بجانبه وقال: «يا رسول الله، ما الإسلام؟ فقال: أن تشهد أن لا إله إلاّ الله، وأني رسول الله، وأن تُقيم الصلاة، وتُؤتي الزكاة، وتصوم شهر رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال: صدقت.

ثم قال: ما الإيمان؟ قال عليه الصلاة والسلام: أن تؤمن بالله وملائكته وكُتُبِهِ ورُسلِه واليوم الآخر وأن تُؤمن بالقدر خيره وشرّه. قال: صدقت.

ثم قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد اللَّهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: صدقت. ثم قام وخرج، فقال النبيّ لصحبه: «هذا جبريلُ جاءَكم يعلِّمُكم أمرَ دينكم»

لقد تضمّن القرآن الكريم نصوص التشريع الإسلامي مفصّلة، ويُعدّ المصدر الأول للتشريع الإسلامي. وتضمنت الآيات القرآنية عقائد وعبادات وتعاليم الإسلام، إذْ وضّحت العلاقة بين العبد وخالقه، وبين أفراد البشر مع بعضهم.. فقد دعت إلى التوحيد والإيمان بالله وحده لا شريك له، وحذّرت من اتّباع الوثنية أو التمسّك بها...

---

(1) الفاتحة، آية: 5-7.

(2) سورة الأنعام، آية: 125.

وضرب الله الأمثال للناس بالأمم الخالية، وما حلّ بهم من عذاب لطغيانهم، وعدم إيمانهم به، وعِصيانهم له. وقصّ عليهم أحسن القصص لتكون عبرة لمن يعتبر...

وتضمّنت الإيمان بيوم الحساب الذي يُجازىٰ فيه كل إنسان بما فعل في الحياة الدنيا، إن خيراً فخير، وإنْ شراً فشرّ، فأين المفر؟. قال تعالى: **﴿لقد جئتمونا فرادىٰ كما خلقناكم أول مرة، وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنّهم فيكم شركاء، لقد تقطّع بينكم وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون﴾**[1].

لقد تضمّنت آيات الله العبادات في الإسلام، ونظّمت علاقة الإنسان بربّه.

ونصّت التشريعات كلّ ما يتعلق بالصلاة والصيام والحج والزكاة، وهذه أركان الإسلام.

كما تضمّنت قواعد وأصول التشريع الاجتماعي التي تنظّم العلاقة الإنسانية. كما في الأحوال الشخصية من زواج أو طلاق أو ميراث.. ومن حقوق وواجبات أُسَرية أو فردية. وقد بيّن الله تعالى في كتابه الكريم أسس الأخلاق الفاضلة التي تقرّب العبد من ربه، وبيّن الخير والشر، والحلال والحرام وما ينتج عن اتّباع كلّ منهما، إذ قال: **﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنه وليٌّ حميم﴾**[2].

وقال جلّ شأنه: **﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾**[3]. وقد دعا الإسلام إلى الحرية في العقيدة والعبادة بدليل قوله تعالى: **﴿لا إكراه في الدّين﴾**. كما دعا إلى المساواة بين جميع البشر كقول رسول الله ﷺ: «الناس سواسية كأسنان المشط».. ونصّ الإسلام على أخوّة

---

(1) سورة الأنعام، آية: 94.

(2) سورة فصّلت، آية: 134.

(3) سورة آل عمران، آية: 177.

المؤمنين، وأنهم أسرة واحدة تنظّمها علاقات تشريعية صريحة، وجعل المحبة سبيل الإيمان، حيث قال عليه السلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه».

ونهى الإسلام عن أكل أموال الناس بالباطل، وأباح الربح الحلال، فأحلّ الله البيع وحرّم الربا، وحدّد أصول التّدائُن بين الناس، ونهى عن الفواحش كلها ما ظهر منها وما بطن، وأمر باجتناب الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وعدّها رجساً من عمل الشيطان. وأمر الناس بالتقوى بقوله جلّ وعلا: ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكّرون**﴾[1]. وحرّم قتل النفس بالباطل، ووضع لكل خطيئة عقاباً، ولكل حسنة ثواباً، قال تعالى: ﴿**ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون**﴾[2].

وحرّم الكذب النميمة والغش الغيبة، وشهادة الزور، والزنا، وعدّها من الفواحش والكبائر.

وقد أمر الإسلام بالوفاء والعدل والعفو والصبر، وأمر بالطهارة والنظافة وعدّها من الإيمان وأمر بإفشاء التحية والسلام، وبالاستئذان عند دخول بيوت الآخرين..

ونهى عن العصبيّة والمفاخرة بها لقول رسول الله: «ليس منّا من دعا إلى عصبيّة». وحضّ على العلم والتعلّم لكل مسلم ومسلمة.. ولم يترك كبيرة ولا صغيرة إلاّ أحصاها، وما هذا إلاّ غيض من فيض... فالإسلام أعظم من أن تعدّ محاسنه أو تُحصىٰ منافعه، فهو محراب الحق، ومدرسة الأخلاق... فهو دين كامل متكامل، رضيه الله لعباده ديناً، وجعله خاتم ديانات السماء وأجلّها، عندما قال جلّ جلاله: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾»[3].

---

(1) سورة النحل، آية: 90.

(2) سورة البقرة، آية: 179.

(3) سورة المائدة، آية: 3.

فهو دين عقيدة وعبادة، وشريعة وأخلاق، وأي خلل في أحدها يشوّه وجه الدين. .

3 ـ أركان العقيدة الإسلامية:

تقوم عقيدة الإسلام على قواعد خمس، ثابتة راسخة، فُرِض على المسلم اتّباعها وتأديتها كاملة غير منقوصة:

1 ـ شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله.
2 ـ إقامة الصلاة، بأوقاتها الخمسة.
3 ـ إيتاء الزكاة، والبرّ بالفقراء، والإحسان إليهم.
4 ـ صيام شهر رمضان المبارك.
5 ـ حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

فالتوحيد: أول أركان الدين الإسلامي وأهمها، وبدونه لا تصح العبادات، فالدعوة إلى وحدانية الله وعبادته هي جوهر العقيدة الإسلامية، ولم يتقبل محمد ﷺ وصحبه وادة ولا مساومة في الدعوة إلى وحدانية الله، ومقاومة الأصنام، وعبادة الأوثان، ومحاربة المشركين أيّا كانوا، وأينما كانوا، لقوله تعالى: ﴿**وقال الله لا تتخذوا إلٰهيْن اثنين إنّما هو إله واحد**﴾[1] وكان يظهر أحياناً بعض التسامح مع أهل الكتاب من أتباع موسى وعيسى عليهما السلام، لأنهما ديانتا توحيد، على الرغم مما فيهما من مخالفات مبتدعة، وتعاليم دخيلة، وتحريف لكلام الله ورسالة أنبيائه، ولكن لم يساوم ولم يهادن في وحدانية الله وصمديته. ﴿**قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد**﴾[2] وهكذا سيبقى شعار المسلمين الأزلي الخالد مرفوعاً إلى الأبد وهو لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله.

أما الصلاة: وهي ثاني أهم أركان عقيدة الإسلام، فقد فرضت على

---

(1) سورة النحل، آية: 51.
(2) سورة الإخلاص.

المسلمين بأوقاتها وعدد ركعاتها، وكيفية أدائها في ليلة الإسراء في شهر رجب من السنة الحادية عشر للبعثة (621 م) وهي أعظم المنح الإلٰهية للبشرية قدّمها جلّ شأنه لرسول البشرية محمد عليه الصلاة والسلام. . **﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾**[1].

وأول ما يُحاسَب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإنْ صَلُحت فقد صلح، وقد نجح وأفلح، وإن فسدت فقد خاب وخسر. والصلاة عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين. والفرق بين المؤمن والكافر ترك الصلاة، وهي من العبادات كالرأس من الجسد. . وكان الدرس الأول في الصلاة عندما هبط جبريل عليه السلام كعادته إلى رسول الله ﷺ يعلّمه وهو بأعلى مكّة، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي، فخرجت منه عين ماء، فتوضأ جبريل ليعلّمه كيف يتطهر للصلاة، ثم توضّأ رسول الله مثل ما فعل جبريل، ثم قام جبريل وصلّى به الظهر. في وقتها أربع ركعات، حين كان ظل كلّ شيء مثله، أي عندما تبدأ الشمس بالزوال عن كبد السماء.

ثم صلّى به العصر في وقتها أربع ركعات، حين كان ظل كل شيء ضعفه.

ثم صلّى به المغرب في وقتها ثلاث ركعات، حين غابت الشمس.

ثم صلّى به العشاء في وقتها أربع ركعات، حين غاب الشفق الأحمر.

ثم صلّى به الصبح في وقتها ركعتين، حين بزوغ الشمس.

وهكذا فقد صلّى رسول الله ﷺ، مثل ما صلى جبريل عليه السلام، وقال لصحبه وأتباعه: صلّوا كما رأيتموني أصلّي.

والثالثة الزكاة: وقد فُرضت في مكة على من اتبع الإسلام، حيث يدفع المسلمون زكاة أموالهم وما تنتجه أراضيهم وممتلكاتهم، وقد فُصّلت أنصبة الزكاة بعد هجرة النبي العظيم إلى المدينة المنورة، لقوله تعالى: **﴿خذ من**

---

(1) سورة النساء، آية: 103.

أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾[1]. وكثيراً ما اقترنت فريضة الزكاة بإقامة الصلاة، كقوله تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾. لذلك خصّهم الله برحمته عندما قال: ﴿ورحمتي وسِعت كل شيء، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة، والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾[2].

أما مستحقوا الزكاة فقد بيّنهم الله بقوله: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين، والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم، وفي الرّقاب، والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل، فريضة من الله، والله عليم حكيم﴾[3].

والرابعة: الصيام، الذي فرضه الله على المسلمين في السنة الثانية للهجرة. ويعني الإمساك والكف عن الشيء. ومن الوجهة الشرعية: هو الإمساك عن الأكل والشرب والاتصال الجنسي من الفجر إلى غروب الشمس، ابتغاء مرضاة الله خلال شهر رمضان بكامله من كل عام. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياماً معدودات﴾[4].

والخامسة: الحج، فُرضت في السنة السابعة للهجرة بأمر الله تعالى مرة واحدة في العمر لمن استطاع، وهو زيارة بيت الله الحرام في مكة والطواف حوله، وقد كان الحجاج الوثنيين قبل الإسلام يحجون إلى مكة، ويطوفون بالبيت الحرام، عُراة الأجسام، مشبكين أصابعهم يُصفّرون ويُصفّقون. قال تعالى: ﴿وما كان صلاتهم عند البيتِ إلا مُكاءً[5] وتصْدِية[6]﴾[7]. واستمر المشركون على هذا الحال حتى عام تسعة هجرية عندما جاء أمر الله بالمنع

---

(1) سورة التوبة، آية: 103.
(2) سورة الأعراف، آية: 156.
(3) سورة التوبة، آية: 60.
(4) سورة البقرة، آية: 183-184.
(5) المكاء: الصفير.
(6) التصدية: التصفيق.
(7) سورة الأنفال، آية: 35.

والتحريم. لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجسٌ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾[1] وقد حج رسول الله مرة واحدة هي حجة الوداع وكانت قبيل وفاته بحوالي ثمانين يوماً. واعتمر رسول الله أربع مرات، وقد علّم البشرية طريق الحق والصواب إذ يقول لصحبه: «خذوا مناسككم عني».

فهل يفوز برضا الله وقبوله مَن أدى هذه الفرائض الخمسة كاملة؟

عن طلحة بن عبيد الله قال: «إن أعرابياً جاء إلىٰ رسول الله فقال: يا رسول الله أخبرني ماذا فرض الله عليّ من الصلاة؟ فقال: الصلوات الخمس إلاّ أن تطوع شيئاً.. فقال أخبرني ماذا فرض الله عليّ من الصيام؟ قال شهر رمضان إلاّ أن تطوع شيئاً.. فقال أخبرني بم فرض الله عليّ من الزكاة؟ فقال: فأخبره رسول الله بشرائع الإسلام.. قال: والذي أكرمك لا أتطوع شيئاً، ولا أنقُص مما فرض الله عليّ شيئاً.. فقال رسول الله: أفلح إن صدق».

وقد جاء في الحديث عن سيد البشر أنه قال: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا دراهم له ولا متاع. فقال: إن المفلس من أمّتي مَن يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا.. فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طُرح في النّار»[2].

وأما عقيدة الإيمان فهي أن يؤمن المسلم بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وأن يؤمن بالقدر خيره وشره.

لقد خص الله المؤمنين بصفات مميزة من جاء بها فقد فاز وكان طريقه في الآخرة إلىٰ الفردوس وكان من الخالدين، ومَن أعرض عنها فقد خسر وكان من الضالّين..

---

(1) سورة التوبة، آية: 28.

(2) رواه مسلم.

قال تعالى: ﴿قَدْ أفلَحَ المُؤْمِنون، الّذين هُمْ في صَلاَتِهِمْ خَاشِعونَ، والّذين هُمْ عن اللّغو مُعْرِضُون، والّذينَ هُمْ لِلزّكَاةِ فـاعِلونَ، والّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظون، إلاَّ عَلىٰ أزْوَاجِهِم، أوْ مَا مَلَكَتْ أيْمانُهُم فَإنّهم غيـرُ مَلُومِين، فَمَن ابتَغَىٰ وَرَاء ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُون، والّذينَ هُمْ لأمانَاتِهِم وَعَهْدِهِمْ رَاعُون والّذينَ هُمْ على صَلواتِهِم يُحافظون، أُولئك هُم الوَارِثُون، الّذِين يَرِثُونَ الفِرْدَوسَ، هُمْ فِيها خَالِدون﴾[1].

النداء إلى الصلاة:

بنىٰ محمد ﷺ أول مسجد في الإسلام، في يثرب لإقامة الصلاة جماعة، وتداول المسلمين شؤون حياتهم ليزيدوا روابط الألفة والمحبة بينهم. وكان مُحمد عليه السلام يجلس مع صحابته يعلّمهم أمور دينهم ويفقههم فيه، ويقضي بينهم بما أنزَل الله، ويتشاورون فيما يعود بالخير والمنفعة علىٰ المسلمين، وكان يستقبل رسول الله في مسجده وفود العرب وسفراء القبائل، فهو للدين والدنيا. وعندما يحين وقت الصلاة كان المسلمون يتوافدون إلىٰ المسجد لأداء فريضة الصلاة من دون نداء أو تنبيه، إلاّ أنهم شعروا فيما بعد الحاجة إلىٰ ما يُنبّههم إلىٰ أن وقت الصلاة قد حان. فاقترح بعض الصحابة على رسول الله أن تُرفع راية على المسجد عندما يحين وقت الصلاة. واقترح آخرون إيقاد نار على مرتفع من الأرض كما يفعل المجوس. أو استعمال البوق كما تفعل اليهود. أو استعمال الناقوس كما تفعل النصارى. ورُفضت جميع هذه المقترحات، لكن عمر بن الخطاب أشار إلىٰ النداء. حيث يُنادىٰ بالصلاة إذا حان وقتها. فوافق المسلمون علىٰ هذه الفكرة ونادىٰ مؤذن الإسلام «بلال ابن رباح» بقوله: الصلاة جامعة، وكان ينادي إلى الصلاة أيضاً عبد الله بن زيد بن ثعلبة الأنصاري، الذي رأى في المنام أن رجلاً يقول له: ألا أعلمك كلمات تقولها عند النداء إلىٰ الصلاة قال: بلى. قال قل الله أكبر مرتين ـ وتشهد مرتين ـ ثم قل: حيَّ على الصلاة مرتين ـ حيَّ على الفلاح مرتين ـ ثم كبّر مرتين ـ ثم

---

(1) سورة المؤمنون، آية: 1-11.

قل: لا إله إلا الله...».

قصّ عبد الله هذه الرؤيا على محمد ﷺ، فقال: إنها رؤيا حقّ، وأمر بلالاً أن ينادي للصلاةِ، فقام بلال ونادى للصلاة. ولما سمعه عمر قال: يا رسول الله لقد رأيت في منامي مثله...، وأصبح نداء خالداً يردده أئمة المسلمين وخطباؤهم في كل أرجاء الأرض..

تحويل قبلة المسلمين نحو الكعبة:

عن البراء بن عازب قال: كان رسول الله ﷺ يصلّي نحو بيت المقدس وهو بالمدينة بعد الهجرة، واستمر كذلك مدّة سبعة عشر شهراً تقريباً.

وكان محمد ﷺ يحب أن يُوجه إلى الكعبة، فأمره الله بالتحويل إليها في صلاته لقوله تعالى: **﴿قد نرىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ في السّماء فلَنُولّينَّك قِبْلةً ترضاها. فَوَلِّ وَجْهك شطْر المسْجِد الحرام. وحيث ما كنتم فولّوا وُجوهَكم شطْره. وإن الذين أوتوا الكتاب ليعْلَمون أنه الحقُّ مِن ربهم﴾**[1]. ومع ذلك تساءل السفهاء من اليهود عن سبب هذا التحويل، مع أن محمداً ﷺ يقول بأنه على ملّة إبراهيم ودينه الحنيف. إذ قال جلّ شأنه: **﴿سيقول السفهاء من الناس: ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾**[2].

يقول المسعودي: «صرفت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة في صلاة الظهر من يوم الثلاثاء، للنصف من شعبان السنة الثانية للهجرة، فاستدار النبي وهو راكع في الركعة الثانية، ودارت الصفوف خلفه وسمي ذلك المسجد بمسجد القبلتين»[3].

وقيل إن ذلك تم بعد فرض الصوم في شهر رمضان بثلاثة عشر يوماً.

---

(1) سورة البقرة، آية: 144.
(2) سورة البقرة، آية: 142.
(3) المسعودي في كتابه التنبيه والأشراف.

وهكذا تحولت قبلة المسلمين من بيت المقدس «أولى القبلتين» نحو الكعبة المشرفة، التي أصبحت قبلة للمسلمين جميعهم في أرجاء الأرض يولّـون وجوههم نحو المسجد الحرام أينما كانوا.

أما قبلة اليهود فكانت بيت المقدس وبعد أن هدم الرومان هيكل سليمان سنة 75 م، فقد ولّوا وجوههم شطر الجزيرة العربية، ثم هاجروا إليها بعد أن اشتدّ صراعهم مع النصارى، فأقامـوا في يثرب، ثم هـاجروا إلى اليمن، وغيرها..

4 ـ مصادر التشريع الإسلامي:

(أ) القرآن الكريم:

هو كلام الله المنزّل على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام بوساطة الوحي جبريل عليه السلام، المكتوب في المصحف الشريف، المنقول عنه بالتواتر المتعبّد بتلاوته، وهو آخر الكتب السماوية المنزلة، ومصدر التشريع الأول عند المسلمين.

وقد بلّغ رسول الله هذه الرسالة الإلهية، وأدّى هذه الأمانة الثقيلة بالرغم من الصعوبات والمعاناة التي لاقاها وتحمّلها عند التبليغ، لقوله تعالى: **﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾**[1]. ونزل هذا القرآن على سيد البشر الذي حمل الرسالة وبلّغها لكل البشرية دون أن يجزع أو يتصدع. والقرآن كتاب صِدْق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلا سبيل إلى الشكِ في صحّة نصّه، وهو كتاب هدى ورحمة لكل العالمين، لقوله تعالى: **﴿إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾**[2]. وفي القرآن مقاصد ثلاثة: عقائد توحيد، وأحكام وعبادات، وقصص لتكون عبرة لأولي الألباب، ويشتمل على ثلاثين جزءاً، تقع في مئة وأربع عشرة سورة، منها ما نزل على النبي ﷺ

---

(1) سورة الحشر، آية: 21.
(2) سورة الإسراء، آية: 9.

في مكة قبل الهجرة، وهي السور المكية. ومنها ما نزل عليه في المدينة المنورة بعد الهجرة، وهي السور المدنيّة. ولكل من هذه الآيات امتيازات خاصة تتناسب مع الوقائع والأحداث اشتملت على مبادىء التشريع الإسلامي. فمن خصائص السور المكية مثلاً: قصر السّور والآيات، وإيجازها، وقوة تعبيرها، وتجانسها الصوتي، والدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وتصوير الجنة والنار، ويوم القيامة والحساب، والدعوة إلى التمسك بالأخلاق الكريمة، والاستقامة على فعل الخير، ومجادلة المشركين، وتسفيه أحلامهم وعقائدهم، وفيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة ومصائرها، وفيها قصص آدم وإبليس، وما دار بينهما من حوار بشأنهما.... كما تميّزت السّور المدنية: بطول السور والآيات، واستخدام الأسلوب التشريعي الهادىء في المعاملات كالبيع والشراء والزواج والطلاق وتحريم المنكرات والحضّ على الجهاد وبيان أحكامه، وتفاصيل الأحكام والحدود والفرائض والحقوق.. والقوانين المدنية والاجتماعية والدولية، ومخاطبة المنافقين وأهل الكتاب ودعوتهم إلى عدم الغلّو في الدين...

نزول القرآن: نزل القرآن بلغة العرب وعلى نهج بلاغتهم، فكانوا يفهمونه ويعْلَمون معانيه في مفرداته وتراكيبه، ويستبينون منه شريعة الله. وقد نزل في عصر لا يستطيع الكل أن يكتب أو يقرأ، ولكن الكل يستطيع أن يفهم القرآن ويحفظه عن ظهر قلب، بحيث تصبح التلاوة ذات فائدة قيّمة، قال تعالى: ﴿**إنّا أنزلناه قرآناً عربياً**﴾[1]. وكان نزول القرآن معجزة للبشرية وكان باللغة العربية فخر اللغات وأعزها.

روى الترمذي عن أبي كعب قال: «لقي رسول الله جبريل، فقال: يا جبريل إني بُعِثْت إلى أمّيين منهمْ العجوز والشيخ الكبير، والغلام والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط، قال: يا محمد إن القرآن أُنزِل على سبعة

---

(1) اشتهرت القراءات السبع بأسماء العلماء الذين نشروها، والقرّاء السبع هم: عاصم بن أبي النجود، عبد الله بن عامر، عبد الله بن كثير، أبو عمرة العلاء، حمزة بن حبيب الزيات، علي بن حمزة الكسائي نافع بن عبد الرحمن..

أحرف». أي أنه كان يكتب وفق لهجات عربية سبع[2] وعندما كان ينزل الوحي بكلام الله، كان النبي ومن حوله من المؤمنين يتْلون القرآن عن ظهر قلب. وكان الكَتبة من صحْبه يقومون بتدوينه بشكل صحيح وموثوق أولاً بأول بشكل متواتر. واستمر نزول القرآن مدة ثلاث وعشرين سنة، منها ثلاث عشرة سنة في مكة، وعشر سنوات في المدينة. وقد ظلّ الوحي جبريل عليه السلام متجاوباً مع محمد ﷺ يعلّمه في كل يوم شيئاً جديداً ومفيداً، يرشده ويهديه، ويثبته ويزيده اطمئناناً كلما بدا الوحي قادماً من عند الله يحمل كلامه، ويبلّغ رسالته.

بدأ التنزيل في ليلة القدر المباركة في شهر رمضان، قال تعالى: **﴿إنّا أنزلناه في ليلة القدر﴾** هذه الليلة المباركة التي اختارها الله لذلك الحدث الإلهي العظيم وهي خير من ألف شهر. حيث تم اللقاء الأولْ بوساطة الوحي بين الخالق وعبده، بين الله ورسوله، اختار شهر رمضان المبارك لينزل فيه القرآن معجزته الخالدة، قال تعالى: **﴿شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان﴾**[1]. وقال جلّ شأنه: **﴿إنّا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنّا منذرين﴾**[2] لقد كان مظهر النزول مُنَجماً أي مفرّقاً كالنجوم، وأنه كان ينزل حسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر من ذلك وأقل. وكان يتم كذلك لتيسير حفظه على المؤمنين. يقول عليّ كرّم الله وجهه: «أُنزِل القرآن خمساً خمساً، إلاّ سورة الأنعام. ومَن حَفِظهُ خمْساً خمْساً لم يَنْسَهُ». أخرج البيهقي عن خالد بن دينار فقال: «تعلّموا القرآن خمس آيات، فإن النبي كان يأخذه من جبريل خمساً خمساً».

ويقول ابن خلدون: «كان القرآن يُنَزَّلُ جُملاً جُملاً، وآيات آيات، لبيان التوحيد والفروض الدينية بحسب الوقائع».

وقد ظل القرآن يُنزّل نجوماً، ليقرأه النبي على مهل، ثم يتلوه على صحابته من بعده شيئاً فشيئاً، وقد كان يتدرج في نزوله مع الأحداث والوقائع،

---

(1) سورة البقرة، آية: 185.
(2) سورة الدخان، آية: 3.

والمناسبات الفردية والاجتماعية التي تعاقبت خلال البعثة النبوية، وكانت أول الآيات التي أنزلت على رسول الله ﷺ، قوله تعالى: **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم..﴾**[1].

وكان جبريل يعود إليه بين الحين والآخر ليطمئنه قائلاً: «يا محمد أنت رسول الله حقاً» فيسكن لذلك جأشه وتستقر نفسه، ثم يعود فيستأنف النزول ليتمم رسالة الله للبشرية..

وكثيراً ما تساءل اليهود وأهل الكفر، لماذا لم يُنزّل القرآن كله مرة واحدة كالتوراة مثلاً؟

﴿وقال الذين كفروا، لولا نُزّل عليه القرآن جملةً واحدة، كذلك لنثبّت به فؤادك، ورتّلناه ترتيلاً﴾[2] لكن إرادة الله شاءت ذلك، ليثبت به فؤاد نبيّه، ويقوّي به قلبه، بما يتجدد نزوله من القرآن بعد كل حدث أو واقعة، ولتيسير حفظ القرآن، فالنبي كان أميّاً لا يقرأ ولا يكتب، ففرقه بالنزول ليبسّر عليه حفظه، بخلاف غيره من الأنبياء والمرسلين...

وتذكر الروايات أن محمداً كان يدعو أحد صحابته كلما نزل جزء من القرآن ليُمليه عليه، ويحدد مكانة هذا الجزء الجديد في مجموع ما نزل عليه سلفاً، وكان النبي يطلب إلى كاتبه بعد الإملاء أن يقرأ له ما كتب، حتى يستطيع أن يصحح ما قد يكون ناقصاً.. وتذكر كذلك أن النبي كان يتلو أمام جبريل في رمضان من كل عام القرآن الذي أنزل عليه حتى ذلك الحين، وأن جبريل قد استقرأ النبي القرآن مرتين في آخر شهر رمضان من حياته، حتى أن المسلمين في عصر النبي اعتادوا السهر في شهر رمضان يسمعون القرآن كله في صلاة التراويح.. حتى صار القرآن يُحفَظ عن ظهر قلب، من قبل كثير من المؤمنين الحافظين الذين عرفوا القرآن وحفظوه بالكتابة والذاكرة معاً..

---

(1) سورة العلق.

(2) سورة الفرقان، آية: 32.

عن ابن عباس أن رسول الله قال: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل استزيده، ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف (قراءات)»[1].

وقال رسول الله أيضاً: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسّر منه».

جمع القرآن وترتيبه: كان يسجّل القرآن على الرق. والجلود. والألواح الخشبية وعظام ألواح البعير. والأحجار الطرية.

روي عن زيد بن ثابت أنه قال: «كنّا عند رسول الله نؤلف القرآن من الرقاع، وهذه الرقاع قد تكون من الجلد أو الورق أو الكاغد».

وكانت وسائل الكتابة على عهد رسول الله ﷺ: من اللِّخاف[2]، العُسُب[3]، الأكتاف[4]، والأقتاب[5]، وقطع الأديم[6]..

وكان للوحي كُتّاب صادقون، آمنوا بربهم عملوا على جمع القرآن وحفظه من التغيير أو التحريف أو التزوير. وكان ذلك بمشيئة الله وإرادته فهو جلّ شأنه الذي تكفل بجمع القرآن وحفظه، لقوله تعالى: ﴿إن علينا جَمْعَه وقُرآنه﴾.

كان من بين كتبة الوحي الذين عملوا على جميع القرآن وحفظه وتدوينه: الخلفاء الراشدون الأربعة، وزيد بن ثابت، والمغيرة بن شعبة، الزبير بن العوام، وأُبيّ بن كعب، وثابت بن قيس، ومعاوية بن أبي سفيان، وأخوه يزيد، وأنس بن مالك، وعبد الله بن مسعود، وخالد بن الوليد، وغيرهم. رضي الله عنهم جميعاً. وكان النبي يأمرهم بكتابة كل ما يُنزّل إليه من القرآن، ولذلك اهتموا بتلاوته وحفظه. قال رسول الله ﷺ: «خذوا القرآن عن أربعة: عبد

(1) صحيح البخاري..
(2) اللخاف: جمع لخفة وهي الحجارة الرقيقة.
(3) العسب: جمع عسيب وهو جريد النخل.
(4) الأكتاف: جمع كتف وهو عظم البعير أو الشاة.
(5) الأقتاب: جمع قتب وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير للركوب عليه.
(6) الأديم: الجلد.

الله بن مسعود، وسالم بن معقل، ـ مولى أبي حنيفة ـ، ومعاذ بن جبل، وأبيّ بن كعب»[1] يقول عبد الله بن مسعود: «والذي لا إله غيره ما نُزّلت آية من كتاب الله تعالى إلاّ وأنا أعلم فيمن نُزّلت، وأين نُزّلت»[2].

وكان محمد ﷺ من حفظ القرآن، وخير من جمعه، وكذلك كان صحابته. يقول البخاري في صحيحه: «إن عدد الحفّاظ في عهد الرسول كانوا سبعة من كبار الصحابة، وهم: عبد الله بن مسعود، سالم بن معقل، معاذ بن جبل، أبيّ بن كعب، زيد بن ثابت، أبو زيد بن السكن، أبو الدرداء»..

ويذكر أبو القاسم بن سلام في كتابه (القراءات) عدداً من الصحابة الذين حفظوا القرآن في صدورهم، وعرضوه على النبي وسمعه لهم، وهم: الخلفاء الراشدون الأربعة، وطلحة، وسعد، وابن مسعود وحذيفة، وسالم، وأبو هريرة، وعبد الله بن السائب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير، وعائشة، وحفصة، وأم سلمة، وهم من المهاجرين.. وعبادة بن الصامت، ومعاذ، ومجمع بن جارية، وفضالة بن عبيد، ومسلمة بن مخلد، وهم من الأنصار..

أما الذين حفظوا القرآن ولم يتيسر لهم عرضه على النبي الكريم فهم كثيرون جداً..

وكان همّهم الوحيد قراءة القرآن وحفظه، وتحفيظه والاستماع إليه بكل شغف واشتياق.

ومن الذين اشتهروا بإقراء القرآن وتعليمه من صحابة رسول الله: عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، أبيّ بن كعب، زيد بن ثابت، عبد الله بن مسعود، أبو موسى الأشعري، أبو الدرداء.... عن أبي موسى الأشعرى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إني لأعرف أصوات رُفقة الأشعريين بالليل حين

---

(1) رواه البخاري.

(2) أخرجه البخاري.

يدخلون، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أرَ منازلهم حتى نزلوا بالنهار»[1].

لقد كانت ألسنتهم تلهج بالذكر الحكيم، وكانت قلوبهم مليئة بالإيمان بقول الله العظيم؛ . . . وهؤلاء هم الفقهاء والعلماء في مدرسة القرآن وتعليمه في عصر النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم. وقد أخذ عنهم خلق كثيرون، وقد اعتمدوا في نقل القرآن على حفظ الصدور من الكتابة في السطور. . قال رسول الله: «إن ربي قال لي: إني مبتليك، ومُبْتَلٍ بك، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً، ويقظان»[2].

إن الله الذي أنزل القرآن المعجزة على عبده، تعهّد بالحفظ والصون من كل تحريف أو تشويه يطرأ عليه، فهو القائل جل شأنه: **﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾**[3].

وقد تحدّى الله تعالى بقدرته وعظمته أمم الأرض كلها أن يأتوا بحرف منه حين قال: **﴿قل لَئِنْ اجتمعت الإنسُ والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾**[4] فالقرآن المجيد هو معجزة رسالة الإسلام، وهو منزّه عن التغيير أو التحريف منذ نزوله وإلى يوم يبعثون. فهو قرآن مجيد في لوح محفوظ، بعيد عن كل تشويه أو تحوير أو تزوير. . .

لقد كُتب القرآن كله في عهد محمد ﷺ، وكان يقرؤه ويرتله ويحفظ لقوله تعالى: **﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهّرة، فيها كتب قيّمة﴾**[5]. لكنه لم يجمع في مصحف واحد في عهده وكان كل ما يُكْتب منه يوضع في بيت رسول الله، ويحتفظ الكاتب بنسخة منه، مع ما يحفظه الصحابة في صدورهم، وبهذا فقد حُفِظ بأمر الله. . . وقد ساهم خليفة رسول الله بجمع القرآن وحفظه فكان أبو بكر

---

(1) رواه الشيخان.
(2) رواه مسلم.
(3) سورة الحجر، آية: 9.
(4) سورة الإسراء، آية: 88.
(5) سورة البينة، آية: 2.

أول من جمع الآيات والسّور المكتوبة والمفرّقة في عهد الرسول في مصحف واحد، فقد طلب من زيد بن ثابت أن يعدّ نسخة كاملة من القرآن ففعل، وعمل زيد بمشورة عمر، فجمع كل ما استطاع من وثائق بالمدينة من شهادات الحافظين خلال سنة واحدة تقريباً..

كان ذلك في (12 هـ) بعد موقعة اليمامة، التي استشهد بها جمع كبير من الصحابة، من حفظة القرآن، في حربهم مع مسيلمة الكذّاب، الذي ادّعى النبوة، وقوي أمره بعد وفاة رسول الله.. قال علي بن أبي طالب: «رحم الله أبا بكر، فهو أول من جمع كتاب الله بين اللوحين». وقد بقيت هذه النسخة الكاملة عند أبي بكر حتى وفاته، ثم نُقِلت إلى عمر حتى وفاته، ثم إلى حفصة بنت عمر زوج رسول الله وأم المؤمنين، وهي تحفظ القرآن كله في صدرها، وكانت تجيد القراءة والكتابة، وفي عهد أبي بكر سمّي القرآن بـ«المصحف الشريف»...

وفي عهد عثمان بن عفان كلّف لجنة من حفظة القرآن في عام (25 هـ)، للتأكد من صحة هذه النسخة وهم: زيد بن ثابت، عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، ونسخوها في المصاحف بمنتهى الدقة، معتمدين على الأصل الموجود عند حفصة، التي هي بالأصل نسخة أبي بكر، المستند بدوره إلى أصل النبي، المكتوب بين يديه بأمره، وتوقيف منه.. وقد أوصى عثمان القريشيين الثلاثة بأنهم إذا اختلفوا مع زيد في شيء من القرآن، فلْيكْتبوه بلسان قريش، فإنه نزل بلسانهم، ففعلوا مثل ما أُمِروا.

وكانت النسخة الأصلية الصحيحة النقية، وأرسل عثمان إلى كل بلد مسلم مصحفاً مما نسخوا، وأمر بحرق كل كتابة من صحف أو مصاحف أخرى، لأن بقاءها سيزيد من أسباب الخلاف بين صفوف المسلمين، ويفرق كلمتهم، وأرسل مع كل نسخة من المصحف إلى بلاد المسلمين حافظاً يوافق قراءته، فكان زيد بن ثابت مقرىء المصحف المدني. وعبد الله بن السائب مقرىء المصحف المكّي. والمغيرة بن شهاب مقرىء المصحف الشامي. وأبو عبد

الرحمن السلمي مقرىء المصحف الكوفي. وعامر بن عبد القيس مقرىء المصحف البصري..

وكان القرآن العثماني خالياً من النقاط[1] والشكل، ومن أسماء السّور والفواصل، وكانت صحفه مجردة من الشروح والتفاسير، التي أضافها بعض الصحابة للتفسير والإيضاح، إلى أن تمّ وضعه وإخراجه على أفضل صورة بمساعدة: عبد الله بن زياد (ت 67 هـ). والحجاج بن يوسف الثقفي (ت 95 هـ). ومساهمة كل من أبي الأسود الدؤلي (ت 69 هـ). ويحيى بن يعمر (45-129 هـ). ونصر بن عاصم الليثي (ت 98 هـ). في تنقيط المصحف، وتشكيله حتى أصبح في أبهى صورة، وأجمل منظر، في نهاية القرن الثالث الهجري، ولم يزل كذلك، وسيبقى إلى الأبد لأن الله يحفظه..

ترتيب السّور والآيات:

كان يتم ترتيب السور والآيات وفق إشارة النبي وتوقيفه، وكان ذلك بوحي من الله جلّ شأنه. يقول الزركشي: «فأما الآيات في كل سورة، ووضع البسملة في أوائلها، فترتيبها توقيفي بلا شك، ولا خِلاف فيه، ولهذا لا يجوز تعكيسها». فقد أوحى الله إلى نبيه ترتيب الآيات ضمن سورها، ليقطع دابر كل اختلاف في الآراء حول ذلك.

قال ابن عباس: لما نُزِّلت آخر آية قرآنية على النبي **﴿واتقوا يوماً تُرجَعون فيه إلى الله﴾**.

قال له جبريل: يا محمد ضعها على رأس ثمانين ومئتي آية من سورة البقرة..

---

(1) التنقيط: وضع أبو الأسود الدؤلي حركات الإعراب بشكل نقط، بلون مغاير للون الحروف، وطورها الخليل بن أحمد الفراهيدي، الذي جعل حركات الإعراب كما هي عليه اليوم. أما التنقيط فقد قام به نصر بن عاصم. لتمييز الحروف المتشابهة عن بعضها بالنقط...

فقد كان جبريل عليه السلام يعلّم الرسول عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، مواضع الآيات وترتيبها في سورها بالمكان الصحيح..

فضل القرآن وقراءته:

قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»[1].

وفي حديث آخر عن أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مثل الذي يقرأ القرآن كالأُتْرُجَّة[2] طعمها طيّب وريحها طيّب، والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها طيّب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مرّ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مرّ ولا ريح لها»[3]. إنه قول الله عز وجل. ومن أصدق من الله حديثاً، فلا يعلو عليه قول، ولا يجاريه كلام، فيه الهدى والشفاء. وفيه الرحمة لكل العالمين.

قال تعالى: **﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى﴾**[4].

وقال جلّ شأنه: **﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾**[5].

ويأبى الذين كفروا قراءة القرآن والاستمتاع بهديه، ونوره، ويعرضون عنه ويلْغون فيه، قال تعالى: **﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والْغوا فيه لعلكم تغلبون﴾**[6]. فقد أمرنا الله جل شأنه بقراءة القرآن والتفكر بآياته وبه

---

(1) رواه مسلم.
(2) الأترجة: فاكهة معروفة تطرد الجن من البيت إن وجدت فيه.
(3) صحيح بخاري.
(4) سورة فصلت، آية: 44.
(5) سورة الإسراء، آية: 82.
(6) سورة فصلت، آية: 26.

تطمئن القلوب وبخاصة قرآن الفجر ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾[1]. وقال كذلك: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله، لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[2].

ولم يشجّع الشرع الإسلامي قراءة الكتب غير القرآن، لقول رسول الله ﷺ: «لا تُصدّقوا أهل الكتاب، ولا تُكذّبوهم، وقولوا آمنّا بالذي أُنزِل علينا، وأُنزِل إليكم وإلٰهنا وإلٰهكم واحد».

وقد رأى النبي يوماً ورقة من التوراة في يد عمر بن الخطاب، فغضب حتى تبيّن الغضب في وجهه، ثم قال رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام: ألم آتكم بها بيضاء نقية؟ والله لو كان موسى حيّاً ما وسعه إلّا اتباعي..

ما أعظم القرآن، وأعذب قراءته، وما أجلّه، وأكرمه، وأكمله، فقد ختمه الله بقوله الكريم: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾[3].

وقد قال عن هذه الآية الكريمة طارق بن شهاب: إن اليهود قالت لعمر بن الخطاب: إنكم تقرؤون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً..

فلماذا لا نتخذه كذلك نحن معشر المسلمين؟ ولماذا لا نهتدي بهدْيه وننهَج نهجه؟... اللهم ارحمنا بالقرآن، واجعله لنا إماماً ونوراً، وهدىً ورحمة...

(ب) الحديث النبوي «السُّنّة»:

هو كل ما أُثِر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، ويُعدّ بمنزلة القرآن الكريم في العمل بتحليله وتحريمه. لقوله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه

(1) سورة الإسراء، آية: 78.
(2) سورة النساء، آية: 82.
(3) سورة المائدة، آية: 3.

وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[1]. وتعدّ السّنة النبوية المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، لقوله تعالى: **﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزِّل إليهم﴾**[2]. وحقيقة السنة النبوية أنها وحْي من الله تعالى قالها بصيغته: ويبيّن رسول الله ﷺ موضّحاً الفرق بين كلام أوْحاه الله إليه وكلامه الشخصي، فيقول «إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر»[3]. وجاء في قوله تعالى: «**﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحىٰ إليّ﴾**[4].

فالفرق واضح بين حديثه ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، والذي لا يدخله الريب، ولا يقربه الباطل، وحديثه الشخصي الذي لا وَحْيَ فيه، فهو قد يخطىء ويصيب. . . .

ذكر السرخسي في أصوله قول النبي ﷺ: «إذا أتيتكم بشيء من أمر دينكم فاعملوا به، وإذا أتيتكم بشيء من أمر دنياكمّ فأنتم أعلم بأمر دنياكم».

وقد ظل الحديث النبوي يتداول شفهياً لفترة طويلة، ولم يجرؤ أحد على كتابته حتى ظهرت أول مجموعة مكتوبة لأحاديث الرسول بعد وفاته بزمن طويل. وكانت أضخم المجموعات من الأحاديث النبوية، تلك التي ظهرت بعد وفاة الرسول بأكثر من قرنين من الزمن. . فقد جُمعت أوسع المعلومات وأوثقها، بالرغم من أنه لم يكتبها شاهد عيان، ولهذا كان من الأحاديث ما هو صحيح بإجماع علماء الحديث، ومنها أحاديث مشكوك فيها، وأخرى ضعيفة، ومنها أحاديث مرفوضة قطعاً. .

فقد ورد عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «لا تكتبوا عنّي شيئاً سوى القرآن، ومن كتب عني شيئاً سوى القرآن فلْيمحه». وعن علي بن أبي طالب عن الرسول ﷺ أنه قال: «لا تكذبوا عليّ، فإنّ مَن كَذب عليّ فلْيلج النار». .

---

(1) سورة الحشر، آية: 7.
(2) سورة النحل، آية: 44.
(3) رواه مسلم.
(4) سورة الكهف، آية: 110.

وقد عني الصحابة والتابعون بحفظ السنة النبوية رواية، وكتابة، وإسناداً. ففي عهد عمر بن عبد العزيز (99-101 هـ). أقبل العلماء من المسلمين على جمع الأحاديث النبوية المدونة، وإخراجها في مؤلفات، وكتب مختلفة. وكان أسبق الناس إلى جمع الحديث النبوي، الإمام محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، الذي أمره الخليفة أن يدون حديث الرسول ﷺ، فوضع كتاباً بذلك. كما أمر أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم بتدوين الحديث، وكان هذا قاضياً، ووالياً على المدينة، فوضع كتاباً جمع فيه أحاديث الرسول ﷺ وتوفي سنة (120 هـ).

واستمر تأليف الحديث وجمعه وترتيبه وتنسيقه فيما بعد.. وكان أشهر من كَتب عن النبي أحاديثه رافع بن خديج، وجابر بن عبد الله، وسمرة بن جندب، وعلي بن أبي طالب. وغيرهم كثيرون حفظهم الله. وكتب المؤرخون كذلك عن سيرة رسول الله منذ ولادته وحتى وفاته، وما لاقاه من معاناة في سبيل نشر رسالة الإسلام...

وقد عُرف رُواة الحديث بعدم التهم، ونزاهتهم، سواء أكان هؤلاء الرواة من صحابة رسول الله ﷺ أو من التابعين، ولم يذكروا حديثاً عن أحد إلا إذا ذكر سنده حتى قالوا: «الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقالَ مَنْ شاء ما شاء»، وقد صنّفوا الأحاديث حسب درجة الإسناد والرواية إلى: صحيح، حسن، ضعيف، مرسل، منقطع، معضِل، شاذ، وغريب، وغيره..

وقد بوّبوا كل واحد منها: ونقلوا كل ما فيه من وفاق أو خلاف، فكانت في مجموعات ثلاث: الأحاديث الحسنة، الأحاديث الضعيفة. والأحاديث الموضوعة.

ونظروا في كيفية النقل عن بعضهم بقراءة أو كتابة، أو مُناولة، أو إجازة.. وكانت أحوال نَقَلة الحديث من الصحابة والتابعين معروفة عند أهل بلدهم، فمنهم بالحجاز، ومنهم بالبصرة والكوفة، ومنهم بالشام، ومنهم بمصر... وكانت طريقة أهل الحجاز في أسانيدهم أعلى ممّن سواهم، وأمتن في الصحة

لاستبدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط، وتجافيهم عن قبول المجهول الحال في ذلك.. وسند الطريقة الحجازية بعد السلف: الإمام مالك عالم المدينة وأصحابه مثل الإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل، وأمثالهم ممّن تحرّوا الصدق والصحّة في نقلهم حتى أكملوا علم التشريع الإسلامي.. ومن أشهر الأئمة الأفاضل ممّن كَتَب في السنة وألّف فيها:

* الإمام أنس بن مالك: الذي ألف كتابه «المُوطَّأ» الذي أودعه أصول الأحكام من الأحاديث الصحيحة المتّفق عليها، ورتّبها على أبواب الفقه. وقال عنه الإمام الشافعي: «ما على الأرض كتاب بعد كتاب الله أصحّ من كتاب مالك». فهو لم يكن يعتمد الحديث إلا بعد التأكد من رُواتِه وأسانيده ومُطابقته الفعلية للقرآن... يقول مالك حسبما نقله الحافظ بن عبد البرّ وغيره: «انظروا في رأيي، فكلما وافق الكتاب والسنّة فخذوا به. وكلما لم يوافق الكتاب والسنّة فاتركوه». وعن أبي حنيفة أن مالك قال: «إذا صحّ الحديث فهو مذهَبي»..

* الإمام البخاري، إمام المحدّثين في عصره الذي أخرج أحاديث السنة على أبوابها من مُسنَدِه الصحيح بجميع الطرق التي لأهل الحجاز والعراق والشام. وكان يكرر الأحاديث التي يسوقها في كل باب بمعنى ذلك الباب الذي تضمنه الحديث.. فتكرّرت لذلك أحاديثه حتى قيل إنها اشتملت على تسعة آلاف ومئتي حديث منها ثلاثة آلاف حديث متكرر. وكتاب الإمام البخاري «الجامع الصحيح» فيه أحاديث مرفوعة متصلة الإسناد إلى رسول الله ﷺ، ويُعدّ أصدق الكتب وأصحّها بعد كتاب الله..

* الإمام مسلم بن الحجّاج القشيري، الذي ألف مُسنَده الصحيح، وقد اتبع فيه طريقة البخاري في نقل الأحاديث المُجْمَع عليها وحَذَف المتكررة منها وجَمَع الطرق والأسانيد وبَوّبه على أبواب الفقه وتراجمه، وهو أصح الكتب بعد صحيح بخاري.

* كما كَتَب في الحديث كذلك الأئمة: أبو داوود السجستاني، وأبو عيسى الترمذي، وأبو عبد الرحمن النسائي، وأبو عبد الله الحاكم، وأبو

عمرو بن الصّلاح، ومحي الدين النّووي، وغيرهم.. رضي الله عنهم جميعاً وجزاهم كل خير..

الحديث القدسي:

هو كلام الله تعالى، الذي أخبر محمداً ﷺ، معناه بالإلهام أو المنام، وليس عن طريق الوحي أو التنزيل، فأخبر محمد ﷺ بدوره أمّته، هذا الحديث بعبارة نفسه ويختلف هذا القول عن القرآن الكريم الذي أنزله الله على نبيّه الكريم بطريقِ الوحي. كما أنه يختلف عن الحديث النبوي الذي قاله محمد ﷺ ورُوي عنه بشكل مسند ومتواتر.

والحديث القدسي هو الحديث الإلٰهي أو الربّاني وهو كل ما معناه من عند الله تعالى ولفظه من عند رسول الله ﷺ يرويه عن ربه عز وجل، فهو من كلام الله وقد جاء في أكثر من مئة حديث تتكرر في روايات الأئمة. ولا تنحصر الأحاديث بكيفية ما من كيفيات الوحي بل يمكن أن تنزل بأي كيفية من كيفياته كرؤيا النوم، والإلقاء في الرّوع، وغير ذلك.. والفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي ما ورد في فوائد الأمير حميد الدين وقد جاء على ستة أوجه:

- أولاً: أن القرآن معجز، والحديث القدسي ليس معجزاً.

- ثانياً: أن الصلاة لا تصح إلا بالقرآن الكريم، بخلاف الحديث القدسي.

- ثالثاً: أن جاحد القرآن كافر، بخلاف الحديث القدسي.

- رابعاً: أن جبريل عليه السلام كان واسطة بين النبي وخالقه لتنزيل القرآن، بخلاف الحديث القدسي.

- خامساً: يكون اللفظ في القرآن بقوله تعالى، أما الحديث القدسي فيجوز أن يكون اللفظ من رسول الله.

- سادساً: إن القرآن لا يمسه إلا المطهرون بينما الحديث القدسي يجوز مسه من الحدث.

فالقرآن معجزة أبدية باقية على مر الدهور، حفظه الله من كل تغيير أو تبديل، ويُحرَّم مسُّه للمحدث، فلا يمسه إلا المُطهَّرون، ولا يجوز تِلاوته من الجُنب، ولا تجوز روايته بالمعنى، ويكون لفظه وقراءته كما نزل ولا تجوز الصلاة بدونه، وكل حرف منه بعشر حسنات ولا يجوز بيعه تحريماً أو كراهية.

أما الحديث القدسي فيمكن مسُّه وتلاوته لمن ذُكِر، وروايته بالمعنى ولا يُجزي في الصلاة بل يبطِلها، ولا يسمّى قرآناً مع أنه كلام الله، ولا يُثاب قارئه بكل حرف عشر حسنات، ويجوز بيعه فلا يُمنَع ولا يُكْرَه، والأحاديث القدسية موجودة في كتب الأحاديث لأئمة المسلمين وفقهائهم...

فهو في موطأ الإمام مالك، وفي صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وجامع الترمذي، وسنن أبي داوود، وسنن النسائي، وابن ماجه، وغيرهم رحمهم الله ورضي عنهم جميعاً وجزاهم كل خير....

(جـ) الإجماع:

وهو المصدر الثالث من مصادر التشريع الإسلامي، ويعني اتفاق جميع المجتهدين من أئمة المسلمين وفقهائهم على حكم شرعي في زمن ما.. وكل فتوى تخرج عن الإجماع باطلة في نظر أئمة الدين. قال رسول الله ﷺ: «لا تجتمع أمتي على ضلالة»[1]. وفي زمن صحابة رسول الله كان الخليفة أمير المؤمنين إذا سُئل عن قضية ما بحث عن حُكْمِها في القرآن، فإن لم يجد بحث في السُّنة، وإن لم يجد جمع العلماء والأئمة من المسلمين فاستشارهم فيه.. فإن اتفقت آراؤهم وأجمعوا على حكم ما كان ذلك هو القرار الفصل، كإجماع المسلمين على قتال مانعي الزكاة، وغير ذلك من أحكام..

(د) القياس:

وهو أصل من أصول الشريعة الإسلامية، الغرّاء، وبه اتسع نطاقها، ويعني قياس الأمور بأشباهها ونظائرها، ويعدّ المصدر الرابع من مصادر التشريع

(1) رواه الإمام أحمد وغيره.

الإسلامي، ويجب العمل به شرعاً، بدليل الكتاب والسنّة والإجماع والعقل. قال الإمام أحمد بن حنبل: «لا يستغني أحد عن القياس». وقد أجمع الفقهاء، أن نظير الحق حق، ونظير الباطل باطل. وقد كثر المجتهدون في الإسلام في العصور الأولى. ولم يبق من مذاهبهم إلّا: مذهب أبي حنيفة، ومذهب مالك بن أنس، ومذهب الشافعي، ومذهب أحمد بن حنبل، رضي الله عنهم جميعاً. . . .

5 ـ مُحمَّد «عليه الصلاة والسلام»:

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب «شيبة» بن هاشم «عمرو» بن عبد مناف «المغيرة بن قصيّ «زيد» بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة «عامر» بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدّ بن مقوّم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب نابت بن إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن بن تارح «آزر» بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالخ بن عبير بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ «ادريس» بن يرد بن مهليل بن قينن بن يانش بن شيث بن آدم[1].

(أ) مولده:

ولد محمد ﷺ يوم الإثنين في 12 ربيع الأول في عام الفيل الموافق 20 آب (570 م)، في دار جده عبد المطلب بمكّة، وكان أبوه عبد الله قد توفي قبل ولادته، وقد سمّاه جدّه محمداً[2] في اليوم السابع من ولادته، واسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر هي حليمة ابنة أبي ذؤيب زوجة الحارث بن عبد العزّى. وكان قد رضع أيضاً من ثويبة جارية أبي لهب فترة من الزمن وهي التي

---

(1) من كتاب سيرة ابن هشام.

(2) محمّد: سمّي بهذا الاسم قبل رسول الله ثلاثة أطفال فقط هم: محمد بن سفيان بن مجاشع جدّ الشاعر الفرزدق، ومحمد بن أحيحة بن الحلاّج محمد بن حمران بن ربيعة..

وقد علم آباؤهم من أهل الكتاب بقدوم نبي هذه الأمة، فسمّوا على اسمه تيمنا..

أرضعت بعده عمه حمزة. فكانا أخوي رضاع، أما إخوته في الرضاعة من حليمة فهم: عبد الحارث، وأنيسة، وحذيفة وهي الشيماء.. بقي في بادية بني سعد حتى الخامسة من عمره، ينهل الفصاحة والبلاغة من منابعها، وكثيراً ما كان يعتزّ بذلك، ويتباهى حيث قال: «أنا أعربكم، أنا قرشيّ، واستُرضِعْت في بني سعد بن بكر». كفله جده عبد المطلب، ولما بلغ من العمر ست سنين توفيت أمُّه بالأبواء، ودفنت فيها، بين مكة والمدينة، في أثناء زيارة قبر زوجها، وهي برفقة ولدها محمد، وجاريتها أم أيمن... توفي جده عبد المطلب عن عمر يناهز ثمانين عاماً، وكان عمر محمد (8) سنوات، حيث انتقل للعيش في كنف عمه أبي طالب «أخي عبد الله من أبيه وأمه»، الذي أخذ يصحبه معه إلى التجارة ولم يفارقه أبداً، وكان على فقره وكثرة عياله، أنبل وأكرم أولاد عبد المطلب، وقد عانى مرارة اليتم من الأب والأم والجد، فرفق به عمه أبو طالب وصَحِبَه في رحلة إلى الشام، حيث وقعت قصّة مع الراهب «بحيرا» في بصرى عاصمة الغساسنة والذي رأى خاتم النبوة على ظهره بين كتفيه، والذي أوصى به عمه أبا طالب وحذّره من اليهود، فهم إن عرفوه قتلوه...

ولمّا شبّ محمد عليه الصلاة والسلام عمل برعي الغنم عند أهله في قريش بمكة، مغتبطاً حيث يقول: «ما بَعثَ الله نبيّاً إلاّ راعي غنم».

وفي العشرين من عمره شهد مع أعمامه حرب الفِجَار بين كنانة وقيس، فهو يقول: «كنتُ أُنَبِّل علىٰ أعمامي». فتمرس في بداية حياته على الخشونة والقسوة والتدريب وعلى التجارة والقتال. وكان أشدها مرارة اليتم والحرمان. حضر مع أعمامه حلف الفضول، في دار عبد الله بن جدعان. ذاع صيت محمد بين قومه وأصحابه بعظم الأمانة وصدق الحديث، وطيب المعاملة وحسن المعشر، وكرَم الأخلاق، وبدأ منذ نشأته بمظهر الرجولة والكمال وأمانة النفس حتى لُقِّب بـ «الأمين».

(ب) دور خديجة في حياته:

عُرف محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم بصدقه وأمانته، وعَرفت عنه

خديجة بنت خويلد كل خير، فاستدعته، وهي امرأة صاحبة تجارة، وذات شرف ومال، وخرج بتجارتها إلى الشام، برفقة ميّسرة غلام خديجة، وكانت هذه رحلته التجارية الثانية إلى الشام. ولما عاد من تجارته إلى مكة، أعجبت خديجة به وبأمانته وبأخلاقه الفاضلة، فمالت إليه، فقالت له: يا ابن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك وسطّتك «شرفك» في قومك، وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها، وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهنّ مالاً.. فقبل بها محمد ﷺ، وخطبها له عمه حمزة من أبيها، فتزوجها وكان عمرها أربعين سنة، وهو في الخامسة والعشرين من العمر، وكان صداقها عشرين بكرة. وبقيت معه حتى توفيت، ولم يتزوج غيرها في حياتها. وولدت له كل أولاده ما عدا إبراهيم[1]، وهم: القاسم، والطيب، والطاهر، وعبد الله، وجميعهم ماتوا في الجاهلية.

أما البنات وهنّ: زينب، ورقيّة، وأم كلثوم، وفاطمة، فقد أدركن الإسلام وأسلمن. وهاجرن مع رسول الله ﷺ، وقد زُوِّجت زينب من أبي العاص بن الربيع، وهو ابن خالتها، وتزوجت رقية وأم كلثوم عتبة وعتيبة ابني عمه أبي لهب.

وبعد الإسلام سرحتا، فتزوجهما عثمان بن عفان «ذو النورين» الواحدة بعد الأخرى.

وأما فاطمة فتزوجت علياً بن أبي طالب بعد الإسلام. وكانت خديجة[2] أول من آمن برسول الله من النساء، وصدّقت رسالته، وكانت تخفف عنه وتواسيه، وتؤازره في محنه ومآسيه، وخاصة في بداية بعثته النبوية.

(جـ) صفات الرسول وأخلاقه:

النبي الصادق الأمين أعظم من أن يوصف بكلام من كاتب، أو بأبيات من

---

(1) إبراهيم من مارية القبطية التي أهداها المقوقس عظيم أقباط مصر إلى محمد رسول الله.

(2) خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصيّ بن كلاب، كانت قد تزوجت مرتين في بني مخزوم، ومات عنها زوجاها، فورثت عنهما أموالاً وافرة...

شاعر، فقد كان رسول الله ﷺ، أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأشرفهم نسباً، كان أحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم عن الفحشاء والرذيلة، وأعظمهم أمانة حتى لقب بـ «الأمين».. كان كامل الخَلْق والخُلُق حتى وصفه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ وقال عنه كذلك: ﴿وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين﴾. قال ابن إسحق عن صحابة رسول الله عندما قالوا له: أخبرنا عن نفسك؟ قال: «نعم أنا دعوة أبي إبراهيم، وبُشرىٰ أخي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر».

وقال رسول الله متباهياً معتزّاً في حسبه ونسبه: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريش، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار، من خيار»...

كان المصطفى عليه الصلاة والسلام رجلاً معتدل القامة، متوسط الطول، كثيف الشعر، سبط الأطراف، عريض بين الكتفين، أبيض اللون مشرباً بحمرة، أكحل العينين، أدعجهما، وكان حاضر البديهة، فصيحاً بليغاً، سريع الجواب في أدب ووقار. وكان ﷺ أوسع الناس صدراً، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، وكان شديد الحياء إلاّ في حدود الله، حتى قيل عنه: بأنه أشد حياء من العذارى، وكان عاقلاً فطناً، ذا رأي سديد، وفكر ثابت، وعقل راجح رغم أميته. كان حكيماً فقد ألّف بين الأوس والخزرج، وكان قد أنهى خلافاً محتّماً بين أهل قريش عند إعادة بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود مكانه، فكان حكم الأمة وأمينها، وهو في الخامسة والثلاثين من عمره، ووضع الحجر وبني عليه، ورضي الجميع بحكمته وتحكيمه، وكان يكظم غيظه، ويصفح عن المسيء، ويصبر على المكاره والشدائد، كان يعطي من حرمه، ويصل من قطعه، ويعفو عمن ظلمه. كان رسول الله ﷺ عفوّاً عند المقدرة، وهو القائل للمشركين من قريش يوم فتح مكة بعد أن وقعوا في قبضته: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» وكان رؤوفاً رحيماً، لم ينتقم لنفسه يوماً إلاّ إذا انتهكت حرمة الله فينتقم لله وحده، وكان

يدعو على أحد، ولا يلعن أحداً، بل كان يقول دائماً: «إنني لم أبعث لعّاناً، ولكني داعياً ورحمة: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون». وكان يتحمل زلات قومه وهفواتهم، فقد قال له أحدهم عند قسمة بعض الغنائم: اعدل، هذه قسمة ما أريد بها وجه الله. فكان جوابه: ويحك، فمن يعدل إن لم أعدل.

وكان رقيق القلب لطيف المعشر، قال تعالى يخاطبه: ﴿**لو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك**﴾ وكان جواداً كريماً حتى قال عنه ابن عباس: أنه كان أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في رمضان، وكان شجاعاً فارساً مغواراً، لم يكن أحد أقرب إلى العدو منه، وكان يحتمي به صحبه من ضرب النبال أو السهام. وكان كثير الشفقة والرحمة بالمؤمنين، قال تعالى يخاطبهم: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾. كان يحب الوفاء بالوعد، ولا ينقض عهداً لأحد، ولم يكن يحب الوشاة، ولا النمّامين، ولا الكاذبين، قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر».

قال جلّ شأنه: ﴿**قل سبحان ربي هل كنت إلاّ بشراً رسولاً**﴾[1]. وكان رسول الله متواضعاً أمام أصحابه، وهو الذي علّمهم قائلاً لهم عندما وقفوا له احتراماً وتعظيماً: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يعظم بعضهم بعضاً». وكان يصل الرحم، يتفقد أصحابه، ويزور المساكين والفقراء، وكان يجلس بينهم حيث انتهى به المجلس، وهو الذي خاطب الأعرابي الذي رهبه وخاف منه بقوله: «هوّن عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد». وكان يعامل الخدم وكأنهم أبناؤه، وكان يحب الأطفال وملاطفتهم ومداعبتهم.. هذه أخلاق الرسول الكريم ﷺ، أفضل الخلق، القائد والزعيم، الذي تهذّب بمدرسة القرآن، وتحلّى بآدابه، فكان حقاً على خلق عظيم....

(د) حجة الوداع (10 هـ - 631 م):

خرج رسول الله ﷺ إلى الحج في هذا العام، وكان عدد الحجاج من

---

(1) سورة الإسراء، آية: 93.

المسلمين قرابة مئة ألف مسلم، فقام الرسول وطاف بالبيت العتيق، وسعى بين الصفا والمروة، ثم توجه إلى منى، فبات فيها يوم الثامن من ذي الحجة، ثم صعد إلى جبل عرفات في التاسع منه، وهناك ألقى خطبته الخالدة على الحجاج المسلمين في ذلك المؤتمر الإسلامي الكبير، تلك التي اعتبرت وثيقة من الدستور الإسلامي، لما شرح وقدّم فيها من أصول الدين الإسلامي الحنيف وقواعده فقد نادى بالمساواة بين المسلمين على اختلاف عروقهم وأجناسهم وألوانهم، فلا فرق في ذلك بين عبد حبشي أو شريف قرشي. جاء فيها:

«أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، لا فضل لعربي على عجمي إلاّ بالتقوى. . .».

واختتم خطابه بقوله: «اللهم هل بلّغت؟ فقالوا: نعم. قال: اللهم اشهد». وقد أتم الله عز وجلّ تنزيل كتابه الكريم على رسوله العظيم، بنزول الوحي ليبلّغه آخر آيات القرآن الكريم، في أثناء عودته إلى المدينة، فلما وصل المكان المعروف بالصخرات، هبط الوحي وكلّمه آخر كلمات ربه، وهي الآية الكريمة: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾**[1].

لقد أنهى رسول الله مناسك الحج ثم توجه عائداً إلى المدينة بعد قضاء عشرة أيام في مكة المكرمة وقد سمّيت حجة الوداع لأنه ودّع جموع المسلمين ولم يحج بعدها، ولم يكن قد حج قبلها، وكان على موعد مع قدره. وسمّيت أيضاً حجة البلاغ لأنه حين ودّعهم خطبهم. وقال في خطبته: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض». وأحج رسول الله نساءه كلهن معه، وابنته فاطمة أيضاً. ولم يمض على حجة الوداع هذه ثلاثة شهور حتى مرض محمد ﷺ، ثم انتقل إلى جوار ربه بعد أن بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، كما كلفه بها الله العلّي القدير. . .

(1) سورة المائدة، آية: 3.

(هـ) مرض الرسول ووفاته:

في السنة العاشرة للهجرة، وبعد حجة الوداع بثلاثة أشهر، أُصيب محمد ﷺ بالحمّى، وبقي مريضاً مدة ثلاثة عشر يوماً، كان يتنقل خلالها إلى بيوت زوجاته، حتى اشتد عليه المرض، فاستأذن زوجاته أن يمرّض في بيت عائشة بنت أبي بكر، فأُذِن له. ولم يعد بإمكانه الخروج إلى الصلاة. فأناب عنه أبا بكر ليصلّي بالمسلمين، ولما علم الأنصار بذلك تجمعوا حول المسجد يريدون مشاهدته، والاطمئنان عليه، فخرج إليهم متكئاً على ابني عمه: علي بن أبي طالب، والفضل بن العباس، وهو معصوب الرأس، فخاطب المسلمين قائلاً: «أيها الناس، بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم، هل خُلِّد نبي قبلي فيمن بعث الله، فأُخلَّد فيكم؟ ألا إني لاحق بربي، وإنكم لاحقون بي، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصي المهاجرين فيما بينهم، وإن الأمور تجري بإذن الله، ولا يحملنّكم استبطاء أمر على استعجاله، فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد، ومن غالب الله غلبه، ومن خادع الله خدعه، وأوصيكم بالأنصار خيراً، فإنهم الذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم، ألا فإنّ موعدكم الحوض، ألا فمن أحبّ أن يرده علي غدا فليكفف يده ولسانه إلّا فيما ينبغي».

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت وهو مسند إليّ ظهره يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق». وكانت آخر كلمة تكلم بها رسول الله قوله: «اللهم الرفيق الأعلى».

لقد كان فضل محمد ﷺ على البشرية كبيراً جداً، «وإذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ»[1]..

وفي يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة الموافق الثامن من حزيران من عام (632 م) انتقل رسول الله الأعظم إلى الرفيق الأعلى وقد أتمّ الثالثة والستين من عمره. وقد دخل الجزع نفوس

(1) غوستاف لوبون في كتاب حضارة العرب.

المسلمين كما أنكر بعضهم وفاة رسول الله، حتى علم أبو بكر الخبر، فدخل بيت عائشة، وكشف عن وجه رسول الله، وأخذ يقبله ويبكي وهو يقول: «توفي والذي نفسي بيده، صلوات الله عليك يا رسول الله، ما أطيبك حياً وميتاً، بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك مرتين». ثم خرج أبو بكر وخاطب جموع المسلمين قائلاً: «أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت. إن الله قد تقدم إليكم في أمره، فلا تدعوه جزعاً وإن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم، وقبضه إلى ثوابه، وخلّف فيكم كتابه وسنّة نبيه، فمن أخذ بهما عرف، ومن فرّق بينهما أنكر». ثم تلا قوله تعالى: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾. وقوله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين﴾..

فلما سمع عمر قال في نفسه: فكأني لم أتلُ هذه الآية قط.

جهّز رسول الله، وغسّله علي بن أبي طالب بمساعدة عمه العباس وابنه الفضل، وكفن في ثلاثة أثواب، ووضع على سريره في بيته، ودفن في حجرة عائشة في اليوم التالي من وفاته، في يوم الثلاثاء أو ليلة الاربعاء، «فالأنبياء يدفنون حيث يقبضون..».

لقد عاش محمد ﷺ ثلاثة وستين عاماً، منها أربعون عاماً قبل البعثة، وثلاثة عشر عاماً بعدها، أقامها في مكة، وعشر سنين في المدينة.

لقد ولد يتيماً، وعاش فقيراً أمياً، لكنه أوجد أمة عظيمة كانت خير أمة أخرجت للناس، وسنّ شريعة جامعة، وأسس دولة قوية، وما زالت أمته الإسلامية تنادي في كل الآفاق وإلى الأبد: لا إله إلا الله، محمد رسول الله..

6 ـ الدعوة النبوية: (610 م):

كان بعض الناس من أهل مكة وهم في الجاهلية، يخلون إلى أنفسهم في شهر رمضان، يتفكرون في خلق السموات والأرض، ويتأملون في قدرة الله جل

شأنه، ويذكرون الله كثيراً.

فكان عبد المطلب أول من تعبّد في غار حراء قرب مكة، وكانت له سنن وأعمال جاء بأكثرها القرآن، وجاءت بها السنّة النبوية أيضاً، كالوفاء بالنذر، والمنع من نكاح المحارم، وقطع يد السارق، والنهي عن وأد البنات، وتحريم الخمر، والزنا، وأن لا يطوف بالبيت عرياناً، ويقال في آخر حياته رفض عبادة الأصنام. واقتفى أثره حفيده محمد عليه الصلاة والسلام، فكان يتعبد في الغار ذاته، يذكر الله ويوحده على دين من سبقه من الأنبياء والرسل على ملة إبراهيم، بعيداً عن الأصنام والوثنية وكان إذا انتهى من عبادته في الغار تحول إلى الكعبة فيطوف بها سبعاً، ثم يعود إلى بيته. واستمر على ذلك حتى بلغ من العمر الأربعين، عندما ناداه الله وأرسله رحمة للعالمين، وبعثه للناس بشيراً ونذيراً.

وكانت الليلة المباركة التي جاءه بها الوحي جبريل صوت الحق من عند الحق يبلّغه رسالة ربه لينذر بها الناس، كل الناس، يدعوهم فيها إلى ترك الوثنية ونبذ الأصنام، وعبادة الله وحده..

بدء الدعوة:

بدأ نزول الوحي على محمد ﷺ وهو يتعبد في غار حراء، وقد غشيه نور نازل من السماء، وهو في سنة من النوم.

يذكر ابن هشام في سيرته عن ابن إسحق، يقول رسول الله: فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج في كتاب فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارىء، قال: فغتّني حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، وتكرر هذا الحوار ثلاث مرات.. حتى إذا قال: اقرأ، فقلت: ماذا اقرأ؟ فقال: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم**﴾. قال: فقرأتها، ثم انتهى وانصرف عني، وهببت من نومي، فكأنما كتبت في قلبي كتاباً، فخرجت حتى إذا كنت وسط الجبل، سمعت صوتاً من السماء ينادي: «يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل» نطق الوحي، فأنطق لسان محمد لأول مرة بالقرآن الكريم، وهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة، فدين محمد دين علم، ودين

قراءة، فالكلمة أولى فيه كانت اقرأ. .

عاد محمد إلى بيته خائفاً هلِعاً، وحكى إلى زوجته خديجة، ماذا جرى معه، فهدّأت من روعه قائلة: «ابسر يا ابن عم، واثبت، فوالذي نفسي بيده إني لآمل أن تكون نبي هذه الأمة» عرضت الأمر على ابن عمها «ورقة بن نوفل» وكان نصرانياً، وعلى جانب من العلم والمعرفة، فقال لها: إنه قد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبيّ هذه الأمة، فقولي له فلْيَثْبُت. . .

ثم عاوده الوحي وهو في بيته، فقال له كلام الله: **﴿يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبّر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر﴾**[1].

قام محمد ﷺ ولبّى النداء، وبدأ كفاحه ضد الوثنية، وعبادة الأصنام. . وكانت خديجة أول من آمن برسالته من النساء، وكان علي بن أبي طالب أول من آمن برسول الله واتّبعه من الشباب، وكان يخرج إلى شعاب مكة مع رسول الله خِلسة، فيصلي معه إذا حضرت الصلاة، وكان عمره عشر سنين، وعند إسلامه قال: «لقد خلقني الله من غير أن يشاور أبا طالب، فما حاجتي أنا إلى مشاورته لأعبد الله؟» وقد عثر عليهما أبو طالب وهما يصليان، فقال لرسول الله: «ما هذا الذي أراك تدين به، يا ابن أخي؟».

فأجابه رسول الله: «يا عم هذا دين الله، ودين ملائكته، ودين رسله، ودين أبينا إبراهيم، بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأمرني أن أدعوا الناس إليه، وأنت يا عم أحق من بَذَلْتُ له النصيحة ودعوتُه إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه، وأعانني عليه».

فقال أبو طالب: «يا ابن أخي إنني لا أستطيع أن أُفارق دين آبائي وما كانوا علي، ولكن والله لا يخلص إليك بشيء تكره ما بقيت». .

ومع ذلك فلم يعلن إسلامه، ومات وهو على ما هو عليه. . وكان أول من

---

(1) سورة المدثر.

أسلم من الموالي زيد بن حارثة، الذي أعتقه محمد وتبنّاه بعد وفاة أولاده الذكور قبل أن يوحى إليه.

وكان أبو بكر الصديق «عبد الله عتيق بن أبي قُحافة» أول من صدّق رسول الله وآمن به من الرجال، ثم أسلم عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وكان هؤلاء أسبق الناس إلى الإسلام، ثم أسلم غيرهم كثيرون ولم تزل الدعوة سرية. ولما أصبح عدد المسلمين أربعين رجلاً بإسلام عمر بن الخطاب، خرجوا، وجهروا بها.

الجهر بالدعوة:

كان الرسول ينشر دعوته سراً من دار الأرقم بن أبي الأرقم، واستمر كذلك مدة ثلاث سنين، حتى جاءه أمر الله بإظهار دينه، قائلاً له: **﴿فاصدع بما تؤمر، وأعرض عن المشركين﴾**[1].

وذكّره بأن عليه أن يبدأ بدعوته أقاربه وأبناء عشيرته، لأنهم أقرب إلى قلبه، ولا يعرفون منه إلا الصدق والأمانة، بقوله تعالى: **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾**[2].

بدأ الرسول ينذر قومه، وينكر عليهم دينهم، ويعيب آلهتهم، وكان أكثر الناس عداوة له ولدينه أقرباؤه، إلاّ من عصم الله منهم بالإسلام، وهم قلة..

لقد دعاهم إلى دين الإسلام، قائلاً لهم: «ما أعلم إنساناً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، فقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر؟». أعرض القوم عنه، ولم يأبهوا به، فقام علي بن أبي طالب على صغر سنه، وقال: «أنا يا رسول الله عونك، أنا

---

(1) سورة الحجر، آية: 94.

(2) سورة الشعراء، آية: 214-216.

حرب على من حاربت».

انصرف المدعوون من بني هاشم من بيت رسول الله، وكان قد دعاهم إلى طعام في بيته، وهو يتابع نشر دعوته إلى قومه الذين خذلوه وسخروا منه، فنادى أهل مكة جميعهم من على الصفا، وقال لهم: «يا معشر قريش، فأقبلوا عليه يسألونه ما به؟ فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل، أكنتم تصدقونني؟ قالوا: نعم، أنت عندنا غير متّهم، وما جرّبنا عليك كذباً قط، قال: فإنني أنا نذير لكم بين يدي عذاب شديد، أن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وأني لا أملك لكم من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيباً، إلاّ أن تقولوا: لا إله إلا الله».

فردّ عليه أبو لهب غاضباً: تباً لك، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت بحقه سورة اللهب..

رفع زعماء قريش أمر رسول الله إلى عمه أبي طالب قائلين له: «يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإمّا أن تكفه عنا، وإمّا أن تخلّي بيننا وبينه». ولكن أبا طالب ردّهم رداً جميلاً، وقال لهم قولاً كريماً، فانصرفوا عنه.. واستمر النبي في نشر دعوته بين الناس، حتى ذاع صيته، وكثر الحديث عنه، وعن دينه الجديد، وعمّا أصاب آلهتهم ودينهم من مهانة وتحقير على أيدي المسلمين..

عاد زعماء قريش إلى أبي طالب مرة أخرى يطلبون منه أن يكف يد محمد عنهم، قائلين له: «يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وقد استنهيناك من ابن أخيك، فلم تنهه عنّا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين»..

فالأمر في منتهى الجدية، فهم يريدون إهلاك النبي محمد ﷺ وكل من يحميه أياً كان. أعلم أبو طالب محمداً بالأمر، وقال له: «يا ابن أخي لا تحملّني من الأمر ما لا أطيق». ظن رسول الله أن عمه قد ضعف عـن نصرته، فقال لعمه وهو يحاوره، قوله المأثور: «يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في

يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله، أو أهلك دونه». .

وأخذته العبرة وبكى. فقال له عمه: «يا ابن أخي، قلْ ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً» وبدأت الحرب الخفية بين محمد عليه الصلاة والسلام وعشيرته، وبخاصة الفرع الأموي من أولاد عبد شمس بن مناف، وتحرك السفهاء من معارضيه، فكذبوه، وآذوه، وحقّروه، واتهموه بالسحر والشعر، والكهانة والجنون، وألحقوا به وبأصحابه المهانة والأذى، حتى قال لهم وهو يطوف بالكعبة من كثرة ما غزوه، وتمادوا عليه: «أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح». .

واتحد المشركون كأنهم رجل واحد، وأحاطوا بمحمد يريدون قتله، والخلاص منه.

فقال لهم أبو بكر وهو يبكي: ويْحكم، أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، فانصرفوا عنه. ولكن محمداً لم يعبأ بهم، بل مضى لما أمره الله من دعوة التوحيد، يرفع شعار الإسلام: لا إله إلاّ الله، ويردد قوله تعالى: **﴿قل سبحان ربي، هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾**[1] أخذت قريش تؤذي المستضعفين من المسلمين، وتعذبهم أشد العذاب، وتنزل أقسى أنواع الاضطهاد في كل من اعتنق الإسلام، فكانوا يضربونهم، ويحبسونهم، ويعذبونهم بالجوع والعطش وحرّ الهاجرة، ومنهم من صُلِب وجُلِد، وكان الله يعصمهم أمثال بلال بن رباح، وعمار بن ياسر، وأبوه، وأمه، الذين قال لهم رسول الله: «صبرا آل ياسر إن موعدكم الجنة»، ومات أبو عمار من شدة التعذيب، وقتل أبو جهل سميّة بحربة كانت بيده، فكانت أم عمار أول شهيدة في الإسلام.

وعمّ نور الإسلام وتعاليمه أنحاء الأرض، وقد حمل لواءه رجال أشداء عظماء، تمكنوا من تحقيق انتصارات متوالية على قريش وغيرها، ومن عقد صلح الحديبية، وضمان قريش من عدم الاعتداء.

---

(1) سورة الإسراء، آية: 93.

وفي السنة الثامنة للهجرة (629 م)، فكّر الرسول الكريم بإرسال دعوات إلى ملوك الساسانيين والبيزنطيين، وإلى أمراء غسان واليمن والحبشة، يدعوهم جميعاً إلى الإسلام لأنه بُعِث لكل العالمين، فقد خاطب أصحابه بقوله: «أيها الناس، إن الله بعثني رحمة للناس كافة، فلا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم، قال أصحابه: وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله؟ قال: دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلّم، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه، وتثاقل».

ثم أُرسِلت الوفود إلى كل الجوار من عرب أو عجم، واختلفت الردود، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وكان لا بد من قتالهم لرفع راية الإسلام ونشر تعاليمه....

نزول الوحي:

نزل الوحي جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ، بشكل منفصل أو متصل.

وكان الوحي يتم على شكل حوار عُلْوي بين ذاتين: ذات تتكلم بلسان الله عز وجل تأمر وتنهى، وذات مخاطبة مأمورة تتلقى الأوامر لتبلّغها إلى بني البشر. قال تعالى: **﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلّا وحْيا أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، إنه عليّ حكيم﴾**[1].

وقد حدثت عائشة أم المؤمنين عن الوحي وكيفية نزوله على الرسول، فقالت: «أول ما بدىء به رسول الله من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيحنث فيه»[2].

وقد صوّر المصطفى طريقة نزول الوحي بقوله: «كان أحياناً يأتيني مثل

(1) سورة الشورى، آية: 51.
(2) صحيح البخاري.

صلصلة الأجراس، وهو أشدّه عليّ فينفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني، فأعي ما يقول» وقد أجمع العلماء والمفسرون على أن الوحي كان ينزل على محمد رسول الله في صور مختلفة. فكان يأتي كالرؤيا في المنام، وهي رؤيا صادقة كفلق الصبح، أو أنه كان يسمع صوته دون أن يراه، أو أنه يظهر على شكل رجل يخاطبه بوعي وثبات، أو أنه كان يأتي كصلصلة الأجراس، أو أنه كان يظهر في صورته التي خلقه الله عليها، وكيفما كان شكل نزوله ثقيلاً أم مطْمئناً، فقد كان النبي يحرص على وعيٍ كل ما يوحى إليه، فقد كان له الوعي الكامل قبل الوحي وفي أثنائه وبعده بعيداً عن كل التخيلات أو التهيؤات، وكان يأمره الله تعالى بقوله: **﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزِل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته، والله يعصِمك من الناس﴾**[1].

وقال كذلك: **﴿قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي، إن أتبع إلاّ ما يوحى إليّ﴾**[2].

لقد بلّغ رسول الله كل ما أوحي إليه من ربه، وكان محمد الأمين لا يأمر إلا بما أمره الله، ولا ينهى إلا بما نهى عنه الله، فكان خير من بلّغ، وكان الله خير الشاهدين، لأن محمداً لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى. . .

7 ـ الهجرات في الإسلام:

تعرّض رسول الله ﷺ وصحبه إلى مضايقات شديدة، واضطهاد وأذى من قريش. ولم يستطيعوا دفع هذا الأذى عنهم لقلتهم، وضعف حيلتهم في بداية أمرهم.

فأذِن لهم الرسول بمغادرة مكة هرباً بدينهم إلى أي بلد فيه الصدق والأمان، فتعددت الهجرات وكان أولها:

---

(1) سورة المائدة، آية: 67.

(2) سورة يونس، آية: 15.

(أ) هجرة الحبشة الأولى:

تمت في السنة الخامسة للبعثة الموافقة (614 م)، عندما أشار النبي على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة لأن فيها مَلِكاً لا يُظلَم عنده أحد، قائلاً لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهيْ أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه». خرج المسلمون إلى أرض الغربة، مبتعدين عن أهلهم وديارهم، وكان عددهم أحد عشر رجلاً وأربع نساء، وكانت هذه أول هجرة جماعية في الإسلام، ولم يسلموا من ملاحقة قريش لهم، فقد أوفدت مبعوثين منها[1]، محملين بالهدايا إلى النجاشي امبراطور الحبشة، من أجل رفض وفد المسلمين وإرجاعه، ولما مثلا بين يدي الملك قالا له: «أيها الملك، إنه قد ضوىٰ إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم، وعشائرهم، لتردّهم عليهم، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه».

سمع النجاشي حديثهما لكنه رفض تسليمهما من آوى إلى أرضه طالباً الحماية والأمان، قائلاً: «لا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، فلا أسلّمهم حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني».

واستدعى النجاشي المهاجرين إليه من المسلمين، وسألهم قائلاً: «ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا ديني، ولا دين أحد من هذه الملل؟».

تكلّم جعفر بن أبي طالب بحضرة النجاشي، قولاً في منتهى الجرأة والأدب، والبلاغة والمنطق، أوضح فيه المعاناة من الجاهلية وفجورها، وأوضح مبادىء الإسلام وعقيدته، وبيّن القهر الذي يتعرض له هؤلاء القوم مع نبيهم

---

(1) المبعوثان من أهل مكة: عمرو بن العاص بن وائل، وعبد الله بن أبي ربيعة.

المرسل، وهم في وطنهم بين أهلهم، والأمان والإطمئنان في بلد صدق، وعند ملكٍ لا يظلم عنده أحد، قائلاً: «أيها الملك، كنّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله فينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة، والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله، ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصيام، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألّا نظلم عندك، أيها الملك».

فردّ عليه النجاشي: «وهل معك مما جاء به عن الله من شيء؟».

أجابه جعفر: نعم. وقرأ عليه بداية سورة مريم من القرآن الكريم. فبكى النجاشي وأساقفته، حين سمعوا ما تلي عليهم، وقال الامبراطور: «إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة»، ثم خاطب رسولي مكة، قائلاً لهما: «انطلقا فلا والله لا أسلّمهم إليكما» وخاطب المسلمين بقوله: «اذهبوا... فأنتم بأرضي آمنون، من سبّكم غرم (وكررها ثلاثاً) ما أحب أن لي جبلاً من ذهب، وأني آذيت رجلاً منكم»..

مكث المسلمون مدة ثلاث شهور في بلاد الغربة، ولما وصلتهم أخبار قوة المسلمين، ومنعتهم بإسلام عمر بن الخطاب وعزتهم به، وأن المشركين كفّوا عن أذاهم. عادوا إلى وطنهم الذي لم يؤمن لهم الراحة والاستقرار، فوجدوا ما لم يكن بالحسبان، فقريش ما تزال على غيّها وضلالها، فقد زادت من تعذيب

المسلمين من صحابة رسول الله، ومقاطعتهم، وحصارهم..

(ب) هجرة الحبشة الثانية:

وفي السنة التالية في السنة السادسة للبعثة، الموافق (615 م) تمت هجرة ثانية إلى الحبشة، بلاد الأمان والإطمئنان، وكان عدد المسلمين المهاجرين في هذه المرة (83) رجلاً من غير نسائهم وأطفالهم، وبقوا في بلاد النجاشي حتى بعد هجرة رسول الله وصحبه إلى يثرب..

(جـ) هجرة النبي إلى الطائف:

وفي السنة العاشرة للبعثة، حيث تتالت المصائب على رسول الله، فجاءت الأحزان في عام الأحزان، حيث توفيت زوجته خديجة ولها خمس وستون سنة، وبعد فترة وجيزة من وفاتها توفي عمه أبو طالب وله بضع وثمانون سنة، ونال منه زعماء قريش، حتى قال رسول الله: ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب. وكان حزيناً، لذلك فكّر في الخروج إلى قبيلة ثقيف في الطائف، يلتمس منها النصرة والمنعة، دون أن يعلم المسلمون بذلك، واصطحب معه زيد بن حارثة، وأقام فيها مدة دعاهم فيها إلى الإسلام، فلم يستجيبوا بل ردّوا عليه ردّاً قوياً، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، وأخذوا يسبونه ويرمونه بالحجارة حتى اخضبت نعلاه بالدم، وكان زيد يحميه بجسده، حيث أصيب بجراحات في رأسه، وعاد حزيناً إلى مكة.

وقد كان الخلاف بين أهل الطائف وأهل قريش في مكة بسبب التنافس التجاري والديني أيضاً. ولكن الله أكرمه في هذا العام الحزين، برحلة جوية فريدة من نوعها، فرّج فيها عنه كربه وحزنه، فقد أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

(د) الهجرة النبوية إلى يثرب[1]:

في السنة الثالثة عشرة للبعثة الموافقة (622 م)، وفد إلى رسول الله من يثرب جمع من الذين أسلموا من أهلها، (وكان عددهم 73 رجلاً وامرأتين)، جاؤوا لمبايعة رسول الله، وعاهدوه على حمايته، ودفع الأذى عنه إن هو هاجر إلى بلدهم يثرب. أُمِر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى يثرب مع صديقه «أبي بكر» وأعدّ لها، فعلمت قريش بنبأ الهجرة إلى يثرب، فعقد أهلها جلسة طارئة في دار الندوة، واتخذوا فيها قراراً بمنع محمد عليه الصلاة والسلام وصحبه من الهجرة بأي وسيلة، بل قرروا الفتك به والتخلص منه. لكن رسول الله علم بمكرهم وخداعهم، فطلب من عليّ بن أبي طالب أن ينام في فراشه، ويتّشح بردائه الأخضر، ليتوّهم رجال قريش الغادرون أنه نائم. وفعل علي الفدائي المسلم، وأخفقت قريش، حيث خرج محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وأبو بكر من بينهم متوجهين إلى غار ثور قرب مكة، وبقيا هناك مدة ثلاثة أيام.

اقتفى أثرهما زعماء قريش يريدون قتل محمد، ومنعه من الهجرة، فوصلوا إلى الغار، حيث كان الرسول وصاحبه. ولكن الله أعمى بصيرتهم، وعادوا من حيث جاؤوا.

توجه رسول الله إلى يثرب مع صاحبه، ولحق بهما «سراقة بن مالك» يقتفي الأثر في رمال الصحراء، ولكن الله نجاهما منه، إذ غاص مع جواده في الرمال أكثر من مرة، وهو يستغيث وينادي: يا محمد، أغثني، وآمن بمحمد وبرسالته، وأعلن إسلامه فوراً، واصل محمد ﷺ وصاحبه باتجاه يثرب حتى وصلا إلى «قباء» قرب يثرب، وفيها بني أول مسجد للإسلام وصفه الله عز وجل بأنه المسجد الذي أسس على التقوى وقد اتخذه رسول الله مسجداً، وسكناً له في بداية الأمر. وصل محمد عليه الصلاة والسلام إلى يثرب يوم الاثنين في 12 ربيع الأول من العام الثالث عشر للبعثة الموافق 24 أيلول عام 622 م، وله ثلاثة وخمسون عاماً.

فرح أهل يثرب بقدوم محمد وصاحبه الصديق إلى مدينتهم، وتلقوا هذا

---

(1) يثرب: مدينة بناها يثرب بن ميخائيل من العمالقة..

النبأ بسرور بالغ، وخرج جميع من في المدينة لاستقباله بالأهازيج والأناشيد.. فهو القائد الذي رغب في حمايتهم وأنس في جوارهم، وقد اختارهم، وفضلهم على قومه الجاحدين، وقد شدّه الحنين إلى يثرب لأن له فيها حَسَبٌ قديم: هم آل النجار، وأخوال جده، وفيها مثوى أبيه، وله فيها ذكريات وفاة أمه، وله فيها أصدقاء ومعارف كثيرون، من أيام التجارة، وله فيها من أسلم من أهل يثرب الذين ينتظرون مجيئه بفارغ الصبر، وكان دائماً يدعو ربه بقوله:

«اللهم إنك قد أخرجتني من أحب أرضك إليّ، فأنزلني أحب أرض إليك».

وصل يثرب راكباً ناقتهُ، والأنصار يحيطون به كالهالة، وهو يمر بينهم وسط الأهازيج والأفراح، وكان كلما مرّ بقبيلة أو عشيرة دعته إلى النزول عندها. وكان محمد ﷺ يخاطبهم بأمر الناقة، قائلاً: «خلّوا سبيلها فإنها مأمورة». فهو لا يريد إثارة مشكلة ما بين قبيلة وأخرى، وصلت الناقة المسيّرة إلى منازل بني مالك بن النجار، فبركت أمام مربد يملكه غلامان يتيمان من الأنصار: سهل وسهيل ابنا عمرو، وكانا في وصاية معاذ بن عفراء، فوهبا هذا المربد لرسول الله، ولكنه ابتاعه منهما ودفع لهما مبلغ عشرة دنانير. ولما بركت الناقة حمل أبو أيوب الأنصاري «خالد بن زيد» رحل رسول الله إلى منزله، حيث حلّ ضيفاً عليه، وبقي في داره مدة سبعة شهور، حتى انتهى الأنصار والمهاجرون من بناء المسجد، وانتقل إليه..

أصبح يعيش في طمأنينة على نفسه وعلى المؤمنين به في يثرب، وزادت دعوته، وانتشر دينه بين العرب، وعمد إلى تبليغه إلى سائر العرب، وملوك العجم..

بدأ رسول الله يمارس أعمال التنظيم الاجتماعي والتشريع في يثرب، كان أولها المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، حتى بلغت المؤاخاة حد سنّ نظام التوارث بين المتآخين حيث دعت الحاجة إلى ذلك، وقد نسخه الإسلام فيما بعد..

كما ألّف بين أعظم قبيلتين متنازعتين هما الأوس والخرزج، وهما عماد سكان يثرب، وقد نزحتا من اليمن عام (300 م).

ومارس سلطات زمنية سياسية إلى جانب السلطات الروحية، فهو رئيس دولة الإسلام الجديدة وعاصمتها المدينة، فوضع دستوراً خاصاً سمّاه «الصحيفة»، وقد جعلت المسلمين أمة واحدة من دون الناس، وجماعة دينية مستقلة من دون أي ولاء لقبيلة أو عشيرة، أو حسب أو نسب، ونظمت العلاقة بين المسلمين واليهود في يثرب، حيث عمل على توفير الطمأنينة لكل من آمن به وبرسالته، وكفل حرية العقيدة للجميع..

وعلى الصعيد الحربي: فقد تفرغ لمقارعة أدائه من عبدة الأوثان واليهود، فقابل القوة بالقوة وردّ سهام قريش إلى نحورها، وقضى على نفوذها ووثنيّتها، ولم تسترجع قريش مكانتها بين العرب إلا بالإسلام، وبدأ يجهّز الغزوات بقيادته لضرب الوثنية، ونشر رسالة التوحيد، وبلغ عددها تسع وعشرون غزوة، وكان يجهّز السرايا بقيادة الأبطال من المسلمين، حتى بلغ عددها سبع وأربعون سرية. واستطاع بذلك إعلان أول دولة موحدة تحت رايات الإسلام في جزيرة العرب.. وكانت نواة للامبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف فيما بعد...

تعدّ الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة أهم حدث في الإسلام، لأنها إعلان الدولة المستقلة للمسلمين وعاصمتها يثرب التي أصبحت تسمى «المدينة المنورة»، ورئيسها ومؤسسها محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.. لذلك اعتبرها المسلمون بداية التاريخ عندهم، لما لها من أهمية عظمى، وقد أمر بذلك عمر بن الخطاب، وبعد الهجرة انتهى دور الضعف الذي كان فيه المسلمون مستضعفين لا حول لهم ولا قوة، وكان يمسحون الأذى ويصبرون على الإهانة، ولم يكن بوسعهم الرد على قريش وإساءتها لهم عندما كانوا في مكة. وجاء دور القوة في المدينة، وضرب المسلمون قريشاً، وكلّ من كفر، وعاد إلى مكة فاتحاً، وعاد إلى مسقط رأسه رافعاً رأسه بعد أن حطّم الأصنام التي هوت أمام عبادها، وهو يردد ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً».

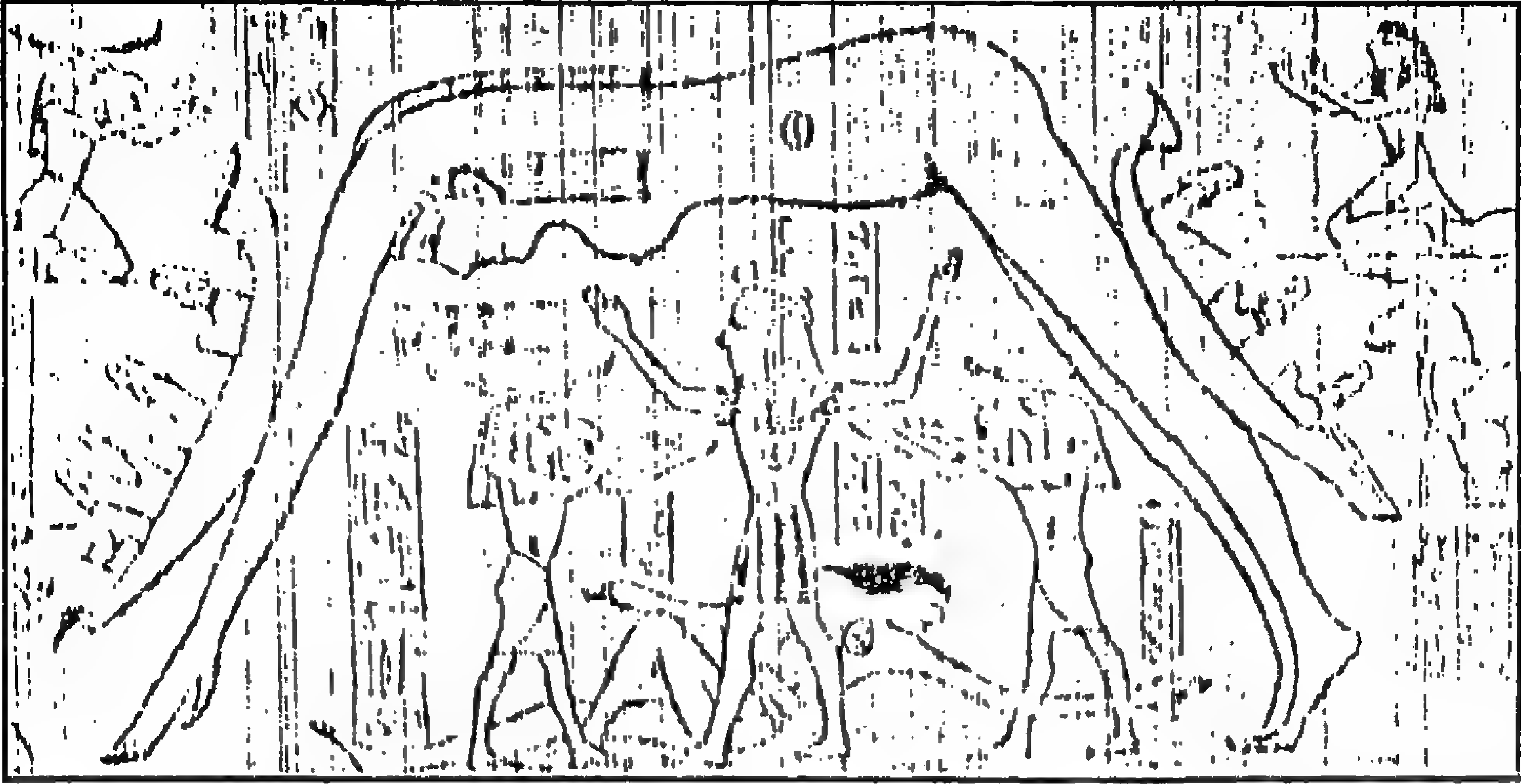
والحمد لله رب العالمين.



شكل رقم (2)
الإلهة «نوكواشي» منقذة العالم التي رفعت أعمدة السماء..



شكل رقم (1)
خلق الله العالم في ستة أيام واستراح
في اليوم السابع كما تصوره التوراة



شكل رقم (3)

الآلهة المصرية ويظهر منها:

1 ـ الإلهة نوت.

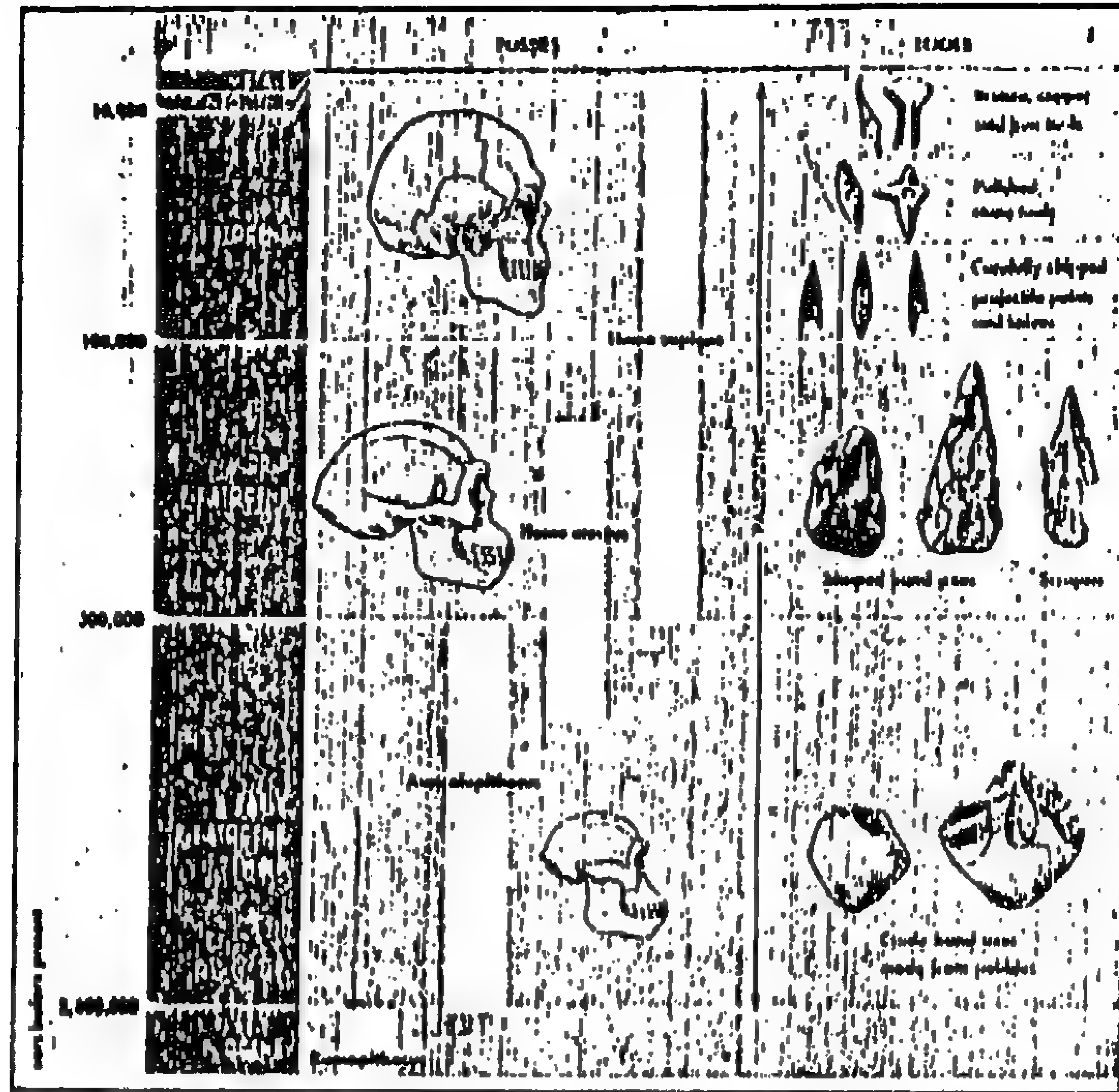
2 ـ الإله شو.

3 ـ الإله جب.



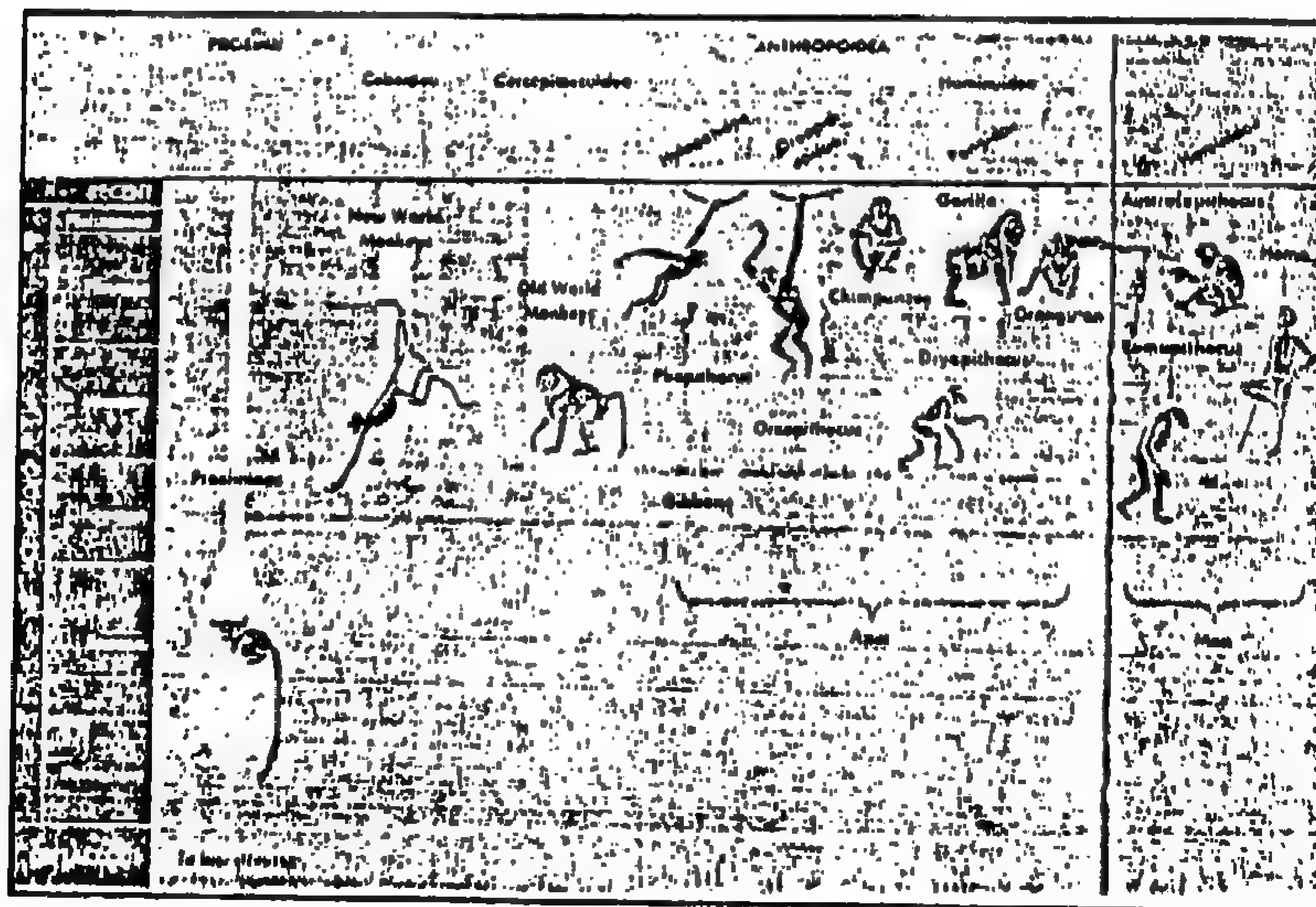
شكل رقم (4)

الإله «ماوي» من أساطير اليونان يسحب الأرض من المحيط ليعيش عليها الناس فهو يناصر البشر ضد الآلهة.



شكل رقم (5)

تطور صنع الأدوات من قبل الإنسان الذي عاش خلال عصر البليوستوسين..



شكل رقم (6)

تطور الرئيسيات وظهور الإنسان..

شكل رقم (7)

خلاصة تاريخ تطور القردة والإنسان . .

أبو الهول

اهرامات مصر الثلاثة «خوفو. خفرع. منقرع»

مسلة الأقصر

شكل رقم (8)

من آثار الحضارة المصرية القديمة . .

شكل رقم (9)
آمون: الذي ظل يعبد قروناً
باعتباره أسمى المعبودات..

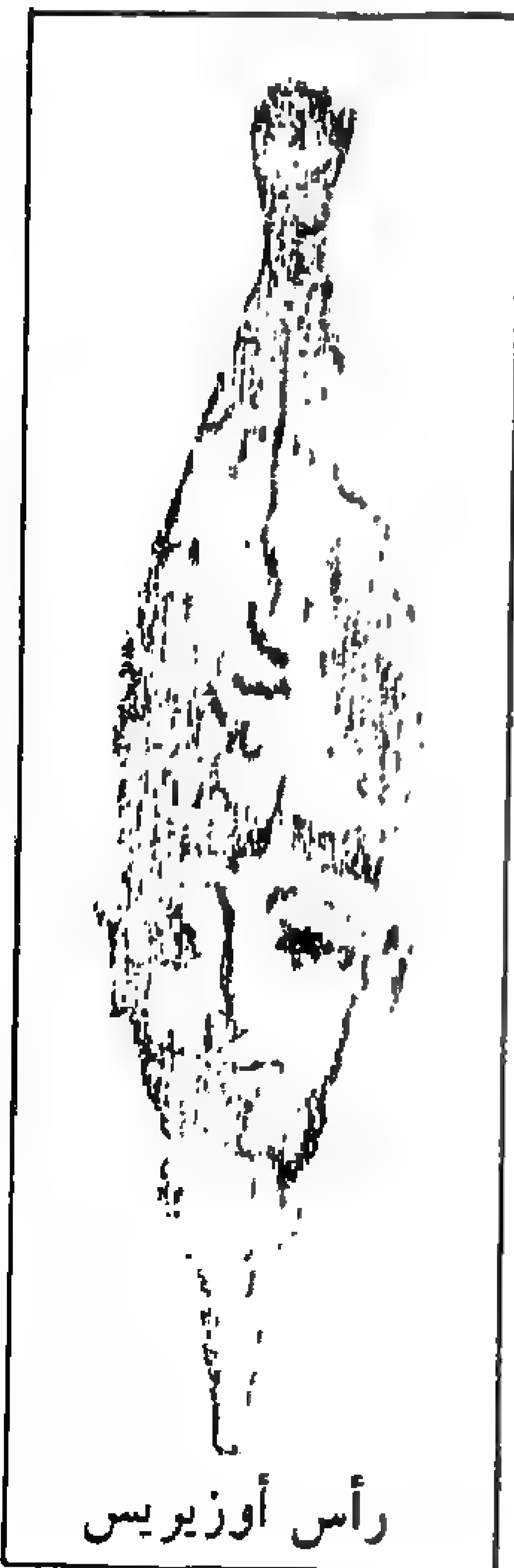

الإله آمون


الفرعون آمون

شكل رقم (10)
الثالوث المقدس في العقيدة المصرية.
«أوزيريس ـ إيزيس ـ حورس»..





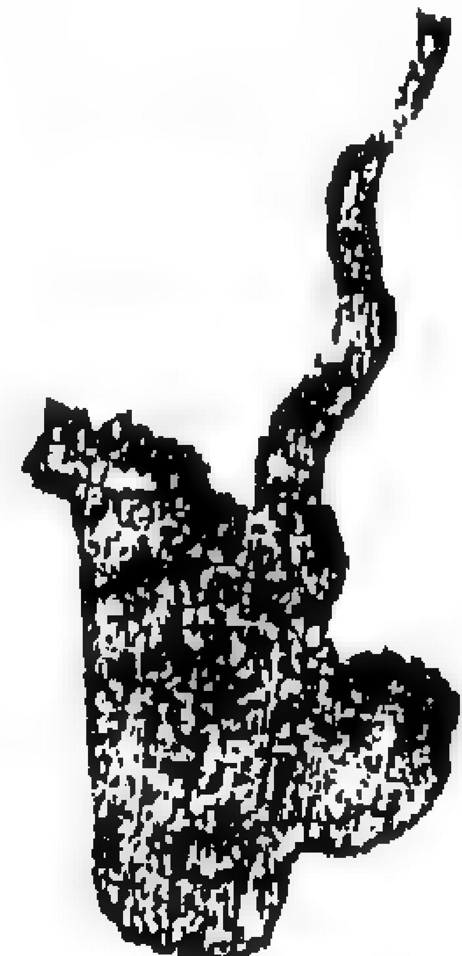

رأس أوزيريس



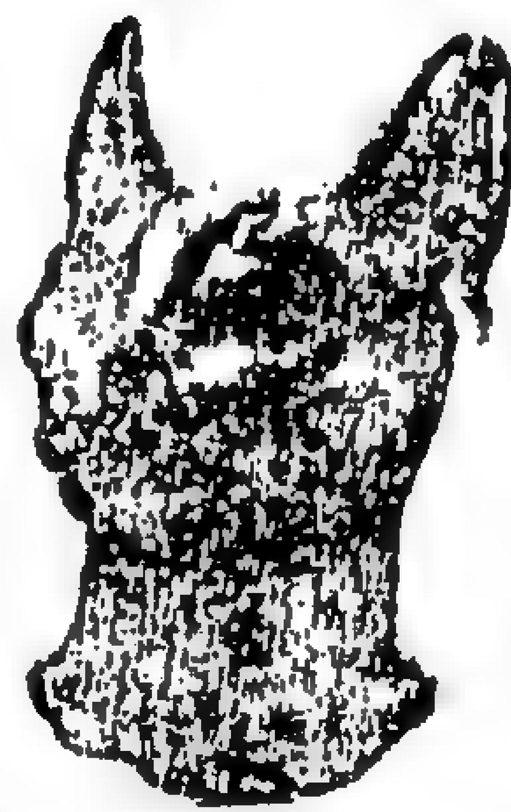
شكل رقم (11)
ست· إله الشر



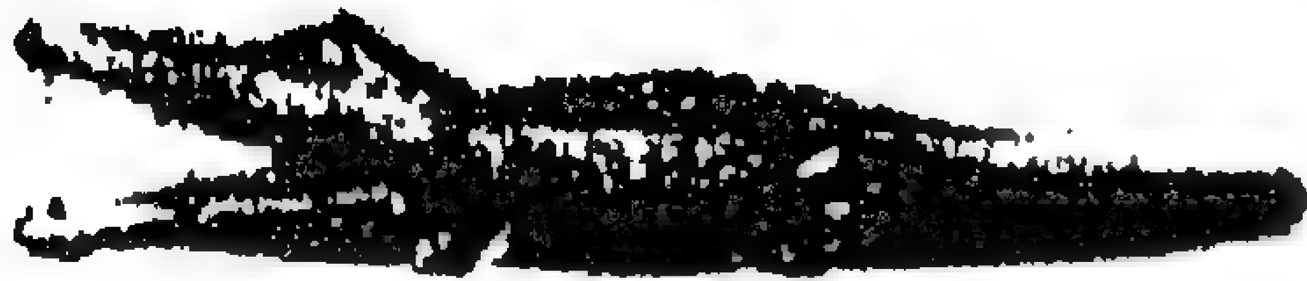
شكل رقم (12)
أنوبيس إله التحنيط والمقابر . .



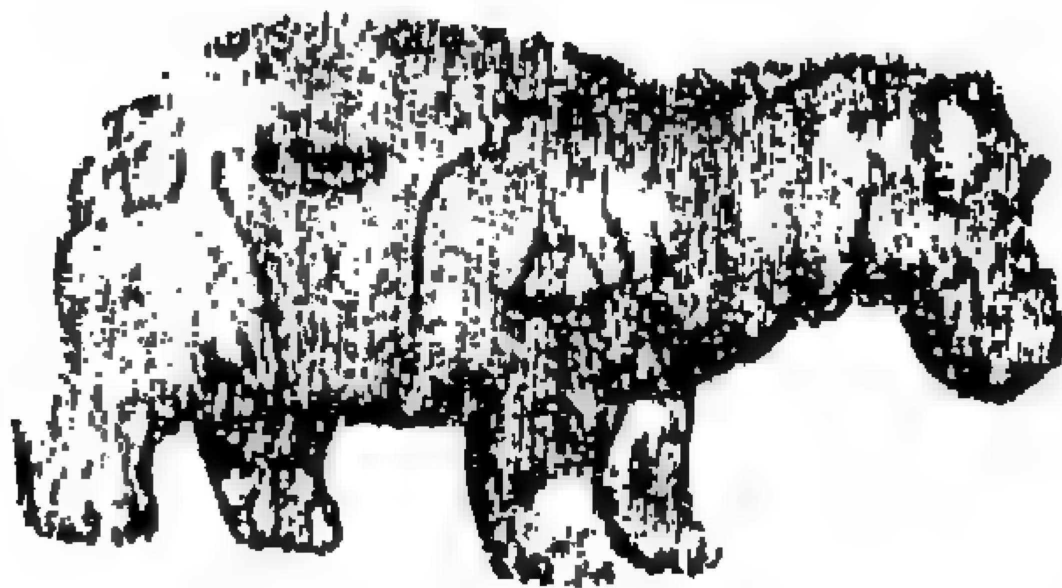
أفعى الكوبرا مقدسة



رأس الهر رمز الحب

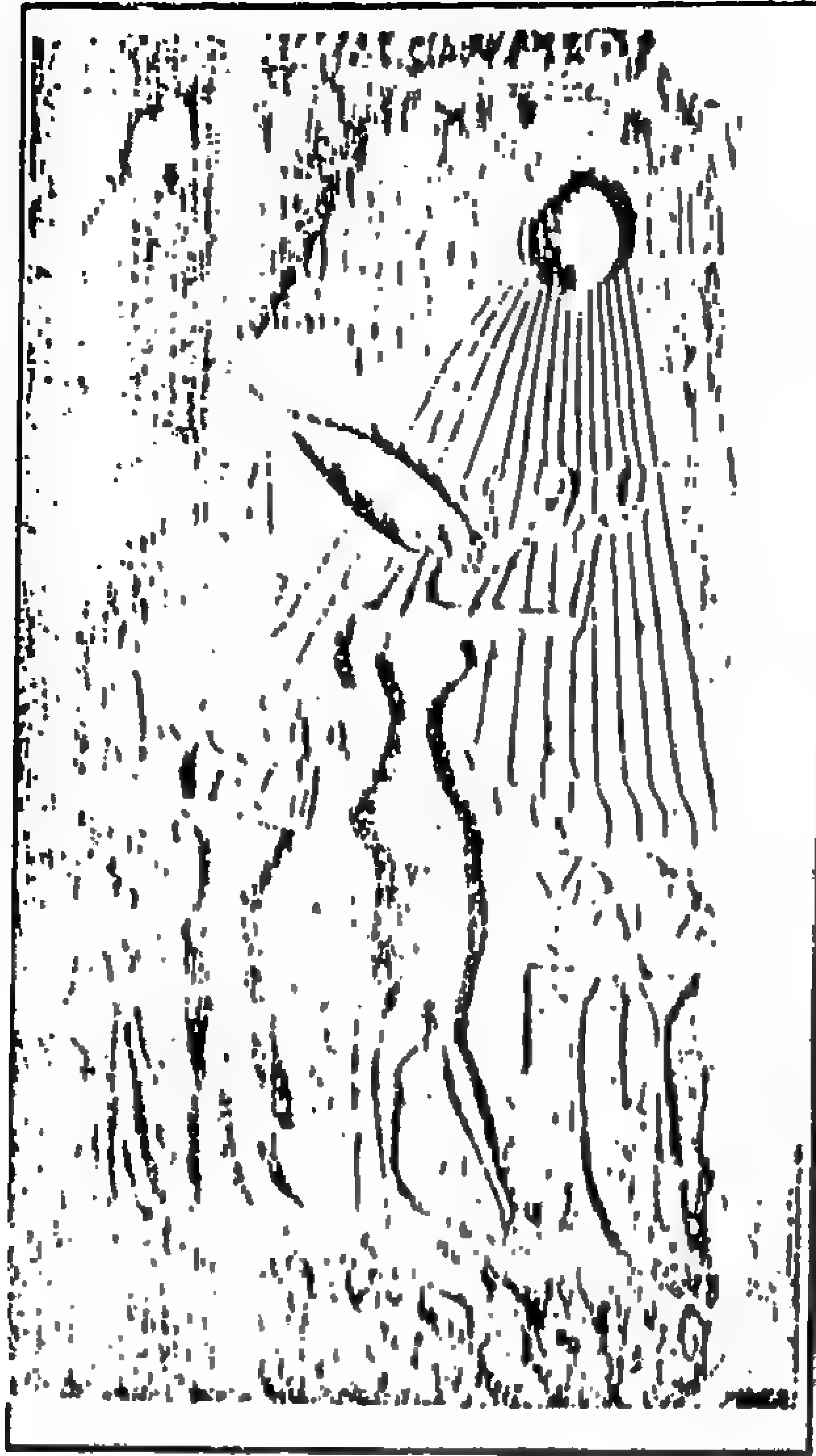


سيبك التمساح مقدس



أديت فرس النهر

شكل رقم (13)
الحيوانات المقدسة في مصر
القديمة التي عبدها الإنسان . .





شكل رقم (14)

أخناتون: «أمنيوفس الرابع» دعا إلى عبادة الإله الواحد ورمز له بالقوة وراء قرص الشمس «آتون» مبعث الحياة ومصدر الحرارة والضوء..

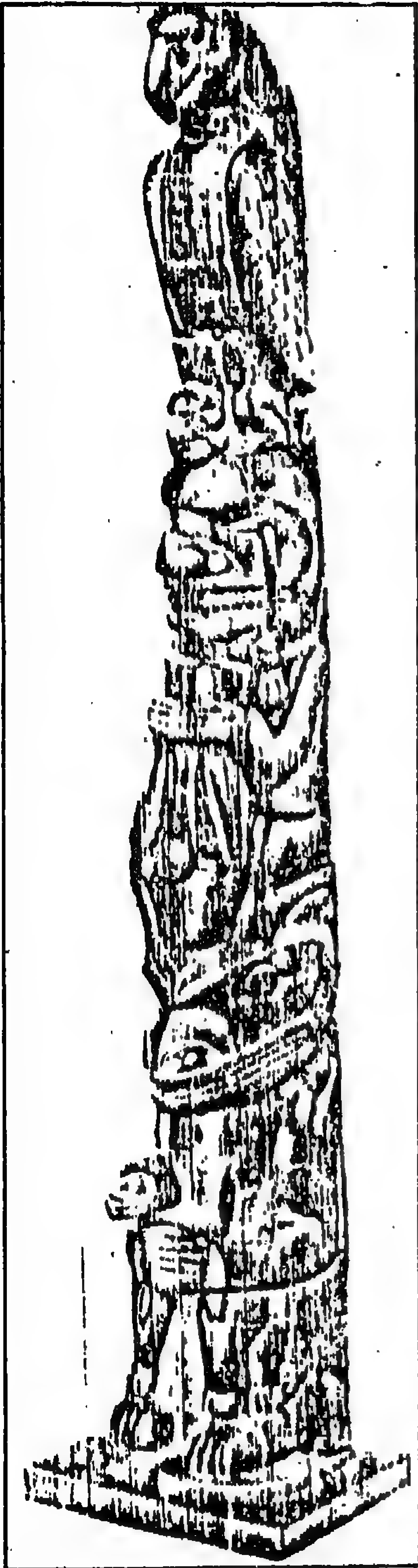


شكل رقم (16)

مومياء «رمسيس» في باريس تتلقى العلاج..



شكل رقم (15)
توت عنخ امون
والعودة إلى الآلهة المتعددة..



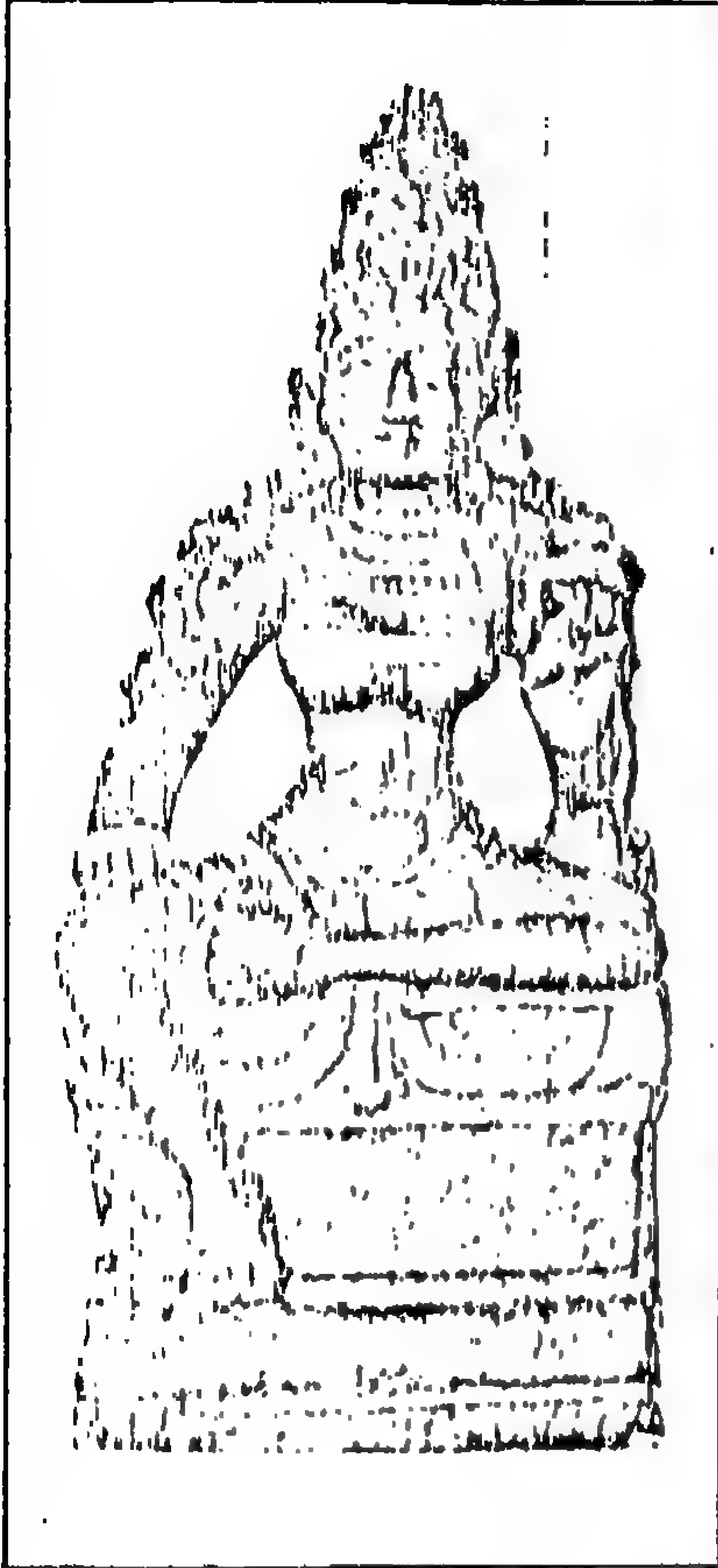
شكل رقم (17)
تمثال الطوطم الهندي في أميركا الشمالية
يلاحظ طائر الرعد في أعلاه الذي اعتقد
الهنود أن جناحيه مصدر الرعد وأن
عينيه مصدر البرق..



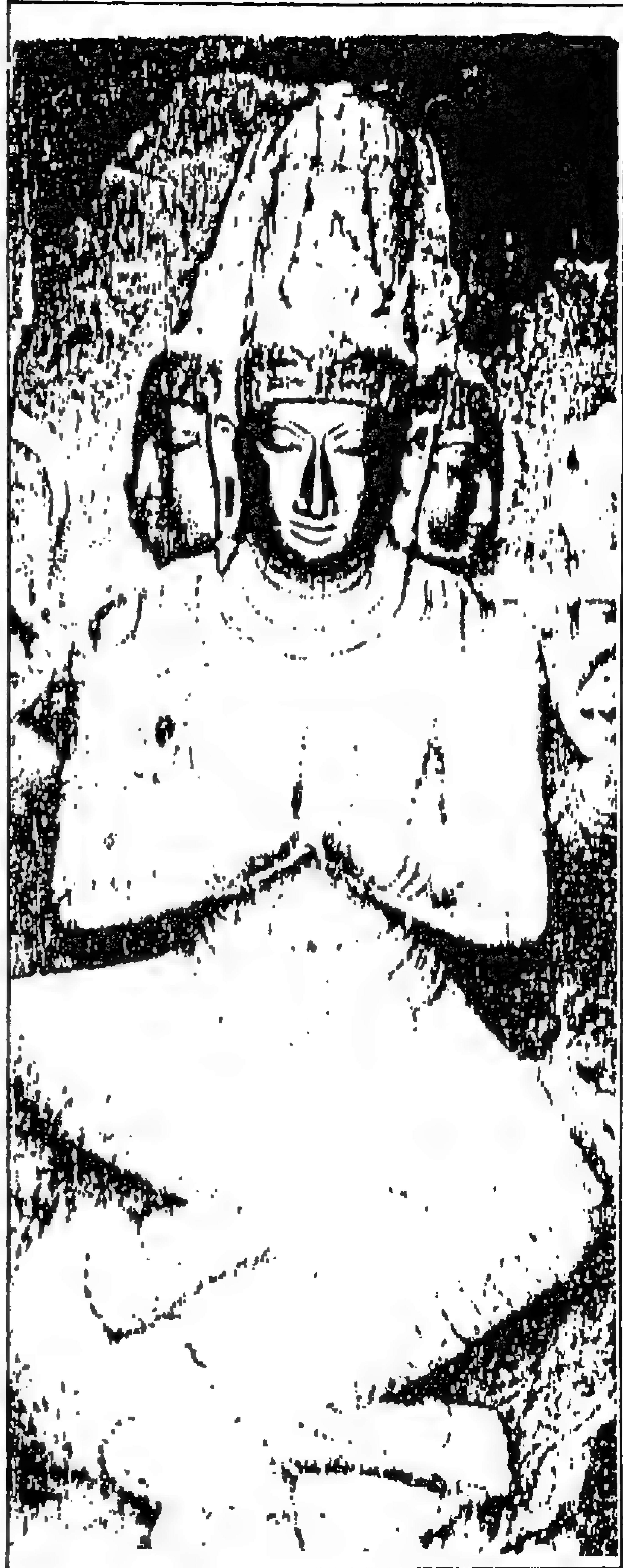
شكل رقم (18)
تمثال «زحل» رمز الطالع الحسن عند الهندوس..



شكل رقم (19)
تظهير الموتى في نهر الغانج المقدس قبل أن ينتقلوا إل الدار الآخرة.



شكل رقم (21)
لاكشفي زوجة فشنو ربة
الحظ السعيد



شكل رقم (20)
تمثال للإله الخالق «براهما»..



شكل رقم (23)
تمثال صخري بميسور للقديس الجيني جوتا مشفارا..



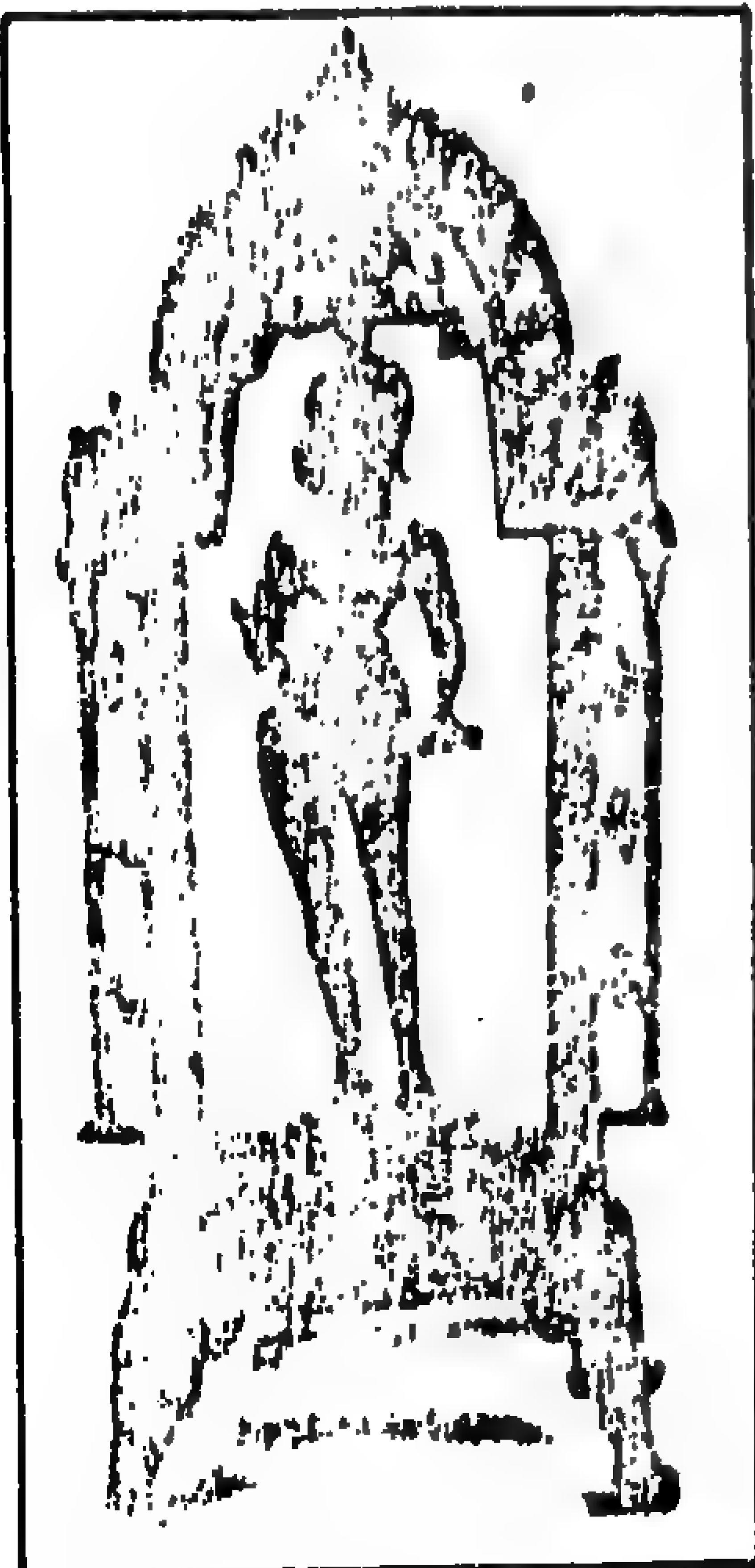
شكل رقم (13) مكرر
الإله باسيت برأس قطة..
أحد المعبودات المصرية..



شكل رقم (22)
أتباع شيفا يصلّون أمام تمثاله..



شكل رقم (25)
تمـ" بوذا في شبابه..

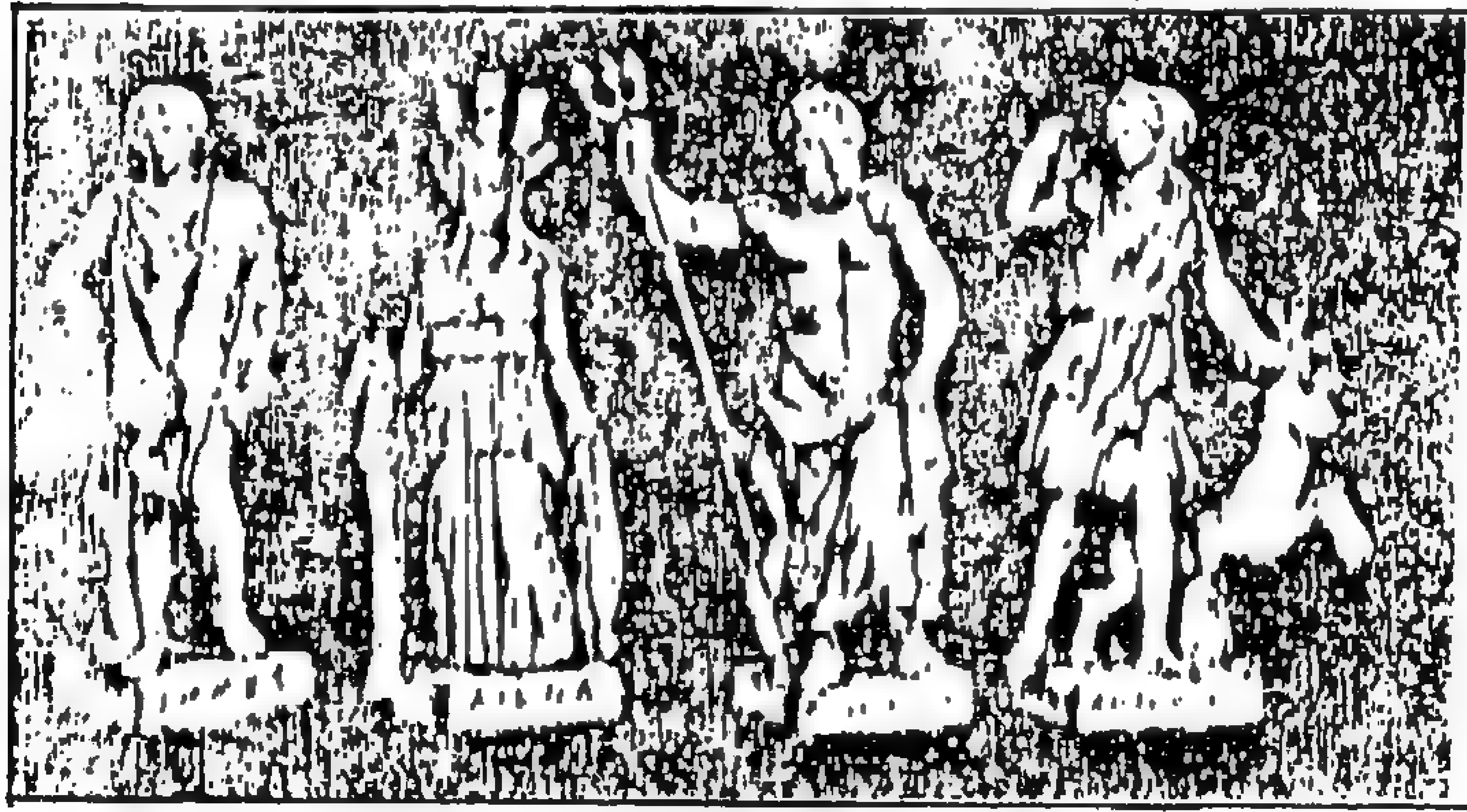


شكل رقم (24)
تمثال لإحدى ربّات الجينية «برونز»



شكل رقم (26)

الإله زيوس: أبو الآلهة والبشر ورئيس مجموعة الآلهة الأولمبية..



شكل رقم (27)

تماثيل مجموعة الآلهة الأولمبية

1 ـ أرتميس: إلٰهة الصيد والغابات...

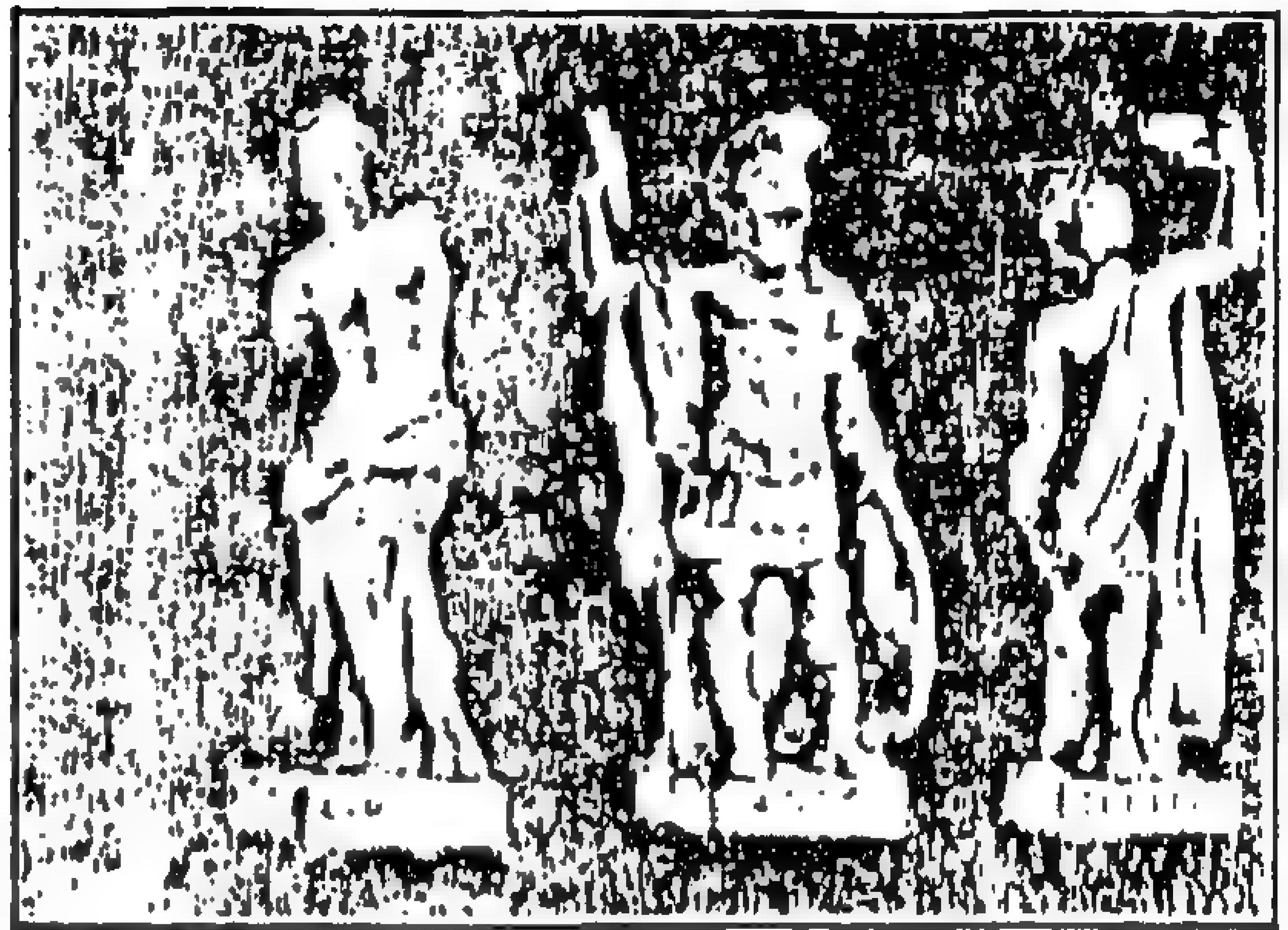
2 ـ بوسيدون: إلٰه البحر والزلازل...

3 ـ أثينا: إلٰهة المعرفة والحكمة...

4 ـ هرميس: رسول زيوس...

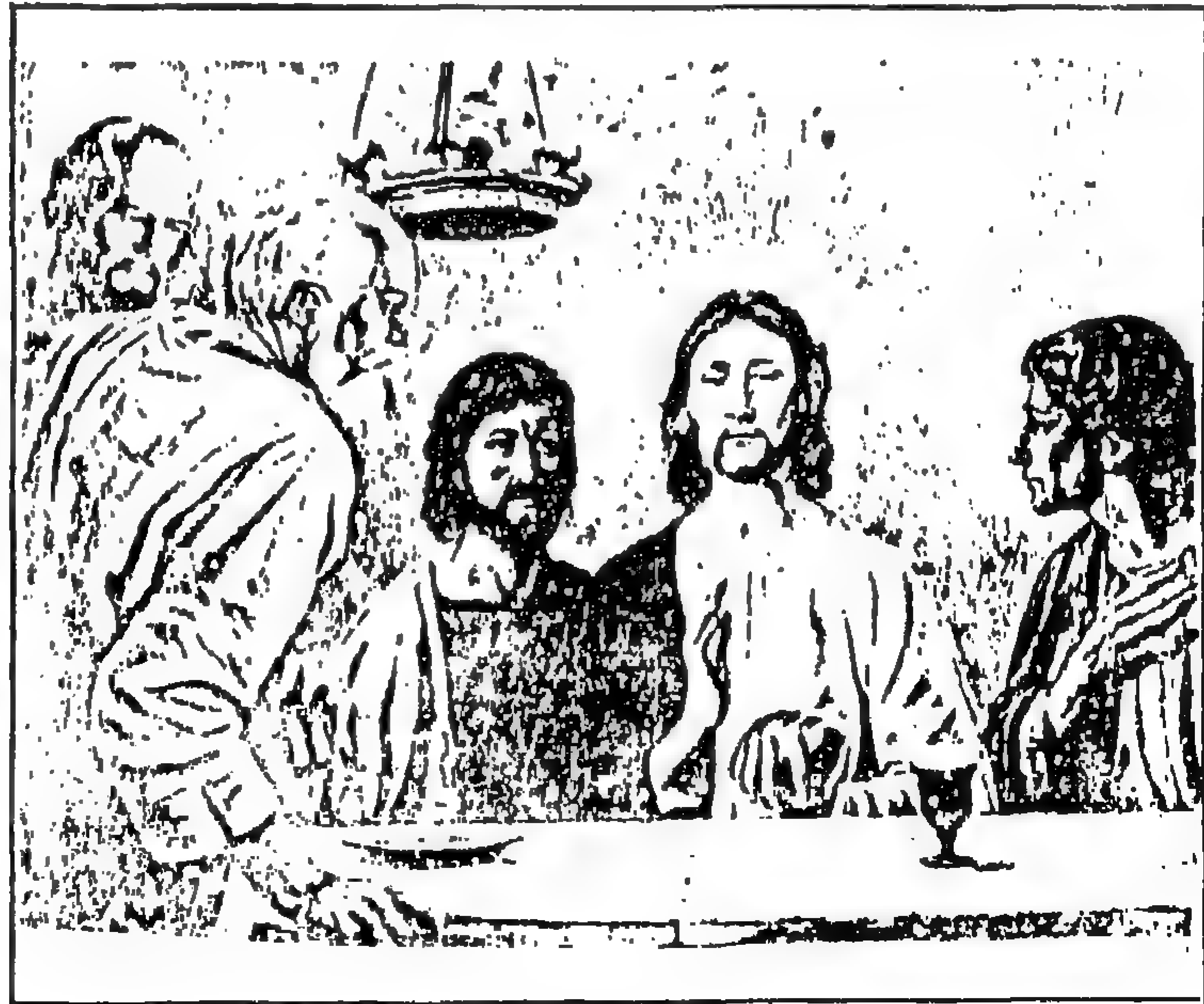


7 6 5



10 9 8

5 ـ هيفاستوس: إله النّار..
6 ـ أبوللو: إله الفنون..
7 ـ هيرا: زوجة زيوس..
8 ـ ديونيسوس: إله الخمر..
9 ـ آريس: إله الحرب..
10 ـ أفروديت: إلهة الحب والجمال..



شكل رقم (28)
العشاء الأخير: يبارك يسوع الخبز والنبيذ، ويقدمهما إلى تلامذته على أنهما جسده ودمه..



شكل رقم (29)
«الصَلْبُ» بين لِصًين فوق جبل كالفاري «الجلجثة».

مراجع الكتاب

1 ـ القرآن الكريم.
2 ـ الكتاب المقدس: العهد القديم، والعهد الجديد.
3 ـ قاموس الكتاب المقدس.
4 ـ البداية والنهاية: ابن كثير.
5 ـ الملل والنحل: أحمد الشهرستاني، تحقيق محمد سعيد كيلاني.
6 ـ قصص الأنبياء: عبد الوهاب النجار.
7 ـ الديانات القديمة: محمد أبو زهرة.
8 ـ محاضرات في النصرانية: محمد أبو زهرة.
9 ـ الأحاديث القدسية: ـ منشورات دار النصر ـ.
10 ـ مباحث في علوم القرآن: د. صبحي الصالح.
11 ـ صحيح البخاري: أحاديث نبوية.
12 ـ التنبيه والاشراف: المسعودي.
13 ـ مروج الذهب: المسعودي.
14 ـ سيرة ابن هشام: عبد السلام هارون.
15 ـ مغامرة العقل الأولى: فراس السواح.
16 ـ تاريخ العرب والإسلام.
17 ـ تاريخ الحضارة: حاطوم، طربين، عاقل، مدني.
18 ـ تاريخ اليونان: علام.
19 ـ تاريخ الأديان: د. محمد الزحيلي، د. يوسف العش.
20 ـ تاريخ العرب واليهود: أحمد سوسة.

21 ـ حضارة العرب: غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر.
22 ـ طبقات الأمم: جرجي زيدان.
23 ـ محاضرات في حضارة الشرق الأدنى القديم: د. يعقوب بكر.
24 ـ الحضارات: لبيب عبد الساتر.
25 ـ تاريخ الحياة: ماك الستر، ترجمة د. فؤاد العجل.
26 ـ ماني والمانوية: د. سهيل زكار.
27 ـ فلسفة تاريخ محمد: محمد جميل بيهم.
28 ـ روح الدين الإسلامي: عفيف طبارة.
29 ـ تفسير الجلالين.
30 ـ الإنسان بين العلم والدين: شوقي أبو خليل.
31 ـ سلسلة حياة الشعوب: اليابان، الهند، الصين،
32 ـ اعداد من مجلة المعرفة المصورة.
33 ـ اعداد من مجلة العربي.
34 ـ المائة الأوائل: مايكل هارت.
35 ـ الديانة الفرعونية: واليس بدج، ترجمة: نهاد خياطة.
36 ـ اليهودية واليهود: د. علي عبد الواحد وافي.
37 ـ التلمود، تاريخه، وتعاليمه: ظفر الله خان.
38 ـ الكنز المرصود في قواعد التلمود: أوغست روهلنج.
39 ـ الإله اليهودي: ك. غ. يونغ، ترجمة: نهاد خياطة.
40 ـ ملف إسرائيل: د. روجيه غارودي.
41 ـ من هو اليهودي؟: إسحق دويتشر، ترجمة: نجاة قصاب حسن.
42 ـ وثيقة الصهيونية في العهد القديم: د. جورجي كنعان.
43 ـ أمجاد إسرائيل في أرض فلسطين: د. جورجي كنعان.
44 ـ سقوط الامبراطورية الاسرائيلية: د. جورجي كنعان.
45 ـ إمبراطورية الخزر وميراثها: آرثر كوستلر، ترجمة: حمدي متولي.

تم الكتاب بعون الله.

محتويات الكتاب

مدخل

الباب الأول: قصة الخلق والتكوين:

الفصل الأول: خلق الكون 19

1 ـ تمهيد 19

2 ـ قصة التكوين في سورية وبلاد الرافدين 20

(أ) عند السومريين 20

(ب) عند البابليين 21

(جـ) عند الكنعانيين 24

3 ـ التكوين في التوراة 25

4 ـ الأساطير البدائية في نشوء الكون 29

5 ـ الفرضيات العلمية الحديثة في نشوء الكون 33

6 ـ خلق الكون في القرآن الكريم 35

7 ـ الأصل المشترك في قصة ولادة الكون 44

الفصل الثاني: خلق البشرية 47

1 ـ تمهيد 47

2 ـ الخلق البشري عند السومريين 48

3 ـ الخلق البشري في التوراة 48
4 ـ الأساطير البدائية في خلق البشر 51
5 ـ خلق الإنسان في القرآن 52
6 ـ خلق الإنسان في مفهوم العلم الحديث 57
7 ـ أصل الإنسان 59
8 ـ جماجم أشباه الإنسان 60
9 ـ مراحل الحياة على الأرض 62
الباب الثاني: ديانات الأوليين:
تمهيد 65
الفصل الأول: قوم عاد 67
1 ـ قوم عاد الأولى 67
2 ـ من هو عاد 68
3 ـ قوم عاد الثانية 68
4 ـ ديانة قوم عاد 69
6 ـ هود عليه السلام 70
الفصل الثاني: قوم ثمود 73
1 ـ قبائل ثمود 73
2 ـ مساكن قوم ثمود 74
3 ـ من هو ثمود 74
4 ـ ديانة قوم ثمود 75
5 ـ النبي صالح ومعجزاته 75
6 ـ هلاك قوم ثمود 77
الباب الثالث: الديانات في مصر القديمة:
«الديانة الفرعونية» 83
1 ـ تمهيد 83
2 ـ تعدد الآلهة في الديانة الفرعونية 84

3 ـ الآلهة المصرية القديمة 85
4 ـ أسطورة أوزيريس «الإله المقدس» 90
5 ـ تأليه الملوك وتقديس فرعون 92
6 ـ تقديس الحيوانات عند المصريين 93
7 ـ دوافع عبادة الحيوانات 94
8 ـ مظاهر التوحيد في المعتقدات المصرية 95
(أ) إبراهيم الخليل في مصر 96
(ب) يوسف ودعوته في مصر 97
(جـ) دعوة موسى إلى فرعون 99
(د) دعوة التوحيد عند اخناتون 101
9 ـ الحياة بعد الموت 104
10 ـ دوافع الاعتقاد بالحياة الآخرة 106
11 ـ رجال الدين «الكهنة» 107
12 ـ كتاب الموتى 108
13 ـ التحنيط في مصر القديمة 109

الباب الرابع: الأديان في بلاد الرافدين وسورية:
تمهيد 111

الفصل الأول: 113
1 ـ المعتقدات الدينية في بلاد الرافدين: 113
(أ) السومريون 113
(ب) الأكاديون 113
(جـ) المعتقدات الآشورية 115
2 ـ الكهنة 115
3 ـ الحياة الآخرة 116
4 ـ من أساطير الأوليين 117
5 ـ الآلهة في بلاد الرافدين 119

الفصل الثاني: المعتقدات الدينية عند الكنعانيين 123
1 ـ تمهيد 123
2 ـ التعريف بالآلهة الكنعانية 123
3 ـ الكهنة عند الكنعانيين 126
الباب الخامس: الديانات عند القبائل والشعوب البدائية:
الفصل الأول: الديانات البدائية 129
أولاً: الطوطمية: 131
(أ) طوطم القبيلة 131
(ب) طوطم الجنس 134
(جـ) الطوطم الشخصي 134
ثانياً: الشامانية 134
ثالثاً: الديانة الفتشية «عبادة الأنصاب» 136
الفصل الثاني: الديانات عند الزنوج 139
أولاً: الزنوج الشرقيون: 139
1 ـ قبائل البابوان 139
2 ـ الميلانيزيون 141
3 ـ الاستراليون 141
ثانياً: الزنوج الغربيون 143
1 ـ الزنوج السودانيون 143
2 ـ قبائل البانتو 146
الفصل الثالث: القبائل المغولية البدائية 149
أولاً: المغول التتر 149
ثانياً: المغول في شمال شرق سيبيرية 151
ثالثاً: المغول الأتراك «الغربيون» 152
رابعاً: المغول في بلاد التيبت 152
خامساً: المغول في بلاد الهند الصينية 153

الفصل الرابع: الهنود الحمر في أمريكا 157
تمهيد 157
أولاً: الديانة عند الأسكيمو 158
ثانياً: قبائل أمريكا الوسطى 160
ثالثاً: قبائل أمريكا الجنوبية 161
رابعاً: حديث عن أكلة لحوم البشر 163

الباب السادس: الديانات في بلاد الهند:
الفصل الأول: الديانة الهندية القديمة 167
1 ـ تمهيد 167
2 ـ الديانة القديمة 168

الفصل الثاني: 171
1 ـ الديانة الهندوسية 171
2 ـ الحيوانات المقدسة في الهند 175
3 ـ العقائد الهندوسية 175
4 ـ تعاليم الديانة البرهمية 177
5 ـ الآلهة الهندوسية 178
6 ـ مراكز العبادة 180
7 ـ النظام الطبقي في الديانة الهندوسية 180
8 ـ الحياة الآخرة 182
9 ـ الكتب الهندوسية المقدسة 183
10 ـ تناسخ الأرواح «التقمص» 184
11 ـ فروع الديانة الهندوسية 186

الفصل الثالث: الديانة الجينيّة 189
1 ـ نشأتها 189
2 ـ مهافيرا 192

الفصل الرابع : البوذيّة 193
1 ـ نشأتها 193
2 ـ تعاليم البوذية 194
3 ـ ما هي النيرفانا؟ 196
4 ـ مبادىء البوذية 197
(أ) التناسخ 197
(ب) الروحانية في البوذية 197
5 ـ الرذيلة في البوذية 198
6 ـ الوصايا العشر البوذية 199
7 ـ الكتب المقدسة عند البوذيين 199
8 ـ فروع البوذية 201
9 ـ المذاهب البوذية : 201
(أ) مذهب اللاّمية 201
(ب) البوذية في الصين 203
(جـ) البوذية الزينية في اليابان 204
10 ـ بوذا 205
(أ) نشأته وحياته 205
(ب) هل كان بوذا نبياً؟ 207

الفصل الخامس : الإصلاح الديني في الهند 211
1 ـ تمهيد 211
2 ـ السيخ 211
3 ـ العقيدة عند السيخ 212
4 ـ امرتيسار: عاصمة السيخ 213
5 ـ مؤسس ديانة السيخ «ناناك» 213
6 ـ المصلح الديني : كبير 215
7 ـ المصلح الديني : دياناندا 216

8 ـ دولة السيخ 217

الباب السابع: الديانات في بلاد الصين:
تمهيد 219
الفصل الأول: 221
أولاً: الديانة الصينية القديمة 221
1 ـ عبادة السماء 221
2 ـ عبادة قوى الطبيعة 222
3 ـ عبادة أرواح الأجداد 222
ثانياً: تقديم الأضاحي للآلهة القديمة 224

الفصل الثاني: الكونفوشيوسية 225
1 ـ المبادىء الخلقية 226
2 ـ المبادىء السياسية 229
3 ـ المعتقدات الدينية 231
4 ـ من آرائه التربوية 232
5 ـ كتب الكونفوشيوسية 233
6 ـ كونفوشيوس: نشأته وحياته 234

الفصل الثالث: الطاويّة 237
1 ـ التصوف عند الطاوية 238
2 ـ المبادىء الطاوية 240
3 ـ عادات دينية أسطورية 241
4 ـ حكماء الطاوية 241

الباب الثامن: ديانة أهل اليابان 245
1 ـ الشنتوية 245
2 ـ عبادة الميكادو 248
3 ـ الكونفوشيوسية في اليابان 249

الباب التاسع: الديانات عند الفرس:
الفصل الأول: 253
الديانة القديمة 253
الفصل الثاني: الديانة الزرادشتية 255
1 ـ مبادىء وتعاليم 255
2 ـ زرادشت المؤسس 258
(أ) نشأته وحياته 258
(ب) نبوّة زرادشت 260
(جـ) بدء الدعوة ونشرها 260
(د) وفاة زرادشت 263
3 ـ الكتب المقدسة عند الزرادشتية 264
4 ـ الآلهة المزدوجة «التنوية» 265
5 ـ الحساب بعد الموت 267
6 ـ صلاة زرادشت إلى أهورا مزدا 268
7 ـ النار المقدسة عند المجوس 269
الفصل الثالث: الديانة المانوية 271
1 ـ نشأتها 271
2 ـ مبادىء ومعتقدات 273
3 ـ كتب الشريعة المانوية 276
4 ـ الحساب بعد الموت 277
5 ـ ماني 278
الباب العاشر: ديانة الأوثان عند اليونان:
أولاً: مذاهب ومعتقدات يونانية 283
ثانياً: الآلهة المتعددة في بلاد الإغريق 286
الباب الحادي عشر: ديانة الأوثان عند الرومان:
أولاً: عقائد ومبادىء روحانية 289

ثانياً: الآلهة في بلاد الرومان 291
ثالثاً: الكهنة الرومان 292
رابعاً: الأضاحي والقرابين 293

الباب الثاني عشر: العرب قبل الإسلام في الجزيرة العربية:
1 ـ لمحة تاريخية 295
2 ـ الجاهلية في التاريخ 296
3 ـ إبراهيم الخليل والدين الحنيف 299
(أ) الدعوة إلى التوحيد 300
(ب) بدء الدعوة 301
(جـ) هجرة إبراهيم 305
(د) حريق إبراهيم 307
4 ـ إسماعيل جدّ العرب 308
5 ـ عبادة الأصنام 312
6 ـ الأصنام الآلهة في الجاهلية 315
7 ـ معتقدات العرب في الجاهلية 318
8 ـ مكة المكرمة 324
9 ـ بناء البيت الحرام 326
10 ـ ولاية البيت الحرام 329
11 ـ أبرهة الحبشي يغزو الكعبة 331
12 ـ تقاليد عربية جاهلية أقرها الإسلام 333

الباب الثالث عشر: اليهودية «الموسوية»:
أولاً: مقدمة البحث 337
ثانياً: البحث عن الأصول 338
(أ) العبرانيون 339
(ب) بنو إسرائيل 341

(جـ) اليهود 342
ثالثاً: المعتقدات والتعاليم اليهودية 343
(أ) الحياة الآخرة عند اليهود 247
(ب) لماذا يقدسون السبت؟ 349
(جـ) الصيام يوم الكفارة 350
(د) الأعياد اليهودية 351
رابعاً: الردة اليهودية 352
خامساً: الفرق اليهودية 356
سادساً: الكتب اليهودية 359
1 ـ العهد القديم 359
(أ) التوراة 360
(ب) أسفار الأنبياء 365
(جـ) الكتابات والأشعار 365
2 ـ المزامير «الزبور» 366
3 ـ التلمود 368
4 ـ الألواح 373
5 ـ القبالة 374
6 ـ الزوهر 375
7 ـ الأنبياء 375
1 ـ إبراهيم الخليل 375
2 ـ موسى نبي اليهود 378
8 ـ يهوه «إله التوراة» 384
9 ـ الوعدالتوراتي المزعوم 391
10 ـ من هو اليهودي؟ 394
11 ـ الصهيونية العنصرية 396
12 ـ عقدة الشعب المختار 406

الباب الرابع عشر: النصرانية:

1 ـ تمهيد 411
2 ـ المعتقدات المسيحية 412
3 ـ العبادات في المسيحية 416
4 ـ دعوة المسيح بدأت في المهد 418
5 ـ الثالوث المقدس 423
6 ـ انتشار الديانة المسيحية 426
7 ـ الاضطهاد المسيحي 428
8 ـ مريم العذراء 430
9 ـ المسيح رسول السلام 432
10 ـ رأي الإسلام في كلمة الله وروحه 437
11 ـ مقارنة بين المسيحية والديانات الأخرى 439
12 ـ الإنجيل المقدس «البشارة» 440
13 ـ الحواريون والرسل 448
14 ـ قصة التلميذ الشبيه بالمسيح 451
15 ـ الصليب الرمز 452
16 ـ صعود المسيح 453
17 ـ رأي الإسلام في صلب المسيح ورفعه 454
18 ـ يوم ميلاد المسيح 455

الباب الخامس عشر: الدين الإسلامي:

1 ـ الإسلام 457
2 ـ من تعاليم الإسلام 461
3 ـ أركان العقيدة الإسلامية 464
4 ـ مصادر التشريع الإسلامي 470
(أ) القرآن الكريم 470
نزول القرآن 471

جمع القرآن وترتيبه 474
فضل القرآن وقراءته 479
(ب) الحديث النبوي «السنة» 480
الحديث القدسي 484
(جـ) الإجماع 485
(د) القياس 485
5 ـ محمد عليه الصلاة والسلام 486
(أ) مولده 486
(ب) دور خديجة في حياته 487
(جـ) صفات الرسول وأخلاقه 488
(د) حجة الوداع 490
(هـ) مرض الرسول ووفاته 492
6 ـ الدعوة النبوية 493
7 ـ الهجرات في الإسلام 500
المصادر والمراجع 523

عالم الأديان

كتابٌ حافلٌ بالدراسات الدينية لمختلف الشعوب، منذ العبادة الطوطمية في فجر البشرية إلى الديانة الإسلامية خاتمة الأديان ...

كتابٌ شيّق، فيه متعةٌ وطرافةٌ، تجد بين دفتيه معلومات فريدة عن خلق الكون، وخلق البشر، وعن ديانات الشعوب الحضارية الأولى في بلاد الرافدين وسورية ووادي النيل وعند الهنود وأهل الصين وعند اليونان والرومان والفرس، وعند الشعوب البدائية من زنوج ومغول ... ويبحث في نماذج من طقوس العبادة عند أكلة لحوم البشر، وكيف يأكلون لحوم الإنسان ...

كتابٌ يبحثُ في دياناتِ السّماءِ ... ويُبيّن العقائدَ والعباداتَ فيها، ويبحثُ في الكتبِ المقدسةِ، المُنزَلَةِ وغيرِ المُنَزَّلَةِ، بدراسةٍ موثّقةٍ أمينةٍ ...

كتابٌ فيه معلوماتٍ وافيةٍ عن الأنبياءِ والرسلِ والحكماءِ وأصحابِ الأديانِ ...

الناشر

دار حطين